موسوعة الأخلاق

الجزء الأول

مقدمات في الأخلاق - الإحسان - الألفة

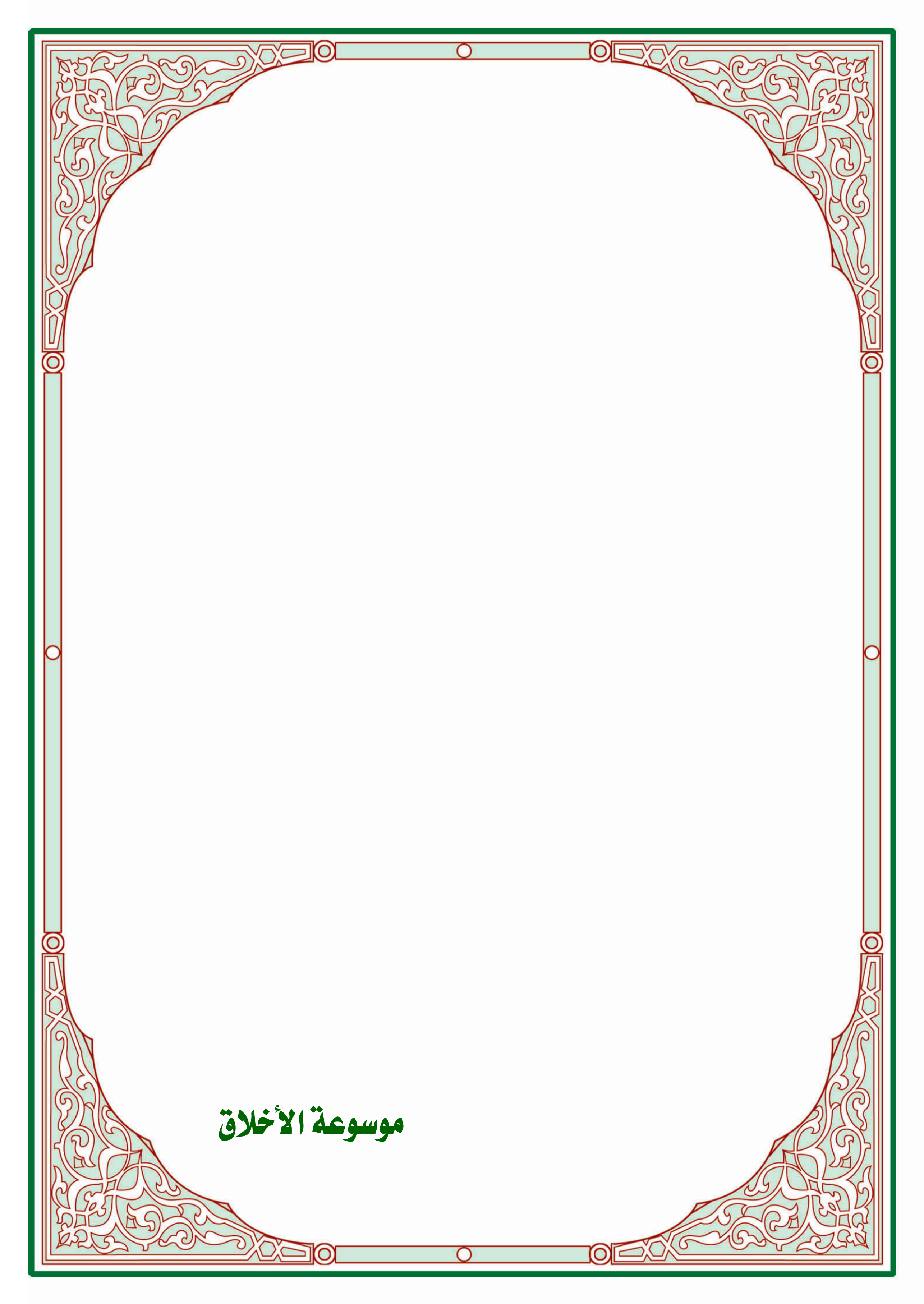
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السقاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الأول

مقدمات في الأخلاق الإسلامية - الإحسان - الألفة

إعداد

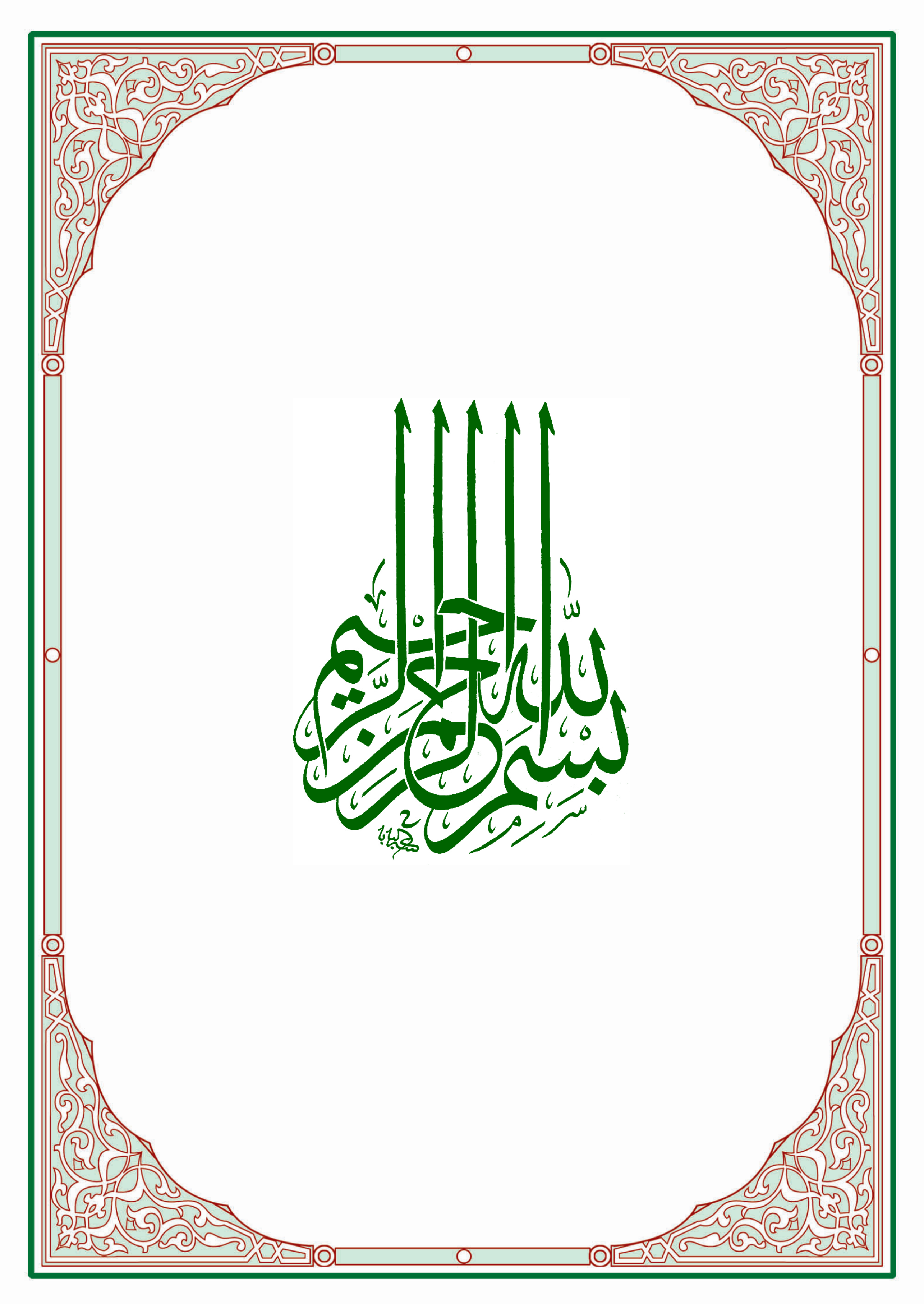
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المشرف

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضْلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد:

فإنَّ خيرَ الحديث كتاب الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلم، وشرَّ الأُمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة.

إنَّ الأمَّة الإسلاميَّة تمرُّ اليوم بأزمة أخلاق لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخها كلِّه، على مستوى المجتمع والأسرة والفرد، وما ذاك إلا بسبب بعدها عن دينها وعن كتاب ربها الذي وصف أفضل خلقه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلَّم بأنه ذو خُلُقٍ عظيم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ولبُعدها عن سُنَّة نبيها القائل فيما رواه البخاري ومسلم: ((إنَّ خياركم أحاسنكم أخلاقًا))، وفي رواية عند البخاري: ((إنَّ من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقًا)).

ومن هذا المنطلق ولما للأخلاق من أهميةٍ في حياة المسلم؛ في سلوكه وتعامله -لا سيما في عصرنا الحاضر- رأت مؤسسة الدرر السنية إصدار موسوعةٍ في الأخلاق، وهي واحدة من مجموعة من الموسوعات العلمية: في العقيدة، والحديث، والفقه، وسائر العلوم الشرعية، ونشر هذه الموسوعة على الموقع الإلكتروني للمؤسسة، ثم طبعها في كتابٍ يستفيد منه عامة الناس.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أشكر الله سبحانه وتعالى، الذي منَّ علينا بإنجاز هذا العمل، كما أشكر كلَّ من ساهم في ذلك، وأخصُّ منهم:

فريق البحث العلمي في المؤسسة، الذي قام بإعداد الموسوعة الإلكترونية، بجمع مادتها وتحريرها، ثم تهيئتها في كتاب مقروء.

كما أشكر الإخوة في قسم النشر والطباعة والتنسيق، الذين لم يألوا جهدًا، ولم يدَّخروا وسعًا لإخراج الكتاب بهذه الصورة.

وأخيرًا لا يفوتني أن أشكر مؤسسة فرحان ابن المبارك لخدمة المجتمع؛ لرعايتها لهذه الموسوعة، كما أشكر كلَّ من ساهم في طباعة هذا الكتاب ورقيًّا، ونشره إلكترونيًّا.

هذا، ونسأل الله تعالى أن يجزي الجميع خيرًا، وأن يعمَّ النفعُ بهذا الكتاب.

والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل

المشرف على إعداد الكتاب

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

saggaf@dorar.net

عملنا في الموسوعة

الحمدُ للهِ الحليمِ العليمِ، والصلاةُ والسلامُ على صاحبِ الخُلُقِ العظيم.

أمَّا بعد:

فقد سار العمل في هذه الموسوعة على النحو التالي:

- انتقاء أهمِّ الصفات المحمودة والمذمومة، وجمع المادَّة العلميَّة المتعلِّقة بها من مصادرَ كثيرةٍ ومتنوِّعة، نيَّفت على سبعمائة مصدر ومرجع.

- محاولة استيعاب الكلام عن كلِّ خلق من عدة جوانب، وذلك بذكر التعريفات اللغوية والاصطلاحية له، والاستشهاد من الكتاب والسنة وأقوال المفسرين وشراح الحديث، مع ذكر أقوال السلف والعلماء، والآثار المترتبة على التخلق به، وصوره، وأقسامه، وأسبابه، ووسائل تحصيله إن كان محمودًا، واجتنابه إن كان مذمومًا، ونماذج عملية من حياة الأنبياء والصحابة وغيرهم، مع فوائد منوَّعة، واختيارات من الأمثال، والحكم، والأشعار.

- عزو الآيات القرآنية، وكتابتها بالرسم العثماني، وتخريج الأحاديث النبوية، والحكم عليها من خلال أحكام المحدثين المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، مع التساهل أحيانًا في إيراد بعض الأحاديث التي فيها مقال؛ لأن المقام مقام ترغيب وترهيب.

- تخريج أقوال الصحابة وغيرهم من السلف دون الحكم عليها.

- ضبط الأشعار، والكلمات المُشكلة، وتفسير الكلمات الغريبة.

- توثيق النقولات والأقوال، وعزوها إلى مصادرها.

- عمل فهارس تفصيلية للموضوعات.

- احتوت الموسوعة على أكثر من مئة خُلُق من الأخلاق المحمودة والمذمومة.

وقد قُسِّمت إلى أربع مجلدات:

المجلدان الأول والثاني في الأخلاق المحمودة، يبدأ المجلد الأول بمقدمات مهمة عن الأخلاق الإسلامية: مفهومها، وفضائلها، وخصائصها، ووسائل تحصيلها، وغير ذلك، ثم بخُلُق الإحسان، وينتهي بخُلُق الشهامة. والمجلد الثاني: يبدأ بخُلُق الصبر، وينتهي بخُلُق الوقار.

وأما المجلدان الثالث والرابع ففي الأخلاق المذمومة، يبدأ الثالث بخُلُق الإساءة، وينتهي بخُلُق سوء الظن. والرابع يبدأ بخُلُق الشماتة، وينتهي بخُلُق اليأس والقنوط.

ونحن بهذا العمل لا ندعي الكمال، فما من عمل بشري إلا ويعتريه النقص والقصور، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونسأل الله أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم، وينفع به المسلمين.

فريق البحث العلمي بمؤسسة الدرر السنية

elmee@dorar.net

مُقَدِّمَات فِي الأَخْلَاق

مقدمات في الأخلاق

معنى الأخلاق لغة واصطلاحًا:

- **معنى الأخلاق لغة:**

الأخلاق جمع خلق، والخُلُق -بضمِّ اللام وسكونها- هو الدِّين والطبع والسجية والمروءة، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها[1]. وقال الرَّاغب: (والخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد... لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلْق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة)[2].

- **معنى الأخلاق اصطلاحًا:**

عرَّف الجرجاني الخلق بأنَّه: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا)[3].

وعرفه ابن مسكويه بقوله: (الخلق: حال للنفس، داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت

---

(١) ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ٨٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٨٦).

(٢) ((مفردات ألفاظ القرآن الكريم)) للراغب الأصفهاني (ص ٢٩٧).

(٣) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٠١).

يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمُّ ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالرويَّة والفكر، ثم يستمر أولًا فأولًا، حتى يصير ملكة وخلقًا)(١).

وقد عرف بعض الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن (مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي، لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه)(٢).

تعريف علم الأخلاق وموضوعه:

• تعريف علم الأخلاق:

عُرِّف علم الأخلاق بعدة تعريفات منها:

١- هو (علم: موضوعه أحكام قيمية تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن أو القبح)(٣).

٢-وقيل هو: (علم: يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضًا، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصد إليها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لما ينبغي)(٤).

---

(١) ((تهذيب الأخلاق)) لابن مسكويه (ص ٤١).

(٢) ((التربية الأخلاقية الإسلامية)) لمقداد يالجين (ص ٧٥) كما في ((نضرة النعيم)) لمجموعة باحثين (ص ٢٢).

(٣) ((المعجم الوسيط)) لمجموعة مؤلفين (١/٢٥٢).

(٤) ((كتاب الأخلاق)) لأحمد أمين (ص ٨).

موضوع الأخلاق:

(هو كلُّ ما يتصل بعمل المسلم ونشاطه، وما يتعلق بعلاقته بربه، وعلاقته مع نفسه، وعلاقته مع غيره من بني جنسه، وما يحيط به من حيوان وجماد)[1].

أهميَّة الأخلاق:

أولًا: الأخلاق الحسنة امتثال لأمر الله ورسوله

تضافرت النصوص من كتاب الله عز وجل على الأمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة، ونصت على الكثير منها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وكذلك نهت عن الأخلاق المذمومة ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٢٢).

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتثل أمر الله تعالى في كلِّ شأنه قولًا وعملًا، ويأتمر بكلِّ أخلاق حسنة ورد الأمر بها في القرآن، وينتهي عن كلِّ أخلاق سيئة ورد النهي عنها في القرآن؛ لذا كان خلقه القرآن. وأيضًا فإن الالتزام بالأخلاق الحسنة امتثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فهو الذي يأمر بها ويحض عليها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن))[1].

ثانيًا: الأخلاق الحسنة أحد مقومات شخصية المسلم

فـ(الإنسان جسد وروح، ظاهر وباطن، والأخلاق الإسلامية تمثل صورة الإنسان الباطنة، والتي محلُّها القلب، وهذه الصورة الباطنة هي قوام شخصية الإنسان المسلم، فالإنسان لا يقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق، يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقول صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[2] ويقول صلى الله عليه وسلم أيضًا: ((لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجُعَل[3] الذي يُدَهْدِه[4] الخِراء

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/١٥٣) (٢١٣٩٢). قال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٢٧٧).

(٤) يدهده: يدحرج ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/١٤٣).

بأنفه، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة[(١)] الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب)) [(٢)])[(٣)].

ثالثًا: الارتباط الوثيق بين الأخلاق والدين الإسلامي عقيدة وشريعة

إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة وثيق جدًّا، لذا فكثيرًا ما يربط الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح، الذي تعدُّ الأخلاق الحسنة أحد أركانه، فالعقيدة دون خُلُق، شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، أما عن ارتباط الأخلاق بالشريعة، فإن الشريعة منها عبادات، ومنها معاملات، والعبادات تثمر الأخلاق الحسنة ولا بد، إذا ما أقامها المسلم على الوجه الأكمل، لذا قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأما صلة الأخلاق بالمعاملات، فإنَّ المعاملات كلَّها قائمة على الأخلاق الحسنة في أقوال المسلم وأفعاله، والمتأمل لتعاليم الإسلام يرى هذا واضحا جليًّا.

رابعًا: آثارها في سلوك الفرد والمجتمع

(تظهر أهمية الأخلاقية الإسلامية لما لها من أثر في سلوك الفرد، وفي سلوك المجتمع.

أما أثرها في سلوك الفرد فلما تزرعه في نفس صاحبها من الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعفة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع.. وغير ذلك من القيم والأخلاق السامية، فالأخلاق بالنسبة للفرد

---

(١) عبية: يعني الكبر ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/١٦٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٩٥٥) واللفظ له، وأحمد (٢/٣٦١) (٨٧٢١). وحسنه الترمذي، وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤٤٩٦)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٤٨٢).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد المرسي (ص ٢٤).

هي أساس الفلاح والنجاح، يقول تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، ويقول سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، والتزكية في مدلولها ومعناها: تعني: تهذيب النفس باطنًا وظاهرًا، في حركاته وسكناته[1].

وأما أثرها في سلوك المجتمع كلِّه، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلامية كانت أو غير إسلامية، يقرر ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

فالعمل الصالح المدعم بالتواصي بالحقِّ، والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والتحديات من شأنه أن يبني مجتمعًا محصنًا لا تنال منه عوامل التردي والانحطاط، وليس ابتلاء الأمم والحضارات كامنًا في ضعف إمكاناتها المادية أو منجزاتها العلميَّة، إنما في قيمتها الخلقية التي تسودها وتتحلى بها)[2].

خامسًا: مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية

(إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالًا أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى؛ فإنَّه لابد لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل التقادير.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات،

---

(١) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص ١٥).

(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد المرسي (ص ٢٦).

ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

من الممكن أن تتخيل مجتمعًا من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟!

كيف تكون الثقة بالعلوم، والمعارف، والأخبار، وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!

كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي، والتعاون، والمحبة، والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشَّجَاعَة في ردِّ عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟!

كيف يكون الإنسان مؤهلًا لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه، صارفة له عن كلِّ عطاء وتضحية وإيثار؟

لقد دلَّت التجربات الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأنَّ انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائمًا، صاعدين وهابطين.

وذلك لأنَّ الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكانًا تنعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأسًا فيما بينها، مضافًا إلى قوة عدوها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم، فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشدُّ المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي)[١].

سادسًا: أهميَّة الأخلاق في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ

(الذي يظنُّ أنَّ الناس يدخلون في الدين فقط؛ لأنهم يقتنعون عقليًّا فقط، لا شك أنه مخطئ... وكثير من الناس يدخلون في الدين؛ لأنهم يرون أنَّ أهل هذا الدين على خلق، وأن الدعاة إلى الله عندهم أخلاق، والشواهد في هذا الباب كثيرة... فالاستقامة على الأخلاق لها أثر كبير، ونفعها بليغ، ولا أدلَّ على ذلك مما جاء في السيرة النبوية من أنَّ أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم كانت محل إعجاب المشركين قبل البعثة، حتى شهدوا له بالصدق والأمانة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))[٢].

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨)، واللفظ له.

وقد بدأ انعكاس الصور السلوكية الرائعة في تأثيرها في انتشار هذا الدين في بعض المناطق التي لم يصلها الفتح؛ إذ دخل في هذا الدين الحنيف شعوب بكاملها لما رأوا القدوة الحسنة مرتسمة خلقًا حميدًا في أشخاص مسلمين صالحين، مارسوا سلوكهم الرشيد، فكانوا كحامل مصباح ينير طريقه لنفسه بمصباحه، فيرى الآخرون ذلك النور ويرون به، وليس أجمل منه في قلب الظلام، وبناء على ذلك الإقبال سريعًا دون دافع سوى القدوة الحسنة، فَرُبَّ صفة واحدة مما يأمر بها الدين تترجم حية على يد مسلم صالح يكون لها أثر لا يمكن مقارنته بنتائج الوعظ المباشر؛ لأن النفوس قد تنفر من الكلام الذي تتصور أنَّ للناطق به مصلحة، وأحسن من تلك الصفات التمسك بالأخلاق الحميدة التي هي أول ما يرى من الإنسان المسلم، ومن خلالها يحكم له أو عليه...)[(١)].

سابعًا: أهمية الأخلاق في إضفاء السعادة على الأفراد والمجتمعات

لا شك أنَّ السعادة كلَّ السعادة في الإيمان بالله والعمل الصالح، وعلى قدر امتثال المسلم لتعاليم الإسلام في سلوكه وأخلاقه تكون سعادته، فـ(التزام قواعد الأخلاق الإسلامية كفيل بتحقيق أكبر نسبة من... السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ثم لسائر الشركاء في الحياة على هذه الأرض وذلك بطريقة بارعة جدًّا؛ يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى، ويتم فيها إعطاء كل ذي حق حقه، أو قسطًا من حقه وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المحفوف بالحق والعدل.

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٣٩) (بتصرف).

فمن الواضح في هذا العنصر أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها، ولم تهمل ابتغاء سعادة الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها.

وروعة الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام، تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر فيما تحققه من وحدات السعادة الجزئية في ظروف الحياة الدنيا، بقدر ما تسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة، التي تشمل جميع العاملين، مؤمنين بالله أو كافرين، أخلصوا له النية أو لم يخلصوا)[(١)].

فضائل الأخلاق الحسنة:

١- الأخلاق الحسنة من أسباب دخول الجنة:

قال صلى الله عليه وسلم: ((أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه))[(٢)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج))[(٣)].

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (١/٨٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، والطبراني في ((الكبير)) (٨/٩٨)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٠/٤٢٠) (٢١١٧٦). وصححه النووي في ((رياض الصالحين)) (ص ٢١٦)، وحسنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٦٤٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وأحمد (٢/٤٤٢) (٩٦٩٤)، وابن حبان (٢/٢٢٤). قال الترمذي: صحيح غريب. وحسنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٦٤٢).

٢- الأخلاق الحسنة سبب في محبة الله لعبده:

وقد ذكر الله تعالى محبته لمن يتخلق بالأخلاق الحسنة، والتي منها الصبر والإحسان والعدل وغير ذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال أيضًا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا))[(١)].

٣- الأخلاق الحسنة من أسباب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا))[(٢)].

٤- مكارم الأخلاق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة:

قال صلى الله عليه وسلم: ((ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق))[(٣)].

٥- الأخلاق الحسنة تضاعف الأجر والثواب:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار))[(٤)].

---

(١) رواه الحاكم (٤/٤٤١)، والطبراني في ((الكبير)) (١/١٨١). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/٢٧): رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٦/٩): رواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وحسَّن إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧٩١).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٢)، وابن حبان (١٢/٥٠٦). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦٢٨).

(٤) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/١٨٧) (٢٥٥٨٧)، والحاكم (١/١٢٨). وقال: صحيح =

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله عزَّ وجلَّ لكرم ضريبته[١] وحسن خلقه))[٢].

٦- الأخلاق الحسنة من خير أعمال العباد:

قال صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا ذرٍّ، ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فو الذي نفس محمد بيده، ما عمل الخلائق بمثلهما))[٣].

٧- الأخلاق الحسنة تزيد في الأعمار وتُعَمِّر الديار:

قال صلى الله عليه وسلم:((حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار))[٤].

٨- الأخلاق الحسنة علامة على كمال الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم))[٥].

= على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٢٠).

(١) لكرم ضريبته: طبيعته وسجيته. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/٨٠).

(٢) رواه أحمد (٢/١٧٧) (٦٦٤٨)، والطبراني في ((الكبير)) (١٣/٥٨). قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤٠٠٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورواة أحمد ثقات إلا ابن لهيعة. وقال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/٢٥): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه البزار (١٣/٣٥٩)، وأبو يعلى (٦/٥٣)، والطبراني في ((الأوسط)) (٧/١٤٠). وجوَّد إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٢٧٤)، وقال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/٢٢): رجاله ثقات. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٦/١٨): هذا إسناد رجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد (٦/١٥٩) (٢٥٢٩٨)، وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥١٩).

(٥) رواه الترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/٢٥٠) (٧٣٩٦). قال الترمذي: حسن صحيح. =

وفي حديث عمرو بن عبسة أنَّه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: ((حسن الخلق))[١].

مصادر الأخلاق الإسلامية:

يمكن أن نجمل مصادر الأخلاق الإسلامية في مصدرين رئيسين، هما أعظم ما تُستمدُّ منه هذه الأخلاق؛ كتاب الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم الصحيحة:

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للأخلاق، والآيات التي تضمنَّت الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن مساوئها كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] إلى غير ذلك.

ويدلنا على أصالة هذا المصدر أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وصفه الله عز وجل بالخلق العظيم تصفه عائشة رضي الله عنها بقولها: ((كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن))[٢]. ومعنى ذلك كما يقول ابن

= وصححه الحاكم (١/٤٣)، قال الهيثمي في ((المجمع)) (٤/٣٠٦): رواه أحمد، وفيه محمد ابن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) رواه أحمد (٤/٣٨٥) (١٩٤٥٤)، والخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (ص ٣٠). قال الهيثمي في ((المجمع)) (١/٥٧): في إسناده شهر بن حوشب، وقد وثق على ضعف فيه.

(٢) رواه مسلم (٧٤٦).

كثير: (أنَّه قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خلقًا له وسجية، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين)[1].

والمصدر الثاني السنة النبوية: والمراد من السنة ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال، وتقريرات، وتعتبر السنة النبوية الصحيحة هي المصدر الثاني للأخلاق، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))[2]. قال إبراهيم الحربي: (ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمسك به)[3].

(ولذا حرص الصحابة رضوان الله عليهم واهتموا اهتمامًا كبيرًا، وتخلقوا بالأخلاق الحسنة مستندين في ذلك إلى ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهم قدوتنا وسلفنا الصالح في الأخلاق)[4].

---

(١) ((الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم)) لابن كثير (ص ٢٦٤).

(٢) رواه أحمد (٢/٣٨١) (٨٩٣٩)، والحاكم (٢/٦٧٠)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٣). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٩١): رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٧/٦٩): صحيح على شرط مسلم.

(٣) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/١٤٢).

(٤) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٣١).

أقسام الأخلاق:

أولًا: أقسام الأخلاق باعتبارها فطرية أو مكتسبة

الأخلاق تنقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين: أخلاق فطرية، وأخلاق مكتسبة.

فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ بداية نشأتهم، والبعض الآخر من أخلاقهم مكتسب من البيئة، ومن تتابع الخبرات والتجارب وكثرتها ونحو ذلك. والأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل؛ لأنَّ وجود الأخلاق الفطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميتها بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات، والاستعداد الفطري لتقويمها وتعديلها وتهذيبها.

(إننا نجد مثلًا الخوف الفطري عند بعض الناس أشدَّ منه عند فريق آخر، ونجد الطمع الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقًا من الناس مفطورًا على سرعة الغضب، بينما نجد فريقًا آخر مفطورًا على نسبة ما من الحلم والأناة وبطء الغضب، ونجد حبَّ التملك الفطري عند بعض الناس أقوى منه عند بعض آخر.

هذه المتفاوتات نلاحظها حتى في الأطفال الصغار الذين لم تؤثر البيئة في تكوينهم النفسي بعد.

وقد جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها:

منها: قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي: ((إنَّ بني آدم خلقوا على طبقات شتى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء[1]،

---

(١) سريع الفيء: سريع الرجوع ((لسان العرب)) لابن منظور (١/١٢٥).

والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء))(١).

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا))(٢).

ومنها: ما رواه أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب))(٣).

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((الناس معادن)) دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقًا، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله. فإذا نظرنا إلى مجموعة من الناس غير متعلمة ولا مهذبة، أو في وسط مجتمع جاهلي، فإنَّه لابد أن يمتاز في نظرنا من بينهم

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩١)، وأحمد (٣/١٩) (١١١٥٩). وحسَّنه الترمذي، وضعفه الألباني في ((ضعيف الجامع)) (١٢٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٦٣٨) واللفظ له.

(٣) رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وأحمد (٤/٤٠٠) (١٩٥٩٧). قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٧٥٩).

أحاسنهم أخلاقًا، فهم خيرهم معدنًا، وأفضلهم سلوكًا اجتماعيًا، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها فعلمناها وهذبناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامَّة لنرى من هو أفضلهم، فلابد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقًا، لأنَّ العلم والتهذيب والإيمان تمدُّ من كان ذا خلق حسن في أصل فطرته، فتزيده حسن خلق واستقامة سلوك وتزيده فضلًا، ثم إذا جاء الفقه في الدين كان ارتقاء هؤلاء فيما فضلوا به ارتقاء يجعلهم هم السابقين على من سواهم لا محالة، وبذلك تكون فروق النسبة لصالحهم فضلًا وكرمًا.

ومنها: ما رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم))[١].)[٢].

ثانيًا: أقسام الأخلاق باعتبار علاقاتها

تنقسم الأخلاق باعتبار علاقاتها إلى أربعة أقسام:

(**القسم الأول**: ما يتعلق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه... والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعًا كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان به؛ لأنَّه حق، ومنها الاعتراف له بكمال

---

(١) رواه أحمد (٣٨٧/١) (٣٦٧٢)، والحاكم (٨٨/١). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٥٦/١): رواه أحمد، ورجال إسناده بعضهم مستور، وأكثرهم ثقات. وضعفه الألباني في ((ضعيف الجامع)) (١٦٢٥)، ورواه موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٥)، والطبراني (٢٠٣/٩) (٨٩٩٠)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٦٥/٤).
وثق رواته المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣٥٧/٢) وقال: وليس في أصله رفعه، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩٣/١٠): رواه الطبراني موقوفًا ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٢٧٥) وقال: في حكم المرفوع.
(٢) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حسن حبنكة (١٦٧/١).

الصفات، والأفعال، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به؛ لأنَّ من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به؛ لأنَّه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء.

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتمًا دواع تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق...

القسم الثاني: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضًا معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقِّه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة: منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكلُّ ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان لنفسه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته.

وصور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد.

القسم الرابع: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة.

ويكفي أن تتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. أما الظلم والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر: ((عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[١]))[٢]...

ولابد من ملاحظة أنَّ كثيرًا من الأخلاق لها عدد من الارتباطات والتعلقات، ولذلك فقد تدخل في عدد من هذه الأقسام في وقت واحد، إذ قد تكون لفائدة الإنسان نفسه، وتكون في نفس الوقت لفائدة الآخرين، وتكون مع ذلك محققة مرضاة الله تعالى)[٣].

(١) خشاش الأرض: هوامها وحشراتها ((شرح النووي على مسلم)) (٦/٢٠٧).
(٢) رواه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) اللفظ للبخاري.
(٣) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٥٢) (بتصرف).

خصائص الأخلاق الإسلامية[١]:

أولًا: الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر

الأخلاق الإسلامية مصدرها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا مدخل فيها للآراء البشرية، أو النظم الوضعية، أو الأفكار الفلسفية.

ولذا اتسمت الأخلاق الإسلامية بسمة الخلود والصدق والصحة.

ثانيًا: الشمول والتكامل

من خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها شاملة، ومتكاملة، وهي خاصية منبثقة من الخاصية الأولى، وهي الربانية، وذلك لأنها تراعي الإنسان، والمجتمع الذي يعيش فيه، وأهداف حياته طبقا للتصور الإسلامي، تحدد أهداف الحياة وغايتها وما وراءها، وتشمل كافة مناشط الإنسان وتوجهاته، وتستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي أيضًا لا تقف عند حدِّ الحياة الدنيا.

ثالثًا: الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان

لما كانت الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، كانت صالحة لجميع الناس في كلِّ زمان، وفي أيِّ مكان، نظرًا لما تتميز به من خصائص، فلا يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان؛ لأنها ليست نتاجًا بشريًّا، بل هي وحي من الله تعالى لنبيه.

رابعًا: الإقناع العقلي والوجداني

تشريعات الإسلام توافق العقول الصحيحة، وتتوائم مع الفطر السليمة، وتحصل القناعة الكاملة والانسجام التام مع ما أتت به الشريعة الإسلامية من نظم أخلاقية.

---

(١) انظر: ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد المرسي (٥٣-٦٢)، ((نضرة النعيم)) (١/ ٨١).

فالأخلاق الإسلامية بها يقنع العقل السليم، ويرضى بها القلب، فيجد الإنسان ارتياحًا واطمئنانًا تجاه الحسن من الأخلاق، ويجد نفرة وقلقًا تجاه السيئ من الأخلاق.

خامسًا: المسؤولية

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسؤولًا عما يصدر منه في كلِّ جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسؤولية مسؤولية شخصية، أم مسؤولية جماعية، ولا تجعله اتكاليًّا لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء.

ونعني بالمسؤولية الشخصية: أن الإنسان مسؤول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ [النساء: ١١١].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدره منه عنه نفسه. ويقول صلى الله عليه وسلم: ((... وإنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم))[1]، يقول ابن حجر في شرح الحديث: (لا يلقي لها بالًا: أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئًا)[2]، فقبل أن تخرج الكلمة من فيك،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٢) ((فتح الباري)) (١١/٣١١).

أعط نفسك فرصة للتفكير، هل ما ستقوله يرضي الله أم يغضبه؟ هل تكون عاقبته خيرًا أم شرًّا؟ وطالما لم تخرج فأنت مالكها، فإذا خرجت كنت أسيرها، وإذا كان هذا في الكلام ففي سائر التصرفات من باب أولى.

ونعني بالمسؤولية العامة (الجماعية): تلك المسؤولية التي تراعي الصالح العام للناس، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلًا... أو سلبيًّا بل عليه أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان))[(١)].

سادسًا: العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معًا

أخلاقنا الإسلامية لا تكتفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتدُّ الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذًا بالنية، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[(٢)]، ... والنية هي مدار التكليف، وعلى ذلك فالإسلام يراعي نية الإنسان في الحكم على عمله الظاهر.

سابعًا: الرقابة الدينية

الرقابة: تعني مراقبة المسلم لجانب مولاه سبحانه في جميع أمور الحياة.

وعلى هذا فإنَّ الرقابة في أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقلُّ والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابة خارجية من الغير تتمثل في رقابة السلطة، والأفراد.

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) رواه البخاري (١).

أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية في المقام الأول، وهي رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومن إيقاظ الضمير، فإذا كان المسلم يعلم أنَّ الله معه، وأنَّه مطلع على حركاته وسكناته، فإنَّه يكون رقيبًا على نفسه، ولا يحتاج إلى رقابة الغير عليه، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، فإذا قرأ المسلم هذه الآيات، وعرف معناها فإنَّه حينئذ يتيقن أنَّه إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنَّه لن يتمكن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حدِّ ذاته أكبر ضمان لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة.

ثامنًا: الأخلاق الإسلامية ترتبط بالجزاء الدنيوي والأخروي

أخلاق الإسلام ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة، لذا وُجد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

فالأخيار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة: ومن ذلك ما أعده الله لهم في الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وكذلك ما وعدهم الله به في الدنيا من الجزاء العاجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣]، وقال أيضًا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وأما الأشرار من الناس فقد توعدهم الله عزَّ وجلَّ كما في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وأما جزاؤهم في الدنيا فمثاله قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

اكتساب الأخلاق:

(لدينا حقيقة ثابتة لابد من ملاحظتها في مجال كلِّ تكليف رباني: هي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته، فليس عليه مسؤولية نحوه، يضاف إلى ذلك أنَّ نسبة المسؤولية تتناسب طردًا وعكسًا مع مقدار الاستطاعة...

فما كان من الطباع الفطرية قابلًا للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته، كان خاضعًا للمسؤولية، وداخلًا في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلًا للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية.

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كلِّ إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍّ ما من الفضائل الأخلاقية؛ لما كلفه الله ذلك.

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍّ ما من كلِّ فضيلة خلقية بعيدًا

عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه... ما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسؤوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إنَّ أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

وإن أشد الناس بخلًا وأنانية وحبًّا للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب القدر الواجب شرعًا منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من خلق الشَّجاعَة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشَّجاعَة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعًا، وضمن الحدود التي هو مسؤول فيها.

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي.

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلًّا منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أنَّ بعض الناس كان محرومًا من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإنَّ التكليف لا يتوجه إليه أصلًا، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته)[1].

وسائل اكتساب الأخلاق:

١- تصحيح العقيدة:

إن العقيدة تنعكس ولا بد على أخلاق معتقدها، فالطريق لتصحيح الأخلاق هو تصحيح العقيدة (فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين، والانحراف في السلوك ناتج عن خلل في المعتقد، فالعقيدة هي السنة، وهي الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول، ويلحق بها مما هو من أصول الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا؛ فإذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعًا لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة (عقيدة السلف) عقيدة أهل السنة والجماعة التي تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين أحسنهم خلقًا،

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حسن حبنكة (١٧٩/١) (بتصرف).

وخياركم خياركم لنسائهم))[١]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وإنَّ حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة))[٢].)[٣].

٢- العبادات:

إنَّ (العبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركانًا في الإيمان به ليست طقوسًا مبهمة في النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها، كلا، كلا، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكًا بهذه الأخلاق، مهما تغيرت أمامه الحياة.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة، يكشفان -بوضوح- عن هذه الحقائق.

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالابتعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة...

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي -أولًا- غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/٢٥٠) (٧٣٩٦). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الحاكم (١/٤٣)، قال الهيثمي في ((المجمع)) (٤/٣٠٦): رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه البزار (١٤/٣١)، وأبو يعلى (٧/١٨٤). قال الهيثمي في ((المجمع)) (١/٦١): رجاله ثقات. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٦/١٩): إسناده رواته ثقات.

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٥٨).

وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فتنظيف النفس من أدران النقص، والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى.

وكذلك شرع الإسلام الصوم، فلم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائمًا من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة.

وإقرارًا لهذا المعنى قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((من لم يدع قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)) [(١)].

وقد يحسب الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة – الذي كلف به المستطيع واعتبر من فرائض الإسلام على بعض أتباعه – يحسب الإنسان هذا السفر رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، ومثلًا لما قد تحتويه الأديان أحيانًا من تعبدات غيبية. وهذا خطأ، إذ يقول الله تعالى -في الحديث عن هذه الشعيرة-: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الحج: ١٩٧].)[(٢)].

٣- الارتباط بالقرآن الكريم:

لا شك أن القرآن كتاب هداية ومنهج حياة، ولا شك أن الارتباط به

(١) رواه البخاري (١٩٠٣).

(٢) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص ٩).

قراءة وتدبرًا وعملًا من أعظم الوسائل لتحقيق الهداية والحياة الكريمة والأخلاق الفاضلة قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قال ابن كثير: (﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: محصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقون الموقنين)[١].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال السعدي: (يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم)[٢].

وقال الشنقيطي: (هذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدي إلى خير طريق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على

(١) ((تفسير ابن كثير)) (٤/٢١٠).
(٢) ((تفسير الكريم المنان)) (ص ٧٠٨).

وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة)[١].

وكم في هذا الكتاب العظيم من توجيه وهداية، فقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فالقرآن الكريم اشتمل على الأمثال والقصص والعبر هداية لخيري الدنيا والآخرة.

أ- الأمثال القرآنية:

الأمثال القرآنية من أفضل الوسائل لغرس القيم الإسلامية وتهذيب النفوس والأفكار، وتغيير السلوك والاعتبار، ومن خلالها يعيد المرء ترتيب نفسه بالتفكير والإمعان، والعمل على إصلاح النفس وتربيتها.

ب- القصص القرآني:

للقصص القرآني أثر بالغ في نفس القارئ والسامع، تهفو لها النفوس، وتطمئنُّ بها القلوب، وتسمو بها الأرواح، فيها من السحر الأخَّاذ للسمع والفؤاد، وفيها من الفوائد والعبر والدروس والإرشاد والدلالات لمن أمعن النظر، وألقى السمع وهو شهيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٢-٣])[٢].

٤- التدريب العملي والرياضة النفسية:

(إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية ولو مع التكلف في أول الأمر،

(١) ((أضواء البيان)) (٣/٤٠٩).

(٢) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (١٣٣-١١٦).

وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر.

والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمرًا محببًا، وحين تتمكن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقًا مكتسبًا، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمرًا موجودًا.

وقد عرفنا أنَّ في النفس الإنسانية استعدادًا فطريًّا لاكتساب مقدار ما من كلِّ فضيلة خلقية، وبمقدار ما لدى الإنسان من هذا الاستعداد تكون مسؤوليته، ولو لم يكن لدى النفوس الإنسانية هذا الاستعداد لكان من العبث اتخاذ أية محاولة لتقويم أخلاق الناس. والقواعد التربوية المستمدة من الواقع التجريبي تثبت وجود هذا الاستعداد، واعتمادًا عليه يعمل المربون على تهذيب أخلاق الأجيال التي يشرفون على تربيتها، وقد ورد في الأثر: (العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم).

وثبت أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله))[1].

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده:

((ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)).

(١) رواه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣)، واللفظ له.

وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلًا دلَّ فيه على أنَّ التدريب العملي ولو مع التكلف يكسب العادة الخلقية، حتى يصير الإنسان معطاء غير بخيل، ولو لم يكن كذلك أول الأمر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان[1] من حديد من ثديهما إلى تراقيهما[2]، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع))[3].

فدلَّ هذا الحديث على أن المنفق والبخيل كانا في أول الأمر متساويين في مقدار الدرعين.

أما المنافق فقد ربت درعه بالإنفاق حتى غطت جسمه كلِّه، بخلاف البخيل الذي لم يدرب نفسه على الإنفاق، فإن نفسه تكز، والله يضيق عليه من وراء ذلك، فيكون البخل خلقًا متمكنًا من نفسه مسيطرًا عليها.

ومن ذلك نفهم أمرين: فطرية الخلق، وقابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي، إنَّ المنفق كان أول الأمر كالبخيل يشبهان لابسي درعين من حديد متساويين ويبدو أن الدرع مثال لما يضغط على الصدر عند إرادة النفقة، فمن يتدرب على البذل تنفتح نفسه كما يتسع الدرع فلا يكون له ضغط، وأما من

---

(١) جنتان من حديد: أي درعان. انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠٨/٧).

(٢) تراقيهما: التراقي جمع ترقوة، والترقوتان هما العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق. انظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٣٠٨/٨).

(٣) رواه البخاري (١٤٤٣).

يعتاد الإمساك فيشتد ضاغط البخل على صدره، فهو يحس بالضيق الشديد كلما أراد البذل، ومع مرور الزمن يتصلب هذا الضاغط.

واعتمادًا على وجود الاستعداد الفطري لاكتساب الخلق، وردت الأوامر الدينية بفضائل الأخلاق، ووردت النواهي الدينية عن رذائل الأخلاق.

ولكن من الملاحظ أنه قد يبدأ التخلق بخلق ما عملًا شاقًّا على النفس، إذا لم يكن في أصل طبيعتها الفطرية، ولكنه بتدريب النفس عليه، وبالتمرس والمران، يصبح سجية ثابتة، يندفع الإنسان إلى ممارسة ظواهرها اندفاعًا ذاتيًّا، دون أن يجد أية مشقة أو معارضة أو عقبة من داخل نفسه، ولئن وجد شيئًا من ذلك فإنَّ دافع الخلق المكتسب يظلُّ هو الدافع الأغلب، بشرط أن يكون التخلق قد تحول فعلًا إلى خلق مكتسب.

وليس التدريب النفسي ببعيد الشبه عن التدريب الجسدي، الذي يكتسب به المهارات العملية الجسدية)[1].

٥- التفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق:

(على المرء أن يستذكر دائمًا ويحتسب ثواب حسن الخلق.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البِرِّ والإثم؟ فقال: ((البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس))[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/١٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣).

((أثقل شيء في الميزان حسن الخلق))[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وإنَّ حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة)).

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: ((صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار، يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار))[٢].[٣].

٦- النظر في عواقب سوء الخلق:

(وذلك بتأمل ما يجلبه سوء الخلق من الأسف الدائم، والهمِّ الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق؛ فذلك يدعو المرء إلى أن يقصر عن مساوئ الأخلاق، وينبعث إلى محاسنها.

قال ابن القيم: (ومن عقوباتها [أي المعاصي وسوء الأخلاق] سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإنَّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبقَ له جاه عند الخلق، وهان عليهم عاملوه، على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر، ساقط القدر، زري الحال، لا حرمة له، فلا فرح له، ولا سرور، فإنَّ خمول الذكر وسقوط القدر والجاه، يجلب كلَّ غمٍّ وهمٍّ وحزن، ولا سرور

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٢)، وابن حبان (٥٠٦/١٢). قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦٢٨).

(٢) رواه أحمد (١٥٩/٦) (٢٥٢٩٨). وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥١٩).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٦٩).

معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية. ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي له قدره)[١].

...وليس هذا فحسب، بل تأمل ما يقول ابن القيم أيضًا: (ومن عقوباتها: أنَّها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضي ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والسارق، والكاذب، والخائن، والغادر وأمثالها)[٢].

وتأمل عاقبة هذه المرأة التي كانت تصوم النهار وتقوم الليل، ولكنها سيئة الخلق في معاملتها مع جيرانها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ((إنَّ فلانة تقوم الليل وتصوم النَّهار، وتفعل وتصَّدَّق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير فيها، هي من أهل النار. قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة وتَصَّدَّق بأثوار (قطع من الأقط، وهو لبن جامد) ولا تؤذي أحدًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي من أهل الجنة))[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا، وإنَّ

---

(١) ((الجواب الكافي)) (ص ١٢٦).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) رواه أحمد (٢/٤٤٠) (٩٦٧٣)، وابن حبان (١٣/٧٦)، والحاكم (٤/١٨٤). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/١٧٢): رجاله ثقات. وصحح إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٥/٤٩٠).

من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون[(١)])).[(٢)]

٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق:

(القرآن الكريم يوصي ويفرض ضرورة التذكير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والصبر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإنَّ التذكير والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والتواصي من أساليب التربية الإسلامية التي بدت خلال أحاديث المربي الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي طريقة التواصي دعوة كل مسلم إلى أن يكون مربيًا يعلم أخاه المسلم، والتذكير بالخير والحق، والدعوة إليهما، والتنبيه إلى الشر والضرر والنهي عنهما، هو من صميم الأساليب التربوية الإسلامية لتنمية القيم والأخلاق الإسلامية في نفس المسلم، وفي الحديث الشريف أن أبا ذر لما بلغه مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: ((رأيته يأمر بمكارم الأخلاق))[(٣)].)[(٤)].

٨- علو الهمة:

(قال صاحب المنازل:

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وحسن إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧٩١).

(٢) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٠).

(٣) رواه مسلم (٢٤٧٤).

(٤) ((نضرة النعيم)) (١/١٤٠).

الهمة: ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا، ولا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها.

والمراد: أنَّ همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا، فتلك هي الهمة العالية التي لا يتمالك صاحبها، أي لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه، ما لم تعقه العوائق، وتقطعه العلائق، والله أعلم. اهـ.

قلت: فعلو الهمة يستلزم الجد، والترفع عن الدنايا، ومحقرات الأمور.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفسافها))[1].

وسفسافها: أي حقيرها ورديئها، وشرف النفس أن يصونها عن الدنايا، والهمة العالية لا تزال بصاحبها تزجره عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل، حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض، إلى أعلى مقامات المجد، والسؤدد.

قال ابن القيم في ((الفوائد)): فمن علت همته، وخشعت نفسه؛ اتصف بكلِّ خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه؛ اتصف بكلِّ خلق رذيل.

وقال أيضًا: فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضلها،

(١) رواه الطبراني (١٨١/٦) (٥٩٢٨)، والحاكم (١١٢/١) واللفظ له، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢٥٥/٣)، والبيهقي (١٩١/١٠) (٢١٣٠٠). قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٤٣٩/٢)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٩١/٨): رجاله ثقات، وصحح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٣٧٨).

وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفوس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك.

فإذا حرص المرء على اكتساب الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، نال مكارم الأخلاق)[١].

٩- الصبر:

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشَّجَاعَة، والعدل)[٢].

وقال: (وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: صبر الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأنَّ صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق.

الثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية. صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها.. أين ما توجهت ركائبها)[٣].

وقال الماوردي: (وليس لمن قلَّ صبره على طاعة الله تعالى حظ من برٍّ، ولا

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٢).
(٢) ((مدارج السالكين)) (٢/٢٩٤).
(٣) ((المصدر السابق)) (٢/١٥٦).

نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبرًا، يكسبها ثوابًا، ويدفع عنها عقابًا، كان مع سوء الاختيار بعيدًا من الرشاد، حقيقًا بالضلال)[١].

(وعلى العاقل احتساب الأجر عند الله عزَّ وجلَّ، فهذا الأمر من أعظم ما يعين على اكتساب الأخلاق الفاضلة، وتحمل أذى الناس؛ فإذا أيقن المسلم أنَّ الله سيجزيه على حسن خلقه ومجاهدته؛ سيهون عليه ما يلقاه في ذلك السبيل؛ قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢])[٢].

١٠- الموعظة والنصح:

(التربية بالوعظ، لها دورها الهام في غرس القيم الإسلامية بميادينها المختلفة، وهي قد تكون في صورة مباشرة على شكل نصائح، فالإنسان قد يصغي ويرغب في سماع النصح من محبيه وناصحيه، فالنصح والوعظ يصبح في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب)[٣].

والقرآن الكريم زاخر بالمواعظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [النساء: ٥٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل))[٤].

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ٤٥٤).

(٢) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٦).

(٣) ((نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي)) لمحمد فاضل الجمالي (ص ١١١).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/٣٣٤) (٨٣٩٨) واللَّفظ له، =

والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة؛ مما يؤثر في تغيير سلوك الفرد وإكسابه الصفات المرغوب فيها، وكمال الخلق: عن ابن عباس قال: ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال، فظنَّ أنَّه لم يُسمع، فوعظهنَّ وأمرهنَّ بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم))[١].

وفي المواعظ القرآنية نلحظ أسلوبًا تربويًّا رائعًا: يبغي كمال الإنسان، بحيث يجب أن يتمثلها المعلم والمتعلم، إذ هي صادرة عن حكمة، وليس عن هوى والمثال على ذلك نأخذ خلاصة من عظة لقمان لابنه، التي تهدف إلى:

أ- أن يكون الله هو مصدر السلوك، بمعنى إيمان الإنسان به، واتباع شريعته، وذلك هو محدد سلوك الإنسان، وهو الهدف والغاية لسلوكه، بمعنى أن يكون مخلصًا لله، وذلك عن طريق عدم الإشراك بالله، والشكر له.

ب- أن يكون السلوك كما حددته الموعظة، في قصد واعتدال في كلِّ شيء فلا مغالاة ولا تفريط، إنما توسط واعتدال، وهذا يعكس هدف التربية الإسلامية السلوكية: إنَّها تنشئ إنسانًا معتدلًا في سلوكه وفي عقيدته.

وهكذا يبدو دور الوعظ كوسيلة في التربية الإسلامية، تصلح في ميدان التربية الخلقية، كما هي في ميدان التربية الاجتماعية والعقلية وباقي الميادين الإسلامية)[٢].

= والحاكم (٤/١٨٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٥٥) (٩٤٣٦). قال التِّرمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٦/٤٧٠): حسن غريب. وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧)، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).

(١) انظر ما رواه البخاري (٩٨)، ومسلم (٨٨٤).

(٢) ((نضرة النعيم)) (١/١٤٢).

١١- التواصي بحسن الخلق:

(وذلك ببثِّ فضائل حسن الخلق، وبالتحذير من مساوئ الأخلاق، وبنصح المبتلين بسوء الخلق، وبتشجيع حسني الأخلاق، فحسن الخلق من الحقِّ، والله سبحانه يقول: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وكان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١]، ثم يسلم أحدهما على الآخر[١].

وفي الأثر فائدة التواصي بالحقِّ والصبر؛ باستذكار قراءة سورة العصر.

والربح الحقيقي للمسلم أن يكون له ناصحون ينصحونه، ويوصونه بالخير والاستقامة، فإذا حسنت أخلاق المسلم، كثر مصافوه، وأحبه الناس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه))[٢].

قال المناوي: فأنت مرآة أخيك يبصر حاله فيك، وهو مرآة لك تبصر حالك فيه.

قال الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد

---

(١) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥/٢١٥) (٥١٢٤). من حديث أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة، وصحح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٦٤٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٣٩)، والبزار (١٤/٣٨٥). قال العجلوني في ((كشف الخفاء)) (٢/٣٠٤): في إسناده كثير بن زيد، مختلف في عدالته. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٦٥٦).

عدوى البليد إلى الجليد سريعة كالجمر يوضع في الرماد فيخمد(١)

١٢- أن يتخذ الناس مرآة لنفسه:

إنَّ العاقل ينبغي أن ينظر لغيره، ويجعلهم مرآة لنفسه، فكلُّ ما كرهه ونفر عنه من قول، أو فعل، أو خلق - فليتجنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه، فليفعله.

قال ابن حزم:

(لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سببًا إلى تواليف عظيمة المنفعة، ولولا استثارهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف)(٢).

(قال الشاعر:

إنَّ السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وقال الطاهر بن الحسين:

إذا أعجبتك خصال امرئ فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك)(٣)

١٣- القدوة الحسنة:

(تعني القدوة هنا أن يكون المربي أو الداعي مثالًا يحتذى به في أفعاله وتصرفاته، وقد أشاد القرآن الكريم بهذه الوسيلة فقال عزَّ من قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقد كان المصطفى

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٧).

(٢) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص ١٢٨).

(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٥٦١) بتصرف.

صلى الله عليه وسلم -ولا يزال- قدوة للمسلمين جميعًا، والقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام بكلِّ ما يحمله من مبادئ وقيم تدعو إلى الخير وتحث على الفضيلة.

ولأثر القدوة في عملية التربية، وخاصة في مجال الاتجاهات والقيم، كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو قدوة المسلمين طبقًا لما نص عليه القرآن الكريم، وقد استطاع بفضل تلك القدوة أن يحمل معاصريه قيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه، لا بالأقوال فقط، وإنما بالسلوك الواقعي الحي، وقد حرصوا على تتبع صفاته وحركاته، ورصدها والعمل بها، وما ذلك إلا حرصًا منهم على تمثل أفعاله صلى الله عليه وسلم، لقد كان المثل الأعلى لهم.

وقد تمثلت في الرسول صلى الله عليه وسلم صفات جليلة جعلت منه قدوة بالفعل)[١].

(والقدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالًا حسيًّا مشاهدًا ملموسًا يقتدي به، وقد يكون مثالًا حاضرًا في الذهن بأخباره، وسيره، وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير، وقصص، وأنباء من أقوال أو أفعال.

والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية ممتازة... ووجه القرآن الكريم بصراحة تامة إلى القدوة الحسنة، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) ((نضرة النعيم)) (١/١٤٣).

ففي هذا النص إرشاد عظيم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لهم، يقتدون به، في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكلِّ جزئيات سلوكه في الحياة، فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد العاديون، والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

وجعل الله الذين آمنوا معه، وصدقوا، وأخلصوا، واستقاموا –أمثلة رائعة يقتدى بها في معظم الفضائل الفردية والاجتماعية.

ولئن انتقل الرسول صلوات الله عليه إلى جوار ربه، فإنَّ سيرته التي تحتوي على جزئيات سلوكه ماثلة لنا.

وفيما بلغنا من تراجم أصحابه رضوان الله عليهم ما يكفي لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ثم إنَّ كلَّ عصر من العصور من بعدهم لا يخلو من وجود طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تصلح لأن تكون قدوة حسنة، قَلَّت هذه الطائفة أو كثرت، فقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال))[١].

وروى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة))[٢].

وروى البخاري ومسلم عن معاوية قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم

(١) رواه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (٤/٤٣٧) (١٩٩٣٤)، والحاكم (٢/٨١). وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٢٩٤).

(٢) رواه مسلم (١٥٦).

يقول: ((لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك))[١].

فلا يخلو عصر من عصور الأمة المحمدية من طائفة صالحة، تصلح لأن تكون في عصرها قدوة حسنة للأفراد[٢].

١٤- مصاحبة الأخيار، وأهل الأخلاق الفاضلة[٣]:

فالمرء مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

ومجالستهم تكسب المرء الصلاح والتقوى، والاستنكاف عنهم تنكب عن الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل الجليس الصالح والجليس السوء؛ كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك: إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد: يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة))[٤].

قال أبو حاتم: (العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأنَّ مودة الأخيار سريع اتصالها، بطيء انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها،

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢٠٣/١).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨٠).

(٤) رواه البخاري (٢١٠١).

بطيء اتصالها، وصحبة الأشرار سوء الظن بالأخيار، ومن خادن الأشرار، لم يسلم من الدخول في جملتهم، فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب؛ لئلا يكون مريبًا، فكما أنَّ صحبة الأخيار تورث الخير، كذلك صحبة الأشرار تورث الشر)[1].

قال الشاعر:

عليك بإخوان الثقات فإنهم قليل فَصِلْهم دون من كنت تصحب

ونفسك أكرمها وصنها فإنها متى ما تجالس سفلة الناس تغضب

فالصداقة المتينة، والصحبة الصالحة، لا تحلُّ في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة. فإذا كان الأمر كذلك، فما أحرى بذلك اللب أن يبحث عن إخوان ثقات؛ حتى يعينوه على كلِّ خير، ويقصروه عن كلِّ شرٍّ.

قال ابن الجوزي: (ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح، فإنَّ الطبع يسرق؛ فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله)[2].

قال الناظم:

أنت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلا

فاصحب الأخيار تعلو وتنل ذكرًا جميلا

قال العلماء: إنما سمي الصديق صديقًا لصدقه، والعدو عدوًّا لعدوه عليك.

١٥- الغمس في البيئات الصالحة:

(ومن وسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة الغمس في البيئات الصالحة، وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التي ينغمس فيها ويتعايش

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ٨٠).

(٢) ((صيد الخاطر)) (ص ٤٢٥).

معها، ما لديها من أخلاق وعادات وتقاليد وأنواع سلوك، عن طريق السراية والمحاكاة والتقليد، وبذلك تتم العدوى النافعة أو الضارة، وفي الحكم السائرة: أن الطبع للطبع يسرق...

ويمكن تلخيص التأثير الجماعي على الفرد بالعناصر التالية:

- السراية التي تفعل فعلها العميق في كيان الإنسان، وهي من خصائص الاجتماع، وكلما كبر المجتمع كان تأثيره على الفرد الذي ينخرط فيه أكثر.

- القوة المعنوية الجماعية، التي يخشى الأفراد عقوباتها المادية والمعنوية، ويرجون مثوباتها المادية والمعنوية.

- جاذبية الجماعة لعنصر التقليد والمحاكاة الذي يوجد عند الأفراد.

- عنصر المنافسة، وهو من خصائص الجماعة.

- رغبة الأفراد بتقدير الآخرين ومحبتهم له، وهذا الدافع لا يتحرك إلا في وسط الجماعة، فاستغلاله من خصائص الجماعة.

هذا وقوة الجماعة الخيرة يوجد نظيرها في الجماعة الشريرة الخبيثة، يضاف إليها ميل النفس بفطرتها إلى الأهواء والشهوات التي ترافق رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال، لا سيما إذا كان مخالط الأشرار غرًّا صغيرًا غير مضرس في الحياة، وسلطان الغرائز والأهواء فيه أقوى من سلطان العقل والوجدان والضمير)[١].

١٦- الاختلاف إلى أهل الحلم والفضل وذوي المروءات:

(فإذا اختلف المرء إلى هؤلاء، وأكثر من لقائهم وزيارتهم؛ تخلق بأخلاقهم، وقبس من سمتهم ونورهم.

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٠٣).

أ- يُروى أنَّ الأحنف بن قيس قال: (كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم، كما نتعلم الفقه.

ب- كان أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرحلون إليه، فينظرون إلى سمته، وهديه، ودله، قال: فيتشبهون به[١].

ج- قال مالك: قال ابن سيرين: كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم. قال: وبعث ابن سيرين رجلًا فنظر كيف هدي القاسم- هو ابن محمد ابن أبي بكر الصديق- وحاله[٢].

د- قال القاضي أبو يعلى: روى أبو الحسين بن المنادي بسنده إلى الحسين ابن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول: كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حسن الأدب، وحسن السمت[٣].

هـ- قال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد لابنه: يا بني، إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك من كثير من الحديث[٤].

و- وقال الأعمش: كانوا يأتون همام بن الحارث يتعلمون من هديه وسمته)[٥].

١٧- الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع الإسلامي:

(ضمن مجموعة الوسائل التي اعتمد عليها الإسلام في تقويم الأفراد

---

(١) ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٣/٣٨٣).

(٢) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/٧٩).

(٣) ((شرح منتهى الإرادات)) للبهوتي (١/٩).

(٤) ((الجامع)) للخطيب (١/٨٠).

(٥) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨١).

وإصلاحهم، وإلزامهم بكمال السلوك وفضائل الأخلاق، اعتمد على المجتمع الإسلامي السوي، وذلك لما للمجتمع من سلطة معنوية فعالة ومؤثرة على نفوس الأفراد.

وترجع هذه السلطة المعنوية إلى أنَّ الفرد جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، وله من مجتمعه مصالح كثيرة مادية ونفسية.

وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، ولا يستطيع أن يعيش عيشًا سويًّا سليمًا إلا ضمن مجتمع من الناس، كان ارتباطه بالمجتمع نابعًا من حاجته إليه، والحاجة لشيء ذي إرادة تجعل لهذا الشيء سلطانًا على من كان بحاجة إليه، إذ هو لا يحقق هذه الحاجة من نفسه ما لم يكن راضيًا، عندئذ يسعى ذو الحاجة إلى تحقيق رضاه حتى ينال منه حاجته.

ومن الحاجات النفسية المرتبطة بالمجتمع حاجة الإنسان إلى التقدير، ولذلك يكدح كثير من الكادحين؛ ليظفروا بتقدير الناس لهم وثنائهم عليهم، ويمنع كثير من الناس أنفسهم من شهوات ملحة، وأهواء يتطلعون إليها، مخافة أن ينظر الناس إليهم بازدراء واحتقار، أو مخافة أن يعاقبوهم بالهجر والقطيعة، أو بالتلويم والتثريب والمذمة، وما ذلك إلا من شعور الفرد بحاجته إلى التقدير، وبحاجته إلى المحافظة على كرامة نفسه بين الناس، وهذا هو الذي يجعل للمجتمع سلطانًا على أفراده.

يضاف إلى ذلك أسباب التأثير الجماعي على الفرد،... وإذ اتخذ الإسلام -ضمن وسائله لإلزام الأفراد بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه للناس- وسيلة الضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع الإسلامي، فقد عمل بالتربية الفردية النبوية، وبالتربية الجماعية على تكوين المجتمع الإسلامي الأول، ثم جعل من هذا

المجتمع رقيبًا على أفراده، وحارسًا ساهرًا، ومحاسبًا عادلًا، ومعاقبًا بأنواع شتى من أنواع العقاب المعنوي، ومؤنبًا، وناصحًا، وآمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر.

فمن شأن هذا المجتمع أن يملي على من ينشأ فيه، أو ينخرط فيه، فضائل الأخلاق، ومحاسن السلوك، بصفة عملية فعَّالة...)[١].

١٨- إدامة النظر في السيرة النبوية:

(فالسيرة النبوية تضع بين يدي قارئها أعظم صورة عرفتها الإنسانية، وأكمل هدي وخلق في حياة البشرية.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن حزم: من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق -كلها- واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليستعمل أخلاقه، وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به، بمنه، آمين[٢].

وبدراسة السيرة النبوية يتم حسن الاقتداء به صلى الله عليه وسلم...

ومعرفة شمائله، فإنها تنبه الإنسان على مكارم الأخلاق، وتذكره بفضلها، وتعينه على اكتسابها، والشمائل: جمع شمال، وهي السجايا والأخلاق التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم)[٣].

١٩- النظر في سير الصحابة الكرام، وأهل الفضل والحلم:

(السلف الصالح أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين ورثوا عن

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٠٥).

(٢) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص ٩١).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨٧).

رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه، وسمته، وخلقه، فالنظر في سيرهم، والاطلاع على أحوالهم يبعث على التأسي بهم، والاقتداء بهديهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إن الإحاطة بتراجم أعيان الأمة مطلوبة، ولذوي المعارف محبوبة، ففي مدارسة أخبارهم شفاء للعليل، وفي مطالعة أيامهم إرواء للغليل.

فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟! وأي خطة رشد لم يستولوا عليها؟! تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زلالًا، وأيدوا قواعد الإسلام، فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالًا[1].

واعلم تحقيقًا أنَّ أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق الصحابة، فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال علي رضي الله عنه: خيرنا أتبعنا لهذا الدين[2].

قال الناظم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشبه بالكرام فلاح

وكذلك قراءة سير التابعين ومن جاء بعدهم في تراجمهم مما يحرك العزيمة على اكتساب المعالي ومكارم الأخلاق؛ ذلك أنَّ حياة أولئك تتمثل أمام القارئ، وتوحي إليه بالاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

وجدير بمن لازم العلماء بالفعل أو العلم أن يتصف بما اتصفوا به، وهكذا من أمعن النظر في سيرتهم أفاد منهم وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأول

---

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥).

(٢) ((الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد)) للإمام بدر الدين الغزي العامري (ص ١٣٨).

ذلك ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يرد منه، كائنًا ما كان، وعلى أي وجه صدر... وإنما ذلك بكثرة الملازمة، وشدة المثابرة... وصار مثل ذلك أصلًا لمن بعدهم؛ فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ففقهوا، ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية، والأخلاق العلية)[1].

٢٠- سلطان الدولة الإسلامية:

(للسلطة المادية التي تمارسها الدولة الإسلامية، أثر فعال في إلزام الأفراد والجماعات، بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه الإسلام للناس، وفي تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية.

ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية ضبط انتظام الأفراد والجماعات في نظام الأخلاق الإسلامية، بما توليه من رقابة يقظة، وحراسة ساهرة، ومحاسبة للمنحرفين، وتشجيع للسابقين، وتوجيه وتربية، وبناء وصيانة.

ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية وضع الأنظمة المختلفة، المرغبة بالتزام المنهج الأخلاقي الرباني، والرادعة عن مخالفته، واتخاذ مختلف الوسائل النافعة التوجيهية والتربوية لحماية الأخلاق وصيانتها.

وربما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم، وقد جاء في الأثر: (إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[2].)[3].

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨٨).

(٢) أي يكُف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان ما لا يكفه مخافة القرآن ومخافة الله تعالى. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/١٨٠).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٠٨).

موقف أعداء المسلمين من الأخلاق الإسلامية:

(أدرك أعداء المسلمين الحقائق عن مكارم الأخلاق، فعملوا على إفساد أخلاق المسلمين بكلِّ ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكلِّ ما أوتوا من وسائل مادية وشياطين إغواء، ليبعثروا قواهم المتماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة، وليفتتوا وحدتهم التي كانت مثل الجبل الراسخ الصلب قوة، ومثل الجنة الوارفة المثمرة خضرة وبهاء وثمرًا وماء.

إن أعداء المسلمين قد عرفوا أن الأخلاق الإسلامية في أفراد المسلمين تمثل معاقد القوة، فجندوا لغزو هذه المعاقد وكسرها جيوش الفساد والفتنة.

ولقد كان غزوهم للأخلاق الإسلامية من عدة جبهات:

١- لقد عرفوا أن النبع الأساسي الذي يزود الإنسان المسلم بالأخلاق الإسلامية العظيمة، إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فصمموا على أن يكسروا مجاري هذا النبع العظيم، ويسدوا عيونه، ويقطعوا شرايينه.

٢- وعرفوا أن تفهم مصادر الشريعة الإسلامية تفهمًا سليمًا هو الذي يمدُّ نبع الإيمان بما يتطلبه من معارف، فمكروا بالعلوم الإسلامية، وبالدراسات المتعلقة بها مكرًا بالغًا، وذلك ما بين حجب لها تارة، وتلاعب بمفاهيمها أخرى، وتشويه لها أو جحود ومضايقة لروادها ومبلغيها، كلُّ ذلك في حرب مستمرة لا تعرف كللًا ولا مللًا.

٣- وعرفوا قيمة الإفساد العملي التطبيقي، فوجهوا جنودهم لغمس أبناء المسلمين في بيئات مشحونة بالانحلال الخلقي، بغية إصابتهم بالرذائل الخلقية عن طريق العدوى، وسراية الفساد بقوة تأثير البيئة، واستمراء الشهوات المرتبطة برذائل الأخلاق.

٤- وعرفوا قيمة إفساد المفاهيم والأفكار، فجندوا جيوش المضللين الفكريين، الذين يحملون إلى أبناء المسلمين الأفكار والمفاهيم والفلسفات الباطلة، ضمن واردات المعارف المادية الصحيحة، ذات المنجزات الحضارية المدهشة، وعن طريق هذا الغزو الفكري الخطير يدخلون السم في الدسم.

من أقوال أعداء الإسلام والمسلمين:

١- جاء في خطاب... (صموئيل زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين منذ أوائل القرن العشرين الميلادي، الذي خطبه في مؤتمر القدس التبشيري، الذي انعقد برئاسته سنة (١٩٥٣م) ما يلي:

... ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلاة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعًا كل التهنئة...!!

٢- وجاء في نشرة المشرق الأعظم الماسوني الفرنسي لسنة (١٩٢٣م) ما يلي:

... وبغية التفريق بين الفرد وأسرته عليكم أن تنتزعوا الأخلاق من أسسها، لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة، لأنها تفضل الثرثرة في المقاهي على القيام بتبعات الأسرة...

٣- وجاء في البروتوكول الثاني من المقررات اليهودية السرية ما يلي:

... إن الطبقات المتعلمة ستختال زهوًا أمام أنفسها بعلمها، وستأخذ جزافًا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلاؤنا، رغبة في تربية عقولهم حسب الاتجاه الذي توخيناه.

ولا تتصوروا أن كلماتنا جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح (داروين) و(ماركس) و(نيتشه) والأثر غير الأخلاقي لاتجاه هذه العلوم في الفكر الأممي -أي عند غير اليهود- سيكون واضحًا لنا على التأكيد!!

٤- وجاء في البيان الشيوعي الذي أصدره معلم الشيوعية الأول اليهودي (كارل ماركس) ورفيقه (انجلز) ما يلي:

إن القوانين والقواعد الأخلاقية والأديان أوهام بورجوازية تتستر خلفها مصالح بورجوازية!!)[1].

(أما طريقة دهاة التضليل لهدم الأبنية الأخلاقية فهي تتلخص بما يلي:

١- أن يقنعوا الأجيال بأن الأخلاق نسبية اعتبارية لا ثبات لها، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، فهي خاضعة للتبدل والتغير.

٢- أن يستغلوا بخبث بعض النظريات الفلسفية التي من شأنها تقليل قيمة الأخلاق في نفوس الناس، إذ تقيمها على أسس واهنة ضعيفة، أو على شفا جرف هار!! ومتى قامت في نفوس الناس على مثل ذلك تداعت الأبنية الأخلاقية التقليدية، ثم انهارت، وحلت محلها أنانيات فوضوية، تعتمد على القوة والحيلة، والإباحية المطلقة لكلِّ شيء مستطاع، فلا خير إلا ما تدعمه

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (١/٣٢).

القوة، ولا شر إلا ما تضعف القوة عن تحقيقه.

٣- أن يلفقوا من عند أنفسهم نظريات فلسفية يخدعون بها الناس، لاسيما الناشئون منهم، ويستغلون فيهم رغبات المراهقة بالتمرد على الحقِّ والواجب، تطلعًا لمجد موهوم، وقد تطول فترة المراهقة عند بعض الناشئين، حتى تكتسح عمر الشباب منهم، وجزءًا من عمر الكهولة، وسبب ذلك الاستسلام التام لعواطف طور المراهقة، ووجود المغذيات الشيطانية الخبيثة، وضعف التربية الإسلامية أو انعدامها. ومتى وجدت هذه الظروف المواتية لنمو الشر، فليس من البعيد أن يصير الإنسان شيخًا في سنه وجسمه ويبقى مراهقًا في عقله ونفسه.

٤- اتخاذ الوسائل العملية التطبيقية لإفساد أخلاق الأمم، وأهمها الغمس في بيئات موبوءة بالأخلاق الفاسدة، حتى تكون الانحرافات عادات مستطابات)[1].

ادعاء نسبية الأخلاق:

يعمل الملاحدة والماديون وأذنابهم في خطط خبيثة ماكرة على هدم صرح الأخلاق، من خلال دعوى أنَّ الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة. فالذي يعتبر منافيًا للأخلاق عند شعب من الشعوب، لا يعتبر منافيًا للأخلاق عند شعب آخر، وبعض ما كان مستنكرًا فيما مضى قد يعتبر مستحسنًا في عصر آخر، فالأخلاق عند هؤلاء مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها.

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٩٨).

(وإنَّ أسباب الغلط أو المغالطة عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق، ترجع إلى ثلاثة:

الأول: تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخلقية، عن الظواهر الجمالية والأدبية، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية، وعن التعاليم والأحكام المدنية أو الدينية البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية.

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أنَّ في كثير من هذه المفاهيم أخطاء فادحة، وفسادًا كبيرًا، يرجع إلى تحكم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضًا إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحري العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك بها متشككون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها.

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق.

أما مفاهيم الإسلام فإنها... قد ميزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميمًا فاسدًا، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضًا لم تعتمد على

مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأ سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنَّها تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله. أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد صلوات الله وسلاماته عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

فمن تبصَّر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأنَّ الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأنَّ هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب العقاب، فإنَّه لابد أن يظهر له بجلاء أنَّ الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة مادام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أمورًا مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان.

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه.

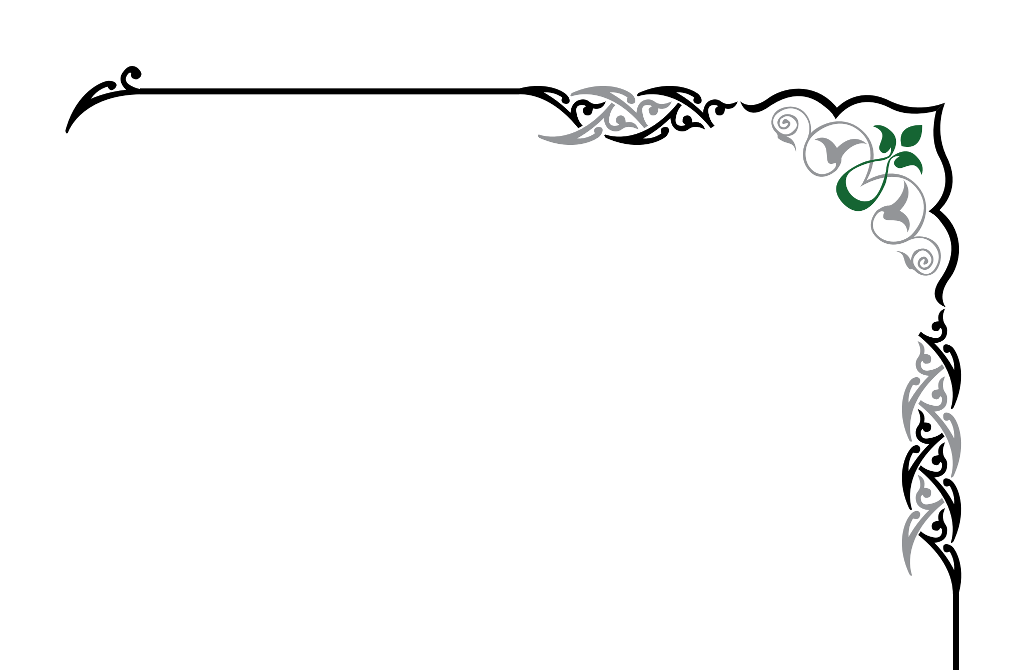
وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أنَّ كلَّ واحدة منها -ضمن شروطها وقيودها وضوابطها- ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحول من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن. إنَّ حسنها حسن في كلِّ زمان، وقبيحها قبيح في كلِّ زمان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثرًا بالأهواء،

أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء.

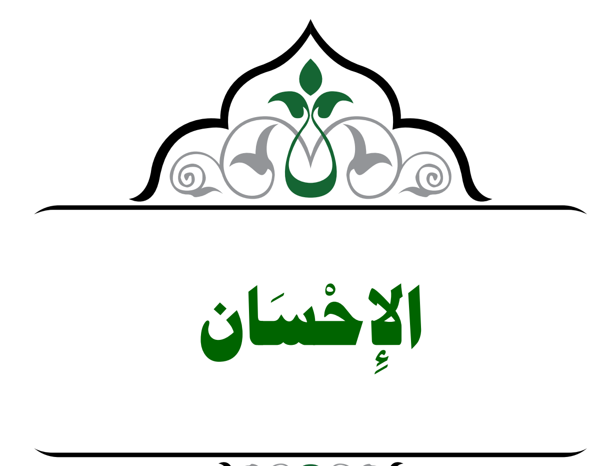
إنَّ الإسلام يقرر أنَّ حبَّ الحقِّ وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أنَّ كراهية الحقِّ وحبَّ الباطل رذيلة خلقية، فهل يشكُّ أحد سويٌّ عاقل في أنَّ هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية)[1].



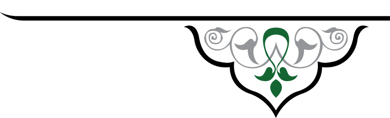
(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٩١/١) بتصرف.



الأَخْلَاقُ المحْمُودَةَ



الإِحْسَان



الإِحْسَان

معنى الإِحْسَان لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الإِحْسَان لغةً:**

الإِحْسَان ضِدُّ الإساءة. مصدر أحسن أي جاء بفعل حسن[(١)].

- **معنى الإِحْسَان اصطلاحًا:**

(**الإِحْسَان نوعان:**

- إحسان في عبادة الخالق: بأن يعبد الله كأنَّه يراه فإن لم يكن يراه فإنَّ الله يراه. وهو الجِدُّ في القيام بحقوق الله على وجه النُّصح، والتَّكميل لها.

- وإحسانٌ في حقوق الخَلْق... هو بذل جميع المنافع مِن أي نوعٍ كان، لأي مخلوق يكون، ولكنَّه يتفاوت بتفاوت المحْسَن إليهم، وحقِّهم ومقامهم، وبحسب الإِحْسَان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحْسِن وإخلاصه، والسَّبب الدَّاعي له إلى ذلك)[(٢)].

وقال الراغب: (الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا)[(٣)].

الفرق بين الإِحْسَان وبعض الصِّفات:

- **الفرق بين الإِحْسَان والإِنْعَام:**

(أَنَّ الإِحْسَان يكون لنفس الإنسان ولغيره، تقول: أَحْسَنْتُ إلى نفسي.

---

(١) ((الفروق اللغوية)) للعسكري (١/١٩٣).

(٢) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (٢٠٤- ٢٠٦).

(٣) ((المفردات)) (ص ٢٣٦).

والإنْعَام لا يكون إلَّا لغيره)[1].

- **الفرق بين الإحْسَان والإفضَال:**

(أنَّ الإحسان: النفع الحسن.

والإفْضَال: النَّفع الزَّائد على أقلِّ المقدار، وقد خُصَّ الإحْسَان بالفضل، ولم يجب مثل ذلك في الزِّيادة؛ لأنَّه جرى مجرى الصِّفة الغالبة)[2].

- **الفرق بين الإحْسَان والفضل:**

(أنَّ الإحْسَان قد يكون واجبًا وغير واجب.

والفضل لا يكون واجبًا على أحد، وإنَّما هو ما يتفضَّل به مِن غير سبب يوجبه)[3].

الترغيب في الإحسان:

أولًا: في القرآن الكريم

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ٩٠].

قال السعدي: (الإحْسَان فضيلة مستحبٌّ، وذلك كنفع النَّاس بالمال والبدن والعِلْم، وغير ذلك مِن أنواع النَّفع حتى إنَّه يدخل فيه الإحْسَان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره)[4].

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/١١٤).

(٢) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٢٣).

(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٢٤).

(٤) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ٤٤٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

أي: (أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعمُّ كلَّ إحسان قولي وفعلي ممَّا هو إحسان إليهم، وفيه النَّهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحْسَان والإساءة؛ لأنَّ الواجب الإحْسَان، والأمر بالشَّيء نهيٌ عن ضِدِّه.

وللإحْسَان ضِدَّان: الإساءة، وهي أعظم جرمًا، وترك الإحْسَان بدون إساءة، وهذا محرَّم، لكن لا يجب أن يلحق بالأوَّل، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى، والمساكين، وتفاصيل الإحْسَان لا تنحصر بالعَدِّ، بل تكون بالحَدِّ.

ثمَّ أمر بالإحْسَان إلى النَّاس عمومًا فقال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ومِن القول الحَسَن: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العِلْم، وبذل السَّلام، والبشاشة وغير ذلك مِن كلِّ كلام طيِّب.

ولـمَّا كان الإنسان لا يسع النَّاس بماله، أُمِر بأمرٍ يقدر به على الإحْسَان إلى كلِّ مخلوق، وهو الإحْسَان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النَّهي عن الكلام القبيح للنَّاس حتى للكفَّار)[1].

وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٥٧).

قال الشَّوكاني في تفسير قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾: (أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك مِن نعم الدُّنْيا)[1].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيِّم: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، فيه تنبيه ظاهر على أنَّ فعل هذا المأمور به هو الإحْسَان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم مِن الله هو رحمته، ورحمته قريبٌ مِن المحسنين الذين فعلوا ما أُمِروا به مِن دعائه خوفًا وطمعًا، فَقَرُب مطلوبكم منكم، وهو الرَّحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحْسَان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم؛ فإنَّ الله تعالى هو الغنيُّ الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرَّحمة مِن أهل الإحْسَان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أنَّ هذا القُرْب مستحقٌّ بالإحْسَان، فهو السَّبب في قرب الرَّحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بُعْد الرَّحمة مِن غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة. وإنَّما اختُصَّ أهل الإحْسَان بقرب الرَّحمة منهم؛ لأنَّها إحسان مِن الله أرحم الرَّاحمين، وإحسانه تعالى إنَّما يكون لأهل الإحْسَان؛ لأنَّ الجزاء مِن جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته. وأمَّا مَن لم يكن مِن أهل الإحْسَان فإنَّه لمَّا بَعُد عن الإحْسَان بَعُدَت عنه الرَّحمة بُعْدًا بِبُعْد، وقُرْبًا بقرب، فمَن تقرَّب بالإحْسَان تقرَّب الله إليه برحمته، ومَن تباعد عن الإحْسَان تباعد الله عنه برحمته، والله -سبحانه- يحبُّ المحسنين، ويبغض مَن ليس مِن المحسنين، ومَن أحبَّه الله فرحمته أقرب

---

(١) ((فتح القدير)) للشَّوكاني (٢٦١/٤).

شيء منه، ومَن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحْسَان- هاهنا-: هو فِعْل المأمور به سواءً كان إحسانًا إلى النَّاس أو إلى نفسه، فأعظم الإحْسَان: الإيمان والتَّوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتَّوكل عليه، وأن يعبد الله كأنَّه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحْسَان، كما قال النَّبيُّ، وقد سأله جبريل عن الإحْسَان، فقال: ((أن تعبد الله كأنَّك تراه))[1] [2].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: ((إنَّ الله كتب الإحْسَان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَه، فليُرِح ذبيحته))[3].

قال المباركفوري: (قوله: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء)). أي: إلى كلِّ شيء، أو ((على)) بمعنى: في، أي: أمركم بالإحْسَان في كلِّ شيء، والمراد منه العموم الشَّامل للإنسان حيًّا وميتًا. قال الطَّيبي: أي أوجب مبالغة؛ لأنَّ الإحْسَان هنا مستحبٌّ، وضمَّن الإحْسَان معنى التَّفضُّل وعدَّاه بعلى. والمراد بالتَّفضُّل: إراحة الذَّبيحة بتحديد الشَّفرة، وتعجيل إمرارها وغيره. وقال الشُّمُنِّيُّ: على- هنا- بمعنى اللام متعلِّقة بالإحْسَان، ولا بدَّ مِن على أخرى محذوفة بمعنى: الاستعلاء المجازي، متعلِّقة بكَتَبَ، والتَّقدير: كَتَبَ على النَّاس الإحْسَان لكلِّ شيء)[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٣/١٧-١٨).

(٣) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٤) ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٤/٦٦٤-٦٦٥).

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهليَّة؟ قال: ((مَن أحسن في الإسلام لم يُؤاخذ بما عمل في الجاهليَّة، ومَن أساء في الإسلام أُخذ بالأوَّل والآخر))(١).

- وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: ((أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر مِن الله. قال: فهل مِن والديك أحدٌ حيٌّ؟ قال: نعم، بل كلاهما. قال: أفتبتغي الأجر مِن الله؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما))(٢).

- وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص؛ قال: حدَّثني أبي، أنَّه شهد حجَّة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحمد الله وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ. فذكر في الحديث قصةً فقال: ((ألا واستوصوا بالنِّساء خيرًا، فإنَّما هنَّ عَوَان عندكم ليس تملكون منهنَّ شيئًا غير ذلك، إلَّا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنَة، فإن فعلن فاهجروهنَّ في المضاجع، واضربوهنَّ ضربًا غير مُبرِّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلًا. ألا إنَّ لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا. فأمَّا حقُّكم على نسائكم فلا يُوطِئْن فرشكم مَن تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وحقُّهنَّ عليكم أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهنَّ وطعامهنَّ))(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله صلى - الله عليه وسلم: ((كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأت؟ قال النَّبيُّ صلى

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٩).

(٣) رواه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١)، والنسائي في ((الكبرى)) (٨/٢٦٤). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/١٧٩)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٨٨٠).

الله عليه وسلم: إذا سمعت جيرانك يقولون: أن قد أحسنت فقد أحسنت. وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت، فقد أسأت))[(١)].

أقوال السَّلف والعلماء في الإحسان:

- قال ابن عيينة: (سئل علي رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠]، فقال: العدل: الإنصاف، والإحْسَان: التفضُّل)[(٢)].

- وقرأ الحسن البصري: (هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠] الآية، ثمَّ وقف فقال: إنَّ الله جمع لكم الخير كلَّه والشَّر كلَّه في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحْسَان شيئًا مِن طاعة الله عزَّ وجلَّ إلَّا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي مِن معصية الله شيئًا إلَّا جَمَعه)[(٣)].

- وقال ابن القيِّم: (مفتاح حصول الرَّحمة الإحْسَان في عبادة الخالق، والسَّعي في نفع عبيده)[(٤)].

- وقال أيضًا: (فإنَّ الإحْسَان يفرح القلب ويشرح الصَّدر ويجلب النِّعم ويدفع النِّقم، وتركه يوجب الضَّيم والضِّيق، ويمنع وصول النِّعم إليه، فالجبن: ترك الإحْسَان بالبدن، والبخل: ترك الإحْسَان بالمال)[(٥)].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٢٣)، وأحمد (١/٤٠٢) (٣٨٠٨)، وابن حبان (٢/٢٨٥) (٥٢٦). وجوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٢/١١٢)، وقال الهيثمي في ((المجمع)) (١٠/٢٧٤): رجاله رجال الصَّحيح. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (٥/٣٠٩).
(٢) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٧/٢٩١).
(٣) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٢/١٥٨).
(٤) ((حادي الأرواح)) (ص ٦٦).
(٥) ((طريق الهجرتين)) (ص ٤٦٠).

- وقال في موضع آخر: (ومِن منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: منزلة الإحْسَان؛ وهي لبُّ الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكلُّ ما قيل مِن أوَّل الكتاب إلى هاهنا فهو مِن الإحْسَان)[1].

- وقال رجلٌ لأحد السلاطين: (أحقُّ النَّاس بالإحْسَان مَن أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف مَن بُسِطت القدرة بين يديه؛ فاسْتَدِم ما أوتيت مِن النِّعم بتأدية ما عليك مِن الحقِّ)[2].

فوائد الإحْسَان[3]:

١- للإحْسَان ثمرة عظيمة تتجلَّى في تماسك بنيان المجتمع، وحمايته مِن الخراب والتَّهلكة ووقايته مِن الآفات الاجتماعيَّة.

٢- المحسن يكون في معيَّة الله عزَّ وجلَّ، ومَن كان الله معه فإنَّه لا يخاف بأسًا ولا رهقًا.

٣- المحسن يكتسب بإحسانه محبَّة الله عزَّ وجلَّ.

٤- للمحسنين أجر عظيم في الآخرة حيث يكونون في مأمن مِن الخوف والحزن.

٥- المحسن قريب مِن رحمة الله عزَّ وجلَّ.

٦- الإحْسَان هو وسيلة المجتمع للرُّقي والتَّقدُّم، وإذا كان صنوه، أي: العدل وسيلة لحفظ النَّوع البَشَريِّ فإنَّ الإحْسَان هو وسيلة تقدمه ورقيِّه؛ لأنَّه

(١) ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم (٣/٣١٩).
(٢) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٣/٢٠).
(٣) من رقم ١ إلى ٧ منقول من كتاب: ((نضرة النعيم)) لمجموعة مِن المؤلفين (٢/٩١).

يؤدِّي إلى توثيق الرَّوابط وتوفير التَّعاون.

٧- الإحْسَان وسيلة لإزالة ما في النُّفوس مِن الكدر وسوء الفهم وسوء الظَّنِّ ونحو ذلك.

٨- الإحْسَان في عبادة الخالق يمنع عن المعاصي.

قال ابن القيِّم: (فإنَّ الإحْسَان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإنَّ مَن عبد الله كأنَّه يراه، لم يكن كذلك إلَّا لاستيلاء ذكره ومحبَّته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنَّه يشاهده، وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها، فإذا خرج مِن دائرة الإحْسَان، فاته صحبة رفقته الخاصَّة، وعيشهم الهنيء، ونعيمهم التَّام، فإن أراد الله به خيرًا أقرَّه في دائرة عموم المؤمنين)[1].

٩- الإحْسَان إلى النَّاس سببٌ مِن أسباب انشراح الصَّدر:

الذي يحسن إلى النَّاس ينشرح صدره، ويشعر بالرَّاحة النَّفسيَّة، وقد ذكر ابن القيِّم في (زاد المعاد) أن الإحْسَان مِن أسباب انشراح الصَّدر، فقال: (... إنَّ الكريم المحسن أشرح النَّاس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق النَّاس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا)[2].

١٠- الإحْسَان إلى النَّاس يطفئ نار الحاسد.

(إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحْسَان إليه، فكلَّما ازداد أذًى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً، وما

(١) ((الجواب الكافي)) (٥٥-٥٦).

(٢) ((زاد المعاد في هدي خير العباد)) (٢/٢٢).

أظنُّك تصدِّق بأنَّ هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصِّلت: ٣٤-٣٦] وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]... هذا مع أنَّه لا بدَّ له مع عدوِّه وحاسده مِن إحدى حالتين، إمَّا أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد له ويذلُّ له، ويبقى مِن أحبِّ النَّاس إليه، وإمَّا أن يفتِّت كبده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنَّه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ومَن جرَّب هذا عرفه حقَّ المعرفة، والله هو الموفق المعين بيده الخير كلِّه لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنِّه وكرمه)[1].

أقسام الإحْسَان:

الإحْسَان ينقسم إلى قسمين: إحسان في عبادة الله. وإحْسَان إلى عباد الله، وكل قسم منهما ينقسم إلى واجب ومستحب .

فأما الإحسان في عبادة الله فيتضمن الإحْسَان في الإتيان بالواجبات الظَّاهرة والباطنة، وذلك بـ(الإتيان بها على وجه كمال واجباتها، فهذا القَدْر مِن الإحْسَان فيها واجبٌ، وأمَّا الإحْسَان فيها بإكمال مستحبَّاتها فليس بواجب.

والإحْسَان في ترك المحرَّمات: الانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فهذا القدر مِن الإحْسَان فيها واجبٌ.

(١) ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٢/٢٤٣-٢٤٤).

وأمَّا الإحْسَان في الصَّبر على المقدورات، فأن يأتي بالصَّبر عليها على وجهه مِن غير تسخُّط ولا جزع)[١].

وأما الإحسان إلى عباد الله فالواجب منه (هو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجَّه عليك مِن الحقوق...بأن تقوم بحقوقهم الواجبة، كالقيام ببرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإنصاف في جميع المعاملات، بإعطاء جميع ما عليك مِن الحقوق، كما أنَّك تأخذ مالك وافيًا. قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النِّساء: ٣٦] فأمر بالإحْسَان إلى جميع هؤلاء)[٢].

وقال ابن رجب: (والإحْسَان الواجب في معاملة الخَلْق ومعاشرتهم: القيام بما أوجب الله مِن حقوق ذلك كلِّه، والإحْسَان الواجب في ولاية الخَلْق وسياستهم، القيام بواجبات الولاية كلِّها)[٣].

وأما المستحب منه فهو (القَدْرُ الزَّائد على الواجب في ذلك كلِّه)[٤]. ومثال ذلك (بذل نفع بدنيٍّ، أو ماليٍّ، أو علميٍّ، أو توجيه لخير دينيٍّ، أو مصلحة دنيويَّة، فكلُّ معروف صَدَقة، وكلُّ ما أدخل السُّرور على الخَلْق صَدَقة وإحسان. وكلُّ ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون مِن قليل أو كثير، فهو صَدَقة وإحسان)[٥].

---

(١) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/٣٨٢).
(٢) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ٢٠٤).
(٣) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/٣٨٢-٣٨٣).
(٤) ((المصدر السابق)) (١/٣٨٢-٣٨٣).
(٥) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ٢٠٥).

صور الإحْسَان:

قبل أن نُفَصِّلَ في صور الإحْسَان نذكر هذه الصور على جهة الإجمال، والتي منها الإحسان في العبادات، والإحسان في المعاملات، والإحسان إلى الحيوانات، والإحسان في الأعمال البدنية، فـ(الإحْسَان في باب العبادات أن تؤدِّى العبادة أيًّا كان نوعها؛ مِن صلاة أو صيام أو حجٍّ أو غيرها أداءً صحيحًا، باستكمال شروطها وأركانها، واستيفاء سننها وآدابها، وهذا لا يتمُّ للعبد إلَّا إذا كان شعوره قويًّا بمراقبة الله عزَّ وجلَّ حتى كأنَّه يراه تعالى ويشاهده، أو على الأقلِّ يشعر نفسه بأنَّ الله تعالى مطَّلع عليه، وناظرٌ إليه، فبهذا وحده يمكنه أن يحسن عبادته ويتقنها، فيأتي بها على الوجه المطلوب، وهذا ما أرشد إليه الرَّسول صلى الله عليه وسلم في قوله: ((الإحْسَان أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)).

وفي باب المعاملات فهو للوالدين ببرِّهما بالمعروف، وطاعتهما في غير معصية الله، وإيصال الخير إليهما، وكفِّ الأذى عنهما، والدُّعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما.

وهو للأقارب ببرِّهم ورحمتهم والعطف عليهم، وفعل ما يَجْمُل فعله معهم، وترك ما يسيء إليهم.

وهو لليتامى بالمحافظة على أموالهم، وصيانة حقوقهم، وتأديبهم وتربيتهم بالحسنى، والمسح على رؤوسهم.

وهو للمساكين بسدِّ جوعهم، وستر عورتهم، وعدم احتقارهم وازدرائهم، وعدم المساس بهم بسوء، وإيصال النَّفع إليهم بما يستطيع، وهو لابن السَّبيل بقضاء حاجته، وسدِّ خلَّته، ورعاية ماله، وصيانة كرامته، وبإرشاده إن استرشد، وهدايته إن ضلَّ.

وهو للخادم بإتيانه أجره قبل أن يجفَّ عرقه، وبعدم إلزامه ما لا يلزمه، أو تكليفه بما لا يطيق، وبصون كرامته، واحترام شخصيَّته.

وهو لعموم النَّاس بالتَّلطُّف في القول لهم، ومجاملتهم في المعاملة، وبإرشاد ضالِّهم، وتعليم جاهلهم، والاعتراف بحقوقهم، وبإيصال النَّفع إليهم، وكفِّ الأذى عنهم.

وهو للحيوان بإطعامه إن جاع، ومداواته إن مرض، وبعدم تكليفه ما لا يطيق، وحمله على ما لا يقدر، وبالرِّفق به إن عمل، وإراحته إن تعب.

وهو في الأعمال البدنيَّة بإجادة العمل، وإتقان الصَّنعة، وبتخليص سائر الأعمال مِن الغش، وهكذا)[١]. وإليك تفاصيل هذه الصُّور:

١- الإحْسَان في عبادة الله:

(والإحْسَان في عبادة الله له ركن واحد بيَّنه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: ((بأن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)). فأخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ مرتبة الإحْسَان على درجتين، وأنَّ المحسنين في الإحْسَان على درجتين متفاوتتين، الدَّرجة الأولى: وهي ((أن تعبد الله كأنَّك تراه)). الدَّرجة الثَّانية: أن تعبد الله كأنَّه يراك، والمعنى إذا لم تستطع أن تعبد الله كأنَّك تراه وتشاهده رأي العين، فانزل إلى المرتبة الثَّانية، وهي أن تعبد الله كأنَّه يراك. فالأولى عبادة رغبة وطمع، والثَّانية عبادة خوف ورهب)[٢].

٢- الإحْسَان إلى الوالدين:

جاءت نصوص كثيرة تحثُّ على حقوق الوالدين وبرِّهما والإحْسَان إليهما

(١) ((منهاج المسلم)) لأبي بكر الجزائري (١٦٩-١٧١).
(٢) ((أعمال القلوب)) لسهل بن رفاع العتيبي (١/٥٨)، بتصرُّف.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

قال القرطبي: (قال العلماء: فأحقُّ النَّاس بعد الخالق المنَّان بالشُّكر والإحْسَان والتزام البرِّ والطَّاعة له والإذعان مَن قرن الله الإحْسَان إليه بعبادته وطاعته، وشكره بشكره، وهما الوالدان، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤])[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ العمل أفضل؟ قال: الصَّلاة لوقتها. قال قلت: ثمَّ أي؟ قال: برُّ الوالدين. قال قلت: ثمَّ أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله))[2].

قال الرَّازي: (أجمع أكثر العلماء على أنَّه يجب تعظيم الوالدين والإحْسَان إليهما إحسانًا غير مقيَّد بكونهما مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣])[3].

٣- الإحْسَان إلى الجار:

عن أبي شُريح الخُزاعي أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

(١) ((الجامع لأحكام القرآن)) (١٨٣/٥).
(٢) رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٥).
(٣) ((فيض القدير)) للمناوي (٢٥٩/٣).

ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت))[١].

ويكرم جاره بالإحسان إليه وكف الأذى عنه، وتحمل ما يصدر منه، والبشر في وجهه، وغير ذلك من وجوه الإكرام[٢].

٤- الإحْسَان إلى اليتامى والمساكين:

ومِن الإحْسَان إلى اليتامى والمساكين: المحافظة على حقوقهم والقيام بتربيتهم، والعطف عليهم، ومدُّ يد العون لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

(فإنَّ الإحْسَان إليهم والبرَّ بهم وكفالة عيشهم وصيانة مستقبلهم مِن أزكى القربات، بل إنَّ العواطف المنحرفة تعتدل في هذا المسلك وتلزم الجادَّة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنَّ رجلًا شكا إلى رسول الله قسوة قلبه، فقال: ((امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين))[٣]. وفي رواية: أنَّ رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه، فقال له: ((أتحبُّ أن يلين قلبك وتدرك حاجتك، ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه مِن طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك))[٤]. وذلك أنَّ القلب يتبلَّد في المجتمعات التي تضجُّ بالمرح الدَّائم، والتي تصبح وتمسي وهي لا

---

(١) رواه مسلم (٤٨) مِن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ((التحفة الربانية في شرح الأربعين النووية)) لإسماعيل بن محمد السعدي (ص ٣٥).

(٣) رواه أحمد (٢/٣٨٧) (٩٠٠٦). قال المنذري في ((التَّرغيب والترَّهيب)) (٣/٣١٦) والهيثمي في ((المجمع)) (٨/١٦٣): رجاله رجال الصَّحيح. وحسَّنه لغيره الألباني في ((صحيح التَّرغيب)) (٢٥٤٥).

(٤) ذكره المنذري في ((التَّرغيب والترَّهيب)) (٣/٢٣٧) وقال: رواه الطَّبراني مِن رواية بقيَّة، وفيه راوٍ لم يُسم.

ترى مِن الحياة غير آفاقها الزَّاهرة ونعمها الباهرة، والمترفون إنَّما يتنكَّرون لآلام الجماهير؛ لأنَّ الملذَّات -التي تُيَسَّر لهم- تُغلِّف أفئدتهم وتطمس بصائرهم، فلا تجعلهم يشعرون بحاجة المحتاج وألم المتألِّم وحزن المحزون، والنَّاس إنَّما يُرْزَقون الأفئدة النَّبيلة والمشاعر المرهفة عندما ينقلبون في أحوال الحياة المختلفة، ويُبْلَون مسَّ السَّرَّاء والضَّرَّاء.. عندئذ يحسُّون بالوحشة مع اليتيم وبالفقدان مع الثَّكلى وبالتعب مع البائس الفقير)[1].

٥- الإحسان في المعاملات التجارية[2]:

قد أمر الله تعالى بالعدل والإحْسَان جميعًا، والعدل سبب النَّجاة فقط، وهو يجري من التِّجارة مجرى سلامة رأس المال، والإحْسَان سبب الفوز ونيل السَّعادة، وهو يجري من التِّجارة مجرى الرِّبح، ولا يُعدُّ مِن العقلاء مَن قنع في معاملات الدُّنْيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة.

ولا ينبغي للمتديِّن أن يقتصر على العدل واجتناب الظُّلم، ويدع أبواب الإحْسَان وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وينال المعامل رتبة الإحْسَان بواحدٍ مِن ستَّة أمور:

الأوَّل: في المغابنة، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأمَّا أصل المغابنة فمأذونٌ فيه، لأنَّ البيع للرِّبح، ولا يمكن ذلك إلَّا بغبن، ولكن يراعى فيه التَّقريب، ومَن قنع بربحٍ قليلٍ كثرت معاملاته، واستفاد مِن تكررها ربحًا كثيرًا، وبه تظهر البركة.

---

(١) ((خلق المسلم)) للغزَالي (ص ١٩٣).

(٢) انظر: ((موعظة المؤمنين)) لجمال الدين القاسمي (ص ١١٦).

الثَّاني: في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعامًا مِن ضعيف أو شيئًا مِن فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسنًا وداخلًا في قوله عليه السَّلام: ((رحم الله سهل البيع وسهل الشِّراء))(١)، وأما احتمال الغبن مِن الغني فليس محمودًا، بل هو تضييع مال مِن غير أجر ولا حمد، وكان كثيرٌ مِن السَّلف يستقصون في الشِّراء، ويهبون مِن ذلك الجزيل مِن المال، فقيل لبعضهم في ذلك فقال: إنَّ الواهب يعطي فضله، وإنَّ المغبون يغبن عقله.

الثَّالث: في استيفاء الثَّمن وسائر الدُّيون والإحْسَان فيه مرَّة بالمسامحة وحطِّ البعض، ومرَّة بالإمهال والتَّأخير، ومرَّة بالمساهلة في طلب جودة النَّقد، وكلُّ ذلك مندوبٌ إليه ومحثوثٌ عليه، وفي الخبر: ((مَن أقرض دينارًا إلى أجلٍ، فله بكلِّ يوم صدقة إلى أجله، فإذا حلَّ الأجل فأنظره بعده، فله بكلِّ يوم مثل ذلك الدَّين صدقة))(٢)، ونظر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلًا بدين، فأومأ إلى صاحب الدَّين بيده، أي: ضع الشَّطر، ففعل، فقال للمديون: ((قم فأعطه))(٣).

الرَّابع: في توفية الدَّين، ومِن الإحْسَان فيه حسن القضاء، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحقِّ، ولا يكلِّفه أن يمشي إليه يتقاضاه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((خيركم أحسنكم قضاءً))(٤)، ومهما قدر على قضاء الدَّين

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٦) بلفظ: (رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى) مِن حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-. ورواه الطَّبراني في ((الأوسط)) (١٠٧/٦) بلفظ: (رحم الله سهل الشِّراء، سهل القضاء، سهل التَّقاضي) مِن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) ذكره الغَزَّالي في ((إحياء علوم الدِّين)) (٨١/٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧١)، ومسلم (١٥٥٨) مِن حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).

فليبادر إليه ولو قبل وقته، وإن عجز فلينوِ قضاءه مهما قدر، ومهما كلَّمه مستحقُّ الحقِّ بكلام خشن، فليتحمَّله وليقابله باللُّطف اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم لـمَّا ردَّد عليه كلامه صاحب الدَّين، فهمَّ به أصحابه، فقال: ((دعوه؛ فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا))(١). ومِن الإحْسَان أن يميل الحكم إلى مَن عليه الدَّين لعسره.

الخامس: أن يُقيل(٢) مَن يستقيله؛ فإنَّه لا يستقيل إلاَّ متندِّمٌ مُسْتَضِرٌّ بالبيع، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه، وفي الخبر: ((مَن أقال نادمًا صفقته، أقال الله عثرته يوم القيامة))(٣).

السَّادس: أن يقصد في معاملته جماعة مِن الفقراء بالنَّسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم مَيْسَرة، وكان مِن السَّلف مَن يقول لفقير: خذ ما تريد، فإن يُسِّر لك فاقض، وإلَّا فأنت في حلٍّ منه وسعة.

٦- الإحْسَان إلى المسيء:

(ومِن أجلِّ أنواع الإحْسَان: الإحْسَان إلى مَن أساء إليك بقولٍ أو فعلٍ. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أقاله يقيله إقالة. وتقايلا إذا فسخا البيع وعاد المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري، وتكون الإقالة في البيعة والعهد. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٥٨٠).
(٣) رواه ابن حبان (١١/٤٠٤) (٥٠٢٩)، والبزار (١٥/٣٧٤) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وضعَّفَه الدارقطني في ((لسان الميزان)) في (٦/١٠٠). وقال ابن حجر في ((لسان الميزان)) (٣/١٥٩): [فيه] الحسين بن حميد الخزاز قال ابن عدي: هو متَّهم فيها. وقال الشَّوكاني في ((السَّيل الجرَّار)) (٣/١٣٩): صحَّحه جماعة مِن الحفاظ.

ﱡذُو حَظٍّ عَظِيمٍﱠ [فصِّلت: ٣٤-٣٥].

ومن كانت طريقته الإحْسَان، أحسن الله جزاءه: ﱡهَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُﱠ [الرحمن: ٦٠])[١].

وذكر الهرويُّ أنَّ مِن منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (الفتوَّة)، وقال: (هي على ثلاث درجات، الدَّرجة الأولى ترك الخصومة، والتَّغافل عن الزلَّة، ونسيان الأذيَّة. والدَّرجة الثَّانية أن تقرِّب مَن يقصيك، وتكرم مَن يؤذيك، وتعتذر إلى مَن يجني عليك، سماحةً لا كظمًا، ومودَّةً لا مصابرةً)[٢].

قال ابن القيِّم في ذلك: (هذه الدَّرجة أعلى ممَّا قبلها وأصعب؛ فإنَّ الأولى تتضمَّن ترك المقابلة والتَّغافل، وهذه تتضمَّن الإحْسَان إلى مَن أساء إليك، ومعاملته بضِدِّ ما عاملك به، فيكون الإحْسَان والإساءة بينك وبينه خُطَّتين فخُطَّتك: الإحْسَان. وخُطَّته: الإساءة.

وفي مثلها قال القائل:

إذا مرِضْنا أتيْناكم نَعودُكمُ   وتُـذْنـبـون فـنَـأْتـيـكـم ونَـعـتـذرُ

ومَن أراد فهم هذه الدَّرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مع النَّاس يجدها بعينها)[٣].

٧- الإحْسَان في الكلام:

قال تعالى: ﱡوَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُﱠ [الإسراء: ٥٣].

---

(١) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ٢٠٦).

(٢) ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم (٣/١٣٩).

(٣) ((المصدر السابق)).

قال ابن كثير: (يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطَّيبة؛ فإنَّهم إذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشَّرُّ والمخاصمة والمقاتلة، فإنَّ الشَّيطان عدوٌّ لآدم وذرِّيته مِن حين امتنع مِن السُّجود لآدم، فعداوته ظاهرة بيِّنة؛ ولهذا نهى أن يشير الرَّجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإنَّ الشَّيطان ينزغ في يده، أي: فربَّما أصابه بها)[1].

٨- الإحْسَان في الجدال:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النَّحل: ١٢٥].

قال الشَّوكاني: (أي: بالطَّريق التي هي أحسن طرق المجادلة. وإنَّما أمر -سبحانه- بالمجادلة الحسنة لكون الدَّاعي محقًّا وغرضه صحيحًا، وكان خصمه مبطلًا وغرضه فاسدًا)[2].

٩- الإحْسَان إلى الحيوان:

ومِن الإحْسَان إلى الحيوان، إطعامه والاهتمام به، وحدُّ الشَّفرة عند ذبحه، وأن لا يحدَّ الشَّفرة أمامه، وعدم الحمل إليه أكثر مِن طاقته.

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله كتب الإحْسَان على كلِّ شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة...))، وكره أبو هريرة أن تُحَدَّ الشَّفرة والشَّاة تنظر إليها، وروى أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا أضجع شاة، فوضع رجله على عنقها، وهو يحدُّ شَفْرته، فقال له صلى الله عليه وسلم: ((ويلك، أردت أن

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) (٥/٨٧).
(٢) ((فتح القدير)) (٣/٢٨٧).

تميتها موتات؟ هلا أحددت شَفْرتك قبل أن تضجعها))[١]، وكان عمر بن الخطَّاب ينهى أن تُذْبَح الشَّاة عند الشَّاة[٢].

قال ابن رجب: (والإحْسَان في قتل ما يجوز قتله مِن النَّاس والدَّواب: إزهاق نفسه على أسرع الوجوه، وأسهلها. وهذا النَّوع هو الذي ذكره النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، ولعلَّه ذكره على سبيل المثال، أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال، فقال: ((إذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة))، والقِتْلة والذِّبْحة -بالكسر- أي: الهيئة، والمعنى: أحسنوا هيئة الذَّبح، وهيئة القَتْل. وهذا يدلُّ على وجوب الإسراع في إزهاق النُّفوس التي يُبَاح إزهاقها على أسهل الوجوه. وقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإحْسَان في الذَّبيحة)[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((في كلِّ كبد رطبة أجر))[٤].

قال النَّوويُّ: (معناه في الإحْسَان إلى كلِّ حيوان حي -بسقيه ونحوه- أجر، وسمَّي الحي ذا كبد رطبة؛ لأنَّ الميِّت يجفُّ جسمه وكبده. ففي الحديث الحثُّ على الإحْسَان إلى الحيوان المحترم، وهو ما لا يُؤمر بقتله. فأمَّا المأمور بقتله فيمتثل أمر الشَّرع في قتله، والمأمور بقتله كالكافر الحربي والمرتد والكلب العقور

---

(١) رواه الحاكم (٤/٢٥٧)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٩١٤١) مِن حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي في ((التلخيص))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٦٦٧). ورواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (٤/٤٩٣) مِن حديث عكرمة.

(٢) رواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (٤/٤٩٣).

(٣) ((جامع العلوم والحكم)) (١/٣٨٢).

(٤) رواه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والفواسق الخمس المذكورات في الحديث وما في معناهن. وأمَّا المحترم فيحصل الثَّواب بسقيه والإحْسَان إليه، أيضًا بإطعامه وغيره سواءً كان مملوكًا أو مباحًا، وسواءً كان مملوكًا له أو لغيره)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((عُذِّبت امرأة في هرَّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النَّار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل خَشَاش الأرض))[٢].

الأمثال في الإحْسَان:

- اسْقِ رَقَاشِ إنَّها سَقَّايَة:

يُضْرَب في الإحْسَان إلى المحسن[٣].

- إنَّما يَجْزِي الفَتى لَيْسَ الجَمَل:

ومعناه إنَّما يجزي على الإحْسَان بالإحْسَان مَن هو حرٌّ وكريم، فأمَّا مَن هو بمنزلة الجمل في لؤمه وموقه[٤]، فإنَّه لا يُوصَل إلى النَّفع مِن جهته إلاَّ إذا اقتُسر وقُهر[٥].

- إنَّما هو كبَارِحِ الأَرْوَى قليلًا ما يُرى:

وذلك أن الأَرْوَى مساكنُها الجبالُ، فلا يكاد النَّاس يرونها سانحةً ولا بارحةً إلَّا في الدَّهر مرَّة. يُضْرب لمن يُرى منه الإحْسَان في الأحايين[٦].

---

(١) ((شرح مسلم)) (١٤/٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) مِن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(٣) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/٣٣٣) ورقاش اسم امرأة.

(٤) الموق: حمق في غباوة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٣٥٠).

(٥) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (١/٥٧).

(٦) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/٢٥).

- جَزَيْتُهُ كَيْلَ الصَّاعِ بِالصَّاعِ:

إذا كافأتَ الإحْسَانَ بمثله والإساءةَ بمثلها[١].

- وجدت النَّاسَ إن قارضْتَهُم قارَضُوك:

أي: إن أحسنت إليهم أحسنوا إليك، وإن أسأت فكذلك[٢].

الإحْسَان في واحة الشِّعر:

قال أبو الفتح البستي:

زيادةُ المرءِ في دنياه نقصانُ ... وربحُه غيرَ محضِ الخير خسرانُ

أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهم ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إِحسانُ

مَن جادَ بالمالِ مالَ النَّاسُ قاطبةً ... إليه والمالُ للإنسانِ فتَّانُ

أَحْسِنْ إذا كان إمكانٌ ومَقْدِرَةٌ ... فلن يدومَ على الإنسان إمكانُ

حيَّاك مَن لم تكنْ ترجو تحيَّتَه ... لولا الدَّراهمُ ما حيَّاك إنسانُ[٣]

وقال أيضًا:

إن كنتَ تطلبُ رتبةَ الأشرافِ ... فعليك بالإحسانِ والإنصافِ

وإذا اعتدى خِلٌّ عليكَ فخلِّهِ ... والدَّهرَ فهو له مكافٍ كافِ[٤]

وقال المتنبي:

وللتَّرْك للإحسانِ خيرٌ لمحسنٍ ... إذا جَعَل الإحْسَانَ غيرَ ربيبِ[٥]

(١) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/١٦٨).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٣٦٦).

(٣) ((قصيدة عنوان الحكم)) لأبي الفتح البستي (ص ٣٥).

(٤) ((تاريخ دنيسر)) لأبي حفص (ص ١٣٢).

(٥) ((ديوان أبي الطيب المتنبي)) (ص ٣٢٣).

وقال أحمد الكيواني:

مَن يغرسِ الإحْسَانَ يجنِ محبَّةً دونَ المسيءِ المبعدِ المصرومِ
أقِلِ العثارَ تُقَلْ ولا تحسدْ ولا تحقِدْ فليسَ المرءُ بالمعصومِ

وقال ابن زنجي:

لا تَحْقِرَنَّ مِن الإحسانِ محقرةً أحْسِنْ فعاقبةُ الإحسانِ حُسناه

وقال آخر:

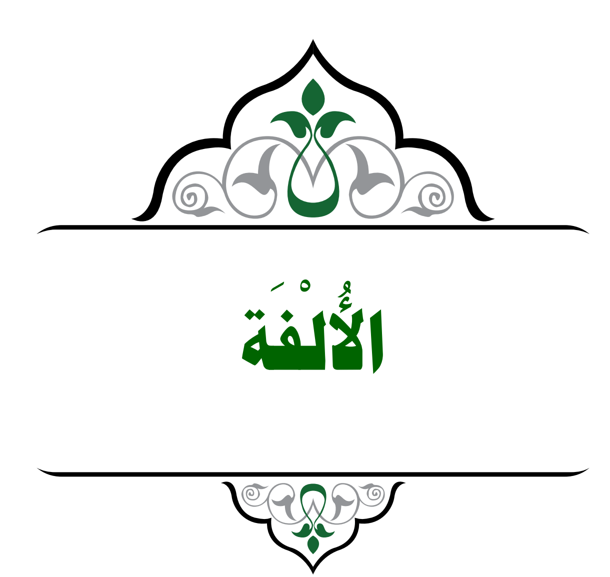
واللهِ ما حُلي الإمامُ بحليةٍ أبهى مِن الإحْسَانِ والإنصافِ
فلسوفَ يلقى في القيامةِ فِعْلَه ما كان مِن كدرٍ أتاه وصافي(١)

وقال أبو العتاهية:

لا تمشِ في النَّاس إلَّا رحمةً لهمُ ولا تعاملْهم إلَّا بإنصافِ
واقطعْ قوَى كلِّ حقدٍ أنت مُضْمِرُه إن زلَّ ذو زلَّةٍ أو إن هفا هافِ
وارغبْ بنفسك عمَّا لا صلاحَ له وأوسِعِ النَّاسَ مِن برٍّ وإلطافِ
وإن يكنْ أحدٌ أولاك صالحةً فكافِهِ فوقَ ما أولى بأضعافِ
ولا تكشِّفْ مُسيئًا عن إساءتِه وصِل حبالَ أخيك القاطعِ الجافي(٢)



(١) ((الجوهر النفيس في سياسة الرئيس)) لابن الحداد (١٢٣).
(٢) ((ديوان أبي العتاهية)) (٢٧٩).



الأُلْفَة

الأُلْفَة

معنى الأُلْفَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الأُلْفَة لغةً:

يقال: أَلِفته إلفًا -من باب علم- وألفته أنِسْت به، ولزمته وأحببته، والاسم الأُلفة بالضمِّ، والأُلفة أيضًا اسم من الائتلاف، وهو الالتئام والاجتماع.

فهو مُؤْلَفٌ ومأْلُوفٌ... وأَلَّفْتُ بينهم تأْلِيفًا إذا جَمَعْتَ بينَهم بعد تَفَرُّقٍ[١].

• معنى الأُلْفَة اصطلاحًا:

الأُلْفَة: اتِّفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش[٢].

وقال الرَّاغب: (الإلْفُ: اجتماع مع التئام، يقال: أَلَّفْتُ بينهم، ومنه: الأُلْفَة)[٣].

التَّرغيب الأُلْفَة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الرَّاغب الأصفهاني: (قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ حث على الأُلْفَة والاجتماع، الذي هو نظام الإيمان واستقامة أمور العالم، وقد فضَّل المحبَّة والأُلْفَة على الإنصاف والعدالة، لأنَّه يحُتاج إلى الإنصاف حيث تفقد المحبَّة.

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/١٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/١٨).
(٢) ((التَّعريفات)) للجرجاني (ص ٣٤).
(٣) ((مفردات ألفاظ القرآن)) (ص ٨١).

ولصدق محبَّة الأب للابن صار مؤتمنًا على ماله، والأُلْفَة أحد ما شرَّف الله به الشَّريعة سيَّما شريعة الإسلام)[(١)].

- وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الزَّمخشريُّ: (كانوا في الجاهليَّة بينهم الإحَن والعداوات والحروب المتواصلة، فألَّف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبَّة، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمرٍ واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوَّة في الله)[(٢)].

وقال السُّيوطي: (إذ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام فآخى به بينكم وألف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلَّا هو إنَّ الأُلْفَة لرحمة، وإنَّ الفُرْقَة لعذاب)[(٣)].

- وقال سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ (فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوَّتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوَّة غير قوَّة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعًا مِن ذهب وفضَّة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النُّفرة والفُرقة

---

(١) ((تفسير الرَّاغب الأصفهاني)) (٢/٧٦٥).
(٢) ((الكشَّاف)) (١/٣٩٥).
(٣) ((الدر المنثور)) (٢/٢٨٧).

الشَّديدة، ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنَّه لا يقدر على تقليب القلوب إلَّا الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومِن عزَّته أن ألَّف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة)[1].

وقال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾. (أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألُّف القلوب مع العصبيَّة الشَّديدة في العرب مِن آيات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعجزاته؛ لأنَّ أحدهم كان يُلْطَم اللَّطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشدَّ خَلْق الله حميَّة، فألَّف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرَّجل أباه وأخاه بسبب الدِّين. وقيل: أراد التَّأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب)[2].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: ((لـمَّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في النَّاس في المؤلَّفة قلوبهم، ولم يعطِ الأنصار شيئًا، فكأنَّهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب النَّاس، فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب النَّاس بالشَّاة والبعير، وتذهبون بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا مِن الأنصار، ولو سلك النَّاس واديًا وشعبًا لسلكت وادي

---

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) للسعدي (١/٣٢٥).

(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٨/٤٢).

الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والنَّاس دثار، إنَّكم ستلْقَون بعدي أَثَرَة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض))[١].

وهذا مِن أكبر نعم الله في بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ألَّف به بين قوم قويت بينهم العصبيَّات، وينبغي أن يكون شأن المسلم هكذا: يؤلِّف بين المتفرِّقين ويأتلف حوله المحبون[٢].

- وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن يأْلَف ويُؤْلَف، ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يُؤْلَف))[٣].

قال المناوي في شرح قوله: ((المؤمن يأْلَف)) قال: (لحسن أخلاقه وسهولة طباعه ولين جانبه. وفي رواية: ((إلْفٌ مَأْلُوفٌ)). والإلْف: اللَّازم للشَّيء، فالمؤمن يأْلَف الخير، وأهله ويألفونه بمناسبة الإيمان، قال الطِّيبي: وقوله: ((المؤمن

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠).

(٢) انظر: ((هذه أخلاقنا)) لمحمود الخزندار (ص ١٩٤).

(٣) رواه أحمد (٢/٤٠٠) (٩١٨٧) بلفظ: ((المؤمن مؤلف))، والحاكم (١/٧٣) واللفظ له، والبيهقي (١٠/٢٣٦) (٢١٦٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (٣/٦٩): منكر، وحسن إسناده الذهبي في ((المهذب)) (٨/٤٢٥٥)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/٢٧٦): رجال أحمد رجال الصحيح، وصحح إسناده الألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٤٩٢٥).

ورواه أحمد (٥/٣٣٥) (٢٢٨٩١)، والطبراني (٦/١٣١) (٥٧٤٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٢٧١) (٨١٢٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

قال ابن حبان في ((المجروحين)) (٢/٣٦٨): فيه مصعب بن ثابت منكر الحديث ممن ينفرد بالمناكير عن المشاهير، وقال البيهقي في ((الآداب)) (١٣٩): وروي عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود، فذكره مرسلًا موقوفًا، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٩٠): فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وغيره وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله ثقات، وجود إسناده في (١٠/٢٧٦)، وصححه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤٢٥).

والحديث روي من طريق جابر بن عبدالله وروي من طرق عن ابن مسعود رضي الله عنهما مرفوعًا وموقوفًا.

إِلْفٌ)) يحتمل كونه مصدرًا على سبيل المبالغة، كرجل عدل، أو اسم كان، أي: يكون مكان الأُلْفَة ومنتهاها، ومنه إنشاؤها وإليه مرجعها، ((ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يُؤْلَف)) لضعف إيمانه، وعُسْر أخلاقه، وسوء طباعه. والأُلْفَة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصل الإجماع بين المسلمين وبضِدِّه تحصل النُّفْرة بينهم، وإنَّما تحصل الأُلْفَة بتوفيقٍ إلهي... ومِن التَّآلف: ترك المداعاة والاعتذار عند توهُّم شيء في النَّفس، وتَرْك الجدال والمراء وكثرة المزاح)[1].

وقال الماورديُّ: (بيَّن به أن الإنسان لا يُصْلِح حاله إلَّا الأُلْفَة الجامعة؛ فإنَّه مقصود بالأذيَّة، محسود بالنِّعمة، فإذا لم يكن إلفًا مألوفًا تختطفه أيدي حاسديه، وتحكَّم فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تَصْفُ له مدَّة، وإذا كان إلفًا مألوفًا انتصر بالأُلْف على أعاديه، وامتنع بهم مِن حسَّاده، فسلمت نعمته منهم، وصفت مودَّته بينهم، وإن كان صفو الزَّمان كدرًا ويُسْرُه عسرًا وسلمه خطرًا)[2].

قال الرَّاغب الأصفهاني: (ولذلك حثَّنا على الاجتماعات في الجماعات والجمعات، لكون ذلك سببًا للأُلْفَة، بل لذلك عظَّم الله تعالى المنَّة على المؤمنين بإيقاع الأُلْفَة بين المؤمنين ... وليس ذلك في الإنسان فقط، بل لولا أنَّ الله تعالى ألَّف بين الأركان المتضادة، لما استقام العالم)[3].

- وعن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((خيار أئمتكم: الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويصلُّون عليكم، وتصلُّون عليهم، وشرار

(١) ((فيض القدير)) (٦/٣٢٩).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((تفسير الرَّاغب الأصفهاني)) (١/١٣٢).

أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم))[١].

إنَّ خيار النَّاس في نظر الشَّرع هم الذين يأْلَفون ويُؤْلَفون، وخاصَّة حين يكونون في منصب أو مسؤوليَّة، إذ قد ينزلقون إلى صورٍ مِن الغلظة والجفوة حين يكونون مطلوبين لا طالبين[٢].

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((النَّاس معادن كمعادن الفضَّة والذَّهب، خيارهم في الجاهليَّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجنَّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))[٣].

قال ابن حجر: (قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت وإذا اختلفت تناكرت، ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب على ما جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجسام وكانت تلتقي فتتشاءم، فلما حلت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول فصار تعارفها وتناكرها على ما سبق من العهد المتقدم. وقال غيره: المراد أن الأرواح أول ما خلقت خلقت على قسمين، ومعنى تقابلها أن الأجساد التي فيها الأرواح إذا التقت في الدنيا ائتلفت أو اختلفت، على حسب ما خلقت عليه الأرواح في الدنيا إلى غير ذلك بالتعارف. قلت: ولا يعكر عليه أن بعض المتنافرين ربما ائتلفا لأنه محمول على مبدأ التلاقي فإنه يتعلق بأصل الخلقة بغير سبب، وأما في ثاني الحال فيكون مكتسبا لتجدد وصف

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٥).

(٢) انظر: ((هذه أخلاقنا)) لمحمود الخزندار (ص ١٩٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٣٨).

يقتضي الألفة بعد النفرة، كإيمان الكافر وإحسان المسيء. وقوله: (جنود مجندة) أي أجناس مجنسة أو جموع مجمعة. قال ابن الجوزي ويستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك؛ ليسعى في إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه. وقال القرطبي: الأرواح وإن اتفقت في كونها أرواحًا لكنها تتمايز بأمور مختلفة تتنوع بها، فتتشاكل أشخاص النوع الواحد وتتناسب بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة، ولذلك نشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها وتنفر من مخالفها، ثم إنا نجد بعض أشخاص النوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر، وذلك بحسب الأمور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها)[١].

أقوال السَّلف والعلماء في الأُلْفَة:

- عن مجاهد قال: رأى ابن عبَّاس رجلًا فقال: (إنَّ هذا ليحبُّني. قالوا: وما علمك؟ قال: إنِّي لأحبُّه، والأرواح جنودٌ مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[٢].

- وعن الأوزاعيِّ قال: كتب إليَّ قتادة: إن يكن الدَّهر فرَّق بيننا فإنَّ أُلْفَة الله الَّذي ألَّف بين المسلمين قريب[٣].

- وقال يونس الصَّدفي: (ما رأيت أعقل مِن الشَّافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثمَّ افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثمَّ قال: يا أبا موسى، ألَا يستقيم أن

(١) ((فتح الباري)) (٦/٣٦٩).
(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٠٨).
(٣) ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/١٠١).

نكون إخوانًا وإن لم نتَّفق في مسألة)[١].

- وقال السُّلمي: (وأصل التَّآلف هو بغض الدُّنْيا والإعراض عنها، فهي التي توقع المخالفة بين الإخوان)[٢].

- وقال الماورديُّ: (الإنسان مقصود بالأذيَّة، محسود بالنِّعمة. فإذا لم يكن آلفًا مألوفًا تخطَّفته أيدي حاسديه، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تَصْفُ له مُدَّة. فإذا كان آلفًا مألوفًا انتصر بالأُلْفَة على أعاديه، وامتنع مِن حاسديه، فسَلِمت نعمته منهم، وصَفَت مُدَّتُه عنهم، وإن كان صفو الزَّمان عُسْرًا، وسِلمُه خَطَرًا)[٣].

- وقال الْغَزالِي (الأُلْفَة ثَمَرَة حُسْن الخُلُق، والتَّفرق ثَمَرَة سوءِ الخُلُق، فَحُسْن الخُلُق يُوجب التَّحبُّب والتَّآلف والتَّوافق، وسُوء الخُلُق يُثمر التَّباغض والتَّحاسد والتَّناكر)[٤].

- وقال أبو حاتم: (سبب ائتلاف النَّاس وافتراقهم بعد القضاء السَّابق هو: تعارف الرُّوحين وتناكر الرُّوحين، فإذا تعارف الرُّوحان وُجِدَت الأُلْفَة بين نفسيهما، وإذا تناكر الرُّوحان وُجِدَت الفُرْقَة بين جسميهما)[٥].

- وقال أيضًا: (إنَّ مِن النَّاس مَن إذا رآه المرء يُعْجَب به، فإذا ازداد به علمًا ازداد به عجبًا، ومنهم مَن يبغضه حين يراه، ثمَّ لا يزداد به علمًا إلَّا ازداد له

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٠/١٦).
(٢) ((آداب الصحبة)) (ص ٧٨).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ١٤٦).
(٤) ((إحياء علوم الدين)) (٢/١٥٧).
(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٤٦).

مقتًا، فاتِّفاقهما يكون باتِّفاق الرُّوحين قديمًا)[١].

- وقال ابن تيمية: (إنَّ السَّلف كانوا يختلفون في المسائل الفرعيَّة، مع بقاء الأُلْفَة والعصمة وصلاح ذات البين)[٢].

- وقال الأبشيهي: (التَّآلف سبب القوَّة، والقوَّة سبب التَّقوى، والتَّقوى حصنٌ منيع وركن شديد، بها يُمْنَع الضَّيم، وتُنَال الرَّغائب، وتنجع المقاصد)[٣].

فوائد الأُلْفَة[٤]:

١- قيام الأُلْفَة بين المؤمنين مِن أسباب النَّصر والتَّمكين.

٢- الأُلْفَة تجمع شمل الأمَّة وتمنع ذلَّهم.

٣- الأُلْفَة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله.

٤- الألفة من أسباب محبَّة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

٥- تُحقق التَّماسك الاجتماعي، وتُشيع روح المودَّة بين المسلمين.

٦- داعية إلى التَّناصر وسلامة المجتمع المسلم.

٧- توفِّر جوًّا اجتماعيًّا سليمًا لنمو الإنسان المسلم نموًّا سليمًا في إطار مبادئ الإسلام.

٨- داعية إلى التَّوحد الاجتماعي، ونبذ أسباب الفُرْقة والمعاداة.

٩- تُشيع التَّعاون بين المسلمين، وفي ذلك مدعاة لرضا الله تعالى ثمَّ رضا النَّاس.

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١١٠).
(٢) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/٩٢).
(٣) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ١٣٠).
(٤) الفوائد من رقم ٥ إلى ٩ من كتاب ((نضرة النعيم)) (٢/٥٠٦).

أسباب الأُلْفَة:

هناك أسبابٌ كثيرةٌ تؤدِّي إلى الأُلْفَة والمحبَّة، وتقوي الروابط والعلاقات بين أفراد المجتمع المسلم فمنها:

١- التَّعارف ومعاشرة النَّاس:

قال صلى الله عليه وسلم: ((الأرواح جنودٌ مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف))[١].

٢- التَّواضع:

إنَّ (خفض الجنَاح ولين الكَلِمَة وتَرْك الإغلاظ مِن أَسبَاب الأُلْفَة واجتماع الكَلِمَة وانتظام الأَمر ولهذا قيل: مَن لانت كلمته وجبت محبَّته وحَسُنَت أُحدُوثته، وظمئت الْقُلُوب إلى لقائه وتنافست في مودته)[٢].

قال ابن عثيمين: (وظيفة المسلم مع إخوانه، أن يكون هيِّنًا ليِّنًا بالقول وبالفعل؛ لأنَّ هذا ممَّا يوجب المودَّة والأُلْفَة بين النَّاس، وهذه الأُلْفَة والمودَّة أمرٌ مطلوبٌ للشَّرع، ولهذا نهى النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام عن كلِّ ما يوجب العداوة والبغضاء)[٣].

٣- القيام بحقوق المسلمين والالتزام بها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حق المسلم على المسلم خمسٌ: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس))[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).

(٢) انظر: ((التيسير بشرح الجامع الصَّغير)) للمناوي (١/٤٣٤).

(٣) ((شرح رياض الصالحين)) (٢/٥٤٤).

(٤) رواه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢٦١٢).

(فهذه الحقوق التي بيَّنها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كلَّها إذا قام بها النَّاس بعضهم مع بعض، حَصل بذلك الأُلْفَة والمودَّة، وزال ما في القلوب والنُّفوس مِن الضَّغائن والأحقاد)[١].

ومن ذلك:

٤- إفشاء السَّلام:

قال صلى الله عليه وسلم: ((يا أيُّها النَّاس أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا باللَّيل والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام))[٢].

(قال الإمام الرَّازي: الحكمة في طلب السَّلام عند التَّلاقي والمكاتبة دون غيرهما: أنَّ تحيَّة السَّلام طُلِبت عند ما ذكر؛ لأنَّها أوَّل أسباب الأُلْفَة، والسَّلامة التي تضمنها السَّلام هي أقصى الأماني فتنبسط النَّفس -عند الاطِّلاع عليه- أيَّ بسطٍ، وتتفاءل به أحسن فأل)[٣].

٥- زيارة المسلم وعيادته إذا مرض:

فزيارة المسلم لأخيه المسلم تبعث على الحبِّ والإخاء، ولا سيَّما عند المرض، مع ما أعده الله من الأجر والثواب له قال صلى الله عليه وسلم: ((مَن عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوَّأت مِن الجنَّة منزلًا))[٤].

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٦٠٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤) مِن حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وقال الحاكم (٣/١٤): صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (٤/٤٠).

(٣) ((فيض القدير)) للمناوي (١/٤٣٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٨)، وابن ماجه (١٤٤٣) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: غريب، وقال الحافظ ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٠/٥١٥): له شاهد بإسناد =

٦- الكلام اللَّين:

فالكلام اللَّين والطَّيب مِن الأسباب التي تؤلِّف بين القلوب، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

٧- التَّعفُّف عن سؤال النَّاس:

قال صلى الله عليه وسلم: ((وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبَّك النَّاس))[١].

٨- السَّعي للإصلاح بين النَّاس:

قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ ﴾ [الأنفال: ١].

٩- الاهتمام بأمور المسلمين والإحساس بقضاياهم:

قال صلى الله عليه وسلم: ((المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر))[٢].

١٠- التَّهادي:

لا شك أن تقديم الهديَّة يزيد مِن الأُلْفَة والمحبَّة والتَّقارب بين المهدي والـمُهْدَى إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((تهادوا تحابُّوا))[٣].

= جيد، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٣٨٧).

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٣٤٨/٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٩٣/٦) مِن حديث سهل بن سعد السَّاعدي رضي الله عنه. وضعَّف إسناده البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٢١٠/٤)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٩٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٥٩٤)، وأبو يعلى (٩/١١) (٦١٤٨)، والبيهقي (١٦٩/٦) (١١٧٢٦). قال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥٣/٢): إسناده جيد. وحسَّن إسناده ابن حجر في ((التلخيص الحبير)) (١٠٤٧/٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)).

١١ – حسن الخلق:

قال الغزالي: (اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر ومهما كان المثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة)[١].

وقد أرجع الماورديُّ أسباب الأُلْفَة إلى خمسة أسباب رئيسة: وهي: الدِّين والنَّسب والمصاهرة والمودَّة والبرُّ، فقال:

١- (فأمَّا الدِّين: وهو الأوَّل مِن أسباب الأُلْفَة؛ فلأنَّه يبعث على التَّناصر، ويمنع مَن التَّقاطع والتَّدابر. وبمثل ذلك وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، فروى سفيان عن الزُّهري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث))[٢].

وهذا وإن كان اجتماعهم في الدِّين يقتضيه فهو على وجه التَّحذير مِن تذكُّر تراث الجاهليَّة وإحَن الضَّلالة. فقد بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشدُّ تقاطعًا وتعاديًا، وأكثر اختلافًا وتماديًا، حتى إنَّ بني الأب الواحد يتفرَّقون أحزابًا، فتثير بينهم بالتَّحزب والافتراق أحقاد الأعداء، وإحَن البعداء...

٢- وأما النَّسب: وهو الثَّاني مِن أسباب الأُلْفَة؛ فلأن تعاطف الأرحام حميَّة القرابة يبعثان على التَّناصر والأُلْفَة، ويمنعان مِن التَّخاذل والفرقة، أنفة مِن

---

(١) ((إحياء علوم الدين)) (٢/١٥٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٨) بلفظ آخر.

استعلاء الأباعد على الأقارب، وتوقيًا مِن تسلُّط الغرباء الأجانب. وقد رُوِي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((إنَّ الرَّحم إذا تماسَّت تعاطفت))[1].

٣- وأمَّا المصاهرة: وهي الثَّالث مِن أسباب الأُلْفَة، فلأنَّها استحداث مواصلة، وتمازج مناسبة، صدرا عن رغبةٍ واختيار، وانعقدا على خيرٍ وإيثار، فاجتمع فيها أسباب الأُلْفَة ومواد المظاهرة. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الرُّوم: ٢١] يعني بالمودَّة المحبَّة، وبالرَّحمة الحنو والشَّفقة، وهما مِن أوكد أسباب الأُلْفَة...

٤- وأمَّا المؤاخاة بالمودَّة، وهي الرَّابع مِن أسباب الأُلْفَة؛ لأنَّها تكسب بصادق الميل إخلاصًا ومصافاة، ويحدث بخلوص المصافاة وفاءً ومحاماةً. وهذا أعلى مراتب الأُلْفَة، ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه؛ لتزيد ألفتهم، ويقوي تضافرهم وتناصرهم ...

٥- وأمَّا البرُّ، وهو الخامس مِن أسباب الأُلْفَة، فلأنَّه يوصِّل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبَّة وانعطافًا. ولذلك ندب الله تعالى إلى التَّعاون به، وقرنه بالتَّقوى له، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

لأنَّ في التَّقوى رضى الله تعالى، وفي البرِّ رضى النَّاس. ومَن جَمَع بين رضى الله تعالى ورضى النَّاس فقد تمَّت سعادته، وعمَّت نعمته)[2].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٤٩).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٤٧-١٦١).

الأُلْفَة في واحة الشِّعر:

قال عليٌّ رضي الله عنه:

عليك بإخوانِ الصفاءِ فإنَّهم عمادٌ إذا استنجدتَهم وظهورُ
وإنَّ قليلًا ألفُ خلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ[1]

قال أحمد بن محمَّد بن بكر الأبناوي:

إنَّ القلوبَ لأجنادٌ مجنَّدةٌ للهِ في الأرضِ بالأهواءِ تعترفُ
فما تعارفَ منها فهو مؤتلفٌ وما تناكرَ منها فهو مختلفُ[2]

وقال منصور بن محمَّد الكريزي:

فما تبصرُ العينانِ والقلبُ آلفٌ ولا القلبُ والعينان منطبقان
ولكن هما روحان تعرضُ ذي لذى فيعرفُ هذا ذي فيلتقيان[3]

وقال: محمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

تعارفُ أرواحُ الرِّجال إذا التقوا فمنهم عدوٌّ يُتَّقى وخليلُ
كذاك أمورُ النَّاسِ والنَّاسُ منهم خفيفٌ إذا صاحبته وثقيلُ[4]

وقال المنتصر بن بلال الأنصاري:

يزينُ الفتى في قومِه ويشينُه وفي غيرِهم أخدانُه ومداخلُه
لكلِّ امرئٍ شكلٌ مِن النَّاسِ مثلُه وكلُّ امرئٍ يهوى إلى مَن يشاكلُه[5]

---

(١) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ١٣٠).
(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٠٨).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((المصدر السابق)).
(٥) ((المصدر السابق)) (ص ١٠٩).

وقال محمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إن كنت حُلْتَ، وبي استبدلت مُطَّرحًا وُدًّا فلم تأتِ مكروهًا ولا بدعا

فكلُّ طيرٍ إلى الأشكالِ موقعُها والفرعُ يجري إلى الأعراقِ منتزعا[1]



(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٠٩).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

موسوعة الأخلاق

الجزء الثاني

الأَمَانَة - الإِيثَار - البِرُّ - البَشَاشَة

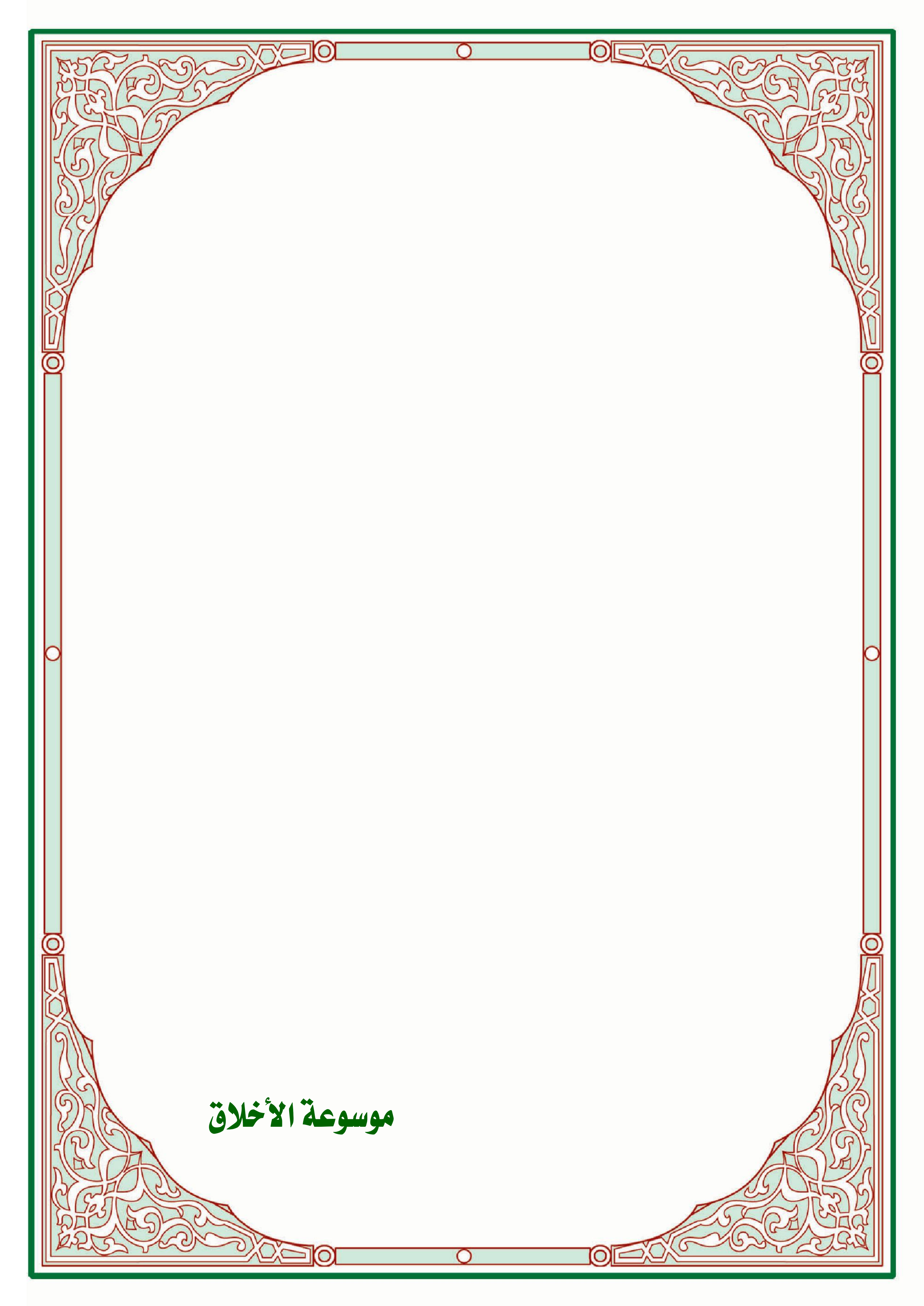
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الثاني

الأَمَانَة - الإِيثَار - البِرُّ - البَشَاشَة

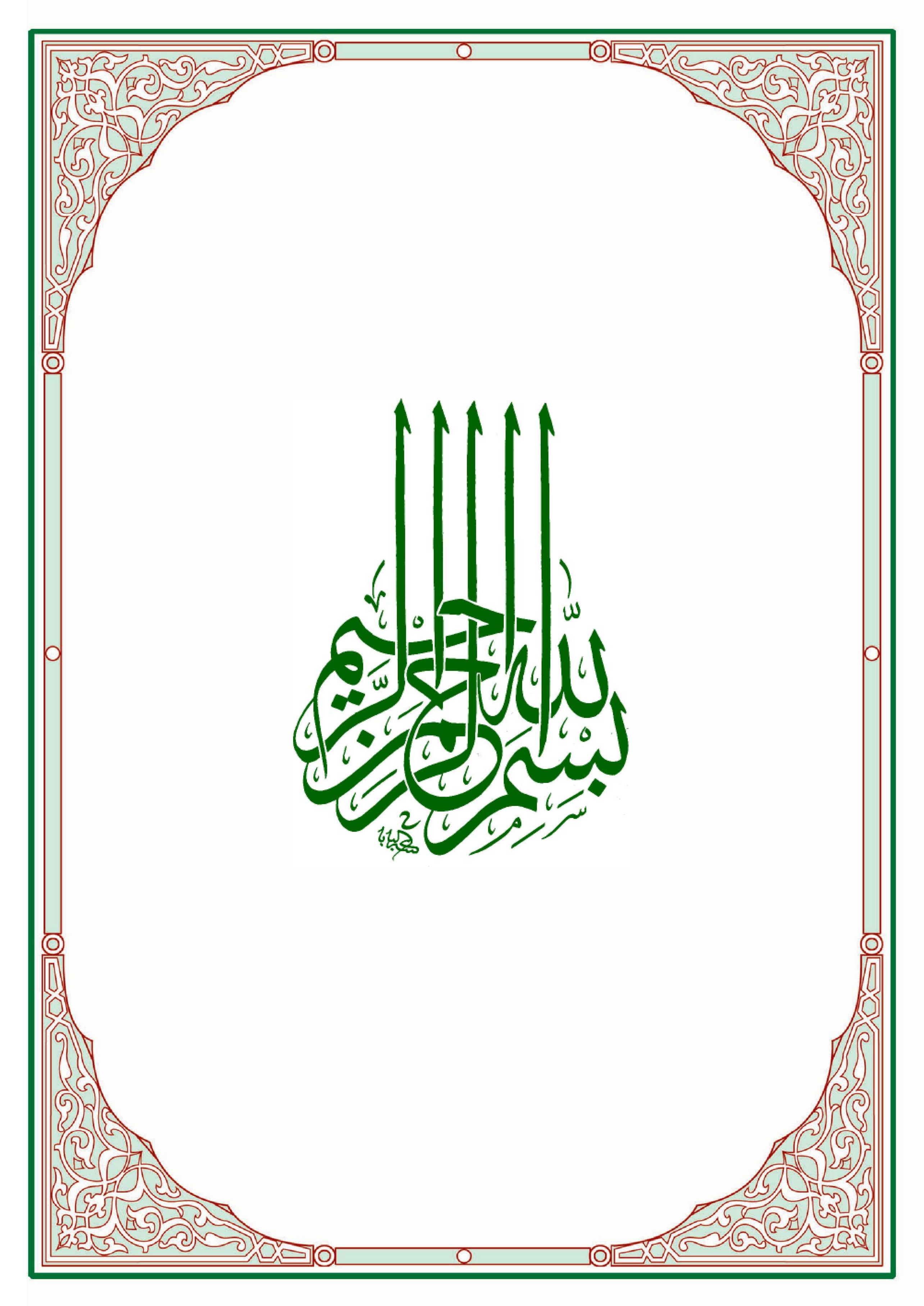
إعداد

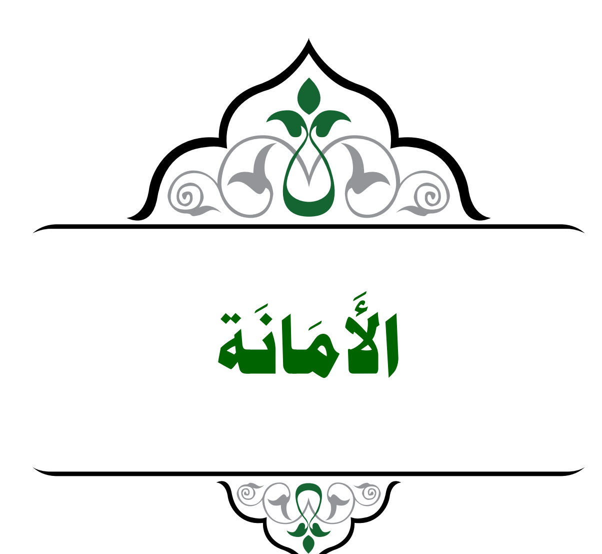
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



الأَمَانَة

الأمَانَة

معنى الأمَانَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الأمَانَة لغةً:

الأمانة ضد الخيانة، وأصل الأَمْن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمانة مصدر أمن بالكسر أمانة فهو أمين، ثم استعمل المصدر في الأعيان مجازًا، فقيل الوديعة أمانة ونحوه، والجمع أمانات، فالأمانة اسم لما يُؤمَّن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٧]، أي: ما ائتمنتم عليه، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢][١].

• معنى الأمَانَة اصطلاحًا:

الأمانة: هي كلُّ حقٍّ لزمك أداؤه وحفظه[٢].

وقيل هي: (التَّعفُّف عمَّا يتصرَّف الإنسان فيه مِن مال وغيره، وما يوثق به عليه مِن الأعراض والحرم مع القدرة عليه، وردُّ ما يستودع إلى مودعه)[٣].

وقال الكفوي: (كلُّ ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاة وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار)[٤].

التَّرغيب في الأمَانَة:

أولًا: في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ

---

(١) انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢١/١٣)، ((مفردات ألفاظ القرآن)) للرَّاغب الأصفهاني (٩٠/١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢٤/١).

(٢) ((فيض القدير)) للمناوي (٢٨٨/١).

(٣) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص ٢٤).

(٤) ((الكليات)) (ص ٢٦٩).

ﭐلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النِّساء: ٥٨].

قال ابن تيمية: (قال العلماء: نزلت... في ولاة الأمور: عليهم أن يؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين النَّاس أن يحكموا بالعدل... وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة)[١].

وقال الشَّوكاني: (هذه الآية مِن أمَّهات الآيات المشتملة على كثير مِن أحكام الشَّرع؛ لأنَّ الظَّاهر أنَّ الخطاب يشمل جميع النَّاس في جميع الأمانات، وقد رُوِي عن علي، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب أنَّها خطاب لولاة المسلمين، والأوَّل أظهر، وورودها على سبب... لا ينافي ما فيها مِن العموم، فالاعتبار بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، كما تقرَّر في الأصول، وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولًا أوَّليًّا، فيجب عليهم تأدية ما لديهم مِن الأمانات، وردُّ الظُّلامات، وتحرِّي العدل في أحكامهم، ويدخل غيرهم مِن النَّاس في الخطاب، فيجب عليهم ردُّ ما لديهم مِن الأمانات، والتَّحرِّي في الشهادات والأخبار. وممَّن قال بعموم هذا الخطاب: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عبَّاس، وأبيُّ بن كعب، واختاره جمهور المفسِّرين، ومنهم ابن جرير، وأجمعوا على أنَّ الأمانات مردودة إلى أربابها: الأبرار منهم والفجار، كما قال ابن المنذر)[٢].

- وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ

(١) ((السياسة الشرعية)) (ص ١٢).
(٢) ((فتح القدير)) (٧١٩/١).

ﭐللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣].

ففي هذه الآية: (عظَّم تعالى شأن الأمَانَة، التي ائتمن الله عليها المكلَّفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السِّرِّ والخفية، كحال العلانية، وأنَّه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السَّماوات والأرض والجبال، عَرْض تخيير لا تحتيم، وأنَّكِ إن قمتِ بها وأدَّيتِهَا على وجهها، فلكِ الثَّواب، وإن لم تقومي بها، ولم تؤدِّيها فعليك العقاب. ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربِّهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعَرَضَها الله على الإنسان، على ذلك الشَّرط المذكور، فقَبِلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل)[1].

- وقال تعالى في ذكر صفات المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، (أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربِّه، كالتَّكاليف السِّرِّيَّة، التي لا يطَّلع عليها إلَّا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار)[2].

- والقرآن حكى لنا قصَّة موسى حين سقى لابنتي الرَّجل الصَّالح، ورفق بهما، وكان معهما عفيفًا أمينًا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) للسعدي (ص ٦٧٣).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٨٨٧).

ﭐسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ [القصص: ٢٣-٢٦].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: (أخبرني أبو سفيان أنَّ هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنَّه يأمر بالصَّلاة والصِّدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمَانَة. قال: وهذه صفة نبي)[١].

- وعنه أيضًا رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[٢].

(يعني إذا ائتمنه النَّاس على أموالهم أو على أسرارهم أو على أولادهم أو على أي شيء مِن هذه الأشياء فإنَّه يخون -والعياذ بالله-، فهذه مِن علامات النِّفاق)[٣].

- وعن ابن عباس أيضًا قال: ((بينما النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدِّث القوم، جاء أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدِّث. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: أين أُراه السَّائل عن السَّاعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله. قال: فإذا ضُيِّعت الأمَانَة فانتظر السَّاعة. قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السَّاعة))[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/٤٨).

(٤) رواه البخاري (٥٩) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: ((حدَّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدَّثنا أنَّ الأمَانَة نزلت في جذر قلوب الرِّجال، ثمَّ علموا مِن القرآن ثمَّ علموا مِن السُّنَّة. وحدَّثنا عن رفعها. قال: ينام الرَّجل النَّومة فتقبض الأمَانَة مِن قلبه فيظلُّ أثرها مثل أثر الوَكْت. ثمَّ ينام النَّومة فتُقْبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المجْل[١]، كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط[٢]. فتراه منتبِرًا[٣] وليس فيه شيء، ويصبح النَّاس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدِّي الأمَانَة، فيقال: إنَّ في بني فلان رجلًا أمينًا. ويقال للرَّجل: ما أعقله، وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبَّة خردل مِن إيمان))[٤].

(الحديث يصوِّر انتزاع الأمَانَة مِن القلوب الخائنة تصويرًا محرجًا، فهي كذكريات الخير في النُّفوس الشِّرِّيرة، تمرُّ بها وليست منها، وقد تترك مِن مرِّها أثرًا لاذعًا. بيد أنَّها لا تحيي ضميرًا مات، وأصبح صاحبه يزن النَّاس على أساس أثرته وشهوته، غير مكترث بكفر أو إيمان!! إنَّ الأمَانَة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرِّجال المهازيل، وقد ضرب الله المثل لضخامتها، فأبان أنَّها تثقل كاهل الوجود، فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها أو يفرِّط في حقِّها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

(١) المجل: هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ويصير كالقبة فيه ماء قليل. ((شرح النووي على مسلم)) (١٦٩/٢).

(٢) نفط: أي صار منتفطًا... يقال انتفط الجرح: إذا ورم وامتلأ ماءً. ((فتح الباري)) لابن حجر (٣٩/١٣).

(٣) منتبِرًا: مرتفعًا. ((شرح النووي على مسلم)) (١٦٩/٢).

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٧) ومسلم (١٤٣).

والظُّلم والجهل آفتان عرضتا للفطرة الأولى، وعُني الإنسان بجهادهما فلن يخلص له إيمان إلَّا إذا أنقاه مِن الظُّلم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ .....﴾ [الأنعام: ٨٢] ولن تخلص له تقوى إلَّا إذا نَقَّاها مِن الجهالة: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨] ولذلك بعد أن تقرأ الآية التي حملت الإنسان الأمَانَة تجد أنَّ الذين غلبهم الظُّلم والجهل خانوا ونافقوا وأشركوا، فحقَّ عليهم العقاب، ولم تكتب السَّلامة إلَّا لأهل الإيمان والأمَانَة: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣])[١].

- وعن عبد الله بن عمرو عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا يضرَّنَّك ما فاتك مِن الدُّنْيا: صِدْق حديث، وحِفْظ أمانة، وحُسْن خليقة، وعفَّة طُعْمة))[٢].

أقوال السَّلف والعلماء في الأمَانَة:

- قال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه: (أصدق الصِّدق الأمَانَة وأكذب الكذب الخيانة)[٣] .

- وعن ابن أبي نجيح قال: (لما أُتِي عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه

---

(١) ((خلق المسلم)) للغزالي (ص ٤٧).

(٢) رواه أحمد (١٧٧/٢) (٦٦٥٢)، والبيهقي في ((الشُّعب)) (٢٠٢/٧) مِن حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-. قال المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٥٠/٤): أسانيده حسنة. وحسَّن إسناده الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢٩٨/١٠)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (١٣٨/١٠).

(٣) روى نحوه البيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٣٠٠٩).

بعود في يده ويقول: والله إنَّ الذي أدَّى إلينا هذا لأمين. فقال رجل: يا أمير المؤمنين أنت أمين الله يؤدُّون إليك ما أدَّيت إلى الله فإذا رتعت رتعوا. قال: صدقت)[١].

- وعن هشام أنَّ عمر قال: (لا تغرُّني صلاة امرئ ولا صومه، مَن شاء صام، ومَن شاء صلى، لا دين لمن لا أمانة له)[٢].

- وقال عبد الله بن مسعود: (القتل في سبيل الله كفَّارة كلِّ ذنب إلَّا الأمَانَة، وإنَّ الأمَانَة الصَّلاة والزَّكاة والغسل مِن الجنابة والكيل والميزان والحديث، وأعظم مِن ذلك الودائع)[٣].

- وعن أبي هريرة قال: (أوَّل ما يرفع مِن هذه الأمَّة الحياء والأمَانَة، فسلوها الله)[٤].

- وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: (لم يرخِّص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمَانَة)[٥].

- وقال نافع مولى ابن عمر: (طاف ابن عمر سبعًا وصلَّى ركعتين، فقال له رجل مِن قريش: ما أسرع ما طفت وصلَّيت يا أبا عبد الرَّحمن. فقال ابن عمر: أنتم أكثر منَّا طوافًا وصيامًا، ونحن خير منكم بصدق الحديث، وأداء الأمَانَة وإنجاز الوعد)[٦].

(١) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/١١٥).

(٢) رواه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (١٦٢).

(٣) ((المصدر السابق)) (١٥٩).

(٤) ((المصدر السابق)) (١٧٨).

(٥) ذكره ابن عطية في ((تفسيره)) (٢/٧٠)، والقرطبي (٥/٢٥٦)، وأبو حيان في ((البحر المحيط)) (٣/٦٨٤).

(٦) رواه الفاكهي في ((أخبار مكة)) (١/٢١١)، وذكره ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٤/٥٠٠).

- وعن سفيان بن عيينة قال: (مَن لم يكن له رأس مال فليتخذ الأمَانَة رأس ماله)[1].

- وقال ميمون بن مهران: (ثلاثة يؤدَّين إلى البرِّ والفاجر: الأمَانَة، والعهد، وصلة الرَّحم)[2].

- وقال الشَّافعي: (آلات الرِّياسة خمس: صِدق اللَّهجة، وكتمان السِّرِّ، والوفاء بالعهد، وابتداء النَّصيحة، وأداء الأمَانَة)[3].

- وقال ابن أبي الدُّنْيا: (الدَّاعي إلى الخيانة شيئان: المهانة وقلَّة الأمَانَة، فإذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته)[4].

- وعن خالد الربعي قال كان يقال: (إنَّ مِن أجدر الأعمال أن لا تُؤخَّر عقوبته أو يُعجَّل عقوبته: الأمَانَة تُخَان، والرَّحم تُقْطَع، والإحْسَان يُكْفَر)[5].

فوائد الأمَانَة[6]:

١- الأمَانَة مِن كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٢- يقوم عليها أمر السَّموات والأرض.

٣- هي محور الدِّين وامتحان ربِّ العالمين.

٤- بالأمَانَة يُحْفَظ الدِّين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشَّهادة والقضاء والكتابة...

٥- الأمين يحبُّه الله ويحبُّه النَّاس.

---

(١) ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/٥٠٠).
(٢) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٢١٩).
(٣) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٩/٣٠).
(٤) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٣٣).
(٥) ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (١/١٧٢).
(٦) ((نضرة النعيم)) (٣/٥٢٤).

٦- مِن أعظم الصِّفات الخُلقيَّة التي وصف الله بها عباده المؤمنين بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]، و[المعارج: ٣٢]

٧- مجتمع تفشو فيه الأمَانَة مجتمع خيرٍ وبركة.

صور الأمَانَة:

هناك مجالات وصور تدخل فيها الأمَانَة وهي كثيرة فـ(الأمانة باب واسعٌ جدًّا، وأصلها أمران:

أمانة في حقوق الله: وهى أمانة العبد في عبادات الله عزَّ وجلَّ. وأمانة في حقوق البشر)(١). وفيما يلي تفصيل ما يدخل تحتهما من صور:

١- الأمَانَة فيما افترضه الله على عباده:

فمِن الأمَانَة: (ما ائتمنه الله على عباده مِن العبادات التي كلَّفهم بها، فإنَّها أمانة ائتمن الله عليها العباد)(٢).

٢- الأمَانَة في الأموال:

(ومِن الأمَانَة: العفَّة عمَّا ليس للإنسان به حقٌّ مِن المال، وتأدية ما عليه مِن حقٍّ لذويه، وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحقِّ فيه، وتدخل في البيوع والديون والمواريث والودائع والرهون والعواري والوصايا وأنواع الولايات الكبرى والصُّغرى وغير ذلك)(٣).

(ومنها الأمَانَة المالية وهي: الودائع التي تُعطَى للإنسان ليحفظها لأهلها.

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٤٦٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٤٦٢).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرَّحمن الميداني (١/٥٩٥).

وكذلك الأموال الأخرى التي تكون بيد الإنسان لمصلحته، أو مصلحته ومصلحة مالكها؛ وذلك أنَّ الأمَانَة التي بيد الإنسان إمَّا أن تكون لمصلحة مالكها أو لمصلحة مَن هي بيده أو لمصلحتهما جميعًا، فأمَّا الأوَّل فالوديعة تجعلها عند شخص، تقول -مثلًا-: هذه ساعتي عندك، احفظها لي. أو: هذه دراهم، احفظها لي. وما أشبه ذلك، فهذه وديعة المودع فيها بقيت عنده لمصلحة مالكها، وأمَّا التي لمصلحة مَن هي بيده فالعارية: يعطيك شخصٌ شيئًا يعيرك إيَّاه مِن إناء أو فراش أو ساعة أو سيَّارة، فهذه بقيت في يدك لمصلحتك، وأمَّا التي لمصلحة مالكها ومَن هي بيده: فالعين المستأجرة، فهذه مصلحتها للجميع؛ استأجرت منِّي سيَّارة وأخذتها، فأنت تنتفع بها في قضاء حاجتك، وأنا أنتفع بالأجرة، وكذلك البيت والدُّكَّان وما أشبه ذلك، كلُّ هذه مِن الأمانات)[1].

٣- الأمَانَة في الأعراض:

فمِن الأمَانَة في الأعراض: العفَّة عمَّا ليس للإنسان فيه حقٌّ منها، وكفُّ النَّفس واللِّسان عن نيل شيء منها بسوء، كالقذف والغيبة.

٤- الأمَانَة في الأجسام والأرواح:

فمِن الأمَانَة في الأجسام والأرواح: كفُّ النَّفس واليد عن التَّعرُّض لها بسوء، من قتل أو جرح أو ضرٍّ أو أذى.

٥- الأمَانَة في المعارف والعلوم:

فمِن الأمَانَة في المعارف والعلوم تأديتها دون تحريف أو تغيير، ونسبة

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٤٦٢).

الأقوال إلى أصحابها، وعدم انتحال الإنسان ما لغيره منها.

٦- الأمَانَة في الولاية:

فمِن الأمَانَة في الولاية: تأدية الحقوق إلى أهلها، وإسناد الأعمال إلى مستحقِّيها الأكفياء لها، وحفظ أموال النَّاس وأجسامهم وأرواحهم وعقولهم، وصيانتها ممَّا يؤذيها أو يضرُّ بها، وحفظ الدِّين الذي ارتضاه الله لعباده مِن أن يناله أحدٌ بسوء، وحفظ أسرار الدَّولة وكلِّ ما ينبغي كتمانه مِن أن يسرَّب إلى الأعداء، إلى غير ذلك مِن أمور[١].

قال ابن عثيمين: (ومِن الأمَانَة -أيضًا- أمانة الولاية، وهي أعظمها مسؤوليَّة، الولاية العامَّة والولايات الخاصَّة، فالسُّلطان -مثلًا، الرَّئيس الأعلى في الدَّولة- أمينٌ على الأمَّة كلِّها، على مصالحها الدِّينية، ومصالحها الدُّنيويَّة، على أموالها التي تكون في بيت المال، لا يبذِّرها ولا ينفقها في غير مصلحة المسلمين وما أشبه ذلك. وهناك أمانات أخرى دونها، كأمانة الوزير -مثلًا- في وزارته، وأمانة الأمير في منطقته، وأمانة القاضي في عمله، وأمانة الإنسان في أهله)[٢].

أمَّا إذا تعيَّن رجلان، أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوَّة، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية. قال ابن تيمية: (واجتماع القوَّة والأمَانَة في النَّاس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: اللَّهمَّ أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثِّقة، فالواجب في كلِّ ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعيَّن رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوَّة، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررًا فيها،

---

(١) من رقم ٣ إلى ٦، منقول من كتاب ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لعبد الرَّحمن الميداني (١/٥٩٥).
(٢) ((شرح رياض الصالحين)) (٢/٤٦٣).

فيُقَدَّم في إمارة الحروب الرَّجل القوي الشُّجاع -وان كان فيه فجور- على الرَّجل الضَّعيف العاجز، وإن كان أمينًا، كما سُئل الإمام أحمد عن الرَّجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قويٌّ فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيِّهما يُغْزى؟ فقال: أمَّا الفاجر القويُّ فقوَّته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأمَّا الصَّالح الضَّعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيُغْزَى مع القويِّ الفاجر، وقد قال النَّبيُّ: ((إنَّ الله يؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر))[١]. ورُوِي: ((بأقوام لا خلاق لهم))[٢]، وإن لم يكن فاجرًا كان أولى بإمارة الحرب ممَّن هو أصلح منه في الدِّين، إذا لم يسدَّ مسدَّه)[٣].

٧- الأمَانَة في الشَّهادة:

وتكون الأمَانَة في الشَّهادة بتحمُّلها بحسب ما هي عليه في الواقع، وبأدائها دون تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان.

٨ – الأمَانَة في القضاء:

وتكون الأمَانَة في القضاء بإصدار الأحكام وفْقَ أحكام العدل التي استُؤْمِن القاضي عليها، وفُوِّض الأمر فيها إليه.

٩- الأمَانَة في الكتابة:

وتكون الأمَانَة في الكتابة بأن تكون على وفْقِ ما يمليه مُمليها، وعلى وفْقِ الأصل الذي تُنْسَخ عنه، فلا يكون فيها تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي في ((الكبرى)) (١٤٧/٨)، والبزار (١٨٩/١٣)، والطبراني في ((الأوسط)) (٢٦٨/٢) مِن حديث أنس رضي الله عنه. وصحَّح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٧٣/١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٨٦٦).

(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥٤/٢٨).

وإذا كانت مِن إنشاء كاتبها فالأمَانَة فيها أن تكون مضامينها خالية مِن الكذب، والتَّلاعب بالحقائق، إلى غير ذلك.

١٠- الأمَانَة في الأسرار التي يُستأمن الإنسان على حفظها وعدم إفشائها:

وتكون الأمَانَة فيها بكتمانها[١].

(ومِن الأمانات ما يكون بين الرَّجل وصاحبه مِن الأمور الخاصَّة التي لا يجب أن يطَّلع عليها أحدٌ، فإنَّه لا يجوز لصاحبه أن يخبر بها، فلو استأمنك على حديث حدَّثك به، وقال لك: هذا أمانة، فإنَّه لا يحلُّ لك أن تخبر به أحدًا مِن النَّاس، ولو كان أقرب النَّاس إليك، سواءً أوصاك بأن لا تخبر به أحدًا، أو عُلِم مِن قرائن الأحوال أنَّه لا يحب أن يطلع عليه أحدٌ؛ ولهذا قال العلماء: إذا حدَّثك الرَّجل بحديث والتفت فهذه أمانة. لماذا؟ لأنَّ كونه يلتفت فإنَّه يخشى بذلك أن يسمع أحدٌ، إذًا فهو لا يحبُّ أن يطَّلع عليه أحدٌ، فإذا ائتمنك الإنسان على حديث فإنَّه لا يجوز لك أن تفشيه.

ومِن ذلك أيضًا ما يكون بين الرَّجل وبين زوجته مِن الأشياء الخاصَّة، فإنَّ شرَّ النَّاس منزلةً عند الله تعالى يوم القيامة الرَّجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثمَّ يروح ينشر سرَّها، ويتحدَّث بما جرى بينهما)[٢].

١١- الأمَانَة في الرِّسالات:

وتكون الأمَانَة فيها بتبليغها إلى أهلها تامَّة غير منقوصة ولا مزاد عليها، وعلى وفْقِ رغبة محمِّلها، سواء أكانت رسالة لفظيَّة أو كتابيَّة أو عمليَّة[٣].

---

(١) من رقم ٧ إلى ١٠، منقول من كتاب ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرَّحمن الميداني (١/٥٩٥).
(٢) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٤٦٤).
(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرَّحمن الميداني (١/٥٩٥).

١٢- الأمَانَة في السَّمع والبصر وسائر الحواس:

وتكون الأمَانَة فيها بكفِّها عن العدوان على أصحاب الحقوق، وبحفظها عن معصية الله فيها، وبتوجيهها للقيام بما يجب فيها مِن أعمال، فاستراق السَّمع خيانة، واستراق النَّظر إلى ما لا يحلُّ النَّظر إليه خيانة، واستراق اللَّمس المحرَّم خيانة(١).

(ومِن معاني الأمَانَة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك، وإلى المواهب التي خصَّك بها، وإلى ما حُبيت مِن أموالٍ وأولادٍ، فتدرك أنَّها ودائع الله الغالية عندك، فيجب أن تسخرها في قرباته، وأن تستخدمها في مرضاته. فإن امتُحِنتَ بنقص شيء منها فلا يستخفَّنَّك الجزع متوهمًا أنَّ ملكك المحض قد سُلب منك، فالله أولى بك منك. وأولى بما أفاء عليك وله ما أخذ وله ما أعطى. وإن امتُحِنتَ ببقائها فما ينبغي أن تجبن بها عن جهاد، أو تفتتن بها عن طاعة، أو تستقوي بها على معصية. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٢٧-٢٨])(٢).

١٣- الأمَانَة في النُّصح والمشورة:

ومِن صور الأمَانَة أن تنصح مَن استشارك، وأن تَصْدُق مَن وَثَق برأيك، فإذا عرض عليك أحدٌ مِن النَّاس موضوعًا معيَّنًا، وطلب منك الرَّأي والمشورة والنَّصيحة، فاعلم أنَّ إبداء رأيك له أمانة، فإذا أشرت عليه بغير الرَّأي

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرَّحمن الميداني (١/٥٩٥).

(٢) ((خلق المسلم)) للغزَالي (ص ٤٤).

الصَّحيح، فذلك خيانة[١].

وقد قال الرَّسول صلى الله عليه وسلم: ((المستشار مؤتمن))[٢].

نماذج في الأمَانَة:

الأمَانَة صفة الرُّسل[٣]:

إنَّ صفة الأمَانَة أحد الصِّفات الواجب توافرها في كلِّ رسول...

فإن كان خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، قد لُقِّب قبل البعثة (بالأمين) فلك أن تتصور شمائل الرُّجولة، وخصال الصَّلاح تتخايل في شخصه الكريم، والتي لأجلها وُضِع في المكان اللَّائق به.

والأَتْباع ما داموا عقلاء، فلابد أن يكون لهم نصيب مِن تلك الخِلَال، فقد وصف الله المؤمنين بما وصف به الملائكة والمرسلين، قال تعالى واصفًا للمؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ وقد وردت مرَّتين: في سورة [المؤمنون: ٨] وفي سورة [المعارج: ٣٢].

وتلك الصِّفة بعينها ذُكِرت خمس مرَّات متواليات بحقِّ الأنبياء في سورة الشُّعراء:

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾.. فقد قالها نبيُّ الله نوح في آية [١٠٧]، ونبيُّ الله هود، في آية [١٢٥]، ونبيُّ الله صالح في آية [١٤٣]، ونبيُّ الله لوط في آية

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لحسن المرسي (ص ١٨١).
(٢) رواه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وحسَّنه الترمذي، وقال ابن عدي في ((الكامل)) (٨٤/٦): لا بأس به. وصحَّحه ابن مفلح في ((الآداب الشَّرعية)) (٣٠٨/١).
(٣) ((سلوكيَّات مرفوضة)) لأسامة طه حمودة (ص ٣١).

[١٦٢]، ونبيُّ الله شعيب في آية [١٧٨].

بل إنَّ جبريل عليه السَّلام، مِن أسمائه: (الرُّوح الأمين).

ولا غرو، فبقدر امتداد معنى الأَمَانَة في النَّفس، تكون قيمتها، وتكون منزلة صاحبها.

الرَّسول صلى الله عليه وسلم القدوة في الأَمَانَة[١]:

أشهر مَن اتصف بالأَمَانَة هو نبيُّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم في كلِّ أمور حياته، قبل البعثة وبعدها.

أما أمانته قبل البعثة: فقد عُرِف بين قومه قبل بعثته بالأمين ولقِّب به، فها هي القبائل مِن قريش لما بنت الكعبة حتى بلغ البنيان موضع الركن -الحجر الأسود- اختصموا فيه، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون القبيلة الأخرى حتى تحالفوا وأعدُّوا للقتال، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالي أو خمسًا، ثمَّ تشاوروا في الأمر، فأشار أحدهم بأن يكون أوَّل مَن يدخل مِن باب المسجد هو الذي يقضي بين القبائل في هذا الأمر، ففعلوا، فكان أوَّل داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمَّد، فلمَّا انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، قال -عليه الصَّلاة والسَّلام-: ((هلمَّ إليَّ ثوبًا، فأُتِي به، فأخذ الركن، فوضعه فيه بيده، ثمَّ قال: لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية مِن الثَّوب، ثمَّ ارفعوه جميعًا، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثمَّ بنى عليه))[٢].

ولقد كان السَّبب في زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لحسن المرسي (ص ١٧٣).
(٢) ((السِّيرة النَّبويَّة)) لابن هشام (١/١٣٨).

هو الأَمَانَة، فقد تاجر صلى الله عليه وسلم في مال خديجة قبل البعثة، وقد اتَّصف في تجارته بصدق الحديث، وعظيم الأَمَانَة، يقول ابن الأثير في هذا الصَّدد: (فلمَّا بلغها -أي: خديجة- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صِدْقَ الحديث، وعظيم الأَمَانَة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشَّام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره مع غلامها ميسرة، فأجابها، وخرج معه ميسرة)[1]، ولـمَّا عاد إلى مكَّة، وقصَّ عليها ميسرة أخبار محمَّد صلى الله عليه وسلم قررت الزَّواج به.

والمواقف التي تدلُّ على أمانته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة كثيرة.

أمَّا أمانته بعد البعثة: فقد أدَّى الرَّسول صلى الله عليه وسلم الأَمَانَة الكبرى -التي تكفَّل بها وهي الرِّسالة- أعظم ما يكون الأداء، وتحمَّل في سبيلها أعظم أنواع المشقَّة.

وقد شهد له العدوُّ قبل الصَّديق بأمانته، ومِن الأمثلة على ذلك: ما جاء في حوار أبي سفيان (قبل إسلامه) وهرقل، حيث قال هرقل: (سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنَّه يأمر بالصَّلاة، والصِّدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأَمَانَة، قال: وهذه صفة نبيٍّ)... وفي موضع آخر يقول هرقل: (وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرُّسل لا يغدرون).

وقد كان صلى الله عليه وسلم أحرص النَّاس على أداء الأمانات والودائع للنَّاس حتى في أصعب وأحلك الأوقات، فها هي قريش تُودِع عنده أموالها أمانة لما يتوسَّمون فيه مِن هذه الصِّفة، وها هو صلى الله عليه وسلم يخرج مهاجرًا مِن مكَّة إلى المدينة، فماذا يفعل في أمانات النَّاس التي عنده؟! (قال لعلي بن أبي

---

(١) ((الكامل)) لابن الأثير (٢/٢٦)؛ و((السيرة النَّبويَّة)) لابن هشام (١/١٣٩).

طالب رضي الله عنه: نَمْ على فراشي، واتَّشح ببردي الأخضر، فنم فيه، فإنَّه لا يخلص إليك شيء تكرهه، وأمره أن يؤدِّي ما عنده مِن وديعة وأمانة[1].

نماذج في الأَمَانَة مِن الأمم الماضية:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اشترى رجل مِن رجل عقارًا له فوجد الرَّجل الذي اشترى العقار في عقاره جرَّةً فيها ذهبٌ، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك منِّي؛ إنَّما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذَّهب. فقال الذي شرى الأرض: إنَّما بعتك الأرض وما فيها. قال: فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولدٌ؟ فقال: أحدهما لي غلامٌ، وقال الآخر: لي جارية. قال أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدَّقا))[2].

- وعنه أيضًا، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه ذكر رجلًا مِن بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشُّهداء أشهدهم. فقال: كفى بالله شهيدًا. قال: فأتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفيلًا. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجلٍ مسمًّى، فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثمَّ التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجَّله، فلم يجد مركبًا فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثمَّ زجَّج[3] موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنِّي كنت تسلَّفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلتُ: كفى بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني

(١) رواه الطبري في ((تاريخه)) (٢/٣٧٢)، وانظر: ((الكامل)) لابن الأثير (٢/٧٣).
(٢) رواه البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١).
(٣) زجَّج: أي سوَّى موضع النقر وأصلحه؛ من تزجيج الحواجب، وهو حذف زوائد الشعر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/٢٨٧).

شهيدًا، فقلتُ: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإنِّي جهدت[1] أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإنِّي أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت[2] فيه، ثمَّ انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرَّجل الذي كان أسلفه ينظر، لعلَّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا فلما نشرها وجد المال والصَّحيفة، ثمَّ قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إليَّ بشيء؟ قال: أخبرك أنِّي لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. قال: فإنَّ الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدِّينار راشدًا))[3].

المعاني التي ترمز إليها الأمانة:

الأَمَانَة في نظر الشَّارع واسعة الدِّلالة، وهي ترمز إلى معان شتَّى، مناطها جميعًا شعور المرء بتبعته في كلِّ أمر يُوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنَّه مسؤول عنه أمام ربِّه... والعوام يقصرون الأَمَانَة في أضيق معانيها وآخرها ترتيبًا، وهو حفظ الودائع، مع أنَّ حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل.

وإنَّها الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها، حتى إنَّه عندما يكون أحدهم على أُهْبة السَّفر يقول له أخوه: ((أستودع الله

---

(١) الجهد بلوغك غاية الأمر الذي لا تألو على الجهد فيه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/١٣٣).

(٢) الولوج الدخول. انظر: ((المصدر السابق)) (٢/٣٩٩).

(٣) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٢٤٧٢)، ووصله أحمد (٢/٣٤٨) (٨٥٧١) والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٥٨٠٠). وصحَّحه ابن العربي في ((أحكام القرآن)) (١/٣٤٦)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (١٦/٢٤١).

دينك وأمانتك وخواتيم عملك))[١].

وعن أنس قال: ((قلَّما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلَّا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))[٢].

ولـمَّا كانت السَّعادة القصوى أن يُوقَى الإنسان شقاء العيش في الدُّنْيا، وسوء المنقلب في الأخرى، فإنَّ رسول الله جمع في استعاذته بين الحالين معًا، إذ قال: ((اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك مِن الجوع فإنَّه بئس الضَّجيع، وأعوذ بك مِن الخيانة فإنَّها بئس البطانة))[٣]، فالجوع ضياع الدُّنْيا والخيانة ضياع الدِّين[٤].

العمل بالحيل يفتح باب الخيانة:

قال ابن تيمية: (أخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((أنَّ أوَّل ما يُفْقَد مِن الدِّين الأَمَانَة، وآخر ما يُفْقد منه الصَّلاة))[٥]، وحدَّث عن رفع الأَمَانَة مِن

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٠)، والترمذي (٣٤٤٣)، وابن ماجه (٢٧٢٦) مِن حديث ابن عمر –رضي الله عنهما–. قال الترمذي: حسن صحيح غريب مِن هذا الوجه. وحسَّنه ابن حجر في ((الفتوحات الربانِّيَّة)) (١١٦/٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (٧٠/٩).

(٢) رواه أحمد (١٥٤/٣) (١٢٥٨٩)، وابن حبان (٤٢٢/١) (١٩٤)، والطبراني في ((الأوسط)) (٩٨/٣). وحسَّنه البغوي في ((شرح السنة)) (١٠٠/١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧١٧٩).

(٣) رواه أبو داود (١٥٤٧)، والنسائي (٥٤٦٨)، وابن ماجه (٣٣٥٤) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصحَّح إسناده النَّووي في ((الأذكار)) (٤٨٤)، وحسَّنه ابن حجر في ((الفتوحات الربانية)) (١٦٩/٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٢٨٣).

(٤) ((خلق المسلم)) لمحمد الغَزَالي (٤٠-٤١).

(٥) رواه الطبراني في ((المعجم الصَّغير)) (٢٣٨/١)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١٧٤/٤) والبيهقي في ((الشُّعب)) (٢١٥/٧) مِن حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه. قال البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٨٥٨/٤): تفرَّد به حكيم بن نافع، ورُوِي من وجه آخر. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣٢٤/٧): فيه حكيم بن نافع، وثَّقه ابن معين وضعَّفَه أبو زرعة، وبقيَّة رجاله ثقات. وحسنه لألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٥٧٥) مِن حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

القلوب، الحديث المشهور وقال: ((خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم)) فذكر بعد قرنه قرنين، أو ثلاثة، ثمَّ ذكر أنَّ بعدهم قومًا ((يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمن))(١)، وهذه أحاديث صحيحة مشهورة. ومعلوم أنَّ العمل بالحيل يفتح باب الخيانة والكذب، فإنَّ كثيرًا مِن الحيل لا يتم إلَّا أن يتفق الرَّجلان على عقد يظهرانه ومقصودهما أمر آخر، كما ذكرنا في التَّمليك للوقف، وكما في الحيل الرِّبويَّة، وحيل المناكح، وذلك الذي اتفقا عليه إن لزم الوفاء به كان العقد فاسدًا. وإن لم يلزم فقد جُوِّزت الخيانة والكذب في المعاملات، ولهذا لا يطمئن القلب إلى مَن يستحل الحيل خوفًا مِن مكره، وإظهاره ما يبطن خلافه، وفي الصحيحين عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((المؤمن مَن أَمِنَه النَّاس على دمائهم وأموالهم))(٢). والمحتال غير مأمون، وفي حديث ابن عمر أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمر: ((كيف بك يا عبد الله إذا بقيت في حثالة مِن النَّاس قد مَرَجَت عهودهم وأمانتهم، واختلفوا فصاروا هكذا. وشبَّك بين أصابعه، قال: فكيف أفعل يا رسول الله؟ قال: تأخذ ما تعرف، وتدع ما تنكر، وتقبل على خاصَّتك، وتدعهم وعوامهم))(٣). وهو حديث صحيح، وهو في بعض

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٢٢)، وأحمد (٤/٤٢٦) (١٩٨٣٦) واللَّفظ له، وابن حبان (١٥/١٢٣) مِن حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه أبو نعيم في ((الحلية)) (٢/٢٩٤)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٢٢٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٤٩٩٥)، وأحمد (٢/٣٧٩) (٨٩١٨) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٧١٠).

(٣) رواه أبو يعلى (٩/٤٤٢) (٥٥٩٣) مِن حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/٥٧): [فيه] سفيان بن وكيع وهو ضعيف. وروى البخاري =

نسخ البخاري، والحيل توجب مرج العهود والأمانات وهو قلقها واضطرابها، فإنَّ الرَّجل إذا سوغ له مَن يعاهد عهدًا، ثمَّ لا يفي به، أو أن يُؤمَن على شيء، فيأخذ بعضه بنوع تأويل، ارتفعت الثِّقة به وأمثاله، ولم يُؤْمَن في كثير مِن الأشياء أن يكون كذلك، ومَن تأمَّل حيل أهل الدِّيوان وولاة الأمور التي استحلُّوا بها المحارم، ودخلوا بها في الغلول والخيانة، ولم يبق لهم معها عهدٌ ولا أمانة، عَلِم يقينًا أنَّ الاحتيال والتَّأويلات أوجب عِظَم ذلك، وعَلِم خروج أهل الحيل مِن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان:٧]، ومخالفتهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١])[1].

الأَمَانَة في واحة الشِّعر:

قال كعب المزني:

أرعَى الأَمَانَةَ لا أخونُ أمانتي إنَّ الخؤونَ على الطريقِ الأنكبِ[2]

وقال عبيد بن الأبرص:

إذا أنت حمَّلتَ الخؤونَ أمانةً فإنَّك أسندتها شرَّ مسندِ[3]

وقال المعري:

يخونُك مَن أدَّى إليك أمانةً فلم ترعَه يومًا بقولٍ ولا فعلِ

= شطره الأوَّل (٤٨٠)، ورواه بتمامه: أبو داود (٤٣٤٢)، وأحمد (٢/١٦٢) (٦٥٠٨) مِن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وحسَّن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٢٩١)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (١٠/١٠).

(١) ((إقامة الدليل على إبطال التَّحليل)) لابن تيمية (٣٠٣-٣٠٦).

(٢) ((ديوان كعب بن زهير)) (ص ١٨٩).

(٣) ((ديوان عبيد بن الأبرص)) (ص ٥٩).

فأَحْسِنْ إلى مَن شئتَ في الأرضِ أو أسئْ فإنَّك تجزي حذوك النَّعل بالنَّعلِ[(١)]

وقال العرجي:

وما حُمِّل الإنسانُ مثلَ أمانةٍ أشقَّ عليه حين يحملُها حملا

فإن أنت حمِّلتَ الأمَانَةَ فاصطبرْ عليها فقد حمِّلتَ مِن أمرها ثقلا

ولا تقبلنَّ فيما رضيتَ نميمة وقل للذي يأتيك يحملُها مهلا[(٢)]

وقال صالح بن عبد القدوس:

أدِّ الأمَانَة والخيانة فاجْتَنِبْ واعْدِلْ ولا تظلمْ، يَطِبْ لك مكسبُ

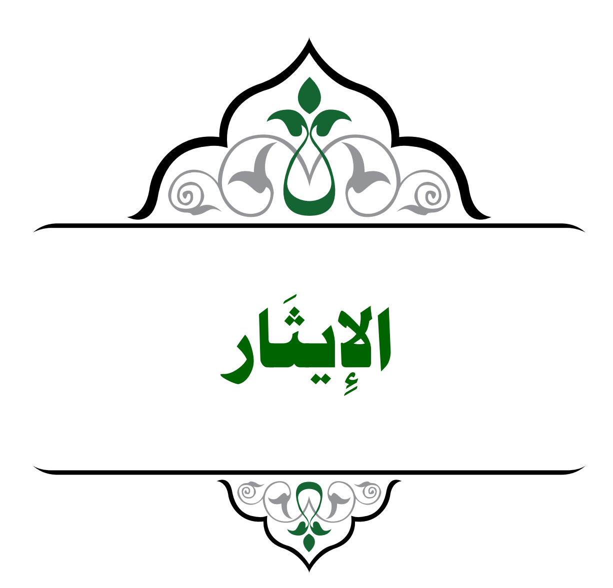
وإذا بُلِيْتَ بِنكبَةٍ فاصبرْ لها مَن ذا رأيت مسلَّمًا لا يُنكَبُ[(٣)]



(١) ((اللزوميات)) للمعري (٢/٢١٨).

(٢) ((ديوان العرجي)) (ص ٢٩٢).

(٣) ((مجموعة القصائد الزهديات)) (٢/٤٨١).



الإِيثَار

الإيثَار

معنى الإيثَار لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الإيثَار لغةً:**

الإيثَار مصدر آثر يُؤْثِر إيثَارًا، بمعنى التَّقديم والاختيار والاختصاص، فآثره إيثارًا اختاره وفضله، ويقال: آثره على نفسه، والشيء بالشيء خصه به(١).

- **معنى الإيثَار اصطلاحًا:**

(الإيثَار أن يقدِّم غيره على نفسه في النَّفع له، والدَّفع عنه، وهو النِّهاية في الأخوة)(٢).

وقال ابن مسكويه: (الإيثار: هو فضيلة للنَّفس بها يكفُّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصُّه حتى يبذله لمن يستحقُّه)(٣).

الفرق بين الإيثَار والسَّخاء والجود:

ذكر ابن قيِّم الجوزية فروقًا بين كلٍّ مِن الإيثار والسَّخاء والجود، مع أنَّها كلَّها أفعال بذلٍ وعطاء، قال ابن القيِّم في مدارج السالكين: (وهذا المنزل – أي الإيثَار-: هو منزل الجود والسَّخاء والإحْسَان، وسمِّي بمنزل الإيثَار؛ لأنَّه أعلى مراتبه، فإنَّ المراتب ثلاثة:

إحداها: أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه، فهو منزلة السَّخاء.

الثَّانية: أن يعطي الأكثر ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى فهو الجود.

(١) انظر: ((كتاب الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (٣٨/١)، ((المعجم الوسيط)) (٥/١).
(٢) ((التعريفات)) للجرجاني (٥٩/١).
(٣) ((تهذيب الأخلاق)) (ص ١٩).

الثَّالثة: أن يؤثر غيره بالشَّيء مع حاجته إليه، وهي مرتبة الإيثَار)[(١)].

التَّرغيب في الإيثار:

أولًا: في القرآن الكريم

يعتبر الإيثَار مِن محاسن الأخلاق الإسلاميَّة، فهو مرتبة عالية مِن مراتب البذل، ومنزلة عظيمة مِن منازل العطاء، لذا أثنى الله على أصحابه، ومدح المتحلِّين به، وبيَّن أنَّهم المفلحون في الدُّنْيا والآخرة.

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال الطَّبري: (يقول تعالى ذكره: وهو يصفُ الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ مِن قبل المهاجرين، ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يقول: ويعطون المهاجرين أموالهم إيثَارًا لهم بِها على أنفسهم، ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ يقول: ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثَروا به مِن أموالهم على أنفسهم)[(٢)].

وقال ابن كثير: (أي: يقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالنَّاس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك)[(٣)].

ويقول ابن تيمية: (وأمَّا الإيثَار مع الخصاصة فهو أكمل مِن مجرَّد التَّصدق مع المحبَّة، فإنَّه ليس كلُّ متصدِّق محبًّا مؤثِرًا، ولا كلُّ متصدِّق يكون به خصاصة، بل

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم (٢/٢٩٢).
(٢) ((جامع البيان)) (٢٢/٥٢٧).
(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (٨/٧٠).

قد يتصدَّق بما يحبُّ مع اكتفائه ببعضه مع محبَّة لا تبلغ به الخصاصة)[١].

- وقال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(يعني: لن تنالوا وتدركوا البرَّ، الذي هو اسمٌ جامعٌ للخيرات، وهو الطَّريق الموصل إلى الجنَّة، حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون، مِن أطيب أموالكم وأزكاها. فإنَّ النَّفقة مِن الطَّيب المحبوب للنُّفوس، مِن أكبر الأدلَّة على سماحة النَّفس، واتِّصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقَّتها، ومِن أدلِّ الدَّلائل على محبَّة الله، وتقديم محبَّته على محبَّة الأموال، التي جبلت النُّفوس على قوَّة التَّعلُّق بها، فمَن آثر محبَّة الله على محبَّة نفسه، فقد بلغ الذِّروة العليا مِن الكمال، وكذلك مَن أنفق الطَّيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفَّقه أعمالًا وأخلاقًا، لا تحصل بدون هذه الحالة)[٢].

- وقال تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فبين الله تبارك وتعالى أنَّ مِن البرِّ بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والأنبياء.. إطعام الطَّعام لمحتاجيه، وبذله لمريديه، مع حبِّه واشتهائه

(١) ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١٢٩/٧).

(٢) ((تفسير السعدي)) (٩٧٠/١).

والرَّغبة فيه، وقد جاء به الله تعالى -أي: إطعام الطَّعام- بعد أركان الإيمان مباشرة، وفي ذلك دلالة على عظمته وعلو منزلته.

قال ابن مسعود في قوله (على حبِّه): هو أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر[١].

- وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٦-٩].

وقد (اخْتُلِف في مرجع الضَّمير في ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾، هل هو راجع على الطَّعام أم على الله تعالى ؟ أي: ويطعمون الطَّعام على حُبِّ الطَّعام؛ لِقِلَّته عندهم وحاجتهم إليه، أم على حُبِّ الله رجاء ثواب الله؟

وقد رجَّح ابن كثير المعنى الأوَّل، وهو اختيار ابن جرير، وساق الشَّواهد على ذلك، كقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

والواقع أنَّ الاستدلال الأوَّل فيه ما في هذه الآية، ولكن أقرب دليلًا وأصرح قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩])[٢].

- وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢-١٣].

(والمعنى: وجزاهم بصبرهم على الإيثار، وما يؤدِّي إليه مِن الجوع والعري

---

(١) ذكره السمعاني في ((تفسيره)) (١٧٢/١).

(٢) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣٩٤/٨).

بستانًا فيه مأكل هنيء وحريرًا فيه ملبس بهي)[١].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الأشعريِّين إذا أرملوا[٢] في الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثمَّ اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّويَّة، فهم منِّي، وأنا منهم))[٣].

يقول العيني: (فيه منقبة عظيمة للأشعريين من إيثارهم ومواساتهم بشهادة سيدنا رسول الله وأعظم ما شرفوا به كونه أضافهم إليه ....وفيه فضيلة الإيثَار والمواساة)[٤].

وقال أبو العبَّاس القرطبي: (هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الغالب على الأشعريِّين الإيثَار، والمواساة عند الحاجة... فثبت لهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنَّهم... كرماء مؤثرون)[٥].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((طعام الاثنين كافي الثَّلاثة، وطعام الثَّلاثة كافي الأربع))[٦]. وفي لفظ لمسلم: ((طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثَّمانية))[٧].

---

(١) ((مفاتيح الغيب)) للفخر الرازي (٢١٨/٣٠).
(٢) أرمل القوم: نفد زادهم. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٩٦/١١).
(٣) رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠) مِن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٤) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (٤٤/١٣).
(٥) ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (٤٥٢/٦).
(٦) رواه البخاري (٥٣٩٢)، ومسلم (٢٠٥٨) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٧) رواه مسلم (٢٠٥٩) مِن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(قال المهَلَّب: والمراد بهذه الأحاديث الحضُّ على المكارمة في الأكل والمواساة والإيثَار على النَّفس، الذي مدح الله به أصحاب نبيِّه، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحشر:٩]. ولا يُراد بها معنى التَّساوي في الأكل والتَّشاح؛ لأنَّ قوله عليه السَّلام: ((كافي الثَّلاثة)) دليل على الأثرة التي كانوا يمتدحون بها والتَّقنُّع بالكفاية، وقد همَّ عمر بن الخطَّاب في سنة مجاعة أن يجعل مع كل أهل بيت مثلهم، وقال: لن يهلك أحد عن نصف قوته)[١].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصَّدقة أعظم أجرًا ؟ قال: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم[٢]، قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان))[٣].

قال ابن بطَّال: (فيه أنَّ أعمال البرِّ كلَّما صعبت كان أجرها أعظم، لأنَّ الصَّحيح الشَّحيح إذا خشي الفقر، وأمَّل الغنى صعبت عليه النَّفقة، وسوَّل له الشَّيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فمَن تصدَّق في هذه الحال، فهو مؤثر لثواب الله على هوى نفسه، وأمَّا إذا تصدَّق عند خروج نفسه، فيخشى عليه الضِّرار بميراثه والجوار في فعله)[٤].

- وعن جابر بن عبد الله حدَّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه أراد أن يغزو فقال: ((يا معشر المهاجرين والأنصار إنَّ مِن إخوانكم قومًا ليس

(١) ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٩/٤٧١).
(٢) إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع، والحلقوم مجرى النفس والسعال من الجوف. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/١٥٠).
(٣) رواه البخاري (١٣١٩)، ومسلم (١٠٣٢) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) ((شرح صحيح البخاري)) (٣/٤١٧).

لهم مال ولا عشيرة، فليضمَّ أحدكم إليه الرَّجلين أو الثَّلاثة، فما لأحدنا مِن ظهرٍ يحمله إلَّا عُقْبَةٌ[١] كعُقْبَةِ. (يعني: أحدهم). فضممْتُ إليَّ اثنين أو ثلاثةً، قال: ما لي إلَّا عُقْبَةٌ كعُقْبَةِ أحدهم مِن جملي))[٢].

فوائد الإيثَار:

للإيثَار فوائد عظيمة وثمار جليلة يجنيها أصحاب هذا الخُلُق العظيم منها:

١- دخولهم فيمن أثنى الله عليهم مِن أهل الإيثَار، وجعلهم مِن المفلحين.

٢- الإيثَار طريق إلى محبَّة الله تبارك وتعالى.

٣- تحقيق الكمال الإيماني، فالإيثَار دليلٌ عليه، وثمرة مِن ثماره.

٤- ومِن أعظم الثِّمار والفوائد: أنَّ التَّحلِّي بخُلُق الإيثَار فيه اقتداءٌ بالحبيب محمَّد صلى الله عليه وسلم.

٥- أنَّ المؤْثر يجني ثمار إيثاره في الدُّنْيا قبل الآخرة وذلك بمحبَّة النَّاس له وثناؤهم عليه، كما أنَّه يجني ثمار إيثاره بعد موته بحسن الأحدوثة وجمال الذِّكر، فيكون بذلك قد أضاف عمرًا إلى عمره.

٦- الإيثَار يقود المرء إلى غيره مِن الأخلاق الحسنة والخِلال الحميدة كالرَّحمة وحبِّ الغير والسَّعي لنفع النَّاس، كما أنَّه يقوده إلى تَرك جملةٍ مِن الأخلاق السَّيِّئة والخِلال الذَّميمة كالبخل وحبِّ النَّفس والأَثَـرَة والطَّمع وغير ذلك.

---

(١) العقبة: النوبة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦١٨/١).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٣٤)، وأحمد (٣٥٨/٣) (١٤٩٠٦)، والحاكم (١٠٠/٢) مِن حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما. وسكت عنه أبو داود، وصحَّح إسناده الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٣٠٩)، وحسَّنه الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٢٣٩).

٧- الإيثار جالبٌ للبركة في الطَّعام والمال والممتلكات.

٨- وجود الإيثَار في المجتمع دليلٌ على وجود حس التَّعاون والتَّكافل والمودَّة، وفقده مِن المجتمع دليلٌ على خلوِّه مِن هذه الرَّكائز المهمَّة في بناء مجتمعات مؤمنة قويَّة ومتكاتفة.

٩- بالإيثَار تحصل الكفاية الاقتصاديَّة والمادِّيَّة في المجتمع، فطعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثَّلاثة، والبيت الكبير الذي تستأثر به أسرة واحدة مع سعته يكفي أكثر مِن أسرة ليس لها بيوت تؤويها وهكذا.

أقسام الإيثَار:

أولًا: أقسامه مِن حيث تعلُّقه بالغير

ينقسم الإيثَار مِن حيث تعلُّقه بالغير إلى قسمين:

القسم الأوَّل: إيثار يتعلَّق بالخالق

وهو أفضل أنواع الإيثَار وأعلاها منزلة، وأرفعها قدرًا، يقول ابن القيِّم: (والإيثَار المتعلِّق بالخالق أجلُّ مِن هذا -أي مِن الإيثار المتعلِّق بالخلق- وأفضل، وهو إيثار رضاه على رضى غيره، وإيثار حبِّه على حبِّ غيره، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه، وإيثار الذُّل له والخضوع والاستكانة والضَّراعة والتملُّق على بذل ذلك لغيره، وكذلك إيثار الطلب منه والسُّؤال وإنزال الفاقات به على تعلُّق ذلك بغيره)[1].

ولهذا النَّوع مِن الإيثَار علامتان تدلان عليه، لا بدَّ أن تظهرا على مدَّعيه، وهما:

(١) ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) (١/٤٤٩).

الأول: أن يفعل المرء كلَّ ما يحبُّه الله تعالى ويأمر به، وإن كان ما يحبُّه الله مكروهًا إلى نفسه، ثقيلًا عليه.

الثَّاني: أن يترك ما يكرهه الله تعالى وينهى عنه، وإن كان محبَّبًا إليه، تشتهيه نفسه، وترغِّب فيه.

يقول ابن القيِّم: (فبهذين الأمرين يصحُّ مقام الإيثَار)[1].

صعوبة هذا الإيثَار على النَّفس:

جُبِلت النَّفس على الرَّاحة والدَّعة والميل إلى الملاذ والمتع، كما جُبِلت على البعد عن كلِّ ما يشقُّ عليها أو ينغِّص متعتها أو يحدُّ مِن ملذَّاتها، ولـمَّا كان هذا النَّوع مِن الإيثَار يضادُّ ما جُبِلَت عليه النَّفس مِن الرَّاحة والدَّعة كان صعبًا عليها التَّلبُّس به، أو التَّخلُّق والتَّحلِّي بمعناه.

يقول ابن القيِّم مبيِّنًا صعوبة هذا النَّوع مِن الإيثَار وثقله على النَّفس:

(ومؤنة هذا الإيثَار شديدة لغلبة الأغيار، وقوَّة داعي العادة والطَّبع، فالمحنة فيه عظيمة، والمؤنة فيه شديدة، والنَّفس عنه ضعيفة، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلَّا به، وإنَّه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه)[2].

وإن كان هذا النَّوع مِن الإيثَار شديدٌ على النَّفس صعب على الرُّوح إلَّا أنَّ ثمراته وما يجنيه الشَّخص منه تفوق ثمرات أيِّ نوع مِن الأعمال، فنهايته فوز محقَّق وفلاح محتوم، وملك لا يضاهيه ملك.

(فحقيق بالعبد أن يسمو إليه وإن صَعُب المرتقى، وأن يشمِّر إليه وإن عَظُمَت

---

(١) ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) (١/٤٥٠).

(٢) ((المصدر السابق)).

فيه المحنة، ويحمل فيه خطرًا يسيرًا لملْك عظيم وفوز كبير، فإنَّ ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء مِن الأعمال، ويسيرٌ منه يرقِّي العبد ما لا يرقى غيره إليه في المدَد المتطاولة، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء)[١].

القسم الثَّاني: إيثار يتعلَّق بالخَلْق

وهذا هو النَّوع الثَّاني مِن أنواع الإيثَار مِن حيث تعلُّقه بالخَلْق.. وقد قسَّم ابن عثيمين هذا النَّوع مِن الإيثَار إلى ثلاثة أقسام:

(الأوَّل: ممنوع، والثَّاني: مكروه أو مباح، والثَّالث: مباح.

- **القسم الأوَّل**: وهو الممنوع: وهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعًا، فإنَّه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعًا... فالإيثَار في الواجبات الشَّرعية حرام، ولا يحل لأنَّه يستلزم إسقاط الواجب عليك.

- **القسم الثَّاني**: وهو المكروه أو المباح: فهو الإيثَار في الأمور المستحبة، وقد كرهه بعض أهل العلم، وأباحه بعضهم، لكن تَركُه أولى لا شكَّ إلَّا لمصلحة.

- **القسم الثَّالث**: وهو المباح: وهذا المباح قد يكون مستحبًّا، وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبُّدي أي تؤثر غيرك، وتقدِّمه على نفسك في أمرٍ غير تعبُّدي)[٢].

شروط هذا النَّوع مِن الإيثَار:

ذكر ابن القيِّم شروطًا للإيثَار المتعلِّق بالمخلوقين تنقله مِن حيِّز المنع أو الكراهة إلى حيِّز الإباحة ولعلَّنا نجملها فيما يلي:

(١) ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) لابن القيِّم (١/٤٥٠).

(٢) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/٤١٦-٤١٧).

١- أن لا يضيع على المؤْثِر وقته.

٢- أن لا يتسبَّب في إفساد حاله.

٣- أن لا يهضم له دينه.

٤- ألَّا يكون سببًا في سدِّ طريق خير على المؤْثِر.

٥- أن لا يمنع للمُؤْثر واردًا.

فإذا توفَّرت هذه الشُّروط كان الإيثَار إلى الخَلْق قد بلغ كماله، أمَّا إن وُجِد شيء مِن هذه الأشياء كان الإيثَار إلى النَّفس أَوْلَى مِن الإيثَار إلى الغير، فالإيثَار المحمود -كما قال ابن القيِّم هو: (الإيثَار بالدُّنْيا لا بالوقت والدِّين وما يعود بصلاح القلب)[1].

ثانيًا: أقسامه مِن حيث باعثه والدَّاعي إليه

- **الأوَّل**: قسم يكون الباعث إليه الفطرة والغريزة: كالذي يكون عند الآباء والأمَّهات وأصحاب العِشْق، وهذا كما يقول عبد الرَّحمن الميداني الباعث إليه فطري في النُّفوس ينتج عنه حبٌّ شديدٌ عارم، والحبُّ مِن أقوى البواعث الذَّاتية الدَّافعة إلى التَّضْحية بالنَّفس وكلُّ ما يتَّصل بها مِن مصالح وحاجات مِن أجل سلامة المحبوب أو تحقيق رضاه، أو جلب السَّعادة أو المسرَّة إليه[2].

تقول أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ((جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كلَّ واحدة منهما تمرة. ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التَّمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر: ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) (١/٤٤٦).

(٢) انظر: ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٤٣٥).

وسلم، فقال: إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنَّة، أو أعتقها بها مِن النَّار))[١].
فهذا الإيثَار دافعه حبُّ الأم لابنتيها ورحمتها بهما.

- **الثَّاني**: وقسم يكون الدَّافع هو الإيمان، وحبَّ الخير للغير، على حساب النَّفس وملذَّاتها ومشتهياتها، وهو كما قال الميداني: (ليس إيثارًا انفعاليًّا عاطفيًّا مجردًا، ولكنَّه إيثار يعتمد على محاكمة منطقيَّة سليمة، ويعتمد على عاطفة إيمانيَّة عاقلة)[٢].

درجات الإيثَار:

ذَكَر أبو إسماعيل الهرويُّ في كتابه ((منازل السَّائرين)) أنَّ للإيثار ثلاث درجات:

- **الدَّرجة الأولى**: (أن تؤثر الخَلْق على نفسك فيما لا يَحْرُم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا)[٣].

قال ابن القيِّم في شرحه لهذه الدَّرجة: (يعني: أن تُقدِّمهم على نفسك في مصالحهم، مثل: أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدِّي ذلك إلى ارتكاب إتلافٍ لا يجوز في الدِّين)[٤].

- **الدَّرجة الثَّانية**: (إيثار رضى الله تعالى على رضى غيره، وإن عَظُمَت فيه المحن وثَقُلَت به المؤن، وضَعُفَ عنه الطول والبدن)[٥].

(١) رواه مسلم (٢٦٣٠) مِن حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) انظر: ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٤٣٥).
(٣) ((منازل السَّائرين)) لعبد الله الأنصاري الهروي (ص ٥٧).
(٤) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٢٩٧).
(٥) ((منازل السَّائرين)) لعبد الله الأنصاري الهروي (ص ٥٨).

قال ابن القيِّم: (هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخَلْق، وهي درجة الأنبياء وأعلاها للرُّسل عليهم صلوات الله وسلامه وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم)[١].

- **الدَّرجة الثَّالثة:** (إيثارُ إيثارِ الله تعالى: فإنَّ الخوض في الإيثَار دعوى في الملك، ثمَّ تَرْك شهود رؤيتك إيثار الله، ثمَّ غيبتك عن التَّرك)[٢].

قال ابن القيِّم: (يعني بإيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنَّه هو الذي تفرَّد بالإيثَار لا أنت، فكأنَّك سلمت الإيثَار إليه فإذا آثرت غيرك بشيء فإنَّ الذي آثره هو الحقُّ لا أنت، فهو المؤْثر حقيقة... وقوله: ثمَّ ترك شهود رؤيتك إيثار الله، يعني أنَّك إذا آثرت إيثار الله بتسليمك معنى الإيثَار إليه: بقيت عليك مِن نفسك بقيَّةٌ أخرى لابدَّ مِن الخروج عنها وهي: أن تُعْرِض عن شهودك رؤيتك أنَّك آثرت الحقَّ بإيثارك، وأنَّك نسبت الإيثَار إليه لا إليك... وقوله: ثمَّ غيبتك عن التَّرك. يريد: أنَّك إذا نزلت هذا الشُّهود وهذه الرُّؤية: بقيت عليك بقيَّةٌ أخرى وهي رؤيتك لهذا التَّرك المتضمِّنة لدعوى ملكك للتَّرك، وهي دعوى كاذبة؛ إذ ليس للعبد شيء مِن الأمر، ولا بيده فعل ولا ترك، وإنَّما الأمر كلُّه لله)[٣].

موانع اكتساب صفة الإيثَار:

• موانع اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخالق:

يقول ابن قيِّم الجوزية في الموانع التي تجعل النَّفس تتخلَّف عن هذا النَّوع

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٢٩٩).

(٢) ((منازل السَّائرين)) لعبد الله الأنصاري الهروي (ص ٥٨).

(٣) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٣٠٢).

مِن الإيثَار:

(والنَّقص والتَّخلُّف في النَّفس عن هذا يكون مِن أمرين:

١- أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك، بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشَّيء إلَّا بعد عُسْر، وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشُّكوك والشُّبهات والاحتمالات، فلا يتخلَّص له رؤيتها وعيانها.

٢- الثَّاني أن تكون القريحة وَقَّادة دَرَّاكة، لكن النَّفس ضعيفة مهينة إذا أبصرت الحقَّ والرُّشد ضَعُفَت عن إيثاره، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض: كلَّما ساقه خطوة وقف خطوة. أو كسوق الطِّفل الصَّغير الذي تعلَّقت نفسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلى رشده وهو ملتفت إلى لهوه ولعبه، لا ينساق معه إلَّا كَرْهًا)[1].

• موانع اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخَلْق:

١- ضعف الإيمان واليقين، فكما أنَّ الإيمان القويَّ يدفع صاحبه للبذل والعطاء والإيثَار، فإنَّ ضعفه يكون سببًا في الأثرة والشُّح.

٢- الشُّح المطاع، لذا ذكر الله عزَّ وجلَّ في الآية التي مدح فيها أهل الإيثَار أنَّ مَن يُوَفَّق في الوقاية مِن شحِّ نفسه فقد أفلح.

٣- حبُّ النَّفس، وتملُّك الأثرة على القلب.

٤- قسوة القلب وجموده، فمَن رَقَّ قلبه ولانت طباعه سَهُل عليه أمر الإيثَار.

٥- ضعف الهمَّة.

---

(١) ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) (١/٤٥٠).

الوسائل المعينة على اكتساب الإيثَار:

- **الوسائل المعينة على اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخالق:**

ذكر ابن قيِّم الجوزية أمورًا تجعل مِن هذا الإيثَار أمرًا سهلًا على النَّفس، فقال:

(والذي يسهِّله على العبد أمور:

- **أحدها**: أن تكون طبيعته ليِّنة منقادة سلسة ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة.

- **الثَّاني**: أن يكون إيمانه راسخًا ويقينه قويًّا؛ فإنَّ هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

- **الثَّالث**: قوَّة صبره وثباته.

فبهذه الأمور الثَّلاثة ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه)[1].

- **الوسائل المعينة على اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخَلْق:**

قال ابن القيِّم: (فإن قيل: فما الذي يسهِّل على النَّفس هذا الإيثَار، فإنَّ النَّفس مجبولة على الأَثَـرَة لا على الإيثَار؟ قيل: يسهِّله أمور:

- **أحدها**: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها؛ فإنَّ مِن أفضل أخلاق الرَّجل وأشرفها وأعلاها: الإيثَار. وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبَّته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله.

- **الثَّاني**: النُّفرة مِن أخلاق اللِّئام ومقت الشُّح وكراهته له.

- **الثَّالث**: تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين

---

(١) ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) (١/٤٥٠).

بعضهم على بعض، فهو يرعاها حقَّ رعايتها، ويخاف مِن تضييعها، ويعلم أنَّه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حدِّه؛ فإنَّ ذلك عَسِر جدًّا، بل لا بد مِن مجاوزته إلى الفضل أو التَّقصير عنه إلى الظُّلم، فهو -لخوفه مِن تضييع الحقِّ، والدُّخول في الظُّلم- يختار الإيثَار بما لا ينقصه ولا يضرُّه، ويكتسب به جميل الذِّكر في الدُّنْيا، وجزيل الأجر في الآخرة مع ما يجلبه له الإيثَار مِن البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه مِن إيثاره أفضل ممَّا بذله، ومَن جرَّب هذا عرفه، ومَن لم يجرِّبه فليستقرئ أحوال العالم، والموفَّق مَن وفَّقه الله سبحانه وتعالى)[1].

نماذج للإيثار:

• نماذج مِن إيثار رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن جميع الأخلاق أوفر الحظِّ والنَّصيب، فما مِن خُلُقٍ إلَّا وقد تربَّع المصطفى صلى الله عليه وسلم على عرشه، وعلا ذِروة سَنَامه، ففي خُلُق الإيثَار كان هو سيِّد المؤثرين وقائدهم، بل وصل الحال به صلى الله عليه وسلم أنَّه لم يكن يشبع -لا هو ولا أهل بيته- بسبب إيثاره صلى الله عليه وسلم، قال ابن حجر: (والذي يظهر أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يؤثر بما عنده، فقد ثبت في الصَّحيحين أنَّه كان -إذا جاءه ما فتح الله عليه مِن خيبر وغيرها مِن تمر وغيره- يدَّخر قوت أهله سنة، ثمَّ يجعل ما بقي عنده عُدَّة في سبيل الله تعالى، ثمَّ كان مع ذلك -إذا طرأ عليه طارئ أو نزل به ضيف- يشير على أهله بإيثارهم، فربَّما أدَّى ذلك إلى نفاد ما عندهم أو معظمه)[2].

---

(١) ((طريق الهجرتين وباب السَّعادتين)) (١/٤٤٨).

(٢) ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/٢٨٠).

وإليك أخي الكريم بعض الصُّور مِن إيثار رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- عن سهل بن سعد، قال: ((جاءت امرأة ببردة، قال: أتدرون ما البردة؟ فقيل له: نعم، هي الشَّملة منسوج في حاشيتها. قالت: يا رسول الله، إنِّي نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنَّها إزاره، فقال رجل مِن القوم: يا رسول الله، اكسنيها. فقال: (نعم). فجلس النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في المجلس، ثمَّ رجع فطواها، ثمَّ أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، سألتها إيَّاه، لقد علمت أنَّه لا يردُّ سائلًا. فقال الرَّجل: والله ما سألته إلَّا لتكون كفني يوم أموت. قال سهل: فكانت كفنه))[1].

- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ((إنَّا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْيَةٌ[2] شديدةٌ فجاءوا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق. فقال: أنا نازل ثمَّ قام -وبطنه معصوبٌ بحجر، ولبثنا ثلاثة أيَّام لا نذوق ذواقًا- فأخذ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم المعول فضرب في الكُدْيَة فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم[3]، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت في النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم شيئًا ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق[4]. فذبحت العناق، وطحنت الشَّعير حتى جعلنا اللَّحم بالبرمة. ثمَّ جئت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر،

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٣) مِن حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الكدية: الأرض الغليظة، وقيل: الأرض الصلبة، وقيل: هي الصفاة العظيمة الشديدة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٢١٦).

(٣) أهيل: منهال لا يثبت. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٧٤١).
أهيم: الرمال الهيم هي التي لا تروى. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٦٢٧).

(٤) العناق: الأنثى من المعز. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٣٧٤).

والبرمة بين الأثافي[١] قد كادت أن تنضج. فقلت:طعيِّم لي، فقم أنت –يا رسول الله– ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيِّب. قال: قل لها لا تنزع البرمة[٢] ولا الخبز مِن التَّنُّور حتى آتي. فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار، فلمَّا دخل على امرأته. قال: ويحك جاء النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومَن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا[٣]. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللَّحم ويخمِّر البرمة والتَّنُّور إذا أخذ منه، ويقرِّب إلى أصحابه ثمَّ ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقيَّةٌ. قال: كلي هذا وأهدي، فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعة))[٤].

– وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((قال أبو طلحة لأمِّ سليم: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك مِن شيء؟ قالت: نعم. فأخرجت أقراصًا مِن شعير، ثمَّ أخرجت خمارًا لها فلفَّت الخبز ببعضه، ثمَّ دسَّته تحت يدي ولاثتني[٥] ببعضه، ثمَّ أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعه النَّاس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: آرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم. قال:بطعام؟ قلت: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: قوموا. فانطلق وانطلقت

---

(١) الأثافي مفردها: الأثفية والإثفية: وهي الحجر الذي توضع عليه القدر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/٩). طعيِّم: مصغر طعام. انظر: ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (١٨٠/١٧).

(٢) البرمة: قدر من حجارة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٥/١٢).

(٣) التضاغط: التزاحم. انظر: ((المصدر السابق)) (٣٤٢/٧).

(٤) رواه البخاري (٤١٠١) مِن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) اللوث الطي واللي. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٨٥/٢).

بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أمَّ سليم، قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنَّاس، وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلمِّي يا أمَّ سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتَّ، وعصرت أمُّ سليم عكَّة فأدمته[1]، ثمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما شاء الله أن يقول، ثمَّ قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثمَّ خرجوا، ثمَّ قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثمَّ خرجوا، ثمَّ قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثمَّ خرجوا، ثمَّ قال: ائذن لعشرة. فأكل القوم كلُّهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلًا))[2].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه كان يقول: ((الله الذي لا إله إلَّا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض مِن الجوع. وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني مِن الجوع. ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية مِن كتاب الله ما سألته إلَّا ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل، ثمَّ مرَّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسَّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي. ثمَّ قال: يا أبا هر! قلت: لبَّيك رسول الله. قال: الْحَق. ومضى فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل فوجد لبنًا في قدح، فقال: مِن أين هذا اللَّبن؟ قالوا: أهداه لك فلان- أو فلانة- قال: أبا هر! قلت: لبَّيك يا

(١) فأدمته أي صيرت ما خرج من العكة له إدامًا، والعكة بضم المهملة وتشديد الكاف إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالبا والعسل. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/٥٩٠).
(٢) رواه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠) مِن حديث أنس رضي الله عنه .

رسول الله. قال: الْحَق إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي. قال- وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد. إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هديَّة أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها- فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللَّبن في أهل الصُّفَّة؟ كنت أحقَّ أن أصيب مِن هذا اللَّبن شربة أتقوَّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني مِن هذا اللَّبن؟! ولم يكن مِن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا، فأذن لهم وأخذوا مجالسهم مِن البيت. قال: يا أبا هر، قلت: لبَّيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم. فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرَّجل فيشرب حتى يروى، ثمَّ يردُّ عليَّ القدح حتى انتهيت إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلُّهم. فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليَّ فتبسَّم، فقال: أبا هر، قلت: لبَّيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت. فقال: اشرب. فشربتُ، فما زال يقول: اشرب. حتى قلتُ: لا -والذي بعثك بالحقِّ- ما أجد له مسلكًا. قال: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمَّى، وشرب الفضلة))[1].

نماذج مِن إيثار الصَّحابة رضوان الله عليهم:

ضرب الصَّحابة أروع أمثلة الإيثَار وأجملها، ومَن يتأمَّل في قصص إيثارهم يحسب ذلك ضربًا مِن خيال، لولا أنَّه منقولٌ لنا عن طريق الأثبات، وبالأسانيد الصَّحيحة الصَّريحة.

وإليك بعضًا مِن النَّماذج التي تروي لنا صورًا رائعة مِن الإيثَار:

(١) رواه البخاري (٦٤٥٢) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

● ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه ((أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلَّا الماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن يضمُّ- أو يضيف- هذا؟ فقال رجل مِن الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني. فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك[1]، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثمَّ قامت كأنَّها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنَّهما يأكلان، فباتا طاويين[2]، فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ضحك الله اللَّيلة- أو عجب مِن فعالكما-، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]))[3].

● الأنصار... إيثار منقطع النَّظير:

أقبل المهاجرون إلى المدينة لا يملكون مِن أمر الدُّنْيا شيئًا، قد تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عزَّ وجلَّ يرجون رحمته ويخافون عذابه، فاستقبلهم الأنصار الذين تبوَّؤوا الدَّار، وأكرموهم أيَّما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء مِن حطام الدُّنْيا... في صورة يعجز عن وصفها اللِّسان، ويضعف عن تعبيرها البيان:

- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((لما قدم المهاجرون المدينة نزلوا

(١) وأصبحي سراجك: أي أوقديه. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/١٢٠).
(٢) الطيان: الجائع. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٢٠).
(٣) رواه البخاري (٣٧٩٨) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على الأنصار في دورهم، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم نزلنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أبذل في كثير منهم، لقد أشركونا في المهنأ[١] وكفونا المؤنة، ولقد خشينا أن يكونوا ذهبوا بالأجر كلِّه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلَّا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم به عليهم))[٢].

- وهذا عبد الرَّحمن بن عوف ((لـمَّا قدم المدينة آخى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الرَّبيع الأنصاريِّ، وعند الأنصاريِّ امرأتان، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلُّوني على السُّوق...))[٣].

- **إيثار... حتى بالحياة:**

وقد وصل الحال بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آثروا إخوانهم بحياتهم.. وهذا غاية الجود، ومنتهى البذل والعطاء.

- ففي غزوة اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن وأفرُّ منكم اليوم؟! ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة مِن وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاط خالد حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور -رضي الله عنهم-... فلمَّا صرعوا مِن الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها

---

(١) المهنأ: ما أتاك بلا مشقة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/١٨٤).

(٢) رواه الضيَّاء في ((المختارة)) (٥/٢٩٠) مِن حديث أنس رضي الله عنه. وصحَّح سنده البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٧/٣٢٥).

(٣) رواه البخاري (٢٠٤٨) مِن حديث عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه.

إليه. فتدافعوها كلُّهم -مِن واحد إلى واحد- حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم -رضي الله عنهم- أجمعين[(١)].

• صورٌ مِن إيثار أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

- لما طُعِن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما قال لابنه عبد الله: (اذهب إلى أُمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فقل: يقرأ عمر ابن الخطَّاب عليك السَّلام، ثمَّ سلها أن أُدْفَن مع صاحبيَّ. قالت: كنت أريده لنفسي، فلأوثرنَّه اليوم على نفسي. فلمَّا أقبل، قال له: ما لديك؟ قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين. قال: ما كان شيء أهمَّ إليَّ من ذلك المضجع، فإذا قُبِضت فاحملوني، ثمَّ سلِّموا، ثمَّ قل: يستأذن عمر بن الخطَّاب، فإن أذنت لي فادفنوني، وإلَّا فردُّوني إلى مقابر المسلمين)[(٢)].

- ودخل عليها مسكينٌ فسألها -وهي صائمة وليس في بيتها إلَّا رغيف- فقالت لمولاة لها: أعطيه إيَّاه. فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟ فقالت: أعطيه إيَّاه. قالت: ففعلتُ. قالت: فلمَّا أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدِي لنا: شاة وكفنها. فدعتني عائشة فقالت: كلي مِن هذا، فهذا خيرٌ مِن قرصك)[(٣)].

• ابن عمر نموذج آخر مِن نماذج الإيثَار الفذَّة:

- مرض ابن عمر فاشتهى عنبًا -أول ما جاء العنب- فأرسلت صفيَّة -يعني امرأته- فاشترت عنقودًا بدرهم، فاتَّبع الرَّسول السَّائل، فلمَّا دخل به،

---

(١) ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٥/٧).

(٢) رواه البخاري (١٣٩٢) مِن حديث عمرو بن ميمون رحمه الله.

(٣) رواه مالك في ((الموطأ)) (٢/٩٩٧)، وكفنها: أي ما يغطيها من الرغفان.

قال السَّائل: السَّائل. فقال ابن عمر: أعطوه إيَّاه. فأعطوه إيَّاه. ثمَّ أرسلت بدرهم آخر، فاشترت عنقودًا، فاتَّبع الرَّسول السَّائلُ، فلمَّا دخل، قال السَّائل: السَّائل. فقال ابن عمر: أعطوه إيَّاه. فأعطوه إيَّاه. فأرسلت صفيَّة إلى السَّائل، فقالت: والله إن عُدتَ لا تصيبُ منه خيرًا أبدًا. ثمَّ أرسلت بدرهم آخر فاشترت به.

- واشتهى يومًا سمكةً، وكان قد نَقِهَ مِن مرضٍ فالتُمِسَت بالمدينة، فلم توجد حتى وُجِدَت بعد مُدَّةٍ، واشْتُرِيَت بِدرهم ونصفٍ، فشُوِيَت وجيء بها على رغيف، فقام سائلٌ بالباب، فقال ابن عمر للغلام لفَّها برغيفها، وادفعها إليه. فأبى الغلام، فردَّه وأمره بدفعها إليه، ثمَّ جاء به فوضعها بين يديه، وقال: كُلْ هنيئًا -يا أبا عبد الرَّحمن-، فقد أعطيته درهمًا وأخذتها. فقال: لفَّها وادفعها إليه، ولا تأخذ منه الدِّرهم[1].

• عمر يختبر إيثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- أخذ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أربعمائة دينار، فجعلها في صرَّة، ثمَّ قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح، ثمَّ تلكَّأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه. ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان. حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل. وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتلكَّأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع. فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض

---

(١) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣١/١٤٢) .

حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا. فاطَّلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا. ولم يبق في الخرقة إلَّا ديناران فنحا بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر، وقال: إنَّهم إخوة بعضهم مِن بعض)[1].

• أخي وعياله أحوج..

- قال ابن عمر رضي الله عنه: أهدي لرجل مِن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا. فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوَّل، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][2].

• إيثار... حتى للحيوان:

- خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلبٌ ودنا مِن الغلام، فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثمَّ رمى إليه الثَّاني والثَّالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟! قال: ما هي بأرض كلاب، إنَّه جاء مِن مسافة بعيدة جائعًا،

---

(١) رواه ابن المبارك في ((الزهد)) (١/١٧٨)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١/٢٣٧)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥٨/٤٣٦) مِن حديث مالك الدَّار. قال المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٢/٨٣): رواته إلى مالك الدَّار ثقات مشهورون، ومالك الدَّار لا أعرفه. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/١٢٧): فيه مالك الدَّار لم أعرفه، وبقيَّه رجاله ثقات. وقال الألباني في ((صحيح التَّرغيب)) (٩٢٦): حسن موقوف.

(٢) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٩٩).

فكرهت أن أشبع وهو جائع. قال: فما أنت صانع اليوم؟! قال: أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: أُلام على السَّخاء! إنَّ هذا الغلام لأسخى منِّي. فاشترى الحائط والغلام وما فيه مِن الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه[1].

- **نماذج مِن إيثار السَّلف رحمهم الله:**

وعلى نفس الطَّريق سار سلف الأمَّة وصالحوها يحذون مَن سبقهم مِن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حذو القذَّة بالقذَّة، ويتَّبعون آثارهم، وإليك أخي الكريم نماذج مِن إيثارهم رحمهم الله:

- عن أبي الحسن الأنطاكيِّ: أنَّه اجتمع عنده نيِّف وثلاثون رجلًا بقرية مِن قرى الرَّيِّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشْبِع جميعهم، فكسروا الرُّغفان، وأطفئوا السِّراج، وجلسوا للطَّعام، فلمَّا رُفع فإذا الطَّعام بحاله، لم يأكل منه أحد شيئًا إيثارًا لصاحبه على نفسه.

- قال الهيثم بن جميل: جاء فضيل بن مرزوق -وكان مِن أئمة الهدى زهدًا وفضلًا- إلى الحسن بن حيي، فأخبره أن ليس عنده شيء، فقام الحسن فأخرج ستَّة دراهم، وأخبره أنَّه ليس عنده غيرها، فقال: سبحان الله أليس عندك غيرها وأنا آخذها، فأخذ ثلاثة وترك ثلاثة.

- ورُوِي أنَّ مسروقًا ادَّان دينًا ثقيلًا، وكان على أخيه خيثمة دين، قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة، وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم[2].

---

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزَّالي (٣/٢٥٨).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/١٧٤).

- وقال عبَّاس بن دهقان: ما خرج أحدٌ مِن الدُّنْيا كما دخلها إلَّا بشر ابن الحارث؛ فإنَّه أتاه رجل في مرضه، فشكا إليه الحاجة، فنزع قميصه وأعطاه إيَّاه، واستعار ثوبًا فمات فيه[1].

هذا غيضٌ مِن فيض، وما أغفلناه أكثر ممَّا ذكرناه، ويكفي مِن القلادة ما أحاط بالعنق.

نماذج مِن إيثار العلماء المعاصرين:

- **ابن باز.. بقيَّة مِن إيثار السَّلف:**

يقول محمَّد بن موسى -وهو يتحدَّث عن الشَّيخ ابن باز: (والذي بيده ليس له ولو سُئل ما سُئل، فربَّما سُئل مالًا فأعطاه، وربَّما أتته الهديَّة في المجلس فسأله أحدُ الحاضرين إيَّاها فأعطاها إيَّاه، بل كثيرًا ما يبتدر مَن بجانبه بالهديَّة التي تُقَدَّم لسماحته، بل ربَّما سُئل عباءته التي يلبسها فأعطاها مَن سأله إيَّاها)[2].

- **يؤثرون له بعيونهم .. والجزاء مِن جنس العمل:**

كان الشَّيخ ابن باز قريبًا مِن النَّاس.. محببًّا إليهم.. ومِن أعجب قصص الإيثَار التي حصلت مع الشَّيخ قصتان:

أولاها: لرجل مسلم مِن بلجيكا وهو مغربيُّ الأصل، قدم على سماحة الشَّيخ، فلمَّا مَثُل أمام سماحته قال:

يا سماحة الشَّيخ أنا فلان مِن محبِّيك، وقد جئتك مهديًا لك إحدى عيني،

---

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزَّالي (٣/٢٥٨).

(٢) ((جوانب مِن سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله)) لمحمد بن إبراهيم الحمد (١٨٢).

ولقد سألت طبيبًا مختصًّا فقال لي: لا مانع. وسوف أذهب إلى المستشفى، وإلى الطَّبيب المختص لنزعها وإهدائها لك.

فقال له سماحة الشَّيخ: يا أخي بارك الله لك في عينيك، ونفعك بهما، نحن راضون بما كتب الله لنا.

- وفي عام ١٤١٨هـ جاء رجل مِن السُّودان، وأخذ يتجوَّل بين المكاتب في دار الإفتاء في الرِّياض، وهو يقول: لم أجد مَن يتجاوب معي ولا مَن يدخلني على سماحة الشَّيخ، قال الشَّيخ محمَّد بن موسى الموسى: فقلت له: وما تريد مِن سماحته؟ فقال: أنا أتيت إلى سماحته مهديًا إليه إحدى عينيَّ، أدخلوني على سماحته، فأخذت بيده وأدخلته عليه، فلمَّا رآه وسلم عليه، قال: يا سماحة الشَّيخ أنا مِن بلاد السُّودان، جئت إليك مهديًّا إحدى عينيَّ، فتفضَّل بقبولها وخذ إحداها. فشكر له سماحة الشَّيخ صنيعه ومحبَّته، وقال: بارك الله لك في عينيك، نحن راضون بما كتب الله لنا[1].

أقوالٌ وحكمٌ في الإيثَار:

- (قال أحدهم: لا تُوَاكِلَنَّ جائعًا إلَّا بالإيثَار، ولا تُوَاكِلَنَّ غنيًّا إلَّا بالأدب، ولا تُوَاكِلَنَّ ضيفًا إلَّا بالنَّهمة[2] والانبساط[3].

- وقال أبو سليمان الدَّاراني: لو أنَّ الدُّنْيا كلَّها لي فجعلتها في فم أخ مِن إخواني لاستقللتها له.

(١) انظر: ((جوانب مِن سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله)) لمحمد بن إبراهيم الحمد (٥٠٦-٥٠٧).

(٢) نهم في الطعام إذا كان لا يشبع، والنهامة: إفراط الشهوة في الطعام. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٥٩٣).

(٣) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/٥٥٧).

- وقال أيضًا: إنِّي لألقم اللُّقمة أخًا مِن إخواني فأجد طعمها في حلقي[١].

- (قال أبو حفص: الإيثَار هو أن يقدِّم حظوظ الإخوان على حظوظه في أمر الدُّنْيا والآخرة.

- وقال بعضهم: الإيثَار لا يكون عن اختيار، إنَّما الإيثَار أن تقدِّم حقوق الخَلْق أجمع على حقِّك، ولا تميِّز في ذلك بين أخ وصاحب ذي معرفة.

- وقال يوسف بن الحسين: مَن رأى لنفسه ملكًا لا يصحُّ منها الإيثَار، لأنَّه يرى نفسه أحقَّ بالشَّيء برؤية ملكه، إنَّما الإيثَار ممَّن يرى الأشياء كلَّها للحقِّ؛ فمَن وصل إليه فهو أحقُّ به، فإذا وصل شيء مِن ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة، يوصِّلها إلى صاحبها أو يؤدِّيها إليه)[٢].

الإيثَار في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

عجبتُ لبعضِ النَّاسِ يبذلُ ودَّه ... ويمنعُ ما ضمَّت عليه الأصابعُ
إذا أنا أعطيتُ الخليلَ مودَّتي ... فليس لمالي بعدَ ذلك مانعُ[٣]

وقال آخر:

وتركي مواساةَ الأخلَّاءِ بالذي ... تنالُ يدي ظلمٌ لهم وعقوقُ
وإنِّي لأستحيي مِن الله أن أُرَى ... بحال اتِّساعٍ والصَّديق مُضيقُ[٤]

---

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزَّالي (٢/١٧٤).
(٢) كتاب ((عوارف المعارف)) للسهروردي (٢/٧٦).
(٣) ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (٤/٣٥٨).
(٤) ((الصداقة والصديق)) لأبي حيان التوحيدي (ص ٣٥٠).

وقال آخر:

مَن كان للخير منَّاعًا فليس له ... عند الحقيقة إخوان وأخدان[١]

وقال علي بن محمَّد التهامي:

أُسدٌ ولكن يؤثرون بزادِهم ... والأُسد ليس تدينُ بالإيثَارِ

يتزيَّنُ النَّادي بحسنِ وجوهِهم ... كتزيُّنِ الهالاتِ بالأقمارِ[٢]

وقال أحمد محرم:

المالُ للرَّجلِ الكريمِ ذرائعٌ ... يبغي بهنَّ جلائلَ الأخطارِ

والنَّاسُ شتى في الخِلَالِ وخيرُهم ... مَن كان ذا فضلٍ وذا إيثارِ

وقال حماد عجرد:

إنَّ الكريمَ ليُخفي عنك عُسرتَه ... حتى يُخالَ غنيًّا وهو مجهودُ

وللبخيلِ على أموالِه عللٌ ... زرقُ العيونِ عليها أوجهٌ سودُ[٣]

وقال حاتمٌ الطَّائي:

وإنِّي لأستحيي صحابي أن يروا ... مكانَ يدي في جانبِ الزَّادِ أقرعا

أقصِّرُ كفي أن تنالَ أكفَّهم ... إذا نحن أهوينا وحاجاتنا معا[٤]

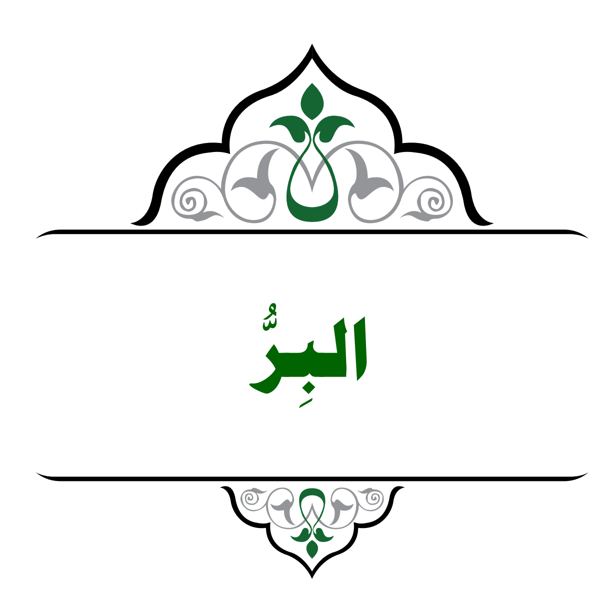


(١) ((موسوعة الأخلاق الإسلامية)) لخالد بن جمعة الخراز (ص ٣٨٨).

(٢) ((دمية القصر وعصرة أهل العصر)) للباخرزي (١/١٤٦).

(٣) ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة الدينوري (٢/٧٦٧) .

(٤) ((ديوان حاتم الطائي)) (ص ٣٥).



البِرُّ

البِرُّ

معنى البِرِّ لغةً واصطلاحًا:

• معنى البِرِّ لغةً:

البِرُّ: الصِّدق والطَّاعة والخير والفضل، وبَرَّ يَبَرُّ، إذا صَلَحَ. وبَرَّ في يمينه يَبَرُّ، إذا صدَّقه ولم يحنث. وبَرَّ رحمه يَبَرُّ، إذا وصله. ويقال: فلان يَبَرُّ ربَّه ويتبرَّره، أي: يطيعه. ورجل بَرٌّ بذي قرابته، وبارٌّ: من قوم بررة وأبرار، والمصدر: البِرُّ، والبَرُّ: الصَّادق أو التقي وهو خلاف الفاجر، والبِرُّ: ضدُّ العقوق. وبَرِرْتُ والدي بالكسر، أَبَـرُّهُ برًّا، وقد بَرَّ والده يَبَرُّه ويَبِرُّه بِرًّا... وهو بَرٌّ به وبارٌّ.. وجمع البَرِّ الأبرار، وجمع البَارِّ البَرَرَةُ[1].

• معنى البِرِّ اصطلاحًا:

قال المناوي: (البِرُّ بالكسر أي: التوسُّع في فعل الخير، والفعل المرضِي، الذي هو في تزكية النَّفس... يقال: بَرَّ العبدُ ربَّه. أي: توسَّع في طاعته... وبِرُّ الوالد: التَّوسع في الإحسان إليه، وتحرِّي محابِّه، وتوقِّي مكارهِه، والرِّفقُ به، وضدُّه: العقوق. ويستعمل البِرُّ في الصِّدق؛ لكونه بعض الخير المتوسَّع فيه)[2].

قال القاضي المهدي: (والبِرُّ: هو الصِلة، وإسداء المعروف، والمبالغة في الإحسان)[3].

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٥١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/٤٣).

(٢) ((التوقيف)) (ص ١٢٢).

(٣) ((صيد الأفكار)) للقاضي المهدي (٢/٣٠٢).

الفرق بين البِرِّ وبعض الصفات:

- **الفرق بين البِرِّ والخير:**

(أنَّ البِرَّ مضَمَّن بجعل عاجل قد قُصِد وجه النفع به، فأمَّا الخير فمطلق، حتَّى لو وقع عن سهو لم يخرج عن استحقاق الصِّفة به. ونقيض الخير: الشَّر، ونقيض البِرِّ: العقوق)[١].

- **الفرق بين البِرِّ والصلة:**

(أنَّ البِرَّ سعة الفضل المقصود إليه، والبِرُّ أيضًا يكون بلين الكلام، وبَرَّ والده إذا لقيه بجميل القول والفعل. قال الرَّاجز:

بُنَيَّ إنَّ البرَّ شيء هيِّن ... وجهٌ طليق وكلامٌ ليِّن

والصِّلة: البِرُّ المتأصِّل. وأصل الصِّلة: وصلة على فعله، وهي للنَّوع والهيئة، يقال: بارٌّ وصولٌ، أي: يصل برَّه فلا يقطعه. وتواصل القوم: تعاملوا بوصول برِّ كل واحد منهم إلى صاحبه. وواصله: عامله بوصول البِرِّ. وفي القرآن: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١]، أي: كثَّرْنا وصول بعضه ببعض بالحكم الدَّالة على الرَّشد)[٢].

- **الفرق بين الصَّدقة والبِرِّ:**

(الفرق بين البر وَالصَّدَقَة أنَّك تصَّدَّق على الفقير لسدِّ خلَّته، وتبرُّ ذا الحقِّ لاجتلاب مودَّته، ومن ثَمَّ قيل: برُّ الوالدين. ويجوز أن يقال: البِرُّ هو: النَّفع الجليل. ومنه قيل: البِرُّ لسعته محلًّا له نفعة. ويجوز أن يقال: البِرُّ سعة النَّفع.

---

(١) ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص ٩٥).
(٢) ((المصدر السابق)).

وقيل: البِرُّ الشَّفقة)[1].

- **الفرق بين القُرْبَان والبِرِّ:**

قال أبو هلال: (إنَّ القُرْبَان: البِرُّ الذي يتقرَّب به إلى الله، وأصله المصدر، مثل الكفران والشُّكران)[2].

التَّرغيب في البِرِّ:

أولًا: في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال الزَّمخشريُّ: (البِرُّ اسم للخير ولكلِّ فعل مُرْضِى، ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب؛ لأنَّ اليهود تصلِّى قِبل المغرب إلى بيت المقدس، والنَّصارى قِبل المشرق. وذلك أنَّهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، وزعم كلُّ واحد من الفريقين أنَّ البِرَّ التوجُّه إلى قبلته، فردَّ عليهم. وقيل: ليس البِرَّ فيما أنتم عليه، فإنَّه منسوخ خارج من البِرِّ، ولكنَّ البِرَّ ما نبيِّنه. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البِرَّ العظيم الذي يجب

(١) ((الفروق اللغوية)) (ص ١٧٠).
(٢) ((المصدر السابق)).

أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البِرِّ: أمر القبلة، ولكنَّ البِرَّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمَّة: بِرُّ من آمن، وقام بهذه الأعمال)[1].

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

(قوله جلَّ ذكره: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، البِرُّ: فعل ما أُمِرْت به، والتَّقوى: ترك ما زُجرت عنه. ويقال: البِرُّ: إيثار حقِّه سبحانه، والتَّقوى: ترك حظِّك. ويقال: البِرُّ: موافقة الشَّرع، والتَّقوى: مخالفة النَّفس. ويقال: المعاونة على البِرِّ بحسن النَّصيحة، وجميل الإشارة للمؤمنين. والمعاونة على التَّقوى بالقبض على أيدي الخطَّائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ، وبليغ الزَّجر، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم. والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئًا مما يُقتدى بك لا يرضاه الدِّين، فيكون قولك الذي تفعله، ويُقتدى بك (فيه) سنَّة تظهرها، و(عليك) نبُوُّ وِزْرها. وكذلك المعاونة على البِرِّ والتَّقوى، أي الاتصاف بجميل الخصال على الوجه الذي يُقتدى بك فيه)[2].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن النَّوَّاسِ بن سمعانَ رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البِرِّ والإثم، فقال: ((البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه النَّاس))[3].

---

(١) ((الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل)) للزمخشري (١/٢١٧-٢١٨).

(٢) ((لطائف الإشارات)) للقشيري (١/٣٩٨-٣٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٣).

قال ابن دقيق العيد: (أمَّا البِرُّ فهو الَّذي يُبِرُّ فاعلَه، ويلحقه بالأبرار، وهم المطيعون لله عزَّ وجلَّ. والمراد بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرِّفق في المحاولة، والعدل في الأحكام، والبذل في الإحسان، وغير ذلك من صفات المؤمنين)[1].

وقال علي القاري: (.. ((فقال: البِرُّ)) أي: أعظم خصاله، أو البِرُّ كلُّه مجملًا ((حسن الخلق)) أي: مع الخلق بأمر الحقِّ أو مداراة الخلق، ومراعاة الحقِّ. قيل: فُسِّر البِرُّ في الحديث بمعان شتى:

ففسَّره في موضع بما اطمأنَّت إليه النَّفس، واطمأنَّ إليه القلب.

وفسَّره في موضع بالإيمان، وفي موضع بما يقرِّبك إلى الله، وهنا بحسن الخلق، وفسَّر حسن الخلق باحتمال الأذى، وقلَّة الغضب، وبسط الوجه، وطيب الكلام، وكلُّها متقاربة في المعنى...

وقال بعض المحققين: تلخيص الكلام في هذا المقام أن يقال: البِرُّ اسمٌ جامعٌ لأنواع الطَّاعات والأعمال المقرِّبات، ومنه بِرُّ الوالدين، وهو استرضاؤهما بكلِّ ما أمكن، وقد قيل: إنَّ البِرَّ من خواصِّ الأنبياء عليهم السلام، أي: كمال البِرِّ. إذ لا يستبعد أن يوجد في الأمَّة من يوصف به، وقد أشار إليهما من أُوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم بقوله: حسن الخلق؛ لأنَّه عبارة عن حسن العشرة، والصُّحبة مع الخلق بأن يعرف أنهم أسراء الأقدار، وإنْ كان ما لهم من الخلق والخلق والرِّزق والأجل بمقدار، فيحسن إليهم حسب الاقتدار، فيأمنون منه، ويحبُّونه بالاختيار. هذا مع الخلق، وأما مع الخالق فبأَنْ يشتغل بجميع الفرائض والنَّوافل، ويأتي لأنواع الفضائل، عالمًا بأنَّ كلَّ ما أتى

---

(١) ((شرح الأربعين النووية)) لابن دقيق العيد (ص ٩٤).

منه ناقص يحتاج إلى العذر، وكل ما صدر من الحقِّ كامل يوجب الشُّكر)[١].

- عن ثوبانَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يزيد في العمر إلَّا البِرُّ، ولا يردُّ القدر إلَّا الدُّعاء، وإنَّ الرَّجل ليُحْرَم الرِّزق بخطيئة يعملها))[٢].

قال السِّندي في حاشيته: (قوله: ((لا يزيد في العمر إلا البِرُّ)) إمَّا لأنَّ البارَّ ينتفع بعمره وإن قلَّ، أكثر ممَّا ينتفع به غيره وإن كثر، وإما لأنَّه يُزاد له في العمر حقيقة، بمعنى أنَّه لو لم يكن بارًّا لقصر عمره عن القدر الذي كان إذا بَرَّ، لا بمعنى أنَّه يكون أطول عمرًا من غير البارِّ، ثمَّ التفاوت إنَّما يظهر في التَّقدير المعلَّق، لا فيما يعلم الله تعالى أنَّ الأمر يصير إليه. فإنَّ ذلك لا يقبل التَّغير. وإليه يشير قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩])[٣].

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بالصِّدق؛ فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البِرِّ. وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّة. وما يزال الرجل يصدُق، ويتحرَّى الصِّدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا. وإيَّاكم والكذب؛ فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور. وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار. وما يزال الرَّجل يكذب، ويتحرَّى الكذب حتَّى يُكتب عند الله كذابًا))[٤].

---

(١) ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) لعلي القاري (٨/٣١٧٣-٣١٧٤).

(٢) رواه ابن ماجه (١٨)، قال البوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (١/١٣): سألت شيخنا أبا الفضل العراقي -رحمه الله- عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن. وحسنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٨) دون قوله: ((وإن الرجل...)).

(٣) ((حاشية السندي على سنن ابن ماجه)) (١/٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

قال القاري: (.. ((عليكم بالصِّدق)). أي: الزموا الصِّدق، وهو الإخبار على وفق ما في الواقع. ((فإنَّ الصِّدق)). أي: على وجه ملازمته ومداومته. ((يهدي)). أي: صاحبه. ((إلى البِرِّ)). وهو جامع الخيرات من اكتساب الحسنات واجتناب السيئات، ويطلق على العمل الخالص الدَّائم المستمر معه إلى الموت. ((وإنَّ البِرَّ يهدي)). أي: يوصل صاحبه. ((إلى الجنَّة)). أي: مراتبها العالية ودرجاتها)[1].

أقوال السَّلف والعلماء في البِرِّ:

- روي عن عيسى ابن مريم -على نبينا وعليه السلام-: (البِرُّ ثلاثة: المنطق والنَّظر والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها)[2].

- وقال أبو الدَّرداء: (اعبدوا الله كأنَّكم ترونه، وعُدُّوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أنَّ قليلًا يغنيكم، خير من كثير يلهيكم، واعلموا أنَّ البِرَّ لا يبلى، وأنَّ الإثم لا يُنسى)[3].

وعن أبي الأشهب قال: (سمعت الحسن، يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قال: كانوا يعملون ما عملوا من أنواع البِرِّ، وهم مشفقون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله)[4].

- وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: (يكفي من الدُّعاء مع البِرِّ مثل ما

(١) ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) (٧/٣٠٢٩).
(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٠٠).
(٣) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٣٨١) (١٠٦٦٤)، ووكيع في ((الزهد)) (٢٣٥، ٢٣٦).
(٤) ((الزهد)) لوكيع (ص ٣٩٠).

يكفي الطَّعام من الملح)[١].

- و(قال سليمان بن عبد الملك: يا أبا حازم أيُّ عباد الله أكرم؟ قال: أهل البِرِّ والتَّقوى)[٢].

- و(قال داود الطائي: البرُّ همَّته التَّقوى، فلو تعلَّقت جميع جوارحه بالدُّنيا، لردَّته نيَّته يومًا إلى نيَّةٍ صالحةٍ، وكذلك الجاهل بعكس ذلك)[٣].

- وقيل لسفيان بن عيينة: ما السَّخاء؟ قال: (السَّخاء: البِرُّ بالإخوان، والجود بالمال)[٤].

- وقال مالك بن دينار: (ما من أعمال البِرِّ شيء إلا دونه عقبة، فإنْ صبر صاحبها أفضت به إلى رَوحٍ، وإنْ جزع رجع)[٥].

- وقال ابن حزم: (ينبغي أنْ يرغب الإنسان العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البِرِّ التي يستحق من هي فيه الذِّكر الجميل، والثَّناء الحسن، والمدح، وحميد الصِّفة. فهي التي تقرِّبه من بارئه تعالى، وتجعله مذكورًا عنده عزَّ وجلَّ الذِّكر الذي ينفعه، ويحصل على بقاء فائدته، ولا يبيد أبد الأبد)[٦].

- وقال ابن عبد البر: (وقالوا: البِرُّ في المساعدة، والمؤانسة، والمؤاخاة)[٧].

وعن يونس بن عبيد قال: (لا تجد شيئًا من البِرِّ واحدًا يتبعه البِرُّ كلُّه غير

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٦/٣٤).

(٢) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٢/١٤٧).

(٣) ((المصدر السابق)) (٤/٣٦٤).

(٤) ((المصدر السابق)) (٣/٢٤٧).

(٥) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (٢/١٦٣).

(٦) ((الأخلاق والسير في مداواة النفوس)) (ص ٩٠).

(٧) ((أدب المجالسة)) (ص ١١٢).

اللِّسان، فإنَّك تجد الرَّجل يُكثر الصيام ويُفطر على الحرام، ويقوم الليل ويشهد بالزُّور، وذكر شيئًا نحو هذا، ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحقٍّ، فيخالف ذلك علمه أبدًا)[١].

- وقال سهل بن عبد الله: (ليس كلُّ من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله، ولا يجتنب الآثام إلا صدِّيق مقرَّب، وأمَّا أعمال البِرِّ فيعملها البرُّ والفاجر)[٢].

- وقال محمد بن علي التِّرمذي: (ليس في الدُّنيا حِمل أثقل من البِرِّ؛ لأنَّ من برَّك فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك)[٣].

- وقال ابن القيِّم: (إنَّ أعمال البِرِّ تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصعد إلى الله به، فبحسب قوَّة تعلُّقه بها يكون صعوده مع صعودها)[٤].

فؤاد البر:

١- البِرُّ طريق موصل إلى الجنَّة:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (عليكم بالصِّدق؛ فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإنَّ الرَّجل يَصْدُق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا).

٢- من فضائل البِرِّ أنه سبيل للزيادة في العمر:

فعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يردُّ

(١) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (٢/١٨٠).
(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٢٧٢).
(٣) ((المصدر السابق)) (٢/٣٤٤).
(٤) ((طريق الهجرتين)) (ص ٢٧٤).

القضاء إلَّا الدُّعاء، ولا يزيد في العمر إلَّا البِرُّ).

٣- البِرُّ من أسباب سعادة المرء في الدَّارين.

٤- البِرُّ يؤدِّي إلى نيل محبَّة النَّاس، وإلى الألفة وشيوع روح المحبَّة في المجتمع.

٥- بذل البِرِّ يؤكِّد المحبَّة، فقد قيل: (أربعة تؤكِّد المحبَّة: حسن البِشْر، وبذل البِرِّ، وقصد الوفاق، وترك النِّفاق)[1].

قال الماورديُّ: (وأما البِرُّ، وهو الخامس من أسباب الألفة؛ فلأنَّه يوصل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبَّة وانعطافًا)[2].

٦- البِرُّ طريقٌ لراحة البال، واستقرار النَّفس واطمئنانها:

ففي حديث وابصة بن معبد قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((جئتَ تسأل عن البِرِّ والإثم؟ قلت: نعم. قال: استفت قلبك، البِرُّ ما اطمأنَّت إليه النَّفس، واطمأنَّ إليه القلب))[3].

٧- البِرُّ إحدى الصِّفات التي لا تكتمل مكارم الأخلاق إلَّا بها:

عن النَّوَّاس بن سمعانَ رضي الله عنه: ((سألت رسول الله صلى الله عليه

(١) ((صيد الأفكار)) للقاضي المهدي (٣٥٧/١).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) (ص١٨٢).

(٣) رواه أحمد (٢٢٨/٤) (١٨٠٣٠)، والدارمي (٣٢٠/٢) (٢٥٣٣)، وأبو يعلى (١٦٠/٣) (١٥٨٦)، والطبراني (١٤٨/٢٢) (٤٠٣) وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢٣/٣)، وحسنه النووي في ((الأذكار)) (٥٠٤)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢٩٧/١٠): رجال أحد إسنادي الطبراني ثقات، وقال الألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٢٧٠٥): فيه ابن مكرز وهو مجهول، وفي المسند بإسناد صحيح على شرط مسلم دون قوله: ((استفت نفسك... ثلاثا))، وله شاهد دون الزيادة وسنده صحيح.

وسلم عن البِرِّ والإثم؟ فقال: البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطَّلع عليه النَّاس)).

٨- أنَّ كلَّ أنواع الخير ينطوي تحت كلمة البِرِّ[١].

قال ابن القيِّم: (إنَّ أعمال البِرِّ تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلُّقه بها يكون صعوده مع صعودها)[٢].

٩- أنَّ البِرَّ يحرس النِّعم ويحصِّنها:

يقول النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((ما نقص مال عبد من صدقة)) [٣].

(وقيل: من تلقَّى أوائل النِّعم بالشُّكر، ثم أمضاها في سبل البِرِّ، فقد حرسها من الزَّوال، وحصَّنها من الانتقال)[٤].

١٠- أنَّ البِرَّ والإحسان إلى النَّاس يعطي هيبة تعين على أمور الدُّنيا والدِّين[٥].

فمن أحسن إلى النَّاس عظم في أعينهم، ولقي الاحترام والتوقير، وبادلوه الحبَّ، ممَّا يجعل له مكانته وهيبته في المجتمع، فتعينه تلك المكانة على أموره.

قال الشَّاعر:

أحسِن إلى النَّاس تستعبدْ قلوبهمُ فطالما استعبد الإحسانُ إنسانًا

(١) ((صيد الأفكار)) للقاضي المهدي (٢/٣٠٤).

(٢) ((طريق الهجرتين)) (ص٢٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وأحمد (٤/٢٣١) (١٨٠٦٠). من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٢٥).

(٤) ((صيد الأفكار)) للقاضي المهدي (١/٣٨٢).

(٥) ((المصدر السابق)) (٢/٣٠٤).

أقسام البِرِّ:

- **البِرُّ ينقسم إلى قسمين:**

بِرُّ صِلَة، وبِرُّ معروف.

قال الماورديُّ: (والبِرُّ نوعان: صِلَة، ومعروف.

فأما الصلَة: فهي التَّبرع ببذل المال في الجهات المحدودة لغير عوض مطلوب، وهذا يبعث عليه سماحة النَّفس وسخاؤها، ويمنع منه شحُّها وإباؤها. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وأما النَّوع الثَّاني من البِرِّ فهو: المعروف، ويتنوع أيضا نوعين: قولًا وعملًا. فأما القول: فهو طيب الكلام، وحسن البِشْر، والتودُّد بجميل القول، وهذا يبعث عليه حسن الخلق، ورِقَّة الطبع، ويجب أن يكون محدودًا كالسَّخاء؛ فإنَّه إن أسرف فيه كان مَلَقًا مذمومًا، وإن توسط واقتصد فيه كان معروفًا، وبِرًّا محمودًا.

وأمَّا العمل: فهو بذل الجاه والمساعدة بالنَّفس، والمعونة في النَّائبة، وهذا يبعث عليه حبُّ الخير للنَّاس، وإيثار الصَّلاح لهم. وليس في هذه الأمور سَرَفٌ، ولا لغايتها حَدٌّ، بخلاف النَّوع الأوَّل؛ لأنَّها وإن كثرت فهي أفعال خير تعود بنفعين: نفع على فاعلها في اكتساب الأجر، وجميل الذِّكر، ونفع على المعان بها في التخفيف عنه، والمساعدة له)(١).

صور البِرِّ:

البِرُّ لفظةٌ تعمُّ جميع أعمال الإحسان، وتشمل كلَّ خصال الخير، وعلى هذا فللبر أشكال وصور كثيرة، لكنْ من أبرز صور البِرِّ والإحسان:

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (١٨٣، ٢٠١).

البِرُّ بالوالدين:

قال الله تعالى مثنيًا على نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وقال عن نبيه يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وقرن بر الوالدين بتوحيده فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)) فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بر الوالدين أفضل من الجهاد في سبيل الله (ويكاد الإنسان لا يفي والديه حقهما عليه مهما أحسن إليهما، لأنهما كانا يحسنان إليه حينما كان صغيرًا وهما يتمنيان له كل خير، ويخشيان عليه من كل سوء، ويسألان الله له السلامة وطول العمر، ويهون عليهما من أجله كل بذلٍ مهما عظم، ويسهران على راحته دون أن يشعرا بأي تضجر من مطالبه، ويحزنان عليه إذا آلمه أي شيء)[1].

ولا يقتصر بر الوالدين على حال حياتهما، بل يمتد أيضًا إلى ما بعد مماتهما، ففي الحديث ((عن أبي أُسَيْد مالك بن ربيعة السَّاعدي قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ جاءه رجل من بني سلمة، فقال:

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٢٢).

يا رسول الله، هل بقي من بِرِّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصَّلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرَّحم التي لا تُوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما))[1]. وفي الحديث الآخر، حديث ابن عمر: ((مِنْ أبَرِّ البِرِّ، أن يصل الرَّجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّي))[2]. فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بِرِّه.

(وإذا قيل: فما هو البِرُّ الذي أمر الله به ورسوله؟ قيل: قد حَدَّه الله ورسوله بحَدٍّ معروف، وتفسير يفهمه كلُّ أحد، فالله تعالى أطلق الأمر بالإحسان إليهما، وذكر بعض الأمثلة التي هي أنموذج من الإحسان، فكل إحسان قوليٍّ أو فعليٍّ أو بدنيٍّ، بحسب أحوال الوالدين والأولاد والوقت والمكان، فإنَّ هذا هو البِرُّ... فكلُّ ما أرضى الوالدين من جميع أنواع المعاملات العرفيَّة، وسلوك كلِّ طريق ووسيلة ترضيهما، فإنَّه داخل في البِرِّ، كما أنَّ العقوق: كلُّ ما يسخطهما من قول أو فعل. ولكن ذلك مقيد بالطَّاعة لا بالمعصية. فمتى تعذَّر على الولد إرضاء والديه إلا بإسخاط الله، وجب تقديم محبَّة الله على محبَّة الوالدين. وكان اللَّوم والجناية من الوالدين، فلا يلومان إلا أنفسهما)[3].

موانع فعل البِرِّ:

١- البعد عن الله سبحانه وتعالى، وكثرة الذُّنوب تحيل بين المرء وبين عمل المعروف والبِرِّ.

---

(١) رواه أبو داود (٥١٤٢)، وأحمد (٣/٤٩٧) (١٦١٠٣)، والطبراني (١٩/٢٦٧) (٥٩٢)، والحاكم (٤/١٧١)، والبيهقي (٤/٢٨) (٧١٤٢). وحسنه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/٣٠٧)، وقال ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٥/٣٧٢): ثابت. وضعفه الألباني في ((ضعيف سنن أبي داود)) (٥١٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٢).

(٣) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (٢١٦-٢١٧).

٢- البخل والشُّحُّ، وحبُّ المال، والحرص عليه، والتعلق به.

٣- الحقد، والتَّحاسد، والكراهية تمنع الشخص من الإحسان إلى النَّاس.

٤- الجهل بما يرتَّب على عمل البرِّ من أجر عظيم.

الوسائل المعينة على فعل البِرِّ:

١- طلب رضا الله، فمن أراد التقرُّب إلى الله، فإنَّه سيسعى بكلِّ عمل يوصله إليه، ومن ذلك كلُّ أعمال البِرِّ.

٢- تدريب النفس وتعويدها على عمل الصَّالحات، حتَّى وإن دعته نفسه إلى تركها:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الصِّدق يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق...)).

٣- حبُّ النَّاس، والسَّعي للتودُّد إليهم، والتقرُّب منهم، مدعاة للبِرِّ، والإحسان لهم.

٤- معالجة النَّفس من مرض البخل والشُّحِّ، ومحاولة تعويدها على الإنفاق في وجوه الخير، وفي مختلف القرب:

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢].

٥- تقوى الله ومخافته، طريق يجعل الإنسان يسعى لإرضائه جلَّ وعلا: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٦- نزع الحقد والغلِّ والحسد وغيرها من الصِّفات القبيحة، والتي تقف

حائلًا أمام الإحسان إلى النَّاس وبرِّهم.

الحِكَم والأمثال في البِرِّ:

- أخ أراد البِرَّ صرحًا فاجتهد[١].

- البِرُّ أن تعمل في السِّر عمل العلانية[٢].

- خير البِرِّ عاجله[٣].

- برُّ الكريم طبع، وبرُّ البخيل دفعٌ[٤].

- أبرُّ من هرَّة[٥]

- خير البِرِّ ما صفا وضفا[٦].

- (سئل بزَرْجَمهر الحكيم: من أولى النَّاس بالسَّعادة؟ فقال: من سلم من الذُّنوب. فقيل له: من أفضل النَّاس عيشًا؟ قال: المجتهد الموَفَّق. قيل له: فما أفضل البِرِّ؟ قال: الورع)[٧].

- قال ابن المقفع: (من أفضل البِرِّ ثلاث خصال: الصِّدق في الغضب، والجود في العُسرة، والعفو عند القدرة)[٨].

---

(١) ((مجمع الأمثال)) (١/٦٩)، والصرح: الخالص من كل شيء. ويضرب هذا المثل لمن اجتهد في برِّك، وإن لم يبلغ رضاك.

(٢) ((صيد الأفكار)) للقاضي المهدي (٢/٣٠٤).

(٣) ((المصدر السابق)).

(٤) ((زهر الأكم)) لليوسي (١/١٨٠).

(٥) ((المصدر السابق)) (١/١٨١). لأن الهرَّة تأكل أولادها من شدَّة الحبِّ لها. انظر: ((الحيوان)) للجاحظ (١/١٢٩)، وحياة الحيوان للدميري (٢/٥٢٥).

(٦) ((لباب الآداب)) للثعالبي (ص ٧٨).

(٧) ((المجالسة وجواهر العلم)) للدينوري (٦/٢٨٢).

(٨) ((الأدب الصغير والأدب الكبير)) لابن المقفع (ص ٤٠).

- يقال: (ثلاث من كنوز البِرِّ: كتمان الصَّدقة، وكتمان الوجع، وكتمان المصيبة)[1].

- ويقال: (مكتوب في التوراة: من يزرع البِرَّ يحصد السَّلامة)[2].

- يقال: (سبعة أشياء من كنوز البِرِّ، وكلُّ واحد من ذلك واجب بكتاب الله تعالى.

أولها: الإخلاص في العبادة، لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، والثَّاني: بِرُّ الوالدين، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، والثَّالث: صلة الرَّحم، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء: ١]، والرَّابع: أداء الأمانة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] الآية. والخامس: أن لَّا يطيع أحدًا في المعصية، لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ٦٤]، والسَّادس: أن لَّا يعمل بهوى نفسه، لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، والسَّابع: أن يجتهد في الطَّاعة، ويخاف الله تعالى، ويرجو ثوابه، لقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، فالواجب على كلِّ إنسان أن يكون خائفًا باكيًا، فإنَّ الأمر شديد)[3].

١٢- ويقال: (من علامات التَّوفيق ثلاث: دخول أعمال البِرِّ عليك من غير قصد لها، وصرف المعاصي عنك مع الطَّلب لها، وفتح باب اللَّجأ

(١) ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص ٢٥٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٣٧٤).

(٣) ((المصدر السابق)) (٥٩٤، ٥٩٥).

والافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ في الشِّدَّة والرَّخاء، ومن علامات الخذلان ثلاث: تعسُّر الخيرات عليك مع الطَّلب لها، وتيسُّر المعاصي لك مع الرَّهَب منها، وغلق باب اللَّجَأ والافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ)[١].

١٣- وقالوا: (البِرُّ في المساعدة، والمؤانسة، والمؤاخاة)[٢].

البِرُّ في واحة الشِّعر:

قال ابن الأعرابي:

ليس بما ليس به بأسٌ باسُ ... ولا يضيرُ البَرَّ ما قال النَّاسُ[٣]

قال الشَّاعر:

واللهُ أنجحُ ما طلبتَ به ... والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ[٤]

وقال آخر:

وما البِرُّ إلا مُضْمَراتٌ من التُّقى ... وما المال إلا مُعْمَراتٌ ودائع[٥]

قال سابق البربري:

إنَّ التُّقى خيرُ زادٍ أنت حاملُه ... والبِرُّ أفضلُ شيءٍ ناله بشرُ[٦]

وقال آخر:

والإثمُ مِن شرِّ ما يُصالُ به ... والبِرُّ كالغيثِ نبتُه أَمِرُ[٧]

(١) ((قوت القلوب في معاملة المحبوب)) لأبي طالب المكي (١/١١٥).
(٢) ((أدب المجالسة وحمد اللسان)) لابن عبد البر (ص: ١١٢).
(٣) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/١٠٦).
(٤) ((صيد الأفكار)) للقاضي المهدي (٢/٣٠٤).
(٥) ((المصدر السابق)).
(٦) ((المصدر السابق)).
(٧) ((أمالي القالي)) (١/ ١٠٣)، وأمر: أي كثير.

وقال آخر:

من لم يُنِلْك البِرَّ في حياتِه لم تبكِ عيناك على وفاتِه[١]

وقال آخر:

بُنيَّ إنَّ البرَّ شيءٌ هيِّنُ المنطقُ الليِّنُ والطُعَيِّمُ[٢]

أنشد الكُرَيْزي:

مِن خيرِ ما حُزتَه وُدٌّ لذي كرمٍ يجزيك ما عشتَ بالإحسانِ إحسانا

تلقَى بشَاشَته في قربِه وإذا أنال نالك منه البِرُّ ما كانا[٣]

قال الشَّاعر:

وكم صاحبٍ أكرمته غيرَ طائعٍ ولا مكرهٍ إلا لأمرٍ تعمَّدا

وما كان ذاك البِرُّ إلا لغيرِه كما نصبوا للطيرِ بالحبِّ مصيدا[٤]

قال أبو العتاهية:

وإن امرأ لم يرتجِ النَّاسُ نفعَه ولم يأمنوا منه الأذَى لَلَئيمُ

وإن امرأ لم يجعلِ البِرَّ كنزَه ولو كانت الدُّنيا له لعديمُ[٥]

قال الصرصري:

واغرسْ أصولَ البِرِّ تجْنِ ثمارَها فالبِرُّ أزكَى منبتًا للغارسِ[٦]

---

(١) ((الإمتاع والمؤانسة)) للتوحيدي (ص: ٢٦١).

(٢) ((الكامل في اللغة والأدب)) للمبرد (٦٤/٣). وطعيِّم: مصغر طعام. انظر: ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (١٨٠/١٧).

(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص ٩٣).

(٤) ((رسائل ابن حزم)) (١٩٢/١).

(٥) ((ديوان أبي العتاهية)) (ص: ٣٩٣).

(٦) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٦٠٢/٣).

وقال سفيان ابن عيينة:

أَبُنَيَّ إنَّ البِرَّ شيءٌ هيِّنُ وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنُ[١]

وأنشد أبو الحسن الهاشمي:

النَّاس كلُّهم عيالُ اللهِ تحتَ ظلالِه

فأحبُّهم طُرًّا إليه أبرُّهم لعيالِه[٢]

قال أبو إسحاق الإلبيري:

فلا ترضَ المعايبَ فهي عارٌ عظيمٌ يُورثُ الإنسانَ مقتا

وتهوي بالوجيهِ من الثُّريَّا[٣] وتبدلُه مكانَ الفوقِ تحتا

كما الطَّاعاتُ تَنعَلُكَ الدَّراري[٤] وتجعلُك القريبَ وإن بعدتا

وتنشرُ عنك في الدُّنيا جميلًا فَتُلفي البِرَّ فيها حيث كنتا

وتمشي في مناكبها كريمًا وتجني الحمدَ ممَّا قد غرستا[٥]

قال الوليد ين يزيد:

من يتَّقِ اللهَ يجدْ غِبَّ[٦] التُّقى يومَ الحسابِ صائرًا إلى الهدَى

إنَّ التُّقى أفضلُ شيءٍ في العملْ أرى جماعَ البِرِّ فيه قد دخلْ[٧]

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٠١).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٨٣).

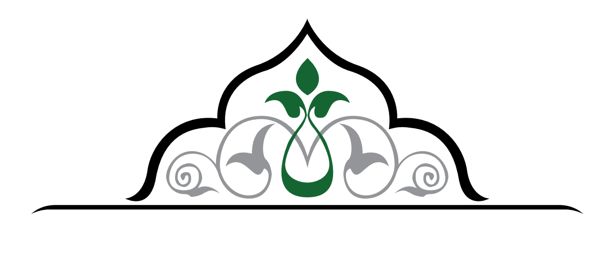
(٣) الثريا: نجم. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٧/٢٧٠).

(٤) الدَّراري: الكواكب العظام التي لا تعرف أسماؤها. انظر: ((المصدر السابق)) (١/٧٣).

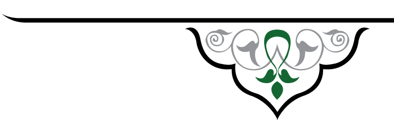
(٥) ((ديوان أبي إسحاق الإلبيري)) (ص ٣٢).

(٦) غب الأمر ومغبته: عاقبته وآخره. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٦٣٤).

(٧) ((مجاني الأدب)) ليوسف شيخو (٣/٣٦).



البَشَاشَة



البَشَاشَة

معنى البَشَاشَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى البَشَاشَة لغةً:

البَشَاشَة: هي طلاقة الوجه، وقد بَشِشْت به، أَبَشُّ بَشَاشَةً، ورجل هَشٌّ بَشٌّ، أي طَلْق الوجه طيب(١).

ومن معاني البَشِّ: اللُّطف في المسألة، والإقبال على الرجل، وقيل: هو أن يضحك له، ويلقاه لقاء جميلًا. تقول: بَشِشْت به بَشًّا وبَشَاشَةً. والبَشِيش: الوجه. يقال: رجل مضيء البَشِيش، أي: مضيء الوجه.

والبَشُّ أيضا: فرح الصَّديق بالصَّديق، والتَّبَشْبُش في الأصل التَّبَشُّش، فاستثقل الجمع بين ثلاث شينات، فقلبت إحداهن باءً(٢).

وقولهم: قد رحب فلان بفلان وبَشَّ به، معنى بَشَّ به: سُرَّ به، وفرح، وانبسط إليه(٣).

• معنى البَشَاشَة اصطلاحًا:

البَشَاشَة هي: طلاقة الوجه، مع الفرح، والتَّبسُّم، وحسن الإقبال، واللُّطف في المسألة(٤).

أما طلاقة الوجه: وهو إشراقه حين مقابلة الخلق، وهو ضدُّ العبوس.

وهي أيضًا: السُّرور بمن تلقاه(٥).

---

(١) انظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/٤٤).

(٢) انظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/٨١)، و((لسان العرب)) لابن منظور (٦/٢٦٦).

(٣) انظر: ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) للأنباري (١/٢٢٥).

(٤) انظر: ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (١/٧٣).

(٥) ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص ١١٢).

الفرق بين البِشْر والهشاشة والبَشَاشَة:

هناك فرق بين البِشْر والهشاشة والبَشَاشَة، فالبِشْر أول ما يظهر من السُّرور بلُقي من يلقاك، ومنه البِشَارة، وهي أول ما يصل إليك من الخبر السَّار، فإذا وصل إليك ثانيًا، لم يُسَمَّ بشارة، ولهذا قالت الفقهاء: إنَّ من قال: من بشَّرني بمولود من عبيدي فهو حرٌّ. أنه يُعتق أول من يخبره بذلك. وفي المثل: البِشْر علم من أعلام النَّجح.

والهَشَاشَة هي الخفَّة للمعروف، وقد هَشِشْت يا هذا، بكسر الشين، وهو من قولك: شيء هَشٌّ، إذا كان سهل التَّناول، فإذا كان الرَّجل سهل العطاء، قيل: هو هَشٌّ بَيِّنُ الهَشَاشَة.

والبَشَاشَة: إظهار السُّرور بمن تلقاه، وسواء كان أولًا أو أخيرًا[1].

مدح البَشَاشَة وطلاقة الوجه:

وردت أحاديث من السُّنَّة النَّبويَّة، تحثُّ على البَشَاشَة وطلاقة الوجه، ومن هذه الأحاديث:

- عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال لي النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق))[2].

(قوله صلى الله عليه وسلم: ((ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق))، روي (طَلْق) على ثلاثة أوجه: إسكان اللام وكسرها، وطليق، بزيادة ياء، ومعناه: سهل منبسط. فيه الحثُّ على فضل المعروف، وما تيسَّر منه وإن قلَّ، حتى

---

(١) انظر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (١/١٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٦).

طلاقة الوجه عند اللِّقاء)[١].

- عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلُّ معروف صدقة، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق))[٢].

قال المباركفوري: (...((وإنَّ من المعروف)) أي: من جملة أفراده، ((أن تلقى أخاك)) أي: المسلم. ((بوجهٍ)) بالتنوين، ((طَلْق)) معناه: يعني تلقاه منبسط الوجه متهلِّله)[٣].

وقال في ((دليل الفالحين)): (أي بوجه ضاحك مستبشر، وذلك لما فيه من إيناس الأخ المؤمن، ودفع الإيحاش عنه، وجبر خاطره، وبذلك يحصل التَّأليف المطلوب بين المؤمنين)[٤].

وقال أيضًا: (أي: متهلِّلٌ بالبِشْر والابتسام؛ لأنَّ الظَّاهر عنوان الباطن، فلُقْيَاه بذلك يشعر لمحبَّتك له، وفرحك بلُقْيَاه، والمطلوب من المؤمنين التوادُّ والتحابُّ)[٥].

- عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرَّجل في أرض الضَّلال لك صدقة، وبصرك للرَّجل الرَّديء

(١) ((شرح النووى على مسلم)) (١٦/١٧٧).
(٢) رواه الترمذي (١٩٧٠)، وأحمد (٣/٣٦٠) (١٤٩٢٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٩/٣١) (٩٠٤٤) وحسنه الترمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٣/٤٠٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٧٠)
(٣) انظر: ((مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) (٦/٣٤٤).
(٤) انظر: ((دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين)) لابن علان (٢/٣٥٦).
(٥) انظر: ((المصدر السابق)) (٥/١٦٥).

البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشَّوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة))[(١)].

((تبسُّمك في وجه أخيك)) أي: على وجه الانبساط. صدقة. أي: إحسان إليه، أو لك، فيه ثواب صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، والصَّدقات مختلفة المراتب[(٢)].

قال المناوي: (...((تبسُّمك في وجه أخيك)) أي في الإسلام، ((لك صدقة)) يعني: إظهارك له البَشَاشَة، والبِشْر إذا لقيته، تؤجر عليه كما تؤجر على الصَّدقة. قال بعض العارفين: التبسُّم والبِشْر من آثار أنوار القلب، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩] قال ابن عيينة: والبَشَاشَة مصيدة المودَّة، و البِرُّ شيء هيِّن، وجه طليق، وكلام ليِّن. وفيه رَدٌّ على العالم الذي يصَعِّر خدَّه للناس، كأنَّه معرض عنهم، وعلى العابد الذي يعبِّس وجهه ويقطِّب جبينه، كأنَّه منزَّهٌ عن النَّاس، مستقذر لهم، أو غضبان عليهم. قال الغزالي: ولا يعلم المسكين أنَّ الورع ليس في الجبهة حتى يُقَطَّب، ولا في الوجه حتى يُعَفَّر، ولا في الخدِّ حتى يُصَعَّر، ولا في الظَّهر حتى ينحني، ولا في الذَّيل حتى يُضَمَّ، إنَّما الورع في القلب)[(٣)].

قال ابن بطَّال: (فيه أنَّ لقاء النَّاس بالتَّبسُّم، وطلاقة الوجه، من أخلاق النُّبوة، وهو مناف للتكبُّر، وجالب للمودَّة)[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦)، والبزار (٤٥٧/٩) (٤٠٧٠)، وابن حبان (٢٨٧/٢) (٥٢٩). قال الترمذي: حسن غريب. وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٥٦)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٢٨٧/٢).

(٢) انظر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) (٢٠٥/٦).

(٣) ((فيض القدير)) (٢٢٦/٣).

(٤) انظر: ((شرح صحيح البخارى)) (١٩٣/٥).

- **أقوال السَّلف والعلماء في البَشَاشَة وطلاقة الوجه:**

- عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: (مكتوب في الحكمة: ليكن وجهك بسطًا، وكلمتك طيبة، تكن أحبَّ إلى النَّاس من الذي يعطيهم العطاء)[١].

- قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (إنَّ المسلمَيْنِ إذا التقيا، فضحك كلُّ واحد منهما في وجه صاحبه، ثم أخذ بيده، تَحَاتَّتْ ذنوبهما كتحات ورق الشجر)[٢].

- قال عبد الله بن المبارك: (حسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكفُّ الأذى)[٣].

- قال ابن القيِّم: (طلاقة الوجه والبِشْر المحمود وسط بين التَّعبيس والتَّقطيب، وتصعير[٤] الخدِّ، وطيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال مع كلِّ أحد بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أنَّ الانحراف الأوَّل يوقع الوحشة، والبغضة، والنُّفرة في قلوب الخَلْق، وصاحب الخُلُق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبيِّنا: من رآه بديهة[٥] هابه، ومن خالطه عشرة أحبَّه)[٦].

- قال بعض الحكماء: (الْقَ صاحب الحاجة بالبِشْر، فإنْ عدمت شكره، لم تعدم عذره)[٧].

---

(١) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٢٥٤) (٨٠٥٧).
(٢) ذكره ابن حمدون في ((التذكرة الحمدونية)) (٢/٢٢٨).
(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٥).
(٤) التصعير: إمالة الخد عن النظر إلى الناس تهاونا من كبر كأنه معرض. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٣٥٦).
(٥) البديهة: أول كل شيء وما يفجأ منه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٤٧٥).
(٦) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٣١١).
(٧) انظر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (١/٢٣٩).

- قيل للأوزاعي رحمه الله: ما كرامة الضَّيف؟ قال: طلاقة الوجه، وطيب الحديث[١].

- قال ابن حبان: (البَشَاشَة إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البِشْر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي)[٢].

- وقال أبو جعفر المنصور: (إنْ أحببت أنْ يكثر الثَّناء الجميل عليك من النَّاس بغير نائل، فالْقَهُمْ ببِشْر حسن)[٣].

فوائد البَشَاشَة وطلاقة الوجه:

١- طلاقة الوجه تبشر بالخير، ويقبل على صاحبها النَّاس، والوجه العبوس سبب لنفرة النَّاس.

٢- من فوائدها محبَّة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله عليه السَّلام: ((إنَّ الله يحبُّ الطَّلْق الوجه، ولا يحبُّ العبوس)) [٤].

٣- طلاقة الوجه للضيف من إكرامه، مع طيب الحديث عند الدُّخول، والخروج، وعلى المائدة[٥].

وقد قيل: (من آداب المضيف: أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنى، والبسط بوجهه، فقد قيل: البَشَاشَة خير من القِرَى)[٦].

---

(١) انظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٨/٢).

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٧٥).

(٣) ((عين الأدب والسياسة)) لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل، (ص ١٥٤) نقلاً عن كتاب ((سوء الخلق)) لإبراهيم الحمد.

(٤) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في ((آداب الصحبة)) (١١٥).

(٥) انظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٨/٢).

(٦) انظر: ((غذاء الألباب شرح منظومة الآداب)) للسفاريني (١١٦/٢).

٤- تكلُّفُ البِشْر والطَّلاقة، وتجنُّب العبوس والتَّقطيب من الوسائل المعينة على اكتساب الأخلاق الحميدة.

٥- الهَشَاشَة وطلاقة الوجه تثمر المحبَّة بين المسلمين، والتآلف بينهم.

موانع اكتساب البَشَاشَة:

١- خبث النَّفس، وتغلغل الصِّفات القبيحة فيها من الحسد والغلِّ والحقد والكبر، والتي ترسم الجهامة على وجه صاحبها، وتجعل البَشَاشَة تفارق مُحَيَّاه.

٢- عدم اتباع هدي النَّبي صلى الله عليه وسلم، والذي حثَّ على هذه الصِّفة بخلقه وقوله صلَّى الله عليه وسلم.

٣ - بغض النَّاس، وكراهية الخير لهم.

٤- عدم استشعار الأجر المترتِّب على التَّحلِّي بهذه الصِّفة.

الوسائل المعينة على اكتساب البَشَاشَة:

١- استشعار الأجر الذي رتَّبه الشرع على البَشَاشَة وحسن ملاقاة المسلمين.

٢- اتِّباع هدي النَّبي صلى الله عليه وسلم، والذي كانت البَشَاشَة خلقه، وعلمها لأمته بقوله عليه الصَّلاة والسلام.

٣- حُبُّ النَّاس يجعلك تَبَشُّ في وجوههم.

٤- التَّخلُّص من الصِّفات الذَّميمة كالحسد والحقد، التي تجعل المرء يمقت من حوله ويكره لهم الخير، ويلاقيهم بجهامة ووجه عبوس.

٥- التعوُّد على رسم الابتسامة على الوجه، ومحاولة أن تكون سمة دائمة للشَّخص.

نماذج من البَشَاشَة:

أولًا: نماذج من البشاشة في حياة الرَّسول صلى الله عليه وسلم

- بَشَاشَته صلى الله عليه وسلم لأخت خديجة -رضي الله عنها- وفاءً لها، كما ورد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ((استأذنت هالة بنتُ خويلد -أخت خديجة- على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك، فقال: اللهمَّ هالة. قالت: فَغِرْت. فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشِّدقين، هلكت في الدَّهر، قد أبدلك الله خيرًا منها))[١].

- بَشَاشَته صلى الله عليه وسلم عند مقابلة ذوي الخلق السيِّئ، مداراة لهم واتقاء لفحشهم وتأليفًا لهم، كما ورد عن عروة بن الزُّبير أنَّ عائشة -رضي الله عنها- أخبرته قالت: ((استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة! أو ابن العشيرة. فلما دخل، ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله! قلت الذي قلت، ثم ألنت له الكلام! قال: أي عائشة! إنَّ شرَّ النَّاس من تركه النَّاس، أو ودعه النَّاس اتقاء فحشه))[٢].

- بَشَاشَته صلى الله عليه وسلم عند مقابلته للناس، فعن جرير رضي الله عنه قال: ((ما حجبني النَّبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي))[٣].

وكما قيل عنه صلى الله عليه وسلم:

بادي البَشَاشَة باسم لوفوده يهتزُّ منه للنَّدى العطفان

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).

(٢) رواه البخاري واللفظ له (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

كفاه أسخى بالعطاء لمجْتَد من وابل الغيث المسفِّ الدَّاني
سبعين ألفا فَضَّها في مجلس لم يبق منها عنده فِلْسَان[١]

ثانيًا: نماذج من حياة السَّلف والعلماء

قيل: (حسن البِشْر اكتساب الذِّكر)، ولقد صدقت المقولة، فهناك المئات من علماء وأعلام الأمة ماتوا، ولكن بقي ذكرهم بهذه الصِّفة خالدًا، ففي تراجم أهل العلم: أنَّ فلانًا كان (بَشُوشًا)، أو أنَّه كان (طَلْق الوجه)، أو كانت (البَشَاشَة لا تفارق محيَّاه)، أو عبارات قريبة من هذه تعبر عن اتِّصافهم بهذه الصِّفة، ولو تتبَّع أحوالهم متتبِّع لطال به المقال، لكن نسرد هنا بعض النَّماذج لهؤلاء الأعلام:

إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الأصل، الدمشقي الصالحي الحنبلي:

قال عنه الذهبي: (وذكر عن جماعة ثناءهم عليه، ووصفهم إياه بالسَّخاء والكرم والمروءة، والإحسان الكثير إلى الفقراء، وإيثارهم، وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم، وطلاقة الوجه والبَشَاشَة والورع والخوف والعبادة، والأخلاق الجميلة ونحو ذلك)[٢].

شهاب الدين يحيى بن إسماعيل بن محمد القيسراني:

كان يتودَّد للصَّالحين، ويكثر الصَّوم والعبادة، ويصبر على الأذى، ولا يعامل صديقه وعدوَّه إلا بالخير وطلاقة الوجه[٣].

---

(١) انظر: ((نونية الصرصري)) (١/٢٦).
(٢) انظر: ((تاريخ الإسلام)) للإمام الذهبي (٤٩/٢١٩).
(٣) انظر: ((شذرات الذهب)) لابن العِماد الحنبلي (٦/١٧٥).

إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن إبراهيم:

كان طيب الأخلاق ينطبع، ويتطلب البَشَاشَة ويتبع. سهل القياد، واري الزِّنادِ، متَّسمًا بالعدالة، محتشمًا عن الإزالة[١].

الأمير الفقيه سيف الدِّين بُكْتُمر بن عبد الله السعدي:

كان فاضلًا ديِّنًا شجاعًا بارعًا في فنون الفروسيَّة، انتهت إليه الرئاسة في حمل المقَيَّرة[٢] ورمي النُّشَّاب في زمانه، هذا مع البَشَاشَة والكرم، وحسن الشكل، والتواضع وحسن المحاضرة، وجودة المشاركة في كلِّ علم وفنٍّ، مع الفصاحة في اللغة التُّركية والعربيَّة[٣].

برهان الدِّين الأبْناسي الشافعي:

كان ليِّن الجانب بشوشًا متواضعًا، ديِّـنًا [٤].

صالح بن عمر العسقلاني:

كان بسَّامًا، بشوشًا، طلق المحيَّا، فاشيًا للسَّلام، مهابًا، له جلالة، فَكِهًا[٥].

أقوال وأمثال عن البَشَاشَة وطلاقة الوجه:

- قال أبو حاتم: (البَشَاشَة إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البِشْر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من

---

(١) انظر: ((أعيان العصر وأعوان النصر)) للصفدي (١/١٣٧).

(٢) انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/٣٤١).

(٣) انظر: ((النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)) (٤/٢٠٥).

(٤) انظر: ((المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي)) ليوسف بن تغري بردي (١/١٧٨، ١٧٩).

(٥) انظر: ((معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ)) لمحمد محيسن (٢/١٧٤).

الساعي، ومن بَشَّ للنَّاس وجهًا، لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك)[١].

- وقال أيضًا: (لا يجب للسُّلطان أن يفرط البَشَاشَة والهَشَاشَة للنَّاس، ولا أن يقلَّ منهما؛ فإنَّ الإكثار منهما يؤدِّي إلى الخفَّة والسَّخف، والإقلال منهما يؤدِّي إلى العجب والكبر)[٢].

- قال الحارث المحاسبي: (ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الوجه مع الصِّيانة، وحسن الخلق مع الدِّيانة، وحسن الإخاء مع الأمانة)[٣].

- قال الأحنف: (رأس المروءة: طلاقة الوجه، والتودُّد إلى النَّاس)[٤].

- البِشْر دال على السَّخاء كما يدلُّ النَّور على الثَّمر[٥].

- من حسن الخلق أن يحدِّث الرجل صاحبه وهو مبتسم[٦].

- قال الجاحظ: (زعمت الحكماء أنَّ القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع العبوس والانقباض)[٧].

- عن ميمون بن مهران قال: (المروءة: طلاقة الوجه، والتودُّد إلى النَّاس، وقضاء الحوائج)[٨].

- قال لقمان لابنه: (خصلتان يزيِّنانك: اعلم أنه لا يطأ بساطك إلا راغب

---

(١) انظر: ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (١/٧٥).
(٢) انظر: ((المصدر السابق)) (١/٢٦٩).
(٣) انظر: ((غذاء الألباب شرح منظومة الآداب)) للسفاريني (١/٢٨٤).
(٤) انظر: ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (١/٢٠٤).
(٥) انظر: ((المصدر السابق)) (٢/٢٢٨).
(٦) انظر: ((المصدر السابق)) (١/٢٠٤).
(٧) انظر: ((الرسائل)) للجاحظ (١/٣٠).
(٨) انظر: ((تاريخ مدينة دمشق)) لابن عساكر (٦١/٣٦٣).

فيك، أو راهب منك. فأما الرَّاهب منك فأدن مجلسه، وتهلَّل في وجهه، وإيَّاك والغمز من ورائه. وأما الرَّاغب فيك، فابذل له البَشَاشَة، وابدأه بالنَّوال قبل السؤال، فإنَّك متى تلجئه إلى مسألتك تأخذ من حرِّ وجهه ضِعْفي ما تعطيه)[١].

- البَشَاشَة فخُّ الْمودَّة[٢].

- وقيل: (حسن البِشْر اكتساب الذِّكر)[٣].

- البَشَاشَة أوَّل قِرَى الأضياف[٤].

- من أحبَّ المحمدة من النَّاس بغير مرزئة، فليتلقَّهم ببِشْر حسن[٥].

- قال العتابي: (من ضنَّ ببِشْره كان بمعروفه أضنَّ) [٦].

- حسن البِشْر مخيلة النَّجح[٧].

- كان يقال: (حسن البِشْر واللِّقاء رقٌّ للأشراف والأكفاء) [٨].

- البَشَاشَة رشوة، والمودَّة نشوة.

- سئل أعرابي عن الكرم، فقال: أما الكرم في اللِّقاء فالبَشَاشَة، وأما في العِشْرة فالهَشَاشَة، وأمَّا في الأخلاق فالسَّماحة، وأمَّا في الأفعال فالنَّصاحة،

(١) انظر: ((الجليس الصالح والأنيس الناصح)) (٤٤٩/١).
(٢) انظر: ((نثر الدر في المحاضرات)) للآبي (١٩٤/١).
(٣) خال الشيء يخال خيلا وخيلة ومخيلة: ظنه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٢٦/١١).
(٤) انظر: ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزمخشري (٤٢٨/٢).
(٥) انظر: ((المصدر السابق)).
(٦) انظر: ((المصدر السابق)) (٤٢٩/٢).
(٧) انظر: ((المصدر السابق)).
(٨) انظر: ((المصدر السابق)) (٤٣١/٢).

وأما في الغنى فالمشاركة، وأما في الفقر فالمواساة[١].

- قيل: البَشَاشَة في الوجه خير من القِرَى. قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك، وقد ضمَّن شمس الدِّين البديوي هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلًا منك قاصدًا قِرَاك وأرمَتْهُ لديك المسالك

فكن باسمًا في وجهه متهلِّلًا وقل مرحبًا أهلًا ويوم مبارك

وقدِّم له ما تستطيع من القِرَى[٢] عجولًا ولا تبخل بما هو هالك

فقد قيل بيت سالف متقدِّم تداوله زيد وعمرو ومالك

بَشَاشَة وجه المرء خير من القِرَى فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك[٣]

البَشَاشَة وطلاقة الوجه في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

وإنَّ محمدًا لرسولُ حقٍّ حسيبٌ في نبوَّتِه نسيبُ

أمينٌ صادقٌ بَرٌّ تقيٌّ عليمٌ ماجدٌ هادٍ وَهُوبُ

يُريك على الرِّضا والسخطِ وجهًا تروقُ به البَشَاشَةُ والقطوبُ

يضيءُ بوجهِه المحرابَ ليلًا وتظلمُ في النَّهارِ به الحروبُ[٤]

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنتَ إذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسي ووجهُك من تلك البَشَاشَةِ يقطرُ

---

(١) انظر: ((أخلاق الوزيرين = مثالب الوزيرين)) للتوحيدي (ص ٣٩١).

(٢) قرى الضيف: أضافه. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/٢٨٤).

(٣) انظر: ((المستطرف)) للأبشيهي (١/٣٥٩).

(٤) ((ديوان البوصيري)) لأبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري (ص ٨٤).

فمَن لي بالعينِ التي كنتَ مرةً إليَّ بها في سالفِ الدَّهرِ تنظرُ[(١)]

قال ابن أبي الدُّنيا: حدَّثني أبو عبد الله محمد بن خلف التَّيمي، قال: (كان سعيد بن عبيد الطائي يتمثَّل:

اتَّقِ بالبِشْرِ مَن لقيتَ مِن النَّا سِ جميعًا ولاقِهم بالطَّلاقة

ودعِ التِّيهَ والعبوسَ عن النَّا سِ فإنَّ العُبُوسَ رأسُ الحماقة

كلما شئتَ أن تعادي عاديـ ـتَ صديقًا وقد تعزُّ الصداقة[(٢)]

وقال ابن عبد البرِّ: ولبعض أهل هذا العصر:

أزورُ خليلي ما بدا لي هشه وقابلني منه البَشَاشَة والبِشْر

فإن لم يكنْ هشٌّ وبشٌّ تركته ولو كان في اللُّقْيَا الوِلَايَة والبِشْر

وحقُّ الذي ينتاب داري زائرًا طعامٌ وَبِرٌّ قد تقدَّمه بِشْر[(٣)]

وقال البحتري:

يا سعيدُ والأمرُ فيك عجيبُ أين ذاك التَّأهيلُ والتَّرحيبُ

نَضَبَت[(٤)] بيننا البَشَاشَة والوُدُّ وغارا كما يغورُ القَلِيبُ[(٥)]

وقال إيليا أبو ماضي:

قال البَشَاشَة ليس تسعدُ كائنًا يأتي إلى الدُّنيا ويذهبُ مرغمًا

(١) انظر: ((المستطرف)) للأبشيهي (٤٢٣/١).

(٢) انظر: ((الإشراف في منازل الأشراف)) لابن أبي الدنيا (٢٢٥/١).

(٣) انظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢٨٢/٤)، و((بهجة المجالس وأنس المجالس)) لابن عبد البر (٢٦١/١).

(٤) نضب الماء ينضب، بالضم، نضوبا، ونضب إذا ذهب في الأرض. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧٦٢/١).

(٥) ((ديوان البحتري)) (٥٨/١).

قلت ابتسمْ مادام بينك والرَّدَى شبرٌ، فإنَّك بعدُ لن تتبسَّما[1]

وقال آخر:

إنَّ حسنَ اللِّقاءِ والبِشْرَ ممَّا يزرعُ الوُدَّ في فؤادِ الكريمِ

وهما يزرعان يومًا فيومًا أسوأَ الظنِّ في فؤادِ اللَّئيمِ

وقال الشَّاعر:

إذا كان الكريمُ عبوسَ وجهٍ فما أحلَى البَشَاشَة في البخيلِ



(١) انظر: ((دواوين الشعر العربي على مر العصور)) (٣٩/٢٣٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



موسوعة الأخلاق

الجزء الثالث

التَّأنِّي أو (الأَنَاة) - التَّضْحِيَة - التَّعَاوُن - التَّوَاضُع

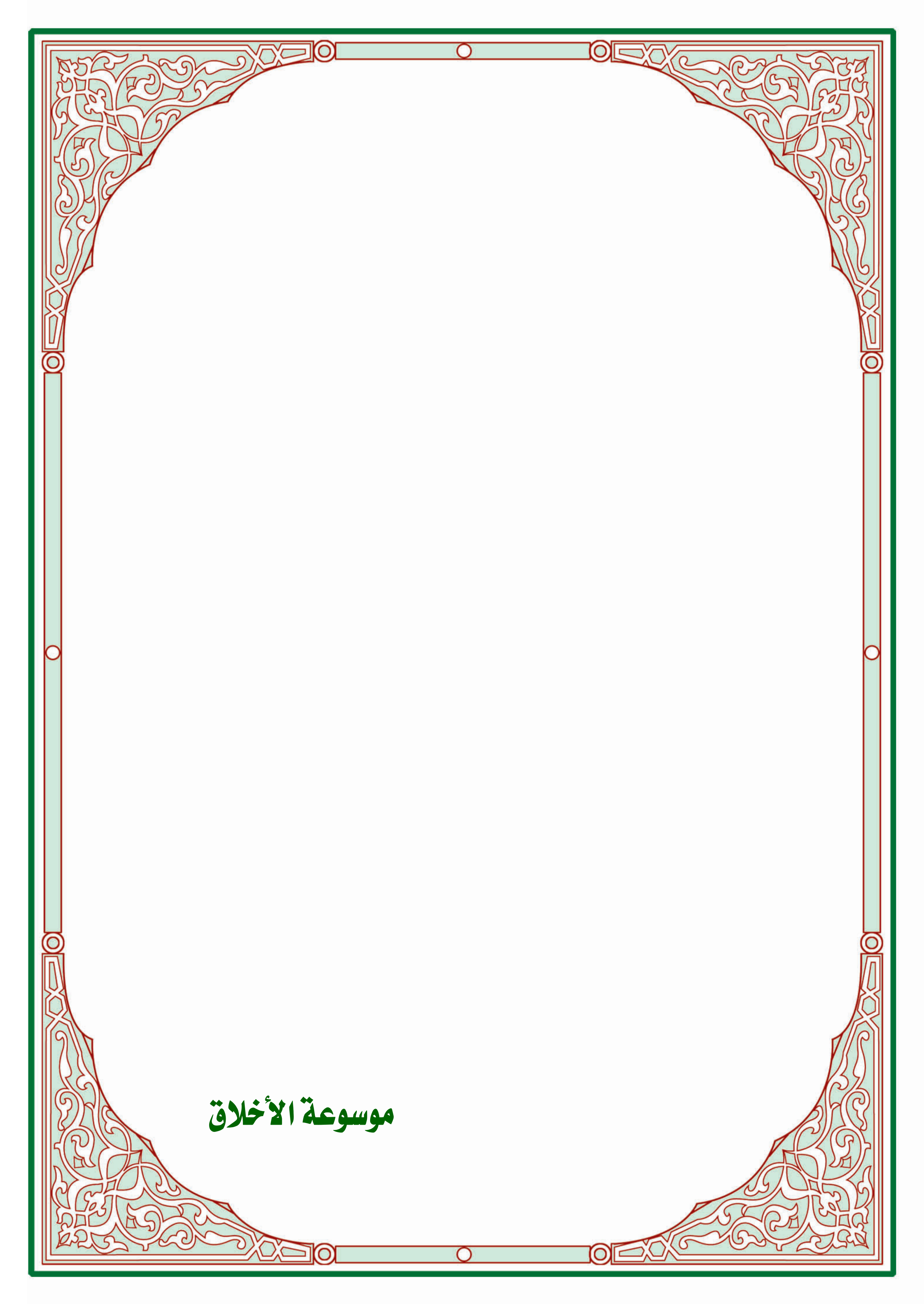
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الثالث

التَّأنِّي أو (الأَنَاة) - التَّضْحِيَة - التَّعَاوُن - التَّوَاضُع

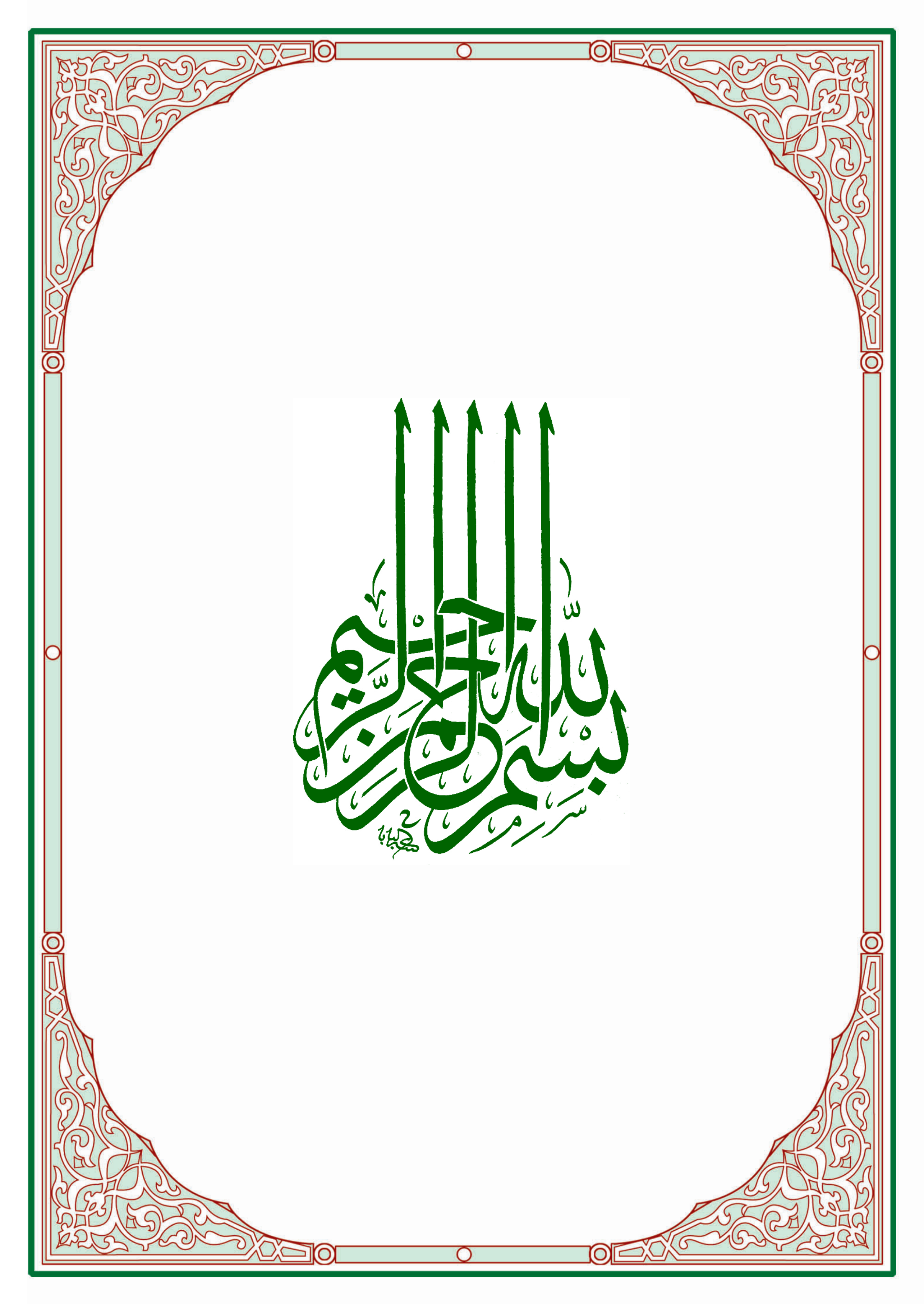
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



التَّأنِّي أو (الأَنَاة)



التَّأنِّي أو (الأناة)

معنى التَّأنِّي لغةً واصطلاحًا:

• معنى التَّأنِّي لغةً:

الأَناةُ والأَنَى: الحِلم والوقار، وأَنِيَ وتَأَنَّى واسْتأْنَى: تَثبَّت، ورجل آنٍ -على فاعل- أَي: كثير الأَناة والحِلْم.

وتقول للرَّجل: إنَّه لذو أناةٍ، أي: لا يَعجَل في الأمور، وهو آنٍ: وقورٌ[١].

• معنى التَّأنِّي اصطلاحًا:

التَّأنِّي والأناة هو: التَّثبُّت وترك العَجَلَة[٢].

وقال أبو هلال العسكريُّ: (الأناة: هي المبالغة في الرِّفق بالأمور والتَّسبُّب إليها)[٣].

الفرق بين الأناة وبعض الصِّفات:

• الفرق بين الأناة والتُّؤدة[٤]:

أن التُّؤدة: مفارقة الخفَّة في الأمور،... فالتؤدة تفيد من هذا خلاف ما تفيد الأناة، وذلك أن الأناة تفيد مقاربة الأمر والتسبب إليه، والتُّؤدة تفيد مفارقة الخفَّة.

• الفرق بين الأناة والحِلْم:

كثير مِن العلماء يرى أنَّهما بمعنى واحد، فالحِلْم -في كلام العرب-: الأناة

(١) انظر: الصحاح ((تاج اللغة وصحاح العربية))، للجوهري (٦/٢٢٧٤)، ((مقاييس اللغة))، لابن فارس (١/١٤٢).

(٢) ((شرح صحيح مسلم)) للنَّووي (١/١٨٩).

(٣) ((الفروق اللغوية)) (١/٢٠٤).

(٤) انظر: ((المصدر السابق))

والعقل، والسُّكون مع القدرة والقوَّة، والأناة والأَنَى: الحِلْم والوقار[1].

وفرق بينهما أبو هلال العسكريُّ[2] بأن:

الأناة هي: التَّمهُّل في تدبير الأمور، وترك التَّعجُّل.

والحِلْم: هو الإمهال بتأخير العقاب المستحق.

التَّرغيب في التَّأنِّي:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النِّساء: ٩٤].

قال الطَّبري: (فتبيَّنوا، يقول: فتأنَّوا في قتل مَن أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا مَن الْتَبَس عليكم أمره، ولا تتقدَّموا على قتل أحدٍ إلَّا على قتل مَن علمتموه -يقينًا- حرْبًا لكم ولله ولرسوله)[3].

- وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠].

قال ابن عطيَّة: (هذا الفعل مِن يوسف -عليه السَّلام- أناةً وصبرًا وطلبًا

---

(١) ((المحكم والمحيط الأعظم))، لابن سيده (٣/٣٦٤)، ((مختار الصحاح)) للرازي (١/٢٤، ٨٠)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١/١٠٩٦) وانظر: ((اللباب في علوم الكتاب)) لابن عادل (٤/٩٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/١٤٦)، (١٤/٤٨).

(٢) ((الفروق اللغوية)) (١/٢٠٠، ٢٠٣-٢٠٤).

(٣) ((جامع البيان في تأويل القرآن)) للطبري (٩/٧٠).

لبراءة السَّاحة، وذلك أنَّه -فيما رُوِي- خشي أن يخرج وينال مِن الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه صفحًا، فيراه النَّاس بتلك العين أبدًا، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه، فأراد يوسف -عليه السَّلام- أن تَبِين براءته، وتتحقَّق منزلته مِن العفَّة والخير)[1].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

(خلقها في ستَّة أيام -والله أعلم- لحكمتين:... الثَّانية: أنَّ الله علَّم عباده التُّؤدة والتَّأنِّي، وأنَّ الأهم إحكام الشَّيء لا الفراغ منه، حتى يتأنَّى الإنسان فيما يصنعه، فعلَّم الله -سبحانه- عباده التَّأنِّي في الأمور التي هم قادرون عليها)[2].

- وقال عزَّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

(قرأ الجمهور: فتبيَّنوا مِن التَّبيُّن، وقرأ حمزة والكسائي: فتثبَّتوا، مِن التَّثبُّت، والمراد مِن التَّبيُّن: التَّعرُّف والتَّفحُّص، ومِن التَّثبُّت: الأناة وعدم العَجَلَة، والتَّبصُّر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتَّضح ويظهر)[3].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشجِّ -أشجِّ عبد القيس-: ((إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة))[4].

(١) ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) لابن عطية (٣/٢٥٢).
(٢) ((تفسير الحجرات – الحديد)) لابن عثيمين (١/٣٦٢).
(٣) ((فتح القدير)) للشَّوكاني (٥/٧١).
(٤) رواه مسلم (٢٥).

قال القاضي عياض: (الأناة: تربُّصه حتى نظر في مصالحه ولم يعجل، والحِلْم: هذا القول الذي قاله، الدَّال على صحَّة عقله، وجودة نظره للعواقب، قلت: ولا يخالف هذا ما جاء في مسند أبي يعلى وغيره: أنَّه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشجِّ: ((إنَّ فيك خصلتين...)) الحديث، قال: يا رسول الله، كانا فيَّ أم حدثا؟ قال: ((بل قديم))، قال: قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبُّهما)[1].

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ((التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلة مِن الشَّيطان))[2].

قال المناوي: (التَّأنِّي مِن الله تعالى أي: ممَّا يرضاه ويثيب عليه، والعَجَلَة مِن الشَّيطان أي: هو الحامل عليها بوسوسته؛ لأنَّ العَجَلَة تمنع مِن التَّثبُّت، والنَّظر في العواقب)[3].

وقال ابن القيِّم: (العَجَلَة مِن الشَّيطان فإنَّها خفَّةٌ وطيشٌ وحدَّةٌ في العبد تمنعه مِن التَّثبُّت والوقار والحِلْم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشُّرور، وتمنع عنه أنواعًا من الخير)[4] .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)) للنَّووي (١/١٨٩).

(٢) رواه أبو يعلى (٧/٢٤٧) (٤٢٥٦)، والبيهقي (١٠/١٠٤) (٢٠٧٦٧)

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٣٥٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٢): رجاله رجال الصحيح، وجوَّد إسناده ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٢/١٢٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٠١١).

(٣) ((فيض القدير شرح الجامع الصَّغير)) (٣/١٨٤).

(٤) ((الروح)) (ص ٢٥٨)

((لو لبثتُ في السِّجن ما لبث يوسف لأجبت الدَّاعي))[(١)].

قال القاسمي: (مدحه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على هذه الأناة، كان في طي هذه المدحة بالأناة والتَّثبُّت تنزيهه وتبرئته ممَّا لعلَّه يسبق إلى الوهم أنَّه همَّ بامرأة العزيز همًّا يؤاخذ به، لأنَّه إذا صبر وتثبَّت فيما له ألَّا يصبر فيه، وهو الخروج مِن السِّجن، مع أن الدَّواعي متوافرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه مِن الهمِّ، أولى وأجدر)[(٢)].

- وعن أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: ((إنِّي ذاكر لك أمرًا، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك))[(٣)].

قال ابن حجر: (قوله: ((فلا عليك أن لا تعجلي)). أي: فلا بأس عليك في التَّأنِّي، وعدم العَجَلَة حتى تشاوري أبويك)[(٤)].

- وعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((التُّؤدة في كلِّ شيء خيرٌ إلَّا في عمل الآخرة))[(٥)].

قال القاري: (التُّؤدة: بضمِّ التَّاء وفتح الهمزة، أي: التَّأنِّي، ((في كلِّ شيء))

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٤) ومسلم (١٥١) واللَّفظ للبخاري.

(٢) ((محاسن التَّأويل)) (١٨٥/٦)، انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨٥/٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٥).

(٤) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٥٢١/٨).

(٥) رواه أبو داود (٤٨١٠)، وأبو يعلى (١٢٣/٢)، (٧٩٢)، والحاكم (١٣٢/١)، والبيهقي (١٩٤/١٠) (٢٠٥٩٢). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووثق رواته ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٢٢٩/٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)).

أي: مِن الأعمال. ((خيرٌ)) أي: مستحسن، ((إلَّا في عمل الآخرة)) أي: لأنَّ في تأخير الخيرات آفات. ورُوِي أنَّ أكثر صياح أهل النَّار مِن تسويف العمل. قال الطِّيبي: وذلك لأنَّ الأمور الدُّنيويَّة لا يعلم عواقبها في ابتدائها أنَّها محمودة العواقب حتى يتعجَّل فيها، أو مذمومة فيتأخر عنها، بخلاف الأمور الأخرويَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ - ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾)[1].

أقوال السَّلف والعلماء في التَّأنِّي:

- كتب عمرو بن العاص إلى معاوية يعاتبه في التَّأنِّي، فكتب إليه معاوية: (أما بعد، فإنَّ التَّفهُّم في الخبر زيادة ورشد، وإنَّ الرَّاشد مَن رشد عن العَجَلَة، وإنَّ الخائب مَن خاب عن الأناة، وإنَّ المتثبِّت مصيب، أو كاد أن يكون مصيبًا، وإنَّ العَجِل مخطئٌ أو كاد أن يكون مخطئًا)[2].

- وقال مالك: (كان يُقَال: التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَة مِن الشَّيطان، وما عَجِل امرؤٌ فأصاب، واتَّأد آخر فأخطأ، إلَّا كان الذي اتَّأد أصوب رأيًا، ولا عَجِل امرؤٌ فأخطأ، واتَّأد آخر فأخطأ، إلَّا كان الذي اتَّأد أيسر خطأ)[3].

- وقال إبراهيم بن أدهم: (ذكروا الأناة في الأشياء كلِّها، فقال الأحنف: أمَّا أنا فإذا حضرت جنازة لم أتأنَّ، وإذا وجدت كفؤًا زوَّجت ولم أتأنَّ، وإذا حضرت الصَّلاة لم أتأنَّ)[4].

---

(١) ((مرقاة المفاتيح)) (٨/٣١٦٤).

(٢) ((شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)) للالكائي (٨/١٥٣٣).

(٣) ((المدخل إلى السنن الكبرى)) للبيهقي (١/٤٣٧).

(٤) ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١١/٤٥٩ - برقم ٨٨٣١).

- وقال أبو عثمان بن الحداد: (مَن تأنَّى وتثبَّت تهيَّأ له مِن الصَّواب ما لا يتهيَّأ لصاحب البديهة)[(١)].

- أوصى مالك بن المنذر بن مالك بنيه، فقال: (يا بنيَّ! الزموا الأناة، واغتنموا الفرصة تظفروا)[(٢)].

- وقال أبو حاتم: (الخائب مَن خاب عن الأناة، والعَجِل مخطئٌ أبدًا كما أن المتثبِّت مصيبٌ أبدًا)[(٣)].

- وقال أيضًا: (إنَّ العاجل لا يكاد يلحق، كما أنَّ الرَّافق لا يكاد يُسْبَق، والسَّاكت لا يكاد يندم، ومَن نطق لا يكاد يسلم، وإن العَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرِّب)[(٤)].

فوائد التَّأنِّي:

١- دلالة على رجاحة العقل، ووفور الرَّزانة، وطمأنينة القلب.

٢- يعصم الإنسان مِن الضَّلال والخطأ.

قال ابن عثيمين: (الأناة: التَّأنِّي في الأمور وعدم التَّسرُّع، وما أكثر ما يهلك الإنسان ويزلُّ بسبب التَّعجُّل في الأمور، وسواءٍ في نقل الأخبار، أو في الحكم على ما سمع، أو في غير ذلك. فمِن النَّاس -مثلًا- مَن يتخطَّف الأخبار بمجرَّد ما يسمع الخبر يحدِّث به، ينقله،.. ومِن النَّاس مَن يتسرَّع في الحكم، سمع عن شخص شيئًا مِن الأشياء، ويتأكَّد أنَّه قاله، أو أنَّه فعله ثمَّ

(١) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٢/١١٢٧).
(٢) ((المجالسة وجواهر العلم)) للدينوري (٦/٣٠٦).
(٣) ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (١/٢١٨).
(٤) ((المصدر السابق)) (١/٢١٦).

يتسرَّع في الحكم عليه، أنَّه أخطأ أو ضلَّ أو ما أشبه ذلك، وهذا غلط، التَّأنِّي في الأمور كلُّه خيرٌ)[١].

٣- التَّأنِّي كلُّه خيرٌ ومحمود العاقبة في الدُّنْيا والآخرة.

٤- صيانة للإنسان مِن الأخلاق المذمومة:

قال ابن القيِّم: (إذا انحرفت عن خُلُق الأناة والرِّفق انحرفت: إمَّا إلى عَجَلة وطيش وعنف، وإمَّا إلى تفريط وإضاعة، والرِّفق والأناة بينهما)[٢].

٥- سببٌ لنيل محبَّة الله ورضاه سبحانه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشجِّ عبد القيس: ((إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة))[٣].

٦- صيانة الإنسان مِن كيد الشَّيطان وتسلُّطه عليه:

قال صلى الله عليه وسلم: ((التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَة مِن الشَّيطان))[٤].

قال الغزالي: (الأعمال ينبغي أن تكون بعد التَّبصرة والمعرفة، والتَّبصرة تحتاج إلى تأمُّل وتمهُّل، والعَجَلَة تمنع مِن ذلك، وعند الاستعجال يروِّج الشَّيطان شرَّه على الإنسان مِن حيث لا يدري)[٥].

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) (٣/٥٧٧- ٥٧٨).

(٢) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٢٩٦).

(٣) رواه مسلم (٢٥).

(٤) رواه أبو يعلى (٧/٢٤٧) (٤٢٥٦)، والبيهقي (١٠/١٠٤) (٢٠٧٦٧)
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٣٥٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٢): رجاله رجال الصحيح، وجوَّد إسناده ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٢/١٢٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٠١١).

(٥) ((إحياء علوم الدين)) (٣/٣٣).

٧- التَّريُّث عند وصول الخبر إليه:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

صور التَّأنِّي:

التَّأنِّي مطلوبٌ في كثير من الأحوال والمواقف التي تمرُّ على الإنسان، ومِن هذه الأحوال التي يتطلَّب فيها التَّأنِّي:

١- عند الذهاب إلى الصَّلاة:

فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: ((بينما نحن نصلِّي مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة الرِّجال، فلمَّا صلَّى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصَّلاة. قال: فلا تفعلوا إذا أتيتم الصَّلاة فعليكم بالسَّكينة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا))[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلى الصَّلاة وعليكم بالسَّكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا))[(٢)].

ففي الحديثين نهي عن الاستعجال والإسراع لإدراك الصَّلاة، والأمر بالتَّأنِّي والسَّكينة في المجيء للصَّلاة والقيام لها[(٣)].

٢- التَّأنِّي في طلب العلم:

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٣٦).

(٣) انظر: ((فتح الباري شرح صحيح البخاري))، لابن حجر (١١٨/٢)، ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري))، لبدر الدين العيني (١٥٠/٥).

قال ابن القيِّم في هذه الآية: (ومِن أسرارها -سورة القيامة-: أنَّها تضمَّنت التَّأنِّيَ والتَّثبُّت في تلقِّي العِلْم، وأن لا يحمل السَّامع شدَّة محبَّته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلِّم بالأخذ قبل فراغه مِن كلامه، بل مِن آداب الرَّب التي أدب بها نبيَّه أَمْرُه بترك الاستعجال على تلقِّي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل مِن قراءته، ثمَّ يقرأه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلِّمه حتى يقضي كلامه)[1].

٣- التَّأنِّي عند مواجهة العدو في ساحة القتال:

قال النُّعمان بن مقرن للمغيرة بن شعبة -رضي الله عنهم- في تأخير القتال يوم نهاوند: ((ربَّما أشهدك الله مثلها مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلم يُندِّمك، ولم يخزك، ولكني شهدت القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا لم يقاتل في أوَّل النَّهار، انتظر حتى تهبَّ الأرواح، وتحضر الصَّلوات))[2].

قال ابن حجر: (قوله: ((فلم يندِّمك)) أي: على التَّأنِّي والصَّبر حتى تزول الشَّمس)[3].

وقال الشَّافعي: (لا ينبغي أن يولِّي الإمام الغزو إلَّا ثقة في دينه، شجاعًا ببدنه، حسن الأناة، عاقلًا للحرب بصيرًا بها، غير عَجِلٍ ولا نَزِق، ويتقدَّم إليه أن لا يحمل المسلمين على مهلكة بحال)[4].

٤- التَّأنِّي في الإنكار في الأمور المحتملة:

فعن أبيِّ بن كعب رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في قصَّة

(١) ((التبيان في أقسام القرآن)) (١/١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣١٦٠).

(٣) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٦/٢٥٦).

(٤) ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٩/٧٠).

موسى والخضر -عليهما السَّلام- وفيه-: ((فعمد الخضر إلى لوح مِن ألواح السَّفينة، فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نَوْلٍ[١]، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! قال: ألم أقل إنَّك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني مِن أمري عسرًا))[٢].

قال ابن حجر: (إنَّ الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشَّرع، فإنَّ نقض لوح مِن ألواح السَّفينة لدفع الظَّالم عن غصبها، ثمَّ إذا تركها أعيد اللَّوح- جائزٌ شرعًا وعقلًا، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظَّاهر، وقد وقع ذلك واضحًا في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم، ولفظه: فإذا جاء الذي يسخِّرها فوجدها منخرقة، تجاوزها فأصلحها، فيُستفاد منه وجوب التَّأنِّي عن الإنكار في المحتملات)[٣].

٥- التَّأنِّي في التَّحدُّث مع الآخرين:

عن أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: ((إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يحدِّث حديثًا لو عدَّه العاد لأحصاه))[٤]. وفي لفظ: ((إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم))[٥].

قال بدر الدِّين العيني: (... ((لم يكن يسرد...)). أي: لم يكن يتابع الحديث استعجالًا، أي: كان يتكلَّم بكلام متتابع مفهوم واضح على سبيل التَّأنِّي، لئلَّا يلتبس على المستمع)[٦].

---

(١) النول: الأجر. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١٢٩/٥).
(٢) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، واللَّفظ للبخاري.
(٣) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٢٢٢/١).
(٤) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٥) رواه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٦) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (١١٥/١٦).

٦- عند الفصل في المنازعات وإنزال العقوبات:

ففي قصَّة أمير المؤمنين عمر في قضائه بين علي بن أبي طالب والعبَّاس -رضي الله عنهما- في فيء الرَّسول صلى الله عليه وسلم مِن بني النَّضير قال لهما عمر رضي الله عنه: (اتَّئدوا)(١).

قال ابن حجر: (قوله: ((اتَّئدوا)). المراد: التَّأنِّي والرَّزانة)(٢).

وقال أبو عثمان بن الحدَّاد: (القاضي شأنه الأناة [والتَّثبُّت]، ومَن تأنَّى وتثبَّت تهيَّأ له مِن الصَّواب ما لا يتهيَّأ لصاحب البديهة)(٣).

وقال مالك بن أنس: (العَجَلَة في الفتوى نوعٌ مِن الجهل والخُرْق، قال: وكان يُقَال: التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَة مِن الشَّيطان)(٤).

وقال الأصفهاني: (قال بعضهم: ينبغي للسُّلطان أن يؤخِّر العقوبة حتى ينقضي سلطان غضبه، ويعجِّل مكافأة المحسن، ويستعمل الأناة فيما يحدث، ففي تأخير العقوبة إمكان العفو إن أحبَّ ذلك، وفي تعجيل المكافأة بالإحْسَان مسارعة الأولياء إلى الطَّاعة)(٥).

أسباب عدم التَّأنِّي:

١- الغضب والحزن الشَّديد:

روى ابن عبَّاس عن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنهم- في قصَّة اعتزال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم نساءه، وفيه: ((اعتزل النَّبيُّ صلى الله

(١) رواه البخاري (٤٠٣٣).
(٢) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (١/٩١).
(٣) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٢/١١٢٧).
(٤) ((إعلام الموقعين)) لابن القيِّم (٢/١٢٨).
(٥) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (١/٢٤٢).

عليه وسلم أزواجه فقلت: خابت حفصة وخسرت... فخرجت فجئت إلى المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلًا، ثمَّ غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر))[١].

قال ابن حجر: (الغضب والحزن يحمل الرَّجل الوقور على ترك التَّأنِّي المألوف منه؛ لقول عمر: ثم غلبني ما أجد. ثلاث مرَّات)[٢].

وقال ابن الجوزي: (أشدُّ النَّاس تفريطًا مَن عَمِل مبادرة في واقعة مِن غير تثبُّت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجبه الغضب، فإنَّه طلب الهلاك أو النَّدم العظيم. وكم مَن غَضبَ فقتل وضرب، ثمَّ لما سكن غضبه؛ بقي طول دهره في الحزن والبكاء والنَّدم! والغالب في القاتل أنَّه يقتل، فتفوته الدُّنْيا والآخرة)[٣].

١- استعجال نتائج الأمور:

العجلة طبيعة في الإنسان وهي صفة مذمومة، وهي من الشيطان، كما جاء في الحديث الذي تقدم ذكره.

قال الصنعاني: (العجلة هي السرعة في الشيء، وهي مذمومة فيما كان المطلوب فيه الأناة محمودة فيما يطلب تعجيله من المسارعة إلى الخيرات ونحوها، وقد يقال: لا منافاة بين الأناة، والمسارعة، فإن سارع بتؤدة وتأن فيتم له الأمران، والضابط أن خيار الأمور أوسطها)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥١٩١).
(٢) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٩/٢٧٩)، والحديث أخرجه البخاري (٥١٩١).
(٣) ((صيد الخاطر)) (١/٣٨٥).
(٤) ((سبل السلام)) (٢/٦٨١).

٢- التَّفريط:

وذلك إذا فرَّط المرء فيما ينبغي عليه القيام به، فإنَّه يضطر للقيام به على وجه السُّرعة والعَجَلَة حتى يتدارك الأمر، وربما لا يحصل له مقصوده.

٣- إجابة داعي الشَّهوات:

وقد يكون في إجابته الهلاك، فكم من شهوة أورثت حزنًا وندامة.

٤- ترك استشارة ذوي الخبرة في أمور يجهلها:

وهذا الجهل يجعل الإنسان لا يحسن التَّعامل مع الأمور، فربَّما يَعْجَل فيما حقُّه التَّأنِّي، أو يتأنَّ فيما حقُّه التَّعجُّل، وهكذا.

الوسائل المعينة على اكتساب صفة التَّأنِّي:

١- الدُّعاء:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يدعو الله بأن يهديه إلى أحسن الأخلاق، فكان مِن دعائه: ((واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنِّي سيئها لا يصرف عنِّي سيئها إلَّا أنت))[١].

٢- النَّظر في عواقب الاستعجال:

قال أبو إسحاق القيرواني: (قال بعض الحكماء: إيَّاك والعَجَلَة؛ فإنَّ العرب كانت تكنِّيها أمَّ الندامة؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكِّر، ويقطع قبل أن يقدِّر، ويحمد قبل أن يجرِّب، ويذمُّ قبل أن يخبر، ولن يصحب هذه الصِّفة أحدٌ إلَّا صحب النَّدامة، واعتزل السَّلامة)[٢].

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).
(٢) ((زهر الآداب وثمر الألباب)) (٤/٩٤٢).

٣- معرفة معاني أسماء الله وصفاته:

فمِن أسمائه سبحانه: الحليم والرَّفيق، ومِن معانيهما: التَّأنِّي في الأمور، والتَّدرج فيها، ومن ذلك إمهال الكافرين والظَّالمين، إقامة للحجَّة وقطعًا للمحجة؛ ليهلك مَن هلك عن بينة، ويحيى مَن حيَّ عن بينة(١).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

٤- قراءة سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:

فنستفيد مِن سنَّته صلى الله عليه وسلم التَّأنِّي والصَّبر على الإيذاء، قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: ((شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسِّد بردة له في ظلِّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرَّجل فيمن قبلكم يُحْفر له في الأرض، فيُجْعَل فيه، فيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشَقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه مِن عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الرَّاكب مِن صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلَّا الله، أو الذِّئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون))(٢).

٥- قراءة سيرة السَّلف الصَّالح:

ففي سيرة سلفنا الصَّالح نماذج كثيرة تدلُّ على تحلِّيهم بخلق التَّأنِّي، والتَّريُّث في أمورهم، فقراءة سِيَرهم تعين على الاقتداء بهم، وانتهاج طريقهم.

---

(١) انظر: ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٦/٥٥٧)، ((صفات الله -عزَّ وجلَّ- الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (١/١٣٩، ١٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٦١٢).

٦- استشارة أهل الصَّلاح والخبرة:

إذا أقدم الشَّخص على أمرٍ يجهله فعليه أن يستشير أهل الصَّلاح والخبرة ولا يتعجَّل في أمره، قال تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الماورديُّ: (الحزم لكلِّ ذي لبٍّ أن لا يبرم أمرًا ولا يمضي عزمًا إلَّا بمشورة ذي الرَّأي النَّاصح، ومطالعة ذي العقل الرَّاجح. فإنَّ الله تعالى أمر بالمشورة نبيَّه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفَّل به مِن إرشاده، ووعد به مِن تأييده، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.. وقال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: أمره بمشاورتهم ليستنَّ به المسلمون ويتَّبعه فيها المؤمنون، وإن كان عن مشورتهم غنيًّا)[١].

نماذج في التَّأنِّي:

- **نماذج مِن تأنِّي الأنبياء والمرسلين عليهم السَّلام:**

نبيُّ الله يوسف عليه السَّلام:

تأنَّى نبيُّ الله يوسف -عليه الصَّلاة والسَّلام- مِن الخروج مِن السِّجن حتى يتحقَّق الملك ورعيَّته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، وامتنع عن المبادرة إلى الخروج ولم يستعجل في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (١/٣٠٠).

قال ابن عطيَّة: (هذا الفعل مِن يوسف -عليه السَّلام- أناةً وصبرًا وطلبًا لبراءة السَّاحة)[١].

- **نماذج للتَّأنِّي مِن سير الصَّحابة رضي الله عنهم:**

تأنِّي أبي ذر الغفاري في قصَّة إسلامه:

قال ابن عبَّاس: ((لمَّا بلغ أبا ذر مبعث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بمكَّة قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرَّجل الذي يزعم أنَّه يأتيه الخبر مِن السَّماء، فاسمع مِن قوله ثمَّ ائتني، فانطلق الآخر حتى قدم مكَّة، وسمع مِن قوله، ثمَّ رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشِّعر. فقال: ما شفيتني فيما أردت فتزوَّد وحمل شنَّة[٢] له، فيها ماء حتى قدم مكَّة، فأتى المسجد فالتمس النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه -يعني اللَّيل- فاضطجع، فرآه عليٌّ فعرف أنَّه غريب، فلمَّا رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثمَّ احتمل قربته وزاده إلى المسجد، فظلَّ ذلك اليوم، ولا يرى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرَّ به عليٌّ، فقال: ما آن للرَّجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه، ولا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثَّالث فعل مثل ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثمَّ قال له: ألا تحدِّثني؟ ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدنِّي، فعلتُ، ففعل، فأخبره، فقال: فإنَّه حقٌّ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أصبحت فاتَّبعني، فإنِّي إن رأيت شيئًا أخاف عليك، قمت كأنِّي أُريق الماء، فإن مضيت فاتَّبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق

---

(١) ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) لابن عطية (٣/٢٥٢).

(٢) الشنة: الخلق من كل آنية صنعت من جلد. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٤١).

يقفوه، حتى دخل على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ودخل معه، فسمع مِن قوله، وأسلم مكانه))[١].

فنجد في هذه القصَّة أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه لم يظهر ما يريده حتى يتحصَّل على بغيته، وقد تأنَّى رضي الله عنه في البحث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والسُّؤال عنه حتى لا تعلم به قريش، وتثنيه عن هدفه الذي مِن أجله تحمَّل المشاق والمتاعب.

التَّأنِّي في واحة الشِّعر:

قال النَّابغة:

الرِّفقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ فتأنَّ في رفقٍ تُلاقِ نجاحا[٢]

وقال الشَّاعر:

استأنِ تظفرْ في أمورِك كلِّها وإذا عزمتَ على الهوَى فتوكَّل[٣]

وقال زهير:

منَّا الأناةُ وبعضُ القوم يحسبُنا أنَّا بِطاءٌ وفي إبطائِنا سرعُ[٤]

وقال القطامي عمرو بن شييم:

قد يدركُ المتأنِّي بعضَ حاجتِه وقد يكونُ مع المستعجلِ الزَّللُ

وربَّما فات قومًا بعضُ أمرِهمُ مِن التَّأنِّي وكان الحزمُ لو عجلوا[٥]

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٤).

(٢) ((كتاب العين)) للخليل بن أحمد (٨/٤٠١).

(٣) ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/٣٩٨).

(٤) ((اللباب في علوم الكتاب)) لابن عادل (١٣/٢٤٨).

(٥) ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٧/١٣٧).

وقال عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

تأنَّ في أمرِك وافهمْ عنِّي فليس شيءٌ يعدلُ التَّأنِّي
تأنَّ فيه ثمَّ قلْ فإنِّي أرجو لك الإرشادَ بالتَّأنِّي[1]

وقال الشَّاعر:

لا تعجلنَّ لأمرٍ أنت طالبُه فقلَّما يدركُ المطلوبَ ذو العَجلِ
فذو التَّأنِّي مصيبٌ في مقاصدِه وذو التَّعجلِ لا يخلو عن الزَّللِ[2]

وقال العجاج:

أناة وحلمًا وانتظارًا بهم غدًا فما أنا بالواني[3] ولا الضَّرِعِ[4] الغمْرِ[5]

وقال الشَّاعر:

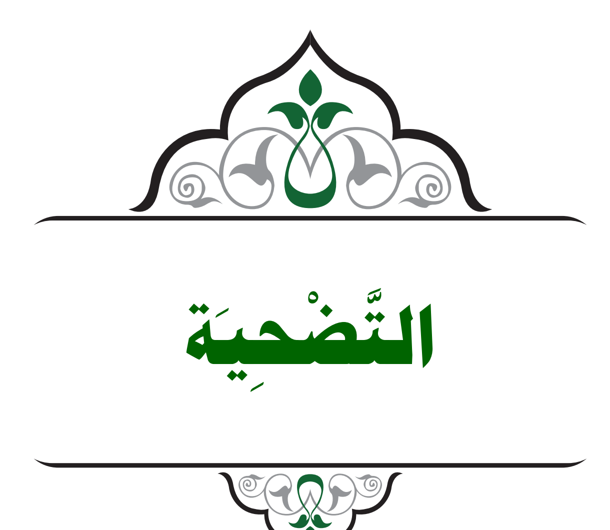
لا تعجلنَّ فربَّما عجِل الفتَى فيما يضرُّه
ولربَّما كرِه الفتَى أمرًا عواقبُه تسرُّه[6]

وقال آخر:

انطقْ مصيبًا بخيرٍ لا تكنْ هذرًا عيَّابةً ناطقًا بالفحشِ والرِّيبِ
وكنْ رزينًا طويلَ الصَّمتِ ذا فكرٍ فإن نطقتَ فلا تُكثرْ مِن الخطبِ
ولا تُجبْ سائلًا مِن غيرِ ترويةٍ وبالذي عنه لم تسألْ فلا تجبِ[7]

---

(١) ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) لأبي حاتم البستي (١/ ١٤٠).
(٢) ((بريقة محمودية)) لأبي سعيد الخادمي (٣/ ٦٥).
(٣) الواني: الضعيف البدن. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٢٦١).
(٤) الضَّرِع: الصغير من كل شيء، أو الصغير السن. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢١/ ٤٠٨).
(٥) ((كتاب العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٤٠١)، والغمر: الجاهل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٢٤٢).
(٦) ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٤/ ٢٤).
(٧) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (١١٣-١١٤).



التَّضْحِيَة

التَّضْحية

معنى التَّضْحية لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّضْحية لغةً:**

التضحية مصدر ضحَّى يقال: ضحَّى بنفسه أو بعمله أو بماله: بذله وتبرع به دون مقابل. وهي بهذا المعنى محدثة[1].

- **معنى التَّضْحية اصطلاحًا:**

هو بذل النَّفس أو الوقت أو المال لأجل غاية أسمى، ولأجل هدف أرجى، مع احتساب الأجر والثواب على ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، والمرادف لهذا المعنى: الفداء. ومن معانيها: البذل والجهاد.

التَّرغيب في التَّضْحية:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قال القاسمي: (أي: وليكرم ناسًا منكم بالشَّهادة، ليكونوا مثالًا لغيرهم في تَضْحية النَّفس شهادةً للحقِّ، واستماتةً دونه، وإعلاءً لكلمته)[2].

- قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا

---

(١) ((المعجم الوسيط)) (١/٥٣٥)، ((المعجم الوجيز)) (ص ٣٧٧).

(٢) ((تفسير القاسمي)) (٢/٤١٩).

﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١-٢٧].

(لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب، وموقف المنافقين المذبذبين منها، بالقعود عن الجهاد، وتثبيط العزائم، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاقتداء بالرَّسول الكريم في صبره وثباته، وتَضْحِيته وجهاده)(١).

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(فيما ذكر إشارة إلى أنَّ المؤمن الذي يضَحِّي بنفسه في سبيل نصر دينه ودعوة ربِّه، هو من الشُّهداء الأبْرَار، الذين يظفرون بجنان الخلد، وهم أحياء، أرواحهم في حواصل طير خُضْر، تسرح في الجنَّة حيث شاءت)(٢).

ثانيًا: في السُّنَّة النبوية

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((انتدب الله لمن خرج في سبيله -لا يخرجه إلا إيمان بي، وتصديق برسلي- أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنَّة، ولولا أن أشقَّ على أمَّتي، ما قعدت خلف سريَّة، ولوددت أنِّي أُقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم

(١) ((صفوة التفاسير)) للصابوني (٢/٤٧٦).

(٢) ((التفسير المنير)) لوهبة الزحيلي (٢/٤٠).

أحيا، ثم أُقتل))[١].

فبذل النَّفس والشَّهادة في سبيل الله هي ذروة التَّضْحية.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنَّه قال: ((من خير معاش النَّاس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً[٢]، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّه، أو رجل في غنيمة في رأس شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصَّلاة، ويؤتي الزَّكاة، ويعبد ربَّه حتَّى يأتيه اليقين، ليس من النَّاس إلا في خير))[٣].

- وعنه أيضًا رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلَّا عزًّا. وما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله))[٤].

فلا خوف من التَّضْحية بالمال عند النَّفقة.

فوائد التَّضْحية:

١- في التَّضْحية نصرة للدِّين.

٢- في التَّضْحية تحقيق التَّكافل بين طبقات المجتمع.

٣- في التضحية تقوية الأمَّة، وتحقيق تماسكها، فيهابها أعداؤها، وتصبح قويَّة البنيان عزيزة الجانب.

---

(١) رواه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) الهيعة: الصوت تفزع منه وتخافه من عدو. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٢/٤١٧).

(٣) رواه مسلم (١٨٨٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

٤- في التَّضْحية تحقيق التَّراحم بين نسيج المجتمع الإسلامي كلِّه.

٥- في التَّضْحية تحقيق العزَّة.

٦- في التَّضْحية تحقيق السَّعادة.

أقسام التَّضْحية:

تنقسم التَّضْحية إلى قسمين:

١- التَّضْحية المحمودة (المشروعة):

ومنها:

- التَّضْحية بالنَّفس:

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(أخبر أنَّه مكروه للنُّفوس؛ لما فيه من التَّعب والمشقَّة، وحصول أنواع المخاوف، والتعرُّض للمتالف، ومع هذا، فهو خيرٌ محضٌ؛ لما فيه من الثَّواب العظيم، والتَّحرُّز من العقاب الأليم، والنَّصر على الأعداء والظَّفر بالغنائم، وغير ذلك، ممَّا هو مُرَبٍّ، على ما فيه من الكراهة)[1].

- التَّضْحية بالمال:

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١٠-١١].

كذلك تدلُّ وقائع التَّربية النَّبويَّة على أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان

---

(١) ((تفسير السعدي)) (ص ٩٦).

يشترطها، ويجعلها شارة الإيمان وصدقه. والإنسان عنده ميل فطري إلى أن يضَحِّي بنفسه وماله في سبيل المثل الأعلى، بل إنَّ هذه التَّضْحية هي أمر راسخ في فطرة الإنسان، وجزء من وجوده، وما تعظيم الشَّجَاعَة عند البَشَر إلا تقديرًا لقيمة التَّضْحية في سبيل المثل الأعلى، ولذلك جُعل الجهاد أفضل الأعمال[١].

٢- التَّضْحية المذمومة (غير المشروعة):

التضحية المذمومة هي التَّضْحية في نصرة باطل، أو من أجل جاهلية، وكل تضحية لم تكن في سبيل الله أو ابتغاء مرضاته، أو تحقيقًا لمقصد شريف نبيل فهي مذمومة.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإنَّ أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حَمِيَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلَّا أنَّه كان قائمًا، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عزَّ وجلَّ))[٢].

صور التَّضْحية:

١- التَّضْحية بالنَّفس وهي من أعلى مراتب التَّضْحية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنَّه قال: ((من خير معاش النَّاس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّه، أو رجل في غنيمة في رأس شَعَفَةٍ[٣] من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه

(١) ((أهداف التربية الإسلامية)) لماجد الكيلاني (ص ١٢٨).

(٢) رواه البخاري (١٢٣).

(٣) شعفة كل شيء: أعلاه. وشعفة الجبل: رأسه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/١٧٧).

الأودية، يقيم الصَّلاة، ويؤتي الزَّكاة، ويعبد ربَّه حتَّى يأتيه اليقين، ليس من النَّاس إلا في خير))[١].

٢- التَّضْحية بالمال:

كما في حديث عن ابن عباس، قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الرِّيح المرسلة))[٢].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطَّاب، يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدَّق، فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عنده، فقال: يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا))[٣].

٣- التَّضْحية بالوقت لبذل العلم.

٤- التَّضْحية بنفع البدن.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٩).

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترِّمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١/٤٨٠) (١٦٦٠)، والبزار (١/٣٩٤) (٢٧٠)، والحاكم (١/٥٧٤)، والبيهقي (٤/١٨٠) (٨٠٢٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال التِّرمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، وقال البزَّار: [فيه] هشام بن سعد، حدَّث عنه جماعة كثيرة مِن أهل العلم، ولم نر أحدًا توقَّف عن حديثه ولا اعتلَّ عليه بعلَّة توجب التَّوقُّف عن حديثه. وصحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٦/٢٣٦)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٩٩٦).

موانع اكتساب صفة التَّضحية:

١- عدم الإخلاص لله في العمل.

٢- حبُّ النَّفس والأثرة.

٣- الانغماس في اللَّهو والتَّرف والدعة.

٤- إساءة الظنِّ وعدم الثِّقة.

٥- ضعف الإيمان، والتَّفكير في الرِّزق الذي يقعده عن الإنفاق والتَّضْحية بالمال، والخوف من الموت الذي يقعده عن الجهاد والتَّضْحية بالنَّفس.

٦- التَّعلق بالدُّنيا وزينتها، والتثاقل إلى الأرض.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

إنَّها ثَقْلة الأرض، وثَقْلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللَّذائذ والمصالح والمتاع.. ثَقْلة الرَّاحة والاستقرار.. ثَقْلة الذَّات الفانية، والأجل المحدود، والهدف القريب.. ثَقْلة اللَّحم والدَّم والتراب[١].

١٠- البخل، وعدم الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/١٦٥٥).

يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

الوسائل المعينة على اكتساب صفة التَّضحية:

١- عدم الانكباب على الدُّنيا.

٢- التَّخلُّص من الرُّوح الانهزاميَّة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٣- حبُّ الآخرين.

٤- التَّحلِّي بالشَّجاعة والإقدام.

٥- التَّحلِّي بعلو الهمَّة.

٦- التَّحلِّي بالكرم وعدم البخل.

٧- مصاحبة أهل الخير والرِّفعة، الذين ينفقون أموالهم ودماءهم في سبيل نصرة دين الله.

٨- اليقين الجازم بما أعدَّه الله لعباده المجاهدين في سبيله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

٩- قصر الأمل في الدُّنيا.

١٠- القراءة في أخبار السَّلف الصالح، والنَّظر في تضحياتهم بالنَّفس والمال، لنستلهم العبرة من أخبارهم ونقتدي بهم.

نماذج للتَّضْحية:

• التَّضْحية في قصَّة الغلام المؤمن مع الملك في الأمم السَّابقة:

حيث ضَحَّى الغلام بنفسه من أجل أن يؤمن النَّاس.. فعن صهيب رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((... فقال للملك: إنَّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع النَّاس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السَّهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، ربِّ الغلام. ثمَّ ارمني. فإنَّك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع النَّاس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثمَّ أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السَّهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، ربِّ الغلام. ثمَّ رماه، فوقع السَّهم في صُدْغه، فوضع يده في صُدْغه في موضع السَّهم، فمات. فقال النَّاس: آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام. فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد -والله- نزل بك حذرك، قد آمن النَّاس. فأمر بالأُخْدُود في أفواه السِّكك، فخُدَّت، وأضرم النِّيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فأَحْمُوه فيها. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا، حتَّى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمَّه اصبري فإنَّك على الحقِّ))[1].

• نماذج من تَضْحية النَّبي صلى الله عليه وسلم:

الرَّسول صلى الله عليه وسلم قمة في الأخلاق الكريمة، وفي التَّضْحية والشَّجَاعَة، فكان أشجع النَّاس، وأقواهم قلبًا، وأثبتهم جنانًا، وقد كانت

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥).

حياته كلُّها تَضْحية في سبيل الإسلام، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لقد أوذيت في الله، وما يؤذى أحد، وأخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون ليلة من بين يوم وليلة، وما لي ولبلال رضي الله عنه ما يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال))(١).

- **نماذج من تَضْحية الصَّحابة:**

حياة الصَّحابة مليئة بمواقف التَّضْحية والفداء، والبذل والعطاء، من أجل نصرة دين الله، وهذه نماذج من تضحياتهم.

أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إنَّ الله خيَّر عبدًا بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فقلت في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر عبدًا بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا. قال: يا أبا بكر لا تبك، إنَّ أمَنَّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متَّخذًا خليلًا من أمتي، لاتَّخذت أبا بكر، ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر)(٢).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطَّاب، يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدَّق، فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت:

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٢٣)، وأحمد (٣/١٢٠) (١٢٢٣٣)، وابن حبان (١٤/٥١٥) (٦٥٦٠). قال الترمذي: حسن غريب. وصححه ابن القيم في ((عدة الصابرين)) (١/٢٩٩)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٧٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عنده، فقال: يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا))[1].

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنَّ عمر بن الخطَّاب أصاب أرضًا بخيبر، فأتى النَّبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إنِّي أصبت أرضًا بخيبر، لم أصب مالًا قطُّ أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدَّقت بها. قال: فتصدَّق بها عمر: أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدَّق بها في الفقراء، وفي القُرْبى، وفي الرِّقاب، وفي سبيل الله، وابن السَّبيل، والضَّيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير مُتَمَوِّلٍ) قال: فحدَّثت به ابن سيرين، فقال: غير مُتَأَثِّلٍ مالًا)[2].

أبو طلحة رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: ((كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرَحَاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترِّمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١/٤٨٠) (١٦٦٠)، والبزار (١/٣٩٤) (٢٧٠)، والحاكم (١/٥٧٤)، والبيهقي (٤/١٨٠) (٨٠٢٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال التِّرمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، وقال البزَّار: [فيه] هشام بن سعد، حدَّث عنه جماعة كثيرة مِن أهل العلم، ولم نر أحدًا توقَّف عن حديثه ولا اعتلَّ عليه بعلَّة توجب التَّوقُّف عن حديثه. وصحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٦/٢٣٦)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٩٩٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

فيها طيِّب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنَّ الله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرَحَاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنِّي أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه)) تابعه رَوْحٌ. وقال يحي بن يحي وإسماعيل، عن مالك: ((رايح))[1].

الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه:

يقول ابن كثير، وهو يستعرض غزوة تبوك: (وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزُّبير بن العوَّام، وهو أفضل من هناك من الصَّحابة، وكان من فرسان النَّاس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنَّكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلمَّا واجهوا صفوف الرُّوم، أحجموا، وأقدم هو، فاخترق صفوف الرُّوم حتَّى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاؤا إليه مرَّة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجُرِح يومئذ جرحين بين كتفيه، وفي رواية: جُرح)[2].

وعن عروة (أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للزُّبير: ألا تشد فنشدَّ معك؟ قال: إنِّي إن شددت كذبتم. فقالوا: لا نفعل. فحمل عليهم حتى

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) ((البداية والنهاية)) (٧/١٥).

شقَّ صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلًا، فأخذوا بلجامه، فضربوه ضربتين: ضربة على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: فكنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال: وكان معه عبد الله بن الزُّبير، وهو ابن عشر سنين، فحمله على فرس ووكَّل به رجلًا)[١].

أنس بن النَّضر رضي الله عنه:

عن أنس رضي الله عنه أنَّ عمَّه غاب عن بدر، فقال: (غبت عن أوَّل قتال النَّبي صلى الله عليه وسلم، لئن أشهدني الله مع النَّبي صلى الله عليه وسلم ليرينَّ الله ما أجد، فلقي يوم أحد، فهزم النَّاس، فقال: اللهم إنِّي أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدَّم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد، إنِّي أجد ريح الجنَّة دون أحد، فمضى فقُتل، فما عُرف، حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم)[٢].

حِكَمٌ وأقوالٌ في التضحية:

- (قال ابن المقفع: ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك[٣] ومحضرك، وللعامَّة بشرك وتحيَّتك، ولعدوك عدلك، وضنَّ بدينك وعرضك عن كلِّ أحد.

- قيل لعبد الله بن جعفر إنَّك لتبذل الكثير إذا سُئِلت، وتضيِّق في القليل إذا توَجَّرت؟ فقال: إنِّي أبذل مالي، وأضنُّ بعقلي[٤].

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٣/٤٦).
(٢) ((صحيح البخاري)) (٥/٩٥).
(٣) الرفد، بالكسر: العطاء والصلة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/١٨١).
(٤) ((الكامل في اللغة والأدب)) للمبرد (٢/١٢٤).

التَّضْحية في واحة الشِّعر:

قال حسَّان شعرًا في الزُّبير -رضي الله عنهما-:

أقام على عهدِ النَّبي وهديه حواريُّه والقولُ بالفعلِ يعدلُ
أقام على منهاجِه وطريقِه يوالي وليَّ الحقِّ والحقُّ أعدلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذي يصولُ، إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ
إذا كشفت عن ساقِها الحربُ حَشَّها بأبيضَ سَبَّاقٍ إلى الموتِ يُرْقِلُ
وإن امرأً كانت صفيَّةُ أُمَّه ومِن أَسَدٍ في بيتِها لمرَفِّلُ
له مِن رسول الله قربى قريبة ومن نصرة الإسلامِ مجدٌ مؤثَّلُ
فكم كربةٍ ذبَّ الزُّبيرُ بسيفِه عن المصطفى، واللهُ يعطي فيجزلُ
فما مِثلُه فيهم، ولا كان قبلَه وليس يكونُ الدَّهرَ ما دام يَذْبُلُ
ثناؤُك خيرٌ مِن فعالِ معاشرٍ وفعلُك، يا ابنَ الهاشميَّةِ أفضلُ[١]

قال علي الجارم:

بيتٌ دعائمُه نبلٌ وتَضْحيةٌ إذا بنى النَّاسُ مِن صخرٍ ومن شِيدِ[٢]

قال إبراهيم طوقان:

ما نال مرتبةَ الخلودِ بغيرِ تَضْحيةٍ رضيَّة
عاشت نفوسٌ في سبيلِ بلادِها ذهبت ضحيَّة[٣]

وقال شوقي:

وما نيلُ المطالبِ بالتَّمني ولكن تُؤخَذُ الدُّنيا غلابَا

(١) ((ديوان حسان بن ثابت)) (١٩٩-٢٠٠).
(٢) ((ديوان علي الجارم)) (ص ١٢٩).
(٣) ((الأعمال الشعرية الكاملة)) لإبراهيم طوقان (١٤٣).

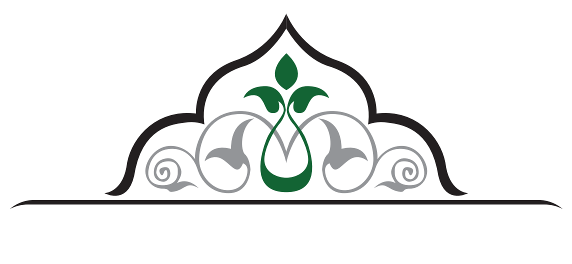
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدامُ كان لهم ركابَا[١]

وقال مسلم بن الوليد:

يجودُ بالنَّفسِ، إذ ضنَّ البخيلُ بها والجودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجودِ[٢]



(١) ((أحمد شوقي - الأعمال الشعرية الكاملة)) (١/ ٧١).
(٢) ((نشوار المحاضرة)) للتنوخي (٧/ ٢٠).



التَّعَاوُن



التَّعاون

معنى التَّعاون لغةً واصطلاحًا:

• معنى التَّعاون لغةً:

العون: الظَّهير على الأمر، وأعانه على الشَّيء: ساعده، واستعان فلانٌ فلانًا وبه: طلب منه العون. وتعاون القوم: أعان بعضهم بعضًا[١]. والمعْوانُ: الحَسَن المعُونة للنَّاس، أو كثيرها[٢].

• معنى التَّعاون اصطلاحًا:

التَّعاون هو: (المساعدة على الحقِّ ابتغاء الأجر مِن الله سبحانه)[٣].

أهمية التَّعاون:

لقد جعل الله سبحانه وتعالى التَّعاون فطرة جبلِّيَّة، جبلها في جميع مخلوقاته: صغيرها وكبيرها، ذكرها وأنثاها، إنسها وجنِّها، فلا يمكن لأيِّ مخلوق أن يواجه كلَّ أعباء الحياة ومتاعبها منفردًا، بل لابدَّ أن يحتاج إلى مَن يعاونه ويساعده؛ لذلك فالتَّعاون ضرورة مِن ضروريَّات الحياة، التي لا يمكن الاستغناء عنها، فبالتَّعاون يُنْجز العمل بأقصر وقت وأقلِّ جهد، ويصل إلى الغرض بسرعة وإتقان.

والملاحظ أنَّ نصوص الشَّريعة جاءت بالخطاب الجماعي، فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وردت ٨٩ مرَّة، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عشرين

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٩٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٢٢)، ((المعجم الوسيط)) (٢/٦٣٨).

(٢) ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/٤٣١).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٤٤١).

مرَّة، وقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ خمس مرَّات، دلالة على أهمية الاجتماع والتَّعاون والتَّكامل.

وقد حثَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على التَّعاون ودعا إليه، فقال: ((مَن كان معه فضل ظهر، فليعد به على مَن لا ظهر له، ومَن كان له فضلٌ مِن زاد فليعد به على مَن لا زاد له))[1].

وشبَّه المؤمنين في اتِّحادهم وتعاونهم بالجسد الواحد، فقال: ((مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى))[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا))[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يد الله مع الجماعة))[4].

وحثَّ على معونة الخدم ومساعدتهم، فقال: ((ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم))[5].

التَّرغيب في التَّعاون:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) رواه مسلم (١٧٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظ له.

(٣) رواه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه التِّرمذي (٢١٦٦) مِن حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه. قال التِّرمذي: حسن غريب. وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٢٨/٥): وإن لم يكن لفظه صحيحًا فإنَّ معناه صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن التِّرمذي))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)). والحديث رُوِي مِن طرقٍ عن ابن عمر وعرفجة الأشجعي -رضي الله عنهم-.

(٥) رواه البخاري (٣١) ومسلم (١٦٦١).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣].

(أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه)(١).

(فهذه السُّورة العظيمة القصيرة، اشتملت على معان عظيمة، مِن جملتها: التَّواصي بالحقِّ، وهو التَّعاون على البرِّ والتَّقوى)(٢).

- وقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن كثير: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البرُّ، وترك المنكرات وهو التَّقوى، وينهاهم عن التَّناصر على الباطل، والتَّعاون على المآثم والمحارم)(٣).

وقال القرطبيُّ: (هو أمرٌ لجميع الخَلْق بالتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، أي ليُعن بعضكم بعضًا، وتحاثُّوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عمَّا نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافقٌ لما رُوِي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((الدَّالُّ على الخير كفاعله))(٤)... وقال الماورديُّ: ندب الله سبحانه

---

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) للسعدي (٩٣٤/١).

(٢) ((مجموع فتاوى ومقالات متنوعة)) لابن باز (٨٧/٥).

(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (١٢/٢).

(٤) رواه التِّرمذي (٢٦٧٠)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٨٤/٦) (٢١٩٣) مِن حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: ((أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل يستحمله، فلم يجد عنده ما يتحمَّله، فدلَّه على آخر فحمله، فأتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: الدَّال على الخير كفاعله)). قال التِّرمذي: غريب مِن هذا الوجه وقال الألباني في ((صحيح سنن التِّرمذي)): حسن صحيح. ورواه البزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (١٤٠/٣)، وأبو يعلى في ((المسند)) (٢٧٥/٧) (٤٢٩٦)، والمنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٦٩/١) =

إلى التَّعاون بالبرِّ، وقرنه بالتَّقوى له؛ لأنَّ في التَّقوى رضا الله تعالى، وفي البرِّ رضا النَّاس، ومَن جمع بين رضا الله تعالى ورضا النَّاس فقد تمَّت سعادته، وعمَّت نعمته)[1].

وقال ابن باز: (والمعنى: احذروا مغبَّة التَّعاون على الإثم والعدوان، وترك التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، ومِن العاقبة في ذلك: شدَّة العقاب لمن خالف أمره، وارتكب نهيه وتعدَّى حدوده)[2].

- وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال أبو جعفر الطَّبري: (يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وتعلَّقوا بأسباب الله جميعًا. يريد بذلك -تعالى ذكره-: وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، مِن الألفة والاجتماع على كلمة الحقِّ، والتَّسليم لأمر الله)[3].

وقال السعدي: (فإنَّ في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم

= مِن حديث أنس رضي الله عنه. بلفظ: ((الدَّال على الخير كفاعله، والله يحبُّ إغاثة اللَّهفان)). قال المنذري: رواه البزَّار مِن رواية زياد بن عبد الله النُّميري وقد وُثِّق وله شواهد. ورواه أبو يعلى كذلك، وصحَّحه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصَّحيحة)) (١٦٦٠). والحديث رُوِي مِن طرق عن أبي مسعود البدري، وابن مسعود، وسهل بن سعد، وبريدة بن الحصيب، وأنس بن مالك، وابن عبَّاس، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

(١) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٦/٤٦-٤٧).

(٢) ((مجموع فتاوى ومقالات متنوعة)) (٥/٩٣).

(٣) ((جامع البيان في تأويل القرآن)) (٥/٦٤٣).

يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكَّنون مِن كلِّ أمر مِن الأمور، ويحصل لهم مِن المصالح التي تتوقَّف على الائتلاف ما لا يمكن عدُّها، مِن التَّعاون على البرِّ والتَّقوى)[١].

- وقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

قال مقاتل بن سليمان: (﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ يقول: اشدد به ظهري، وليكون عونًا لي، وأشركه في أمري الذي أمرتني به، يتَّعظون لأمرنا ونتعاون كلانا جميعًا)[٢].

وقال أبو جعفر الطَّبري: (قوِّ ظهري، وأعنِّي به)[٣].

وقال السعدي: (عَلِم عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ مدار العبادات كلِّها والدِّين على ذكر الله، فسأل اللهَ أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البرِّ والتَّقوى، فيكثر منهما ذكر الله مِن التَّسبيح والتَّهليل وغيره مِن أنواع العبادات)[٤].

وقال المراغي: (أي: أحكم به قوَّتي، واجعله شريكي في أمر الرِّسالة حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذي يؤدِّي إلى أحسن الغايات، ويوصل إلى الغرض على أجمل السُّبل)[٥].

---

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) (ص ١٤١).
(٢) ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/٢٦).
(٣) ((جامع البيان في تأويل القرآن)) (١٦/٥٥).
(٤) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) (ص ٥٠٤).
(٥) ((تفسير المراغي)) (١٦/١٠٧).

• ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا))[١].

قال ابن بطَّال: (تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا في أمور الدُّنْيا والآخرة مندوبٌ إليه بهذا الحديث)[٢].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: (ظاهره الإخبار، ومعناه الأمر، وهو تحريضٌ على التَّعاون)[٣].

- وعن ابن عمر رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومَن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه كربةً مِن كربات يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة))[٤].

قال ابن بطَّال في شرح هذا الحديث: (... وباقي الحديث حضٌّ على التَّعاون، وحسن التَّعاشر، والألفة، والسِّتر على المؤمن، وترك التَّسمع به، والإشهار لذنوبه)[٥].

وقال ابن حجر[٦] والعيني[٧]: (في الحديث حضٌّ على التَّعاون، وحسن التَّعاشر والألفة).

---

(١) رواه البخاري (٤٨١) و مسلم (٢٥٨٥).
(٢) ((شرح صحيح البخاري)) (٢٢٧/٩).
(٣) ((كشف المشكل مِن حديث الصَّحيحين)) (٤٠٥/١).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).
(٥) ((شرح صحيح البخاري)) (٥٧١/٦).
(٦) ((فتح الباري)) لابن حجر (٩٧/٥).
(٧) ((عمدة القاري)) (٢٨٩/١٢).

- وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا))، قيل: يا رسول الله، هذا نصرته مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: ((تأخذ فوق يده))[1].

قال ابن بطَّال: (والنُّصرة عند العرب: الإعانة والتَّأييد، وقد فسَّره رسول الله أنَّ نصر الظالم منعه مِن الظُّلم؛ لأنَّه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه أدَّاه ذلك إلى أن يُقْتَصَّ منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدلُّ مِن باب الحكم للشَّيء، وتسميته بما يؤول إليه...)[2].

وقال العيني: (النُّصرة تستلزم الإعانة)[3].

- وعن أبي عبد الرَّحمن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن جهَّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومَن خلَّف غازيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا))[4].

(قال ابن بطَّال: قال الطَّبري: وفيه مِن الفقه أنَّ كلَّ مَن أعان مؤمنًا على عمل برٍّ فللمُعِين عليه أجر مثل العامل، وإذا أخبر الرَّسول أنَّ مَن جهَّز غازيًا فقد غزا، فكذلك مَن فطَّر صائمًا أو قوَّاه على صومه، وكذلك مَن أعان حاجًّا أو معتمرًا بما يتقوى به على حجِّه أو عمرته حتى يأتي ذلك على تمامه فله مثل أجره. ومَن أعان فإنَّما يجيء مِن حقوق الله بنفسه أو بماله حتى يغلبه على الباطل بمعونة، فله مثل أجر القائم، ثمَّ كذلك سائر أعمال البرِّ، وإذا كان ذلك بحكم المعونة على أعمال البرِّ فمثله المعونة على معاصي الله وما يكرهه

(١) رواه البخاري (٢٤٤٤).
(٢) ((شرح صحيح البخاري)) (٦/٥٧٢).
(٣) ((عمدة القاري)) (١٢/٢٨٩).
(٤) رواه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥) واللَّفظ له.

الله، للمعين عليها مِن الوزر والإثم مثل ما لعاملها)[١].

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، فإذا جهَّز الإنسان غازيًا، يعني براحلته ومتاعه وسلاحه، إذا جهَّزه بذلك فقد غزا، أي كُتِب له أجر الغازي؛ لأنَّه أعانه على الخير. وكذلك مَن خَلَفَه في أهله بخير فقد غزا، يعني لو أنَّ الغازي أراد أن يغزو ولكنَّه أُشْكِل عليه أهله من يكون عند حاجاتهم، فانتدب رجلًا مِن المسلمين وقال: اخلفني في أهلي بخير، فإنَّ هذا الذي خلفه يكون له أجر الغازي؛ لأنَّه أعانه)[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن نفَّس عن مؤمن كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيا نفَّس الله عنه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يوم القيامة، ومَن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدُّنْيا والآخرة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله في الدُّنْيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...))[٣].

قال ابن دقيق العيد: (هذا الحديث عظيم جامع لأنواعٍ مِن العلوم والقواعد والآداب، فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسَّر مِن عِلْم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك)[٤].

وقال ابن حجر (في الحديث حضٌّ على التَّعاون وحسن التَّعاشر والألفة)[٥].

وقال النَّوويُّ في تعليقه على حديث: ((مثل المؤمنين في توادهم...)):

(١) ((عمدة القاري)) للعيني (١٢/٢٨٩).

(٢) ((شرح رياض الصالحين)) (٢/٣٧٤).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٤) ((شرح الأربعين النووية)) (١/١١٩).

(٥) ((فتح الباري)) (٥/٩٧).

(صريحٌ في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم بعضًا، وحثِّهم على التَّراحم والملاطفة والتَّعاضد في غير إثمٍ ولا مكروهٍ)[1].

أقوال العلماء في التَّعاون:

- قال عطاء بن أبي رباح: (تفقَّدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو نسوا فذكِّروهم)[2].

- وقال ابن تيمية: (حياة بني آدم وعيشهم في الدُّنْيا لا يتم إلَّا بمعاونة بعضهم لبعضٍ في الأقوال أخبارها وغير أخبارها وفي الأعمال أيضًا)[3].

- وقال أبو حمزة الشَّيباني لمن سأله عن الإخوان في الله مَن هم؟ قال: (هم العاملون بطاعة الله عزَّ وجلَّ المتعاونون على أمر الله عزَّ وجلَّ، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم)[4].

- وقال أبو الحسن العامري: (التَّعاون على البرِّ داعية لاتِّفاق الآراء، واتِّفاق الآراء مجلبة لإيجاد المراد، مكسبة للوداد)[5].

فوائد التَّعاون:

مِن فوائد التَّعاون:

١- استفادة كلِّ فرد مِن خبرات وتجارب الآخرين في شتى مناحي الحياة.

٢- إظهار القوَّة والتَّماسك.

---

(١) ((شرح النووي على مسلم)) (٣٩٥/٨).
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (١٧٦/٢).
(٣) ((الفتاوى الكبرى)) (٣٦٤/٦).
(٤) ((الإخوان)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٩٩).
(٥) ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التَّوحيدي (١٤٨/٩).

٣- تنظيم الوقت وتوفير الجهد.

٤- ثمرة مِن ثمرات الأخوَّة الإسلاميَّة.

٥- رفع الظُّلم عمَّن وقع عليه.

٦- حماية للفرد.

٧- تقاسم الحِمْل وتخفيف العبء.

٨- سهولة التَّصدِّي لأي أخطار تواجه الإنسان ممَّن حوله.

٩- سهولة إنجاز الأعمال الكبيرة التي لا يقدر عليها الأفراد.

١٠- القضاء على الأنانية وحبِّ الذَّات.

١١- مِن أهم ركائز النَّجاح والتَّفوُّق.

١٢- مِن ثمار الإيمان.

١٣- سبب نيل تأييد الله.

١٤- سبب نيل محبَّة الله ورضاه.

١٥- يجعل الفرد يشعر بالسَّعادة.

١٦- يزيل الضَّغائن والحقد والحسد مِن القلوب.

١٧- يساعد الفرد على بذل المزيد مِن الجهد والقوَّة.

١٨- يساعد على سرعة التَّنفيذ.

١٩- يسرِّع مِن عجلة التَّطوُّر العلمي والتَّقدُّم التَّقني.

٢٠- يولد سلامة الصدر ويكسب حبَّ الخير للآخرين.

٢١- يؤدِّي بالفرد إلى الإتقان في العمل.

٢٢- يولِّد عند الفرد الشُّعور بالقوَّة.

٢٣- يجدد طاقة الفرد وينشِّطها.

٢٤- يسهِّل العمل وييسِّره.

٢٥- يحقِّق أكبر الاستثمارات.

٢٦- يحدُّ مِن الازدواجيَّة في العمل.

٢٧- يتبيَّن للفرد ما يمتلك مِن طاقة وخبرات وقدرات.

٢٨- استغلال الملَكَات والطَّاقات المهدرة الاستغلال المناسب لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع.

أقسام التَّعاون:

ينقسم التَّعاون إلى قسمين:

١- تعاون على البرِّ والتَّقوى.

٢- تعاون على الإثم والعدوان.

قال ابن تيمية: (فإنَّ التَّعاون نوعان: الأوَّل: تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى: مِن الجهاد وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقِّين؛ فهذا ممَّا أمر الله به ورسوله. ومَن أمسك عنه خشية أن يكون مِن أعوان الظَّلمة فقد ترك فرضًا على الأعيان، أو على الكفاية متوهِّمًا أنَّه متورِّعٌ. وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع؛ إذ كلٌّ منهما كفٌّ وإمساكٌ.

والثَّاني: تعاونٌ على الإثم والعدوان، كالإعانة على دمٍ معصومٍ، أو أخذ مالٍ

معصومٍ، أو ضرب مَن لا يستحقُّ الضَّرب، ونحو ذلك؛ فهذا الذي حرَّمه الله ورسوله. نعم، إذا كانت الأموال قد أُخِذَت بغير حقٍّ، وقد تعذَّر ردُّها إلى أصحابها، ككثيرٍ مِن الأموال السُّلطانيَّة؛ فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين كسداد الثُّغور، ونفقة المقاتلة، ونحو ذلك: مِن الإعانة على البرِّ والتَّقوى)[1].

آثار التَّعاون على الإثم والعدوان[2]:

١- تقلب نظام المجتمع وتساعد على فساد الذِّمم.

٢- تفتح أبواب الشَّرِّ وتطمس معالم الحقِّ.

٣- تنبئ عن خسَّة صاحبها ودناءة نفسه.

٤- دليل كامل على ضعف الإيمان وقلَّة المروءة.

٥- تساعد على الطغيان.

٦- إذا تحقَّقت في مجتمع كانت سببًا في خرابه.

٧- تضيع الحقوق، وتصل لغير أهلها ومستحقيها

صورٌ مِن التَّعاون:

للتَّعاون صورٌ كثيرةٌ نذكر منها ما يلي:

- التَّعاون على تجهيز الغازي.
- التَّعاون على دفع الظُّلم.
- التَّعاون في الثَّبات على الحقِّ والتمسُّك به.

---

(١) ((السياسة الشَّرعية)) (ص ٤٠).

(٢) ((نضرة النعيم)) (٩/٤٢٠٩).

- التَّعاون في الدَّعوة إلى الله.
- التَّعاون في تزويج العُزَّاب.
- التَّعاون في طلب العِلْم والتَّفقُّه في الدِّين.
- التَّعاون لتفريج كربات المهمومين وسدِّ حاجات المعوزين.
- التَّعاون مع الأمير الصَّالح، وتقديم النُّصح له ومساعدته على القيام بواجباته.
- تقديم النَّصيحة لمن يحتاجها.
- معاونة الخدم.
- التَّعاون على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.
- التَّعاون في جمع التَّبرُّعات والصَّدقات والزكاوات وتوزيعها على مستحقِّيها.
- التَّعاون على حلِّ الخلافات والنِّزاعات التي تقع في وسط المجتمع المسلم.
- التَّعاون في إقامة الحدود وحفظ أمن البلاد.

موانع اكتساب التَّعاون:

١- التَّعصُّب والحزبيَّة.

٢- اتِّباع الأوهام والشُّكوك في مدى جدوى هذا التعاون والاستفادة منه.

٣- الأنانيَّة، وعدم حبِّ الخير للآخرين.

٤- تعذُّر الفرد بانشغاله وكثرة أعماله.

٥- تنافس الأفراد.

٦- محبة الصَّدارة والزَّعامة وغيرها مِن حظوظ النَّفس.

٧- الحسد للآخرين.

٨- سوء الظَّن بالآخرين.

٩- عدم التَّعوُّد على التَّعاون.

١٠- الكبر على الآخرين، وتوهُّم الفرد أنَّه أعظم مِن غيره.

١١- الكَسَل.

١٢- النَّظر في التَّجارب الفاشلة لبعض حالات التَّعاون الشَّاذَّة.

الأسباب المعينة على اكتساب التَّعاون[1]:

هناك العديد مِن الطُّرق والسُّبل التي تعمل على تقوية التَّعاون وتثبيته بين المؤمنين، ومن ذلك:

١- التَّعارف.

٢- معرفة المسلم لحقوق المسلم عليه.

٣- احتساب الأجر.

٤- تنمية الرُّوح الجماعيَّة.

٥- فقه الواقع.

٦- تطهير القلب مِن الأمراض.

---

(١) ((الرائد دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (١/٢٢٣-٢٢٥) بتصرُّف.

نماذج للتَّعاون:

- **نماذج تطبيقيَّة في التعاون من حياة الأنبياء والمرسلين:**

- أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السَّلام ببناء الكعبة، فقام إبراهيم عليه السَّلام استجابة لأمر الله، وطلب مِن ابنه إسماعيل أن يساعده على تنفيذ هذا الأمر الإلهي، ويعينه في بناء الكعبة، فقال له: ((يا إسماعيل، إنَّ الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربُّك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا، وأشار إلى أكمةٍ[1] مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد مِن البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾))[2].

- عندما أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السَّلام إلى فرعون وكلَّفه بأن يدعو فرعون إلى عبادة الله وحده، طلب موسى عليه السَّلام مِن ربِّه سبحانه وتعالى المعينَ والمساعدَ على هذا الأمر العظيم، فطلب منه أن يجعل له أخاه هارون معاونًا ومساعدًا في دعوته فرعون، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٢٩-٣٢] فقال الله له: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وجعل هارون معاونًا ومساعدًا

---

(١) الأكمة: الموضع الذي يكون أشد ارتفاعا مما حوله وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجرا. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٤).

لموسى عليه السَّلام في دعوته إلى الله، وآتاه النُّبوَّة استجابة لدعوة موسى[1].

نماذج تطبيقيَّة مِن الأمم السَّابقة في التَّعاون:

• التَّعاون بين ذي القرنين وأصحاب السَّدِّ:

(لقد مكَّن الله عزَّ وجلَّ لذي القرنين في الأرض، وآتاه مِن كلِّ شيء سببًا، فتوفَّرت القدرة والسُّلطة، وتهيَّأت أمامه أسباب القوَّة والنُّفُوذ التي لم تتوفَّر لكثير غيره. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٣-٨٤]، ومع ذلك لم يستغن ذو القرنين عن معونة الآخرين حينما أراد أن يقوم بعمل كبير، وإنجاز عظيم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٣-٩٤]، فصارحهم ذو القرنين بأن مثل هذا العمل الضَّخم يحتاج إلى التَّعاون، ولا يتمُّ دونه؛ فقال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].. الآيات، فماذا كانت نتيجة هذا التَّعاون العظيم؟ كانت نتيجته إتمام عمل عظيم، سدٌّ منيع، لا يستطيع مهاجموه أن يعلو ظهره، ولا أن يحدثوا فيه خَرْقًا.. والدَّرس الذي نخرج به أنَّ التَّعاون إذا أخلص له أهلوه، وبذلوا فيه بصدقٍ ما استطاعوا حقق لهم مِن النتائج ما يكفي ويشفي)[2].

• نماذج تطبيقية مِن حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في التَّعاون:

- كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يسعى لقضاء حوائج المسلمين، ويحبُّ

---

(١) انظر: ((جامع البيان)) للطبري (١٨/٣٠٠)، ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٥/٨٣)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (١١/١٩٢)..

(٢) ((الرَّائد دروس في التَّربية والدَّعوة))، لمازن عبد الكريم الفريح (١/٢٢٨-٢٢٩).

إعانتهم، والوقوف معهم فيما يلمُّ بهم مِن نوازل، وكان مجبولًا على ذلك مِن صغره وقبل بعثته، وقد بيَّنت ذلك أمُّنا خديجة رضي الله عنها عندما كانت تخفِّف مِن روع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عند عودته مِن غار حراء بعد نزول الوحي عليه، وكان فزعًا، فقالت له: (كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحقِّ)(١).

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يكون في مَهْنة أهله، فإذا حضرت الصَّلاة قام إلى الصَّلاة))(٢).

- وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ينقل التُّراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه(٣) أو أغبر بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا))(٤).

- **نماذج تطبيقيَّة مِن حياة الصَّحابة في التَّعاون:**

كان الصَّحابة رضوان الله عليهم مثالًا يُحْتَذى بهم في التَّعاون، وكانوا في ذلك المثل الأسمى، فكانوا كخليَّة النَّحل في تكاتفها وتعاونها، وكالجسد الواحد

(١) رواه البخاري (٣) و مسلم (١٦٠)، واللَّفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٩).

(٣) أغمر بطنه: أي وارى التراب جلده وستره. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٣/٢٦٤).

(٤) رواه البخاري (٤١٠٤) ومسلم (١٨٠٣)، واللَّفظ للبخاري.

إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى، و(في الوقت الذي كان فيه أبو عبيدة بن الجرَّاح وسعد بن أبي وقَّاص، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص يفتحون مصر والشَّام والعراق، كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي يسوسون النَّاس، ويرعون شؤونهم، وكان معاذ بن جبل وابن عبَّاس وابن عمر يعلِّمون النَّاس، ويفتونهم ويربُّونهم، وكان أبو هريرة وأنس وعائشة يحفظون الحديث ويروونه، وكان أبو ذرٍّ وأبو الدَّرداء يعظون النَّاس والحكَّام وينصحونهم، فتعاونوا ولم يتعايبوا.. وتناصروا ولم يتدابروا)[1].

ونقف هنا وقفات مع نماذج مِن تعاون الصَّحابة رضي الله عنهم.

تعاون الصَّحابة رضي الله عنهم في حفر الخندق:

- نقل لنا الصَّحابيُّ الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه صورة مِن تعاون الصَّحابة وتكاتفهم في حفر الخندق، فيقول: ((جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التَّراب على متونهم، ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمَّدًا على الإسلام ما بقينا أبدًا

والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يجيبهم ويقول:

اللَّهمَّ إنَّه لا خير إلَّا خير الآخرةْ فبارك في الأنصار والمهاجرةْ))[2]

تعاون أبي بكر وأهل بيته مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في هجرته:

- جهَّز أبو بكر راحلتين عندما أعلمه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة، وخاطر بنفسه وهاجر مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وعندما وصلا غار ثور

---

(١) ((التيه والمخرج)) لعدنان عرعور (٥٣-٥٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٥).

دخل أبو بكر أوَّلًا ليستبرأ الغار للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كي لا يصيبه أذى، وأعدَّت أسماء بنت أبي بكر لهما جهاز السَّفر، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي لهما بأخبار قريش، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر يريح الغنم عليهما وهما في الغار ليشربا مِن لبنها، وفي طريقهما إلى المدينة كان أبو بكر إذا تذكر طلب قريش للرَّسول صلى الله عليه وسلم مشى خلفه، وإذا تذكر رصدها له مشى أمامه[1].

تعاون الصَّحابة رضوان الله عليهم في بناء المسجد النبوي:

- عندما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لبني النَّجار: ((يا بني النَّجار ثامنوني بحائطكم هذا، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلَّا إلى الله، فقال أنسٌ: فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين، وفيه خربٌ وفيه نخلٌ، فأمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين، فنُبِشَت، ثمَّ بالخرب فسوِّيت، وبالنَّخل فقطِّع، فصفُّوا النَّخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصَّخر وهم يرتجزون والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم معهم، وهو يقول: اللَّهمَّ لا خير إلَّا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة))[2].

تعاون الأنصار مع المهاجرين بعد الهجرة:

- قال عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه: ((آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الرَّبيع، فقال لي سعد: إنِّي أكثر الأنصار مالًا، فأقاسمك مالي شطرين، ولي امرأتان، فانظر أيتهما شئت حتى أنزل لك عنها، فإذا حلَّت تزوجتها، فقلت: لا حاجة لي في ذلك، دلُّوني على السُّوق، فدلُّوني

(١) انظر: ((صحيح البخاري)) حديث رقم (٣٩٠٥).
(٢) رواه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

على سوق بني قينقاع، فما رحت حتى استفضلت أقِطًا[١] وسمنًا))[٢].

- وقالت الأنصار للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ((اقسم بيننا وبينهم النَّخل، قال: لا. قال: يكفوننا المئونة ويشركوننا في التَّمر. قالوا: سمعنا وأطعنا))[٣].

ومِن تعاون الصَّحابة أيضًا:

- موقفهم في قصَّة سلمان رضي الله عنه عندما كاتب سيِّده، وكان فقيرًا لا يملك ما كاتب عليه، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم للصَّحابة: ((أعينوا أخاكم)) فأعانوه، حتى تحرَّر مِن رقِّه، وأصبح حرًّا[٤].

ميادين التَّعاون:

(لقد أقام الإسلام التَّعاون بين المسلمين على أساس مُحْكَم، ومدَّ له في كلِّ ناحية مِن نواحي الحياة بسببٍ. فالتَّمثيل القرآني لأهل الإيمان أنَّهم كالبنيان المرصوص، وفي التَّمثيل النَّبوي كالجسد الواحد. فأمور الإسلام ومطلوباته لا تتحقَّق على وجهها إلَّا بالتَّعاون. ودين الله بنيان شامخ لا يقوم ولا يثبت إلَّا حين تتراص لبناته، وتتضامن مبانيه؛ لتسدَّ كلُّ لبنة ثغرتها.

وإذا كان الله سبحانه قد خَلَق الخَلْق لعبادته وطاعته فإنَّ هذه العبادات والطَّاعات أنواع: قلبيَّة عقليَّة كالإيمان، وبدنيَّة كالصَّلاة، وماليَّة كالزَّكاة،

---

(١) الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٤٨).

(٣) رواه البخاري (٣٧٨٢).

(٤) رواه أحمد (٥/٤٤١) (٢٣٧٨٨)، والبزار (٦/٤٦٢) (٢٥٠٠)، والطَّحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢/٢٢٨)، والطَّبراني (٦/٢٢٢) (٦٠٦٥). قال ابن العراقي في ((طرح التَّثريب)) (٤/٤٢): إسناده جيِّد، وحسَّن إسناده الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٢/٥٥٦)، وحسَّن الحديث الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٨٤).

ومركَّبة مِن البدن والمال كالحجِّ والجهاد.

وكلُّ هذه العبادات بأنواعها لا تقام ولا تشاد إلَّا بوسائلها: مِن صحة الفكر، وسلامة البدن، وسعة ذات اليد. ولهذه الوسائل وسائل: مِن التَّفقُّه في الدِّين، والإحسان في الأعمال؛ مِن زراعة وصناعة وحرف، وإتقان في العلوم والمعارف؛ مِن الطِّب والحساب والهندسة والمعامل والمختبرات. ومِن المقطوع به -كما سبق- أنَّ الإنسان بمفرده بل حتى الرَّهط مِن النَّاس والجماعة المحدودة مِن القوم لا تستطيع بهذه الوسائل الانفراد بتحقيق هذه المقاصد. ومنه يتبيَّن حاجة النَّاس إلى الاجتماع والتَّآزر، فذلك ما تقتضيه الفطرة، ويتطلبه الدِّين، وتنتظم به الشؤون، وتستقيم به العلوم.

وهذا بعض البسط لصورٍ مِن التَّعاون في أحكام الإسلام وآدابه، وإذا استجلاها رجل الدَّعوة عرف ضرورة التَّعاون وحاجته إليه في ميدانه ومجاله.

فالصَّلوات الخمس جماعة وجمعة، وصلاة العيدين وآدابهما، والحجُّ بشعائره، وعقد النِّكاح بوليمته وآدابه، وعقيقة المولود، وإجابة الدَّعوى حتى للصَّائم، كلُّها مناشط عباديَّة اجتماعيَّة تعاونيَّة، ولا تكون صورتها الشَّرعية إلَّا كذلك.

وينضمُّ إلى اجتماع الأعياد اجتماع الشدائد والكرب في صلوات الاستسقاء والكسوف والجنازة.

إنَّه انتظام عجيب بين أهل الإسلام في مواطن السُّرور والحزن، ناهيك بصورة الأخوَّة، ومبدأ الشُّورى، وحقوق المسلمين فيما بينهم؛ في القربى والجوار والضَّيف وابن السَّبيل واليتامى والمساكين، مع ما يحيط بذلك مِن سياج الآداب الاجتماعيَّة؛ مِن إفشاء السَّلام، وفسح المجالس،...

أمَّا أنواع المعاملات والتَّعاملات فذلك جليٌّ في عقود المضاربة والعارية والهبة والمهاداة وفرض الدِّية على العاقلة.

وثمَّة صورٌ مِن المعاونات في كفِّ الظُّلم، ونصرة المظلوم، ودفع الصَّائل بسلاح أو مال. بل هل يقوم الجهاد، وتُقام الحدود، وتُستوفى الحقوق، ويقوم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر إلَّا بالتَّعاون والتآزر.

وهناك التَّعاون بالرَّأي، بما يدلُّ على الحقِّ، ويخرج مِن الحيرة، وينقذ مِن المأزق والهلكة، في النَّصيحة والمشاورة، وقد يكون تعاونًا بالجاه؛ مِن الشَّفاعة لذي الحاجة عند من يملك قضاءها...

فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة، يتقدَّمهم أولو الأمر والعلماء والدُّعاة، بلغوا المكانة المحفوفة بالعزَّة المشار إليها بقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨])[1].

(قال ابن خويز منداد في أحكامه: والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى يكون بوجوهٍ، فواجبٌ على العالم أن يعين النَّاس بعلمه فيعلِّمهم، ويعينهم الغني بماله، والشُّجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة ((المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمَّتهم أدناهم وهم يدٌ على مَن سواهم))[2]. ويجب

---

(١) ((مجلة البحوث الإسلامية)) العدد (٥١)، ربيع الأول - جمادى الثَّانية، ١٤١٨هـ، (٢١٢-٢١٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (١٩/٨)، وأحمد (١٢٢/١) (٩٩٣)، والبزار (٢٩٠/٢)، وأبو يعلى (٢٨٢/١) (٣٣٨)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٦٦/٥) (٥٢٧٧)، والحاكم (١٥٣/٢)، والبيهقي (١٩٣/٨) (١٧٢٦٢). من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
قال البزار: روي من غير وجه، وإسناده أحسن إسنادًا يروى في ذلك وأصحه، وقال محمد بن عبد الهادي في ((المحرر)) (٣٩١): رجاله رجال الصحيحين، وصححه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (١٥٩/٩)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٩/٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢١٢/٢) =

الإعراض عن المتعدِّي وترك النُّصرة له، وردُّه عمَّا هو عليه))[1].

أصناف النَّاس في التَّعاون:

قال الماورديُّ: (تنقسم أحوال مَن دخل في عداد الإخوان أربعة أقسام: منهم مَن يعين ويستعين، ومنهم مَن لا يعين ولا يستعين، ومنهم مَن يستعين ولا يعين، ومنهم مَن يعين ولا يستعين.

فأمَّا المعين والمستعين فهو معاوضٌ منصف؛ يؤدِّي ما عليه ويستوفي ماله، فهو كالمقرض يُسْعِف عند الحاجة ويستردُّ عند الاستغناء، وهو مشكورٌ في معونته، ومعذورٌ في استعانته، فهذا أعدل الإخوان.

وأمَّا مَن لا يُعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شرَّه، فهو لا صديق يُرْجَى، ولا عدوٌّ يُخْشَى، وإذا كان الأمر كذلك فهو كالصُّورة الممثَّلة، يروقك حسنها، ويخونك نفعها، فلا هو مذموم لقمع شرِّه، ولا هو مشكور لمنع خيره، وإن كان باللَّوم أجدر.

وأمَّا مَن يستعين ولا يُعين فهو لئيم كَلٌّ، ومهين مستذلٌّ، قد قُطِع عنه الرَّغبة، وبُسِط فيه الرَّهبة، فلا خيره يُرْجَى، ولا شرُّه يُؤْمَن، وحسبك مهانة مِن رجل مستثقل عند إقلاله، ويستقلُّ عند استقلاله فليس لمثله في الإخاء حظٌّ، ولا في الوداد نصيب.

وأمَّا مَن يُعين ولا يستعين فهو كريم الطَّبع، مشكور الصُّنع، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء، فلا يُرى ثقيلًا في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة.

= والحديث روي من طرق عن عائشة وابن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

(١) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (٦/٤٦).

فهذا أشرف الإخوان نفسًا وأكرمهم طبعًا، فينبغي لمن أوجد له الزَّمان مثله، وقلَّ أن يكون له مثل؛ لأنَّه البرُّ الكريم والدُّرُّ اليتيم، أن يثني عليه خنصره، ويعضَّ عليه بناجذه، ويكون به أشدَّ ضنًّا منه بنفائس أمواله، وسِنِي ذخائره؛ لأنَّ نفع الإخوان عامٌّ، ونفع المال خاصٌّ، ومَن كان أعمَّ نفعًا فهو بالادِّخار أحقُّ، ثمَّ لا ينبغي أن يزهد فيه لخُلُق أو خُلُقين ينكرهما منه إذا رضي سائر أخلاقه، وحمد أكثر شيمه؛ لأنَّ اليسير مغفور، والكمال مُعْوِز)[1].

فـ(هذا تقسيم مِن الماورديِّ رحمه الله أشبه بالحصر العقلي. وهو تقسيم جميل لتصوير النُّفوس وأحوال النَّاس والشُّخوص. ولكن واقع النَّاس، وما قضت به سنَّة الله في هذه الحياة، مِن بناء الدُّنْيا، واستقامة المعاش على المشاركة والمعاونة، واتخاذ النَّاس بعضهم بعضًا سخريًّا،... يشوِّش على ما قرَّره الماورديُّ، فلا يُتَصَوَّر في الواقع مِن أحد -فيما نحن بصدده- أن يحقِّق مبتغاه إلَّا بتعاضد أطرافٍ مِن النَّاس، هذا جانب. ومِن جانب آخر، فإنَّ البَذْل مِن طرف واحد -على نحو ما ذكر الماورديُّ- لا يسمَّى إلَّا إحسانًا ومنَّة ونعمة، وهذا ليس مِن باب التَّعاون في شيء إلَّا مِن حيث الأثر والفائدة للمُحَسن إليه والمنْعَم عليه.

كما أنَّ مَن يستعين ولا يُعين قد رضي لنفسه أن يكون عالة على غيره، وجعل حياته مبنيَّة على السُّؤال والطَّلب والتَّطلُّع إلى ما في أيدي النَّاس.

وأمَّا مَن لا يعين ولا يستعين فتصوُّر وجوده في بني الإنسان بعيد، على نحو ما سبق في المقدِّمة مِن تقرير أنَّ التَّعاون ضرورةٌ إنسانيَّة. فالإنسان لا يستغني

---

(١) ((أدب الدُّنْيا والدِّين)) (١٧١-١٧٣) بتصرُّف واختصار.

عن أخيه الإنسان، كما قضى الله عزَّ وجلَّ في سننه)[١].

التَّعاون بين الحاكم والمحكوم:

إنَّ الحاكم يحتاج إلى المعاونة والمساعدة، مثله مثل غيره مِن البشر، بل هو أشدُّ حاجةً إلى ذلك مِن غيره، بسبب الأعمال والتَّكاليف الكثيرة التي يواجهها في إدارة البلاد، ومحال أن يتصدَّر لكلِّ شئون البلاد ويديرها دون وجود المعين والمساعد، (فإنَّ الإمام ليس هو ربًّا لرعيته حتى يستغني عنهم، ولا هو رسول الله إليهم حتى يكون هو الواسطة بينهم وبين الله. وإنَّما هو والرَّعية شركاء يتعاونون هم وهو على مصلحة الدِّين والدُّنْيا، فلا بدَّ له مِن إعانتهم، ولا بدَّ لهم مِن إعانته، كأمير القافلة الذي يسير بهم في الطَّريق: إن سلك بهم الطَّريق اتبعوه، وإن أخطأ عن الطَّريق نبَّهوه وأرشدوه، وإن خرج عليهم صائلٌ يصول عليهم تعاون هو وهم على دفعه)[٢].

• وصايا في الحثِّ على التَّعاون:

- قال أبو هلال العسكري: (أجود ما قيل في التَّضافر والتَّعاون قول قيس بن عاصم المنقري يُوصي ولده وقومه: وجدت في كتاب غير مسموع لما حضر عبد الملك بن مروان الوفاة وعاينته، وقال: يا بني، أُوصيكم بتقوى الله، وليعطف الكبير منكم على الصَّغير، ولا يجهل الصَّغير حقَّ الكبير، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك؛ فإنَّه نابكم الذي عنه تعبرون، ومِجَنّكم الذي به تستجيرون، ولا تقطعوا مِن دونه رأيًا ولا تعصوا له أمرًا، وأكرموا الحجاج ابن يوسف؛ فإنَّه الذي وطَّأ لكم المغابر، وذلَّل لكم قارب العرب، وعليكم

---

(١) ((مجلة البحوث الإسلامية)) العدد (٥١)، ربيع الأول – جمادى الثانية، ١٤١٨هـ، (٢٠٩-٢١٠).
(٢) ((منهاج السُّنَّة)) لابن تيمية (٥/٤٦٣).

بالتَّعاون والتَّضافر، وإيَّاكم والتَّقاطع والتَّدابر. فقال قيس بن عاصم لبنيه:

بصلاح ذات البين طول بقائكم إن مدَّ في عمري وإن لم يمدد
حتى تلين جلدوكم وقلوبكم لمسود منكم وغير مُسَود
إن القداح إذا جمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيِّد[١]
عزَّت ولم تكسر وإن هي بددت فالوهن والتَّكسير للمتبدِّد[٢]

- رُوِي أنَّ أكثم بن صيفي دعا أولاده عند موته، فاستدعى بضمامة مِن السِّهام، وتقدَّم إلى كلِّ واحدٍ أن يكسرها، فلم يقدر أحدٌ على كسرها، ثمَّ بدَّدها وتقدَّم إليهم أن يكسروها، فاستهلوا كسرها، فقال: كونوا مجتمعين؛ ليعجز مَن ناوأكم عن كسركم كعجزكم[٣].

- و(دعا يزيد بن المهلَّب ولده حبيبًا ومَن حضر مِن ولده، ودعا بسهام، فحزمت، وقال: أفترونكم كاسريها مجتمعةً؟ فقالوا: لا. قال: أفترونكم كاسريها مفترقةً؟ قالوا: نعم، قال: هكذا الجماعة)[٤].

• التَّعاون في عالم الحيوانات والطُّيور:

توجد العديد مِن الأمثلة التي تدلُّ على التَّعاون والتَّآزر والتَّكافل بين الكائنات الحيَّة، وكثيرٌ مِن هذه الكائنات تعيش على شكل مجاميع وقطعان، لتكون قوَّة واحدة لحماية بعضها البعض، وللتَّصدِّي لأي خطر قد يُحْدِق بأحد أفرادها.

---

(١) أيدته تأييدا: قويته. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٧/٣٩٧).
(٢) ((ديوان المعاني)) (١/١٥١).
(٣) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (٢/١٣٥).
(٤) ((صفحات مشرقة مِن حياة السَّابقين)) لنذير محمد كتبي (ص ٣٦٢).

(مخلوقات جعل الله في فطرتها نوع تعاون، إمَّا لتأمين غذائها أو الدِّفاع عن نفسها وجماعتها، ويظهر ذلك في جنسي النَّمل والنَّحل.

فقد شُوهِد أنَّ النَّمل إذا عثر على عسل في وعاء، ولم يتمكَّن مِن الوصول إليه مباشرة؛ لوجود ماء أو سائل يحول بينه وبين هذا العسل، فإنَّه يتعاون بطريقة فدائيَّة انتحاريَّة؛ فتتقدَّم فِرَقٌ بعد أخرى فتلتصق بالسَّائل وتموت، وتتقدَّم غيرها مثلها حتى تتكون قنطرة مِن جثث النَّمل الميِّت يعبر عليها الأحياء الباقون، فيدخلون الوعاء، ويصلون إلى العسل، ويبلغون مأربهم. هذا في حال اليُسْر والغذاء.

أمَّا في حال العُسْر والتَّعرُّض للمخاطر: فإنَّ مجاميع النَّمل إذا تعرَّضت لتيَّار مائي داهم - مثلًا - فإنَّ بعضها يمسك ببعض ثمَّ تكوِّن كتلة كرويَّة متماسكة تتحمَّل اندفاع التَّيَّار، ثمَّ تعمل حركتين في آن واحد، إحداهما: تتحرَّك فيها الأرجل كالمجاديف في اتجاه واحد نحو أقرب شاطئ، والثَّانية: حركة دائريَّة مِن أعلى إلى أسفل؛ ليتم تقاسم التَّنفُّس بين الجميع، فإذا ما تنفَّس مَن في الأعلى حصل انقلاب؛ ليرتفع مَن في جهة القاع، فيأخذ حظه مِن النَّفس، وهكذا في حركة دائريَّة حتى يبلغوا شاطئ الأمان.

فسبحان الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثمَّ هدى. وسبحان مَن وهب الإنسان العقل المفكِّر ليتأسَّى ويعتبر ويكتشف ويرقى بفكره - بعد هداية الله وتوفيقه - ليكون خيرًا مِن الأنعام.

أمَّا النَّحل فنظامه في تكوين مملكته، وإنتاج عسله، وترتيب الأعمال بين أفراد خليَّته، فعَجَبٌ عُجَاب في التَّعاون والتَّناوب، ولله في خلقه شؤون)[1].

---

(١) ((مجلة البحوث الإسلامية)) العدد (٥١)، ربيع الأول - جمادى الثانية، ١٤١٨هـ، (١٩٨-١٩٩).

فهذه الأمثلة وغيرها، تبيِّن عظيم قدرته سبحانه وتعالى في الكون، الذي فطر جميع المخلوقات على التَّعاون والتَّكافل والتَّآزر.

حكمٌ وأمثالٌ في التَّعاون:

- في الجريرة تشترك العشيرة.

يُضْرَب في الحثِّ على المواساة والتَّعاون(١).

- هل ينهض البازي بغير جناحٍ؟

يُضْرَب في الحثِّ على التَّعاون والوِفَاق(٢).

- بالسَّاعدين تبطش الكفَّان.

يُضْرَب في تعاون الرَّجلين وتساعدهما وتعاضدهما في الأمر(٣).

- بال حمارٌ فاستبال أَحْمِرَةً.

أي حملهنَّ على البول. يُضْرَب في تعاون القوم على ما تكرهه(٤).

مِن أقوال الحكماء:

- مَن جاد لك بمودَّته فقد جعلك عديل نفسه، فأوَّل حقوقه اعتقاد مودَّته، ثمَّ إيناسه والانبساط إليه في غير محرَّم، ثمَّ نصحه في السِّرِّ والعلانية، ثمَّ تخفيف الأثقال عنه، ثمَّ معاونته فيما ينوبه مِن حادثة، أو يناله مِن نكبة، فإنَّ مراقبته في الظَّاهر نفاق، وتركه في الشِّدَّة لُؤْم(٥).

---

(١) ((المعجم الوسيط)) (ص ١١٦).

(٢) ((مجمع الأمثال)) للنيسابوري (٢/٤٠٤).

(٣) ((المصدر السابق)) (١/٩٥).

(٤) ((المصدر السابق)) (١/٩٨).

(٥) ((أدب الدُّنْيا والدِّين)) للماوردي (ص ١٧٦).

- فضيلة الفلَّاحين التَّعاون بالأعمال، وفضيلة التِّجَّار التَّعاون بالأموال، وفضيلة الملوك التَّعاون بالآراء والسِّياسة، وفضيلة العلماء التَّعاون بالحِكَم[1].

التَّعاون في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

لولا التَّعاونُ بينَ النَّاسِ ما شرفتْ ... نفسٌ ولا ازدهرتْ أرضٌ بعمرانِ[2]

ويرحم الله شوقي حيث يقول:

إنَّ التَّعاون قوَّةٌ عُلويةٌ ... تبني الرِّجالَ وتبدعُ الأشياءَ[3]

وقال آخر:

لعمرُك ما مال الفتى بذخيرةٍ ... ولكن إخوانَ الثِّقاتِ الذخائرُ[4]

وقال آخر:

يُعرِّفُك الإخوانُ كلٌّ بنفسِه ... وخيرُ أخٍ ما عرَّفتك الشدائدُ[5]

وقال آخر:

أُعِين أخي أو صاحبي في بلائِه ... أقومُ إذا عضَّ الزَّمانُ وأقعُدُ
ومَن يفردِ الإخوانَ فيما ينوبُهم ... تَنُبْه الليالي مرَّةً وهو مفردُ[6]

---

(١) ((الكشكول)) لبهاء الدين الهمذاني (٢/٢٨٩).
(٢) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٣٠٣).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٣/٤).
(٥) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٨٧).
(٦) ((التذكرة السعدية)) لمحمد بن عبد الرحمن العبيدي (ص: ٣٢١).

وقال حافظ إبراهيم:

لا تعجبنَّ لملكٍ عَزَّ جانبُه   لولا التَّعاونُ لم تنظرْ له أثرَا[1]

وقال آخر:

أخاك أخاك إنَّ مَن لا أخًا له   كساعٍ إلى الهيجا بغيرِ سلاحِ
وإنَّ ابنَ عمِّ المرءِ – فاعلمْ – جناحُه   وهل ينهضُ البازي[2] بغيرِ جناحِ[3]

ولله درُّ القائل:

كونوا جميعًا يا بَنِيَّ إذا اعترى   خَطبٌ ولا تتفرَّقوا آحادَا
تأبى القِداحُ إذا اجتمعن تكسُّرًا   وإذا افترقن تكسَّرت أفرادَا[4]

وقال آخر:

النَّاسُ للنَّاسِ مِن بَدوٍ وحاضرةٍ   بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ[5]

وقال آخر:

إذا العبءُ الثَّقيلُ توزَّعته   رقابُ القومِ خفَّ على الرِّقابِ[6]

وقال آخر:

وإن قام منهم قائمٌ قال قاعدٌ   رشدتَ فلا غرمٌ عليك ولا خَذْلُ

---

(١) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٣٠٣).
(٢) البازي: واحد البزاة التي تصيد، ضرب من الصقور. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧٢/١٤).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٤/٣).
(٤) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٨٦).
(٥) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (١٥٥/٤).
(٦) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٣٠٣).

وقال آخر:

إذا ما تأمَّلنا الأمورَ تبيَّنتْ لنا وأميرُ القومِ للقومِ خادمُ[١]

وقال آخر:

إذا سيِّدٌ منَّا ذَرَا حَدُّ نابِه تَخَمَّطَ[٢] فِينا نابُ آخَرَ مُقْرَمِ[٣]

وقال أحد الشُّعراء:

همومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ وهمِّي مِن الدُّنْيا صديقٌ مساعدُ
نكونُ كروحٍ بينَ جسمين قُسمتْ فجسماهما جسمان والرُّوحُ واحدُ[٤]

وقال آخر:

إنِّي رأيتُ نملةً في حيرةٍ بين الجبال
لم تستطعْ حملَ الطَّعامِ وحدَها فوق الرِّمال
نادت على أختٍ لها تعينُها فالحملُ مال
لم يستطيعا حملَه تذكَّرا قولًا يُقَال
تعاونوا جميعكم فالخير يأتي بالوصال
نادت على إخوانِها جاءوا جميعًا بالحبال
جرُّوا معًا طعامَهم لم يعرفوا شيئًا محال

وقال حافظ إبراهيم:

إذا ألمَّت بوادي النِّيلِ نازلةٌ باتت لها راسياتُ الشَّامِ تضطربُ

---

(١) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (١٥٦/٤).
(٢) التخمط هو: الأخذ والقهر بغلبة. ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٩٧/٧).
(٣) القرم من الرجال: (السيد) المعظم. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥٣/٣٣).
(٤) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٦٦٦).

وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألمٍ أجابه في ذرا لبنان منتحبُ
لو أخلص النِّيلُ والأردنُ ودَّهما تصافحتْ منهما الأمواهُ والعشبُ[1]

وقال آخر:

وكلُّ عضوٍ لأمرٍ ما يمارسُه لا مشي للكفِّ بل تمشي به القدمُ[2]

وقال أحمد محرم:

وبلوتُ أسبابَ الحياةِ وقستُها فإذا التَّعاونُ قوَّةٌ ونجاحُ

وقال أيضًا:

وإن ضاع التَّعاونُ في أناسٍ عَفت آثارُهم في الضَّائعينا[3]



(١) ((ديوان حافظ إبراهيم)) (ص ٢٦٩).
(٢) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (٤/١٥٦).
(٣) ((ديوان محرَّم)) لأحمد محرم (١/٥٩٢).



التَّوَاضُع



التَّواضُع

معنى التَّواضُع لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّواضُع لغةً:**

التواضع التذلل، يُقَال: وضَعَ فُلانٌ نَفْسَهُ وضْعًا، ووُضُوعًا بالضَّم، وَضَعَةً، بالفَتْحِ: أي أذلَّها. وتَوَاضَعَ الرَّجُلُ: إذا تَذَلَّلَ، وقيل: ذَلَّ وتَخاشَعَ[1].

- **معنى التَّواضُع اصطلاحًا:**

التَّواضُع هو: (ترك التَّرؤس، وإظهار الخمول، وكراهية التَّعظيم، والزِّيادة في الإكرام، وأن يتجنَّب الإنسان المباهاة بما فيه مِن الفضائل، والمفاخرة بالجاه والمال، وأن يتحرَّز مِن الإعجاب والكِبْر)[2].

وقيل هو: (رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقُّه فضله ومنزلته. وهو وسطٌ بين الكِبْر والضِّعَة، فالضِّعَة: وضع الإنسان نفسه مكانًا يزري به بتضييع حقِّه. والكِبْر: رفع نفسه فوق قدره)[3].

وقيل هو: (إظهار التَّنزُّل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، وقيل: هو تعظيم مَن فوقه فضله)[4].

الفرق بين التَّواضُع وبعض الصِّفات:

- **الفرق بين التَّواضُع والتَّذلُّل:**

(أنَّ التَّذلُّل: إظهار العجز عن مقاومة مَن يتذلَّل له.

---

(١) ((العين)) للفراهيدي (٢/١٩٦)، ((تاج العروس)) لمرتضى الزبيدي (٢٢/٣٤٣).
(٢) ((تهذيب الأخلاق)) للجاحظ (ص ٢٥).
(٣) ((الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة)) للرَّاغب الأصفهاني (ص ٢٩٩).
(٤) ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/٣٤١).

والتَّواضُع: إظهار قُدْرَة مَن يتواضع له، سواءً كان ذا قُدْرَة على المتواضع أو لا، ألا ترى أنَّه يُقَال العبد: متواضع لخَدمه، أي: يعاملهم معاملة مَن لهم عليه قُدْرَة، ولا يُقَال: يتذلَّل لهم؛ لأنَّ التَّذلُّل: إظهار العجز عن مقاومة المتَذَلَّل له، وأنَّه قاهر، وليست هذه صفة الملِك مع خدمه)[1].

- **الفرق بين التَّواضُع والخشوع:**

(التَّواضُع: يعتبر بالأخلاق والأفعال الظَّاهرة والباطنة.

والخشوع: يقال باعتبار الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح)[2].

التَّرغيب في التَّواضُع:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال ابن القيِّم: (أي: سكينة ووقارًا، متواضعين غير أشرين ولا مَرِحين ولا متكبِّرين، قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمَّد بن الحنفيَّة: أصحاب وقار وعفَّة، لا يسفِّهون، وإن سُفِه عليهم حلموا. والهَوْن -بالفتح- في اللُّغة: الرِّفق واللِّين، والهُون -بالضَّم-: الهَوَان فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان، والمضموم صفة أهل الكُفْران، وجزاؤهم مِن الله النِّيران)[3].

(وقال تعالى مخاطبًا رسوله، ممتنًّا عليه وعلى المؤمنين فيما أَلان به قلبه على أمَّته المتَّبعين لأمره، التَّاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ١٢٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٢١٦).
(٣) ((مدارج السَّالكين)) (١٠٨/٣).

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩])[1].

- كما أمره الله سبحانه وتعالى أن يلين جانبه للمؤمنين، وأن يتواضع لهم، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

قال القرطبيُّ في تفسير هذه الآية: (أي: أَلِن جانبك لمن آمن بك، وتواضعْ لهم)[2].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعراء: ٢١٥].

- ووصف الله سبحانه وتعالى أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بأنَّهم (يظهرون العطف والحُنُوَّ والتَّواضُع للمؤمنين، ويظهرون الشِّدَّة والغلظة والتَّرفُّع على الكافرين)[3] حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال ابن كثير: (هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليِّه، متعزِّزًا على خصمه وعدوِّه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩])[4].

وقال ابن القيِّم: (لمَّا كان الذُّل منهم ذُلَّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات، عدَّاه بأداة على تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنَّه لم يرد به ذُلَّ الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنَّما هو ذُلُّ اللِّين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (١٤٨/٢).
(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٥٦/١٠).
(٣) ((فتح القدير)) للشَّوكاني (٧٥/٢).
(٤) ((تفسير القرآن العظيم)) (١٣٦/٣).

كما في الحديث: المؤمن كالجمل الذَّلول، والمنافق والفاسق ذليل)[(١)].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، (حيث أمر الله بالتَّواضُع للوالدين ذلًّا لهما ورحمة واحتسابًا للأجر)[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنَّ الدَّار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ترفُّعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم، ولا فسادًا فيهم)[(٣)].

ثانيًا: في السُّنَّة النبوية

رغَّب الإسلام في التَّواضُع وحثَّ عليه ابتغاء مرضات الله، وأنَّ مَن تواضع جازاه الله على تواضعه بالرِّفعة، وقد وردت نصوصٌ مِن السُّنَّة النَّبويَّة تدلُّ على ذلك:

- منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((ما نقصت صدقة مِن مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله))[(٤)].

قال القاضي عياض في قوله صلى الله عليه وسلم ((وما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله)): (فيه وجهان: أحدهما: أنَّ الله تعالى يمنحه ذلك في الدُّنْيا جزاءً

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٣٢٧).
(٢) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) لعبد الرَّحمن السعدي (١/٤٥٦).
(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (٦/٢٥٨).
(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على تواضعه له، وأنَّ تواضعه يُثْبِتُ له في القلوب محبَّةً ومكانةً وعزَّةً.

والثَّاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه)[١].

- وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ))[٢].

(يعني: أن يتواضع كلُّ واحد للآخر، ولا يترفَّع عليه، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر، وكان مِن عادة السَّلف رحمهم الله: أنَّ الإنسان منهم يجعل مَن هو أصغر منه مثل ابنه، ومَن هو أكبر مثل أبيه، ومَن هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى ما هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى مَن هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى مَن هو مثله نظرة مساواة، فلا يبغي أحدٌ على أحد، وهذا مِن الأمور التي يجب على الإنسان أن يتَّصف بها، أي بالتَّواضُع لله عزَّ وجلَّ ولإخوانه مِن المسلمين)[٣].

- وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن ترك اللِّباس تواضعًا للَّه، وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيِّره مِن أيِّ حلل الإيمان شاء يلبسها))[٤].

قال ابن عثيمين: (وهذا يعني أنَّ الإنسان إذا كان بين أناس متوسِّطي الحال لا يستطيعون اللِّباس الرَّفيع، فتواضع وصار يلبس مثلهم، لئلَّا تنكسر قلوبهم،

---

(١) ((إكمال المعْلِم شرح صحيح مسلم)) للقاضي عياض (٨/٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) مِن حديث عياض بن حمار رضي الله عنه .

(٣) ((شرح رياض الصَّالحين)) لابن عثيمين (٣/٥٢٤).

(٤) رواه التِّرمذي (٢٤٨١) مِن حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه. وحسَّنه، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦١٤٥).

ولئلَّا يفخر عليهم، فإنَّه ينال هذا الأجر العظيم، أمَّا إذا كان بين أناس قد أنعم عليهم، ويلبسون الثِّياب الرَّفيعة لكنَّها غير محرَّمة، فإنَّ الأفضل أن يلبس مثلهم؛ لأنَّ الله تعالى جميل يحبُّ الجمال، ولا شكَّ أنَّ الإنسان إذا كان بين أناس رفيعي الحال، يلبسون الثِّياب الجميلة، ولبس دونهم فإنَّ هذا يُعَدُّ لباسَ شهرة؛ فالإنسان ينظر ما تقتضيه الحال)[١].

- وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: ((ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟ قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وسلم: كلُّ ضعيف متضعِّف، لو أقسم على الله لأبرَّه. ثمَّ قال:ألا أخبركم بأهل النَّار؟ قالوا: بلى. قال: كلُّ عتلٍّ[٢] جوَّاظٍ[٣] مستكبر))[٤].

قال القاضي عياض: (وقوله في أهل الجنَّة: ((كلُّ ضعيفٍ متضعِّف))... هو صفة نفي الكِبْرِياء والجبروت التي هي صفة أهل النَّار، ومَدَح التَّواضُع والخمول، والتَّذلُّل لله عزَّ وجلَّ، وحضَّ عليه)[٥].

- عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ابغوني في ضعفائكم، فإنَّما تُرْزَقون وتُنْصَرون بضعفائكم))[٦].

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) (٤/٣١٧-٣١٨).

(٢) عتلٍّ: الجافي الشديد الخصومة بالباطل وقيل الجافي الفظ الغليظ. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٧/١٨٨).

(٣) الجوَّاظ: الجموع المنوع وقيل كثير اللحم المختال في مشيته وقيل القصير البطين وقيل الفاخر. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٧/١٨٨).

(٤) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣) مِن حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه .

(٥) ((إكمال الُمْعِلم شرح صحيح مسلم)) للقاضي عياض (٨/٣٨٣).

(٦) رواه أبو داود (٢٥٩٤)، والترِّمذي (١٧٠٢)، وابن حبان (١١/٨٥) (٤٧٦٧) مِن حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه. قال التِّرمذي: حسن صحيح. وحسَّن إسناده البزار في ((البحر الزخار)) (١٠/٧٥)، والنووي في ((الخلاصة)) (٢/٨٧٣).

قال الطِّيبيُّ في معنى الحديث: (فيه نهيٌ عن مخالطة الأغنياء، وتحذيرٌ مِن التَّكبُّر على الفقراء، والمحافظة على جبر خواطرهم، ولهذا قال لقمان لابنه: لا تحقرنَّ أحدًا لخُلْقَان ثيابه؛ فإنَّ ربَّك وربَّه واحدٌ.

وقال ابن معاذ: حبُّك الفقراء مِن أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم مِن علامات الصَّالحين، وفرارك منهم مِن علامات المنافقين)[1].

أقوال السَّلف والعلماء في التَّواضُع:

- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (إنَّكم لتغفلون أفضل العبادة: التَّواضُع)[2].

- وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (لا يبلغ عبدٌ ذُرَى الإيمان حتى يكون التَّواضُع أحبَّ إليه مِن الشَّرف، وما قلَّ مِن الدُّنْيا أحبَّ إليه ممَّا كَثُر، ويكون مَن أحبَّ وأبغض في الحقِّ سواء، يحكم للنَّاس كما يحكم لنفسه وأهل بيته)[3].

- و(سُئِل الفضيل بن عياض عن التَّواضُع، فقال: يخضع للحقِّ، وينقاد له، ويقبله ممَّن قاله)[4].

- وقال ابن المبارك: (رأس التَّواضُع أن تضع نفسك عند مَن هو دونك في نعمة الدُّنْيا حتى تُعْلِمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمَّن

---

(١) ((فيض القدير)) للمناوي (١/١٠٩).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠/٤٠٥) (١١٨٥٢)، وابن المبارك في ((الزُّهد)) (١/١٣٢)، وأبو داود في ((الزُّهد)) (٢٨٦) مِن حديث الأسود بن يزيد رحمه الله. وقال ابن حجر العسقلاني في ((الأمالي المطلقة)) (٩٦): حسن غريب، اخْتُلف فيه على ابن المبارك، والمشهور عنه أنَّه موقوف.

(٣) رواه ابن المبارك في ((الزُّهد)) (٢/٥٢) مِن حديث مكحول رحمه الله.

(٤) ((مدارج السَّالكين)) لابن قيِّم الجوزيَّة (٢/٣٢٩).

هو فوقك في نعمة الدُّنْيا، حتى تُعْلِمه أنَّه ليس له بدنياه عليك فضل)(١).

- وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: (رأيت أمَّ الدَّرداء مع نساء المساكين جالسة ببيت المقدس)(٢).

- وقال قتادة: (مَن أُعْطِي مالًا أو جمالًا وثيابًا وعلمًا، ثمَّ لم يتواضع، كان عليه وبالًا يوم القيامة)(٣).

- وقال يحيي بن الحكم بن أبي العاص لعبد الملك: (أيُّ الرِّجال أفضل؟ قال: مَن تواضع عن رفعة، وزهد على قُدْرَة، وترك النُّصرة على قومه)(٤).

- وقال إبراهيم بن شيبان: (الشَّرف في التَّواضُع، والعزُّ في التَّقوى، والحرِّية في القناعة)(٥).

- وقال علوان بن داود البجلي: حدَّثني شيخٌ مِن همدان عن أبيه قال: (بعثني قومي في الجاهليَّة بخيلٍ أهدوها لذي الكَلَاع، فأقمت ببابه سنةً لا أصِلُ إليه، ثمَّ أشرف إشرافةً على النَّاس مِن غُرْفَة له، فخرُّوا له سجودًا، ثمَّ جلس فلقيته بالخيل، فقبلها، ثمَّ لقد رأيته بحمص وقد أسلم، يحمل بالدِّرهم اللَّحم، فيبتدره قومه ومواليه فيأخذونه منه فيأبى تواضعًا، وقال:

أفٍّ لذي الدُّنْيا إذا كانت كذا ... أنا منها كلَّ يوم في أذى

ولقد كنت إذا ما قيل مَن ... أنعم النَّاس معاشًا قيل ذا

ثمَّ بُدِّلت بعيش شقوة ... حبَّذا هذا شقاء حبَّذا(٦)

(١) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٤٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٤٩).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ١٤٢).
(٤) ((المصدر السابق)) (ص ١٤٤).
(٥) ((مدارج السَّالكين)) لابن قيِّم الجوزيَّة (٢/٣٣٠).
(٦) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٤٦).

- وعن صالح المرِّيِّ قال: (خرج الحسن ويونس وأيوب يتذاكرون التَّواضُع، فقال لهما الحسن: وهل تدرون ما التَّواضُع؟ التَّواضُع: أن تخرج مِن منزلك فلا تلق مسلمًا إلَّا رأيت له عليك فضلًا)[1].

- (وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارةً مرَّةً، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، يقول: طرِّقوا للأمير)[2].

- وقال يحيى ابن أبي كثير: (رأس التَّواضُع ثلاث: أن ترضى بالدُّون مِن شرف المجلس، وأن تبدأ مَن لقيته بالسَّلام، وأن تكره مِن المدحة والسُّمعة والرِّياء بالبِرِّ)[3].

فوائد التَّواضُع:

١- أنَّ التَّواضُع يرفع المرء قدرًا ويُعْظِم له خطرًا ويزيده نبلًا[4].

٢- التَّواضُع يؤدِّي إلى الخضوع للحقِّ والانقياد له[5].

٣- التَّواضُع هو عين العزِّ؛ لأنَّه طاعة لله ورجوع إلى الصَّواب[6].

٤- يكفي المتواضع محبَّة عباد الله له، ورفع الله إيَّاه[7].

٥- التَّواضُع فيه مصلحة الدِّين والدُّنْيا، ويزيل الشَّحناء بين النَّاس، ويريح مِن تعب المباهاة والمفاخرة[8].

---

(١) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٥٤).
(٢) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٦٧/٣٧٣).
(٣) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٥٥).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦١).
(٥) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لحسن المرسي -بتصرُّف- (ص ٢٠٩).
(٦) ((المصدر السابق)).
(٧) ((المصدر السابق)).
(٨) ((فتح الباري)) لابن حجر بتصرُّف (١١/٣٤١).

٦- التَّواضُع يُكْسِب السَّلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويُذْهِب الصَّد[١].

٧- ثمرة التَّواضُع المحبَّة، كما أنَّ ثمرة القناعة الرَّاحة، وإنَّ تواضع الشَّريف يزيد في شرفه، كما أنَّ تكبُّر الوضيع يزيد في ضِعَتِه[٢].

٨- التَّواضُع يؤلِّف القلوب، ويفتح مغاليقها، ويجعل صاحبه جليل القدر، رفيع المكانة.

أقسام التَّواضُع:

(التَّواضُع تواضعان: أحدهما محمود، والآخر مذموم. والتَّواضُع المحمود: ترك التَّطاول على عباد الله والإزراء بهم. والتَّواضُع المذموم: هو تواضع المرء لذي الدُّنْيا رغبةً في دنياه، فالعاقل يلزم مفارقة التَّواضُع المذموم على الأحوال كلِّها، ولا يفارق التَّواضُع المحمود على الجهات كلِّها)[٣].

التَّواضُع المحمود على نوعين:

النَّوع الأوَّل: (تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإنَّ النَّفس لطلب الرَّاحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشِرَاد هربًا مِن العبوديَّة وتثبت عند نهيه طلبًا للظَّفر بما مُنِع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبوديَّة.

والنَّوع الثَّاني: تواضعه لعظمة الرَّب وجلاله وخضوعه لعزَّته وكبريائه، فكلَّما شمخت نفسه ذكر عظمة الرَّب تعالى وتفرُّده بذلك، وغضبه الشَّديد على مَن نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأنَّ

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦١).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٥٩).

لهيبته وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التَّواضُع، وهو يستلزم الأوَّل مِن غير عكس، والمتواضع -حقيقةً- مَن رُزِق الأمرين، والله المستعان)[1].

التَّواضُع المذموم:

قال ابن القيِّم: (ومِن التَّواضُع المذموم: المهانة. والفرق بين التَّواضُع والمهانة: أنَّ التَّواضُع يتولَّد مِن بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه ومحبَّته وإجلاله، ومِن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولَّد مِن بين ذلك كلِّه خُلُقٌ هو التَّواضُع وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذُّل والرَّحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلًا، ولا يرى له عند أحدٍ حقًّا، بل يرى الفضل للنَّاس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلُقٌ إنَّما يعطيه الله عزَّ وجلَّ مَن يحبُّه ويكرمه ويقرِّبه.

وأمَّا المهانة: فهي الدَّناءة والخِسَّة، وبذل النَّفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السِّفَل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كلِّ حظٍّ لمن يرجو نيل حظِّه منه، فهذا كلُّه ضِعَةٌ لا تواضع، والله سبحانه يحبُّ التَّواضُع، ويبغض الضِّعَة والمهانة، وفي الصَّحيح عنه: وأُوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ[2])[3].

درجات التَّواضُع:

ذكر أبو إسماعيل الهرويُّ للتواضع ثلاث درجات، فقال:

(**الدَّرجة الأولى**: التَّواضُع للدِّين، وهو أن لا يعارِض بمعقولٍ منقولًا، ولا

---

(١) ((الروح)) لابن القيِّم (ص ٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) مِن حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) ((الروح)) (ص ٢٣٤).

يتَّهم للدِّين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا)[١].

قال ابن القيِّم: (التَّواضُع للدِّين: هو الانقياد لما جاء به الرَّسول، والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأوَّل: أن لا يعارِض شيئًا ممَّا جاء به بشيء مِن المعارَضَات الأربعة السَّارية في العالم المسمَّاة: بالمعقول والقياس والذَّوق والسِّياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكِبْر مِن المتكلِّمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنَّقل: قدَّمنا العقل وعزلنا النقل؛ إمَّا عزل تفويض، وإمَّا عزل تأويل، والثَّاني: للمتكبِّرين مِن المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرَّأي والنُّصوص: قدَّمنا القياس على النَّص ولم نلتفت إليه، والثَّالث: للمتكبِّرين المنحرفين مِن المنتسبين إلى التَّصوف والزُّهد، فإذا تعارض عندهم الذَّوق والأمر: قدَّموا الذَّوق والحال، ولم يعبؤوا بالأمر، والرَّابع: للمتكبِّرين المنحرفين مِن الولاة والأمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشَّريعة والسِّياسة: قدَّموا السِّياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشَّريعة، فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكِبْر. والتَّواضُع: التَّخلُّص مِن ذلك كلِّه.

الثَّاني: أن لا يتَّهم دليلًا مِن أدلَّة الدِّين، بحيث يظنُّه فاسد الدِّلالة أو ناقص الدِّلالة أو قاصرها، أو أنَّ غيره كان أولى منه، ومتى عَرَض له شيء مِن ذلك فليتَّهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه والبليَّة فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفته مِن الفهم السَّقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه ... على قدر القرائح والفهوم

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٣/١٢٠).

وهكذا الواقع في الواقع حقيقةً: أنَّه ما اتَّهم أحدٌ دليلًا للدِّين إلَّا وكان المتِّهم هو الفاسد الذِّهن، المأفون في عقله وذهنه، فالآفة مِن الذِّهن العليل لا في نفس الدِّليل، وإذا رأيت مِن أدلَّة الدِّين ما يُشْكل عليك وينبو فهمك عنه، فاعلم أنَّه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأنَّ تحته كنزًا مِن كنوز العلم، ولم تؤتَ مفتاحه بَعْدُ، هذا في حق نفسك، وأمَّا بالنِّسبة إلى غيرك: فاتَّهم آراء الرِّجال على نصوص الوحي، وليكن ردُّها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء ولو.. ولو..، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء، قال الشَّافعي -قدَّس الله روحه-: أجمع المسلمون على أنَّ مَن استبانت له سنَّة رسول الله: لم يحلَّ له أن يدعها لقول أحد.

الثَّالث: أن لا يجد إلى خلاف النَّص سبيلًا البتَّة: لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحسَّ بشيء مِن الخلاف: فهو كخلاف المقْدِم على الزِّنا وشرب الخمر وقتل النَّفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله مِن ذلك، وهو داع إلى النِّفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أنَّ المخالف للنَّص لقول متبوعه وشيخه ومقلَّده، أو لرأيه ومعقوله وذوقه وسياسته، إن كان عند الله معذورًا -ولا والله ما هو بمعذور- فالمخالف لقوله -لنصوص الوحي- أولى بالعذر عند الله ورسوله وملائكته والمؤمنين مِن عباده.

فوا عجبًا إذا اتَّسع بطلان المخالفين للنُّصوص لعذر مَن خالفها تقليدًا أو تأويلًا أو لغير ذلك، فكيف ضاق عن عذر مَن خالف أقوالهم وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النُّصوص؟! وكيف نصبوا له الحبائل وبغوه الغوائل ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالًا مِن أرباب الجرائم؟! فرموه بدائهم وانسلوا منه

لواذًا، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا، والله أعلم)[١].

قال صاحب المنازل: (ولا يصحُّ ذلك إلَّا بأن يعلم: أنَّ النَّجاة في البصيرة والاستقامة بعد الثِّقة وأنَّ البيِّنة وراء الحجَّة)[٢].

قال ابن القيِّم: (يقول: إنَّ ما ذكرناه مِن التَّواضُع للدِّين بهذه الأمور الثَّلاثة:

الأولى: علمه أنَّ النَّجاة مِن الشَّقاء والضَّلال: إنَّما هي في البصيرة، فمن لا بصيرة له: فهو مِن أهل الضَّلال في الدُّنْيا والشَّقاء في الآخرة، والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب، يفرِّق به العبد بين الحقِّ والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين، وهذه البصيرة وهبيَّة وكسبيَّة، فمَن أدار النَّظر في أعلام الحقِّ وأدلَّته، وتجرَّد لله مِن هواه: استنارت بصيرته، ورُزِق فرْقَانًا يفرِّق به بين الحقِّ والباطل.

الثَّاني: أن يعلم أنَّ الاستقامة إنَّما تكون بعد الثِّقة، أي لا يُتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال إلَّا بعد الثِّقة بصحَّة ما معه مِن العلم، وأنَّه مقتبسٌ مِن مشكاة النُّبوَّة، ومَن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

الثَّالث: أن يعلم أنَّ البيِّنة وراء الحجَّة، والبيِّنة مراده بها: استبانة الحقِّ وظهوره، وهذا إنَّما يكون بعد الحجَّة إذا قامت، استبان الحقُّ وظهر واتَّضح، وفيه معنى آخر وهو: أنَّ العبد إذا قَبِل حجَّة الله بمحض الإيمان والتَّسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبيُّنها وظهورها وانكشافها لقلبه، فلا يصبر على بينة ربِّه إلَّا بعد قبول حجَّته.

وفيه معنى آخر أيضًا: أنَّه لا يتبيَّن له عيب عمله مِن صحَّته إلَّا بعد العلم

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٣/١٢٠).

(٢) ((المصدر السابق)) (٣/١٢٤).

الذي هو حجَّة الله على العبد، فإذا عرف الحجَّة اتَّضح له بها ما كان مشكلًا عليه مِن علومه، وما كان معيبًا مِن أعماله.

وفيه معنى آخر أيضًا: وهو أن يكون وراء بمعنى: أمام، والمعنى: أنَّ الحجَّة إنَّما تحصل للعبد بعد تبيُّنها، فإذا لم تتبيَّن له لم تكن له حجُّة، يعني: فلا يقنع مِن الحجَّة بمجرَّد حصولها بلا تبيُّن، فإنَّ التَّبيُّن أمام الحجَّة، والله أعلم)[1].

قال صاحب المنازل: (الدَّرجة الثَّانية: أن ترضى بما رضي الحقُّ به لنفسه عبدًا مِن المسلمين أخًا، وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا، وأن تقبل مِن المعتذر معاذيره)[2].

قال ابن القيِّم: (يقول: - أي: الهروي- إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟! فعدم رضاك به أخًا -وقد رضيه سيِّدك، الذي أنت عبده، عبدًا لنفسه- عين الكِبْر، وأيُّ قبيح أقبح مِن تكبُّر العبد على عبدٍ مثله، لا يرضى بأخوَّته، وسيِّده راض بعبوديَّته؟!

فيجيء مِن هذا: أنَّ المتكبِّر غير راض بعبوديَّة سيِّده؛ إذ عبوديَّته توجب رضاه بأخوَّة عبده، وهذا شأن عبيد الملوك: فإنَّهم يرون بعضهم خشداشية[3] بعض. ومَن ترفَّع منهم عن ذلك: لم يكن مِن عبيد أستاذهم.

قوله: (وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا) أي: لا تصحُّ لك درجة التَّواضُع حتى تقبل الحقَّ ممَّن تحبُّ وممَّن تبغض، فتقبله مِن عدوِّك كما تقبله مِن وليِّك،

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٣/١٢٤).

(٢) ((المصدر السابق)) (٣/١٢٦).

(٣) الخشداش: لفظ فارسي معناه: الزَّميل في الخدمة، والخشداشية: هم الأمراء الذين نشؤوا مماليك عند سيِّدٍ واحد فنبتت بينهم رابطة الزَّمالة، ((هامش المصدر السابق)).

وإذا لم تردَّ عليه حقَّه، فكيف تمنعه حقًّا له قِبَلَك، بل حقيقة التَّواضُع: أنَّه إذا جاءك قَبِلْتَه منه، وإذا كان له عليك حقٌّ: أدَّيته إليه، فلا تمنعك عداوته مِن قبول حقِّه، ولا مِن إيتائه إيَّاه.

وأمَّا (قبولك مِن المعتذر معاذيره) فمعناه: أنَّ مَن أساء إليك، ثمَّ جاء يعتذر مِن إساءته، فإنَّ التَّواضُع يوجب عليك قبول معذرته حقًّا كانت أو باطلًا، وتكل سريرته إلى الله تعالى كما فعل رسول الله في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلمَّا قدم جاءوا يعتذرون إليه، فقَبِل أعذارهم ووَكَل سرائرهم إلى الله تعالى، وعلامة الكَرَم والتَّواضُع: أنَّك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه، وقُلْ: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قُضِي شيءٌ لكان، والمقدور لا مدفع له. ونحو ذلك)[1].

قال صاحب المنازل أبو إسماعيل الهروي: (الدَّرجة الثَّالثة: أن تتَّضع للحقِّ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقِّك في الصُّحبة، وعن رسمك في المشاهدة)[2].

قال ابن القيِّم: (يقول:-أي: الهروي- التَّواضُع، بأن تخدم الحقَّ سبحانه وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره لا على ما تراه مِن رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة، كما هو باعث مَن لا بصيرة له، غير أنَّه اعتاد أمرًا فجرى عليه، ولو اعتاد ضدَّه لكان كذلك)[3].

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٣/١٢٦).
(٢) ((المصدر السابق)) (٣/١٢٧).
(٣) ((المصدر السابق)).

صور التَّواضُع[1]:

١- تواضع الإنسان في نفسه:

ويكون ذلك بألَّا يظنَّ أنَّه أعلم مِن غيره، أو أتقى مِن غيره، أو أكثر ورعًا مِن غيره، أو أكثر خشية لله مِن غيره، أو يظنُّ أنَّ هناك مَن هو شرٌّ منه، ولا يظنُّ أنَّه قد أخذ صكًّا بالغفران!! وآخر بدخول الجنَّة!! لأنَّ القلوب بين إصبعين مِن أصابع الرَّحمن، يقلِّبها كيف يشاء، يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال أبو زيد: ما دام العبد يظنُّ أنَّ في الخَلْق مَن هو شرٌّ منه فهو متكبِّر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا.

ومِن التَّواضُع ألَّا يَعْظُم في عينك عملك، إن عملت خيرًا، أو تقرَّبت إلى الله تعالى بطاعة، فإنَّ العمل قد لا يُقْبَل، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ولهذا قال بعض السَّلف: لو أعلم أنَّ الله قبل منِّي تسبيحة لتمنَّيت أن أموت الآن!

ومِن ذلك: التَّواضُع عندما تسمع نصيحة، فإنَّ الشَّيطان يدعوك إلى ردِّها، وسوء الظَّنِّ بالنَّاصح؛ لأنَّ معنى النَّصيحة أنَّ أخاك يقول لك: إنَّ فيك مِن العيوب كيت وكيت.

وكم مرَّة أتعبتكم بنصيحتي ... وقد يستفيد البُغْضَةَ المتنَصِّحُ

أمَّا مَن عصمه الله تعالى فإنَّه إذا وجد مَن ينصحه ويدلُّه على عيوبه، قهر نفسه وقبل منه، ودعا له وشكره، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم، في تعريف

---

(١) انظر: ((الأخلاق الإسلاميَّة ودورها في بناء المجتمع)) لجمال نصَّار (ص ٢٣٨)، ((دروس إيمانية في الأخلاق الإسلاميَّة)) لخميس السعيد (ص ٣٩).

الكِبْر: ((الكِبْر: بَطَر الحقِّ، وغمط النَّاس))[١].

يعني: ردُّ الحقِّ، وبخس النَّاس أشياءهم. فالمستكبر صاحب نفسيَّة متعاظمة لا يكاد يمدح أحدًا أو يذكره بخير، وإن احتاج إلى ذلك شفعه بذكر بعض عيوبه.

أمَّا إن سمع مَن يذكره ببعض عيوبه فهيهات أن ينصاع أو يلين، وما ذاك إلَّا لمركَّب النَّقص في نفسه، ولهذا كان مِن كمال الإنسان أن يقبل النَّقد والملاحظة بدون حساسيَّة أو انزعاج أو شعور بالخَجَل والضَّعف، وها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحمل الرَّاية، ويرفع الشِّعار: رحم الله امرءًا أهدى إلينا عيوبنا[٢].

٢- التَّواضُع في التعلُّم:

قال الشَّافعي: لا يطلب هذا العلم أحدٌ بالملْك وعزَّة النَّفس فيفلح، لكن مَن طلبه بذلَّة النَّفس، وضيق العيش، وخدمة العلم، وتواضع النَّفس أفلح.

وعن الأصمعي قال: مَن لم يتحمَّل ذلَّ التَّعلُّم ساعة، بقي في ذلِّ الجهل أبدًا.

قال عبد الله بن المعتز: المتواضع في طلب العلم أكثرهم علمًا، كما أنَّ المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

وقد نَظَم أبو عامر النَّسويُّ فقال:

العلم يأتي كلَّ ذي ... خفض، ويأبى كلَّ آبي
كالماء ينزل في الوِهَا ... د، وليس يصعد في الرَّوابي

(١) رواه مسلم (٩١) مِن حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) رواه الدارمي (١/٥٠٦).

وكذلك ينبغي أن يتحمَّل الطَّالب ما يكون مِن الشَّيخ أو مِن بقيَّة الطَّلبة لئلَّا يفوته العلم، فتفوته الدُّنْيا والآخرة، مع حصول العدو وطلبه، وشماتة الأعداءِ مِن الأربعة الأمور بالاستعاذة منهنَّ في الصَّحيحين في قوله عليه السَّلام: ((تعوَّذوا بالله مِن جهد البلاء، ودَرَك الشَّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء))(١).

وقد قيل:

لمحبرة تجالسني نهاري أحبُّ إليَّ مِن أنس الصَّديق
ورزمة كاغد في البيت عندي أعزُّ إليَّ مِن عدل الرَّقيق
ولطمة عالم في الخدِّ منِّي ألذُّ إليَّ مِن شرب الرَّحيق(٢)

وقال الشَّافعي: غضب الأعمش يومًا على رجل مِن الطَّلبة، فقال آخر: لو غضب عليَّ مثلك لم أعد إليه. فقال له الأعمش: إذًا هو أحمق مثلك، يترك ما ينفعه لسوء خلقي. ذكره البيهقي(٣).

أحيانًا تسمع من بعض المبتدئين في العلم -ممن لا يقدر للعلماء السابقين قدرهم، ولا يعرف منزلتهم وفضلهم- ربما تسمع منه متطاولًا: هم رجال، ونحن رجال. فأولى بهذا المسكين أن يعرف قدر نفسه، وأن يقرأ سير هؤلاء العلماء؛ ليعرف من هو ومن هم؛ في الحفظ والقراءة والعلم والتعليم والعمل والعبادة، ففرق بين الثرى والثريا.

---

(١) رواه البخاري (٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الرحيق: من أسماء الخمر معروف؛ قال ابن سيده: وهو من أعتقها وأفضلها. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/١١٤).
(٣) ((الآداب الشَّرعية)) لابن مفلح (٢/١١١-١١٥).

فإذا كان هذا القول لا يقبل من العلماء أو من طلبة العلم الكبار في هذا الزمان فكيف بطلاب العلم الصغار والمبتدئين؟!

يقولون: هذا عندنا غير جائز!! ومَن أنتم حتى يكون لكم (عندُ)!!

جلس الشَّافعي ذات يوم مع تلميذه أحمد بن حنبل، فنظر إليه وقال:

أحبُّ الصَّالحين ولست منهم لعلِّي أن أنال بهم شفاعه
وأكره مَن تجارتهم معاصي وإن كنَّا سويًّا في البضاعه

فنظر إليه تلميذه أحمد، ثمَّ قال:

تحبُّ الصَّالحين وأنت منهم ومنكم سوف يلقون الشَّفاعة
وتكره مَن تجارتهم معاصي وقاك الله مِن شرِّ البضاعة

٣- التَّواضُع مع النَّاس:

فالمسلم يخالط النَّاس ويدعوهم إلى الخير، وإلى الأخلاق الإسلاميَّة، ومِن طبيعة النَّاس أنَّهم لا يقبلون قول مَن يعظِّم نفسه ويحقرهم، ويرفع نفسه ويضعهم، وإن كان ما يقوله حقًّا، بل عليه أن يعرف أنَّ جميع ما عنده هو فضلٌ مِن الله، فالمسلم المتواضع هو الذي لا يعطي لنفسه حظًّا في كلامه مع الآخرين، ومِن تواضع المسلم مع النَّاس: أن يجالس كلَّ طبقات المجتمع، ويكلِّم كلًّا بما يفهمه، ويجالس الفقراء والأغنياء.

قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

٤- التَّواضُع مع الأقران:

ومِن التَّواضُع: تواضع المسلم مع قرينه؛ وذلك لأنه كثيرًا ما تشتعل المنافسة ويقع التَّحاسد بينهم، وربَّما يؤدي ذلك إلى نوع من استعلاء بعضهم على بعض، ثم محاولة الحط من قدر قرينه، والتنقص منه بأي صورة من الصور، أو السعي في النيل منه، وقد يلبس عليه الشيطان ذلك ويلبسه لبوس النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- تواضع الإنسان مع مَن هو دونه:

مِن التَّواضُع: التواضع مع من هو أقل منك، بل لا يُتصوَّر التواضع إلا مع من هو دونك، سواء في العلم أو الفهم أو المال أو الجاه ومن هو أصغر منك سنا وغير ذلك، بل إذا رأيت من وقع في معصية فلا تتعالى عليه وتعجب بنفسك وعملك، فربما كانت معصيته سببًا في توبة وإنابة، وذل وانكسار، وربما كان إعجاب الإنسان بعمله سببًا في حبوط عمله.

عن جندب رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حدَّث: ((أنَّ رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان. وأنَّ الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟! فإنِّي قد غفرت لفلان وأحبطت عملك))[1].

٦- تواضع صاحب المال:

فإنَّ مَن مَنَّ الله عليهم بالمال، والجاه، والقوَّة، والنُّفوذ، أحوج الخَلْق إلى خُلُق التَّواضُع؛ لأنَّ هذه النِّعم مدعاة إلى الكِبْر والفخر.

وما ابتليت الأمَّة بمصيبة الكِبْر إلَّا مِن هؤلاء، ولو نظر صاحب المال -مثلًا- إلى سالف أمره، لكان أجدر به إذا ما رُزِق مالًا أن يشكر ربَّه الذي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

أغناه بعد فقر، وأعطاه بعد حرمان، وأشبعه بعد جوع، وأمَّنه بعد خوف، وأن يجعل التَّواضُع فراشه، ودثاره، وزينته، هذا هو الشُّكر العملي الحقيقي.

أمَّا أن يتكبَّر وهذا حاله، فلا أدري بم يوصف هذا الإنسان، وقد بدِّلت لديه المفاهيم والموازين.

وكذلك يقال لصاحب كلِّ نعمة: عليك بالتَّواضُع، فلربَّما دارت عليك الأيام، وبُدِّل الحال.

٧- تواضع القائد مع الأفراد:

القائد النَّاجح هو الذي يخفض جناحه للأفراد الذين تحت إمرته؛ لأنَّه كلَّما تواضع لهم وخفض لهم جناحه كان أقرب إلى نفوسهم، وكان أمره لهم محببًّا إليهم، فهم يطيعونه عن حبٍّ وإخلاص، يقول تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشُّعراء: ٢١٥].

ومِن مظاهر هذا التَّواضُع، عدم الاستبداد بالرَّأي والانفراد باتخاذ القرار، وذلك أنَّ استفراغ ما عند الأفراد مِن آراء وأفكار لا شكَّ أنَّ ذلك يفتح أبوابًا كانت مغلقة على القادة، والاستماع إليها والنُّزول عن الرَّأي إليها - إذا كانت صحيحة - تقلِّل مِن نسبة الخطأ في القرار، وبيركة الشُّورى قد يجبر الله ما بها مِن قصور، ولله درُّ القائل:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

وألَّا يجد القادة في نفوسهم شيئًا إذا تحوَّلوا إلى جنود أو أفراد في الصَّفِّ بعد أن كانوا قادة؛ وذلك لأنَّ الأجر والثَّواب يكون بالإخلاص والتجرُّد، والصِّدق مع الله.

وكما يقول الفضيل بن عياض: (مَن أحبَّ الرِّياسة لم يفلح أبدًا)، ولا شكَّ أنَّ المؤمن كلَّما ازداد تواضعًا ازداد إيمانًا بالله وقربًا منه، وكلَّما ازداد عتوًّا وترفُّعًا على النَّاس، ازداد مقتًا وبعدًا منه سبحانه.

الأسباب التي تعين على التَّواضُع:

١- تقوى الله:

وهذا مِن أوَّل الأمور والأسباب التي تعين المرء على التَّواضُع، وتردعه عن أخلاق أهل السَّفه والكِبْر؛ لأنَّ التَّقوى وقاية مِن كلِّ ما يغضب الله تعالى، وفعل جميع الطَّاعات التي أمر الله تعالى بها، فالكِبْر كبيرة مِن الكبائر، ولا يتَّصف بها أهل التَّقوى، والتَّواضُع مِن محاسن الأخلاق، ولابدَّ أنَّه يكون في أهل التَّقوى.

وهذا شيء يجب أن يكون مركوزًا في فطرة كلِّ إنسان، وخاصَّة إذا كان بالمرء تيه وعجب، عليه أن يعلم أنَّ الأيَّام دُوَل، يوم لك ويوم عليك، فلا ينبغي للعاقل أن يفرح بدنيا أقبلت عليه، ومِن ثَمَّ يشمخ بها، ويتعالى بنعم الله على عباد الله، والله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فمَن تذكَّر دائمًا هذه السُّنَّة الكونيَّة خضع لإخوانه ولعامَّة النَّاس، وخفض جناحه لهم، لأنَّه ربَّما تقلَّبت به الدُّنْيا، فيذلُّ بعد أن كان عزيزًا، ويفتقر بعد أن كان غنيًّا، ويعلو عنه مَن كان يترفَّع عليه، فلِمَ الكِبْر والتِّيه والعجب؟!

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٢- عامل النَّاس بما تحبُّ أن يعاملوك به:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المرء يحبُّ أن يتواضع له النَّاس، ويخفضوا جناحهم له، ويعاملوه برفق ولين، ويبغض -مِن ناحيةٍ أخرى- مَن يُغْلِظ له، ومَن يتكبَّر عليه بأي صورة مِن الصُّور.

ولو كان المرء جرابًا حُشِي كِبرًا لتألَّم وتأفَّف -أيضًا- ممَّن يتكبَّر عليه، فلِمَ الكيل بمكيالين؟!!

٣- التَّفكُّر في أصل الإنسان[1]:

إذا عرف الإنسان نفسه، علم أنَّه أذلُّ مِن كلِّ ذليل، ويكفيه نظرة في أصل وجوده بعد العدم مِن تراب، ثمَّ مِن نطفة خرجت مِن مخرج البول، ثمَّ مِن علقة، ثمَّ مِن مضغة، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني شيئًا، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوَّته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله:

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٨-١٩].

ثمَّ امتنَّ عليه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٠].

وبقوله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

لقد أحياه الله بعد موت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدُّنْيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه، وقوَّاه.

فمِن هذا بدايته، فأي وجه لتكبُّره وفخره وخيلائه؟!

---

(١) ((التواضع في ضوء القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة)) لسليم الهلالي (٣١، ٣٢).

قال ابن حبَّان:

(وكيف لا يتواضع مَن خُلِق مِن نطفة مَذِرَة، وآخره يعود إلى جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل العذرة؟). اهـ[1].

٤- معرفة الإنسان قَدْرَه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

(أي: أنت أيُّها المتكَبِّر المختال ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين أنت عاجز عن التَّأثير فيها، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثِّر فيها بشدَّة وطئك عليها، والجبال الشَّامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها، فاعرف قَدْرَك، ولا تتكبَّر، ولا تمش في الأرض مرحًا). اهـ[2].

٥- تذكُّر الأمراض والأوجاع والمصائب:

(ما أجمل التَّواضُع واللِّين!!

فلو رأيت أهل البلاء بشتَّى صنوفهم للمست التَّواضُع يعلو وجوههم وأبدانهم!

انظر إلى مَن غلَّه المرض، واستوثق منه الوجع، وهدَّه الألم، انظر إليه إذا جاء الزَّائر يزوره! وطالع محيَّاه، فسترى فاقة وكسرة وحاجة إلى كلِّ إنسان!

فهو يأنس بهذا! ويشدُّ على يد هذا! ويطلب الدُّعاء مِن آخر! ويتشوَّف إلى رنين الهاتف، فلربَّما سمع كلمة تشدُّ مِن أزره، أو ربَّما سعد بدعوة مجابة

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦١).

(٢) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/٥٩٢).

أو... أليس في هذا الحال درس لكلِّ مَن اختال يومًا، أو تطاول حينًا، أو تكبَّر زمنًا؟!

بلى والله.

وما قيل هنا، يقال في أهل المصائب كافَّة، فلماذا التَّجمُّل بالتَّواضُع عند الضُّرِّ، والافتخار والمباهاة والأشر والكِبْر عند الرَّخاء والنِّعمة في العلن والسِّرِّ؟!

٦- تطهير القلب:

القلب إذا صَلحَ صَلحَ العمل كلُّه بإذن الله تعالى، فعلى مَن أراد اكتساب خُلُق التَّواضُع أن يطهِّر قلبه مِن الأمراض التي عصفت به مِن حقدٍ وحسدٍ وعجبٍ وغرورٍ؛ لأنَّ القلب هو موطن هذه الأمراض كلِّها)[1].

نماذج في التَّواضُع:

• نماذج مِن تواضع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جمَّ التَّواضُع، لا يعتريه كِبرٌ ولا بَطَرٌ على رِفْعَة قَدْرِه وعلوِّ منزلته، يخفض جناحه للمؤمنين ولا يتعاظم عليهم، ويجلس بينهم كواحد منهم، ولا يُعْرَف مجلسه مِن مجلس أصحابه؛ لأنَّه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ويجلس بين ظهرانيهم فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل عنه، روى أبو داود في سننه عن أبي ذرٍّ وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهري أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه...))[2].

---

(١) ((دروس إيمانية في الأخلاق الإسلامية)) لخميس السعيد (ص ٦١) (بتصرُّف يسير).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩٨)، والنَّسائي (٤٩٩١). وسكت عنه أبو داود، وصحَّحه الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٤٦٩٨).

وقال له رجل: يا محمَّد، أيا سيِّدنا وابن سيِّدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا أيُّها النَّاس، عليكم بتقواكم، ولا يستهوينَّكم الشَّيطان، أنا محمَّد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله))(١).

- وكان صلى الله عليه وسلم مِن تواضعه، يتفقَّد أحوال أصحابه ويقوم بزيارتهم، فقد روى البخاريُّ في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: ((إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكِر له صومي، فدخل علي فألقيت له وسادة مِن أَدَم(٢) حشوها ليف فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال أما يكفيك مِن كلِّ شهرٍ ثلاثة أيَّام. قال: قلت: يا رسول الله! قال: خمسًا. قلت: يا رسول الله! قال: سبعًا. قلت: يا رسول الله! قال: تسعًا. قلت: يا رسول الله! قال: إحدى عشرة. ثمَّ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا صوم فوق صوم داود -عليه السَّلام - شطر الدَّهر: صم يومًا وأفطر يومًا))(٣).

وكان يتفقَّدهم حتى في الغزوات والمعارك، ومِن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه مِن حديث أبي برزة: ((أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان في مغزى له، فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه: هل تفقدون مِن أحدٍ. قالوا: نعم فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثمَّ قال: هل تفقدون مِن أحدٍ. قالوا: نعم فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثمَّ قال: هل تفقدون مِن أحدٍ؟ قالوا: لا. قال: لكنِّي أفقد جليبيًا، فاطلبوه. فطُلِب في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثمَّ قتلوه، فأتى النَّبيُّ صلى

---

(١) رواه أحمد (١٥٣/٣) (١٢٥٧٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٣/٩) مِن حديث أنس رضي الله عنه. وجوَّد إسناده الشَّوكاني كما في ((الفتح الرباني)) (٣٣٦/١)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (٦١١/١).

(٢) أَدَم: الجلد المدبوغ. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣١٣/١٠).

(٣) رواه البخاري (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩).

الله عليه وسلم فوقف عليه، فقال: قتل سبعة ثمَّ قتلوه، هذا منِّي وأنا منه، هذا منِّي وأنا منه. قال: فوضعه على ساعديه ليس له إلَّا ساعدا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: فحفر له ووضع في قبره))[1].

- وكان مِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، القيام بخدمة أصحابه، روى مسلم في صحيحه مِن حديث أبي قتادة، وفيه -في قصَّة نومهم عن صلاة الفجر-: ((...قال ودعا بالميضأة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبُّ وأبو قتادة يسقيهم -أي أصحابه- فلم يَعْدُ أن رأى النَّاس ماءً في الميضأة تكابُّوا عليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنوا الْمَلَأَ[2] كلُّكم سيرْوى. قال: ففعلوا. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبُّ وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ثمَّ صبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لي اشرب. فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله. قال: إنَّ ساقي القوم آخرهم شربًا. قال: فشربت، وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتى النَّاس الماء جامِّين رِوَاء[3]))[4].

- ومِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، أنَّه إذا مرَّ على الصِّبيان، سلَّم عليهم، فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أنس رضي الله عنه: ((أنَّه مرَّ على صبيان فسلَّم عليهم، وقال: كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يفعله))[5].

(١) رواه مسلم (٢٤٧٢).
(٢) الملأ: الخلق والعشرة. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٨٨/٥).
(٣) جامِّين رِوَاء: مستريحين قد رووا من الماء. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠٦/١٢).
(٤) رواه مسلم (٦٨١).
(٥) رواه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

((وكان صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار، ويسلِّم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم))[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ((إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير: يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَير؟))[٢].

- ومِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، أنَّه كان يشارك في خدمة أهله في البيت، فقد روى البخاريُّ عن الأسود، قال: ((سألت عائشة: ما كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهْنَةِ أهله - تعني خدمة أهله -، فإذا حضرت الصَّلاة خرج إلى الصَّلاة))[٣].

- وكان مِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، أنه يركب الحمار ويستردف فيه، يحكي لنا أنس رضي الله عنه عن حال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فيقول: ((كان صلى الله عليه وسلم يُرْدِف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار))[٤].

وعن عبيد بن حنين أنَّه سمع ابن عبَّاس –رضي الله عنهما– يحدِّث أنَّه قال: ((مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطَّاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجًّا فخرجت معه...))[٥]. الحديث. وفيه: ((وإنَّه –

---

(١) رواه ابن حبان (٢/٢٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/٢٩١)، والبغوي في ((شرح السنة)) (١٢/٢٦٤) مِن حديث أنس رضي الله عنه. وقال البغوي: حسن صحيح. وقال الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٥/١٤٩): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

(٣) رواه البخاري (٦٧٦) مِن حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه الحاكم (٤/١٣٢) (٧١٢٨). وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٩٤٥).

(٥) رواه البخاري (٤٩١٣).

أي: رسول الله صلى الله عليه وسلم - لَعَلَى حصيرٍ ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة مِنَ أَدَم حشوها ليف، وإنَّ عند رجليه قَرَظًا[١] مصبوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ معلَّقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيتُ، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إنَّ كِسْرَى وقيصر فيما هُمَا فيه وأنت رسول الله! فقال: أَمَا ترضى أن تكون لهم الدُّنْيا ولنا الآخرة))[٢].

- ومِن تواضعه صلى الله عليه وسلم: استجابته للدَّعوة، وقبوله الهديَّة مهما قلَّت قيمتها، روى البخاريُّ مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((لو دُعِيت إلى ذراعٍ أو كُرَاعٍ لأجبت، ولو أُهْدِي إليَّ ذراع أو كراع لقَبِلت))[٣].

قال الشَّاعر:

يا جاعلًا سنن النَّبيِّ ... شعاره ودثاره

متمسِّكًا بحديثه ... متتبِّعًا أخباره

سنن الشَّريعة خذ بها ... متوسِّمًا آثاره

وكذا الطَّريقة فاقتبس ... في سبلها أنواره

قد كان يقري ضيفه ... كرمًا ويحفظ جاره

ويجالس المسكين يؤ ... ثر قربه وجواره

الفقر كان رداءه ... والجوع كان شعاره

يلقى بغرَّة ضاحك ... مستبشرًا زوَّاره

---

(١) القرظ: شجر يدبغ به، وقيل: هو ورق السلم يدبغ به الأدم. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/٤٥٤).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٣).

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٨).

بسط الرِّداء كرامةً لكريم قوم زاره
ما كان مختالًا ولا مرحًا يجرُّ إزاره
قد كان يركب بالرَّديف مِن الخضوع حماره
مِن مِهْنَة هو أو صلاة ليله ونهاره
فتراه يحلب شاة مَنْزِله ويوقد ناره
ما زال كهف مهاجريه ومكرمًا أنصاره
برًّا بمحسنهم مقيلًا للمسيء عثاره
يهب الذي تحوي يداه لطالبٍ إيثاره
زكَّى عن الدُّنْيا الدنيَّة ربُّه مقداره
جعل الإله صلاته أبدًا عليه نثاره
فاختر مِن الأخلاق ما كان الرَّسول اختاره
لتعد سنيًّا وتو شك أن تبوَّأ داره[1]

- **نماذج مِن تواضع الصَّحابة رضوان الله عليهم:**

اقتداءً بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كان صحابته رضوان الله عليهم يقومون بما كان يقوم به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مِن الأعمال الجليلة والخُلُق الكريم مِن التَّواضُع وخفض الجناح.

(فكان أبوبكر رضي الله عنه يحلب الشَّاة لجيرانه، وكان عمر رضي الله عنه يحمل قربة الماء، وكان عثمان رضي الله عنه وهو يومئذ خليفة - يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصباء في جنبه، وكان عليٌّ رضي الله عنه يحمل التَّمر في

(١) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنُّويري (١٨/١٧٦).

ملحفة ويرفض أن يحمله عنه غيره، وكان أبو الدَّرداء ينفخ النَّار تحت القِدْر حتى تسيل دموعه.

وصفوة القول إنَّهم رضي الله عنهم ساروا على نهج الرَّسول الكريم، فلم يستكبر منهم أحدٌ، أو يستنكف عن القيام بتلك الأعمال اليسيرة النَّافعة مهما عَظُمَت مكانة الواحد منهم)[1].

تواضع الصِّدِّيق رضي الله عنه:

- (لما استُخلف أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أصبح غاديًا إلى السُّوق، وكان يحلب للحي أغنامهم قبل الخلافة، فلمَّا بُويَع قالت جارية مِن الحي: الآن لا يحلب لنا. فقال: بلى لأحلبنَّها لكم، وإنِّ لأرجو ألَّا يغيِّرني ما دخلت فيه)[2].

- وكان يقول: (وددت أنِّ شعرة في جنب عبد مؤمن)[3].

قال هذا وهو مِن المبشَّرين بالجنَّة، وهو الصِّدِّيق العظيم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته مِن بعده!!

تواضع عمر رضي الله عنه:

- عن طارق بن شهاب، قال: (خرج عمر بن الخطَّاب إلى الشَّام ومعنا أبو عبيدة بن الجرَّاح، فأَتَوا على مخاضة[4] وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفَّيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لجمال نصار - بتصرُّف - (ص ٢٣٧).

(٢) ((التبصرة)) لابن الجوزي (ص ٤٠٨).

(٣) رواه أحمد في ((الزُّهد)) (٩٠) رقم (٥٦٠)، وذكره ابن الجوزي في ((المنتظم)) (٤/٦٣) مِن حديث أبي عمر الجوني رحمه الله.

(٤) المخاضة: ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا، وهو الموضع الذي يتخضخض ماؤه فيخاض عند العبور. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/٣٢٢).

أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أنت تفعل هذا، تخلع خفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك. فقال عمر: أوَّه، لم يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالًا لأمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم إنَّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّة بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله)[١].

- عن أبي محذورة قال: (كنت جالسًا عند عمر رضي الله عنه، إذ جاء صفوان بن أميَّة بجَفْنَة[٢] يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكين وأرقَّاء مِن أرقَّاء النَّاس حوله، فأكلوا معه، ثمَّ قال عند ذلك: فعل الله بقوم، أو قال: لحى الله قومًا يرغبون عن أرقَّائهم أن يأكلوا معهم!! فقال صفوان: أما والله، ما نرغب عنهم، ولكنَّا نستأثر عليهم، لا نجد والله مِن الطَّعام الطَّيِّب ما نأكل ونطعمهم)[٣].

- وعن عروة بن الزُّبير رضي الله عنهما قال: (رأيت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين! لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دَخَلَت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها)[٤].

تواضع عثمان رضي الله عنه:

قال الحسن: (رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة،

---

(١) رواه الحاكم (١/١٣٠) (٢٠٧). وقال: صحيح على شرط الشَّيخين. ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٨٩٣).

(٢) الجفنة كالقصعة.

(٣) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٠١)، والحسين بن حرب في ((البر والصلة)) (١٨٢). وصحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (١٤٨).

(٤) ذكره القشيري في ((الرسالة القشيرية)) (١/٢٧٩).

ويقوم وأثر الحصى بجنبه، فنقول: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين)[(١)].

عن ميمون بن مهران قال: (أخبرني الهمدانيُّ أنَّه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة)[(٢)].

تواضع علي رضي الله عنه:

- عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل منهم قال: (رُئِي على علي بن أبي طالب إزارٌ مرقوعٌ، فقيل له: تلبس المرقوع؟! فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع به القلب)[(٣)].

- (وأنَّه رضي الله عنه قد اشترى لحمًا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقيل له: نحمل عنك يا أمير المؤمنين. فقال: لا، أبو العيال أحقُّ أن يحمل)[(٤)].

تواضع عبد الله بن سلام رضي الله عنه:

- مرَّ عبد الله بن سلام رضي الله عنه في السُّوق وعليه حزمة مِن حطب، فقيل له: أليس الله قد أعفاك عن هذا؟! قال: بلى، ولكن أردتُ أن أدفع به الكِبْر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يدخل الجنَّة مَن كان في قلبه مثقال حبَّة مِن خردلٍ مِن كِبْر))[(٥)].

---

(١) ((التبصرة)) لابن الجوزي (ص ٤٣٧).
(٢) ((الزُّهد)) لأحمد (ص ١٥٨).
(٣) ((الزُّهد)) لهنَّاد بن السري (٢/٣٦٨).
(٤) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٢/٣٦٨).
(٥) رواه أحمد في ((الزُّهد)) (١٥٠)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٢٩/١٣٣). وصحَّح سنده البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٧/٣٧٥)، وصحَّحه الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٣٢٥٧).

نماذج مِن تواضع السَّلف:

- **تواضع عمر بن عبد العزيز:**

- (كان عند عمر بن عبد العزيز قوم ذات ليلة في بعض ما يحتاج إليه، فغشي سراجه، فقام إليه فأصلحه، فقيل له:

يا أمير المؤمنين! ألا نكفيك؟ قال: وما ضرَّني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز)[١].

- (ونادى رجلٌ أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: يا خليفة الله في الأرض! فقال له عمر: مه، إنِّي لما وُلِدت اختار لي أهلي اسمًا، فسمَّوْني عمر، فلو ناديتني: يا عمر، أجبتك. فلمَّا كَبِرْتُ اخترت لنفسي الكُنَى، فكُنِّيت بأبي حفص، فلو ناديتني: يا أبا حفص، أجبتك. فلمَّا ولَّيتموني أموركم سمَّيتموني أمير المؤمنين، فلو ناديتني: يا أمير المؤمنين؛ أجبتك. وأمَّا خليفة الله في الأرض، فلست كذلك، ولكن خلفاء الله في الأرض داود النَّبيُّ عليه السَّلام وشبهه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦])[٢].

- وقال سعيد بن سويد: (صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة، ثمَّ جلس وعليه قميص مرقوع الجيب مِن بين يديه ومِن خلفه، فقال له رجلٌ: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكَّس رأسه مليًّا[٣]، ثمَّ رفع رأسه، فقال: إنَّ أفضل القصد عند الجِدَة، وإنَّ أفضل العفو عند القُدْرة، وقال صلى

(١) ((سيرة عمر بن عبد العزيز)) لابن عبد الحكم (ص ٤٦).

(٢) ((المصدر السابق)) (٥١-٥٢).

(٣) مليًّا: أي طويلاً. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٩١/١٥).

الله عليه وسلم: مَن ترك زينةً لله ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله وابتغاء لمرضاته، كان حقًّا على الله أن يدَّخر له عبقري الجنَّة [١])[٢].

• تواضع الإمام أحمد بن حنبل:

قال المروزيُّ: (لم أر الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله؛ كان مائلًا إليهم مُقْصِرًا عن أهل الدُّنْيا، وكان فيه حِلْمٌ، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التَّواضُع، تعلوه السَّكينة والوَقَار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلَّم حتى يُسْأَل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدَّر)[٣].

(وكان ربَّما خرج إلى البقَّال، فيشتري الجرزة[٤] الحطب والشَّيء فيحمله بيده، ويتنوَّر في البيت)[٥].

وقال يحيى بن معين: (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل!! صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء ممَّا كان فيه مِن الخير)[٦].

وقال إسماعيل بن إسحاق الثَّقفي: (قلت لأبي عبد الله أوَّل ما رأيته: يا أبا عبد الله، ائذن لي أن أقبِّل رأسك. فقال: لم أبلغ أنا ذاك)[٧].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) (١٥٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤٦/٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قال أبو نعيم: غريب من حديث إبراهيم الصائغ وإبراهيم بن أدهم تفرد به الحسن بن يحيى عن حازم بن جبلة، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٤٣٦/٣): في إسناده نظر .
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٣٥٦/٣).
(٣) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذَّهبي (٢١٨/١١).
(٤) الجرزة: الحزمة من القت ونحوه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣١٧/٥).
(٥) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذَّهبي (٢٠٩/١١).
(٦) ((المصدر السابق)) (٢١٤/١١).
(٧) ((الآداب الشَّرعية)) لابن مفلح (٢٥٨/٢).

نماذج مِن تواضع العلماء المتقدِّمين:

• تواضع ابن تيمية:

قال البزَّار -وهو يذكر تواضع ابن تيمية-: (وأمَّا تواضعه: فما رأيت ولا سمعت بأحدٍ مِن أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصَّغير والجليل والحقير والغني الصَّالح والفقير، وكان يدني الفقير الصَّالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله مِن الأغنياء، حتى أنَّه ربَّما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرًا لقلبه وتقرُّبًا بذلك إلى ربِّه.

وكان لا يسأم ممَّن يستفتيه أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عَرِيكة[1]، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه: كبيرًا كان أو صغيرًا، رجلًا أو امرأةً، حرًّا أو عبدًا، عالـمًا أو عامِّيًّا، حاضرًا أو باديًا، ولا يجبهه ولا يحرجه ولا ينفِّره بكلام يوحشه، بل يجيبه ويفهمه ويعرِّفه الخطأ مِن الصَّواب بلطف وانبساط، وكان يلزم التَّواضُع في حضوره مِن النَّاس، ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده، ومشيه ومجلسه ومجلس غيره.

وحكى البزَّار عن بعض أصحابه قال: ولقد بالغ معي في حال إقامتي بحضرته في التَّواضُع والإكرام -يعني ابن تيمية- حتى إنه لا يذكرني باسمي، بل يلقِّبني بأحسن الألقاب، وأظهر لي مِن الأخلاق والمبالغة في التَّواضُع بحيث إنَّه كان إذا خرجنا مِن منزله بقصد القراءة، يحمل هو بنفسه النُّسخة، ولا يدع أحدًا منَّا يحملها عنه، وكنت أعتذر إليه مِن ذلك خوفًا مِن سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألَا أحمل ما فيه كلام رسول الله صلَّى الله وعليه وسلَّم؟

---

(١) العريكة: الطبيعة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٦٦/١٠).

وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجلس، حتى إنِّي لأستحي مِن مجلسه هناك، وأعجب مِن شدَّة تواضعه، وكان هذا حاله في التَّواضُع والتَّنازل والإكرام لكلِّ مَن يَرِدُ عليه أو يصحبه أو يلقاه، حتى أنَّ كلَّ مَن لقيه يحكي عنه مِن المبالغة في التَّواضُع نحوًا ممَّا حكيته وأكثر مِن ذلك، فسبحان مَن وفَّقه وأعطاه وأجراه على خِلَال الخير وحباه)[1].

نماذج مِن تواضع العلماء المعاصرين:

- **تواضع الشَّيخ ابن باز:**

(كان الشَّيخ ابن باز -رحمه الله- آية في التَّواضُع فلا يكاد يُعْرَف له مثيلٌ في زمانه في هذه الخصلة؛ فهو لا يرى لنفسه فضلًا، ولا يرغب في المديح، ولا في التَّميز على النَّاس، وكان محبًّا للفقراء والمساكين، حريصًا على مجالستهم، والأكل معهم. ومِن صور تواضعه:

- لا يحتقر النَّصيحة، أو الفائدة مِن أي أحدٍ، حتى مِن الصَّغير:

في يومٍ مِن الأيَّام اتَّصل شاب صغير بسماحة الشَّيخ، وقال: يا سماحة الشَّيخ! النَّاس بأشد حاجة إلى علماء يفتونهم، وأقترح على سماحتكم أن تجعلوا في كلِّ مدينة مفتيًا؛ ليسهل الاتِّصال.

فقال له سماحة الشَّيخ: ما شاء الله أصلحك الله، كم عمرك؟ فقال ثلاثة عشر عامًا.

- يقول الرَّاوي للقصَّة: فقال لي سماحة الشَّيخ: هذا اقتراح طيِّب، يستحقُّ الدِّراسة، اكتب إلى الأمين العام لهيئة كبار العلماء بهذا، فكتبت ما أملى به،

---

(١) ((الأعلام العليَّة)) للبزار (ص ٥٠).

ومِمَّا جاء في كتابه:

أما بعد فقد اتصل بي بعض النَّاصحين، وقال: إنَّه يقترح وضع مفتين في كلِّ بلد، ونرى عرضه على اللَّجنة الدَّائمة؛ لنتبادل الرَّأي في الموضوع)[١].

- (تواضعه للمرأة والمسكين والسَّائل،...قيل له -وهو خارجٌ مِن مسجد الجامع-: هناك امرأة تريد إجابة عن أسئلتها، فما كان منه إلَّا أن اتكأ على عصاه وأصغى لها، وأجاب عن أسئلتها حتى انصرفت!)[٢].

- **تواضع الشَّيخ ابن عثيمين:**

كان الشَّيخ ابن عثيمين يتحلَّى بالصِّفات والأخلاق النَّبيلة فكان مِن صفاته الصِّدق والإعراض عن الدُّنْيا والتَّواضُع، ومِن صور تواضعه:

- طفل صغير يأخذ بيد الشَّيخ ويذهب به إلى والده:

(يأتيه طفل صغير لم يبلغ السَّادسة مِن عمره فيمسك يد الشَّيخ مِن وسط طلَّابه مخاطبًا إيَّاه: أبي قدم إلى عنيزة للسَّلام عليك، أرجو أن تسلِّم عليه قبل أن تخرج، والشَّيخ يبتسم له ويلاطفه، والطِّفل آخذٌ بيد الشَّيخ إلى والده، فيتفاجأ والد الطِّفل بالشَّيخ أمامه، فيتعجَّب الوالد مِن هذا الخُلُق النَّبيل الذي يتحلَّى به الشَّيخ)[٣].

- (ركب الشَّيخ مع أحد محبِّيه سيَّارة قديمة كثيرة الأعطال، فتتوقف أثناء الطَّريق، فقال الشَّيخ للسَّائق: ابق مكانك وأنزل أنا لأدفع السَّيَّارة، فنزل

(١) ((جوانب مِن سيرة الإمام عبد العزيز بن باز)) لمحمد إبراهيم الحمد (بتصرُّف) (ص ١٣٦).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٣٤).
(٣) ((الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين)) لوليد بن أحمد الحسين (ص ٣٩).

الشَّيخ ودفع السَّيَّارة بنفسه حتى تحركت، وهذا قمَّة التَّواضُع)[١].

- (في أثناء درسه في المسجد الذي بجوار بيته ذهب أحد الطُّلاب إلى دورة المياه -الحمَّام- فإذا أنبوبة منكسرة يتدفَّق منها الماء، فأخبر الشَّيخ بذلك أثناء الدَّرس، فما كان مِن الشَّيخ -رحمه الله- إلَّا أنَّ قطع الدَّرس وذهب إلى منزله، وأحضر عدَّة الإصلاح، وشارك الطُّلَّاب بنفسه في إصلاح هذا العطل)[٢].

التَّواضُع في واحة الشِّعر:

قال الشاعر:

ولا تمشِ فوق الأرضِ إلَّا تواضعًا ... فكم تحتها قومٌ هم منك أرفعُ
فإن كنتَ في عزٍّ وخيرٍ ومنعةٍ ... فكم مات مِن قومٍ هم منك أوضعُ[٣]

وقال موسى بن علي بن موسى:

تواضعْ تكنْ كالنَّجمِ لاح لناظرٍ ... على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدُّخانِ يعلو بنفسِه ... إلى طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ[٤]

وقال آخر:

تواضعْ إذا ما نلتَ في النَّاسِ رفعةً ... فإنَّ رفيعَ القومِ مَن يتواضعُ[٥]

وقال آخر:

وكفى بملتمسِ التَّواضُعِ رفعةً ... وكفَى بملتمسِ العلوِّ سفالًا[٦]

---

(١) ((الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين)) لوليد بن أحمد الحسين (ص ٤٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٤٣).
(٣) ((روضة العقلاء)) (ص ٦١).
(٤) ((أعيان العصر وأعوان النصر)) للصفدي (٥/٤٧٩).
(٥) ((جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب)) للهاشمي (٢/٤٨٠).
(٦) ((تاريخ بغداد وذيوله)) للخطيب البغدادي (١٤/١٣٤).

وقال المرادي:

وأحسنُ مقرونَيْنِ في عينِ ناظرٍ جلالةُ قدرٍ في خمولِ تواضعِ[1]

وقال آخر:

إنَّ التَّواضُعَ مِن خصالِ المتَّقي وبه التَّقِيُّ إلى المعالي يرتقي[2]

(١) ((جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب)) للهاشمي (٢/ ٤٨٠).
(٢) ((موارد الظمأن لدروس الزمان)) للسلمان (٤/ ١٥٢).

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة



موسوعة الأخلاق

الجزء الرابع

التَّودُّد - الجُود، والكَرَم، والسَّخاء، والبَذْل

حُسْنُ الظَّن - الحِكْمَة

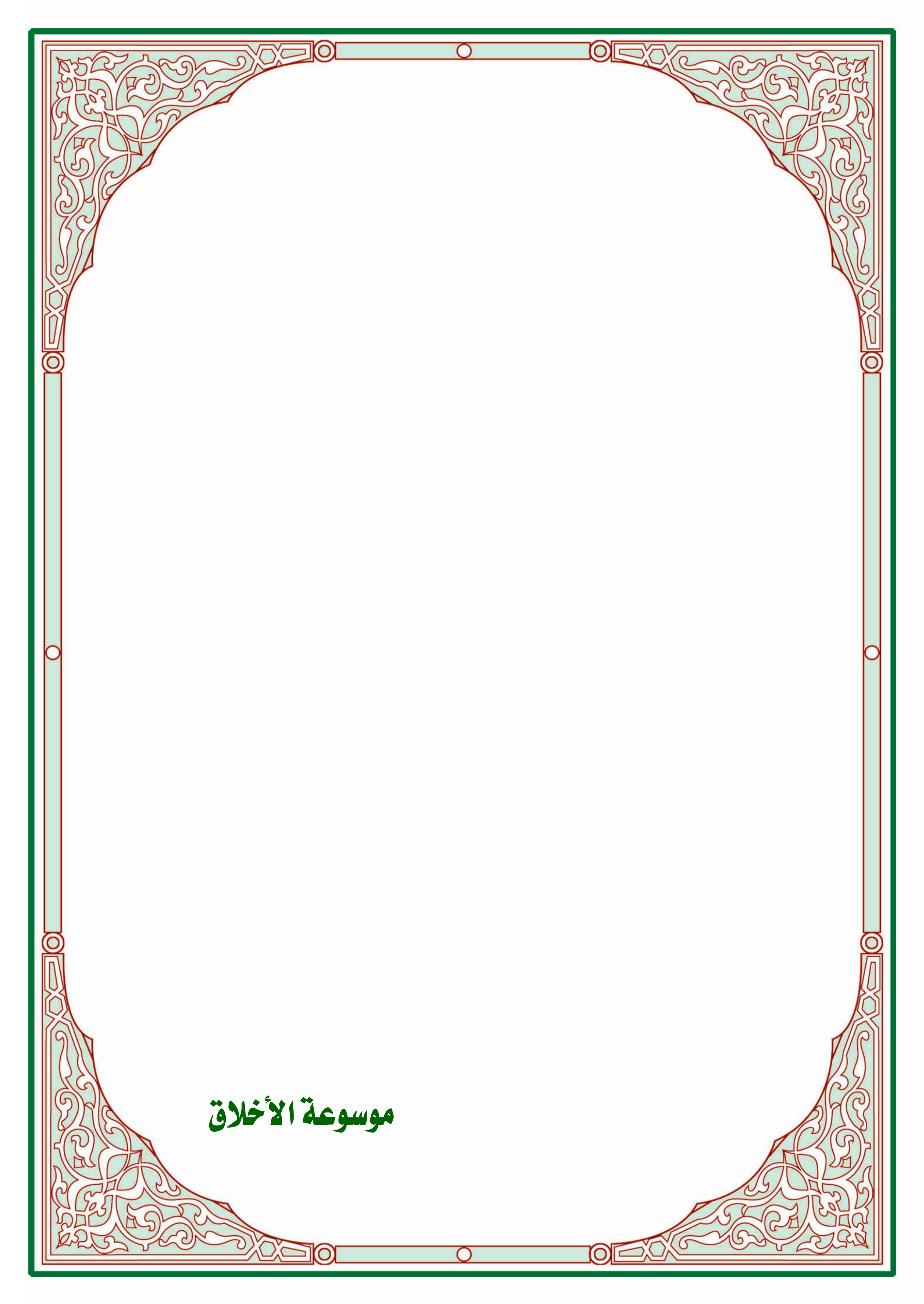
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلوي بن عبد القادر السَّقاف




موسوعة الأخلاق

موسوعة الأخلاق

الجزء الرابع

التَّودُّد - الجُود، والكَرَم، والسَّخاء، والبَذْل

حُسْنُ الظَّن - الحِكْمَة

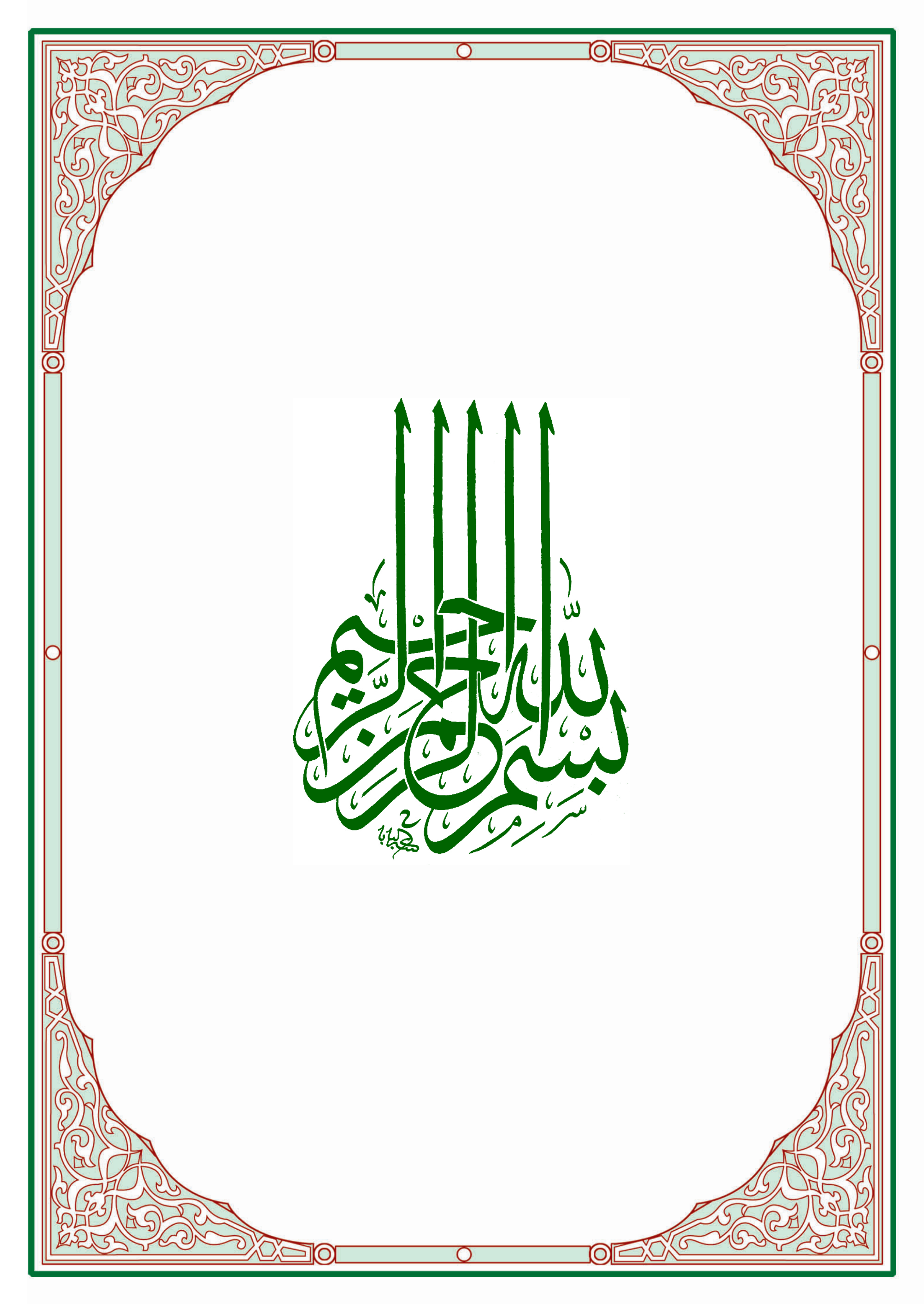
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف




بسم الله الرحمن الرحيم



التَّودُّد



التَّودُّد

معنى التَّودُّد لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّودُّد لغةً:**

التَّودُّد من الوُدِّ، والوُدُّ: مصدر المَوَدَّة: الوُدُّ: الحُبُّ يكون في جميع مداخل الخير، والتواد التحاب.

وتودَّدَ إليه: تَحَبَّبَ. وتَوَدَّدَه: اجْتَلَبَ وُدَّه[1].

- **معنى التَّودُّد اصطلاحًا:**

التَّودُّد هو: (طلب مَوَدَّة الأكفاء بما يوجب ذلك)[2].

وقال ابن حجر: (هو تقرُّب شخصٍ من آخر بما يحب)[3].

وقال ابن أبي جمرة: (التَّوَادُد: التَّواصل الجالب للمحبَّة)[4].

الفرق بين التَّوَاد والتَّعاطف والتَّراحم:

قال ابن أبي جمرة: (الذي يظهر أنَّ التَّراحم والتَّوادُد والتَّعاطف، وإن كانت متقاربة في المعنى، لكن بينها فرق لطيف، فأمَّا التَّراحم، فالمراد به: أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان، لا بسبب شيء آخر.

وأما التَّوادُد، فالمراد به: التَّواصل الجالب للمحبَّة، كالتَّزاور والتَّهادي.

وأما التَّعاطف، فالمراد به: إعانة بعضهم بعضًا، كما يعطف الثَّوب عليه ليقوِّيه)[5].

(١) ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣٦٩/٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٥٣/٣).

(٢) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ٧١)، ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) للسيوطي (ص ٢٠٨).

(٣) ((فتح الباري)) (٤٣٩/١٠).

(٤) ((المصدر السابق)).

(٥) ((المصدر السابق)).

الفرق بين الحبِّ والوُدِّ:

الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحِكْمَة جميعًا، والوُدُّ ميل الطِّباع فقط؛ ألا ترى أنَّك تقول: أحبُّ فلانًا وأودُّه، وتقول: أحبُّ الصَّلاة، ولا تقول: أودُّ الصَّلاة. وتقول: أودُّ أنَّ ذاك كان لي، إذا تمنيت وِدَادَه(١).

التَّرغيب في التَّودُّد:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

قيل لابن عقيل: أسمع وصية الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، وأسمع النَّاس يعدُّون من يُظهر خلاف ما يبطن منافقًا، فكيف لي بطاعة الله تعالى، والتَّخلُّص من النِّفاق؟ فقال: النِّفاق هو: إظهار الجميل وإبطان القبيح، وإضمار الشَّر مع إظهار الخير لإيقاع الشَّر. والذي تضمنته الآية: إظهار الحسن في مقابلة القبيح لاستدعاء الحسن(٢).

- وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: المرأة هي من الرَّجل، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: تستأنسوا بها، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

(١) ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص ١٢٢).
(٢) ((غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب)) للسفاريني (١/٢٠٨-٢٠٩).

﴿وَرَحۡمَةً﴾ محبَّة، ﴿وَرَحۡمَةً﴾ يعني: الولد[1].

وقال الطبري: وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾ يقول: جعل بينكم بالمصاهرة والخُتُونة، مَوَدَّة تتوادُّون بها، وتتواصلون من أجلها، ﴿وَرَحۡمَةً﴾ رحمكم بها، فعطف بعضكم بذلك على بعض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

عن مجاهد، في قوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾، قال: (يحبُّهم ويحبِّبُهم إلى المؤمنين)[3].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أخبركم بمن يحرم على النَّار، وبمن تحرم النَّار عليه؟ على كلِّ هيِّن ليِّن قريب سهل))[4].

---

(١) ((تفسير القرآن العزيز)) لابن أبي زمنين (٣/٣٥٩).

(٢) ((جامع البيان)) للطبري (٢٠/٨٦).

(٣) ((تفسير مجاهد)) (ص ٤٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٨٨)، وأبو يعلى (٨/٤٦٧) (٥٠٥٣)، وابن حبان (٢/٢١٦) (٤٧٠)، والطبراني (١٠/٢٣١) (١٠٥٦٢) واللفظ له. قال الترمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٦/٤٨٠): حسن غريب. وقال ابن عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/٥٢١): محفوظ من حديث موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو، تفرد به هشام بن عروة عنه، وجوَّد إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٢٦)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٣/٢٨٥)، وقال: وله شاهد. وقال محمد المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (٤/٣٤٣): رجاله رجال مسلم، إلا عبد الله بن عمرو الأودي فإنه لم يرو له إلا الترمذي، ولم أر من تكلم فيه بجرح. وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٨).

قال القاري: (... ((قريب)) أي: من النَّاس بمجالستهم في محافل الطَّاعة، وملاطفتهم قدر الطَّاعة. ((سهل)) أي: في قضاء حوائجهم، أو معناه: أنه سمح القضاء، سمح الاقتضاء، سمح البيع، سمح الشِّراء)[١].

وقال الصديقي: (... ((تحرم على كلِّ قريب)) أي: من النَّاس بحسن ملاطفته لهم، ((هيِّن ليِّن)) قال في ((النِّهاية)): ((المسلمون هَيْنُونَ لَيْنُون))، وهما بالتَّخفيف، قال ابن الأعرابي: العرب تمدح بِالْهَيْنِ اللَّيْن، مخفَّفيْن، وتذم بهما مُثَقَّلَيْن، وهيِّن: أي بالتَّشديد، فيعل من الهون، وهو السَّكينة والوقار والسُّهولة، فعَيْنُه (واو)، وشيءٌ هَيْنٌ وهَيِّنٌ، أي: سَهْلٌ. ((سهل)). أي: يقضي حوائجهم ويسهل أمورهم)[٢].

- وعن النُّعمان بن بَشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى))[٣].

ففي هذا الحديث: تعظيم حقوق المسلمين، والحضُّ على تعاونهم، وملاطفة بعضهم بعضًا[٤].

- وعن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال: ((جاء رجل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنِّي أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: لا. ثم أتاه الثَّانية فنهاه، ثم أتاه الثَّالثة، فقال: تزوَّجوا الوَدُود

(١) ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣١٧٩/٨).

(٢) ((دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين)) للصديقي (٩٨/٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

(٤) ((تطريز رياض الصالحين)) للحريملي (ص ١٧٤).

الولود؛ فإنِّي مكاثر بكم الأمم))[١].

الوَلُود: كثيرة الولد، والوَدُود: المؤْدُودَة، لما هي عليه من حسن الخلق، والتَّوَدُّد إلى الزَّوج[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله! إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأَحْلُم عنهم ويجهلون علي، فقال: لئن كنت كما قلت، فكأنَّما تُسِفُّهم الملَّ[٣]، ولا يزال معك من الله ظهير[٤] عليهم ما دمت على ذلك))[٥].

فأيَّده النَّبي صلى الله عليه وسلم على تودُّدِه إليهم، وإن لم يجد منهم مقابلًا لما يقوم به، إلَّا الإساءة إليه.

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ((أنَّ رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله. وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقيل له: أصلحك الله! إنَّهم الأعراب، وإنَّهم يرضون باليسير. فقال عبد الله: إنَّ أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطَّاب، وإنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنَّ أَبَرَّ البِرِّ: صِلَة الولد أهل وُدِّ أبيه))[٦].

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/٦٥)، وابن حبان (٩/٣٦٣) (٤٠٥٦)، والطبراني (٢٠/٢١٩) (٥٠٨)، والحاكم (٢/١٧٦)، والبيهقي (٧/٨١) (١٣٨٥٧). قال أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/٧٢): غريب من حديث منصور، تفرد به المستلم بن سعيد. وصحح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٥٣)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥٠): حسن صحيح. وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١١٤٣).

(٢) ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/١٠٤-١٠٥).

(٣) تطعمهم الرماد الحار ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/١١٥).

(٤) المعين والدافع لأذاهم ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/١١٥).

(٥) رواه مسلم (٢٥٥٨).

(٦) رواه مسلم (٢٥٥٢).

قال النَّووي: (... ((إنَّ أبا هذا كان وُدًّا لعمر)). قال القاضي: رويناه بضم الواو وكسرها، أي: صديقًا من أهل مَوَدَّته، وهي محبَّته. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أبرَّ البِرِّ: صِلَة الولد أهل وُدِّ أبيه))[١]، وفي رواية: ((إنَّ من أبرِّ البِرِّ صِلَة الرَّجل أهل وُدِّ أبيه بعد أنْ يُوَلِّيَ))، الوُدُّ هنا مضموم الواو، وفي هذا فضل صِلَة أصدقاء الأب، والإحسان إليهم وإكرامهم، وهو متضمِّن لِبرِّ الأب وإكرامه؛ لكونه بسببه. وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ، والزَّوج والزَّوجة)[٢].

أقوال السَّلف والعلماء في التَّودُّد:

- قال الحسن: (التَّقدير نصف الكسب، والتَّودُّد نصف العقل، وحسن طلب الحاجة نصف العلم)[٣].

- وسئل الحسن عن حسن الخلق، فقال: (الكرم، والبذلة، والتَّودُّد إلى النَّاس)[٤].

- وعن ميمون بن مهران قال: (المروءة: طلاقة الوجه، والتَّودُّد إلى النَّاس، وقضاء الحوائج)[٥].

- وقال أبو حاتم: (الواجب على العاقل أنْ يتحبَّب إلى النَّاس بلزوم حسن الخلق، وترك سوءِ الخلق؛ لأنَّ الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشَّمس الجليد، وإن الخلق السَّيئ ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل، وقد تكون في

(١) رواه مسلم (٢٥٥٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٢) ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/١٠٩-١١٠).
(٣) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (٢/٦٥).
(٤) ((الموشى)) للوشاء (ص ٢٨).
(٥) ((المروءة)) لابن الزربان (ص ٧٠).

الرَّجل أخلاق كثيرة صالحة كلُّها، وخلق سيئ، فيفسد الخلق السَّيئ الأخلاق الصَّالحة كلَّها)[١].

فوائد التَّودُّد إلى النَّاس:

١- التَّودُّد طريق موصل للحبِّ والألفة، مما يقوي روابط التَّقارب بين الأفراد، ويزيد اللُّحمة بينهم.

٢- التَّودُّد وتقوية العلاقات بين النَّاس، أساس لبناء مجتمع قوي مبني على الولاء، والتَّناصر والتَّعاضد والتَّعاون.

٣- التَّودُّد يعكس الجمال الرُّوحي، والجانب الأخلاقي الفاضل الذي جاء الإسلام لتكميله وتعزيزه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق))[٢].

٤- التَّودُّد للنَّاس، وكسب محبتهم وثقتهم مدعاة لتقبل ما يطرح عليهم من أفكار أو ما يُدعون إليه بجهد أقل وبسهولة ويسر، ففرق بين التَّقبل من البشوش اللَّين المحبوب، ومن القاسي العابس الممقوت.

٥- التَّودُّد والتَّحبُّب إلى الخلق وسيلة لكسب قلوبهم، وكسب القلوب مدعاة للثَّناء وحسن الذِّكر.

٦- من فوائد التَّودُّد التَّراحم بين المسلمين، والتَّراحم موجب لرحمة الله

(١) ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦٤).

(٢) رواه أحمد (٢/٣٨١) (٨٩٣٩) بلفظ: ((صالح)) بدلا من ((مكارم))، والحاكم (٢/٦٧٠)، والبيهقي (١٠/١٩١) (٢٠٥٧١) واللفظ له. قال ابن رجب في ((لطائف المعارف)) (٣٠٥): ذكره مالك في الموطأ بلاغا. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩/١٨): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق الله الكلوذاني وهو ثقة. وصححه الزرقاني في ((مختصر المقاصد)) (١٨٤)، وجود إسناده ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢/٢١٥).

سبحانه وتعالى لمن اتَّصف بهذه الصِّفة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن))(١).

٧- التَّودُّد سبيل إلى زوال الخصومات والأحقاد، ويؤدِّي إلى تصفية القلوب، ونقائها من هذه الأدران النَّفسية، من الحسد والكره والتَّباغض.

أنواع التَّودُّد إلى النَّاس:

التودد نوعان:

١- تودد محمود: وهو ما كان ناشئًا من محبة معتدلة لأهل الخير والصلاح.

٢- تودد مذموم: وهو التودد إلى الكفار والظالمين وفسقة الناس.

موانع اكتساب التَّودُّد إلى النَّاس:

١- الكبر والخيلاء فهما من الصِّفات المنافية للتَّودُّد.

٢- العبوس في وجوه النَّاس، فهو مانع لكسب وُدِّهم.

٣- الغلظة في الكلام، وفظاظة العبارات، وفحش الألفاظ.

٤- الشُّحُّ والبخل، مدعاة لمقت صاحبها، وتتنافى مع التَّودُّد للخَلْق.

٥- غلظة الطَّبع، والشِّدة في التَّعامل.

٦- الجفاء وترك التَّواصل بين النَّاس مع بعضهم، فهو سبب يحول دون

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، والبيهقي (٤١/٩) (١٧٦٨٣)، وأحمد (١٦٠/٢) (٦٤٩٤)، والحاكم (١٧٥/٤)، والبيهقي (٤١/٩) (١٨٣٦٢)، قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الذهبي في ((العلو)) (١٩): تفرد به سفيان. وصححه العراقي في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، وحسنه ابن حجر في ((الإمتاع)) (٦٢/١)، والسخاوي في ((البلدانيات)) (٤٧)، وقال: بل صححه غير واحد. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (١٥٢/٤): ثابت. وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١).

استدامة الوُدِّ، وازدياده في القلوب.

٧- الخصومات والنزاعات، وكثرة الخلاف.

وسائل معينة على التَّودُّد إلى النَّاس:

وسائل التَّودُّد إلى الخلق كثيرة جدًّا، وتختلف باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال، ولكن نعدد بعضًا من أهم هذه الوسائل، فمنها:

١- حسن الخلق مع البشْر فهو مفتاح قلوبهم، والباعث على مَوَدَّة صاحبه، وممهد له في قلوب النَّاس مكانًا.

قال أبو حاتم: (حسن الخلق بَذْر اكتساب المحبَّة، كما أنَّ سوء الخلق بَذْر استجلاب البغْضَة. ومن حَسُن خلقه صان عرضه، ومن ساء خلقه هتك عرضه؛ لأنَّ سوء الخلق يورث الضَّغائن، والضَّغائن إذا تمكَّنت في القلوب أورثت العداوة، والعداوة إذا ظهرت من غير صاحب الدِّين، أهوت صاحبها إلى النَّار، إلا أن يتداركه المولى بتفضُّلٍ منه وعفو)[1].

٢- التَّغافل عن الزلَّات، وعدم التَّوقف عند كلِّ خطأ أو كبوة يقع فيها الرَّفيق.

قال بعض الحكماء: (وجدت أكثر أمور الدُّنيا لا تجوز إلا بالتَّغافل)[2].

٣- البشَاشَة وطلاقة الوجه، والتَّبسُّم في وجوه النَّاس، مما يقذف الوُدَّ في قلوب البَشَر لصاحبها.

٤- الرِّفق ولين الجانب، والأخذ باليُسر والسُّهولة في معاملة النَّاس.

٥- التَّواضع، وخفض الجناح، وعدم التَّعالي والتَّكبر عليهم.

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ٦٥).
(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٨٠).

قال أبو حاتم: (ولكن من أسباب المؤاخاة التي يجب على المرء لزومها: مشي القصد، وخفض الصوت، وقلَّة الإعجاب، ولزوم التَّواضع، وترك الخلاف)[١].

٦- عدم إكثار المؤونات والتَّثقيل عليهم، فالبَشَر مجبولون على كراهية من يكلِّفهم المؤونة، ويشق أو يثقل عليهم.

قال أبو حاتم: (ولا يجب للمرء أن يكثر على إخوانه المؤونات، فيبرمهم؛ لأنَّ المرضع إذا كثر مصُّه، ربَّما ضجرت أمه فتلقيه)[٢].

وقال أكثم بن صيفي: (تباعدوا في الدِّيار، تقاربوا في الموَدَّة)[٣].

٧- تفريج كرب الإخوان، والوقوف إلى جانبهم في الملمَّات والأحزان، ومواساتهم والإحسان لهم.

فعن سليمان مولى عبد الصَّمد بن علي: أنَّ المنصور -أمير المؤمنين- قال لابنه المهدي: (اعلم أنَّ رضاء النَّاس غاية لا تُدرك، فتحبَّبْ إليهم بالإحسان جهدك، وتودَّد إليهم بالإفضال، واقصد بإفضالك موضع الحاجة منهم)[٤].

٨- الزِّيارة والتَّواصل، والسُّؤال عن الإخوان، وتجنُّب الجفاء بين المتودِّد وبين من يطلب وُدَّه.

قال أديب: (المَوَدَّة روح، والزِّيارة شخصها)[٥].

وقال أبو حاتم: (العاقل يتفقَّد ترك الجفاء مع الإخوان، ويراعي محوها إن

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ٨٨).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (٢/٤٦).

(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢٣٥).

(٥) ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (٣/٥٧).

بدت منه، ولا يجب أن يستضعف الجفوة اليسيرة؛ لأنَّ من استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرًا، فإذا الصغير كبير، بل يبلغ مجهوده في محوها؛ لأنه لا خير في الصِّدق إلا مع الوفاء، كما لا خير في الفقه إلا مع الورع، وإنَّ من أخرق الخرق التماس المرء الإخوان بغير وفاء، وطلب الأجر بالرياء، ولا شيء أضيع من مَوَدَّة تُمنح من لا وفاء له)[١].

٩- عدم مقابلة الإساءة منهم بالمثْل، بل من أراد التَّودُّد للبَشَر فليعف وليصفح، وليقابل الإساءة بنقيضها.

قال السلمي: (وقابل القطيعة بالصِلَة، والإساءة بالإحسان، والظلم بالصَّبر والغفران)[٢]، فعن عقبة بن عامر قال: ((لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: يا عقبة بن عامر! صِل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك))[٣].

١٠- إدخال السُّرور في قلوب النَّاس، والانبساط معهم والمزاح.

قال الماوردي: (العاقل يتوخَّى بمزاحه أحد حالين، لا ثالث لهما: أحدهما: إيناس المصاحبين، والتَّودُّد إلى المخالطين، كما قال حكيم لابنه: يا بني اقتصد

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٨٩).

(٢) ((وصية الشيخ السلمي)) (ص ٤٩).

(٣) رواه أحمد (٤/١٥٨) (١٧٤٨٨)، والطبراني (١٧/٢٦٩) (٧٣٩)، والحاكم (٤/١٧٨) والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٢٢٢) (٧٩٥٩). قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٣١٠): رواة أحد إسنادي أحمد ثقات. وجود إسناده الدمياطي في ((المتجر الرابح)) (٢٥٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٩١): أحد إسنادي أحمد رجاله ثقات. وصحح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/٨٥٩)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/١٥٨).

في مزاحك؛ فإنَّ الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرِّئ السُّفهاء، والتَّقصير فيه نقص بالمؤانسين، وتوحش بالمخاطبين. والثَّاني: أن ينفي من المزاح ما طرأ عليه، وحدث به من هم)[1].

١١- أن يوقر المشايخ ويرحم الصِّبيان، وفي الحديث قال النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا، ويوقِّر كبيرنا))[2].

١٢- أن يبدأ من يلقى بالسَّلام قبل الكلام.

قال صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَلَا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: أفشوا السَّلام بينكم))[3].

١٣- الكلمة الطَّيبة، فهي تقود القلوب إلى محبَّة صاحبها.

فقد قال بعضهم ناصحًا: (ولا تمتنع أن تتكلم بما يطيِّب قلوب العامَّة؛ فإنَّ النَّاس ينقادون للكلام أكثر من انقيادهم بالبطش)[4].

---

(١) ((بريقة محمودية)) لأبي سعيد الخادمي (١٦/٤).

(٢) رواه بألفاظ متقاربة أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠)، وأحمد (٢/٢٠٧) (٦٩٣٧) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال الترمذي والنووي في ((الترخيص بالقيام)) (٥٧): حسن صحيح، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/١٤٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤٣)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٧٨٨).
ورواه البزار (٧/١٥٧) (٢٧١٨)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/٣٦٥) (١٣٢٨)، والحاكم (١/٢١١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
حسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/٩٠)، وابن كثير في ((جامع المسانيد والسنن)) (٥٨٦٥)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٧)، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٤٤٣).

(٣) رواه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (١/٥١).

١٤- الهديَّة، وهي وسيلة ذات أثر كبير على القلوب، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تهادوا تحابوا))[1].

نماذج في صفة التَّوَدُّد:

- **نماذج من حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم:**

كان هذا الخُلَق واقعًا ملموسًا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يتوَدَّد إلى أصحابه، ومن هم حوله، فمن ذلك:

- ما روته عائشة رضي الله عنها، من أنَّ رجلًا استأذن على النَّبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: ((بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة. فلما جلس تطلَّق النَّبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرَّجل. قالت له عائشة: يا رسول الله! حين رأيت الرَّجل، قلت له كذا وكذا، ثم تطلَّقت في وجهه، وانبسطت إليه. فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة، متى عهدتني فحاشًا؟ إنَّ شر النَّاس عند الله منزلة يوم القيامة، من تركه النَّاس اتقاء شرِّه))[2].

قال ابن الجوزي: (هذا إنَّما فعله رسول الله على وجه المداراة، فسَنَّ ذلك لأمَّته، فيجوز أن يُستعمل مثل هذا في حق الشِّرِّير والظَّالم)[3].

وقال ابن بطال: (المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للنَّاس،

---

(١) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٥٩٤)، وأبو يعلى (٩/١١) (٦١٤٨)، والبيهقي (١٦٩/٦) (١٢٢٩٧).

جود إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥٣/٢)، وحسن إسناده ابن حجر في ((التلخيص الحبير)) (١٠٤٧/٣)، وحسن الحديث الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٤٦٢).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٣) ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) (٣٤٨/٤).

ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة وسلِّ السَّخيمة)[١].

- ومن ذلك تودُّده صلى الله عليه وسلم لمن حوله، بتبسُّمه في وجوه أصحابه، ودعائه لهم، فعن جرير رضي الله عنه، قال: ((ما حجبني النَّبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي، ولقد شكوت إليه أنِّي لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري، وقال: اللهمَّ ثبِّته، واجعله هاديًا مهديًّا))[٢].

- ومِنْ تودُّده صلى الله عليه وسلم أنَّه ((كان يمرُّ بالصِّبيان فيسلم عليهم))[٣].

- وكان ((إذا لقيه أحد من أصحابه، قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرَّجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده، ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرَّجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه، ناوله إياها ثم لم ينزعها حتى يكون الرَّجل هو الذي ينزعها عنه))[٤].

- ومِنْ تودُّده صلى الله عليه وسلم لأصحابه أنَّه: ((كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم))[٥].

---

(١) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٣٠٥).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٥، ٣٠٣٦)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٣) رواه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

(٤) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (١/٣٧٨)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣/٣٦٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٧٨٠).

(٥) رواه الحاكم (٢/٥٠٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٤) (٩٢٤٦). وصحح إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/٤٩٥).

• نماذج من حياة الصَّحابة رضي الله عنهم:

- عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: ((كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه. فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو الدَّرداء: ونحن عنده، وفي رواية: أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: أما صاحبكم فقد غامر. فسلَّم وقال: يا رسول الله! إنِّي كان بيني وبين ابن الخطَّاب شيء، فأسرعت إليه ثمَّ ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى علي، فأقبلت إليك. فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثًا)، ثمَّ إنَّ عمر ندم على ما كان منه، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثمَّ أبا بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم، فجعل وجه النَّبي صلى الله عليه وسلم يتمعَّر؛ حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، وقال: يا رسول الله! والله أنا كنت أظلم (مرتين). فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ (مرتين)، فما أوذي بعدها))[1].

ففي الحديث، السعي إلى استجلاب الوُدِّ من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلبه لإزالة الشَّحناء من قلب عمر تجاهه، رضوان الله عليهم أجمعين.

- أيضًا كان الصَّحابة رضي الله عنهم، حريصين على أن يتَّصفوا بهذه الصِّفة، فهذا أبو هريرة رضي الله عنه يأتي النَّبي صلى الله عليه وسلم ليدعو له أن يحبِّبَه هو وأمَّه إلى المؤمنين، ويحبِّب المؤمنين إليهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: ((يا رسول الله! ادع الله أن يحبِّبني أنا وأمِّي إلى عباده المؤمنين،

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٠).

ويحبِّبهم إلينا. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهمَّ حبِّب عُبَيدك هذا -يعني أبا هريرة- وأمَّه إلى عبادك المؤمنين، وحبِّب إليهم المؤمنين. فما خُلِقَ مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبَّني))[١].

- **نماذج من العلماء والسَّلف:**

ابن قيِّم الجوزيَّة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر:

قال ابن كثير في ترجمته: (وكان حَسن القراءة والخُلُق، كثير التَّوَدُّد، لا يحسد أحدًا، ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد)[٢].

ابن مالك، إمام العربية، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله الطَّائي الجياني:

قيل في ترجمته: (وتقدَّم وساد في علم النَّحو والقراءات، ورَبَا على كثير ممَّن تقدَّمه في هذا الشَّأن، مع الدِّين والصِّدق، وحسن السَّمت، وكثرة النَّوافل، وكمال العقل والوقار، والتَّوَدُّد، وانتفع به الطلبة)[٣].

القاضي علاء الدين أبو الحسن علي التَّنوخي الدمشقي الحنبلي:

قيل في ترجمته: (كان رجلًا وافر العقل، حَسن الخلق، كثير التَّوَدُّد)[٤].

القاضي محمد بن إبراهيم بن إسحاق السلمي المناوي، ثم القاهري[٥]:

قيل في ترجمته: (كان كثير التَّودُّد إلى النَّاس، مُعَظَّمًا عند الخاص والعام، ومُحَبَّبًا إليهم).

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩١).
(٢) ((البداية والنهاية)) (١٤/٢٧٠).
(٣) ((مرآة الجنان وعبرة اليقظان)) لليافعي (٤/١٣١).
(٤) ((العبر في خبر من غبر)) للذهبي (٤/١٥٥).
(٥) (((إنباء الغمر بأبناء العمر)) لابن حجر (٢/١٨١).

الفقيه الحنبلي المقرئ المحدِّث، أمين الدِّين أبو عبد الله محمَّد البعلي:

قال البرزالي عنه: (كان شيخًا جليلًا، حَسن الوجه، بَهي المنظر، له سمت حسن، وعليه سكينة، ولديه فضل كثير، فصيح العبارة، حَسِن الكلام، له قبول من النَّاس، وهو كثير التَّوَدُّد إليهم، قاض للحقوق)[١].

شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر، المعروف بابن المهيني:

جاء في ترجمته: (كان بشوش الوجه، حَسن الشكل، كثير التَّوَدُّد للنَّاس)[٢].

الشيخ الفرضي المحدِّث، عماد الدين أبو عبد الله الدمياطي:

جاء في ترجمته: (كان حلو المحادثة، كثير التَّوَدُّد، غزير المحاسن)[٣].

أقوالٌ وأمثالٌ في التَّودُّد:

- قيل لعبد الملك بن مروان: (ما أفدت في ملكك هذا؟ قال: مَوَدَّة الرِّجال)[٤].
- وقال بعض الحكماء: (من علامة الإقبال اصطناع الرِّجال)[٥].
- وقال بعض البلغاء: (من استصلح عدوه، زاد في عدده، ومن استفسد صديقه، نقص من عدده)[٦].
- وروي عن لُقْمان أنَّه قال لابنه: (يا بنيَّ تَوَدَّدْ إلى النَّاس، فإنَّ التَّوَدُّد إليهم أمنٌ، ومعاداتهم خوفٌ)[٧].

---

(١) ((شذرات الذهب)) لابن العماد (٨/٧-٨).
(٢) ((المصدر السابق)) (٨/٣٠٦).
(٣) ((أعيان العصر وأعوان النصر)) للصفدي (٤/٦٦٠).
(٤) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٨١).
(٥) ((المصدر السابق)).
(٦) ((المصدر السابق)).
(٧) ((نثر الدر في المحاضرات)) للآبي (٧/١١).

- وقال المنصور: (إذا أحببت المحمدة من النَّاس بلا مؤونة، فالْقَهم بِبِشْر حَسَن)[١].
- وقال بعض الظُّرفاء عن الظُّرف: (التَّوَدُّد إلى الإخوان، وكفُّ الأذى عن الجيران)[٢].
- وقال أبو شروان لوزيره بزرجمهر: (ما الشيء الذي يعز به السُّلطان؟ قال الطَّاعة، قال: فما سبب الطَّاعة، قال التَّوَدُّد إلى الخاصَّة والعامَّة)[٣].
- ويقال: (الأناة حُسْنٌ، والتَّودُّد يُمْنٌ)[٤].
- وقيل: (استدم مَوَدَّة أخيك بترك الخلاف عليه، ما لم تكن عليه منقصة أو غضاضة)[٥].
- وقيل: (بإحياء الملاطفة، تستمال القلوب العارفة)[٦].
- وقال الحسن بن وهب: (من حقوق المَوَدَّة، أخذ عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصيرٍ إن كان)[٧].
- وقالت الحكماء: (دواء المَوَدَّة كثرة التَّعاهد)[٨].
- ولبعض الحكماء من السَّلف: (عاشروا النَّاس، فإن عشتم حنُّوا

(١) ((الموشى = الظرف والظرفاء)) للوشاء (ص ٢٩).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٥٢).
(٣) ((مفيد العلوم ومبيد الهموم)) للخوارزمي (٤١٦، ٤١٧).
(٤) ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (١/٦٨).
(٥) ((روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار)) للأماسي (ص ٢٦٣).
(٦) ((المصدر السابق)).
(٧) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٧٤).
(٨) ((المصدر السابق)) (ص٣٤٠).

إليكم، وإن متم بكوا عليكم)[١].

- وقال بعض الحكماء: (من جاد لك بمودَّته، فقد جعلك عديل نفسه)[٢].
- ومن كلام العرب: (خطب وُدَّ فلان)، أي: أرضاه، تودَّد إليه، طلب صداقته[٣].
- ومن كلام العرب (تغازل الصَّديقان): أي: تودَّد كلٌّ منهما إلى الآخر في محادثته[٤].

التَّوَدُّد في واحة الشِّعر:

أنشد البغدادي:

خالِقِ النَّاسَ بخلقٍ حسن ... لا تكنْ كلبًا على النَّاس يَهِر[٥]

والْقَهُمْ منك ببِشْر ثمَّ صنْ ... عنهم عرضَك عن كلِّ قَذِر[٦]

وأنشد محمَّد بن إبراهيم اليعمري:

حافظْ على الخلقِ الجميلِ ومرْ به ... ما بالجميلِ وبالقبيحِ خفاءُ

إن ضاق مالُك عن صديقِك فالقَه ... بالبِشْرِ منك إذا يحين لقاءُ[٧]

وأنشد علي بن محمَّد البسامي:

أعاشرُ معشري في كلِّ أمرٍ ... بأحسنِ ما أريتُ وما رأيتُ

(١) ((آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة)) لأبي البركات الغزي (ص ٣٢).
(٢) ((غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة)) لحازم خنفر (ص ٣٦).
(٣) ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار (١/٦٥٩).
(٤) ((المصدر السابق)) (١/١٦١٦).
(٥) ينبح ويكشر عن أنيابه ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/٢٦١).
(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦٤).
(٧) ((المصدر السابق)).

وأجتنبُ المقابحَ حيث كانت ... وأتركُ ما هويتُ وما فريتُ[1]

وقال ابن الرُّومي:

فكثِّرْ مِن الإخوانِ ما [اسطعتَ] إنَّهُمُ ... بطونٌ إذا استنجدتهم وظهورُ

وليس كثيرًا ألفُ خلٍّ وصاحبٍ ... وإنَّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ[2]

وقال أبو العتاهية:

إنَّ في صحةِ الإخاءِ من النَّا ... سِ وفي خلةِ الوفاءِ لقلَّه

فالبس النَّاسَ ما استطعتَ على النَّقـ ... ـصِ وإلَّا لم تستقمْ لك خلَّه

عِشْ وحيدًا إن كنتَ لا تقبلُ العذ ... رَ وإن كنتَ لا تجاوزُ زلَّه

من أب واحد وأم خلقنا ... غير أنا في المال أولاد علَّه[3]

وأنشد أبو علي العنزي:

القَ بالبِشْر من لقيتَ من النَّا ... س جميعًا، ولاقِهم بالطلاقهْ

تجنِ منهم به جنيَ ثمارٍ ... طيِّب طعمُه، لذيذ المذاقهْ

ودعِ التِّيه والعُبُوس عن النَّا ... س فإنَّ العُبُوس رأسُ الحماقهْ

كلَّما شئتَ أن تعادي عاديـ ... ـت صديقًا، وقد تَعِزُّ الصَّداقهْ[4]

وقال الشَّاعر:

فإذا القرابةُ لا تقرِّب قاطعًا ... وإذا المَوَدَّةُ أقربُ الأنسابِ[5]

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦٦).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٨١).

(٣) ((المصدر السابق)) (ص ١٨٠).

(٤) ((الموشى)) للوشاء (ص ٢٩).

(٥) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١٠٣/٣).

وقال الخوارزمي في كتابه ((مفيد العلوم)): وإن جفاك إخوانك وكفروا نعمتك، وأنكروا صنعك، ورأيت ممَّن أحسنت له سيِّئة، أو مرضت فلم يعدك، أو قدمت فلم يزرك، أو تشفَّعت فلم يقبلوا، فلا تغتمَّ، وتسَلَّ بهذه الأبيات التي لأبي بكر الصديق رضي الله عنه:

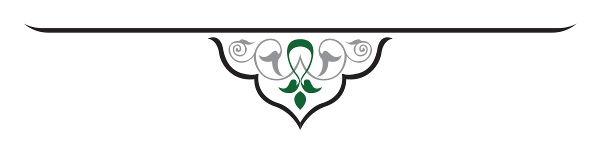
تغيَّرتِ الأحبةُ والإخاءُ ... وقلَّ الصِّدقُ وانقطع الرَّجاءُ
وأسلمني الزَّمانُ إلى صديقٍ ... كثيرِ الغدرِ ليس له وفاءُ
يديمون المودَّةَ ما رأوني ... ويبقوا الوُدَّ ما بقي اللِّقاءُ
وكلُّ مَوَدَّةٍ للهِ تصفو ... ولا يصفو على الخلقِ الإخاءُ
وكلُّ جراحةٍ فلها دواءٌ ... وخُلُقُ السُّوءِ ليس له دواءُ[1]



(١) ((مفيد العلوم ومبيد الهموم)) للخوارزمي (٢٦٩-٢٧٠).



الجُود، والكَرَم، والسَّخاء، والبَذْل



الجُود، والكَرَم، والسَّخاء، والبَذْل

معنى الجُود، والكَرَم، والسَّخاء، والبَذل، لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الجُود لغةً واصطلاحًا:**

معنى الجُود لغةً:

الجُود: المطر الغزير، وجاد الرَّجل بماله يجُود جُودًا بالضَّم، فهو جَوَادٌ[١]. وقيل: الجَوَاد: هو الذي يعطي بلا مسألة؛ صيانة للآخذ مِن ذلِّ السُّؤال[٢]. ويُفَسَّر الجُود أيضًا بالسَّخاء[٣].

معنى الجُود اصطلاحًا:

قال الجرجاني: (الجُود: صفة، هي مبدأ إفادة ما ينبغي لا بعوض)[٤].

(وقال الكِرْماني: الجُود: إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي)[٥].

وقيل هو: (صفةٌ تحمل صاحبها على بذل ما ينبغي مِن الخير لغير عوض)[٦].

- **معنى الكَرَم لغةً واصطلاحًا:**

معنى الكَرَم لغةً:

الكَرَم: ضدُّ اللُّؤْم، كرُم كرامة وكَرَمًا وكَرَمة، فهو كريم وكريمة، وكرماء وكرام

---

(١) ((الصحاح في اللغة)) للجوهري (٢/٤٦١)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١٤٨٩)، ((المعجم الوسيط)) (٢/٧٨٤).
(٢) ((تاج العروس)) للزبيدي (٧/٥٢٧).
(٣) ((المصدر السابق)) (٧/٥٣١).
(٤) ((التعريفات)) (ص ٧٩).
(٥) ((تاج العروس)) للزبيدي (٧/٥٢٧).
(٦) ((المعجم الوسيط)) (ص ١٤٦).

وكرائم، وكرم فلان: أعطى بسهولة وجاد، وكرم الشيء عزَّ ونفس[١].

معنى الكَرَم اصطلاحًا:

قال الجرجاني: (الكَرَم: هو الإعطاء بسهولة)[٢].

وقال المناويُّ: (الكرم: إفادة ما ينبغي لا لغرض)[٣].

وقال القاضي عياض: (وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة، ومعانيها متقاربة، وقد فرق بعضهم بينها بفروق، فجعلوا الكرم: الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم خطره ونفعه، وسموه أيضا جرأة، وهو ضد النذالة)[٤].

• معنى السَّخاء لغةً واصطلاحًا:

معنى السَّخاء لغةً:

السَّخاوة والسَّخاء: الجُود، والكرم. والسَّخي: الجَوَاد، وفي الفعل ثلاث لغات سخا من باب علا، وسخي من باب تعب، وسَخُو من باب قرُب[٥].

معنى السَّخاء اصطلاحًا:

قال المناويُّ: (السَّخاء: الجُود، أو إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، أو بذل التَّأمُّل قبل إلحاف السَّائل)[٦].

وقال الرَّاغب: (السَّخاء: هيئة للإنسان داعية إلى بذل المقتنيات، حصل

---

(١) ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (٢/٧٩٨).
(٢) ((التعريفات)) (ص ١٨٤).
(٣) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص ٢٨١).
(٤) ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (١/٢٣٠).
(٥) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/٣٧٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/٢٧٠).
(٦) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص ١٩٢).

معه البَذْل أو لم يحصل، وذلك خُلُق)[١].

وقال القاضي عياض: (السَّخاء: سهولة الإنفاق، وتجنُّب اكتساب ما لا يُحْمَد)[٢].

- **معنى البَذْل لغةً واصطلاحًا:**

معنى البَذْل لغةً:

بَذَلَ الشَّيء: أعطاه وجاد به. والبَذْل نقيض المنع، وكلُّ مَن طابت نفسه لشيءٍ فهو باذلٌ. ورجلٌ بذَّال، وبَذُول: إذا كَثُر بذله للمال. يقال: بَذَلَ له شيئًا، أي: أعطاه إيَّاه[٣].

معنى البَذْل اصطلاحًا:

قال المناويُّ: (البَذْل: الإعطاء عن طيب نفس)[٤].

الفرق بين صفة الجُود وبعض الصِّفات:

- **الفرق بين الجُود والسَّخاء:**

قال الرَّاغب: (السَّخاء: اسم للهيئة التي عليها الإنسان.

والجُود: اسم للفعل الصَّادر عنها.

وإن كان قد يسمَّى كلُّ واحد باسم الآخر مِن فضله)[٥].

(١) ((الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة)) (ص ٢٨٦).
(٢) ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (١/٢٣٠).
(٣) ((العين)) للخليل أحمد (٨/١٨٧)، ((تهذيب اللغة)) للهروي (١٤/٣١٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٣١)، ((معجم ديوان الأدب)) للفارابي (٢/١٣٨).
(٤) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص ٧٣).
(٥) ((الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة)) (ص ٩٧).

وقال أبو هلال العسكري: (الفرق بين السَّخاء والجُود: أنَّ السَّخاء هو أن يلين الإنسان عند السُّؤال، ويسهل مهره للطَّالب، مِن قولهم: سَخَوت النَّار أسخوها سخوًا: إذا ألينتها، وسَخَوت الأديم: ليَّنته، وأرضٌ سَخاوِيَّةٌ: ليِّنة...

والجُود كثرة العطاء مِن غير سؤال، مِن قولك: جادت السَّماء، إذا جادت بمطر غزير، والفرس: الجَوَاد الكثير الإعطاء للجري، والله تعالى جَوَاد لكثرة عطائه فيما تقتضيه الحكمة.

ويظهر مِن كلام بعضهم: التَّرادف.

وفرَّق بعضهم بينهما: بأنَّ مَن أعطى البعض وأبقى لنفسه البعض فهو صاحب سخاء.

ومَن بَذَلَ الأكثر وأبقى لنفسه شيئًا، فهو صاحب جود)[١].

- **الفرق بين الجُود والكَرَم:**

قال الكفوي: (الجُود: هو صفة ذاتيَّة للجَوَاد، ولا يستحقُّ بالاستحقاق ولا بالسُّؤال.

والكَرَم: مسبوقٌ باستحقاق السَّائل والسُّؤال منه)[٢].

وقال أبو هلال العسكري في الفرق بينهما: (أنَّ الجَوَاد هو الذي يعطي مع السُّؤال.

والكريم: الذي يعطي مِن غير سؤال.

وقيل بالعكس.

---

(١) ((معجم الفروق اللغوية)) (ص ٣٥٣).

(٢) ((الكليات)) (ص ٣٥٣).

وقيل: الجُود: إفادة ما ينبغي لا لغرض.

والكَرَم: إيثار الغير بالخير(١).

- **الفرق بين الجُود والإفضال:**

قال الكفوي: (والإفضال أعمُّ من الإنعام والجُود، وقيل: هو أخصُّ منهما؛ لأنَّ الإفضال إعطاءٌ بعوض، وهما عبارة عن مطلق الإعطاء.

والكَرَم: إن كان بمال فهو: جود. وإن كان بكفِّ ضررٍ مع القُدْرة فهو: عفو. وإن كان ببذل النَّفس فهو: شجاعة)(٢).

الترغيب في الجُود والكَرَم والسَّخاء:

أولًا: في القرآن الكريم

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذَّاريات: ٢٤-٢٦].

قال الطَّبري: (عن مجاهدٍ، قوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قال: أكرمهم إبراهيم، وأمر أهله لهم بالعجل حينئذٍ)(٣).

قال الزجَّاج: (جاء في التَّفسير أنَّه لما أتته الملائكة أكرمهم بالعجل. وقيل: أكرمهم بأنَّه خدمهم، صلوات الله عليه وعليهم)(٤).

- وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

---

(١) ((معجم الفروق اللغوية)) (١٧١-١٧٢) بتصرُّف.
(٢) ((الكليات)) (ص ٥٣).
(٣) ((جامع البيان في تفسير القرآن)) (٢١/٥٢٥).
(٤) ((مفردات القرآن وإعرابه)) (٥/٥٤).

أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال ابن كثير: (هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثَّواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأنَّ الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ)(١).

- وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

قال ابن كثير: (هذا مدحٌ منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات مِن ليلٍ أو نهارٍ، والأحوال مِن سرٍّ وجهار، حتى إنَّ النَّفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا)(٢).

وقال السَّمرقندي: (هذا حثٌّ لجميع النَّاس على الصَّدقة، يتصدَّقون في الأحوال كلِّها، وفي الأوقات كلِّها، فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)(٣).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((دينارٌ أنفقته في سبيل الله ودينارٌ أنفقته في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقت به على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك))(٤).

قال النَّوويُّ: (في هذا الحديث فوائد، منها: الابتداء في النَّفقة بالمذكور على

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) (٦٩١/١).

(٢) ((المصدر السابق)) (٧٠٧/١).

(٣) ((بحر العلوم)) للسَّمرقندي (١٨١/١).

(٤) رواه مسلم (٩٩٥).

هذا التَّرتيب. ومنها: أنَّ الحقوق والفضائل إذا تزاحمت، قُدِّم الأوكد فالأوكد. ومنها: أنَّ الأفضل في صدقة التَّطوع أن ينوِّعها في جهات الخير ووجوه البرِّ بحسب المصلحة، ولا ينحصر في جهةٍ بعينها)[1].

- وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في ظلِّ الكعبة، فلمَّا رآني قال: ((هم الأخسرون وربِّ الكعبة. قال: فجئت حتى جلست، فلم أتقارَّ[2] أن قمت، فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَن هم؟ قال: هم الأكثرون أموالًا، إلَّا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا -مِن بين يديه ومِن خلفه وعن يمينه وعن شماله- وقليلٌ ما هم، ما مِن صاحب إبلٍ، ولا بقرٍ، ولا غنمٍ لا يؤدِّي زكاتها إلَّا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت، وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلَّما نفدت أخراها، عادت عليه أولاها، حتى يُقْضَى بين النَّاس))[3].

قال النَّوويُّ: (فيه الحثُّ على الصَّدقة في وجوه الخير)[4].

وقال المباركفوريُّ: (فقوله: ((قال هكذا)) الخ، كناية عن التَّصدُّق العام في جميع جهات الخير)[5].

- وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفرٍ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجلٌ على راحلةٍ له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن كان معه فضل ظهرٍ،

---

(١) ((شرح النووي على مسلم)) (٧/٨١).

(٢) لم أتقار: لم ألبث. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٦٣٨)، و مسلم (٩٩٠).

(٤) ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج)) (٧/٧٣).

(٥) ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) (٢/٩٢).

فليعد به على مَن لا ظهر له، ومَن كان له فضلٌ مِن زاد، فليعد به على مَن لا زاد له))[(١)].

قال النَّوويُّ: (في هذا الحديث: الحثُّ على الصَّدقة والجُود والمواساة والإحسان إلى الرُّفقة والأصحاب، والاعتناء بمصالح الأصحاب، وأمرُ كبير القوم أصحابه بمواساة المحتاج، وأنَّه يُكتفى في حاجة المحتاج بتعرُّضه للعطاء وتعريضه مِن غير سؤال)[(٢)].

- **أقوال السَّلف والعلماء في الكَرَم والجُود والسَّخاء:**

- قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)[(٣)].

- وعنه رضي الله عنه: (الجُود حارس الأعراض)[(٤)].

- وقال عليٌّ رضي الله عنه: (السَّخاء ما كان ابتداءً، فأمَّا ما كان عن مسألة فحياء وتذمُّم)[(٥)].

- ورُوِي عنه مرفوعًا: ((الكَرَم أعطف مِن الرَّحم))[(٦)].

- (وقيل لحكيم: أيُّ فعلٍ للبَشَر أشبه بفعل الباري تعالى، فقال: الجُود)[(٧)].

- وقال يحيى البرمكي: (أعطِ مِن الدُّنْيا وهي مقبلة؛ فإنَّ ذلك لا ينقصك

(١) رواه مسلم (١٧٢٨).
(٢) ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/٣٣).
(٣) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٥٧).
(٤) ((المصدر السابق)).
(٥) ((المصدر السابق)) (٤/٣٨٠).
(٦) ((المصدر السابق)) (٤/٣٥٧).
(٧) ((الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة)) للرَّاغب الأصفهاني (ص ٢٨٧).

منها شيئًا. فكان الحسن بن سهل يتعجَّب مِن ذلك ويقول: لله درُّه! ما أطبعه على الكَرَم وأعلمه بالدُّنْيا)[١].

- و(قال محمَّد بن يزيد الواسطي: حدَّثني صديق لي: (أنَّ أعرابيًّا انتهى إلى قوم فقال: يا قوم، أرى وجوهًا وضيئة، وأخلاقًا رضيَّةً، فإن تكن الأسماء على إثر ذلك فقد سعدت بكم أمُّكم... قال أحدهم: أنا عطيَّة، وقال الآخر: أنا كرامة، وقال الآخر: أنا عبد الواسع، وقال الآخر: أنا فضيلة، فأنشأ يقول:

كرمٌ وبذلٌ واسعٌ وعطيَّةٌ ... لا أين أذهب أنتمُ عين الكَرَم

مَن كان بين فضيلة وكرامة ... لا ريب قد يفقؤ عين العدم

قال: فكسوه وأحسنوا إليه وانصرف شاكرًا)[٢].

- و(كان يُقَال: مَن جاد بماله جاد بنفسه، وذلك أنَّه جاد بما لا قوام لنفسه إلَّا به)[٣].

- وقال الماورديُّ رحمه الله تعالى: (اعلم أنَّ الكريم يجتزي بالكرامة واللُّطف، واللَّئيم يجتزي بالمهانة والعنف، فلا يجود إلَّا خوفًا، ولا يجيب إلَّا عنفًا، كما قال الشَّاعر:

رأيتك مثل الجوز يمنع لبَّه[٤] ... صحيحًا ويعطي خيره حين يُكْسَر

فاحذر أن تكون المهانة طريقًا إلى اجتدائك[٥]، والخوف سبيلاً إلى عطائك،

---

(١) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٦٨).
(٢) ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص ٢٠٠).
(٣) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٦٥).
(٤) لب الجوز واللوز، ونحوهما: ما في جوفه. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٧٢٩).
(٥) الاجتداء: السؤال انظر: ((المصدر السابق)) (١٤/١٣٤ - ١٣٥).

فيجري عليك سفه الطَّغام(١)، وامتهان اللِّئام، وليكن جودك كرمًا ورغبة، لا لؤمًا ورهبة)(٢).

- و(عن حسن بن صالحٍ، قال: سُئِل الحسن عن حُسْن الخُلُق، فقال: الكَرَم، والبَذْلة، والاحتمال)(٣).

- (وقال جعفر بن محمَّد الصَّادق: إنَّ لله وجوهًا مِن خلقه، خلقهم لقضاء حوائج عباده، يرون الجُود مجدًا، والإفضال مغنمًا، والله يحبُّ مكارم الأخلاق)(٤).

- وقال بكر بن محمَّد العابد: (ينبغي أن يكون المؤمن مِن السَّخاء هكذا، وحثا بيديه)(٥).

- وقال بعض الحكماء: (أصل المحاسن كلِّها الكَرَمُ، وأصل الكَرَم نزاهةُ النَّفس عن الحرام، وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير مِن فروعه)(٦).

- وقال ابن المبارك: (سخاء النَّفس عمَّا في أيدي النَّاس أعظم مِن سخاء النَّفس بالبَذْل)(٧).

- وقال بعض العلماء: (الكَرَم: هو اسم واقع على كلِّ نوع مِن أنواع

(١) الطغام: أوغاد الناس. ((القاموس المحيط)) للفيروآبادي (ص ١١٣٣).
(٢) ((أدب الدُّنيا والدِّين)) للماوردي (ص ٢٠٠).
(٣) ((الكِرَام والجود وسخاء النُّفوس)) للبرجلاني (ص ٥٥).
(٤) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٥٧).
(٥) ((مكارم الأخلاق ومعاليها)) للخرائطي (ص ١٧٩).
(٦) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ١٦٨).
(٧) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٥٧).

الفضل، ولفظٌ جامعٌ لمعاني السَّمَاحة والبَذْل)[١].

- وقالوا: (السَّخيُّ مَن كان مسرورًا ببذله، متبرِّعًا بعطائه، لا يلتمس عرض دنياه فيحْبَطُ عملُه، ولا طلب مكافأة فيسقط شكرُه، ولا يكون مَثَلُه فيما أعطى مَثَلُ الصَّائد الذي يلقي الحَبَّ للطَّائر، ولا يريد نفعها ولكن نَفْعَ نفسه)[٢].

فوائد الكَرَم والجُود والسَّخاء[٣]:

١- الكَرَم والجُود والعطاء مِن كمال الإيمان وحُسْن الإسلام.

٢- دليل حُسْن الظَّن بالله تعالى.

٣- الكرامة في الدُّنْيا، ورفع الذِّكر في الآخرة.

٤- الكريم محبوبٌ مِن الخالق الكريم، وقريبٌ مِن الخَلْق أجمعين.

٥- الكريم قليل الأعداء والخصوم؛ لأنَّ خيره منشورٌ على العموم.

٦- الكريم نفعه متعدٍّ غير مقصور.

٧- تثمر حُسْن ثناء النَّاس عليه.

٨- تبعث على التَّكافل الاجتماعي والتَّواد بين النَّاس.

٩- الكَرَم يزيد البركة في الرِّزق والعمر.

١٠- يولِّد في الفرد شعورًا بأنَّه جزء مِن الجماعة، وليس فردًا منعزلًا عنهم إلَّا في حدود مصالحه ومسؤولياته الشَّخصيَّة.

---

(١) ((عين الأدب والسياسة)) لأبي الحسن بن هذيل (ص ١٠٥).

(٢) ((صلاح الأمَّة في علوِّ الهمَّة)) لسيِّد العفَّاني (٢/٦١٦-٦١٧).

(٣) انظر: ((نضرة النَّعيم)) (٨/٣٢٣٥). و((الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٣٦٣-٣٦٥) بتصرُّف واختصار.

١١- تزكِّي الأنفس وتطهرها مِن رذائل الأنانيَّة المقيتة، والشُّح الذَّميم.

١٢- حلُّ مشكلة حاجات ذوي الحاجات مِن أفراد المجتمع الواحد.

١٣- إقامة سدٍّ واقٍ يمنع الأنفس من سيطرة حبِّ التَّملُّك والأثرة.

صور الكَرَم والجُود والسَّخاء:

- **المجالات التي يشملها الكَرَم والجُود والعطاء متنوِّعة وكثيرة، فمنها:**

١- العطاء مِن المال، ومِن كلِّ ما يمتلك الإنسان مِن أشياء ينتفع بها، كالذَّهب والفضَّة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكلِّ مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، أو يؤوي إليه، وكلِّ آلة أو سبب أو وسيلة ينتفع بها، وكلِّ ما يُتَدَاوى به أو يقي ضرًّا أو يدفع بأسًا، إلى غير ذلك مِن أشياء يصعب إحصاؤها.

٢- ومنها العطاء مِن العلم والمعرفة، وفي هذا المجال مَن يحبُّون العطاء، وفيه بخلاء ممسكون ضنينون، والمعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدَّخر عنده علمًا ولا معرفة عمَّن يُحْسِن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقِّيها، ضنًّا بها ورغبةً بالاستئثار.

٣- ومنها عطاء النَّصيحة، فالإنسان الجَوَاد، كريم النَّفس، لا يبخل على أخيه الإنسان بأيِّ نصيحةٍ تنفعه في دينه أو دنياه، بل يعطيه نُصْحَه الذي ينفعه مبتغيًا به وجه الله تعالى.

٤- ومنها: العطاء مِن النَّفس، فالجواد يعطي مِن جاهه، ويعطي مِن عَطْفِه وحنانه، ويعطي مِن حلو كلامه وابتسامته وطلاقة وجهه، ويعطي مِن وقته وراحته، ويعطي مِن سمعه وإصغائه، ويعطي مِن حبِّه ورحمته، ويعطي مِن دعائه

وشفاعته، وهكذا إلى سائر صور العطاء مِن النَّفس.

٥- ومنها: العطاء مِن طاقات الجسد وقواه، فالجواد يعطي مِن معونته، ويعطي مِن خدماته، ويعطي مِن جهده، فيعين الرَّجل في دابَّته فيحمله عليها أو يحمل له عليها، ويميط الأذى عن طريق النَّاس وعن المرافق العامَّة، ويأخذ بيد العاجز حتى يجتاز به إلى مكان سلامته، ويمشي في مصالح النَّاس، ويتعب في مساعدتهم، ويسهر مِن أجل معونتهم، ومِن أجل خدمتهم، وهكذا إلى سائر صور العطاء مِن الجسد.

٦- ويرتقي العطاء حتى يصل إلى مستوى التَّضحية بالحياة كلِّها، كالمجاهد المقاتل في سبيل الله، يجود بحياته؛ لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، ابتغاء مرضاة ربِّه[1].

الأسباب المعينة على الكَرَم والجُود والسَّخاء:

دوافع البَذْل والعطاء عند الإنسان كثيرة؛ منها[2]:

١- توفيق الله له بالبَذْل والنَّفقة.

٢- نفسه الطيِّبة.

٣- حبُّ عمل الخير.

٤- حثُّ أهل الخير له على النَّفقة والعطاء والكَرَم.

٥- مقتضيات المجتمع الإسلامي وحاجاته المِلحَّة إلى التَّعاون؛ والتَّكامل لبناء الاقتصاد الإسلامي بناءً قويًّا وعزيزًا.

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٣٦١-٣٦٣) بتصرُّف واختصار.
(٢) ((التصوير النَّبوي للقيم الخلقية)) لعلي علي صبح (ص ١٨١) بتصرُّف.

نماذج في الكَرَم والجُود والسَّخاء:

- **نماذج مِن كرم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام:**

إبراهيم الخليل عليه السَّلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كان أوَّل مَن أضاف الضَّيف إبراهيم))[1].

قال المناويُّ: (كان يسمَّى أبا الضِّيفان، كان يمشي الميل والميلين في طلب مَن يتغدَّى معه... وفي ((الكشَّاف)): كان لا يتغدَّى إلَّا مع ضيف)[2].

قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [الذَّاريات: ٢٤].

قال مجاهد: سمَّاهم (مُكْرَمين) لخدمة إبراهيم إيَّاهم بنفسه[3].

وقال الرَّازي: (أُكْرِموا إذ دخلوا، وهذا مِن شأن الكريم أن يُكْرِم ضيفه وقت الدُّخول، فإن قيل: بماذا أُكْرِموا؟ قلنا: ببشاشة الوجه أولًا، وبالإجلاس في أحسن المواضع وألطفها ثانيًا، وتعجيل القِرَى ثالثًا، وبعد التَّكليف للضَّيف بالأكل والجلوس)[4].

- **نماذج مِن كرم العرب وجودهم في العصر الجاهلي:**

لقد كان الكَرَم مِن أبرز الصِّفات في العصر الجاهلي، بل كانوا يتباهون بالكَرَم والجُود والسَّخاء، ورفعوا مِن مكانة الكَرَم، وكانوا يصفون بالكَرَم عظماء

---

(١) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣٩٥/٦) (٨٦٤١). مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال البيهقي: الصَّحيح موقوف، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٤٥١).

(٢) ((فيض القدير)) (٥٤٣/٤).

(٣) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (٤٥/١٧).

(٤) ((مفاتيح الغيب)) (١٧٤/٢٨).

القوم، واشتهر بعض العرب بهذه الصِّفة الحميدة حتى صار مضربًا للمثل، ونذكر بعض النَّماذج مِن هؤلاء الذين اشتهروا بفيض كرمهم وسخاء نفوسهم، ومِن أولئك:

حاتم الطَّائي:

كان حاتم الطَّائي مِن أشهر مَن عُرِف عند العرب بالجُود والكَرَم حتى صار مضرب المثل في ذلك.

(قالت النوار امرأته: أصابتنا سنة اقشعرَّت لها الأرض، واغبرَّ أفق السَّماء، وراحت الإبل حدبًا حدابير[١]، وضنَّت المراضع عن أولادها فما تَبِضُّ بقطرة[٢]، وجَلَّفَت السَّنَة المال[٣]، وأيقنَّا أنَّه الهلاك. فو الله إنِّي لفي ليلة صَنْبر[٤] بعيدة ما بين الطَّرفين، إذ تضاغى[٥] أصيبيتنا[٦] مِن الجوع، عبد الله وعدي وسَفَّانة، فقام حاتم إلى الصبيَّين، وقمت إلى الصبيَّة، فو الله ما سكنوا إلَّا بعد هدأة مِن اللَّيل[٧]، ثمَّ ناموا ونمت أنا معه، وأقبل يعلِّلني بالحديث، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلمَّا تهوَّرت النُّجوم[٨] إذا شيء قد رفع كِسْر البيت[٩]، فقال: مَن

(١) الحدب: جمع حدباء، وهي التي بدت حراقفها وعظم ظهرها. الحَدَابِير: جمع حِدْبَار وحِدْبير، بكسر الحاء فيهما، وهي: العجفاء الضَّامرة التي قد يبس لحمها مِن الهزال.

(٢) ما يقطر منها لبن. يقال بض الماء إذا قطر وسال. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (١/١٣٢).

(٣) جَلَّفَت: أصل الجَلَف: القَشْر، فكأنَّ السَّنَة قَشَرت المال، والجالفة: السَّنة التي تذهب بأموال النَّاس.

(٤) الصَّنْبر: الباردة، وليل الشِّتاء طويل، ويزيده الجوع طولاً.

(٥) تضاغى الصبية: بكوا وصاحوا انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٣/٩٢).

(٦) نصَّ في ((اللِّسان)) على أنَّه (قد جاء في الشِّعر أصيبية، كأنَّه تصغير أصبية).

(٧) طائفة منه انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٥/٢٤٩).

(٨) تهوَّرت النُّجوم: ذهب أكثرها.

(٩) كِسْر البيت: أسفل الشِّقَّة التي تلي الأرض مِن الخباء مِن حيث يُكْسَر جانباه مِن عن يمينٍ ويسار.

هذا؟ فولَّى ثمَّ عاد، فقال: مَن هذا؟ فولَّى ثمَّ عاد في آخر اللَّيل، فقال: مَن هذا؟ فقالت: جارتك فلانة، أتيتك مِن عند أصيبية يتعاوون عواء الذِّئاب مِن الجوع، فما وجدت معوَّلًا إلَّا عليك أبا عدي، فقال: والله لأشبعنَّهم، فقلت: مِن أين؟ قال: لا عليك، فقال: أعجليهم فقد أشبعك الله وإيَّاهم، فأقبلت المرأة تحمل ابنين ويمشي جانبيها أربعة، كأنَّها نعامة حولها رئالها[١]، فقام إلى فرسه فوجأ[٢] لبته[٣] بمديته، فخر، ثُمَّ كشطه، ودفع المدية إلى المرأة، فقال: شأنك (الآن)، فاجتمعنا على اللَّحم، فقال: سوأة! أتأكلون دون الصِّرم؟!![٤]، ثمَّ جعل يأتيهم بيتًا بيتًا ويقول؛ هبُّوا أيُّها القوم، عليكم بالنَّار، فاجتمعوا، والْتَفَع[٥] بثوبه ناحيةً ينظر إلينا، لا والله ما ذاق منه مُزْعَة[٦]، وإنَّه لأحوج إليه منَّا، فأصبحنا وما على الأرض مِن الفرس، إلَّا عظم أو حافر، (فعذلته[٧] على ذلك)، فأنشأ حاتم يقول:

مهلًا نوار أقلِّي اللَّوم والعذلا[٨] ... ولا تقولي لشيء فات: ما فعلا
ولا تقولي لمال كنت مهلكه ... مهلًا، وإن كنت أعطي الجنَّ والخَبَلا[٩]
يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إنَّ الجَوَاد يرى في ماله سبلا

(١) جمع رئال: وهو ولد النعام. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ١٠٠٢).
(٢) وجأ: ضرب. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٩٠/١).
(٣) اللبة: موضع المنحر من كل شيء. ((لسان العرب)) لابن منظور (٧٣٣/١)
(٤) الصِّرم، بالكسر: الأبيات المجتمعة المنقطعة مِن النَّاس. ((المصدر السابق)) (٣٣٨/١٢).
(٥) التفع: التحف بالثوب. انظر: ((المصدر السابق)) (٣٢٠/٨).
(٦) المزْعَة: القطعة مِن اللَّحم ونحوه. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (٧٦٣/١).
(٧) عذلته: لمته. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٣٧/١١).
(٨) العذل: اللوم. ((المصدر السابق)) (٤٣٧/١١).
(٩) الخَبَل، بفتحتين: الجِنُّ، أو ضربٌ مِن الجِنِّ، يقال لهم: الخابل. ((المصدر السابق)) (١٩٧/١١).

لا تعذليني في مال وصلت به رحمًا، وخير سبيل المال ما وصلا[١]

و(قيل سأل رجل حاتمًا الطَّائي فقال: يا حاتم هل غلبك أحدٌ في الكَرَم؟ قال: نعم، غلام يتيم مِن طيئ، نزلت بفنائه وكان له عشرة أرؤس مِن الغنم، فعمد إلى رأس منها فذبحه. وأصلح مِن لحمه، وقدَّم إليَّ، وكان فيما قدَّم إليَّ الدِّماغ، فتناولت منه فاستطبته، فقلت: طيِّبٌ والله. فخرج مِن بين يدي، وجعل يذبح رأسًا رأسًا، ويقدِّم إليَّ الدِّماغ وأنا لا أعلم. فلمَّا خرجت لأرحل نظرت حول بيته دمًا عظيمًا، وإذا هو قد ذبح الغنم بأسره. فقلت له: لم فعلت ذلك؟ فقال: يا سبحان الله! تستطيب شيئًا أملكه فأبخل عليك به، إنَّ ذلك لسُبَّة على العرب قبيحة. قيل يا حاتم: فما الذي عوَّضته؟ قال: ثلاثمائة ناقة حمراء وخمسمائة رأس مِن الغنم، فقيل أنت إذًا أَكْرَم منه، فقال: بل هو أكرم، لأنَّه جاد بكلِّ ما يملكه، وإنَّما جُدت بقليل مِن كثير)[٢].

عبد الله بن جُدْعَانَ:

مِن الكُرَماء المشهورين في العصر الجاهلي: عبد الله بن جُدْعَان، فقد اشتهر بكرمه وجوده، وسخائه وعطائه.

و(كان عبد الله بن جُدْعَانَ مِن مُطْعِمي قريش، كهاشم بن عبد مناف، وهو أوَّل مَن عمل الفالوذ للضَّيف، وقال فيه أميَّة بن أبي الصَّلت.

---

(١) ((الشِّعر والشُّعراء)) للدينوري (١/٢٣٨)، والرِّحْم، بكسر الرَّاء وسكون الحاء، والرَّحِم، بفتح فكسر: القرابة. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٢٣٢)..

(٢) ((المستجاد مِن فعلات الأجواد)) للتنوخي (ص ١١١).

له داع بمكَّة مُشْمَعِلٌّ[١] وآخر فوق دارته[٢] ينادي
إلى درج من الشِّيزَى[٣] ملاء[٤] لُبابَ البُرِّ يُلْبَكُ[٥] بالشِّهادِ[٦]

وكانت له جِفَان يأكل منها القائم والرَّاكب)[٧].

و(حدَّث إبراهيم بن أحمد قال: قَدِمَ أميَّة بن أبي الصَّلت مكَّة، على عبد الله بن جُدْعَان، فلمَّا دخل عليه قال له عبد الله: أمرٌ ما، جاء بك. فقال أميَّة: كلاب غرمائي قد نبحتني ونهشتني[٨]. فقال له عبد الله: قدمت عليَّ وأنا عليل مِن ديون لزمتني، فأنظرني قليلًا يجمُّ ما في يدي، وقد ضمنت قضاء دينك ولا أسأل عن مبلغه، فأقام أميَّة أيامًا وأتاه فقال:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إنَّ شيمتك الحَيَاء؟
وعلمك بالأمور وأنت قَرْم لك الحسب المهذَّب والثَّناء
كريم لا يغيِّره صباح عن الخُلُق الجميل ولا مساء
تباري الرِّيح مكرمة وجودًا إذا ما الكلب أجحره الشِّتاء
إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرُّضه الثَّناء

(١) اشمعل القوم في الطلب اشمعلالا إذا بادروا فيه وتفرقوا. ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٣٧٢).
(٢) الدارة: الدار. ((المصدر السابق)) (٤/٢٩٩).
(٣) الشيزى: الجفان التي تسوى من شجرة الشيزى. ((المصدر السابق)) (٥/٣٦٣).
(٤) ملاء: مملوءة. ((المصدر السابق)) (١/١٥٨).
(٥) يلبك: يخلط. ((المصدر السابق)) (١٠/٤٨٢).
(٦) الشهاد: العسل ما دام لم يعصر من شمعه. ((المصدر السابق)) (٣/٢٤٣).
(٧) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٣/٢٣٩).
(٨) النهش: تناول الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه. ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/٣٦٠).

إذا خلفت عبد الله فاعلم بأنَّ القوم ليس لهم جزاء
فأرضك كلُّ مكرمة بناها بنو تميم وأنت لها سماء
فأبرز فضله حقًّا عليهم كما برزت لناظرها السَّماء
وهل تخفى السَّماء على بصير وهل للشَّمس طالعة خفاء

فلمَّا أنشده أميَّة هذه الأبيات كانت عنده قينتان، فقال لأميَّة: خذ أيتهما شئت، فأخذ إحداهما وانصرف. فمرَّ بمجلس مِن مجالس قريش، فلاموه على أخذها، وقالوا: لقد أجحفت به في انتزاعها منه، فلو رددتها عليه، فإنَّ الشَّيخ يحتاج إلى خدمتهما، لكان ذلك أقرب لك عنده وأَكْرَم مِن كلِّ حقٍّ ضمنته لك. فوقع الكلام مِن أميَّة موقعًا وندم، فرجع إليه ليردَّها عليه، فلمَّا أتاه بها قال له ابن جُدْعَان: لعلَّك إنَّما رددتها لأنَّ قريشًا لاموك على أخذها، وقالوا لك كذا وكذا، ووصف لأميَّة ما قال له القوم، فقال أميَّة: والله ما أخطأت يا أبا زهير ممَّا قالوا شيئًا. قال عبد الله: فما الذي قلت في ذلك؟ فقال أميَّة:

عطاؤك زَيْنٌ لامرئ إن حبوته[1] ببذل وما كلُّ العطاء يزين
وليس بشين لامرئٍ بذل وجهه إليك كما بعض السُّؤال يشين

فقال له عبد الله: خذ الأخرى، فأخذهما جميعًا وخرج، فلمَّا صار إلى القوم بهما أنشأ يقول:

ذكر ابن جُدْعَان بخيـ ـرٍ كلَّما ذُكِر الكِرَام
مَن لا يجور ولا يعقُّ ولا يُبخِّلُه اللِّئام
يهب النَّجيبة والنَّجيب له الرِّجال والزمام)[2]

(١) حبوته: أعطيته. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٦٢/١٤).
(٢) ((المستجاد من فعلات الأجواد)) للتنوخي.

و(كان عبد الله بن جُدْعَان التيميُّ حين كَبر أخذ بنو تيم عليه، ومنعوه أن يعطي شيئًا مِن ماله، فكان الرَّجل إذا أتاه يطلب منه قال: ادن منِّي، فإذا دنا منه لطمه، ثمَّ قال: اذهب فاطلب بلطمتك أو ترضى، فترضيه بنو تيم مِن ماله.

وفيه يقول ابن قيس:

والذي إن أشار نحوك لطمًا … تبع اللَّطم نائل وعطاء

وابن جُدْعَان هو القائل:

إنِّي وإن لم ينل مالي مدى خُلُقِي … وهاب ما ملكت كفِّي مِن المال

لا أحبس المال إلَّا ريث أتلفه … ولا تغيِّرني حال عن الحال)[1]

- **نماذج مِن كرم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وجوده:**

لقد مثَّل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والقدوة الحسنة في الجُود والكَرَم، فكان أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان، فكان أجود بالخير مِن الرِّيح المرسلة.

(وقد بلغ صلوات الله عليه مرتبة الكمال الإنساني في حبِّه للعطاء، إذ كان يعطي عطاء مَن لا يحسب حسابًا للفقر ولا يخشاه، ثقة بعظيم فضل الله، وإيمانًا بأنَّه هو الرزَّاق ذو الفضل العظيم)[2].

- عن موسى بن أنسٍ، عن أبيه، قال: ((ما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئًا إلَّا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا

(١) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (١/٤٥٨).

(٢) ((الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٣٧٧).

بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإنَّ محمَّدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة))(١).

- وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو كان لي مثل أحدٍ ذهبًا ما يسرُّني أن لا يمرَّ عليَّ ثلاثٌ، وعندي منه شيءٌ إلَّا شيءٌ أرصدُهُ لدينٍ))(٢).

(إنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم، يقدِّم بهذا النَّموذج المثالي للقدوة الحسنة، لاسيَّما حينما نلاحظ أنَّه كان في عطاءاته الفعليَّة، مطبِّقًا لهذه الصُّورة القوليَّة التي قالها، فقد كانت سعادته ومسرَّته عظيمتين حينما كان يبذل كلَّ ما عنده مِن مال.

ثمَّ إنَّه يربِّي المسلمين بقوله وعمله على خُلُق حبِّ العطاء، إذ يريهم مِن نفسه أجمل صورة للعطاء وأكملها)(٣).

- وعن جبير بن مطعمٍ، أنَّه بينا هو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه النَّاس، مقبلًا مِن حنينٍ، عَلِقَتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرَةٍ، فَخطِفَتْ رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاهِ نَعَمًا، لقسمته بينكم، ثمَّ لا تجدوني بخيلًا، ولا كذوبًا، ولا جبانًا))(٤).

- وأهدت امرأة إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام شملةً منسوجة، فقالت:

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٢) رواه البخاري (٢٣٨٩).

(٣) ((الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٣٧٨).

(٤) رواه البخاري (٣١٤٨).

((يا رسول الله، أكسوك هذه، فأخذها النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام محتاجًا إليها، فلبسها، فرآها عليه رجل مِن الصَّحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه! فاكْسُنِيها، فقال: نعم، فلمَّا قام النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام لامه أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أخذها محتاجًا إليها، ثمَّ سألته إيَّاها، وقد عرفت أنَّه لا يُسْأَل شيئًا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لعلِّي أكفَّن فيها))(١).

- وكان صلى الله عليه وسلم يُؤْثِر على نفسه، فيعطي العطاء ويمضي عليه الشَّهر والشَّهران لا يُوقَد في بيته نارٌ(٢).

- (وكان كرمه صلى الله عليه وسلم كرمًا في محلِّه، ينفق المال لله وبالله، إمَّا لفقير، أو محتاج، أو في سبيل الله، أو تأليفًا على الإسلام، أو تشريعًا للأمَّة، وغير ذلك(٣).

فما أعظم كرمه وجوده وسخاء نفسه، صلى الله عليه وسلم، وما هذه الصِّفة الحميدة إلَّا جزءٌ مِن مجموع الصِّفات التي اتصف بها حبيبنا صلى الله عليه وسلم، فلا أبلغ ممَّا وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

- **نماذج مِن كرم الصَّحابة وجودهم:**

- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطَّاب، يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدَّق، فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكرٍ بكلِّ

(١) رواه البخاري (٦٠٣٦).
(٢) ((مكارم الأخلاق)) لابن عثيمين (ص ٥٦).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٥٥).

ما عنده، فقال: يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا))[1].

- وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، أنَّه سمع أنس بن مالك، يقول: كان أبو طَلْحَة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالًا، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحى[2]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب مِن ماءٍ فيها طيِّبٍ، قال أنسٌ: فلمَّا نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طَلْحَة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنَّ الله يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بيرحى، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بخٍ[3]، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، قد سمعتُ ما قلتَ فيها، وإنيِّ أرى أن تجعلها في الأقربين))، فقسمها أبو طَلْحَة في أقاربه وبني عمِّه[4].

- (وقيل: مَرِض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنَّهم يستحيون ممَّا لك عليهم مِن الدَّيْن، فقال: أخزى الله مالًا يمنع الإخوان مِن

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترِّمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١/٤٨٠) (١٦٦٠)، والبزار (١/٣٩٤) (٢٧٠)، والحاكم (١/٥٧٤)، والبيهقي (٤/١٨٠) (٨٠٢٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترِّمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، وقال البزَّار: [فيه] هشام بن سعد، حدَّث عنه جماعة كثيرة مِن أهل العلم، ولم نر أحدًا توقَّف عن حديثه ولا اعتلَّ عليه بعلَّة توجب التَّوقُّف عن حديثه. وصحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٦/٢٣٦)، وابن دقيق العيد في ((الإلمام)) (١/٣٣٧) كما اشترط على نفسه في المقدِّمة، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٩٩٦).

(٢) اسم مال وموضع بالمدينة. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/١١٤).

(٣) كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه. ((شرح النووي على مسلم)) (٧/٨٥).

(٤) رواه مسلم (٩٩٨).

الزِّيارة، ثمَّ أمر مناديًا فنادى: مَن كان عليه لقيس بن سعد حقٌّ فهو منه بريء، قال فانكسرت درجته بالعشي لكثرة مَن زاره وعاده)[١].

- وقال عطاء: (ما رأيت مجلسًا قطُّ أَكْرَم مِن مجلس ابن عبَّاس، أكثر فقهًا، وأعظم جَفْنَةً، إنَّ أصحاب القرآن عنده، وأصحاب النَّحو عنده، وأصحاب الشِّعر، وأصحاب الفقه، يسألونه كلُّهم، يصدرهم في وادٍ واسعٍ)[٢].

- (وعن أبان بن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عبَّاس، فأتى وجوه قريش فقال: يقول لكم عبيد الله: تغدوا عندي اليوم، فأتوه حتى ملئوا عليه الدَّار، فقال: ما هذا؟ فأُخْبِر الخبر، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة، وأمر قومًا فطبخوا وخبزوا، وقدِّمت الفاكهة إليهم، فلم يفرغوا منها حتى وُضِعَت الموائد، فأكلوا حتى صدروا، فقال عبيد الله لوُكَلَائه: أَوَ موجود لنا هذا كلَّ يومٍ؟ قالوا: نعم، قال فليتغدَّ عندنا هؤلاء في كلِّ يوم)[٣].

- وقال المدائني: (أوَّل مَن سنَّ القِرَى إبراهيم الخليل عليه السَّلام. وأوَّل مَن هشم الثَّريد هاشمٌ. وأوَّل مَن فطَّر جيرانه على طعامه في الإسلام عبيد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، وهو أوَّل مَن وضع موائده على الطَّريق، وكان إذا خرج مِن بيته طعامٌ لا يعاود منه شيءٌ، فإن لم يجد مَن يأكله تركه على الطَّريق)[٤].

- و(ذُكر أنَّ عبيد الله بن العبَّاس أتاه سائل وهو لا يعرفه، فقال له: تصدَّق عليَّ بشيءٍ، فإنِّي نُبِّئت أنَّ عبيد الله بن العبَّاس أعطى سائلًا ألف

---

(١) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٣/٢٤٧).

(٢) رواه ابن المبارك في ((الزُّهد)) (١١٧٥)، وأبو الشَّيخ في ((الكرم والجود وسخاء النُّفوس)) (٦٠)، والفاكهي في ((أخبار مكَّة)) (٢/٣٤٠) (١٦٢٨)، وأبو نعيم في ((معرفة الصَّحابة)) (٣٨٠٥).

(٣) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٣/٢٤٧).

(٤) ((غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب)) للسفاريني (٢/١٥٠).

درهم واعتذر إليه، فقال: وأين أنا مِن عبيد الله فقال: أين أنت منه في الحسب أم في الكَرَم؟ قال: فيهما جميعًا، قال: أمَّا الحسب في الرَّجل فمروءته وفعله، وإذا شئت فعلتَ، وإذا فعلت كنت حسيبًا. فأعطاه ألفي درهم واعتذر إليه مِن ضيق نفقته. فقال له السَّائل: إن لم تكن عبيد الله بن العبَّاس فأنت خير منه، وإن كنت إيَّاه فأنت اليوم خير منك أمس، فأعطاه ألفًا أخرى، فقال له السَّائل: هذه هزَّة كريم حسيب)[١].

- وقال الأصمعيُّ: (حدَّثنا ابن عمران قاضي المدينة، أنَّ طَلْحَة كان يقال له: طَلْحَة الخير، وطَلْحَة الفيَّاض، وطَلْحَة الطَّلَحَات، وأنَّه فدى عشرة مِن أسارى بدر وجاء يمشي بينهم، وأنَّه سُئل برحم، فقال: ما سُئِلت بهذه الرَّحم قبل اليوم، وقد بعت حائطًا لي بتسعمائة ألف درهم وأنا فيه بالخيار، فإن شئت ارتجعته وأعطيتكه، وإن شئت أعطيتك ثمنه)[٢].

- وقال المدائني: (إنَّما سمِّي طَلْحَة بن عبيد الله الخزاعي: طَلْحَة الطَّلَحَات، لأنَّه اشترى مائة غلام وأعتقهم وزوَّجهم، فكلُّ مولود له سمَّاه طلحة)[٣].

- **نماذج مِن السَّلف في الكَرَم والجُود:**

- قال محمَّد بن صبيحٍ: (لما قدم أبو الزِّناد الكوفة على الصَّدقات، كلَّم رجلٌ حمَّاد بن أبي سليمان في رجلٍ يكلِّم له أبا الزِّناد، يستعين في بعض أعماله، فقال حمَّاد: كم يؤمِّل صاحبك مِن أبي الزِّناد أن يصيب معه؟ قال: ألف درهمٍ، قال: فقد أمرت له بخمسة آلاف درهمٍ، ولا يبذل وجهي

---

(١) ((المستجاد مِن فعلات الأجواد)) للتنوخي.
(٢) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (١/٤٥٤).
(٣) ((المصدر السابق)) (١/٤٦٦).

إليه، قال: جزاك الله خيرًا، فهذا أكثر ممَّا أمَّل ورجا. قال عثمان: وقال ابن السَّمَّاك: فكلَّمه آخر في ابنه أن يحوِّله مِن كتابٍ إلى كتاب، فقال للذي يكلِّمه: إنَّما نعطي المعلِّم ثلاثين كلَّ شهرٍ، وقد أجريناها لصاحبك مائة، دع الغلام مكانه)[١].

- (وكان أبو مرثد أحد الكُرَماء، فمدحه بعض الشُّعراء، فقال للشَّاعر: والله ما عندي ما أعطيك، ولكن قدِّمني إلى القاضي وادَّع عليَّ بعشرة آلاف درهم حتى أقرَّ لك بها، ثمَّ احبسني، فإنَّ أهلي لا يتركوني محبوسًا. ففعل ذلك، فلم يُمْس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم، وأُخْرِج أبو مرثد مِن الحبس)[٢].

- وقال حمَّاد بن أبي حنيفة: (لم يكن بالكوفة أسخى على طعامٍ ومالٍ مِن حمَّاد بن أبي سليمان، ومِن بعده خلف بن حوشبٍ)[٣].

- و(كان مورقٌ يتَّجر، فيصيب المال، فلا يأتي عليه جمعةٌ وعنده منه شيءٌ، وكان يأتي الأخ، فيعطيه الأربع مائةٍ والخمس مائةٍ، ويقول: ضعها لنا عندك. ثمَّ يلقاه بعد، فيقول: شأنك بها، لا حاجة لي فيها)[٤].

- وقال عبد الله بن الوسيم الجمَّال: (أتينا عمران بن موسى بن طَلْحَة ابن عبيد الله نسأله في دينٍ على رجلٍ مِن أصحابنا، فأمر بالموائد فنُصِبَت، ثمَّ قال: لا، حتى تصيبوا مِن طعامنا، فيجب علينا حقُّكم وذمامكم، قال: فأصبنا مِن طعامه، فأمر لنا بعشرة آلاف درهمٍ في قضاء دينه، وخمسة آلاف درهمٍ نفقةً لعياله)[٥].

(١) ((الكرم والجود وسخاء النُّفوس)) للبرجلاني (ص ٥٧).
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٣/٢٤٨).
(٣) ((الكرم والجود وسخاء النُّفوس)) للبرجلاني (ص ٥٥).
(٤) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذَّهبي (٤/٣٥١).
(٥) ((الكرم والجود وسخاء النُّفوس)) للبرجلاني (ص ٥٥).

- و(كان هشام بن حسَّان إذا ذكر يزيد بن المهلَّب يقول: إن كادت السُّفن لتجري في جوده)[١].

- و(كان ناسٌ مِن أهل المدينة يعيشون لا يدرون مِن أين كان معاشهم، فلمَّا مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك الذي كانوا يُؤْتَون باللَّيل)[٢].

- وقال أبو السَّوَّار العدويُّ: (كان رجالٌ مِن بني عدي يصلُّون في هذا المسجد، ما أفطر أحدٌ منهم على طعامٍ قطُّ وحده، إن وجد مَن يأكل معه أكل، وإلَّا أخرج طعامه إلى المسجد، فأكله مع النَّاس، وأكل النَّاس معه)[٣].

- و(كان يقال للفضل بن يحيى: حاتم الإسلام... وكان يقال: حدِّث عن البحر ولا حرج، وعن الفضل ولا حرج)[٤].

• نماذج مِن العلماء المعاصرين في الكَرَم والجُود:

كرم الشَّيخ عبد العزيز بن باز[٥]:

لا يكاد يُعلم في زمان سماحة الشَّيخ أحدٌ أسخى ولا أجود ولا أَكْرَم مِن سماحة الشَّيخ عبد العزيز بن باز، وذلك في وجوه السَّخاء، وصوره المتعدِّدة، ومِن هذه الصُّور:

١- كان مجبولًا على حبِّ الضُّيوف، والرَّغبة في استضافتهم منذ صغره.

(١) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٦٤).
(٢) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذَّهبي (٤/٣٩٣).
(٣) ((الكرم والجود وسخاء النُّفوس)) للبرجلاني (ص ٥٣).
(٤) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٦٥).
(٥) ((جوانب مِن سيرة الإمام عبد العزيز بن باز)) محمد بن إبراهيم الحمد (١٨١-١٩٠) بتصرُّف واختصار.

٢- كان يوصي بشراءِ أحسن ما في السُّوق مِن الفاكهة، والتَّمر، والخضار، وسائر الأطعمة التي تقدَّم لضيوفه.

٣- وكان يلحُّ إلحاحًا شديدًا إذا قَدِم عليه أحدٌ أو سلَّم عليه، فكان يلحُّ عليهم بأن يحِلُّوا ضيوفًا عنده على الغداء، والعشاء، والمبيت، ولو طالت مدَّة إقامتهم.

٤- وكان يرغِّب القادمين إليه بأن يتواصلوا معه في الزِّيارة، فيذكِّرهم بفضل الزِّيارة، والمحبَّة في الله، ويسوق لهم الآثار الواردة في ذلك؛ ممَّا يبعثهم إلى مزيد مِن الزِّيارة؛ لأنَّ بعضهم لا يرغب في الإثقال على سماحة الشَّيخ وإضاعة وقته؛ فإذا سمع منه ذلك انبعث إلى مزيد مِن الزِّيارات.

٥- وكان لا يقوم مِن المائدة حتى يسأل عن ضيوفه: هل قاموا؟ فإذا قيل له: قاموا. قام؛ كيلا يعجلهم بقيامه قبلهم، وإذا قام قال: كلٌّ براحته، لا تستعجلوا.

٦- وإذا قَدِم الضُّيوف مِن بعيد، ثمَّ استضافهم وأكرمهم، وأرادوا توديعه ألحَّ عليهم بأن يمكثوا، وأن يتناولوا وجبة أخرى، وأن يبيتوا عنده؛ فلا ينصرفون منه إلَّا بعد أن يتأكَّد بأنَّهم مسافرون أو مرتبطون. بل إذا قالوا: إنَّهم مرتبطون، قال: ألا يمكن أن تتخلَّصوا مِن ارتباطكم؟ ألَا تهاتفون صاحب الارتباط، وتعتذروا منه؟

٧- وكان يفرح بالقادم إليه ولو لم يعرفه مِن قبل، خصوصًا إذا قدم مِن بعيد، أو لمصلحة عامَّة.

٨- ومِن لطائف كرمه أنَّه إذا قدم عليه قادم وهو في السَّيَّارة أخذ يتحفَّز، ويتحرَّك ويدعو القادم للركوب معه، ولو كان المكان ضيِّقًا، لكن سماحته يريه

أنَّه محبٌّ لصحبته، أو أن يأمر أحد السَّائقين التَّابعين للرِّئاسة ليوصله، أو أن يأخذ سيارة للأجرة؛ لتنقل مَن يأتون إليه إذا كانوا كثيرين.

٩- كان منزل أسرة سماحة الشَّيخ في الرِّياض، لا يتَّسع لكثرة الضُّيوف القادمين إليه، وكثيرًا ما يأتيه أناس بأُسَرِهم إمَّا مِن المدينة أو غيرها؛ إمَّا طلبًا لشفاعة أو مساعدة، أو نحو ذلك، فكانوا يسكنون عند سماحة الشَّيخ في المنزل.

حكمٌ وأمثالٌ في الكَرَم والجُود:

- أَقْرَى مِن زاد الركب:

زعم ابن الأعرابي أنَّ هذا المثل مِن أمثال قريش، ضربوه لثلاثة مِن أجودهم: مسافر بن أبي عمرو بن أميَّة، وأبي أميَّة بن المغيرة، والأسود بن عبد المطَّلب ابن أسد بن عبد العُزَّى، سُمُّوا زاد الركب؛ لأنَّهم كانوا إذا سافروا مع قومٍ لم يتزوَّدوا معهم[١].

- أَقْرَى مِن حَاسِي الذَّهب:

هذا أيضًا مِن قريش، وهو عبد الله بن جُدْعَان التَّيمي الذي قال فيه أبو الصَّلت الثَّقفيُّ:

لـه داع بمكَّة مُشْمَعِلٌّ   وآخر فوق دارته ينادي
إلى درج من الشِّيزَى ملاء   لُبابَ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ

وسُمِّي (حاسي الذَّهب) لأنَّه كان يشرب في إناء مِن الذَّهب[٢].

(١) ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/١٢٧).
(٢) ((المصدر السابق)).

- أَقْرَى مِن مطاعيم الرِّيح:

زعم ابن الأعرابي أنَّهم أربعة أحدهم: عمُّ محجن الثَّقفي، ولم يُسَم الباقين.

قال أبو النَّدى: هم كِنَانة بن عبد ياليل الثَّقفي عمُّ أبي محجن، ولبيد بن ربيعة، وأبوه، كانوا إذا هبَّت الصَّبا أطعموا النَّاس، وخصوا الصَّبا لأنَّها لا تهب إلَّا في جدب[1].

- (أَكْرَم مِن الأسد:

لأنَّه إذا شبع تجافى عمَّا يمرُّ به ولم يتعرَّض له.

- أَكْرَم مِن العُذَيْق المرجَّب:

تصغير عِذْق، وهو: النَّخلة، والمرجَّب: المدعوم، وإنَّما يُدْعَم لكثرة حِمْلِه وذاك كرمه، وأكثر العرب تنكِّره فتقول: مِن عُذَيْق مُرَجَّب)[2].

أجواد أهل الإسلام:

قال ابن عبد ربِّه: (وأمَّا أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلًا في عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم:

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عبيد الله بن العبَّاس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد وهم: عبد الله بن عامر بن كريز، وعبيد الله ابن أبي بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم بن زياد، وعبيد الله بن معمر القرشي ثمَّ التَّيمي، وطَلْحَة الطَّلَحَات، وهو طَلْحَة بن عبد الله بن خلف الخزاعي.

---

(١) ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/١٢٧).

(٢) ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (١/٢٩٤).

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتَّاب بن ورقاء الرِّياحي، وأسماء بن خارجة الفَزَارِي، وعكرمة بن رِبْعِي الفيَّاض)[١].

الطَّلَحَات المشهورون بالكَرَم:

قال الأصمعي: الطَّلَحَات المعروفون بالكَرَم:

طَلْحَة بن عبيد الله التَّيمي، وهو الفيَّاض.

وطَلْحَة بن عمر بن عبيد الله بن معمر، وهو طَلْحَة الجواد.

وطَلْحَة بن عبد الله بن عوف الزُّهري، وهو طَلْحَة النَّدَى.

وطَلْحَة بن الحسن بن علي، وهو طَلْحَة الخير.

وطَلْحَة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو طَلْحَة الطَّلَحَات. سُمِّي بذلك لأنَّه كان أجودهم)[٢].

الكَرَم والجُود في واحة الشِّعر:

قال كلثوم بن عمرو التَّغلبي -مِن شعراء الدَّولة العبَّاسية-:

إنَّ الكريمَ ليُخفي عنك عسرتَه ... حتى تراه غنيًّا وهو مجهودُ
وللبخيلِ على أموالِه عللٌ ... زرقُ العيونِ عليها أوجهٌ سودُ
إذا تكرَّمتَ عن بذلِ القليلِ ولم ... تقدرْ على سعةٍ لم يظهرِ الجُودُ
بُثَّ النَّوَال ولا تمنعْك قلَّتُه ... فكلُّ ما سدَّ فقرًا فهو محمودُ[٣]

---

(١) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (١/٢٤٥-٢٤٦).
(٢) ((تهذيب التَّهذيب)) لابن حجر العسقلاني (٥/١٧).
(٣) ((الحماسة البصرية)) لأبي الحسن البصري (٢/٦٣).

وقال المنتصر بن بلال الأنصاري:

الجُودُ مكرمةٌ والبخلُ مبغضةٌ لا يستوي البخلُ عندَ اللهِ والجُودُ
والفقرُ فيه شخوصٌ والغِنى دعةٌ والنَّاسُ في المالِ مرزوقٌ ومحدودُ(١)

وقال أحمد بن محمَّد بن عبد الله اليماني:

سأبذلُ مالي كلَّما جاء طالبٌ وأجعلُه وقفًا على القرضِ والفرضِ
فإمَّا كريمًا صنتُ بالجُودِ عرضَه وإما لئيمًا صنتُ عن لؤمِه عرضي(٢)

وقال حجبة بن المضَرَّب:

أناسٌ إذا ما الدَّهرُ أظلم وجهُه فأيديهم بيضٌ وأوجهُهم زهرُ
يصونون أحسابًا ومجدًا مؤثَّلًا ببذلِ أكفٍّ دونها المزْن(٣) والبحرُ
سَمَوا فِي المعالي رتبةً فوق رتبةٍ أحلَّتهم حيث النَّعائم والنَّسرُ
أضاءتْ لهم أحسابهم فتضاءلتْ لنورِهم الشَّمس المنيرة والبدرُ
فلو لامس الصَّخرُ الأصمُّ أكفَّهم أفاض ينابيعَ النَّدى ذلك الصَّخرُ
ولو كان في الأرضِ البسيطةِ منهمُ لمخْتَبِط عاف لما عرف الفقرُ
شكرتُ لكم آلاءَكم وبلاءَكم وما ضاع معروفٌ يكافئُه شكرُ(٤)

وقال آخر:

ويُظهرُ عيبَ المرءِ في النَّاسِ بخلُه ويستره عنهم جميعًا سخاؤُه
تغطَّ بأثوابِ السَّخاءِ فإنَّني أرى كلَّ عيبٍ والسَّخاءُ غطاؤه(٥)

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (ص ٢٣٥).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٢٣٨).
(٣) المزن هو الغيم والسحاب ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٤٠٦).
(٤) ((الأمالي)) للقالي (١/٥٤).
(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (ص ٢٢٧).

وقال آخر:

حرٌّ إذا جئتَه يومًا لتسألَه أعطاك ما ملكتْ كفَّاه واعتذرا

يُخفي صنائعَه واللهُ يظهرُها إنَّ الجميلَ إذا أخفيته ظهرا[1]

وقال الراضي العبَّاسي:

لا تعذلوا كرمي على الإسرافِ ربحُ المحامدِ متجرُ الأشرافِ

إنِّي مِن القومِ الذين أكفُّهم معتادةُ الإتلافِ والإخلافِ[2]

وقال حاتم الطَّائي:

أماوِيَّ إنَّ المال غادٍ ورائحٌ ويبقى مِن المال الأحاديثُ والذِّكرُ

أماوِيَّ إنِّي لا أقولُ لسائلٍ إذا جاء يومًا: حلَّ في ما لنا نذرُ

أماويَّ إمَّا مانعٌ فمبينٌ وإمَّا عطاءٌ لا يُنهْنِهُه الزَّجرُ

أماوِيَّ ما يُغني الثَّراءُ عن الفتى إذا حشرجتْ يومًا وضاق بها الصَّدرُ

أماوِيَّ إن يصبحْ صداي بقفرةٍ مِن الأرضِ لا ماءٌ لديَّ ولا خمرُ

ترى أنَّ ما أنفقتُ لم يكُ ضرَّني وأنَّ يديَّ ممَّا بخلت به صفرُ

وقد علم الأقوامُ لو أنَّ حاتمًا أراد ثراءَ المالِ كان له وفرُ[3]

وقال آخر:

لا تبخلنَّ بدُنْيَا وهي مقبلةٌ فليس ينقصها التَّبذير والسَّرفُ

فإن تولَّت فأحرى أن تجودَ بها فالشُّكرُ منها إذا ما أدبرت خلفُ[4]

---

(١) ((المحاسن والأضَّداد)) للجاحظ (٩٢/١).

(٢) ((الأوراق قسم أخبار الشُّعراء)) للصولي (٥٤/٢).

(٣) ((الشِّعر والشُّعراء)) للدينوري (٢٣٩/١).

(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (ص ٢٦٢).

وقال أحمد بن إبراهيم العبرتاني:

لا تكثري في الجُودِ لائمتي وإذا بخلتُ فأكثري لومي

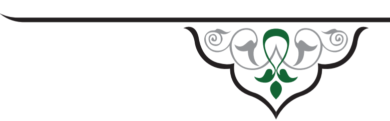
كُفِّي فلست بحاملٍ أبدًا ما عشتُ همَّ غدٍ على يومي[1]



(١) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزَّمخشري (٤/٣٦٩).



حُسْنُ الظَّن



حسن الظَّن

معنى حُسْن الظَّن لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الحُسْن لغةً:**

الحُسْن نقيض القُبْح، يقال: رجل حَسَنٌ، وامرأة حَسَنَةٌ. وقالوا: امرأة حَسْنَاء، ولم يقولوا: رجل أَحْسَن. والحَاسِن: القَمَر. وحسَّنت الشيء تحْسِينًا: زيَّنته. وهو يُحْسِن الشيء، أي يعمله. ويَسْتَحْسِنه: يعدُّه حَسَنًا. والحَسَنَة: خلاف السَّيئة. والمَحَاسِن: خلاف المساوي[١].

- **معنى الظَّن لغةً:**

الظَّن: شك ويقين، إلا أنَّه ليس بيقين عيان، إنَّما هو يقين تدبُّر... وجمع الظَّن الذي هو الاسم: ظُنُون[٢].

- **معنى الظَّن اصطلاحًا:**

قال الجرجاني: (الظَّن هو الاعتقاد الرَّاجح مع احتمال النَّقيض، ويستعمل في اليقين والشَّك، وقيل: الظَّن أحد طرفي الشَّك بصفة الرُّجحان)[٣].

معنى حُسْن الظَّن اصطلاحًا:

ترجيح جانب الخير على جانب الشَّر[٤].

الفرق بين الظَّن وصفات أخرى:

- **الفرق بين الظَّن والحُسْبَان:**

قيل: الظَّن ضرب من الاعتقاد، وقد يكون حُسْبَان لكن ليس باعتقاد.

---

(١) انظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/٢٠٩٩).

(٢) انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٧٢).

(٣) ((التعريفات)) (١/١٨٧).

(٤) ((نضرة النعيم)) (٥/١٧٩٧).

قال أبو هلال: أصل الحُسْبَان من الحِساب، تقول: أَحْسَبه بالظَّن قد مات. كما تقول: أَعُدُّه قد مات. ثمَّ كَثُر حتى سُمي الظَّن: حُسْبَانًا على جهة التَّوسع، وصار كالحقيقة بعد كثرة الاستعمال. وفرق بين الفعل منهما، فيقال في الظَّن: حَسِب. وفي الحِسَاب: حَسَب. ولذلك فرق بين المصدرين فقيل: حَسَب وحُسْبَان، والصحيح في الظَّن ما ذكرناه[١].

- **الفرق بين الشَّك والظَّن والوَهْم:**

الشَّك: خلاف اليقين، وأصله اضطراب النَّفس، ثم استعمل في التَّردُّد بين الشَّيئين سواء استوى طرفاه، أو ترجَّح أحدهما على الآخر. قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] أي: غير مستيقن. وقال الأصوليون: هو تردُّد الذهن بين أمرين على حدٍ سواء.

وقيل: التَّردُّد بين الطَّرفين إن كان على السَّواء فهو الشَّك، وإلا فالرَّاجح: ظنٌّ، والمرجوح: وهمٌ[٢].

- **الفرق بين الظَّن والتَّصَوُّر:**

أنَّ الظَّن ضربٌ من أفعال القلوب، يحدث عند بعض الأمارات، وهو رُجْحان أحد طرفي التَّجوُّز، وإذا حدث عند أمارات غلبت وزادت بعض الزيادة، فظَنَّ صاحبه بعض ما تقتضيه تلك الأمارات، سمي ذلك: غلبة الظَّن، ويستعمل الظَّن فيما يُدرك وفيما لا يُدرك.

والتَّصَوُّر يستعمل في المدْرَك دون غيره، كأنَّ المدْرَك إذا أدركه المدْرِك تصَوَّر نفسه، والشَّاهد أنَّ الأعراض التي لا تُدرك لا تُتَصوَّر، نحو: العلم والقدرة،

---

(١) انظر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (١/٣٤٣).
(٢) انظر: ((المصدر السابق)) (١/٣٠٤).

والتَّمثُّل مثل التَّصَوُّر إلَّا أنَّ التَّصَوُّر أبلغ؛ لأنَّ قولك: تَّصَوَّرت الشَّيء. معناه: أنِّي بمنزلة من أبصر صورته، وقولك: تمثَّلته. معناه: أنِّي بمنزلة من أبصر مثاله، ورؤيتك لصورة الشَّيء أبلغ في عِرفَان ذاته من رؤيتك لمثاله(١).

التَّرغيب في حُسْن الظَّن:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

قال ابن عاشور في تفسيره: (فيه تنبيه على أنَّ حقَّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في مؤمن، أن يبني الأمر فيها على الظَّن لا على الشَّك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام، فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير، ظنَّ أن ذلك إفك وبهتان، حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأنَّ ظنَّ السُّوء الذي وقع هو من خصال النِّفاق، التي سرت لبعض المؤمنين عن غرورٍ وقلة بَصارَة، فكفى بذلك تشنيعًا له)(٢).

وقال أبو حيان الأندلسي: (فيه تنبيه على أنَّ حقَّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في أخيه، أن يبني الأمر فيه على ظنِّ الخير، وأن يقول بناء على ظنِّه: هذا إفك مبين، هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه، كما يقول المستيقن المطَّلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الحَسَن)(٣).

وقال الخازن: (والمعنى: كان الواجب على المؤمنين إذ سمعوا قول أهل الإفك

(١) انظر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (٣٤٢/١).
(٢) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (١٧٤/١٨- ١٧٥).
(٣) ((البحر المحيط في التفسير)) لأبي حيان الأندلسي (٢١/٨-٢٢).

أن يكذبوه ويحسنوا الظَّن، ولا يسرعوا في التُّهمة، وقول الزُّور فيمن عرفوا عفَّته وطهارته)[(١)].

- وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن حجر الهيتمي: (عقَّب تعالى بأمره باجتناب الظَّن، وعلَّل ذلك بأنَّ بعض الظَّن إثم، وهو ما تخيَّلت وقوعه من غيرك من غير مستند يقيني لك عليه، وقد صمَّم عليه قلبك، أو تكلَّم به لسانك من غير مسوِّغ شرعي)[(٢)].

ويقول الطبري: (يقول تعالى ذكره: يا أيُّها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيراً من الظَّن بالمؤمنين، وذلك إن تظنوا بهم سوءًا، فإنَّ الظَّان غير محق، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: الظَّن كلَّه، إذ كان قد أَذِن للمؤمنين أن يظنَّ بعضهم ببعض الخير، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢]، فأَذِن الله جلَّ ثناؤه للمؤمنين أن يظنَّ بعضهم ببعض الخير، وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قِيلِه فيهم على يقين.... عن ابن عباس، قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾يقول: نهى الله المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شرًّا. وقوله: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ يقول: إنَّ ظنَّ المؤمن بالمؤمن الشَّر لا الخير، إثْمٌ؛ لأنَّ الله قد نهاه عنه، فَفِعْل ما نهى الله عنه إثْمٌ)[(٣)].

---

(١) ((لباب التأويل في معاني التنزيل)) للخازن (٣/٢٨٨).

(٢) ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (٢/٩).

(٣) ((تفسير الطبري)) (٢٢/٣٠٣-٣٠٤).

• ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: ((إيَّاكم والظَّن، فإنَّ الظَّن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا))[١].

قال النَّووي: (المراد: النَّهي عن ظنِّ السَّوء، قال الخطَّابي: هو تحقيق الظَّن وتصديقه دون ما يهجس في النَّفس، فإنَّ ذلك لا يُمْلَك. ومراد الخطَّابي أنَّ المحَرَّم من الظَّن ما يستمر صاحبه عليه، ويستقر في قلبه، دون ما يعرض في القلب ولا يستقر، فإنَّ هذا لا يكلَّف به)[٢].

قال الغزالي: (أي: لا يحقِّقه في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فبتغيره إلى النُّفرة والكراهة، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه. والشَّيطان قد يقرِّر على القلب بأدنى مَخِيلة مَسَاءة النَّاس، ويلقي إليه أنَّ هذا من فطنتك، وسرعة فهمك وذكائك، وأنَّ المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التَّحقيق ناظر بغرور الشَّيطان وظلمته)[٣].

- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، فقال: ((ما أعظم حُرْمَتك)). وفي رواية أبي حازم: ((لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، قال: مرحبًا بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك، ولَلْمؤمن أعظم حُرْمَة عند الله منكِ، إنَّ الله حرَّم منكِ واحدة، وحرَّم من المؤمن ثلاثًا: دمه، وماله، وأن يُظنَّ به ظنَّ السَّوء))[٤].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٢٨)، وأحمد (٨١٠٣)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٦٠٦٤).

(٢) ((شرح النووي على مسلم)) (١١٩/١٦).

(٣) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٥١/٣).

(٤) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٩٦/٥) (٦٧٠٦)، ضعَّف إسناده العراقي في ((تخريج =

قال الغزالي: (فلا يُستباح ظنُّ السُّوء إلا بما يُستباح به المال، وهو نفس مشاهدته أو بيِّنةٍ عادلةٍ. فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظَّن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرِّر عليها أنَّ حاله عندك مستور كما كان، وأنَّ ما رأيته منه يحتمل الخير والشَّر. فإنْ قلت: فبماذا يُعرف عقد الظَّن والشُّكوك تختلج، والنَّفس تحدِّث؟ فتقول: أمارة عقد سوء الظَّن أن يتغيَّر القلب معه عما كان، فينفِر عنه نُفُورًا ما، ويستثقله، ويفتر عن مراعاته، وتفقُّده وإكرامه، والاغتمام بسببه. فهذه أمارات عقد الظَّن وتحقيقه)[1].

- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول: ((ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك. والذي نفس محمَّد بيده، لحُرْمَة المؤمن أعظم عند الله حرْمَة منكِ، ماله ودمه، وأن نظنَّ به إلَّا خيرًا))[2].

أقوال السَّلف والعلماء في حُسْن الظَّن:

- قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: (لا يحلُّ لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءًا، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجًا. وقال أيضًا: لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنه)[3].

= الإحياء)) (١٨٦/٣)، وقال في موضع آخر (٢٢١/٢): رجاله ثقات، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٤٢٠): إسناده حسن رجاله ثقات.

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٥١/٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٧٨٥)، قال البوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (٢٨٤/٢): إسناده فيه مقال. وقال ابن حجر في ((الكافي الشاف)) (٢٦٨): إسناده فيه لين. وقال السخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (٥١٢): إسناده لين. وأورده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) رقم: (٣٤٢٠)، و ((صحيح الترغيب والترهيب)) رقم: (٢٤٤١).

(٣) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٤٧/١).

- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (من علم من أخيه مروءة جميلة فلا يسمعنَّ فيه مقالات الرِّجال، ومن حَسُنت علانيته فنحن لسريرته أرجى)(١).

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كنَّا إذا فقدنا الرَّجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر، أسأنا به الظَّنَّ)(٢).

- وعن سعيد بن المسيَّب قال: (كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله: أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنَّن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا)(٣).

- وقال المهلب: (قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا، إذ يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فإذا جعل الله سوء الظَّن بالمؤمنين إفكًا مبينًا، فقد ألزم أن يكون حُسْن الظَّن بهم صدقًا بينًا)(٤).

- وروى معمر عن إسماعيل بن أمية قال: (ثلاث لا يعجزن ابن آدم، الطِّيرة، وسوء الظَّن والحسد. قال: فينجيك من سوء الظَّن أن لا تتكلم به، وينجيك من الحسد أن لا تبغي أخاك سوءًا، وينجيك من الطِّيرة أن لا تعمل بها)(٥).

- وقال قتادة: (إنَّ الظَّن اثنان: ظنٌّ يُنْجِي، وظنٌّ يُرْدِي)(٦).

---

(١) ذكره ابن بطال في ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٢٦١).
(٢) رواه الطبراني (١٢/٢٧١) (١٣٠٨٥)، والبيهقي (٣/٥٩) (٥١٥٢). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/٤٣): رجال الطبراني موثقون. وصحَّح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٧/٢٠٩).
(٣) ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/٢٩١).
(٤) ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٩/٢٦١).
(٥) ((المصدر السابق)).
(٦) انظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/٣٥٣).

فوائد حُسْن الظَّن:

إن لم يكن في هذه الصِّفة إلَّا راحة القلب، وسلامة البال لكفى، كيف لا، وبها يسلم الإنسان من الخواطر الرَّديئة التي تقلقه، وتؤذي نفسه، وتجلب عليه كَدَرَ البال، وتعب النَّفس والجسد، ومن هنا نعرف فضيلة هذه الصِّفة الرَّائعة والخُلق الفاضل، وهذه جملة من فوائد حسن الظن:

١- حُسْن الظَّن علامة على كمال الإيمان في قلب المتحلِّي به، فلا يظنُّ بالمؤمنين خيرًا إلا من كان منهم، كما قال تبارك وتعالى في سورة النُّور: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النُّور: ١٢].

٢- فيه إغلاق باب الفتنة والشَّر على الشَّيطان الرَّجيم؛ فإنَّ من أبوابه سوء الظَّن بالمسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فمن يَحْكُم بشرٍّ على غيره بالظَّن، بعثه الشَّيطان على أن يطول فيه اللِّسان بالغيبة فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه، أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيرًا منه. وكل ذلك من المهلكات[١].

٣- طريق من طرق زيادة الألفة والمحبَّة بين أفراد المجتمع المسلم، وحماية له من التَّفكُّك والتَّشرذم.

٤- حصن منيع يحمي المجتمع من إشاعة الفاحشة، وانتشار الرَّذيلة، وبه يسلم المجتمع من انتِّهاك حقوق النَّاس وأعراضهم وخصوصياتهم.

٥- دليل على سلامة القلب وطهارة النَّفس، وزكاء الرُّوح.

---

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/٣٦).

أقسام الظَّن:

- **ينقسم الظَّن من حيث الحمد والذم إلى قسمين:**

١- ظنٌّ محمود:

وهو ما عبرنا عنه هنا بحسن الظَّن، وهو المقصود هنا، قال القرطبي: (الظَّن في الشَّريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه: ما سلم معه دين الظَّان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضدُّه)[١].

٢- ظنٌّ مذموم:

وهو ضد الأول المحمود، كما سبق في كلام القرطبي، ولزيادة توضيحه وبيانه نقول: هو ما تخيلت وقوعه من غيرك من غير مستند يقيني لك عليه، وقد صمَّم عليه قلبك، أو تكلَّم به لسانك من غير مسوِّغ شرعي[٢].

وهو سوء الظَّن المنهي عنه شرعًا، والذي حذرنا منه كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم، وقد أجاز العلماء بعض صوره، قال أبو حاتم: (سوء الظَّن على ضربين:

أحدهما: منهي عنه بحكم النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلم.

والآخر: مستحب.

فأما الذي نهى عنه، فهو استعمال سوء الظَّن بالمسلمين كافةً، وأمَّا الذي يستحب من سوء الظَّن، فهو كمن بينه وبين آخر عداوة أو شحناء في دين أو دنيا، يخاف على نفسه من مَكْرِه، فحينئذ يلزمه سوء الظَّن بمكائده ومَكْرِه؛

---

(١) ((تفسير القرطبي)) (١٦/٣٣٢).

(٢) ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (٢/٩).

كي لا يصادفه على غرَّة بمكره فيهلكه. قال الشَّاعر:

وحُسْن الظَّن يَحْسُن في أمور ويمكن في عواقبه ندامه
وسوء الظَّن يسمج[1] في وجوه وفيه من سماجته حزامه[2]

صور حُسْن الظَّن:

١- حُسْن الظَّن بالله:

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول: ((لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحُسْن الظَّن بالله عزَّ وجلَّ))[3].

فإحسان الظَّن بالله تبارك وتعالى واجب، وهو أُنْسٌ للعبد في حياته، ومَنْجَى له بعد مماته، قال النَّووي في شرحه على صحيح مسلم: (قال العلماء: معنى حُسْن الظَّن بالله تعالى: أن يَظُنَّ أنَّه يرحمه، ويعفو عنه. قالوا: وفي حالة الصِّحَّة يكون خائفًا، راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح. فإذا دنت أمارات الموت، غلَّب الرَّجاء، أو محَّضه؛ لأنَّ مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي، والقبائح، والحرص على الإكثار من الطَّاعات، والأعمال، وقد تعذَّر ذلك، أو معظمه في هذا الحال، واستُحِبَّ إحسان الظَّن المتضمِّن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعان له)[4].

وقال ابن القيِّم: (كلما كان العبد حَسن الظَّن بالله، حَسن الرَّجاء له، صادق التوكُّل عليه: فإنَّ الله لا يخيِّب أمله فيه البتَّة؛ فإنَّه سبحانه لا يخيِّب

---

(١) يسمج: يقبح ((القاموس المحيط)) (ص ١٩٤).

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٢٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/٢٥٦).

أمل آملٍ، ولا يضيِّع عمل عاملٍ، وعبَّر عن الثقة وحُسْن الظَّن بالسَّعة؛ فإنَّه لا أشرح للصَّدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْن ظنِّه به)[١]. وقال أيضًا: (فعلى قدر حُسْن ظنِّك بربِّك ورجائك له، يكون توكُّلك عليه؛ ولذلك فَسَّر بعضهم التَّوكُّل بحُسْن الظَّن بالله، والتَّحقيق: أنَّ حُسْن الظَّن به يدعوه إلى التوكُّل عليه، إذ لا يُتَصَوَّر التَّوكُّل على من ساء ظنك به، ولا التَّوكُّل على من لا ترجوه)[٢].

وقال داود الطَّائي: (ما نعوِّل إلا على حُسْن الظَّن بالله تعالى، فأمَّا التَّفريط فهو المستولي على الأبدان)[٣].

٢- حُسْن الظَّن بين الرؤساء والمرؤوسين:

لا ينتظم أمر هذه الأمَّة إلا بالعلاقة الحسنة بين أفرادها رؤساء ومرؤوسين، لذا كان من وصيَّة عليٍّ رضي الله عنه للأشتر عندما ولَّاه مصر: (اعلم أنَّه ليس شيء أدعى إلى حُسْن ظنِّ والٍ برعيَّته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عنهم، وترك استكراهه إيَّاهم على ما ليس له قِبَلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حُسْن الظَّن برعيتك، فإنَّ حُسْن الظَّن يقطع عنك نصبًا طويلًا، وإنَّ أحقَّ من حَسُن ظنُّك به، لمنْ حَسُن بلاؤك عنده، وإنَّ أحقَّ مَنْ ساء ظنُّك به، لمنْ ساء بلاؤك عنده...)[٤].

وقال طاهر بن الحسين لابنه وهو يوصيه: (ولا تتَّهمنَّ أحدًا من النَّاس فيما تولِّيه من عملك قبل أن تكشف أمره، فإنَّ إيقاع التُّهم بالبرآء، والظُّنون السَّيئة

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/٤٧١).
(٢) ((المصدر السابق)) (٢/١٢١).
(٣) ((محاسبة النفس)) لابن أبي الدنيا (١/٤٦).
(٤) ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (١/٣١٨ - ٣١٩).

بهم مَأْثَمٌ، واجعل من شأنك حُسْن الظَّن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظَّن بهم، وارفضه فيهم، يعينك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم، لا يجدنَّ عدوُّ الله الشَّيطان في أمرك مفخرًا، فإنَّه إنَّما يكتفي بالقليل من وهنك، فيُدخل عليك من الغمِّ في سوء الظَّن ما ينغصك لذاذة عيشك، واعلم أنَّك تجد بحُسْن الظَّن قوة وراحة، وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به النَّاس إلى محبَّتك، والاستقامة في الأمور كلِّها لك، ولا يمنعك حُسْن الظَّن بأصحابك والرأفة برعيَّتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرَّعيَّة، والنَّظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم، آثر عندك مما سوى ذلك، فإنَّه أقوم للدِّين، وأحيا للسُّنَّة)[١].

٣- حُسْن الظَّن بالإخوان والأصدقاء:

على المسلم أن يُحِسَن الظَّن بإخوانه المسلمين عامَّة، وبأصدقائه المقرَّبين خاصَّة، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيَّن أنه واجب على المسلم تجاه أخيه المسلم، فيجب على المسلم أن يلتمس لإخوانه الأعذار ما استطاع، ويحمل عليها ما يبلغه عنهم من قول أو فعل. فإذا لم يجد محملًا، فليقل: لعل لهم عذرًا لم أعرفه.

فإذا لم تطق ما سمعت من قول أو فعل أو تصرف، فاذهب إلى أخيك وصارحه بالأمر، وبيِّن له، فإنْ كان أخطأ بادر بتصحيح خطئه، وإن لم يكن كذلك أزال ما في قلبك من لَبْس، وبيَّن لك حقيقة الأمر فتطيب نفسك بذلك.

(إنَّ الخطأ في حُسْن الظَّن بالمسلم، أسلم من الصَّواب بالطَّعن فيهم، فلو

---

(١) ((جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة)) لأحمد زكي (٣/١٣٦-١٣٧).

سكت إنسان مثلًا عن لعن إبليس، أو لعن أبي جهل، أو أبي لهب، أو من شاء من الأشرار طول عمره، لم يضرَّه السُّكوت، ولو هفا هفوة بالطَّعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك، بل أكثر ما يُعْلم في النَّاس لا يحل النُّطق به؛ لتعظيم الشَّرع الزَّجر عن الغيبة، مع أنَّه إخبار عما هو متحقِّق في المغتاب. فمن يلاحظ هذه الفصول، ولم يكن في طبعه ميلٌ إلى الفضول، آثر ملازمته السُّكوت وحُسْن الظَّن بكافة المسلمين، وإطلاق اللِّسان بالثَّناء على جميع السَّلف الصَّالحين. هذا حكم الصَّحابة عامَّة)[1].

٤- حُسْن الظَّن بين الزَّوجين:

إنَّ إحسان الظَّن بين الزَّوجين من أهم الدَّعائم التي يُبْنى عليها البيت الدَّائم والمستقر والمطمئن، وبغير حُسْن الظَّن: فإنَّ البيوت مهدَّدة بالانهيار والتَّشرذم والفرقة والطَّلاق.

لا بد أن يكون بين الزَّوجين حُسْن ظنٍّ متبادلٍ، وألَّا يتركا للشَّيطان مجالًا للتَّلاعب بهما، وقذف الشُّكوك في قلبيهما؛ لأنَّه متى ما انفتح باب إساءة الظَّن بينهما صعب إغلاقه، وجرَّ ذلك إلى ويلات قد تهدِّد استقرار البيت بأكمله.

هناك الكثير من الأزواج والزَّوجات أصحاب طبيعة قلقة، وأنفس متوتِّرة، يغلِّبون جانب الشُّكوك على جانب السَّلامة، فتراهم يجنحون إلى سوء الظَّن، ويفسِّرون الأمور على أسوأ تفسيراتها وأردأ احتمالاتها، وفي هذا خطر كبير على استمرار الحياة الأسرية، فينبغي على الأزواج والزَّوجات أن يغلِّبوا حسْن الظَّن، ويطردوا الشَّك والرِّيبة.

---

(١) ((الاقتصاد في الاعتقاد)) لأبي حامد الغزالي (١/٧٩).

موانع اكتساب حُسْن الظَّن:

١- العيش في مجتمع يغلب عليه سوء الظَّن، وانتشار الشُّكوك في أفراده.

٢- التَّربية منذ الصِّغر على سوء الظَّن وتغليب جانب التُّهمة على السَّلامة.

٣- الجهل بأحكام الدِّين الحنيف، والابتعاد عن تعاليمه الدَّاعية إلى حُسْن الظَّن.

٤- الجهل بهذه الصِّفة الطَّيبة وآثارها الجميلة في المجتمع.

٥- مصاحبة الأشرار: فقرناء السُّوء لهم تأثير كبير في هذا الجانب، فمن عاشرهم وخالطهم أورثوه من أخلاقهم، وأعطوه من صفاتهم، قال أبو حاتم البستي: (العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأنَّ مَوَدَّة الأخيار سريع اتصالها، بطيء انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها، بطيء اتصالها، وصحبة الأشرار تورث سوء الظَّن بالأخيار، ومن خَادَن الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم)[1].

٦- الحسد والغلُّ والحقد، وهذه الصِّفات تدعو إلى سوء الظَّنِّ بالإخوان النَّاشئ عن تمنِّي الشَّر لهم.

الوسائل المعينة على اكتساب حُسْن الظَّن:

١- دعاء الله سبحانه، والابتهال إليه حتى يمن عليك بقلب سليم، فالدُّعاء علاج ناجع، ووسيلة نافعة، ليس لهذه الصِّفة فحسب، بل لجميع الأمور الدينيَّة والدنيويَّة.

٢- الاقتداء بالرَّسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، وسلف

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (٩٩-١٠٠).

الأمَّة الصَّالح في حُسْن ظنِّهم ببعضهم، وتعاملهم مع الإشاعات والأكاذيب، ومحافظتهم على أواصر الحبِّ والمَوَدَّة بينهم.

٣- التَّربية الحسنة للأبناء منذ نعومة أظفارهم، على حُسْن الظَّن، فينمو الفرد، ويترعرع في ظلِّ هذه الصِّفة الحميدة، فتتجذَّر في نفسه، وتتأصَّل في داخله، وتصبح سجيَّة له لا تنفك عنه أبدًا بإذن الله.

٤- أن ينزل المرء نفسه منزلة غيره، وهو علاج ربَّاني، ودواء قرآني، أرشد الله إليه المؤمنين، وعلَّمهم إيَّاه، حيث قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النُّور: ١٢] فأشعرهم تبارك وتعالى أنَّ المؤمنين كيان واحد، وضرر الفرد منهم ضرر للجماعة بأكملها.

ولو استشعر كلُّ مؤمن هذا الأمر عند صدور فعل أو قول من أخيه، فوضع نفسه مكانه، لدعاه ذلك إلى إحسان الظَّن بالآخرين.

٥- محاولة زيادة الإيمان بفعل الخيرات والطَّاعات، وعلاج أمراض القلب من الحسد والغلِّ والخيانة وغيرها، فمتى ما زاد إيمان المرء وصفى قلبه من هذه الأمراض والأوبئة، حَسُن ظنُّه بإخوانه.

٦- حمل الكلام على أحسن محامله ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

٧- أن يلتمس المؤمن الأعذار للمؤمنين، قال ابن سيرين: (إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه)[1].

وفي التماس الأعذار راحة للنَّفس من عناء الظَّن السَّيئ، الذي يشغلها ويقلقها، وفيه أيضًا إبقاء على المَوَدَّة، وحفاظ عليها من الزوال والانتهاء.

---

(١) ((روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار)) للأماسي (١/ ٧٠).

تأن ولا تعجل بلومك صاحبا   لعلَّ له عذرًا وأنت تلوم[١]

٨- إجراء الأحكام على الظاهر، ويوكل أمر الضَّمائر إلى الله عز وجل، ويتجنَّب الحكم على النِّيَّات، فإنَّ الله لم يكلِّفنا أنَّ نفتِّش في ضمائر النَّاس.

والاكتفاء بظاهر الشَّخص، والحكم عليه من خلاله، من أعظم بواعث حُسْن الظَّن، وأقوى أسبابها.

٩- أن يستحضر العبد الآفات التي تنتج عن سوء الظَّن، وما يترتب عليه من آثار، فهو دافع لأن يُحْسِن الرَّجل ظنَّه بغيره.

١٠- البعد عن كلِّ من اتصف بما يضادُّ هذه الصِّفة الحسنة، ممن لا يتورَّعون عن إلقاء التُّهم على عباد الله جزافًا، بلا تثبُّت. وهؤلاء هم أسوأ النَّاس، فقد قيل لبعض العلماء: من أسوأ النَّاس حالًا؟ قال: من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله[٢].

نماذج لحُسْن الظَّن:

• نموذج من حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم:

علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم حُسْن الظَّن، وبيَّن لهم أنَّ الأصل في المؤمن السَّلامة، وأنَّ الإنسان لا بدَّ له من التماس الأعذار لمن حوله، وعليه أن يطرد الشُّكوك والرِّيبة التي قد تدخل في قلبه، فيترتَّب عليها من الآثار ما لا يُحْمَد عقباه، فهذا رجل جاء إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم وقد داخلته الرِّيبة في امرأته، وأحاطت به ظنون السُّوء

---

(١) ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (٢/٢٨٢).

(٢) انظر: ((البرصان والعرجان والعميان والحولان)) للجاحظ (ص ٣٢)، بتصرف يسير.

فيها؛ لأنَّها ولدت غلامًا أسود، على غير لونه ولونها، فأزال النَّبي صلى الله عليه وسلم ما في قلبه من ظنٍّ وريبة، بسؤاله عن لون إبله، فقال: ((ألوانها حمر. قال: هل فيها من أورق[1]؟ قال: نعم. قال: فأنَّى ذلك؟ قال: لعله نزعه عرق. قال: فلعل ابنك هذا نزعه عرق[2]))[3].

• نموذج من الصَّحابة رضي الله عنهم:

وقد كان الصَّحابة رضوان الله عليهم، مثالًا يُحتذى بهم في حُسْن الظَّن بالمؤمنين، فهذا أبو أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول النَّاس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب. أكنت أنت يا أمَّ أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله[4].

• نموذج من السَّلف:

مرض الشافعي رحمه الله، فأتاه بعض إخوانه يعوده، فقال للشافعي: قوَّى الله ضعفك. فقال الشافعي: لو قوى ضعفي لقتلني. قال: والله ما أردت إلَّا الخير. فقال الشافعي: أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير[5].

حُسْن الظَّن في واحة الأدب والأمثال:

١- قالوا: من جعل لنفسه من حُسْن الظَّن بإخوانه نصيبًا، أراح قلبه.

يعني إنَّ الرَّجل إذا رأى من أخيه إعراضًا أو تغيرًا، فحمله منه على وجه

(١) الأورق: هو الذي فيه سواد ليس بصاف. ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/١٣٣).
(٢) نزعة عرق: العرق الأصل من النسب تشبيهًا بعرق الثمرة... ومعنى نزعه: أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/١٣٣).
(٣) رواه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).
(٤) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٧/٢١٢).
(٥) ((آداب الشافعي ومناقبه)) لابن أبي حاتم (ص ٢٠٩).

جميل، وطلب له الأعذار، خفَّف ذلك عن قلبه، وقَلَّ منه غيظه واغتمامه[١].

٢- وقال محمَّد بن حرب: (صواب الظَّن، الباب الأكبر من الفراسة).

٣- وقال رجل لصاحب له: إنَّما اشتدَّ غضبي؛ لأنَّ من كان علمه أكثر، كان ذنبه أكبر، قال: فهلا جعلت سعة علمي سبيلًا إلى حُسْن الظَّن بنزوعي، أو إلى أنِّي غالط في تفريطي، مخطئ بقصدي، غير معاند لك، ولا جريء عليك[٢].

٤- وقال الخليل بن أحمد: يجب على الصَّديق مع صديقه استعمال أربع خصال: الصَّفح قبل الاستقالة، وتقديم حُسْن الظَّن قبل التُّهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب. وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتك خاطبًا لمَوَدَّتك. قال: قد زوجتكها على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمع في مقالة النَّاس. وقالوا: السِّتر لما عاينت، أحسن من إذاعة ما ظننت[٣].

٥- وقيل: (ليكن حُسْن الظَّن بمقدار ما، والفَطِن لا تخفى عليه مخايل الأحوال، وفي الوجوه دلالات وعلامات)[٤].

٦- وقال أحد الزُّهاد: (ألق حُسْن الظَّن على الخَلْق، وسوء الظَّن على نفسك، لتكون من الأوَّل في سلامة، ومن الآخر على الزيادة).

حُسْن الظَّن في واحة الشِّعر:

قال المتنبي:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُه   وصدَّق ما يعتادُه من توهُّمِ

---

(١) ((الأمثال)) لابن سلام (ص ١٨٤).

(٢) ((الصداقة والصديق)) لأبي حيان التوحيدي (ص ١٥٩).

(٣) ((غرر الخصائص الواضحة)) لأبي إسحاق الوطواط (ص ٥٤٢).

(٤) ((جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة)) لأحمد زكي (٣/٢١٣).

وعادى محبِّيه بقولِ عُداتِه ... فأصبح في دَاجٍ[١] من الشَّكِّ مظلمِ[٢]

قال الشَّاعر:

حَسِّنِ الظَّنَّ تعشْ في غبطةٍ ... إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ مِن أوقى الجنَنْ

مَن يظن السُّوءَ يُجْزَى مثلَه ... قلَّما يُجْزَى قبيحٌ بحسنْ[٣]

وقال آخر:

من ساء ظَنًّا بما يهواه فارقه ... وحرَّضته على إبعادِه التُّهمُ[٤]

ولقد أحسن الذي يقول:

ما يستريحُ المسيءُ ظنًّا ... مِن طولِ غمٍّ وما يريحُ[٥]



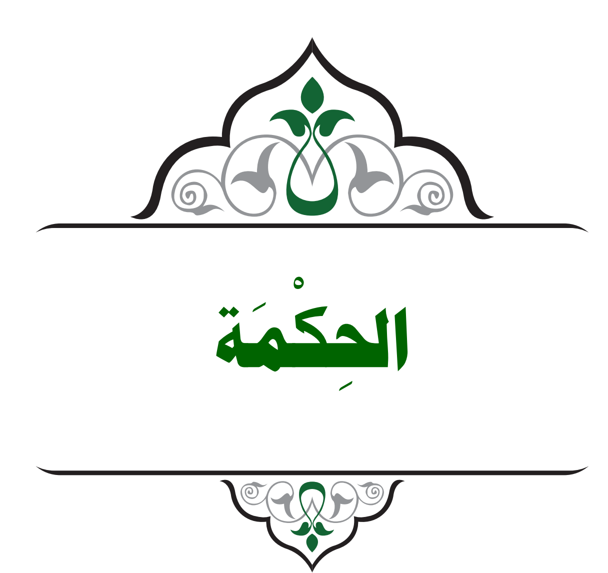
(١) من دجا: الدجى: سواد الليل مع غيم، وأن لا ترى نجما ولا قمرا، وقيل: هو إذا ألبس كل شيء وليس هو من الظلمة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/٢٤٩).

(٢) ((نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)) لأحمد المقري (٥/٥٧٦).

(٣) ((ديوان المتنبي)) (ص ٤٥٩).

(٤) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (٢/٢٥).

(٥) ((صيد الأفكار)) لحسين بن محمد المهدي (١/٥٠٥).



الحِكْمَة

الحِكْمَة

معنى الحِكْمَة لغةً واصطلاحًا:

• الحِكْمَة لغةً:

الحَكَمَةُ: ما أحاط بحَنَكَي الفرس، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تمنعه من الجري الشَّديد، وتُذلِّل الدَّابَّة لراكبها، حتى تمنعها من الجِماح[1]، ومنه اشتقاق الحِكْمَة؛ لأنَّها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل.

وأَحْكَمَ الأَمْرَ: أي أَتْقَنَه فاستَحْكَم، ومنعه عن الفساد، أو منعه من الخروج عمَّا يريد[2].

• معنى الحِكْمَة اصطلاحًا:

قال أبو إسماعيل الهروي: (الحِكْمَة اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه)[3].

وقال ابن القيِّم: (الحِكْمَة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي)[4].

وقال النَّووي: (الحِكْمَة، عبارة عن العلم المتَّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس،

---

(١) من جمح الفرس: إذا ذهب يجري جريًا غالبًا واعتز فارسه وغلبه. ((لسان العرب)) (٤٢٦/٢).

(٢) ((القاموس المحيط)) للفيروز أبادي (ص ١٤١٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤٣/١٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٦٢) ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (١١٩/١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١٤٥/١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥٣/٨)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (٢٨٨/١)، ((المعجم الوسيط)) (١٩/١).

(٣) ((منازل السائرين)) للهروي (ص ٧٨).

(٤) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٤٤٩/٢).

وتحقيق الحقِّ، والعمل به، والصدِّ عن اتِّباع الهوى والباطل، والحَكِيم من له ذلك)[١].

من معاني الحِكْمَة:

تُطلق الحِكْمَة على معانٍ عدَّة، منها[٢]:

١- الحِكْمَة بمعنى السُّنَّة، وبيان الشَّرائع:

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

قال ابن القيِّم: (الحِكْمَة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب. فالمفردة فُسِّرت بالنُّبُوَّة، وفُسِّرت بعلم القرآن. قال ابن عباس: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه، ومُحْكَمه ومُتَشَابهه، ومقدَّمه ومؤخَّره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال الضَّحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن، والعلم والفِقْه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل. وقال النَّخعي: هي معاني الأشياء وفهمها. وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنَّه فسَّرها بثمرتها ومقتضاها. وأما الحِكْمَة المقرونة بالكتاب، فهي السُّنَّة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة. وقيل: هي القضاء بالوحي، وتفسيرها بالسُّنَّة أعم وأشهر)[٣].

---

(١) ((شرح النووي على مسلم)) (٢/٣٣).

(٢) ((نضرة النعيم)) (٥/١٦٩٢).

(٣) ((تفسير القرآن الكريم)) لابن القيم (التفسير القيم) (ص ٢٣١).

٢- الحِكْمَة بمعنى النُّبُوَّة:

قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف: ٦٣].

٣- الحِكْمَة بمعنى الفِقْه:

قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٤- الحِكْمَة بمعنى الفَهْم، وحُجَّة العقل وفقًا للشَّريعة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢].

٥- الحِكْمَة بمعنى العِظَة:

قال تعالى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٥].

الترغيب في الحِكْمَة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم

﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النَّحل: ١٢٥].

(﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ أي: بالمقالة المحْكَمة الصَّحيحة. وهو الدَّليل الموضِّح للحقِّ، المزيح للشُّبهة)[1].

- وقال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(أي: أنَّه تعالى يُعطي الحِكْمَة والعلم النَّافع المصرِّف للإرادة، لمن يشاء من عباده، فيميِّز به الحقائق من الأوهام، ويسهل عليه التَّفرقة بين الوسواس والإلهام، وآلة الحِكْمَة، العقل المستقل بالحكم في إدراك الأشياء بأدلتها، على حقيقتها، ومن أُوتي ذلك عرف الفرق بين وعد الرَّحمن ووعد الشَّيطان، وعضَّ على الأوَّل بالنَّواجذ، وطرح الثَّاني وراءه ظهريًّا، وفهم الأمور)[2].

وقال السعدي: (إنَّ من آتاه الله الحِكْمَة فقد آتاه خيرًا كثيرًا، وأيُّ خير أعظم من خير فيه سعادة الدَّارين، والنَّجاة من شقاوتهما! وفيه التَّخصيص بهذا الفضل، وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقِّف على الحِكْمَة، إذ كماله بتكميل قوَّتيه العلميَّة والعمليَّة، فتكميل قوَّته العلميَّة: بمعرفة الحقِّ، ومعرفة المقصود به، وتكميل قوَّته العمليَّة: بالعمل بالخير وترك الشَّر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل، وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك)[3].

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا

(١) ((محاسن التأويل)) للقاسمي (٦/٤٢٢).
(٢) ((تفسير المراغي)) (٣/٤١-٤٢).
(٣) ((تفسير السعدي)) (ص ١١٥).

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢].

(يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لُقْمان، بالحِكْمَة، وهي العلم بالحقِّ على وجهه وحِكْمَته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالمًا، ولا يكون حكيمًا)[١].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها))[٢].

قال النَّووي: (ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها، معناه: يعمل بها ويعلِّمها احتسابًا، والحكمة: كلُّ ما منع من الجهل، وزجر عن القبيح)[٣].

- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ضمَّني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: ((اللهمَّ علِّمه الحِكْمَة))[٤].

قال ابن حجر: (اختلف الشُّرَّاح في المراد بالحِكْمَة هنا، فقيل: القرآن، كما تقدم، وقيل: العمل به، وقيل: السُّنَّة، وقيل: الإصابة في القول، وقيل: الخشية، وقيل: الفهم عن الله، وقيل: العقل، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل: نور يُفرِّق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة. وبعض هذه الأقوال ذكرها بعض أهل التَّفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ

---

(١) ((تفسير السعدي)) (ص ٦٤٨).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).

(٣) ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩٨).

(٤) رواه البخاري (٣٧٥٦).

ﭐلۡحِكۡمَةَ ﴾، والأقرب أنَّ المراد بها في حديث ابن عباس: الفهم في القرآن)[1].

أقوال السَّلف وأهل العلم في الحِكْمَة:

- قال ابن مسعود رضي الله عنه: (ينبغي لحامل القرآن، أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا)[2].

- وكتب سلمان إلى أبي الدَّرداء: (إنَّما العلم كالينابيع، فينفع به الله من شاء، ومَثَلُ حِكْمَة لا يُتَكلَّم بها، كجسد لا رُوح له)[3].

- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (كونوا ربَّانيِّين حُكَماء فقهاء)[4].

- وعن عكرمة، قال: (قال عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم: لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير، فإنَّ الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعط الحِكْمَة من لا يريدها، فإنَّ الحِكْمَة خيرٌ من اللؤلؤ، ومن لم يردها شرٌّ من الخنزير)[5].

- وقال عمر بن عبد العزيز: (إذا رأيتم الرَّجل يطيل الصَّمت، ويهرب من النَّاس، فاقْرَبوا منه؛ فإنَّه يُلقَّى الحِكْمَة)[6].

- وعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: (مكتوبٌ في الحِكْمَة، بُنَيَّ لتكن كلمتك طيِّبة، وليكن وجهك بسيطًا، تكن أحبَّ إلى النَّاس ممَّن يعطيهم العطاء)[7].

---

(١) ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٧٠).
(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٥٨٤)، وأحمد في ((الزهد)) (١٣٣)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١/١٢٩) موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٧/١٢١).
(٤) ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٩٢).
(٥) رواه البيهقي في ((المدخل إلى السنن الكبرى)) (ص ٣٥٦)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (١/٤٥٠).
(٦) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/٢٨٩).
(٧) ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك، و((الزهد)) لنعيم بن حماد (١/٣٧٣).

- وقال سليمان بن عبد الملك: (يا أبا حازم! من أعقل النَّاس؟ فقال أبو حازم: من تعلَّم الحِكْمَة وعلَّمها النَّاس)[١].

- وقال وهب بن منبه: (إنَّ الحِكْمَة تسكن القلب الوَادِع السَّاكن)[٢].

- وقال حماد بن أبي حنيفة: (كان يقال: من يستقبل وجوه الآراء، عرف مواقع الخطأ، ومن عُرِف بالحِكْمَة لمحته الأعين بالوقار)[٣].

- وعن ابن عيينة قال: (كان يقال: إنَّ أفضل ما أُعطي العبد في الدُّنيا الحِكْمَة، وفي الآخرة الرَّحمة)[٤].

- وقال وهيب بن الورد: (بلغنا أنَّ الحِكْمَة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصَّمت، والعاشرة في عزلة النَّاس)[٥].

- وعن كثير بن مرَّة قال: (لا تحدِّث الباطل للحُكَمَاء فيمقتوك، ولا تحدِّث الحِكْمَة للسُّفهاء فيكذِّبوك، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تضعه في غير أهله فتجهل. إنَّ عليك في علمك حقًّا، كما إنَّ عليك في مالك حقًّا)[٦].

- وقال أبو بكر بن دريد: (كلُّ كلمة وعظتك وزجرتك، أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح، فهي حِكْمَة)[٧].

- وقال عبد الرَّحمن الحبلي: (ليس هديَّة أفضل من كلمة حِكْمَة تهديها لأخيك)[٨].

---

(١) ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدينوري (١٥١/٨).

(٢) ((سنن الدارمي)) (٤٧١/١).

(٣) ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدينوري (٢٧٦/٦).

(٤) ((المصدر السابق)) (٣٠٤/٦).

(٥) ((العزلة)) للخطابي (ص ١٩).

(٦) ((سنن الدارمي)) (١١٧/١).

(٧) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (٣٣/٢).

(٨) ((سنن الدارمي)) (٣٥١).

- وقال أبان بن سليم: (كلمة حِكْمَة لك من أخيك، خير لك من مال يعطيك؛ لأنَّ المال يطغيك، والكلمة تهديك)[1].

فوائد الحِكْمَة:

١- من فوائد الحِكْمَة، أنها طريق إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ، موصلة إليه، مقرِّبة منه، وحينها ينقطع العبد عمن سواه، ولا يطمع في غيره.

٢- أنَّها سِمَة من سمات الأنبياء والصَّالحين، وعلامة للعلماء العاملين، ومزيَّة للدُّعاة المصلحين.

٣- من أهمِّ فوائد الحِكْمَة، الإصابة في القول والسَّداد والعمل.

٤- أنَّها ترفع الإنسان درجات وتشرِّفه، وتزيد من مكانته بين النَّاس، فعن مالك بن دينار قال: (قرأت في بعض كتب الله: أنَّ الحِكْمَة تزيد الشَّريف شرفًا، وترفع المملوك حتى تُجْلِسه مجالس الملوك)[2].

٥- فيها دلالة على كمال عقل صاحبها وعلوِّ شأنه، وهذا يجعله قريبًا من النَّاس، حبيبًا لقلوبهم، ومَهْوَى أفئدتهم، يقول فيسمعون، ويأمر فيطيعون؛ لأنَّهم يدركون أنَّ رأيه نِعْم الرأي، ومشورته خير مشورة.

٦- أنَّها تدعو صاحبها للعمل على وفق الشَّرع، فيصيب في القول والفعل والتَّفكير، ويسير على هدى وبصيرة. قال أبو القاسم الجنيد بن محمد، وقد سئل: بم تأمر الحِكْمَة؟ قال: (تأمر الحِكْمَة بكلِّ ما يُحْمَد في الباقي أثره،

---

(١) ((بهجة المجالس وأنس المجالس)) لابن عبد البر (١/٥).

(٢) ((الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه)) لأبي هلال العسكري (ص ٥٠).

ويطيب عند جملة النَّاس خبره، ويُؤْمَن في العواقب ضرره)[١].

٧- تعطي العبد نفاذًا في البصيرة، وتهذيبًا للنَّفس، وتزكية للرُّوح، ونقاءً للقلب.

٨- تكسو العبد بثوب الوقار، وتحلِّيه بحلية الهيبة، وتخلع عليه ثياب البهاء والإجلال.

٩- يكون صاحبها كالغيث حيثما حلَّ نفع، وأينما وُضِع أفاد، فيتعلَّم منه الكبير والصَّغير، ويكون مصدر خير بإذن الله.

١٠- تحفظ الإنسان عن ارتكاب السُّوء أو التَّلفظ به، أو ارتكاب المحذورات، أو التَّجنِّي على الغير، أو عمل ما يضطره للاعتذار وطلب العفو، قال أبو القاسم الجنيد بن محمد، وقد سئل عما تنهى الحِكْمَة؟ فقال: (الحِكْمَة تنهى عن كلِّ ما يحتاج أن يُعْتَذر منه، وعن كلِّ ما إذا غاب عِلْمُه عن غيرك، أَحْشَمَك ذكره في نفسك)[٢].

أنواع الحِكْمَة ودرجاتها:

- **الحِكْمَة نوعان:**

النَّوع الأوَّل: حِكْمَة علميَّة نظريَّة، وهي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا.

النَّوع الثَّاني: حِكْمَة عمليَّة، وهي وضع الشيء في موضعه[٣].

(١) ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) لأبي نعيم (١٣/٢٦١).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٤٧٨).

درجات الحِكْمَة:

وهي على ثلاث درجات:

الدَّرجة الأولى: أن تعطي كلَّ شيء حقَّه ولا تعدِّيه حدَّه، ولا تعجِّله عن وقته، ولا تؤخِّره عنه.

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق، تقتضيها شرعًا وقدرًا. ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعدَّاها. ولها أوقات لا تتقدَّم عنها ولا تتأخَّر، كانت الحِكْمَة مراعاة هذه الجهات الثلاث. بأن تُعطي كلَّ مرتبة حقَّها الذي أحقَّه الله بشرعه وقدره. ولا تتعدَّى بها حدَّها. فتكون متعديًا مخالفًا للحِكْمَة. ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحِكْمَة. ولا تؤخِّرها عنه فتفوتها... فالحِكْمَة إذًا: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي... فكلُّ نظام الوجود مرتبط بهذه الصِّفة. وكلُّ خلل في الوجود، وفي العبد فسببه الإخلال بها. فأكمل النَّاس، أوفرهم نصيبًا. وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال، أقلهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأَنَاة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطَّيش، والعجلة.

فلا حِكْمَة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول.

الدَّرجة الثَّانية: أن تشهد نظر الله في وَعْده، وتعرف عدله في حُكْمه. وتلحظ بِرَّه في منعه.

أي: تعرف الحِكْمَة في الوعد والوعيد، وتشهد حُكْمه كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٤٠]، فتشهد عدله في وعيده، وإحسانه في وعده، وكلٌّ قائمٌ بحِكْمَته.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشَّرعية، والكونيَّة الجارية على الخلائق، فإنَّه لا ظلم فيها، ولا حَيْف[١] ولا جور، وكذلك تعرف بِرَّه في منعه. فإنَّه سبحانه هو الجَوَاد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يَغِيض ما في يمينه سعَة عطائه. فما منع من منعه فضله إلَّا لحِكْمَة كاملة في ذلك.

الدَّرجة الثَّالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة. وفي إشارتك الغاية.

فتصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم. وهي البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصِّيصة التي اختصَّ بها الصَّحابة عن سائر الأمَّة، وهي أعلى درجات العلماء[٢].

موانع اكتساب الحِكْمَة:

١- من موانعها ما ذكره إبراهيم الخواص، حيث قال: (الحِكْمَة تنزل من السَّماء، فلا تسكن قلبًا فيه أربعة: الركون إلى الدُّنيا، وهمُّ غدٍ، وحبُّ الفضول، وحسد أخٍ)[٣].

٢- التَّعجل في الأمور، وترك التَّأني في اتخاذ القرار؛ فالعجلة في غير موضعها تدلُّ على خفَّة العقل، وقلَّة رزانته، وغلبة الشَّهوة عليه، ولهذا جعل ابن القيِّم من آفات الحِكْمَة وأضدادها العجلة، وقال: (فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول)[٤].

قال أبو حاتم البستي: (والعَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم،

(١) الحيف: الميل في الحكم، والجور والظلم. ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/٦٠).
(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٤٤٨-٤٥٢)، بتصرف.
(٣) ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) لأبي نعيم (١٣/٣٢٦).
(٤) ((الرائد - دروس في التربية والدعوة)) لمازن عبد الكريم الفريح (٣/٥٠).

ويَحْمدُ قبل أن يجرِّب، ويذمُّ بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكِّر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِل تصحبه النَّدامة، وتعتزله السَّلامة. وكانت العرب تكنِّي العجلة: أمَّ النَّدامات)[١].

٣- ضيق الأفق، وعدم التَّفكر في عواقب الأمور، ونقصد بضيق الأفق: سطحية التَّفكير وبساطته إلى حد الغفلة أو السَّذاجة، والنَّظر إلى الأمور من جانب واحد. وسوء تقدير للعواقب والنَّتائج، وجهل بالواقع، يضاف إلى ذلك عشوائيَّة العمل، وارتجاليَّة الأهداف، وإهدار الطَّاقات في قضايا ثانويَّة، وتبديدٌ للجهود في أمور هامشيَّة، وشَغْل النَّفس بالكماليَّات مع التَّفريط بالضَّروريات[٢].

٤- فَقْد البصيرة الدَّالة على حقائق الأمور، فيتَّخذ قراره على ظواهرها.

٥- عدم استشارة الصَّالحين، وأهل الخبرة.

٦- عدم الاستفادة من خبرات السَّابقين.

وسائل اكتساب الحِكْمَة:

الحِكْمَة من حيث الاكتساب وعدمه تنقسم إلى قسمين:

- حِكْمَة فطريَّة: يؤتيها الله عز وجل من يشاء، ويتفضَّل بها على من يريد، وهذه لا يد للعبد فيها، وهي التي عناها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حينما كتب إلى أبي موسى الأشعري: (إنَّ الحِكْمَة ليست عن كِبَر السِّن، ولكنَّه عطاء الله يعطيه من يشاء، فإيَّاك ودناءة الأمور، ومُرَّاق الأخلاق)[٣].

---

(١) ((روضة العقلاء)) لأبي حاتم البستي (ص ٢١٦).

(٢) ((الرائد - دروس في التربية والدعوة)) مازن عبد الكريم الفريح (٣/٥٣).

(٣) ((الإشراف في منازل الأشراف)) لابن أبي الدنيا (٢١٢).

- حِكْمَةٌ مكتسبةٌ: يكتسبها العبد بفعل أسبابها، وترك موانعها، فيسهل انقيادها له، وتجري على ألفاظه التي ينطق بها، وتكتسي بها أعماله التي يفعلها، ويشهدها النَّاس على حركاته وسكناته.

ومن طرق اكتسابها:

١- التَّفقه في الدِّين، وهو من الخير الكثير الذي أشارت إليه الآية: قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] [(١)]. وهي ثمرة من ثمار التَّربية القرآنية، ونتيجة من نتائجها؛ قال سيد قطب: (والحِكْمَة ثمرة التَّعليم بهذا الكتاب، وهي ملكة يتأتَّى معها وضع الأمور في مواضعها الصَّحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصَّحيحة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات.. وكذلك تحقَّقت هذه الثَّمرة ناضجة لمن ربَّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزكَّاهم بآيات الله)[(٢)].

٢- مجالسة أهل الصَّلاح، والاختلاط بهم، والاستفادة منهم؛ لذا كان لُقْمان يقول لابنه وهو يوصيه ويدُلُّه على طريق الحِكْمَة: (يا بُنَيَّ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإنَّ الله يحيي القلوب بنور الحِكْمَة، كما يحيي الأرض الميِّتة بوابل السَّماء)[(٣)].

٣- العبادة الحقَّة لله سبحانه، والارتباط الوثيق به، والبعد عن المعاصي، وطرد الهوى، كلُّ ذلك من طُرُق نيْل الحِكْمَة؛ فعن الحسن، قال: (من أحسن عبادة الله في شبيبته، لقَّاه الله الحِكْمَة عند كِبَر سنِّه، وذلك قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

(١) ((هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقا)) لمحمود محمد الخزندار (ص ١٢٢).
(٢) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/١٣٩).
(٣) ((تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك)) (٣/١٦١).

وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤])[1].

وقال ابن الجوزي: (لكلِّ باب مفتاح، ومفتاح الحِكْمَة: طرد الهوى)[2].

٤- تحرِّي الحلال في مأكله ومشربه وملبسه وشأنه كلِّه سبب في نَيْل الحِكْمَة، والوصول إلى مصافِّ الحكماء.

٥- كثرة التَّجارب، والاستفادة من مدرسة الحياة؛ فـ(من مشارب الحِكْمَة: الاستفادة من العمر والتَّجارب، بالاعتبار، وأخذ الحَيْطة لأمر الدِّين والدُّنيا، ففي الحديث: ((لا يُلدغ المؤمن من جحر مرَّتين))[3]. وكثرة التَّجارب هي التي تُكْسِب صاحبها الحلم والحِكْمَة)[4].

٦- ألَّا يعتمد المرء على رأي نفسه، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والتَّجربة من إخوانه الصَّالحين؛ ليزداد بصيرة بالعواقب[5].

٧- التَّحلِّي بالصَّمت عمَّا لا فائدة فيه، طريق إلى اكتسابها، فالحَكِيم يُعرف بالصَّمت وقلَّة الكلام، وإذا تكلَّم تكلَّم بالحقِّ، وإن تلفَّظ تلفَّظ بخير، أو سكت، ففي الصَّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا، أو يسكت))[6].

وقد قال وهب بن منبه: (أجمعت الأطباء على أنَّ رأس الطبِّ: الحِمْيَة،

(١) ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدينوري (٦/٢٤٠).
(٢) ((التبصرة)) لابن الجوزي (١/٣٩٦).
(٣) رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).
(٤) ((هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقا)) لمحمود محمد الخزندار (ص ١٢٣).
(٥) ((الرائد = دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (٣/٤٤).
(٦) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

وأجمعت الحُكَماء على أنَّ رأس الحِكْمَة: الصَّمت)[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: (إذا رأيتم الرَّجل يطيل الصَّمت، ويهرب من النَّاس، فاقتربوا منه فإنه يُلقَّى الحِكْمَة)[٢].

وقيل: (زَيْن المرأة الحياء، وزَيْن الحكيم الصَّمت)[٣].

٨- ومن طرق اكتسابها أيضًا ما ذكره لُقْمان الحكيم عندما سئل: أنَّى أُوتي الحِكْمَة؟ قال: (بشيئين: لا أتكلَّف ما كُفِيت، ولا أضيِّع ما كُلِّفت)[٤].

نماذج في الحِكْمَة:

- **نماذج من حياة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام:**

حِكْمَة نبيِّ الله سليمان عليه السلام في القضاء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السِّكين أشقُّه بينهما. فقالت الصُّغرى: يرحمك الله، هو ابنها، لا تشقَّه، فقضى به للصُّغرى))[٥].

قال ابن الجوزي: (أما داود عليه السلام فرأى استواءهما في اليد فقدم الكبرى لأجل السن، وأما سليمان عليه السلام فرأى الأمر محتملًا، فاستنبط

---

(١) ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص ٢٧٨).
(٢) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/٢٨٩).
(٣) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ٨٤).
(٤) ((قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد)) لأبي طالب المكي (٢/٢٣٤).
(٥) رواه البخاري (٦٧٦٩)، (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

فأحسن، فكان أَحَدَّ فطنة من داود، وكلاهما حكم بالاجتهاد، لأنه لو كان داود حكم بالنص لم يسع سليمان أن يحكم بخلافه، ولو كان ما حكم به نصًّا لم يخف على داود.

وهذا الحديث يدل على أن الفطنة والفهم موهبة لا بمقدار السن)[1].

- **نماذج من حِكْمَة النَّبي صلى الله عليه وسلم في معاملة قومه:**

- عن عائشة، زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم، أنَّها قالت للنَّبي صلى الله عليه وسلم: ((هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدُّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْن الثَّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فيما شئت أن أُطْبِق عليهم الأخشبين[2]؛ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا))[3].

- وفي صلح الحُدَيْبِية: دعا النَّبي صلى الله عليه وسلم الكاتب، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((اكتب: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم. فقال سهيل: أما الرَّحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهمَّ. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرَّحمن الرَّحيم. فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/٥١٠).

(٢) جبلا مكة قعيقعان وأبو قبيس سميا بذلك لعظمهما وخشونتهما. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/٧٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

اكتب: باسمك اللهمَّ. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمَّد رسول الله. فقال سهيل: والله لو كنَّا نعلم أنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمَّد بن عبد الله. فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: والله إنِّي لرسول الله، وإن كذَّبتموني، اكتب: محمَّد بن عبد الله...))(١).

- **نماذج من حِكْمَة السلف:**

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((إنَّ أبا بكر رضي الله عنه خرج، وعمر رضي الله عنه يكلِّم النَّاس، فقال: اجلس. فأبى، فقال: اجلس. فأبى، فتشهَّد أبو بكر رضي الله عنه، فمال إليه النَّاس، وتركوا عمر، فقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فإن محمَّدًا صلى الله عليه وسلم قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والله لكأنَّ النَّاس لم يكونوا يعلمون أنَّ الله أنزلها حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلقاها منه النَّاس، فما يُسْمَع بَشَرٌ إلَّا يتلوها))(٢).

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

قال عمر: ((وافقت ربِّي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصَلًّى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وقلت: يا رسول الله، إنَّ نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) رواه البخاري ((١٢٤١).

نساؤه في الغَيْرة، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التَّحريم: ٥]، قال: فنزلت كذلك))[١].

عثمان بن عفان رضي الله عنه:

فقد أمر الصحابة إذا اختلفوا في شيء عند جمع القرآن أن يكتبوه بلغة قريش، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف، ردَّ عثمان الصُّحف إلى حفصة رضي الله عنها، وأرسل إلى كلِّ أُفُقٍ من الآفاق بمصحف ممَّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أن يُحرق[٢].

الحسن بن علي رضي الله عنه:

عن الأعمش قال: (ما زال الحسن يعي الحِكْمَة حتى نطق بها)[٣].

أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج:

عن عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم قال: (ما رأيت أحدًا الحِكْمَة إلى فيه أقرب من أبي حازم)[٤].

عمر بن عبد العزيز:

حجَّ سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز فأصابهم برقٌ ورعدٌ، حتى كادت تنخلع قلوبهم، فنظر سليمان إلى عمر وهو يضحك، فقال سليمان: يا أبا حفص، هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها؟ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٤٠٢)، ومسلم مختصرا (٢٣٩٩) واللفظ للبخاري.

(٢) ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/١٦٥).

(٣) ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٣٥٢٢٠).

(٤) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (١/٣٨٦).

يا أمير المؤمنين، هذا صوت رحمة الله، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟ فقال: هذه المائة ألف درهم، فتصدَّق بها. فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لهم، لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فردَّ المظالم.

وحدث من سليمان بن عبد الملك أنَّ سليمان قال له: يا أبا حفص، إنا وُلِّينا ما قد ترى، ولم يكن لنا بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامَّة فمُر به، فكان من ذلك أنَّ عمر أمر بعزل عمال الحجَّاج، وأقيمت الصَّلاة في أوقاتها بعد ما كانت أُمِيتت عن وقتها، مع أمور جليلة كان يُسمع من عمر فيها، فقد قيل: إنَّ سليمان حجَّ فرأى الخلائق بالموقف فقال لعمر: أما ترى هذا الخَلْق الذي لا يحصي عددهم إلا الله؟ قال: هؤلاء اليوم رعيَّتك، وهم غدًا خصماؤك، فبكى سليمان بكاءً شديدًا[(١)].

الإمام الشافعي:

جاء رجل من أهل الكلام إلى الشافعي وهو في مصر، فسأله عن مسألة من الكلام، فقال له الشافعي: (أتدري أين أنت؟ قال الرَّجل: نعم. قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسُّؤال عن ذلك؟ قال: لا. قال: هل تكلَّم فيه الصَّحابة؟ قال: لا. قال: هل تدري كم نجمًا في السَّماء؟ قال: لا. قال: فكوكب منها، تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، ممَّ خُلق؟ قال: لا. قال: فشيء تراه بعينك من الخَلْق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟! ثم سأله الشافعي عن مسألة من الوضوء فأخطأ فيها، ففرَّعها على أربعة أوجه، فلم يُصِب في شيء من ذلك، فقال له: شيء

(١) ((مناقب عمر)) لابن الجوزي (٥٢-٥٣)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٥/١٢١).

تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه، وتتكلف علم الخالق؟ إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله، وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣])[١].

حكم وأمثال عن الحِكْمَة:

- قيل: (لا تضعوا الحِكْمَة في غير أهلها [فتظلموها]، ولا تمنعوا أهلها فتظلموهم)[٢].

- وقيل: (الصَّمت حِكْمَة، وقليل فاعله)[٣].

- وكان عرب اليمن تكتب الحِكْمَة في الحجارة طلبا لبقائها[٤].

- الحِكْمَة مُشاعةٌ بين الخَلْق، لا تُنْسب إلى جيل، ولا تقف على قبيل، وإنَّما حظوظ الخَلْق فيها على قدر مشاربهم منها[٥].

الحِكْمَة في واحة الشِّعر:

قال الأحوص لعمر بن عبد العزيز:

وما الشِّعرُ إلا حِكْمَةٌ من مؤلِّف ... بمنطقِ حقٍّ أو بمنطقِ باطلِ[٦]

وقال آخر:

اعملْ بعلمِك تؤْتَ حكمًا إنَّما ... جدوى علومِ المرءِ نَهْجُ الأقومِ

---

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٠/٣٢).
(٢) ((الأمثال)) لابن سلام (ص ٢٦٠).
(٣) ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (ص ٨٨).
(٤) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (١/٢٥٢).
(٥) ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان (٢/١٦٣).
(٦) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/١٢٠).

وإذا الفتى قد نال علمًا ثم لم ... يعملْ به فكأنَّه لم يعلمِ[(١)]

وقال آخر:

إذا ما أردتَ النُّطق فانطق بحِكْمَة ... وَزِن قبل نطقٍ ما تقول وَقوِّمِ

فمن لم يزنْ ما قال لا عقلَ عنده ... ونطقٌ بوزنٍ كالبناءِ المحكمِ

فإن لم تجدْ طرقَ المقالِ حميدةً ... تجمَّلْ بحُسنِ الصَّمت تُحْمَد وتَسْلمِ

فكم صامتًا يلقى المحامدَ دائمًا ... وكم ناطقٍ يجني ثمارَ التَّندُّمِ[(٢)]

وقال آخر:

ويا فوزَ من أدَّى مناسكَ دينِه ... وعاش سليمَ القلبِ وهو طهورُ

وتابع دينَ الحقِّ فقهًا وحِكْمَة ... ولبَّى نداءَ الله وهو شكورُ

فهذا الذي في الخلدِ ينعمُ بالُه ... وتحظو به بين الأرائكِ حورُ[(٣)]



(١) ((الكتيبة الكامنة)) للسان الدين بن الخطيب (ص ٣٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (١/٣٤٠-٣٤١).

(٣) ((المصدر السابق)) (٢/٧٥).

فهرس الموضوعات



موسوعة الأخلاق

الجزء الخامس

الحِلْم - الحَيَاء - الرَّحْمَة - الرِّفْقُ

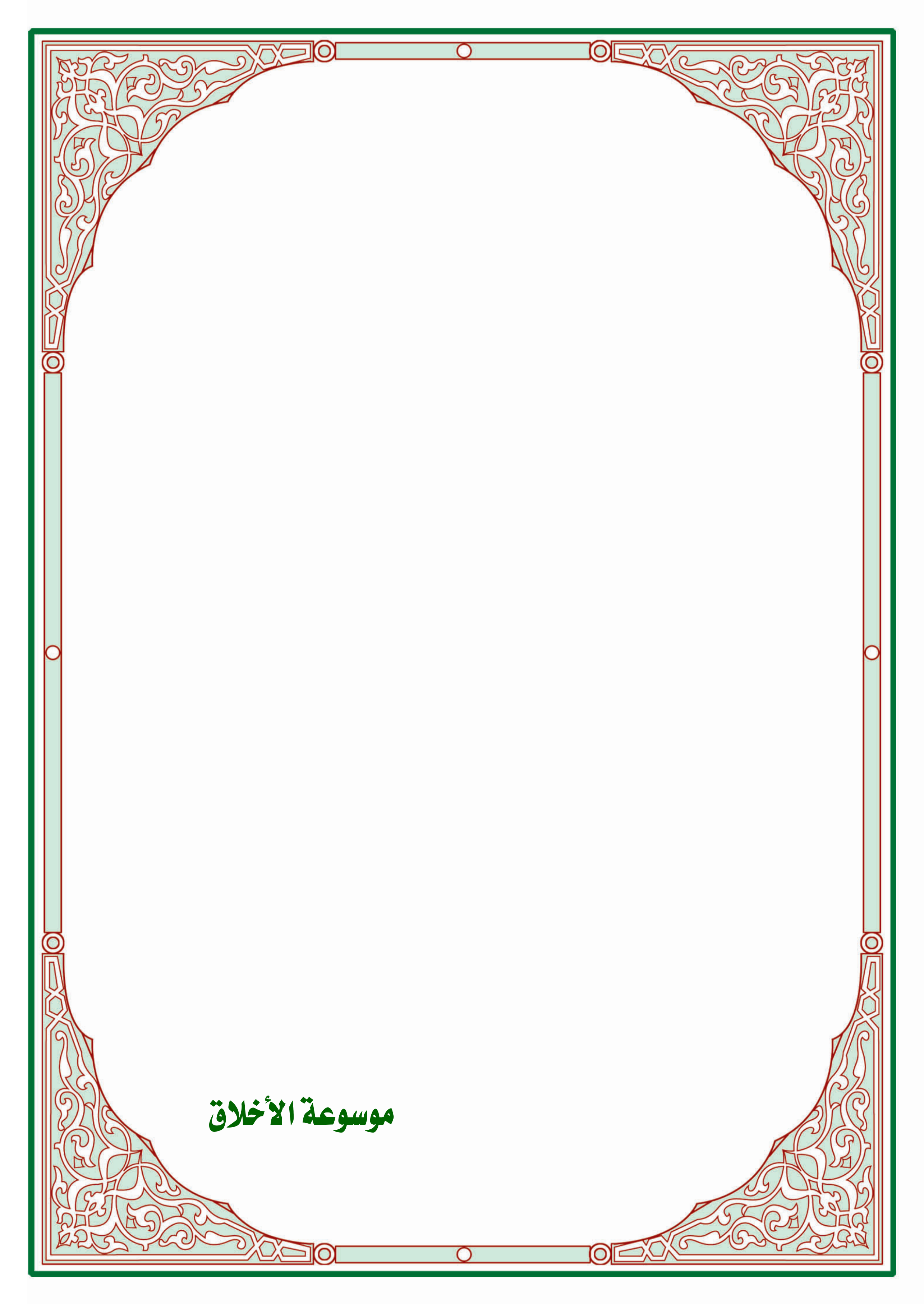
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عَبدِالقَادِر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الخامس

الحِلْم - الحَيَاء - الرَّحْمَة - الرِّفْقُ

إعداد

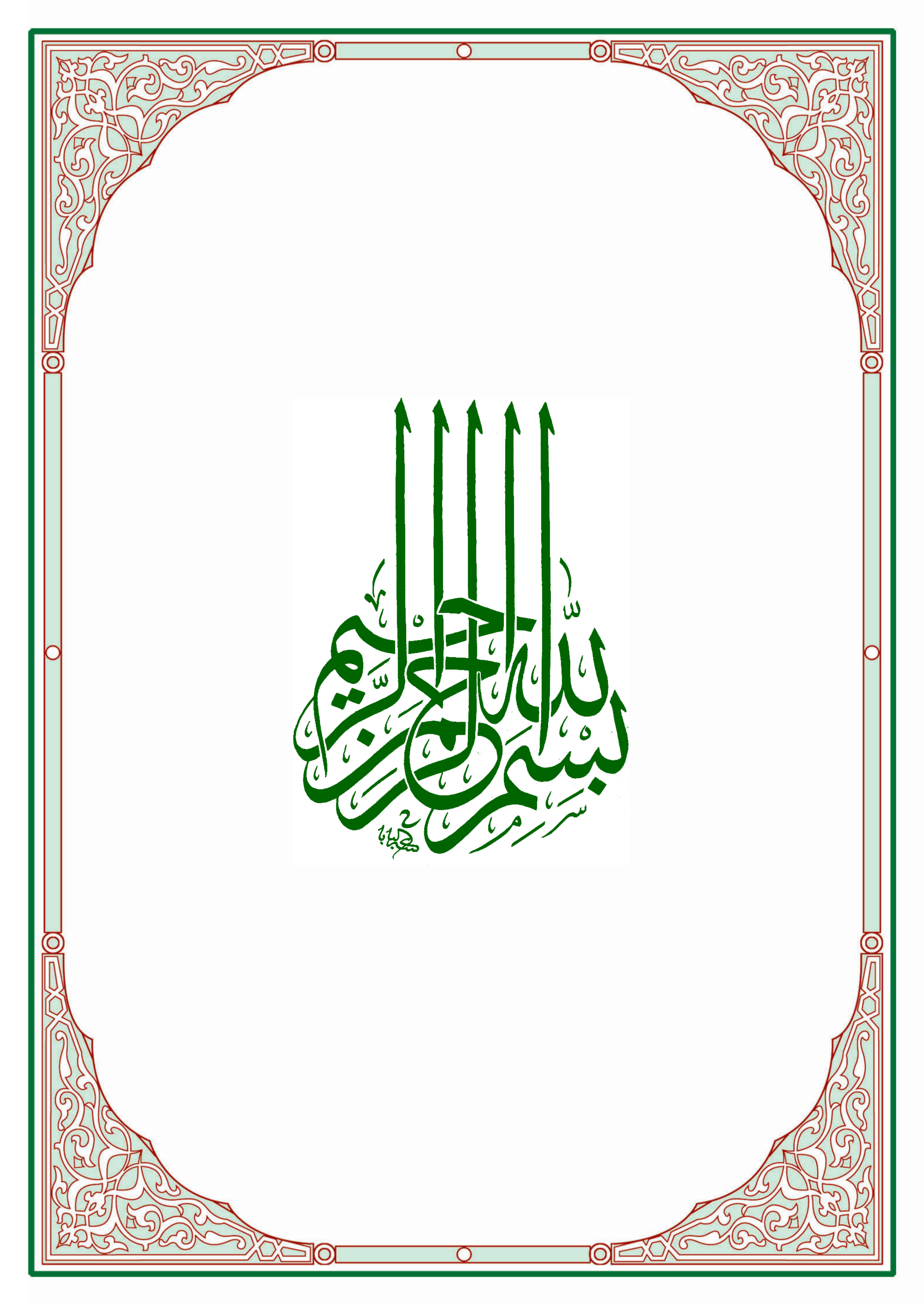
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

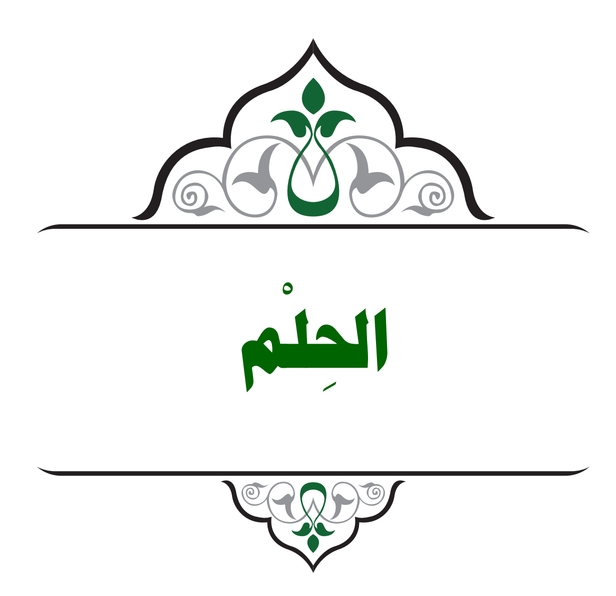
إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



الحِلْم

الحِلْم

معنى الحِلْم لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الحِلْم لغةً:**

الحِلْمُ -بالكسر-: الأَناةُ والعقل، وجمعه: أَحْلام وحُلُومٌ[١].

والحِلْم خلافُ الطَّيش. يقال: حَلُمْتُ عنه أحلُم، فأنا حليمٌ[٢].

- **معنى الحِلْم اصطلاحًا:**

عُرِّف الحِلْم بعدَّة تعريفات منها:

الحِلْم: ضبط النَّفس والطَّبع عن هيجان الغضب[٣].

وقيل هو: (الطُّمَأْنِينَة عند سَوْرَة الغضب، وقيل: تأخير مكافأة الظَّالم)[٤].

وقيل الحِلْم: (اسم يقع على زمِّ النَّفس عن الخروج عند الورود عليها، ضدُّ ما تحبُّ إلى ما نهي عنه. فالحِلْم يشتمل على المعرفة والصَّبر والأَنَاة)[٥].

الفرق بين الحِلْم وبعض الصِّفات:

- **الفرق بين الحِلْم والصَّبر:**

أنَّ الحِلْم هو: الإمْهَال بتأخير العقاب المستحقِّ... ولا يصحُّ الحِلْم إلَّا ممَّن يقدر على العقوبة وما يجري مجراها... والصَّبر: حبس النَّفس لمصادفة المكروه، وصَبَرَ الرَّجل: حَبَس نفسه عن إظهار الجزع[٦].

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/١٤٥).
(٢) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/٩٣).
(٣) ((مفردات ألفاظ القرآن)) للرَّاغب (ص ٢٥٣).
(٤) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ٩٢).
(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (ص ٢٠٨).
(٦) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ١٩٩).

- **الفرق بين الحِلْم والوَقَار:**

الوَقَار: هو الهدوء وسكون الأطراف، وقلَّة الحركة في المجلس، ويقع أيضًا على مفارقة الطَّيش عند الغضب، مأخوذ مِن الوَقْر وهو: الحِمْل[١].

- **الفرق بين الحِلْم والإمْهَال:**

أنَّ كلَّ حلمٍ إمهالٌ، وليس كلُّ إمهالٍ حلمًا؛ لأنَّ الله تعالى لو أمهل مَن أخذه لم يكن هذا الإمْهَال حلمًا[٢].

- **الفرق بين الحِلْم والأَنَاة والرِّفق:**

الحِلْم: أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، فإذا حصل غضبٌ وهو قادر على العقاب، فإنَّه يَحْلم ولا يعاقب.

وأمَّا الأَنَاة: فهي التَّأنِّي في الأمور وعدم العجلة، وألَّا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجَّل ويحْكُم على الشَّيء قبل أن يتأنَّ فيه وينظر.

وأمَّا الرِّفق: فهو معاملة النَّاس بالرِّفق والهون حتى وإن استحقُّوا ما يستحقُّون مِن العقوبة والنَّكال، فإنَّه يرفُق بهم[٣].

التَّرغيب في الحِلْم:

أولًا: في القرآن الكريم

وردتْ آيات قرآنيَّة كثيرة تشير إلى صفة الحِلْم، ووصف الله نفسه بالحِلْم، وسمَّى نفسه الحليم، ووردت آيات تدعو المسلمين إلى التَّحلِّي بهذا الخُلُق

---

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٥٧٥).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٩٧).

(٣) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/٥٧٣).

النَّبيل، وعدم المعاملة بالمثل ومقابلة الإساءة بالإساءة، والحثِّ على الدَّفع بالتي هي أحسن، والتَّرغيب في الصَّفح عن الأذى والعفو عن الإساءة.

- قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ (أي: لا يعملون غضبهم في النَّاس، بل يكفون عنهم شرَّهم، ويحتسبون ذلك عند الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: مع كفِّ الشَّرِّ يعفون عمَّن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم مَوجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فهذا مِن مقامات الإحسان)[1].

- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

- ووصف الله عزَّ وجلَّ بعضَ أنبيائه بالحِلْم؛ قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات:١٠١]، يقول ابن تيمية: (وقد انطوت البشارة على ثلاثٍ: على أنَّ الولد غلامٌ ذكرٌ، وأنَّه يبلغ الحِلْم، وأنَّه يكون حليمًا، وأيُّ حلمٍ أعظم مِن حلمه حين عرض عليه أبوه الذَّبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]؟ وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقلَّ مِن

(١) ((تفسير ابن كثير)) (١٢٢/٢).

الحِلْم وذلك لعزَّة وجوده، ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوبة:١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥]؛ لأنَّ الحادثة شهدت بحلمهما، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]) [١].

- قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصِّلت:٣٤] (أي: إذا أحسنت إلى مَن أساء إليك، قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبَّتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنَّه وليٌّ لك حميم، أي: قريب إليك مِن الشَّفقة عليك والإحسان إليك. ثمَّ قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصِّلت:٣٥]، أي: وما يقبل هذه الوصيَّة ويعمل بها إلَّا مَن صبر على ذلك، فإنَّه يشقُّ على النُّفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر مِن السَّعادة في الدُّنْيا والآخرة.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: (أمر الله المؤمنين بالصَّبر عند الغضب، والحِلْم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله مِن الشَّيطان، وخضع لهم عدوُّهم كأنَّه وليٌّ حميم) [٢].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- قال صلى الله عليه وسلم لأشجِّ عبد القيس: ((إنَّ فيك لخصلتين يحبُّهما

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٣٣٢/٤).
(٢) ((تفسير ابن كثير)) (١٨١/٧).

الله: الحِلْم والأَنَاة))[١].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التَّأنِّي مِن الله، والعجلة مِن الشَّيطان، وما أحدٌ أكثر معاذير مِن الله، وما مِن شيءٍ أحبُّ إلى الله مِن الحِلْم))[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليس الشَّديد بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[٣].

قال ابن بطَّال: (مدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم، وأخبر أنَّ ما عنده خيرٌ وأبقى لهم مِن متاع الحياة الدُّنْيا وزينتها، وأثنى على الكاظمين الغيظ والعافين عن النَّاس، وأخبر أنَّه يحبُّهم بإحسانهم في ذلك)[٤].

وقال ابن عبد البر: (في هذا الحديث مِن الفقه: فضل الحِلْم. وفيه دليلٌ على أنَّ الحِلْم: كتمان الغيظ. وأنَّ العاقل مَن مَلَك نفسه عند الغضب؛ لأنَّ العقل -في اللُّغة-: ضبط الشَّيء وحبسه منه)[٥].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى..))[٦].

---

(١) رواه مسلم (١٨) مِن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو يعلى (٢٤٧/٧)، والبيهقي في ((الشُّعب)) (٢١١/٦)، والحارث بن أسامة في ((مسنده)) (٨٢٨/٢) كلُّهم بلفظ: (الحمد) بدلًا مِن (الحِلْم) مِن حديث أنس رضي الله عنه. قال المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٣٥٩/٢) والهيثمي في ((المجمع)) (٢٢/٨): رجاله رجال الصَّحيح. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٣١/٦): رجال إسناده ثقات.

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/ ٢٩٦).

(٥) ((التمهيد)) (٣٢٢/٦).

(٦) رواه مسلم (٤٣٢) مِن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(أي ذوو الألباب والعقول، واحدها: حِلْمٌ بالكسر، فكأنَّه مِن الحِلْم: الأَنَاة والتَّثبُّت في الأمور، وذلك مِن شعائر العقلاء، وواحد النُّهى: نُهْيَة بالضَّم، سُمِّي العقل بذلك لأنَّه ينهى صاحبه عن القبيح)(١).

أقوال السَّلف والعلماء في الحِلْم:

- قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (ليس الخير أن يَكْثُر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يَكْثُر علمك ويَعْظُم حلمك، وأن لا تباهي النَّاس بعبادة الله، وإذا أحسنت: حمدت الله تعالى، وإذا أسأت: استغفرت الله تعالى)(٢).

- (وبلغ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّ جماعة مِن رعيَّته اشتكوا مِن عمَّاله؛ فأمرهم أن يوافوه، فلمَّا أتوه، قام فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: أيُّها النَّاس، أيَّتها الرَّعيَّة، إنَّ لنا عليكم حقًّا: النَّصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيَّتها الرُّعاة إنَّ للرَّعيَّة عليكم حقًّا فاعلموا أنَّه لا شيء أحبُّ إلى الله ولا أعزُّ مِن حِلْم إمامٍ ورِفْقِه، وليس جهلٌ أبغض إلى الله ولا أغمَّ من جهل إمامٍ وخرْقه)(٣).

- وقال رضي الله عنه: (تعلَّموا العلم وتعلَّموا للعلم السَّكينة والحِلْم)(٤).

- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا

(١) ((حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي)) (٢/٤٢٣).

(٢) رواه أبو نعيم في ((الحلية)) (١/٧٥)، والبيهقي في ((الزُّهد الكبير)) (٢٧٦) موقوفًا على علي رضي الله عنه.

(٣) رواه هنَّاد في ((الزُّهد)) (٢/٦٠٢)، والطَّبري في ((التاريخ)) (٤/٢٢٤).

(٤) رواه الطَّبراني في ((الأوسط)) (٦/٢٠٠)، ووكيع في ((الزُّهد)) (٥٣٨)، وأحمد في ((الزُّهد)) (٩٩).

غافلًا ولا صخَّابًا ولا صيَّاحًا ولا حديدًا)[١].

- وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: (لا يبلغ العبد مبلغ الرَّأي حتى يغلب حِلْمُه جهله، وصبرُه شهوته، ولا يبلغ ذلك إلَّا بقوَّة الحِلْم)[٢].

- وسُئل عمرو بن الأهتم: (أيُّ الرِّجال أشجع؟ قال: مَن ردَّ جهله بحِلْمه، قال: فأيُّ الرِّجال أسخى؟ قال: مَن بذل دنياه لصالح دينه)[٣].

- وقال مرَّةً لعَرَابَة بن أوس: (بم سدت قومك يا عَرَابَة؟ قال: كنت أحْلُم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمَن فعل فعلي فهو مثلي، ومَن جاوزني فهو أفضل، ومَن قصَّر عنِّي فأنا خير منه)[٤].

- وقال أيضًا: (عليكم بالحِلْم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصَّفح والإفضال)[٥].

- وأسمعه رجلٌ كلامًا شديدًا، فقيل له: لو عاقبته، فقال: (إنِّي أستحيي أن يضيق حلمي عن ذنب أحدٍ من رعيَّتي)[٦].

- وعن أبي الدَّرداء قال: (ليس الخير أن يَكْثُر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يَعْظُم حِلْمُك، ويَكْثُر علمك، وأن تنادي النَّاس في عبادة الله، فإذا أحسنت حمدت الله، وإذا أسأت استغفرت الله)[٧].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٥٨٤)، وأحمد في ((الزُّهد)) (١٣٣)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١٢٩/١) موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ((الحِلْم)) لابن أبي الدُّنْيا (٢٥-٢٦).

(٣) ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدِّين)) (١٧٨/٣).

(٤) رواه ابن أبي الدُّنْيا في ((الحِلْم)) (٤٠)، وذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدِّين)) (١٧٨/٣).

(٥) ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدِّين)) (١٨٤/٣).

(٦) رواه ابن أبي الدُّنْيا في ((حلم معاوية)) (٢٢)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (١٧٩/٥٩).

(٧) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٥٨٥)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (٢١٢/١)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (١٥٨/٤٧).

- وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (نحن معشر قريش نعدُّ الحِلْم والجُود، السُّؤدد، ونعدُّ العفاف وإصلاح المال، المروءة)[١].

- وقال الحسن البصريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]: (حُلَمَاء: إن جُهِل عليهم لم يجهلوا)[٢].

- وقال أيضًا: (اطلبوا العلم وزيِّنوه بالوَقَار والحِلْم)[٣].

- وقال أكثم بن صيفيٍّ: (دعامة العقل الحِلْم، وجماع الأمر الصَّبر، وخير الأمور العفو)[٤].

- وعن رجاء بن أبي سلمة قال:(الحِلْم خصلة مِن خصال العقل)[٥].

- وقال محمَّد بن عليٍّ رضي الله عنهما: (مَن حَلُمَ وَقَى عِرْضه، ومَن جادت كفُّه حَسُن ثناؤه، ومَن أَصْلح مالَه استغْنى، ومَن احتمل المكْروه كثرت محَاسنه، ومَن صَبر حُمِد أمرُه، ومَن كظَم غيظَه فشا إحسانُه، ومَن عَفا عن الذُّنوب، كثُرت أياديه، ومَن اتَّقى الله كفاه ما أهمَّه)[٦].

- وقال أبو رزين في قوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: (حلماء علماء)[٧].

- وعن معاوية بن قرَّة قال: (مكتوبٌ في الحكمة: لا تجالس بحِلْمك

---

(١) ذكره ابن مفلح في ((الآداب الشَّرعية)) (٢/٢١٥).
(٢) رواه يحيى بن سلام في ((تفسيره)) (٤٨٩)، وذكره القرطبي في ((تفسيره)) (١٣/٦٩).
(٣) ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدِّين)) (٣/١٧٨).
(٤) ((الحِلْم)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٢٧).
(٥) ((المصدر السابق)) (ص ٢١).
(٦) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه الأندلسي (١/١٨١).
(٧) ((الحِلْم)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٢٣).

السُّفهاء، ولا تجالس بسفهك الحُلَماء)[(١)].

- وعن الحسن قال: (المؤمن حليمٌ لا يجهل وإن جُهِل عليه، حليمٌ لا يظلم، وإن ظُلِم غَفَر، لا يقطع، وإن قُطِع وصل، لا يبخل، وإن بُخِل عليه صبر)[(٢)].

- وقال وهب بن منبه: (العلم خليل المؤمن، والحِلْم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيمته، والصَّبر أمير جنوده، والرِّفق أبوه، واللِّين أخوه)[(٣)].

- وقال عطاء بن أبي رباح: (ما أوى شيءٌ إلى شيءٍ أزين مِن حلمٍ إلى علم)[(٤)].

فوائد الحلم:

١- الحليم عظيم الشَّأن، رفيع المكان، محمود الأمر، مرضي الفعل[(٥)].

٢- (أنَّه دليل كمال العقل وسعة الصَّدر، وامتلاك النَّفس.

٣- يعمل على تآلف القلوب ونشر المحبَّة بين النَّاس.

٤- يزيل البغضاء بين النَّاس ويمنع الحسد)[(٦)].

٥- صفة الحِلْم عواقبها محمودة.

٦- أوَّل عِوَض الحَليم عن حِلْمه أنَّ النَّاس أنصارُه على الجاهل[(٧)].

---

(١) ((الحِلْم)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٥٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (٥٤-٥٥).

(٣) ((التَّرغيب في فضائل الأعمال)) للحافظ ابن شاهين (ص ٢٥١) .

(٤) رواه الدارمي (١/٤٧٠) (٥٩٦).

(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (٢٠٨).

(٦) ((نضرة النعيم)) (٥/١٧٥٢) - بتصرف.

(٧) هذا القول يُنْسَب لعليٍّ رضي الله عنه. انظر: ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه الأندلسي (١/١٨٢).

٧- الحليم له القوّة في التَّحكُّم في انفعالاته، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((ليس الشَّديد بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[١].

الوسائل المعينة على اكتساب الحِلْم:

١- تذكُّر كثرة حلم الله على العبد، فالله سبحانه وتعالى حليم: يرى معصية العاصي ومخالفته لأمره فيمهله، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

قال أبو حاتم: (الواجب على العاقل، إذا غضب واحتدَّ، أن يذكر كثرة حلم الله عنه، مع تواتر انتهاكه محارمه، وتعدِّيه حرماته، ثمَّ يَحْلُم، ولا يخرجه غيظه إلى الدُّخول في أسباب المعاصي)[٢].

وقال محمَّد بن السعدي لابنه عروة لما وَلِي اليمن: (إذا غضبت فانظر إلى السَّماء فوقك، وإلى الأرض تحتك، ثمَّ عظِّم خالقهما)[٣].

٢- تذكُّر الثَّواب مِن الله للعافين عن النَّاس، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤].

عن أبي جعفر الخطمي أنَّ جدَّه عمير بن حبيب -وكان قد بايع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم- أوصى بنيه، فقال لهم: (أيْ بني! إيَّاكم ومخالطة السُّفهاء؛

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (ص ٢١٢).

(٣) ((المصدر السابق)).

فإنَّ مجالستهم داء، وإنَّه مَن يَحْلُم عن السَّفِيه يُسَر بحِلْمِه، ومَن يجبه يندم، ومَن لا يقر بقليل ما يأتي به السَّفِيه، يقر بالكثير)[١].

٣- الرَّحمة بالجاهل، ومِن ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: ((بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابيٌّ، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه مه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزرموه، دعوه. فتركوه حتى بال، ثمَّ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه، فقال له: إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء مِن هذا البول ولا القذر، إنَّما هي لذكر الله عزَّ وجلَّ، والصَّلاة، وقراءة القرآن. أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فأمر رجلًا مِن القوم فجاء بدلوٍ مِن ماء فشنَّه[٢] عليه))[٣].

٤- التَّرفُّع عن المعاملة السَّيِّئة بالمثل، وهذا يدلُّ على شرف النَّفس، وعلوِّ الهمَّة، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: ((غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة نَجْدٍ، فلمَّا أدركته القائلة وهو في واد كثير العِضَاه[٤]، فنزل تحت شجرة، واستظلَّ بها وعلَّق سيفه، فتفرَّق النَّاس في الشَّجر يستظلُّون، وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئنا، فإذا أعرابيٌّ قاعد بين يديه، فقال: إنَّ هذا أتاني وأنا نائمٌ، فاخترط سيفي[٥]، فاستيقظت

(١) رواه الطَّبراني (١٧/٥٠) (١٠٨)، والبيهقي (١٠/٩٥) (٢٠٧٠٥)، قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/٢٦٩): رجاله ثقات.

(٢) شنه: صبه. ((شرح النووي على مسلم)) (٣/١٩٣) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٥) مِن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) العضاه: كل شجرة ذات شوك ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/٤٤).

(٥) اخترط السيف: سله من غمده ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/٢٣).

وهو قائمٌ على رأسي مخترطٌ صلتًا[1]، قال: مَن يمنعك مني؟ قلت: الله. فشَامَه ثمَّ قعد، فهو هذا، قال: ولم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم))[2].

٥- التَّفضُّل على المسيء، ومِن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: (كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذه بردائه جَبْذَةً شديدةً، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت بها حاشية البرْد مِن شدَّة جَبْذَته، ثمَّ قال: يا محمَّد! مُرْ لي مِن مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ ضحك، ثمَّ أمر له بعطاء)[3].

٦- الاستحياء مِن جزاء الجواب، وكان الأحنف بن قيس يقول: (مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورُبَّ غيظٍ قد تجرَّعته مخافة ما هو أشدُّ منه، وأنشد:

رضيت ببعض الذُّل خوف جميعه كذلك بعض الشَّرِّ أهونُ مِن بعض[4]

٧- الرِّعاية ليدٍ سالفة، وحرمة لازمة، وهذا مِن الوفاء، وحُسنِ العهد، وكمال المروءة، عن حفص بن غياث قال: (كنت جالسًا عند جعفر بن محمد، ورجل يشكو رجلًا عنده، قال لي كذا، وفعل لي كذا، فقال له جعفر: مَن أكرمك فأكرمه، ومَن استخفَّ بك فأكرم نفسك عنه)[5].

---

(١) صلتًا: مجردا ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٣١٤٩).

(٤) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢/٢٧٩).

(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبَّان البستي (٢١٣).

قال الشَّاعر:

إنَّ الوفاء على الكريم فريضة   واللُّؤم مقرون بذي الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا   وترى اللَّئيم مجانب الإنصاف[١]

نماذج في الحِلْم:

• نماذج مِن حلم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:

لقد بلغ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم غاية الحِلْم والعفو، والسُّنَّة النَّبويَّة حافلة بمواقف الرَّسول الكريم في الحِلْم، ومِن ذلك:

- قصَّة الأعرابي الذي جبذ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بردائه جَبْذَةً شديدةً، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذه[٢] بردائه جبْذَةً شديدةً، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت بها حاشية البُرْد مِن شدَّة جَبْذَته، ثمَّ قال:يا محمَّد! مُرْ لي مِن مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ ضحك، ثمَّ أمر له بعطاء))[٣].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوه فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا. ثمَّ قال: أعطوه سِنًّا مِثْل سِنِّه، قالوا: يا رسول الله، لا نجد إلَّا أمثل مِن سِنِّه، فقال: أعطوه، فإنَّ مِن خيركم أحسنكم قضاءً))[٤].

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٥٥).
(٢) الجبذ: الجذب. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٢٣٥).
(٣) رواه البخاري (٣١٤٩).
(٤) رواه البخاري (٢٣٠٦).

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((كأنِّي أنظر إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يحكي نبيًّا مِن الأنبياء ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدَّم عن وجهه، ويقول: ربِّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون))[1].

قال النَّوويُّ: (فيه ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم مِن الحِلْم والتَّصبُّر والعفو والشَّفقة على قومهم، ودعائهم لهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم بأنَّهم لا يعلمون، وهذا النَّبيُّ المشار إليه مِن المتقدِّمين، وقد جرى لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم مثل هذا يوم أحد)[2].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن أحسن النَّاس خُلُقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبيُّ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، قال: فخرجت حتى أمرَّ على صبيان وهم يلعبون في السُّوق، فإذا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، قابضٌ بقفاي مِن ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس! اذهب حيث أمرتك، قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعتُ: لم فعلتَ كذا وكذا؟ ولا لشيء تركتُ: هلَّا فعلتَ كذا وكذا؟))[3].

- وعن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّها قالت للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِن يوم أُحُدٍ؟ قال: لقد لقيت مِن قومك ما لقيت، وكان أشدُّ ما لقيت منهم: يوم العقبة، إذ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧).
(٢) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٢/١٥٠).
(٣) رواه مسلم (٢٣١٠).

عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَالٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلَّا وأنا بقرن الثَّعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله مِن أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا))[١].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَقْسم قَسْمًا، إذ أتاه ذو الخُوَيصرة -رجل مِن بني تميم- فقال: يا رسول الله اعدل! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويلك! ومَن يعدل إن لم أعدل؟! لقد خبتُ وخسرتُ إذا لم أعدل، فمن يعدل؟! فقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: يا رسول الله! ائذن لي فأضرب عنقه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دَعْه، فإنَّ له أصحابًا يَحْقِر أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيهم[٢]، يمرقون مِن الإسلام كما يمرُق السَّهم مِن الرَّمِيَّة[٣]، ينظر إلى نَصْله

(١) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٢) جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق. وهما ترقوتان من الجانبين ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/١٨٧).

(٣) الرمية: الصيد المرمي شبه مروقهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد فيدخل فيه ويخرج منه ومن شدة سرعة خروجه لقوة الرامي لا يعلق من جسد الصيد شيء. ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/٦١٨).

فلا يوجد فيه شيء، ثمَّ إلى رِصَافِهِ، فلا يوجد فيه شيء، ثمَّ ينظر إلى نَضِيَّة -وهو قِدْحه- فلا يوجد فيه شيء، ثمَّ ينظر إلى قُذَذِه [١] فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفَرْث والدَّم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثَدْي المرأة، أو مثل البَضْعَة تَدَرْدَرُ [٢]، ويخرجون على حين فُرْقة مِن النَّاس. قال أبو سعيد: فأشهد أنِّي سمعت هذا مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه قاتَلَهم وأنا معه، وأمر بذلك الرَّجل فالتُمس، فأُتي به حتى نظرتُ إليه على نَعْت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعت)) [٣].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثمانون رجلًا مِن أهل مكَّة بالسِّلاح مِن قِبَل جبل التَّنْعيم يريدون غِرَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا عليهم فأُخذوا، قال عفَّان: فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]) [٤].

- وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: سحر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ مِن اليهود، فاشتكى لذلك أيَّامًا، قال: فجاءه جبريل عليه السَّلام، فقال: إنَّ رجلًا مِن اليهود سحرك، عقد لك عقدًا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها مَن يجيء بها. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله تعالى عنه، فاستخرجها، فجاءه بها فحلَّلها، قال: فقام رسول الله صلى الله

---

(١) القذذ: ريش السهم ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/٢٨).
(٢) تضطرب وتذهب وتجيء. ((شرح النووي على مسلم)) (٧/١٦٦).
(٣) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٤) رواه مسلم (١٨٠٨)، وأحمد (٣/١٢٢) (١٢٢٤٩).

عليه وسلم كأنَّما نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات[١].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة، فأكل منها. فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك. قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك، قال: أو قال: علي، قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم))[٢].

نماذج مِن حِلْم الصَّحابة رضي الله عنهم:

حِلْم أبي ذر رضي الله عنه:

شَتم رجلٌ أبا ذَرٍّ رضي الله عنه فقال: (يا هذا، لا تُغرق في شَتمنا ودَع للصُّلح مَوضعًا، فإنَّا لا نكافئ مَن عصى الله فينا بأكثر مِن أن نُطيع الله فيه)[٣].

حِلْم معاوية رضي الله عنه:

كان الرَّجل يقول لمعاوية رضي الله عنه: والله لتستقيمنَّ بنا يا معاوية، أو لنقوِّمنَّك، فيقول: بماذا؟ فيقولون بالخشب، فيقول إذًا أستقيم[٤].

---

(١) رواه النسائي (٤٠٨٠)، وأحمد (٤/٣٦٧) (١٩٢٨٦). ذكر ابن حجر في الفتح (١٠/٢٣٩): أنَّ له طرقًا، وصحَّح إسناده الألباني في ((صحيح النسائي)) (٤٠٩١).

(٢) رواه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠)، واللفظ له.

(٣) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٥/١١٣)، والبيهقي في ((الشُّعب)) (١١/٣٠) (٨١٠٦) وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٥/٢٩).

(٤) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥٩/١٨٤)، وذكره الذَّهبي في ((سير أعلام النُّبلاء)) (٥/١٤٩).

حِلْم عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال رجل لعمرو بن العاص رضي الله عنه: والله لأتفرَّغنَّ لك، قال: هنالك وقعت في الشُّغل، قال: كأنَّك تهدِّدني، والله لئن قلت لي كلمة لأقولنَّ لك عشرًا، فقال عمرو: وأنت والله لئن قلتَ لي عشرًا، لم أقلْ لك واحدة[١].

حِلْم ابن عبَّاس رضي الله عنهما:

سبَّ رجلٌ ابن عبَّاس رضي الله عنهما، فقال ابن عبَّاس: (يا عكرمة هل للرَّجل حاجة فنقضيها؟ فنكَّس الرَّجل رأسه، واستحى ممَّا رأى مِن حلمه عليه)[٢].

نماذج مِن حِلْم السَّلف:

حِلْم عمر بن عبد العزيز:

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز بعضَ ما يَكْره، فقال: (لا عليك، إنَّما أردتَ أن يَسْتفزَّني الشَّيطان بعزَّة السُّلطان، فأنال منك اليوم ما تنالُه منِّي غدًا، انصرفْ إذا شئت)[٣].

حِلْم الشَّعَبي:

شَتم رجلٌ الشَعبيَّ، فقال له: إن كنتَ صادقًا فغَفر الله لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك[٤].

نماذج مِن حِلْم العلماء المعاصرين:

حِلْم الشَّيخ ابن باز:

قبل سنتين مِن وفاته رحمه الله، كان في الطَّائف، وفي يومٍ مِن الأيَّام جاء سماحته مِن الدَّوام، ودخل مجلسه، فحيَّا الجموع التي كانت تأتي كالعادة إليه، وفي هذه الأثناء دخل عليه رجلٌ ثائر، ومعه أوراق يطلب فيها شفاعة الشَّيخ؛

---

(١) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٢/٢٧٥).
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزالي (٣/١٧٨).
(٣) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٢/٢٧٩).
(٤) ((المصدر السابق)) (٢/٢٧٦).

ليحصل على مال؛ ليتزوَّج، فشرع الرَّجل يتكلَّم بصوت مرتفعٌ أزعج الحاضرين في المجلس، فوجَّهه سماحة الشَّيخ بما يلزم، وقال: اذهب إلى فلان في بلدكم الفلاني، واطلب منه أن يكتب لكم تزكية، ويقوم باللَّازم، ثمَّ يرفعه إلينا، ونحن نكمل اللَّازم، ونرفع إلى أحد المحسنين في شأنك.

فقال الرَّجل: يا شيخ ارفعها إلى المسؤول الفلاني -يعني أحد المسؤولين الكبار- فقال سماحة الشَّيخ: ما يكون إلَّا خير، فرفع الرَّجل صوته، وأخذ يكرِّر: لابدَّ أن ترفعها إلى فلان، وما زال يردِّد، وما زال الشَّيخ يلاطفه، ويرْفق به، ويعِدُه بالخير، حتى إنَّ الحاضرين تكدَّروا، وبدا الغضب مِن على وجوههم، بل إنَّ بعضهم هَمَّ بإخراج الرَّجل، ولكنَّهم تأدَّبوا بحضرة الشَّيخ. ولم يرغبوا بالتَّقدُّم بين يديه. فقال الرَّجل: يا شيخ! عمري يزيد على الخمسين، وما عندي زوجة، وما بقي مِن عمري إلَّا القليل، فتبسَّم سماحة الشَّيخ، وقال: يا ولدي إن شاء الله، ستتزوَّج، ويزيد عمرك إن شاء الله على التِّسعين، وسنعمل ما نستطيع في تلبية طلبك.

فما كان مِن ذاك الرَّجل الثائر المستوفز [١] إلاَّ أن تَبلَّجت أساريره، وأقبل على سماحة الشَّيخ، وأخذ برأس الشَّيخ يُقَبِّله، ويدعو له، فلمَّا همَّ بالانصراف، ودَّع الشَّيخ، فقال له سماحته: لا نسمح لك؛ غداؤك معنا، فقال: يا شيخ أنا على موعد، فقال له الشَّيخ: هذا الهاتف اعتذر، فما زال يحاول التَّخلُّص، وما زال سماحة الشَّيخ يلحُّ عليه بتناول الغداء، ولم يقبل سماحته الاعتذار إلَّا بعد لَأْيٍ [٢] وجَهْد.

(١) المستوفز الذي رفع أليتيه ووضع ركبتيه. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/١٣٢).

(٢) لَأْي: شدة وإبطاء. ((المصدر السابق)) (١٥/٢٣٧).

حينئذٍ تعجَّب الحاضرون مِن تحمُّل الشَّيخ، وأصبحت ترَى الدَّهشة بادية على وجوههم، فكأنَّه أعطاهم درسًا عمليًّا في فضل الحِلْم، وحميد عاقبته[1].

الأمثال في الحِلْم:

- (قولهم: إذا نزل بك الشَّرُّ فاقعد. أي: فاحْلُم ولا تسارع إليه.
- وقولهم: الحليم مطيَّة الجاهل.
- وقولهم: لا ينتصف حليم مِن جاهل.
- وقولهم: حلمي أصمُّ، وأذني غير صمَّاء.
- وقولهم في الحُلَماء: كأنَّما على رؤوسهم الطَّير)[2].

الحِلْم في واحة الشِّعر:

قال الشافعي:

يخاطبني السَّفِيهُ بكلِّ قبحٍ   فأكرهُ أن أكونَ له مجيبَا
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حلمًا   كعودٍ زاده الإحراقُ طيبَا[3]

وقال أيضا:

إذا نطق السَّفِيهُ فلا تُجِبْه   فخيرٌ مِن إجابتِه السُّكوتُ
فإن كلَّمته فرَّجت عنه   وإن خلَّيته كمدًا يموتُ[4]

---

(١) ((جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز -رحمه الله-)) لمحمد إبراهيم الحمد. بتصرُّف (ص ٢٢٠).
(٢) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٣/١٠٤).
(٣) ((ديوان الإمام الشَّافعي)) (ص ٣٣).
(٤) ((المصدر السابق)) (ص ٣٩).

وقال أيضا:

إذا سبَّني نذلٌ تزايدت رفعةً ... وما العيبُ إلَّا أن أكونَ مسابِبه

ولو لم تكنْ نفسي عليَّ عزيزةً ... لمكَّنتُها مِن كلِّ نذلٍ تحاربُه

ولو أنَّني أسعى لنفعي وجدتني ... كثيرَ التَّواني للَّذي أنت طالبُه

ولكنَّني أسعى لأنفعَ صاحبي ... وعارٌ على الشَّبعانِ إن جاع صاحبُه[1]

وقال الشاعر:

وإني لأترك عورَ الكلا ... مِ لئلَّا أجابَ بما أكرهُ

وأغضى على الكلمِ المحْفِظا ... تِ وأحْلُمُ والحِلْمُ بي أشبهُ

فلا تغترِرْ برواءِ الرِّجال ... وما زخرفوا لك أو موَّهوا

فكم مِن فتى يعجبُ النَّاظريـ ... ـن له ألسنٌ وله أوجهُ

ينامُ إذا حضر المكرما ... تِ وعند الدَّناءةِ يستنبهُ[2]

وقال آخر:

تخالهم للحِلْم صمًّا عن الخنا ... وخرسًا عن الفحشاء عند التهاترِ

ومرضى إذا لاقوا حياءً وعفةً ... وعند الحروب كاللُّيوثِ الخوادرِ

لهم ذلُّ إنصافٍ ولينُ تواضعٍ ... بهم ولهم ذلَّت رقابُ المعاشرِ

كأنَّ بهم وصمًا يخافون عارَه ... وما وَصمُهم إلَّا اتقاءُ المعايرِ[3]

وقال آخر:

ألم تر أنَّ الحِلْم زَيْنٌ مُسَوِّدٌ ... لصاحبِه والجهلُ للمرءِ شائنُ

---

(١) ((ديوان الإمام الشَّافعي)) (ص ٣٣).

(٢) ((الحِلْم)) لابن أبي الدُّنيا (ص ٢٩).

(٣) ((الأمالي)) للقالي (١/٢٣٨).

فكن دافنًا للجهل بالحِلْم تسترحْ مِن الجهل إنَّ الحِلْمَ للجهلِ دافنُ[١]

وقال الشاعر:

ألَا إنَّ حِلْمَ المرءِ أكبرُ نسْبةٍ يُسامى بها عند الفخار كريمُ

فيا ربِّ هَبْ لي منك حِلْمًا فإنَّني أرى الحِلْمَ لم يندمْ عليه حليمُ[٢]

وقال الشاعر:

وفي الحِلم رَدْعٌ للسَّفِيه عن الأذى وفي الخُرق إغراءٌ فلا تَكُ أَخْرَقا

فَتَنْدَمَ إذ لا تنفعنك ندامةٌ كما ندِم المغْبُونُ لما تَفَرَّقا[٣]

وقال الشاعر:

رجعت على السَّفِيه بفضلِ حِلْمٍ وكان الفعلُ عنه له لجَاما

وظنَّ بي السَّفاهَ فلم يجدني أسافِهُه وقلتُ له سلاما

فقام يجرُّ رجليه ذليلًا وقد كسب المذمَّةَ والملاما

وفضلُ الحِلْمِ أبلغُ في سفيهٍ وأحرى أن ينالَ به انتقاما[٤]

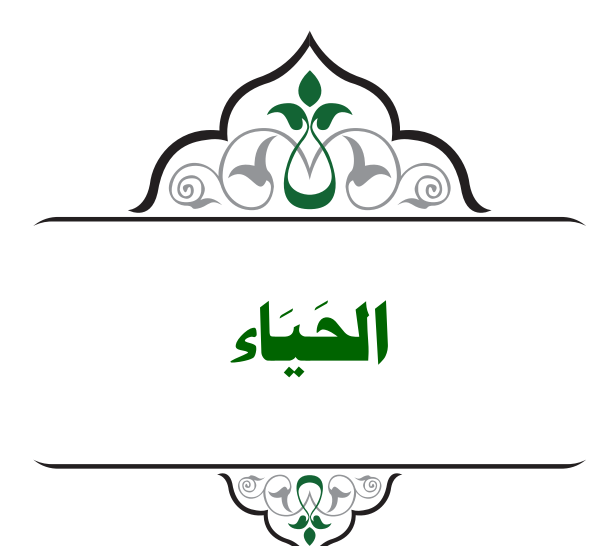
وقال الآخر:

أيا مَن تدَّعي شتمي سفاهًا عجلت عليَّ خيرًا يا أخيَّا

أكسيك الثَّواب بِبِنْتِ شتمي وأستدعي به إثمًا إليَّا

فأنت إذن وقد أصبحت ضدًّا أعزُّ عليَّ مِن نفسي عليَّا[٥]

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢٠٩).
(٢) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢/١٤٠).
(٣) ((المصدر السابق)) (١/١٨٠).
(٤) ((الحِلْم)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٣٤).
(٥) ((المصدر السابق)) (ص ٤٨).



الحَيَاء

الحَيَاء

معنى الحَيَاء لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الحَيَاء لغةً:**

الحياء: الحشمة، ضد الوقاحة. وقد حيي منه حياء واستحيا واستحى فهو حَيِيٌّ، وهو الانقباض والانزواء[(١)].

- **معنى الحَيَاء اصطلاحًا:**

هو: (انقباض النَّفس مِن شيءٍ وتركه حذرًا عن اللَّوم فيه)[(٢)].

وقال ابن حجر: (الحَيَاء: خُلُق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح، ويمنع مِن التقصير في حقِّ ذي الحقِّ)[(٣)].

وقيل هو: (تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان مِن خوف ما يُعَاب به ويُذَمُّ، ومحلُّه الوجه)[(٤)].

الفرق بين الحَيَاء والخجل:

(الخجل: معنى يظهر في الوجه لغمٍّ يلحق القلب، عند ذهاب حجَّةٍ، أو ظهور على ريبة، وما أشبه ذلك، فهو شيء تتغير به الهيبة.

والحَيَاء: هو الارتداع بقوَّة الحَيَاء، ولهذا يُقَال: فلانٌ يستحي في هذا الحال أن يفعل كذا، ولا يقال: يخجل أن يفعله في هذه الحال؛ لأنَّ هيئته لا تتغيَّر

---

(١) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/١٢٢)، ((لسان العرب)) (١٤/٢١٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/١٦٠).

(٢) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ٩٤).

(٣) ((فتح الباري)) لابن رجب (١/٥٢).

(٤) ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص ٦١).

منه قبل أن يفعله، فالخَجَل ممَّا كان والحَيَاء ممَّا يكون.

وقد يُسْتَعمل الحَيَاء موضع الخَجَل توسُّعًا، وقال الأنباري: أصل الخَجَل في اللُّغة: الكَسَل والتَّواني وقلَّة الحركة في طلب الرِّزق، ثمَّ كثر استعمال العرب له حتى أخرجوه على معنى الانقطاع في الكلام.

وفي الحديث: ((إذا جعتنَّ وقعتنَّ، وإذا شبعتنَّ خجلتنَّ))[1]، «وقعتنَّ» أي: ذللتنَّ، و«خجلتن»: كسلتن.

وقال أبو عبيدة: الخَجَل هاهنا الأَشَر، وقيل هو سوء احتمال العناء.

وقد جاء عن العرب الخَجَل بمعنى: الدَّهش.

قال الكُمَيْتُ:

فلم يدفعوا عندنا ما لهم لوقع الحروب ولم يخجلوا

أي لم يبقوا دهشين مبهوتين[2].

التَّرغيب في الحَيَاء:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

فُسِّر لباس التَّقوى بأنَّه الحَيَاء كما رُوِي عن الحسن[3]، ومعبد الجهني[4].

- قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ

---

(١) ذكره المتقي الهندي في ((كنز العمال)) (٣٧٧/٦) وقال: رواه ابن الأنباري في كتاب الأضداد عن منصور بن المعتمر مرسلًا.

(٢) ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص ٢٤٤).

(٣) ((تفسير الآلوسي)) (٣٤٤/٤).

(٤) ((تفسير الثَّعالبي)) (١٩/٣).

لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥].

قال مجاهد: (يعْني: واضعةً ثوبها على وجهها ليست بخرَّاجةٍ ولا ولَّاجةٍ)(١).

قال الطَّبري: (فأَتَتْهُ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)، وهي تسْتَحْيِي منه)(٢).

- وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [الأحزاب:٥٣].

قال ابن كثير: (قيل: المراد أنَّ دخولكم منزله بغير إذنه، كان يشُقُّ عليه ويتأذَّى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك مِن شدَّة حَيَائه عليه السَّلام، حتى أنزل الله عليه النَّهي عن ذلك)(٣).

وقال الشَّوكاني: (أي:يسْتَحْيِي أن يقول لكم: قوموا، أو اخرجوا)(٤).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ ممَّا أدرك النَّاس مِن كلام النُّبوَّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت))(٥).

---

(١) ((تفسير مجاهد)) (ص٥٢٩).

(٢) ((جامع البيان)) للطبري (٢٢١/١٨).

(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٤٥٤/٦).

(٤) ((فتح القدير)) (٣٤٢/٤).

(٥) رواه البخاري (٦١٢٠).

قال الخطَّابي: (قال الشَّيخ: معنى قوله ((النُّبوَّة الأولى)) أنَّ الحَيَاء لم يزل أمره ثابتًا، واستعماله واجبًا منذ زمان النُّبوَّة الأولى، وأنه ما مِن نبيٍّ إلَّا وقد نَدَب إلى الحَيَاء وبُعِث عليه، وأنَّه لم ينسخ فيما نسخ مِن شرائعهم، ولم يُبَدَّل فيما بُدِّل منها)[١].

قال ابن القيِّم: (خُلق الحَيَاء مِن أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّة الإنسانيَّة، فمَن لا حياء فيه، فليس معه مِن الإنسانيَّة إلَّا اللَّحم والدَّم وصورتهما الظَّاهرة، كما أنَّه ليس معه مِن الخير شيء)[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستُّون- شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلَّا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطَّريق. والحياء شعبة مِن الإيمان))[٣].

قال الخطَّابي: (معنى قوله: ((الحَيَاء شعبة مِن الإيمان)) أنَّ الحَيَاء يقطع صاحبه عن المعاصي ويحجزه عنها، فصار بذلك مِن الإيمان)[٤].

و(إنَّما أفرد صلَّى الله عليه وسلَّم هذه الخصلة مِن خصال الإيمان في هذا الحديث، وخصَّها بالذِّكر دون غيرها مِن باقي شعب الإيمان؛ لأنَّ الحَيَاء كالدَّاعي إلى باقي الشُّعب، فإنَّ صاحب الحَيَاء يخاف فضيحة الدُّنْيا والآخرة فيأتمر وينزجر، فلمَّا كان الحَيَاء كالسَّبب لفعل باقي الشُّعب؛ خُصَّ بالذِّكر ولم يذكر غيره معه)[٥].

---

(١) ((معالم السنن)) للخطَّابي (٤/١٠٩).
(٢) ((مفتاح دار السَّعادة)) (١/٢٧٧) بتصرُّف يسير.
(٣) رواه مسلم (٣٥)
(٤) ((معالم السنن)) (٤/٣١٢).
(٥) ((المجالس الوعظيَّة في شرح أحاديث خير البريَّة)) للسفيري (١/٣٦٥).

وقال السعدي: (هذا الحديث مِن جملة النُّصوص الدَّالة على أنَّ الإيمان اسمٌ يشمل عقائد القلب وأعماله، وأعمال الجوارح، وأقوال اللِّسان، فكلُّ ما يقرِّب إلى الله، وما يحبُّه ويرضاه مِن واجبٍ ومستحبٍّ فإنَّه داخلٌ في الإيمان. وذكر هنا أعلاه وأدناه، وما بين ذلك وهو: الحَيَاء. ولعلَّ ذكر الحَيَاء؛ لأنَّه السَّبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان. فإنَّ مَن استحيا مِن الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجلِّيه عليه بأسمائه الحسنى، -والعبد مع هذا كثير التَّقصير مع هذا الرَّبِّ الجليل الكبير، يظلم نفسه ويجني عليها- أوجب له هذا الحَيَاء التوقِّي مِن الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبَّات)[1].

- وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((الحَيَاء لا يأتي إلَّا بخير))[2].

قال ابن بطَّال: (معناه أنَّ مَن استحيا مِن النَّاس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعيةٌ له إلى أن يكون أشدَّ حياءً مِن ربِّه وخالقه، ومَن استحيا مِن ربِّه فإنَّ حياءه زاجرٌ له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه؛ لأنَّ كلَّ ذي فطرة صحيحة، يعلم أنَّ الله تعالى النَّافع له والضَّار والرَّزاق والمحيي والمميت، فإذا عَلِم ذلك فينبغي له أن يستحيي منه عزَّ وجلَّ)[3].

قال ابن رجب: (... ((الحياء لا يأتي إلَّا بخير)): فإنَّه يكفُّ عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحثُّ على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو مِن خصال الإيمان بهذا الاعتبار)[4].

---

(١) ((بهجة قلوب الأبرار)) (ص ١٧٩).
(٢) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).
(٣) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٢٩٧).
(٤) ((جامع العلوم والحكم)) (١/٥٠١).

قال ابن حجر: (إذا صار الحَيَاء عادة، وتخَلَّق به صاحبه، يكون سببًا يجلب الخير إليه، فيكون منه الخير بالذَّات والسَّبب)(١).

فالحَيَاء فضيلة مِن فضائل الفطرة، وهو مادَّة الخير والفضيلة، وبهذا وصفه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: ((الحَيَاء خيرٌ كلُّه)).

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، مرَّ على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنَّك لتستحيي حتى كأنَّه يقول: قد أضرَّ بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((دعه، فإنَّ الحياء مِن الإيمان))(٢).

قال ابن بطَّال: (معناه أنَّ الحَيَاء مِن أسباب الإيمان وأخلاق أهله؛ وذلك أنَّه لما كان الحَيَاء يمنع مِن الفواحش، ويحمل على الصَّبر والخير، كما يمنع الإيمان صاحبه مِن الفجور، ويقيِّده عن المعاصي، ويحمله على الطَّاعة، صار كالإيمان لمساواته له في ذلك، وإن كان الحَيَاء غريزة، والإيمان فعل المؤمن، فاشتبها مِن هذه الجهة)(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استحيوا مِن الله حقَّ الحياء. قال: قلنا: يا رسول الله إنَّا لنستحيي، والحمد للَّه. قال: ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء مِن الله حقَّ الحياء: أن تحفظ الرَّأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتتذكَّر الموت والبِلَى، ومَن أراد الآخرة، ترك زينة الدُّنيا، فمَن فعل ذلك، فقد استحيا مِن الله حقَّ الحياء))(٤).

---

(١) ((فتح الباري)) (١٠/٥٢٢).

(٢) رواه البخاري (٦١١٨)

(٣) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٢٩٨).

(٤) رواه التِّرمذي (٢٤٥٨) مِن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقال: غريب. وحسَّن إسناده النَّووي في ((المجموع)) (٥/١٠٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح التِّرمذي)) (٢٤٥٨).

قال ابن رجب: (يدخل فيه حفظ السَّمع والبصر واللِّسان مِن المحرَّمات، وحفظ البطن وما حوى، يتضمَّن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرَّم الله، ويتضمَّن أيضًا حفظ البطن مِن إدخال الحرام إليه مِن المآكل والمشارب، ومِن أعظم ما يجب حفظه مِن نواهي الله عزَّ وجلَّ اللِّسان والفرج)[1].

وقال المباركفوريُّ في شرح الحديث: (قوله: ((استحيوا مِن الله حقَّ الحَيَاء)). أي: حياءً ثابتًا ولازمًا صادقًا، قاله المناويُّ، وقيل: أي: اتَّقوا الله حقَّ تقاته.

((قلنا يا نبيَّ الله إنَّا لنستحيي)). لم يقولوا: حقَّ الحَيَاء؛ اعترافًا بالعجز عنه.

((والحمد لله)). أي على توفيقنا به.

((قال: ليس ذاك)). أي: ليس حقَّ الحَيَاء ما تحسبونه، بل أن يحفظ جميع جوارحه عمَّا لا يرضى.

((ولكن الاستحياء مِن الله حقَّ الحَيَاء: أن تحفظ الرَّأس)). أي: عن استعماله في غير طاعة الله، بأن لا تسجد لغيره، ولا تصلِّي للرِّياء، ولا تخضع به لغير الله، ولا ترفعه تكبُّرًا.

((وما وعى)). أي: جمعه الرَّأس مِن اللِّسان والعين والأذن عمَّا لا يحلُّ استعماله.

((وتحفظ البطن)). أي: عن أكل الحرام.

((وما حوى)). أي ما اتصل اجتماعه به مِن الفرج والرِّجلين واليدين والقلب، فإنَّ هذه الأعضاء متَّصلة بالجوف، وحفظها بأن لا تستعملها في المعاصي، بل في مرضاة الله تعالى.

(١) ((جامع العلوم والحكم)) (ص ٤٦٤).

((وتتذكَّر الموت والبِلَى)). بكسر الباء، مِن بَلَى الشَّيء إذا صار خَلِقًا متفتِّتًا، يعني تتذكَّر صيرورتك في القبر عظامًا بالية.

((ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنْيا)). فإنَّهما لا يجتمعان على وجه الكمال حتى للأقوياء، قاله القاري.

وقال المناويُّ: لأنَّهما ضرَّتان، فمتى أرضيت إحداهما أغضبت الأخرى)[1].

- وعن يَعْلَى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا يغتسل بالبَرَاز فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يحبُّ الحَيَاء والسَّتْر، فإذا اغتسل أحدكم فليَسْتَتِر))[2].

- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما كان الفُحْش في شيء إلَّا شانه، وما كان الحَيَاء في شيء إلَّا زَانَهُ))[3].

أقوال السَّلف والعلماء في الحَيَاء:

- قال عمر رضي الله عنه: (مَن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومَن قلَّ ورعه مات قلبه)[4].

- قال ابن القيِّم في حقيقة الحَيَاء: (قال صاحب المنازل: الحَيَاء: مِن

(١) ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٧/١٣٠-١٣١).
(٢) رواه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٦). وصحَّحه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/٢٠٤)، وقال الشَّوكاني في ((نيل الأوطار)) (١/٣١٧): رجال إسناده رجال الصَّحيح.
(٣) رواه الترِّمذي (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥)، وأحمد (٣/١٦٥) (١٢٧١٢). قال الترِّمذي: حسنٌ غريب. وقال ابن حجر في ((تخريج المشكاة)) (٤/٣٨٦): رجاله رجال الصَّحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٢٦٣٥).
(٤) رواه الطَّبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢/٣٧٠)، والبيهقي في ((الشُّعب)) (٧/٥٩) مِن حديث الأحنف بن قيس رضي الله عنه. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/٣٠٥): فيه دويد بن مجاشع، ولم أعرفه، وبقيَّة رجاله ثقات.

أوَّل مدارج أهل الخصوص، يتولَّد مِن تعظيمٍ منوطٍ بودٍّ. إنَّما جَعَل الحَيَاء مِن أوَّل مدارج أهل الخصوص: لما فيه مِن ملاحظة حضور مَن يستَحيي منه، وأوَّل سلوك أهل الخصوص: أن يروا الحقَّ سبحانه حاضرًا معهم، وعليه بناء سلوكهم. وقوله: إنَّه يتولَّد مِن تعظيمٍ منوطٍ بودٍّ. يعني: أنَّ الحَيَاء حالة حاصلة مِن امتزاج التَّعظيم بالمودَّة، فإذا اقترنا تولَّد بينهما الحَيَاء، والجنيد يقول: إنَّ تولُّده مِن مشاهدة النِّعم ورؤية التَّقصير، ومنهم مَن يقول: تولُّده مِن شعور القلب بما يستحيي منه، فيتولَّد مِن هذا الشُّعور والنُّفرة، حالةٌ تُسَمَّى: الحَيَاء، ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإنَّ للحياء عدَّة أسباب)[1].

- وقال أيضًا: (حياة القلب يكون فيه قوَّة خُلُق الحَيَاء، وقلَّة الحَيَاء مِن موت القلب والرُّوح، فكلَّما كان القلب أحيى كان الحَيَاء أتم.

- قال الجنيد: الحَيَاء: رؤية الآلاء ورؤية التَّقصير، فيتولَّد بينهما حالة تُسمَّى الحَيَاء، وحقيقته: خُلُقٌ يبعث على ترك القبائح، ويمنع مِن التَّفريط في حقِّ صاحب الحقِّ).

- وقال الفضيل بن عياض: (خمسٌ مِن علامات الشَّقاوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلَّة الحَيَاء، والرَّغبة في الدُّنْيا، وطول الأمل)[2].

- وقال أبو عبيدة النَّاجي: سمعت الحسن يقول: (الحَيَاء والتَّكرُّم خصلتان مِن خصال الخير، لم يكونا في عبد إلَّا رفعه الله عزَّ وجلَّ بهما)[3].

- (وقال ابن عطاء: العلم الأكبر: الهيبة والحَيَاء؛ فإذا ذهبت الهيبة والحَيَاء، لم يبق فيه خير.

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٢٥٣).

(٢) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٠/١٨٢)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٨/٤١٦).

(٣) ((مكارم الأخلاق)) لابن أبي الدُّنْيا (١/٤٣).

- وقال ذو النُّون المصري: الحَيَاء، وجود الهيبة في القلب، مع وحشة ما سبق منك إلى ربِّك تعالى.

- وقال أبو عثمان: مَن تكلَّم في الحَيَاء ولا يستحي مِن الله عزَّ وجلَّ فيما يتكلَّم به، فهو مُستَدرَج.

- وقال الجريري: تعامل القرن الأوَّل مِن النَّاس فيما بينهم بالدِّين، حتى رقَّ الدِّين.. ثمَّ تعامل القرن الثَّاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثمَّ تعامل القرن الثَّالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثمَّ تعامل القرن الرَّابع بالحَيَاء حتى ذهب الحَيَاء، ثمَّ صار النَّاس يتعاملون بالرَّغبة والرَّهبة.

- وقيل: مِن علامات المستحي: أن لا يُرَى بموضع يُسْتَحَيا منه)[1].

- وقال ابن أبي الدُّنْيا: (قيل لبعض الحكماء: ما أنفع الحَيَاء؟ قال: أن تستحي أن تسأله ما تحبُّ، وتأتي ما يكره)[2].

- وقال ربيط بني إسرائيل: (زين المرأة الحَيَاء، وزين الحكيم الصَّمت)[3].

فوائد الحَيَاء:

١- أن الحَيَاء مِن خصال الإيمان.

٢- هجر المعصية خجلًا من الله سبحانه وتعالى.

٣- الإقبال على الطَّاعة بوازع الحبِّ لله عزَّ وجلَّ.

٤- يبعد عن فضائح الدُّنْيا والآخرة.

٥- أصل كلِّ شعب الإيمان.

---

(١) ((الرسالة القشيرية)) (٢/٣٦٨-٣٦٩) بتصرُّف.

(٢) ((التَّوبة)) (ص ٩١).

(٣) ((الصَّمت)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٢٦٣).

٦- يكسو المرء الوَقَار فلا يفعل ما يُخلُّ بالمروءة والتوقير ولا يؤذي مَن يستحقُّ الإكرام.

٧- لا يمنع مِن مواجهة أهل الباطل ومرتكبي السوء.

٨- مَن استحى مِن الله ستره الله في الدُّنْيا والآخرة.

٩- يُعدُّ صاحبه مِن المحبوبين عند الله وعند النَّاس.

١٠- يمنع الشَّخص عن الفواحش، ويجعله يستتر بها إذا هو سقط في شيء مِن أوحالها.

١١- يدفع المرء إلى التَّحلِّي بكلِّ جميل محبوب، والتَّخلِّي عن كلِّ قبيح مكروه[١].

أقسام الحَيَاء:

(ينقسم الحَيَاء باعتبار محلِّه إلى قسمين:

١- القسم الأوَّل: حياء فطريٌّ: وهو الذي يُولَد مع الإنسان متزوِّدًا به، ومِن أمثلته: حياء الطِّفل عندما تنكشف عورته أمام النَّاس، وهذا النَّوع مِن الحَيَاء منحة أعطاها الله لعباده.

٢- والقسم الثَّاني: حياء مكتسب: وهو الذي يكتسبه المسلم مِن دينه، فيمنعه مِن فعل ما يُذَمُّ شرعًا، مخافة أن يراه الله حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وينقسم باعتبار متعلَّقه إلى قسمين:

١- القسم الأوَّل: الحَيَاء الشَّرعي: وهو الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام، وهو محمود.

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٤٩١).

٢- القسم الثَّاني: الحَيَاء غير الشَّرعي: وهو ما يقع سببًا لترك أمر شرعي، وهذا النَّوع مِن الحَيَاء مذموم، وهو ليس بحياء شرعي، وإنَّما هو ضعف ومهانة)[1].

صور الحياء:

من صور الحياء المحمود:

الحَيَاء مِن الله: وذلك بالخوف منه ومراقبته، وفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، وأن يستحي المؤمن أن يراه الله حيث نهاه، وهذا الحَيَاء يمنع صاحبه مِن ارتكاب المعاصي والآثام؛ لأنَّه مرتبطٌ بالله يراقبه في حِلِّه وترحاله.

- الحَيَاء مِن الملائكة: وذلك عندما يستشعر المؤمن بأنَّ الملائكة معه يرافقونه في كلِّ أوقاته، ولا يفارقونه إلَّا عندما يأتي الغائط، وعندما يأتي أهله.

- الحَيَاء مِن النَّاس: وهو دليلٌ على مروءة الإنسان؛ فالمؤمن يستحي أن يؤذي الآخرين سواءً بلسانه أو بيده، فلا يقول القبيح ولا يتلفَّظ بالسُّوء، ولا يطعن أو يغتاب أو ينم، وكذلك يستحي مِن أن تنكشف عوراته فيطَّلع عليها النَّاس.

صور الحَيَاء المذموم:

مِن صور الحَيَاء المذموم:

- الحَيَاء في طلب العلم:

إذا تعلَّق الحَيَاء بأمر دينيٍّ، يمنع الحَيَاء مِن السُّؤال فيه أو عرضه في تعليم أو دعوة، فإنَّ ممَّا ينبغي حينها، رفع الحرج، ومدافعة هذا الحَيَاء الذي يمنع مِن التَّحصيل العلمي أو الدَّعوة إلى الله سواءً عند الرِّجال أو النساء[2].

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لحسن السعيد المرسي (ص ١٤٦).

(٢) ((المرأة المسلمة المعاصرة.. إعدادها ومسؤوليتها في الدَّعوة)) لأحمد بن محمد أبا بطين (٣٨٨-٣٨٩).

فقد ورد أنَّ أمَّ سليم رضي الله عنها ((جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إنَّ الله لا يستحيي مِن الحقِّ، فهل على المرأة مِن غسلٍ إذا احتلمت؟ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إذا رأت الماء. فغطَّت أمُّ سلمة -تعني وجهها- وقالت: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟! قال: نعم، تَرِبَت يمينك، فيمَ يشبهها ولدها))[1].

وعن مجاهد، قال: (إنَّ هذا العلم لا يتعلَّمه مستحٍ ولا متكبِّرٍ)[2].

وعن سعيد بن المسيب ((أنَّ أبا موسى قال لعائشة -رضي الله عنها-: إنِّي أريد أن أسألكِ عن شيءٍ وإنِّي أستحييك. فقالت: لا تستحيي أن تسألني عمَّا كنت سائلًا عنه أمَّك التي ولدتك، فإنَّما أنا أمُّك. قلت: فما يوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا جلس بين شُعَبِها الأربع، ومسَّ الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل))[3].

ورُوِي عن الأسود ومَسْرُوق قال: ((أتينا عائشة لنسألها عن المباشرة للصَّائم، فاستحينا فقمنا قبل أن نسألها، فمشينا لا أدري كم، ثمَّ قلنا: جئنا لنسألها عن حاجة ثمَّ نرجع قبل أن نسألها؟ فرجعنا فقلنا: يا أمَّ المؤمنين، إنَّا جئنا لنسألك عن شيء فاستحينا فقمنا. فقالت: ما هو؟ سلا عمَّا بدا لكما. قلنا: أكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يباشر وهو صائم؟ قالت: قد كان يفعل ذلك، ولكنَّه كان أملك لإرْبِه[4] منكم))[5].

---

(١) رواه البخاري (١٣٠)، ومسلم (٣١٣)

(٢) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٣/٢٨٧).

(٣) رواه مسلم (٣٤٩)

(٤) لأرْبِه: لحاجته، تعني أنه كان غالبًا لهواه. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٣٦).

(٥) رواه أحمد (٦/٢١٦) (٢٥٨٥٧) مِن حديث عائشة رضي الله عنها. والحديث مرويٌّ في الصَّحيحين بدون ذكر القصَّة.

- الحَيَاءِ مِن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر:

الحَيَاء لا يمنع المسلم مِن أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

بل الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر سمة مِن سمات هذه الأمَّة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع شدَّة حيائه، لم يثنه ذلك عن قول الحقِّ، ويتبيَّن ذلك في موقفه مع أسامة بن زيد رضي الله عنهما، حينما أراد أن يشفع في حدٍّ مِن الحدود، فلم يمنعه حياؤه صلى الله عليه وسلم مِن أن يقول لأسامة في غضب: أتشفع في حدٍّ مِن حدود الله؟! ثمَّ قام فاختطب، ثمَّ قال: إنَّما أهلك الذين قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضَّعيف أقاموا عليه الحدَّ، وايم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها)[١].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنَّ الله ليسأل العبدَ يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذْ رأيتَ المنكر أن تنكره؟ فإذا لقَّن الله عبدًا حجَّته قال: يا ربِّ! رجوتُك وفَرِقْتُ مِن النَّاس))[٢].

- فعل أمر نهى عنه الشَّارع:

فمَن دفعه حياؤه إلى فعل أمرٍ نهى عنه الشَّارع، أو إلى ترك واجب مرغوب

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) مِن حديث عائشة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٧)، والحميدي في ((مسنده)) (٧٥٦). قال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١٥٥/٣): إسناده لا بأس به. وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٢٦٠)، وحسَّنه الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٤٠٣).

في الدِّين فليس حييًّا شرعًا، وإنَّما هذا يعتبر ضعفًا ومهانة.

فليس مِن الحَيَاء أن يترك الصَّلاة الواجبة بسبب ضيوفٍ عنده حتى تفوته الصَّلاة. وليس مِن الحَيَاء أن يمتنع الشَّخص مِن المطالبة بالحقوق التي كفلها له الشَّرع(١).

صور الحَيَاء كما ذكرها ابن القيِّم:

ذكر ابن القيِّم صورًا للحياء وقسَّمها إلى عشرة أوجه وهي:

(حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حِشْمَة، وحياء استصغارٍ للنَّفس واحتقارٍ لها، وحياء محبَّة، وحياء عبوديَّة، وحياء شرف وعزَّة، وحياء المستحيي مِن نفسه.

فأمَّا حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السَّلام لما فرَّ هاربًا في الجنَّة، قال الله تعالى: أفرارًا منِّي يا آدم؟ قال: لا يا ربِّ، بل حياءً منك.

وحياء التَّقصير: كحياء الملائكة الذين يسبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حقَّ عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربِّه، يكون حياؤه منه.

وحياء الكَرَم: كحياء النَّبيِّ مِن القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وطوَّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحِشْمَة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن يسأل رسول الله عن المذْي لمكان ابنته منه.

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لحسن السعيد (ص ١٥٥).

وحياء الاستحقار واستصغار النَّفس: كحياء العبد مِن رَبِّه عزَّ و جلَّ حين يسأله حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه واستصغارًا لها...

وقد يكون لهذا النَّوع سببان:

أحدهما: استحقار السَّائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

والثَّاني: استعظام مسؤوله.

وأمَّا حياء المحبَّة: فهو حياء المحبِّ مِن محبوبه، حتى إنَّه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحَيَاء مِن قلبه، وأحسَّ به في وجهه، ولا يدرى ما سببه، وكذلك يعرض للمحبِّ عند ملاقاته محبوبه ومناجاته له روعةٌ شديدةٌ، ومنه قولهم: جمال رائع، وسبب هذا الحَيَاء والرَّوعة، ممَّا لا يعرفه أكثر النَّاس.

ولا ريب أنَّ للمحبَّة سلطانًا قاهرًا للقلب، أعظم مِن سلطان مَن يقهر البدن، فأين مَن يقهر قلبك وروحك إلى مَن يقهر بدنك؟ ولذلك تعجَّبت الملوك والجبابرة مِن قهرهم للخَلْق، وقهر المحبوب لهم وذلهم له، فإذا فاجأ المحبوب مُحِبَّه ورآه بغتةً: أحسَّ القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعةٌ وخوف...

وأمَّا الحَيَاء الذي يعتريه منه -وإن كان قادرًا عليه كأمته وزوجته- فسببه والله أعلم أنَّ هذا السُّلطان لـمَّا زال خوفه عن القلب، بقيت هيبته واحتشامه، فتولَّد منها الحَيَاء، وأمَّا حصول ذلك له في غيبة المحبوب فظاهرٌ لاستيلائه على قلبه، فوهمه يغالطه عليه ويكابره حتى كأنَّه معه.

وأمَّا حياء العبوديَّة: فهو حياء ممتزجٌ مِن محبَّة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديَّته لمعبوده، وأنَّ قدره أعلى وأجلُّ منها، فعبوديَّته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشَّرف والعزَّة، فحياء النَّفس العظيمة الكبيرة، إذا صدر منها ما هو دون قدرها مِن بذلٍ أو عطاءٍ وإحسانٍ، فإنَّه يستحيي -مع بذله- حياء شرف نفسٍ وعزَّةٍ، وهذا له سببان: أحدهما: هذا. والثَّاني: استحياؤه مِن الآخذ حتى كأنَّه هو الآخذ السَّائل، حتى إنَّ بعض أهل الكَرَم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياءً منه، وهذا يدخل في حياء التَّلوُّم؛ لأنَّه يستحيي مِن خَجْلَة الآخذ.

وأما حياء المرء مِن نفسه: فهو حياء النُّفوس الشَّريفة العزيزة الرَّفيعة مِن رضاها لنفسها بالنَّقص وقناعتها بالدُّون، فيجد نفسه مستحيًا مِن نفسه حتى كأنَّ له نفسين يستحيي بإحداهما مِن الأخرى، وهذا أكمل ما يكون مِن الحَيَاء؛ فإنَّ العبد إذا استحيي مِن نفسه فهو بأن يستحيي مِن غيره أجدر)[1].

مِن مظاهر قلَّة الحَيَاء:

- المجاهرة بالذُّنوب والمعاصي وعدم الخوف مِن الله.

- لبس النِّساء الكاسيات العاريات الملابس التي تصف الأجسام، أو الضَّيِّقة أو المفتوحة مِن الأعلى والأسفل.

- حديث المرأة مع الرَّجل الأجنبي عند خروجها واختلاطها به.

- التَّلفُّظ والتَّفوُّه بالألفاظ البذيئة والسَّيِّئة التي تجرح الآخرين.

- كلام الرَّجل مع غيره بالأسرار الزَّوجية والأمور الخاصَّة التي تحصل بينه وبين زوجته.

- كشف العورات و عدم سترها.

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم، بتصرُّف (٢/٢٥٠-٢٥٢).

موانع اكتساب الحَيَاء:

- **الغناء:**

روى البيهقي وابن أبي الدُّنْيا عن أبي عثمان اللَّيثيِّ قال: قال يزيد بن الوليد النَّاقص: (يا بني أميَّة إيَّاكم والغناء؛ فإنَّه ينقص الحَيَاء، ويزيد في الشَّهوة، ويهدم المروءة)[1].

- **ارتكاب المعاصي:**

بيَّن ابن القيِّم أنَّ الذُّنوب والمعاصي تُذْهِب الحَيَاء فقال: (ومِن عقوباتها ذهاب الحَيَاء الذي هو مادَّة الحياة للقلب، وهو أصل كلِّ خير وذهاب كلِّ خير بأجمعه، وفي الصَّحيح عنه أنَّه قال: ((الحَيَاء خير كلُّه)). وقال: ((إنَّ ممَّا أدرك النَّاس مِن كلام النُّبوَّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)). وفيه تفسيران: أحدهما أنَّه على التَّهديد والوعيد، والمعنى: مَن لم يستح فإنَّه يصنع ما شاء مِن القبائح؛ إذِ الحامل على تركها الحَيَاء، فإذا لم يكن هناك حياءٌ نزعه مِن القبائح، فإنَّه يواقعها، وهذا تفسير أبي عبيدة، والثَّاني: أنَّ الفعل إذا لم تستح فيه مِن الله فافعله، وإنَّما الذي ينبغي تركه ما يُستحى منه مِن الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هاني، فعلى الأوَّل يكون تهديدًا، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصِّلت: ٤٠]، وعلى الثَّاني يكون إذنًا وإباحة، فإن قيل فهل مِن سبيل إلى حمله على المعنيين؟ قلت: لا، ولا على قول مَن يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين الإباحة والتَّهديد مِن المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر، والمقصود: أنَّ الذُّنوب تُضْعِف الحَيَاء مِن العبد حتى ربَّما انسلخ منه بالكلِّيَّة، حتى ربَّما أنَّه لا يتأثَّر بعلم النَّاس بسوء

---

(١) ((روح المعاني)) للألوسي (١١/٦٨).

حاله، ولا باطِّلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعله، والحامل على ذلك انسلاخه مِن الحَيَاء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة، لم يبق في صلاحه مطمع)[1].

الوسائل المعينة على اكتساب الحَيَاء:

الحَيَاء موجود في فطرة الإنسان، وعلينا أن نجعله رفيقًا لنا في كلِّ أقوالنا وأفعالنا، وهناك بعض الوسائل التي تنمِّي هذه الصِّفة وتقوِّيها في نفوسنا، ومِن هذه الوسائل:

١- اتِّباع أوامر الله سبحانه والخوف منه، ومراقبته في كلِّ حين، واستشعار معيته.

٢- اتِّباع سنَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في حياته القوليَّة والفعليَّة.

٣- غضُّ البصر عمَّا حرَّم الله سبحانه وتعالى، وعدم تتبُّع عورات الآخرين.

٤- الصَّبر عن المعصية يعين على ملازمة الحَيَاء.

٥- تربية الأولاد على الحَيَاء.

٦- مجالسة مَن يتَّصف بصفة الحَيَاء.

نماذج للحَيَاء:

- **نماذج مِن حَيَاء الأنبياء والمرسلين عليهم السلام:**

حياء أبينا آدم وأمِّنا حواء:

إنَّ الحَيَاء خاصيَّة مِن الخصائص التي حبا الله بها الإنسان؛ ليبتعد عن مزاولة الذُّنوب والمعاصي والشَّهوات، وحينما أكل آدم وحواء مِن الشجرة التي نهاهما

---

(١) (الجواب الكافي) (٦٩-٧٠).

الله عن الأكل منها، بدت لهما سوءاتهما، فأسرعا يأخذان مِن أوراق الجنَّة ليسترا عوراتهما، فتحدَّث القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ...﴾ [الأعراف:٢٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان مفطورٌ على الحَيَاء، وأمَّا قلَّة الحَيَاء فهي منافية للفطرة، بل مِن اتِّباع الشَّيطان.

حياء نبي الله موسى عليه السَّلام:

جاء في وصف موسى عليه السَّلام أنَّه كان حييًّا ستِّيرًا، حتى كان يستر بدنه، ويستحي أن يظهر ممَّا تحت الثِّياب شيئًا حتى ممَّا ليس بعورة. وبسبب تستُّره الزَّائد، آذاه بعض بني إسرائيل في أقوالهم، فقالوا: ما يبالغ في ستر نفسه إلَّا مِن عيب في جسمه، أو مِن أُدْرَة[1] هو مصاب بها[2].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ موسى كان رجلًا حييًّا ستِّيرًا، لا يُرَى مِن جلده شيء استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه مِن بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التَّستُّر إلَّا مِن عيب بجلده، إمَّا برص وإمَّا أُدْرَة وإمَّا آفة. وإنَّ الله أراد أن يبرِّئه ممَّا قالوا لموسى فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثمَّ اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإنَّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملإٍ مِن بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه ممَّا يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه،

(١) الأُدْرَة: نفخة في الخصية. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٤).

(٢) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لعبد الرَّحمن الميداني (٢/٤٩٥).

وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فو الله إنَّ بالحجر لندبًا[١] مِن أثر ضربه ثلاثًا، أو أربعًا، أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩]))[٢].

- **نماذج مِن حياء الأمم السَّابقة:**

حياء امرأة صالحة:

قال تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥].

وهذه الآية تتحدَّث عن حياء الابنة، حين جاءت إلى موسى عليه السَّلام تدعوه إلى أبيها ليجزيه على صنيعه، فجاءت إليه تمشي على استحياء[٣].

وقال عمر رضي الله عنه: (فأقبلت إليه ليست بسَلْفَعٍ[٤] مِن النِّساء، لا خرَّاجة ولا ولَّاجة، واضعة ثوبها على وجهها)[٥].

حياء العرب في الجاهليَّة:

كان أهل الجاهليَّة يتحرَّجون مِن بعض القبائح بدافع الحَيَاء، فها هو هرقل يسأل أبا سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول أبو سفيان: (فوالله لولا الحَيَاء مِن أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه)[٦]. فمنعه الحَيَاء، من

---

(١) الندب: الآثر الباقي في الحجر من ضرب موسى –عليه السلام– له. ((فتح الباري)) لابن رجب (١/٣٣٠).

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٤).

(٣) ((الأخلاق الإسلاميَّة ودورها في بناء المجتمع)) لجمال نصَّار (ص٢٤٢).

(٤) سليطة جريئة. ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/١٦١).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٦/٣٣٤) (٣١٨٤٢).

(٦) رواه البخاري (٧).

الافتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لئلَّا يوصف بالكذب، ويشاع عنه ذلك[١].

قال عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها[٢]

- **نماذج مِن حياء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:**

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أشدَّ النَّاس حياءً، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً مِن العذراء في خدرها[٣]))[٤]. وكان إذا كره شيئًا عرفه الصَّحابة في وجهه.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

حياؤه مِن الله:

ومِن مظاهر حيائه صلى الله عليه وسلم حياؤه مِن خالقه سبحانه وتعالى؛ وذلك لما طلب موسى عليه السَّلام مِن نبيِّنا صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء أن يراجع ربَّه في تخفيف فرض الصَّلاة، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لموسى عليه السَّلام: ((استحييت مِن ربِّي))[٥].

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة ودورها في بناء المجتمع)) لجمال نصَّار (٢٤٤).
(٢) ((ديوان عنترة)) (٣٠٨).
(٣) الخدر: ستر يجعل للبكر في جنب البيت. ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/٧٨).
(٤) رواه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٥) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) مِن حديث أبي ذر رضي الله عنه.

حياؤه مِن النَّاس:

مِن ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها ((أنَّ امرأة سألت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عن غسلها مِن المحيض، فأمرها كيف تغتسل، ثمَّ قال: خذي فرصة مِن مسك فتطهَّري بها. قالت: كيف أتطهر بها؟ قالت: فستر وجهه بطرف ثوبه، وقال: سبحان الله! تطهَّري بها. قالت عائشة: فاجتذبت المرأة فقلت: تتبَّعي بها أثر الدم))[1].

- ومِن صور حيائه صلى الله عليه وسلم، ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: ((بُنِيَ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بزينب ابنة جحش بخبز ولحم، فأُرْسِلتُ على الطَّعام داعيًا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثمَّ يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه، فقلت: يا رسول الله، ما أجد أحدًا أدعوه. قال: ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدَّثون في البيت، فخرج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها، فقال: السَّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. قالت: وعليك السَّلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك يا رسول الله؟ بارك الله لك، فتقرَّى حُجَر نسائه كلِّهنَّ، يقول لهنَّ كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثمَّ رجع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدَّثون، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم شديد الحَيَاء، فخرج منطلقًا نحو حُجْرة عائشة فما أدري أخبرته أم أُخْبِر أنَّ القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسكفَّة الباب داخله والأخرى خارجة، أرخى السِّتر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب))[2].

(١) رواه البخاري (٣١٤).

(٢) رواه البخاري (٤٧٩٣) مِن حديث أنس رضي الله عنه .

حياؤه في تعامله مع مَن بلغه عنه شيء:

عن عائشة رضي الله عنها قالت كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ((إذا بلغه عن الرَّجل الشَّيء لم يقلْ: ما بال فلانٍ يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا؟))[1].

- ## نماذج مِن حياء الصَّحابة رضي الله عنهم:

حياء أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

خطب الصِّدِّيق النَّاس يومًا، فقال: (يا معشر المسلمين، استحيوا مِن الله، فو الذي نفسي بيده إنِّي لأظلُّ حين أذهب الغائط في الفضاء متقنِّعًا بثوبي استحياءً مِن ربِّي عزَّ وجلَّ)[2].

حياء عثمان بن عفَّان رضي الله عنه:

عُرِف عثمان رضي الله عنه بشدَّة الحَيَاء، حتى أنَّ الملائكة كانت تستحي منه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثمَّ استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك، فتحدَّث، ثمَّ استأذن عثمان، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسوَّى ثيابه - قال محمد: ولا أقول ذلك في يوم واحد - فدخل فتحدَّث، فلمَّا خرج، قالت عائشة: دخل أبو بكر، فلم تهتش له ولم تباله، ثمَّ دخل عمر

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٨)، والطَّحاوي في ((شرح المشكل)) (١١٤/١٥)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٢٧/١٠). صححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٦٩٢)، وقال الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (١٦١٢): صحيح على شرط الشَّيخين.

(٢) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣٤/١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٤٢/٦) (٧٧٣٢).

فلم تهتش له ولم تباله، ثمَّ دخل عثمان فجلست وسوَّيت ثيابك، فقال: ألا أستحي مِن رجل تستحي منه الملائكة))[١].

حياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: ((كنت رجلًا مذَّاءً فكنت أستحي أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكان ابنته، فأمرت المقداد فسأله، فقال: يغسل ذكَرَه ويتوضَّأ))[٢].

حياء عائشة رضي الله عنها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أدخل بيتي، الذي دُفِنَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي، فأضع ثوبي، فأقول إنَّما هو زوجي وأبي، فلمَّا دُفِنَ عمر معهم، فو الله ما دخلت إلَّا وأنا مَشْدُودَةٌ عليَّ ثيابي؛ حَيَاءً مِن عمر)[٣].

حياء فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((جاءت فاطمة بنت عتبة بن ربيعة تبايع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فأخذ عليها أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا ولا يَزْنِينَ، الآية. قالت: فوضعت يدها على رأسها حَيَاءً، فأَعْجَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى منها، فقالت عائشة: أَقِرِّي أيَّتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلَّا على هذا. قالت: فنعم إذًا. فبايعها بالآية))[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠١).

(٢) رواه البخاري (١٣٢)، ومسلم (٣٠٣) واللَّفظ له.

(٣) رواه أحمد (٦/٢٠٢) (٢٥٧٠١)، والحاكم (٣/٦٣) (٤٤٠٢) مِن حديث عروة بن الزُّبير -رحمه الله-. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٩): رجاله رجال الصَّحيح. ومثله قال الألباني في ((تخريج المشكاة)) (١٧١٢).

(٤) رواه أحمد (٦/١٥١) (٢٥٢١٦)، وابن حبان (١٠/٤١٨)، وابن منده في ((الإيمان)) =

• نماذج مِن حياء السَّلف:

- عن الشَّعَبي، قال: سمع عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه امرأة تقول:

دعتني النَّفس بعد خروج عمرو إلى اللَّذَّات تطَّلع اطِّلاعا

فقلت لها عجلت فلن تطاعي ولو طالت إقامته رباعا

أحاذر أن أطيعك سبَّ نفسي ومخزاة تحلِّلني قناعا

فقال لها عمر: (ما الذي منعك مِن ذلك؟ قالت: الحَيَاء وإكرام زوجي. فقال عمر: إنَّ في الحَيَاء لهَنات[1] ذات ألوان، مَن استحيي اختفى، ومَن اختفى اتَّقى، ومَن اتَّقى وُقِي)[2].

- وقال الجرَّاح الحكمي: (تركت الذُّنوب حياءً أربعين سنة، ثمَّ أدركني الورع)[3].

- ورُوِي أنَّ عمرو بن عتبة بن فرقد كان يصلِّي ذات ليلة، فسمعوا صوت الأسد، فهرب مَن كان حوله، وهو قائم يصلِّي فلم ينصرف، فقالوا له: أما خفت الأسد؟ فقال: إنِّي لأستحي مِن الله أن أخاف شيئًا سواه[4].

- وقال جعفر الصَّانع: كان في جيران أبي عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل، رجل ممَّن يمارس المعاصي والقاذورات، فجاء يومًا إلى مجلس أحمد يسلِّم

= (٢/٥٨١) مِن حديث عائشة -رضي الله عنها-. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/٤٠): رجال رجاله صحيح. وقال الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (١٦٣٦): صحيح، وبيعة النساء مذكورة في الصَّحيحين.

(١) هنات: أشياء. انظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/٢٥٣٧).

(٢) ((محاسبة النَّفس)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١١٣).

(٣) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذهبي (٥/١٩٠).

(٤) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٢/٤٠).

عليه، فكأن أحمد لم يردَّ عليه ردًّا تامًّا وانقبض منه، فقال له: يا أبا عبد الله! لم تنقبض منِّي؟ فإنِّي قد انتقلت عمَّا كنت تعهدني برؤيا رأيتها. قال: وأيُّ شيء رأيت؟ قال: رأيت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّوم كأنَّه على علوٍّ مِن الأرض، وناس كثير أسفل جلوس، قال: فيقوم رجلٌ رجلٌ منهم إليه، فيقول: ادع لي! فيدعو له حتى لم يبق مِن القوم غيري، قال: فأردت أن أقوم فاستحييت مِن قبيح ما كنت عليه، قال لي: يا فلان! لم لا تقوم إلي فتسألني أدعو لك؟ قال: قلت: يا رسول الله! يقطعني الحَيَاء لقبيح ما أنا عليه. فقال: إن كان يقطعك الحَيَاء فقم فسلني أدع لك فإنَّك لا تسبُّ أحدًا مِن أصحابي. قال: فقمت، فدعا لي، فانتبهت وقد بغَّض الله إليَّ ما كنت عليه. قال: فقال لنا أبو عبد الله: يا جعفر، يا فلان، حدِّثوا بهذا واحفظوه فإنَّه ينفع[1].

- وكان الرَّبيع بن خُثَيم مِن شدَّة غضه لبصره وإطراقه يَظُنُّ بعض النَّاس أنَّه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة، فإذا رأته جاريته قالت لابن مسعود: صديقك الأعمى قد جاء، فكان يضحك ابن مسعود مِن قولها، وكان إذا دقَّ الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقًا غاضًّا بصره[2].

- ولما احتُضر الأسود بن يزيد بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: ما لي لا أجزع؟ ومَن أحقُّ منِّي بذلك؟ والله لو أُتيت بالمغفرة مِن الله لأهمَّني الحَيَاء منه ممَّا قد صنعت، وإنَّ الرَّجل ليكون بينه وبين الرَّجل الذَّنْب الصَّغير، فيعفو عنه، ولا يزال مستحييًا منه[3].

(١) ((التوَّابين)) لابن قدامة (ص ١٥٢).
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (١/١٨١).
(٣) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٢/١٠٣).

الحَيَاء في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ولم تستحِ فاصنعْ ما تشاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقَى العودُ ما بقي اللِّحاءُ[(١)]

وقال أميَّة بن أبي الصَّلت يمدح ابن جُدْعَان بالحَيَاء:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤُك؟ إنَّ شيمتَك الحَيَاءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا كفاهُ من تعرُّضِك الثَّناءُ[(٢)]

وقال آخر:

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤهُ فلا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ
حياءَك فاحفظْه عليك فإنَّما يدلُّ على فضلِ الكريمِ حياؤهُ[(٣)]

وقال آخر:

كريمٌ يغضُّ الطَّرفَ فضلَ حيائِه ويدنو وأطرافُ الرِّماحِ دواني
وكالسَّيفِ إن لاينته لَانَ متنُه وحدَّاهُ إن خاشنته خَشِنانِ[(٤)]

وقال العرجي:

إذا حُرِمِ المرءُ الحَيَاءَ فإنَّه بكلِّ قبيحٍ كان منه جديرُ

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٢/١٠٣).
(٢) ((المنتحل)) للثعالبي (ص ٦١).
(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٥٧).
(٤) ((لباب الآداب)) للثعالبي (ص ١٥٣).

له قِحةٌ في كلِّ شيءٍ، وسرُّه ... مباحٌ، وخدناه خنًا وغرورُ
يرى الشَّتم مدحًا والدَّناءة رفعةً ... وللسَّمع منه في العظات نفورُ
ووجهُ الحَيَاء مُلبَّسٌ جلدَ رِقَّةٍ ... بغيضٌ إليه ما يشينُ كثيرُ
له رغبةٌ في أمرِه وتجرُّدٌ ... حليمٌ لدى جهلِ الجهولِ وقورُ
فرجِّ الفتى مادام يحيا فإنَّه ... إلى خيرِ حالاتِ المنيبِ يصيرُ[1]

وقال آخر:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ... إلَّا نهاني الحَيَاءُ والكَرَمُ
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ... ولا مَشَتْ بي لريبةٍ قدمُ[2]



(١) ((لباب الآداب)) للأمير أسامة بن منقذ (ص ٢٨٧).
(٢) ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص ٢٣٨).



الرَّحْمَة



الرَّحْمَة

معنى الرَّحْمَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الرَّحْمَة لغةً:

الرحمة: من رحمة يرحمه، رحمة ومرحمة، إذا رقَّ له، وتعطف عليه، وأصل هذه المادة يدلُّ على الرقة والعطف والرأفة، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا.

ومنها الرَّحِم: وهي عَلاقة القرابة.

وقد تطلق الرَّحْمَة، ويراد بها ما تقع به الرَّحْمَة، كإطلاق الرَّحْمَة على الرِّزق والغيث(١).

• معنى الرَّحْمَة اصطلاحًا:

(الرَّحْمَة رقَّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُومِ، وقد تستعمل تارةً في الرِّقَّة المجرَّدة، وتارة في الإحسان المجرَّد عن الرِّقَّة)(٢).

وقيل: (هي رِقَّة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه)(٣).

وقيل: هي (رِقَّة في القلب، يلامسها الألم حينما تدرك الحواس أو تدرك بالحواس، أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر، أو يلامسها السُّرور حينما تدرك الحواس أو تدرك بالحواس أو يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر)(٤).

---

(١) انظر: ((الصحاح)) للجوهري (١٩٢٩/٥)، و((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤٩٨/٢)، و((لسان العرب)) لابن منظور (٢٣٠/١٢)، و((مختار الصحاح)) للرازي (ص ١٢٠).

(٢) ((مفردات القرآن)) للراغب (٣٤٧/١).

(٣) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (٢١/٢٦).

(٤) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (٣/٢).

الفرق بين الرَّحْمَة والرَّأفة:

قال ابن عاشور: (والرَّأفة: رِقَّة تنشأ عند حدوث ضر بالمرؤوف به. يقال: رؤوفٌ رحيم. والرَّحْمَة: رقَّة تقتضي الإحسان للمرحوم، بينهما عمومٌ وخصوص مطلق)(١).

وقال القفال: (الفرق بين الرَّأفة والرَّحْمَة: أنَّ الرَّأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضَّرر، كقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] أي: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجلد عنهما، وأمَّا الرَّحْمَة فإنَّها اسم جامع، يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الانفصال والإنعام)(٢).

وقال أبو البقاء الكفوي: (الرَّحْمَة هي أن يوصل إليك المسار، والرَّأفة هي أن يدفع عنك المضار... فالرَّحْمَة من باب التزكية، والرَّأفة من باب التَّخلية، والرَّأفة مبالغة في رحمة مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضر، فذكر الرَّحْمَة بعدها في القرآن مطردًا لتكون أعم وأشمل)(٣).

وقيل: (الرَّأفة أشد من الرَّحْمَة)، وقيل: (الرَّحْمَة أكثر من الرَّأفة، والرَّأفة أقوى منها في الكيفية؛ لأنَّها عبارة عن إيصال النِّعم صافية عن الألم)(٤).

الترغيب في الرَّحْمَة:

أولًا: في القرآن الكريم

ذكر الله هذه الصفة العظيمة في غير ما آية من كتابه الكريم، إمَّا في معرض

---

(١) ((التحرير والتنوير)) (١٠/٢٣٩).
(٢) ((مفاتيح الغيب)) لفخر الدين الرازي (٤/٩٣).
(٣) ((الكليات)) (١/٧٤٢).
(٤) ((الفروق اللغوية)) للعكسري (١/٢٤٦).

تسميه واتصافه بها، أو في معرض الامتنان على العباد بما يسبغه عليهم من آثارها، أو تذكيرهم بسعتها، أو من باب المدح والثناء للمتصفين بها المتحلِّين بمعانيها، أو غير ذلك من السياقات، ومن ذلك:

- تَسمِّيه جلَّ وعلا باسم الرَّحمن والرَّحيم، واتصافه بصفة الرَّحْمَة:

وهذا كثير جدًّا في القرآن، نذكر منه على سبيل المثال لا الحصر:

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، فقد سمى الله نفسه بهذين الاسمين المشتملين على صفة الرَّحْمَة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة)[١].

- ومن ذلك أنَّ الله جعل هذه الصفة لصفوة خلقه، وخيرة عباده، وهم الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم من المصلحين، فقد قال الله تعالى ممتنًا على رسوله صلى الله عليه وسلم على ما ألقاه في قلبه من فيوض الرَّحْمَة، جعلته يلين للمؤمنين، ويرحمهم ويعفو عنهم، ويتجاوز عن أخطائهم: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فبسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد، كنت هيِّنًا، لين الجانب مع أصحابك، مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك[٢].

- ومن ذلك ثناء الله على المتَّصفين بالرَّحْمَة والمتخلِّقين بها، فقد قال تعالى واصفًا رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الذين معه: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩]، فهم أشدَّاء على الكفار، رحماء بينهم، بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم، فالإيمان بالله واليوم

---

(١) ((تفسير البغوي)) (١/٥١).

(٢) ((صفوة التفاسير)) للصابوني (١/١٥٤).

الآخر متى تغلغل في القلب حقًّا، غرس فيه الرَّحْمَة بمقدار قوته وتغلغله[١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [البلد: ١١ – ١٨].

قال محمد الطاهر بن عاشور: (خصَّ بالذِّكر من أوصاف المؤمنين، تواصيهم بالصَّبر، وتواصيهم بالمرحمة، لأنَّ ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإنَّ الصَّبر ملاك الأعمال الصَّالحة كلِّها؛ لأنَّها لا تخلو من كبح الشَّهوة النَّفسانيَّة وذلك من الصَّبر. والمرحمة، ملاك صلاح الجماعة الإسلاميَّة قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، والتَّواصي بالرَّحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضًا كناية عن اتِّصافهم بالمرحمة، لأنَّ من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها)[٢].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

أما السُّنَّة فقد استفاضت نصوصها الداعية إلى الرَّحْمَة، الحاثَّة عليها، المرغِّبة فيها إمَّا نصًّا أو مفهومًا، كيف لا وصاحبها صلى الله عليه وسلم هو نبي الرَّحْمَة كما وصف نفسه فقال: ((أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرَّحْمَة))[٣].

- فعن النُّعمان بن بشير رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول الله صلى الله

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (١٧/٢).

(٢) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (٣٦١/٣٠).

(٣) رواه مسلم (٢٣٥٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

عليه وسلم: ((ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادِّهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضوًا، تداعى له سائر جسده بالسَّهر والحمَّى))[١].

يقول النووي معلقًا على هذا الحديث: (هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثِّهم على التراحم، والملاطفة، والتعاضد، في غير إثم ولا مكروه)[٢].

وقال ابن أبي جمرة: (الذي يظهر أنَّ التَّراحم، والتوادد، والتعاطف، وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف، فأما التَّراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان، لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة، كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا، كما يعطف الثوب عليه ليقويه)[٣] اهـ ملخصًا.

- وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبِّلون الصِّبيان فما نقبِّلهم، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرَّحْمَة؟))[٤].

قال ابن بطال: (رحمة الولد الصغير، ومعانقته، وتقبيله، والرفق به، من الأعمال التي يرضاها الله ويجازي عليها، ألا ترى قوله عليه السلام للأقرع بن حابس حين ذكر عند النَّبي صلى الله عليه وسلم أن له عشرة من الولد ما قبل منهم أحدًا: ((من لا يرحم لا يرحم))؟[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) ((شرح النووي على مسلم)) (١٣٩/١٦).

(٣) ((فتح الباري)) لابن حجر (٤٣٩/١٠).

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٥) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السَّماء))(١).

قال شمس الدين السفيري: (فندب صلى الله عليه وسلم إلى الرَّحْمَة، والعطف على جميع الخلق من جميع الحيوانات، على اختلاف أنواعها في غير حديث، وأشرفها الآدمي، وإذا كان كافرًا، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذَّليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك، فأقرب النَّاس من رحمة الله أرحمهم بخلقه، فمن كثرت منه الشفقة على خلقه، والرَّحْمَة على عباده، رحمه الله برحمته، وأدخله دار كرامته، ووقاه عذاب قبره، وهول موقفه، وأظله بظله إذ كل ذلك من رحمته)(٢).

- وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا تنزع الرَّحْمَة إلَّا من شقيٍّ))(٣).

قال ابن العربي: (حقيقة الرَّحْمَة إرادة المنفعة، وإذا ذهبت إرادتها من قلب شقي بإرادة المكروه لغيره، ذهب عنه الإيمان والإسلام)(٤).

---

(١) رواه بألفاظ متقاربة: أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/١٦٠) (٦٤٩٤). قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقي في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، وحسنه ابن حجر في ((الامتاع)) (١/٦٢)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٥٢٢).

(٢) ((شرح صحيح البخاري)) لشمس الدين السفيري (٢/٥٠-٥١).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، وأحمد (٢/٣٠١) (٧٩٨٨). وحسنه الترمذي، وصححه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٦/١١٧)، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٤٦٧).

(٤) ((فيض القدير شرح الجامع الصغير)) (٦/٥٤٧).

ويقول المناوي: (لأنَّ الرَّحْمَة في الخلق رقة القلب، ورقته علامة الإيمان، ومن لا رأفة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا رحمة عنده شقي)(١).

- وعن جرير بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يرحم الله من لا يرحم النَّاس))(٢).

يقول السعدي: (رحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النِّعم واندفاع النقم، من رحمة الله.

فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله. والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم)(٣).

أما من كان بعيدًا عن الإحسان بالخلق، ظلومًا غشومًا، شقيًّا، فهذا لا ينبغي له أن يطمع في رحمة الله وهو متلبس بظلم عباده.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قبَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التَّميمي جالسًا، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمَّ قال: من لا يَرحم لا يُرحم))(٤).

---

(١) ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) (٢/٩٦٢).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٦).

(٣) ((بهجة قلوب الأبرار)) (ص ٢٦٩).

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٧) ومسلم (٢٣١٨).

قال ابن بطال بعد أن ذكر عددًا من الأحاديث، وذكر هذا الحديث من جملتها: (في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرَّحْمَة للخلق كلهم، كافرهم، ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرَّحْمَة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان)(١).

وقد دل الواقع والمشاهدة، أنَّ من لا يرحم النَّاس ولا يعطف عليهم إذا صادف موقفًا يحتاج فيه إلى رحمتهم، فإنهم لا يرحمونه ولا يعطفون عليه، وقد ذكر صاحب الأغاني أنَّ محمد بن عبد الملك كان يقول: الرَّحْمَة خور في الطبيعة، وضعف في المنة، ما رحمت شيئًا قط. فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول، فلما وضع في الثقل والحديد قال: ارحموني فقالوا له: وهل رحمت شيئًا قط فترحم؟ هذه شهادتك على نفسك وحكمك عليها(٢).

واستفاضت الأحاديث الدالة على الرَّحْمَة بمفهومها وهي لا تكاد تحصى؛ وذلك لأنَّه ما من معاملة من المعاملات، أو رابطة من الروابط الاجتماعية أو الإنسانية، إلا وأساسها وقوام أمرها الرَّحْمَة.

فمن علاقة الإنسان بنفسه التي بين جنبيه، وعلاقته بذويه وأهله، إلى علاقته بمجتمعه المحيط به، إلى معاملته لجميع خلق الله من إنسان أو حيوان، كل ذلك مبني على هذا الخلق الرفيع، والسَّجيَّة العظيمة.

فوائد الرَّحْمَة:

للتحلي بخلق الرَّحْمَة فوائد عظيمة وثمار جليلة، فما أن يتحلى المؤمن بهذه

---

(١) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٢١٩).
(٢) ((الأغاني)) لأبي الفرج الأصفهاني (٢٣/٥٧).

الحلية، ويتجمَّل بهذه السَّجيَّة حتى تظهر آثارها وتؤتي أكلها.. ليس عليه فقط، بل عليه وعلى من حوله، وسنعرض لبعض هذه الآثار والفوائد إجمالًا، فمن ذلك:

١- أنَّها سبب للتعرض لرحمة الله، فأهلها مخصوصون برحمته جزاء لرحمتهم بخلقه.

٢- محبة الله للعبد، ومن ثم محبة النَّاس له.

٣- ومن أعظم فوائدها، أنَّ المتحلي بها يتحلى بخلق تحلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- أنها ركيزة عظيمة، ينبني عليها مجتمع مسلم متماسك يحس بعضه ببعض، ويعطف بعضه على بعض، ويرحم بعضه بعضًا.

٥- أنها تشعر المرء بصدق انتمائه للمجتمع المسلم، فمن لا يرحم لا يستحق أن يكون فردًا في المجتمع أو جزءًا منه؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا))[1].

---

(١) رواه بألفاظ متقاربة أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠)، وأحمد (٢/٢٠٧) (٦٩٣٧) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال الترمذي والنووي في ((الترخيص بالقيام)) (٥٧): حسن صحيح، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/١٤٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤٣)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٧٨٨).
ورواه البزار (٧/١٥٧) (٢٧١٨)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/٣٦٥) (١٣٢٨)، والحاكم (١/٢١١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
حسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/٩٠)، وابن كثير في ((جامع المسانيد والسنن)) (٥٨٦٥)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٧)، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٤٤٣).

٦- أنه على قدر حظ الإنسان من الرَّحْمَة، تكون درجته عند الله تبارك وتعالى، وقد كان الأنبياء أشدَّ النَّاس رحمة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أوفرهم حظًّا منها.

٧- أنها سبب لمغفرة الله تبارك وتعالى وكريم عفوه، كما أنَّ نقيضها سبب في سخطه وعذابه.

٨- ومن أعظم فوائدها أنَّها خلق متعدٍّ إلى جميع خلق الله.

٩- أنها سبب للالتفات إلى ضعفة المجتمع؛ من الفقراء، والمساكين، والأرامل، والأيتام، والكبار، والعجزة، وغيرهم.

أقسام الرَّحْمَة:

- **أقسامها من حيث المدح والذم:**

إن خلق الرَّحْمَة منه ما هو محمود - وهو الأصل - ومنه ما هو مذموم.

أما المحمود فهو ما ذكرناه آنفًا، واستدللنا عليه من كتاب الله، وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، بما يغني عن إعادة ذكره هاهنا.

وأما المذموم: فهو ما حصل بسببه تعطيل لشرع الله، أو تهاون في تطبيق حدوده وأوامره، كمن يشفق على من ارتكب جرمًا يستحق به حدًّا، فيحاول إقالته والعفو عنه، ويحسب أنَّ ذلك من رحمة الخلق وهو ليس من الرَّحْمَة في شيء، بل الرَّحْمَة هي إقامة الحد على المذنب، والرَّأفة هي زجره عن غيِّه وردُّه عن بغيه بتطبيق حكم الله فيه، قال ابن تيمية: ((إنَّ العقوبات الشَّرعيَّة كلَّها أدوية نافعة، يصلح اللَّه بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم، الدَّاخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]

فمن ترك هذه الرَّحمة النَّافعة لرأفة يجدها بالمريض، فهو الَّذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلَّا الخير إذ هو في ذلك جاهل أحمق)[١].

- لذا نهى الله تعالى المؤمنين عن أن تأخذهم رأفة أو رحمة في تطبيق حدود الله وإقامة شرعه فقال: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

قال ابن تيمية: (إنَّ دين الله هو طاعته، وطاعة رسوله، المبني على محبَّته ومحبَّة رسوله، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما؛ فإنَّ الرَّأفة والرَّحمة يحبُّهما اللَّه ما لم تكن مضيِّعةً لدين الله)[٢].

ومن الرَّحْمَة المذمومة، ما يكون سببًا في فساد المرحوم وهلاكه، كما يفعل كثير من الآباء من ترك تربية الأبناء وتأديبهم، وعقوبتهم رحمة بهم، وعطفًا عليهم، فيتسببون في فسادهم وهلاكهم وهم لا يشعرون. قال ابن تيمية: (ما يفعله بعض النِّساء والرِّجال الجهَّال بمرضاهم، وبمن يربُّونه من أولادهم، وغلمانهم، وغيرهم، في ترك تأديبهم وعقوبتهم، على ما يأتونه من الشَّرِّ ويتركونه من الخير رأفةً بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم)[٣].

وقال ابن القيم: (إنَّ الرَّحْمَة، صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقَّت عليها، فهذه هي الرَّحْمَة الحقيقية، فأرحم النَّاس بك من شقَّ عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده:

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/٢٩١).
(٢) ((المصدر السابق)) (١٥/٢٩٠).
(٣) ((المصدر السابق)) (١٥/٢٩١).

أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنَّه يرحمه، ويرفهه، ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة الأم)[1].

- **أقسامها من حيث الغريزة والاكتساب:**

قال عبد الرحمن السعدي: (والرَّحْمَة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزيَّة، قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرَّأفة والرَّحْمَة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرَّحْمَة، جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم، فهم محمودون، مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أنَّ هذا الوصف من أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك، ويعلم أنَّ الجزاء من جنس العمل، ويعلم أنَّ الأخوَّة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخوانًا متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابر)[2].

(١) ((إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)) (٢/١٧٤).
(٢) ((بهجة قلوب الأبرار)) (٢٧٠).

صور الرَّحْمَة:

١- شفقة الإمام برعيته، وتجنب ما من شأنه أن يجلب المشقة عليهم:

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أعتم النَّبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، حتَّى ذهب عامَّة اللَّيل، وحتَّى نام أهل المسجد، ثُمَّ خرج فصلَّى، فقال: إنَّه لوقتها، لولا أن أشقَّ على أمَّتي))[١].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا صلى أحدكم للنَّاس فليخفِّف، فإنَّ في النَّاس الضَّعيف والسَّقيم وذا الحاجة))[٢].

٢- التوسط في العبادات وترك ما يشق على النفس:

عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا، وكان أحب الدِّين إليه ما داوم عليه صاحبه))[٣].

٣- البر بالوالدين.. وخفض جناح الذُّل من الرَّحْمَة لهما:

- عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: ((سألت النَّبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أحبُّ إلى اللّه عزَّ وجلَّ؟ قال: الصَّلاة على وقتها. قال: ثُمَّ أي؟ قال: برُّ الوالدين. قال: ثُمَّ أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله))[٤].

---

(١) رواه مسلم (٦٣٨).

(٢) رواه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣)، مسلم (٧٨٥).

(٤) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

- عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من اليمن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((هجرت الشِّرك ولكنَّه الجهاد. هل باليمن أبواك؟ قال: نعم. قال: أَذِنا لك؟ قال: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى أبويك فإن فعلا، وإلَّا فبرهما))[١].

٣- الوصية بالمرأة خيرًا والإحسان إليها:

قال صلى الله عليه وسلم: ((استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنَّهن عوانٍ[٢] عندكم، أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله))[٣].

٤- الشفقة على الأبناء، والعطف والحزن عليهم، إذا أصابهم مكروه:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبِّلون الصِّبيان فما نقبِّلهم، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرَّحْمَة؟))[٤].

وعن أسامة بن زيد رضي اللّه عنهما قال: أَرسلت ابنة النَّبي صلى الله عليه وسلم إليه: إنَّ ابنًا لي قبض، فأتنا. فأرسل يقرأ السَّلام ويقول: ((إنَّ للَّه ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمَّى. فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينَّها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبيُّ

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٣٠)، أحمد (٧٥/٣) (١١٧٣٩)، وابن حبان (١٦٥/٢) (٤٢٢). وصحح إسناده الحاكم، وحسن إسناده الهيثمي في ((المجمع)) (١٣٨/٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨٩٢).

(٢) أسراء، أو كالأسراء. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣١٤/٣).

(٣) رواه مسلم (١٢١٨) بلفظ مقارب، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٨)

ابن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصَّبيُّ ونفسه تتقعقع[1]، قال حسبته أنَّه قال: كأنَّها شنٌّ، ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرَّحماء))[2].

٥- الرَّحْمَة بمن هم تحت سلطانه، من العبيد، والخدم، والعمال، وغيرهم:

عن المعرور بن سويد رحمه الله تعالى قال: لقيت أبا ذرٍّ بالرَّبذة[3] وعليه حلَّة[4]، وعلى غلامه حلَّة، فسألته عن ذلك فقال: إنيِّ ساببت رجلاً فعيَّرته بأمِّه، فقال لي النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا ذر أعيَّرته بأمِّه؟ إنَّك امرؤ فيك جاهليَّة، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممَّا يأكل، وليلبسه ممَّا يلبس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم))[5].

٦- الأمر بإحسان القِتلة والذبحة:

عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه أنَّه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته))[6].

---

(١) تضطرب وتتحرك. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/٨٨).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)

(٣) الربذة: مكان معروف بين مكة والمدينة. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٢١).

(٤) الحلة ثوبان من جنس واحد. ((المصدر السابق)) (١/٨٦).

(٥) رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٦) رواه مسلم (١٩٥٥).

٧- النهي عن تعذيب الحيوان أو إخافته أو إجهاده أو إجاعته:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((دخلت امرأة النَّار في هرَّة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض))(١).

وعلى نقيض هذه الصورة، ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة أخرى، لامرأة غفر الله لها ذنبها بسبب كلب:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بينما كلب يطيف (٢) بركيَّة (٣) كاد يقتله العطش، إذْ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها (٤) فسقته، فغفر لها به))(٥).

قال السعدي معلقًا على هذين الحديثين: (ومن ذلك ما هو مشاهد مجرب، أنَّ من أحسن إلى بهائمه بالإطعام، والسقي، والملاحظة النافعة، أنَّ الله يبارك له فيها، ومن أساء إليها، عوقب في الدنيا قبل الآخرة، وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. [المائدة: ٣٢]، وذلك لما في قلب الأول من القسوة، والغلظة، والشر، وما في قلب الآخر من الرَّحْمَة والرقة والرَّأفة، إذ هو بصدد إحياء كل من له قدرة على إحيائه من النَّاس، كما أنَّ ما في قلب الأول من القسوة،

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).
(٢) يطيف: أي يدور حولها. ((شرح النووي على مسلم)) (٢٤٢/١٤).
(٣) الركية: البئر مطوية أو غير مطوية. ((فتح الباري)) لابن حجر (٥١٦/٦).
(٤) الموق بضم الميم هو الخف فارسي. ((شرح النووي على مسلم)) (٢٤٢/١٤).
(٥) رواه البخاري (٣٤٦٧).

مستعد لقتل النفوس كلها)[1].

الأسباب المعينة على التخلق بخلق الرَّحْمَة:

قال السعدي: (فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلئ قلبه من الرَّحْمَة، والحنان على الخلق. ويا حبذا هذا الخلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل، وهذه الرَّحْمَة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر، والخير، والمنافع إلى النَّاس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم)[2].

وهاك أخي الكريم بعض الأسباب المعينة على التخلق بهذا الخلق الكريم والسجيَّة العظيمة:

١- القراءة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتدبر في معالمها، والتأسِّي به في مواقف رحمته صلى الله عليه وسلم.

٢- مجالسة الرحماء ومخالطتهم، والابتعاد عن ذوي الغلظة والفظاظة، فالمرء يكتسب من جلسائه طباعهم وأخلاقهم.

٣- تربية الأبناء على هذا الخلق العظيم، ومحاولة غرسه في قلوبهم، ومتى نشأ الناشئ على الرَّحْمَة ثبتت في قلبه وأصبحت سجيَّة له بإذن الله.

٤- معرفة جزاء الرحماء وثوابهم، وأنهم هم الجديرون برحمة الله دون غيرهم، ومعرفة عقوبة الله لأصحاب القلوب القاسية؛ فإنَّ هذا مما يدفع للتخلق بصفة الرحمة، ويردع عن القسوة.

---

(١) ((بهجة قلوب الأبرار)) (١/ ١٩٠).

(٢) ((المصدر السابق)).

٥- معرفة الآثار المترتبة على التحلي بهذا الخلق، والثمار التي يجنيها الرحماء في الدنيا قبل الآخرة.

٦- الاختلاط بالضعفاء، والمساكين، وذوي الحاجة؛ فإنَّه ممَّا يرقِّق القلب، ويدعو إلى الرَّحْمَة والشفقة بهؤلاء وغيرهم.

نماذج في الرَّحْمَة:

• نماذج من رحمة النَّبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى واصفًا نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم النَّاس بالنَّاس وأرأفهم بهم؛ المؤمنين ومن لم يكن يدين بدين الإسلام أصلًا، بل إنَّ رحمته صلى الله عليه وسلم تعدت ذلك إلى الحيوان، والجماد، وسنعرض هنا بعض النماذج من رحمته صلى الله عليه وسلم:

رحمته صلى الله عليه وسلم بالكفَّار:

- (عن عائشة رضي اللّه عنها زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّها قالت للنَّبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: ((لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت. وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلَّا وأنا بقرن الثَّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك

الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا))(١).

قال ابن حجر: (في هذا الحديث بيان شفقة النَّبي صلى الله عليه وسلم على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧])(٢).

رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان:

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: ((أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من النَّاس، وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النَّبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه، فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه))(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣١).

(٢) ((فتح الباري)) (٦/٣١٦).

(٣) روى مسلم (٣٤٢) أوله، وأبو داود (٢٥٤٩) واللفظ له، وأحمد (١/٢٠٣) (١٧٤٥)، والحاكم (٢/١٠٩).

قال ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٦/١٨٦): روى مسلم بعضه، وبعضه على شرطه، وقال ابن الملقن في ((تحفة المحتاج)) (٢/٤٣٨): سنده في مسلم، ووثق رواة إسناده البوصيري =

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرةُ فجعلت تفرِش، فجاء النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: من حرَّق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنَّه لا ينبغي أن يعذِّب بالنَّار إلَّا ربُّ النَّار))[1].

رحمته صلى الله عليه وسلم بالجماد:

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: إن شئتم. فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النَّبي صلى الله عليه وسلم فضمَّه إليه[2]، تئنُّ أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها))[3].

• نماذج من رحمة الصحابة رضوان الله عليهم:

سار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهجه، واقتدوا به في التمسك بهذا الخلق الكريم، حتى صار الرجل المعروف بشدته، وصرامته، هيِّنًا ليِّنًا، رحيمًا رؤوفًا.

= في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١٠٥/٧)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٨٩/٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٤٩)، والوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٥٩) وقال: على شرط مسلم وقد أخرج بعضه.

(١) رواه أبو داود (٢٦٧٥). وصحح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٤٥٥)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٦٨٩/٨)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٦٧٥).

(٢) أي: ضمَّ جذع النخلة إليه عليه الصلاة والسلام.

(٣) رواه البخاري (٣٥٨٤).

- فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي عرف بشدَّته، وقوَّته، تغير الرَّحْمَة من طباعه، فيصبح رقيقًا يمتلأ قلبه رحمةً، ويفيض فؤاده شفقةً، ومما يدل على ذلك قوله لعبد الرحمن بن عوف حينما أتاه يكلمه في أن يلين لهم لأنَّه أخاف النَّاس حتى خاف الأبكار في خدورهن، فقال: (إني لا أجد لهم إلَّا ذلك، والله لو أنهم يعلمون ما لهم عندي، من الرَّأفة، والرَّحْمَة، والشفقة، لأخذوا ثوبي عن عاتقي)[1].

- ورآه عيينة بن حصن يومًا يقبل أحد أبنائه، وقد وضعه في حجره وهو يحنو عليه، فقال عيينة: أتُقبِّل وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أمير المؤمنين ما قبلت لي ولدًا. فقال عمر: الله، الله حتى استحلفه ثلاثًا، فقال عمر: فما أصنع إن كان الله نزع الرَّحْمَة من قلبك؟ إنَّ الله إنَّما يرحم من عباده الرُّحماء[2].

- واشتهى الحوت يومًا، فقال: لقد خطر على قلبي شهوة الطري من حيتان، فخرج يرفأ، في طلب الحوت لعمر رضي الله عنه، ورحل راحلته، فسار ليلتين مدبرًا، وليلتين مقبلًا، واشترى مكتلًا، وجاء بالحوت، ثم غسل يرفأ الدابة، فنظر إليها عمر فرأى عرقًا تحت أذنها، فقال: عذبت بهيمة من البهائم في شهوة عمر، لا والله لا يذوقه عمر، عليك بمكتلك[3].

(ومرَّ رضي الله عنه براهب فوقف ونودي بالراهب فقيل له: هذا أمير المؤمنين، فاطَّلَع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترْكِ الدنيا، فلمَّا رآه عمر بكى، فقيل له: إنَّه نصراني، فقال عمر: قد علمت ولكني رحمته، ذكرت

---

(١) ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدينوري (٤/٤٣) (١١٩٩).

(٢) ((جامع معمر بن راشد)) (١١/٢٩٩) (٢٠٥٩٠).

(٣) رواه أحمد (١/٣١٩) (٤٤٣)، وابن عساكر (٤٤/٣٠١).

قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣- ٤] رحمتُ نصبَه واجتهاده وهو في النَّار)[١].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار))[٢].

- وهذا أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه من رحمته أنه كان له جفنة [٣] من ثريد، غدوة، وجفنة عشية، للأرامل واليتامى والمساكين[٤].

- **نماذج من رحمة السلف:**

رحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

(كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى حيَّان بمصر: إنَّه بلغني أنَّ بمصر إبلًا نقالات، يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفنَّ أنَّه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل، وكتب إلى صاحب السكك أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل من هذه الرستنية، ولا ينخس [٥] بمقرعة [٦] في أسفلها حديدة)[٧].

---

(١) رواه عبد الرزاق (٣/٤٢٠) (٣٥٨٤).
(٢) رواه مسلم (٢٦٣٠).
(٣) الجفنة: القصعة ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص: ١١٨٦).
(٤) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٤/٢٩٩)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٦٢/٩٩).
(٥) نخس الدابة، غرز مؤخرها أو جنبها بعود ونحوه. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ٥٧٦).
(٦) المقرعة: خشبة تضرب بها البغال والحمير. ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/٢٦٤).
(٧) ((سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه)) لأبي محمد المصري (ص ١٤١).

- **نماذج من رحمة العلماء المتقدمين:**

رحمة ابن تيمية رحمه الله:

قال عمر بن علي البزار: (وحدَّثني من أثق به أنَّ الشيخ رضي الله عنه كان مارًّا يومًا في بعض الأزقَّة فدعا له بعض الفقراء، وعرف الشيخ حاجته، ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه، فنزع ثوبًا على جلده ودفعه إليه، وقال: بعه بما تيسر وأنفقه. واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة)[١].

- **نماذج من رحمة العلماء المعاصرين:**

رحمة الشيخ ابن باز رحمه الله:

قال محمد بن موسى الموسى: (في يوم من الأيام، طلب مني أحد السائقين لدى سماحة الشيخ أن يتصل عبر الهاتف بأهله خارج البلاد، أي: يريد الاتصال من الهاتف الذي في منزل سماحة الشيخ، فقلت له: لا بد من الاستئذان من سماحته. فأتيت إلى سماحة الشيخ وقلت له: فلان طلب مني الإذن له بالاتصال بأهله، فقال سماحته: لعلك منعته؟ فقلت: لا بد من إذن سماحتكم. فقال: اتركه يتصل، لا تمنعوهم، ارحموهم، أما لكم أولاد؟ أعوذ بالله، الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((من لا يَرحم لا يُرحم)))[٢].

قالوا عن الرَّحْمَة:

- قال السعدي عن عَلَامة وجود الرَّحْمَة في قلب العبد: (وعلامة الرَّحْمَة الموجودة في قلب العبد، أن يكون محبًّا لوصول الخير لكافة الخلق عمومًا،

(١) ((الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية)) لسراج الدين (٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وللمؤمنين خصوصًا، كارهًا حصول الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته)[١].

فمتى ما وُجِدَتْ هذه العلامة في قلب العبد، دلَّت على أنَّ قلبه عامر بالرَّحْمَة، مفعم بالرَّأفة.

- وقال مصطفى لطفي المنفلوطي: (إن الرَّحْمَة كلمة صغيرة.. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها، والشمس في حقيقتها.

لو تراحم النَّاس لما كان بينهم جائع، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، ولاطمأنت الجنوب في المضاجع، ولمحت الرَّحْمَة الشقاء من المجتمع، كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

أيُّها الإنسان ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها، ويعبث الهم بقلبها، فتؤثر الموت على الحياة.

ارحم الزوجة أم ولدك، وقعيدة بيتك، ومرآة نفسك، وخادمة فراشك؛ لأنَّها ضعيف؛ ولأنَّ الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه، ونفسه، فإنَّك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل، لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه، فتجمع عليه

(١) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ١٨٩).

بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجرًا تربح فيه، ليكون من الخاسرين.

ارحم الحيوان؛ لأنَّه يحس كما تحس، ويتألم كما تتألم، ويبكي بغير دموع ويتوجع.

ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها، ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إنَّ الله وهبها فضاء لا نهاية له، فلا تغتصبها حقها، فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها، أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها، لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء، فيخيَّل إليك أنَّها أجمل من منظر الفلك الدائر، والكوكب السيَّار.

أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[1].

الرَّحْمَة في واحة الشعر:

قال أبو القاسم ابن عساكر:

بادرْ إلى الخيرِ يا ذا اللبِّ مغتنمًا ... ولا تكنْ مِن قليلِ العرفِ محتشما
واشكرْ لمولاك ما أولاك من نعمٍ ... فالشكرُ يستوجبُ الإفضالَ والكرما
وارحمْ بقلبِك خلقَ الله وارعَهُم ... فإنَّما يرحمُ الرحمنُ مَن رَحِما[2]

وقال زين الدين العراقي:

إنْ كنتَ لا ترحمُ المسكينَ إن عَدِما ... ولا الفقيرَ إذا يشكو لك العَدما

(١) ((مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة)) (ص ٨٨).
(٢) ((بريقة محمودية)) لأبي سعيد الخادمي (٣/٤٥).

فكيف ترجو من الرحمنِ رحمتَه وإنَّما يرحمُ الرحمنُ من رَحِما[(١)]

وقال أبو الفضل ابن حجر:

إنَّ منْ يرحمُ أهلَ الأرضِ قد جاءنا يرحمه من في السَّما

فارحمِ الخلقَ جميعًا إنَّما يرحمُ الرحمنُ منَّا الرُّحما[(٢)]

وقال أبو الفتح محمد بن أحمد الكندي:

سامحْ أخاك الدَّهرَ مهما بدَتْ منه ذنوبٌ وقعُها يعظُمُ

وارحمْ لتلقَى رحمةً في غدٍ فربُّنا يرحمُ مَن يرحمُ[(٣)]

وقال ابن يعقوب:

إن كنتَ ترجو مِن الرحمنِ رحمتَه فارحمْ ضعافَ الورَى يا صاحِ محترمًا

واقصدْ بذلك وجهَ اللهِ خالقِنا سبحانَه مِن إلهٍ قد برى النَّسما

واطلبْ جزا ذاك مِن مولاك رحمتَه فإنَّما يرحمُ الرحمنُ مَن رحِما[(٤)]

وقال ابن الشوائطي:

بادرْ إلى الخيرِ يا ذا اللبِّ واللسنِ واشكرْ لربِّك ما أولى مِن المننِ

وارحمْ بقلبِك خلقَ اللهِ كلَّهم يُنلْك رحمته في الموقفِ الخشنِ[(٥)]



---

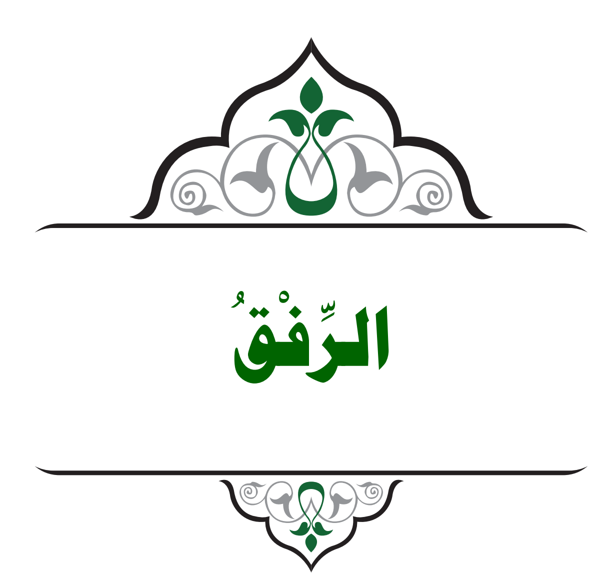
(١) ((صيد الأفكار)) لحسين بن محمد المهدي (٢/١٧١).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/١٦٩).

(٣) ((الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار)) للسيوطي (ص ٩٨).

(٤) ((الضوء اللامع)) للسخاوي (٨/١٣٧).

(٥) ((المصدر السابق)) (٥/١٧٤).



الرِّفْقُ

الرِّفق

معنى الرفق لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الرفق لغةً:**

الرِّفق ضد العنْف، وهو لين الجانب، ويقال: رَفَق بالأَمر وله وعليه يَرْفُق رِفْقًا، ومرفقًا: لان له جانبه وحسن صنيعه. ورَفُقَ يَرْفُقُ ورَفِقَ لطف ورفَقَ بالرجل وأَرْفَقه بمعنى وكذلك تَرفَّق به(١).

- **معنى الرِّفق اصطلاحًا:**

قال ابن حجر في تعريف الرِّفق: (هو لين الجانب بالقول، والفعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف)(٢).

وقال القاري: (هو المداراة مع الرفقاء، ولين الجانب، واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه، وأيسرها)(٣).

الترغيب في الرِّفق:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) ((النهاية)) لابن الأثير (٢/٢٤٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/١١٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/٣٦٢).

(٢) ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/٤٤٩).

(٣) ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/٣١٧٠).

(يقول تعالى مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم، ممتنًّا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾أي: أي شيء جعلك لهم لينًا لولا رحمة الله بك وبهم)[1].

- وقال سبحانه مخاطبًا الرسول: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] (أي: ارفق بهم وألن جانبك لهم)[2].

- وقال سبحانه: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

فقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ (أي: سهلًا لطيفًا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف[3]، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿لَّعَلَّهُ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه، فإنَّ القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه)[4].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((أن يهود أتوا النَّبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: مهلًا يا عائشة، عليك بالرِّفق وإياك والعنف والفحش. قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (١٤٨/٢).
(٢) ((معالم التنزيل)) للبغوي (٢٠٧/٦).
(٣) الصلف: مجاوزة القدر في الظرف والبراعة والادعاء فوق ذلك تكبرا. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٩٦/٩).
(٤) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (٥٠٦).

لي فيهم ولا يستجاب لهم في))[١].

- وعن جرير رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يحرم الرِّفق يحرم الخير)[٢].

(يعني أنَّ الإنسان إذا حرم الرِّفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه، وفيما يتصرف فيه مع غيره، فإنَّه يحرم الخير كله، أي: فيما تصرَّف فيه، فإذا تصرَّف الإنسان بالعنف والشدة، فإنَّه يحرم الخير فيما فعل، وهذا شيء مجرَّبٌ ومشاهد، أنَّ الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشِّدَّة؛ فإنَّه يحرم الخير ولا ينال الخير، وإذا كان يتعامل بالرِّفق والحلم والأناة وسعة الصدر؛ حصل على خيرٍ كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائمًا رفيقًا حتى ينال الخير)[٣].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به))[٤].

و(قد يظن بعض النَّاس أنَّ معنى الرِّفق أن تأتي للناس على ما يشتهون ويريدون، وليس الأمر كذلك، بل الرِّفق أن تسير بالنَّاس حسب أوامر الله ورسوله، ولكن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالنَّاس، ولا تشق عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله، فإن شققت عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله، فإنَّك تدخل في الطرف الثاني من الحديث، وهو الدعاء عليك

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٣) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/٥٩٢).

(٤) رواه مسلم (١٨٢٨).

بأن يشق الله عليك)[١].

- وعنها أيضًا رضي الله عنها عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّ الرِّفق لا يكون في شيء إلا زانه[٢]، ولا ينزع من شيء إلا شانه[٣]))[٤].

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من أعطي حظه من الرِّفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرِّفق حرم حظه من الخير))[٥]. (إذ به تنال المطالب الأخروية والدنيوية وبفوته يفوتان)[٦].

وهذه النصوص التي مرت معنا تدل (على أنَّ الرِّفق في الأمور، والرِّفق بالنَّاس، واللين، والتيسير، من جواهر عقود الأخلاق الإسلامية، وأنَّها من صفات الكمال، وأنَّ الله تعالى من صفاته أنَّه رفيق، وأنه يحب من عباده الرِّفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه، ويعدهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيءٍ آخر. ويُفهم من النصوص أنَّ العنف شَيْن خلقي، وأنَّه ظاهرة قبيحة، وأنَّ الله لا يحبه من عباده)[٧].

أقوال السلف والعلماء في الرِّفق:

- (بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: أيها

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/٦٣٤).
(٢) الزين: ضد الشين. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/١٦٢).
(٣) شانه يشينه شينا: ضد زانه، أي عابه. انظر: ((المصدر السابق)) (٣٥/٢٩٩).
(٤) رواه مسلم (٢٥٩٤).
(٥) رواه الترمذي (٢٠١٣) واللفظ له، وأحمد (٦/٤٥١) (٢٧٥٩٣)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٤٦٤). قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٠٥٥).
(٦) ((فيض القدير)) للمناوي (٦/٧٥).
(٧) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٣٣٩).

النَّاس، أيَّتها الرعية إنَّ لنا عليكم حقًّا، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير، أيَّتها الرعاة إنَّ للرعيَّة عليكم حقًّا فاعلموا أنَّه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه، ليس جهل أبغض إلى الله، ولا أغم من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنَّه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه)[١].

- و(روي أنَّ عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية: أما بعد: فإنَّ التفهم في الخبر زيادة رشد، وإنَّ الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبًا وإن العَجِل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئًا، وأن من لا ينفعه الرِّفق يضره الخرق، ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي)[٢].

- وعن عروة بن الزبير قال: (كان يقال: الرِّفق رأس الحكمة)[٣].

- وعن الشعبي قال: (غُشي على مسروق في يوم صائف، وكانت عائشة قد تبنته فسمَّى بنته عائشة، وكان لا يعصي ابنته شيئًا، قال: فنزلت إليه فقالت: يا أبتاه، أفطر واشرب، قال: ما أردت لي يا بُنية؟ قالت: الرِّفق، قال. يا بنية، إنَّما طلبت الرِّفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)، وفي رواية: (إنَّما طلبت الرِّفق لتعبي).

- وقال سفيان لأصحابه: (تدرون ما الرِّفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور في مواضعها؛ الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه)[٤].

---

(١) رواه الطبري في ((تاريخه)) (٤/٢٢٤).

(٢) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٨٦/٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٥/٢٠٩) (٢٥٣٠٨)، ووكيع في ((الزهد)) (ص ٧٧٦)، وأحمد في ((الزهد)) (ص ٤٤)، وهناد في ((الزهد)) (٦٥٣/٢).

(٤) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٨٦/٣).

- قال وهب بن منبه: (الرِّفق ثني الحلم)[١].

- وعن قيس بن أبي حازم قال كان يقال: (الرِّفق يمن، والخرق شؤم)[٢].

- وعن حبيب بن حجر القيسيِّ قال: (كان يقال: ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرِّفق)[٣].

- وقال ابن القيم: (من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله بتلك الصِّفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه)[٤].

- قال ابن حجر: (لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرِّفق، إلا عجز وانقطع فيغلب)[٥].

- وقال أبو حاتم: (الواجب على العاقل لزوم الرِّفق في الأمور كلها، وترك العجلة والخفَّة فيها، إذ الله تعالى يحب الرِّفق في الأمور كلها، ومن منع الرِّفق منع الخير ،كما أنَّ من أعطي الرِّفق أعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يحب، إلا بمقارنة الرِّفق ومفارقة العجلة)[٦].

- وقال أيضًا: (العاقل يلزم الرِّفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛ لأنَّ

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/١٨٦).
(٢) ((الزهد)) لهناد بن السري (٢/٦٥٤).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/٣٩٦).
(٤) ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص ٣٥).
(٥) ((فتح الباري)) لابن حجر (١/٩٤).
(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٥).

الزيادة على المقدار في المبتغى عيبٌ، كما أنَّ النقصان فيما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرِّفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرِّفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز ترجى السلامة، وفي ترك الرِّفق يكون الخرق، وفي لزوم الخرق تخاف الهلكة)[١].

فوائد الرِّفق[٢]:

١- طريق موصل إلى الجنة.

٢- دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٣- يثمر محبة الله ومحبة النَّاس.

٤- ينمِّي روح المحبة والتعاون بين النَّاس.

٥- دليل على صلاح العبد وحسن خلقه.

٦- بالرِّفق ينشأ المجتمع سالـمًا من الغل والعنف.

٧- عنوان سعادة العبد في الدارين.

٨- الرِّفق يزين الأشياء.

٩- الرِّفق بالحيوان في إطعامه، أو ذبحه، من مظاهر الإحسان.

١٠- الرفق دليل على فقه الرفيق وأناته وحكمته.

١١- الرِّفق ينتج منه حسن الخلق.

١٢- بالرِّفق ينال الإنسان الخير.

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٦).

(٢) ((نضرة النعيم)) (٦/٢١٦٨) بتصرف يسير.

صور الرِّفق:

١- الرِّفق بالنفس في أداء ما فرض عليه:

المسلم لا يُحَمِّل نفسه من العبادة مالا تطيقه، فالإسلام دين يسر وسهولة، فالمتبع له يوغل فيه برفق، قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الدين يسر، ولن يشادَّ[١] الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والروحة[٢]، وشيء من الدُّلْجة[٣]))[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ الحولاء بنت تُوَيْتِ بن حبيب بن أسد ابن عبد العزَّى مرت بها، وعندها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فقلت: هذه الحولاء بنت تويتٍ. وزعموا أنَّها لا تنام بالليل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تنام بالليل، خذوا من العمل ما تطيقون، فو الله لا يسأم الله حتى تسأموا[٥]))[٦].

قال ابن القيم: (نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن التشديد في الدين بالزيادة على المشروع، وأخبر صلى الله عليه وسلم أنَّ تشديد العبد، على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه إما بالقدر وإما بالشرع. فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر كفعل أهل

---

(١) المشادة في الشيء: التشدد فيه والمغالبة. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٨/٢٤٢).

(٢) الغدوة: البكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/١١٦).

الروحة: الوقت لما بين زوال الشمس إلى الليل. انظر: ((فتح الباري)) لابن الحجر (١/١٢٦).

(٣) الدُّلْجة: سير السحر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/٢٧٢).

(٤) رواه البخاري (٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).

(٥) سئم الشيء وسئم منه سآمة: مل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٢٨٠).

(٦) رواه مسلم (٧٨٥).

الوسواس. فإنهم شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد عليهم القدر، حتى استحكم ذلك، وصار صفة لازمة لهم)[١].

٢- الرِّفق مع النَّاس عامة:

ويكون بلين الجانب وعدم الغلظة والجفاء، والتعامل مع النَّاس بالسَّمَاحَة، قال صلى الله عليه وسلم: ((المؤمنون هيِّنون ليِّنون، كالجمل الأنِفِ[٢]، إن قِيد انقاد، وإذا أُنيخ على صخرة استناخ[٣]))[٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله رفيق يحب الرِّفق في الأمر كلِّه))[٥].

٣- الرِّفق بالرعية:

الراعي، سواء كان حاكمًا، أو رئيسًا، أو مسؤولًا، عليه أن يرفق برعيته، فيقضي حاجتهم، ويؤدِّي مصالحهم برفق، قال صلى الله عليه وسلم: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به))[٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ شرَّ الرِّعاء الحُطَمة[٧]))[٨].

---

(١) ((إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)) لابن القيم (١٣٢/١).

(٢) الأنف: الذليل المؤاتي. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٥/٢٣).

(٣) أنخت الجمل: أبركته. انظر: ((المصدر السابق)) (٣٦٢/٧).

(٤) رواه ابن المبارك في ((الزهد)) (١٣٠/١)،والبيهقي في ((الشعب)) (٤٤٧/١٠) (٧٧٧٧) من حديث مكحول مرسلا. ورواه القضاعي في ((مسنده)) (١١٤/١)، والبيهقي في ((الشعب)) (٤٤٨/١٠) (٧٧٧٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال البيهقي: المرسل أصح. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٦٦٩).

(٥) رواه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

(٦) رواه مسلم (١٨٢٨).

(٧) الحطمة هو الراعي الذي لا يمكن رعيته من المراتع الخصيبة ويقبضها ولا يدعها تنتشر في المرعى. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣٩/١٢).

(٨) رواه مسلم (١٨٣٠).

(وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مثلًا لكل راع عنيف، قاس شديد لا رحمة في قلبه على رعيته من النَّاس، سواء أكان ولي أسرة، أو صاحب سلطان، صغرت دائرة رعيته أو كبرت، فشرُّ الرعاة من النَّاس على النَّاس هو الحطمة، الذي لا رفق عنده، ولا رحمة في قلبه تليِّن سياسته وقيادته، فهو يقسو ويشتد على رعيته، ويوسعهم عسفًا وتحطيمًا، ويدفعهم دائمًا إلى المآزق والمحرجات، ولا يعاملهم بالرِّفق والحكمة في الإدارة والسياسة)[1].

قال ابن عثيمين: (أما ولاة الأمور فيجب عليهم الرِّفق بالرعية، والإحسان إليهم، واتباع مصالحهم، وتولية من هو أهل للولاية، ودفع الشر عنهم، وغير ذلك من مصالحهم؛ لأنَّهم مسئولون عنهم أمام الله عز وجل)[2].

٤- الرِّفق بالمدعوِّين:

الداعية عليه أن يرفق في دعوته، فيشفق على النَّاس ولا يشق عليهم، ولا ينفِّرهم من الدين بأسلوبه الغليظ والعنيف، (وأولى النَّاس بالتَّخلُّق بخلق الرِّفق الدعاة إلى الله والمعلِّمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرِّفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم النَّاس لا يُؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن بخلق الرِّفق الذي يملك القلوب بالمحبة)[3]. قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتلطَّف مع العاصي بكلام ليِّن وبرفق، ولا يعين الشيطان عليه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبًا، فلا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه، تقولوا: اللهم أخزه،

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٣٤١/٢) بتصرف يسير.

(٢) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦٢٧/٣).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٣٤٠/٢).

اللهم العنه، ولكن سلوا الله العافية، فإنا- أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم- كنَّا لا نقول في أحد شيئًا حتى نعلم علام يموت؟ فإن خُتم له بخير علمنا أن قد أصاب خيرًا، وإن خُتم بشرٍّ خفنا عليه)[1].

وانظر إلى رفق إبراهيم عليه السلام مع أبيه ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦-٤٧].

قال الشنقيطي: (بيَّن الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين أنَّ إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرِّفق واللين، وإيضاح الحق، والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ومن عذاب الله تعالى، وولاية الشيطان، خاطبه هذا الخطاب العنيف وسماه باسمه، ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له يا أبت، وأنكر عليه أنَّه راغب عن عبادة الأوثان، أي: معرض عنها لا يريدها؛ لأنَّه لا يعبد إلا الله وحده جل وعلا، وهدَّده جلَّ وعلا، وهدَّده بأنَّه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمنه، قيل: بالحجارة، وقيل: باللسان شتمًا، والأول أظهر، ثم أمره بهجره مليًّا، أي: زمانًا طويلًا، ثُمَّ بيَّن أنَّ إبراهيم قابل أيضًا جوابه العنيف بغاية الرِّفق واللين، في قوله: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ... ﴾ [مريم: ٤٧])[2].

٥- الرِّفق بالخادم والمملوك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول لله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١١٠/٩) (٨٥٧٤)، وابن المبارك في ((الزهد)) (٣١٣/١) (٨٩٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢٠٥/٤)، والبغوي في ((شرح السُّنَّة)) (١٣٧/١٣). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٢٥٠/٦): رجاله ثقات، إلا أن عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٢) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤٢٧/٣).

((للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلَّف من العمل إلا ما يطيق))[(١)].

قال الشنقيطي: (فأوجب على مالكيهم الرِّفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانوهم؛ كما هو معروف في السُّنَّة الواردة عنه صلى الله عليه وسلم مع الإيصاء عليهم في القرآن)[(٢)].

٦- الرِّفق بالحيوان:

فمن الرِّفق بالحيوان، أن تدفع عنه أنواع الأذى، كالعطش والجوع والمرض، والحمل الثقيل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

- ((بينا رجل يمشي، فاشتدَّ عليه العطش، فنزل بئرًا، فشرب منها، ثُمَّ خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر))[(٣)].

- وعن سعيد بن جبير قال: ((مرَّ ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟! لعن الله من فعل هذا، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا[(٤)]))[(٥)].

---

(١) رواه مسلم (١٦٦٢).

(٢) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/٣٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٦٣).

(٤) الغرض: هدف يرمى فيه. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/٤٥١).

(٥) رواه مسلم (١٩٥٨).

نماذج في الرِّفق:

• نماذج من رفق النَّبي صلى الله عليه وسلم:

- كان النَّبي صلى الله عليه وسلم رفيقًا هيِّنًا ليِّنًا سهلًا، في تعامله، وفي أقواله وأفعاله، وكان يحب الرِّفق، ويحث النَّاس على الرِّفق، ويرغِّبهم فيه، فعن عبادة بن شرحبيل قال: ((أصابنا عام مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطًا من حيطانها، فأخذت سنبلًا ففركته فأكلته، وجعلته في كسائي، فجاء صاحب الحائط، فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال للرجل: ما أطعمته إذ كان جائعًا، أو ساغبًا، ولا علمته إذ كان جاهلًا، فأمره النَّبي صلى الله عليه وسلم، فردَّ إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام، أو نصف وسق))[1].

- وكان صلى الله عليه وسلم رفيقًا بقومه رغم أذيتهم له، فعن عروة أنَّ عائشة رضي الله عنها زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنَّها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ ((قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالِيلَ بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٣/٢٧٣) (١٦٥٤)، وابن الأثير في ((أسد الغابة)) (٣/٤٩).

صحح إسناده الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/١٤١)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٨٧٥).

شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم علي، ثُمَّ قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين[١]؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا[٢].

- وكان صلى الله عليه وسلم رفيقًا في تعليمه للجاهل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَهْ مَهْ[٣]. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تُزْرموه[٤] دعوه، فتركوه حتى بال، ثُمَّ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه، فقال له: إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنَّما هي لذكر الله عزَّ وجلَّ والصلاة وقراءة القرآن، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه[٥]))[٦].

- وعن معاوية بن الحكم السلمي قال: ((بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاه، ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصمِّتونني لكني سكت، فلما صلَّى

(١) الأخشبان: جبلا مكة. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/٣٥٧).
(٢) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).
(٣) مه: اسم لفعل الأمر، ومعناه اكفف. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٣٠٠).
(٤) لا تزرموه: أي لا تقطعوا عليه بوله. انظر: ((المصدر السابق)) (ص ١٣٦).
(٥) الشن: الصب المتقطع. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٤٢).
(٦) رواه مسلم (٢٨٥).

رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فو الله ما كهرني[١]، ولا ضربني، ولا شتمني. قال: إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس، إنَّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن))[٢].

- كما أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يُبيِّن للناس الأمور بالرِّفق، ومن ذلك الشاب الذي طلب منه أن يأذن له بالزنى، فعن أبي أمامة قال ((إن فتى شابًّا أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادْنُه، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: أتحبُّه لأمِّك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لأخواتهم؟ قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء))[٣].

- وكان صلى الله عليه وسلم رفيقًا بنسائه، فعن أنس ((أن النَّبي صلى الله

---

(١) الكهر: الانتهار. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/١٥٤).

(٢) صحيح مسلم (٥٣٧).

(٣) رواه أحمد (٥/٢٥٦) (٢٢٢٦٥)، والبيهقي في ((الشعب)) (٧/٢٩٥).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/١٣٤): رجاله رجال الصحيح، وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١/٧١٢)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٥٠١).

عليه وسلم أتى على أزواجه، وسَوَّاق يسُوقُ بهنَّ يُقال له: أَنْجَشَة، وكان يَحْدُو للإبل ببعض الشعر حتى تسرع على حِدَائه، فقال له النبي: ويحك يا أَنْجَشَة، رُوَيدًا سَوْقَك القوارير[١]))[٢].

- كما أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يرفق بأبناء المسلمين، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: اللهم ارحمهما، فإنِّي أرحمهما))[٣].

• نماذج من رفق الصحابة رضي الله عنهم:

رفق عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

- عن زيد بن وهب قال: خرج عمر رضي الله عنه ويداه في أذنيه وهو يقول: يا لبيكاه يا لبيكاه، قال النَّاس: ما له؟ قال: جاءه بريد من بعض أمرائه أنَّ نهرًا حال بينهم وبين العبور ولم يجدوا سفنًا، فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلًا يعلم غور الماء. فأتي بشيخ فقال: إني أخاف البرد وذاك في البرد، فأكرهه فأدخله، فلم يلبثه البرد، فجعل ينادي: يا عمراه يا عمراه! فغرق، فكتب إليه فأقبل فمكث أيامًا معرضًا عنه، وكان إذا وجد على أحد منهم فعل به ذلك، ثم قال: ما فعل الرجل الذي قتلته؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت قتله، لم نجد شيئًا يعبر فيه، وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا وكذا، وأصبنا كذا وكذا، فقال عمر رضي الله عنه: لرجل مسلم أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء جئت به، لولا

---

(١) رويدًا أي مهلاً. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥٤/٥).

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠٠٣).

أن تكون سُنَّة لضربت عنقك، اذهب فأعط أهله ديته، واخرج فلا أراك[١].

- وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: (خرجت مع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابَّة فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي، وترك صبية صغارًا، والله ما ينضجون كراعًا[٢]، ولا لهم زرع، ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خُفاف بن إِيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النَّبي صلى الله عليه وسلم، فوقف معها عمر ولم يمض، ثُمَّ قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير[٣] كان مربوطًا في الدار، فحمل عليه غرارتين[٤] ملأهما طعامًا وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه، ثُمَّ قال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمُّك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء[٥] سهمانهما فيه)[٦].

- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذهب إلى العوالي كل يوم سبت، فإذا وجد عبدًا في عمل لا يطيقه وضع عنه[٧].

---

(١) رواه البيهقي في ((السنن الكبرى)) (٨/٥٥٩) (١٧٥٥٥).

(٢) الكراع في الغنم والبقر بمنزلة الوظيف في الفرس والبعير، وهو مستدَقُّ الساقِ. انظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/١٢٧٥).

(٣) بعير ظهير أي قوي. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٥٢).

(٤) مثنى غرارة وهي ما يوضع فيها الشيء من التبن وغيره. انظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٨/١٤٧).

(٥) نستفيء من استفأت هذا المال أي أخذته فيئا، أي نطلب الفيء من سهمانهما. انظر: ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (١٧/٢١٩).

(٦) رواه البخاري (٤١٦٠).

(٧) رواه مالك (٢/٩٨٠) (٤١).

الرِّفق في واحة الشعر:

قال الشاعر:

الرِّفقُ ممن سيلقَى اليمنَ صاحبُه والخُرقُ منه يكونُ العنفُ والزللُ
والحزمُ أن يتأنى المرءُ فرصتَه والكفُّ عنها إذا ما أمكنتْ فشلُ
والبرُّ للهِ خيرُ الأمرِ عاقبةً واللهُ للبرِّ عونٌ ماله مثلُ
خيرُ البريَّةِ قولًا خيرُهم عملًا لا يصلحُ القولُ حتى يصلحَ العملُ[(١)]

وقال القاضي التنوخي:

القَ العدوَّ بوجهٍ لا قطوبَ به يكادُ يقطرُ مِن ماءِ البشاشاتِ
فأحزمُ النَّاسِ مَن يلقَى أعاديَه في جسمِ حقدٍ وثوبٍ مِن موداتِ
الرِّفقُ يمنٌ وخيرُ القولِ أصدقُه وكثرةُ المزحِ مفتاحُ العداواتِ[(٢)]

وقال منصور بن محمد الكريزي:

الرفقُ أيمنُ شيءٍ أنت تتبعُه والخرقُ أشأمُ شيءٍ يقدُمُ الرِّجالا
وذو التثبتِ مِن حمدٍ إلى ظفرٍ مَن يركبِ الرِّفقَ لا يستحقبِ[(٣)] الزَّللا[(٤)]

وقال النابغة:

الرِّفقُ يمنٌ والأناةُ سلامةٌ فاستأنِ في رفقٍ تلاقِ نجاحًا[(٥)]

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٥).
(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٨٢).
(٣) استحقبه: ادخره. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٣٢٥).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٦).
(٥) ((ديوان النابغة الذبياني)) (ص: ٧٧).

وقال أحمد بن موسى الأزرق:

وزِنِ الكلامَ إذا نطقتَ، فإنَّما يُبدي العقولَ أو العيوبَ المنطقُ

لا ألُفينَّك ثاويًا في غربةٍ إنَّ الغريبَ بكلِّ سهمٍ يُرشقُ

لو سار ألفُ مدجَّجٍ في حاجةٍ لم يقضِها إلا الذي يترفَّقُ[1]

وقال مسلم بن الوليد:

ينالُ بالرِّفق ما يعيا الرجالُ به كالموتِ مستعجلًا يأتي على مهلِ[2]

وقال محمد بن حبيب الواسطي:

بنيَّ إذا ما ساقك الضرُّ فاتئدْ فللرِّفقُ أولى بالأريبِ وأحرزُ

فلا تَحْمَينْ عند الأمورِ تعزُّزًا فقد يورثُ الذُّلَ الطويلَ التعززُ[3]

وقال آخر:

خذِ الأمورَ برفقٍ واتئدْ أبدًا إياك مِن عجلٍ يدعو إلى وصبِ

الرفقُ أحسنُ ما تُؤتَى الأمورُ به يصيبُ ذو الرفقِ أو ينجو مِن العطبِ[4]

وقال المنتصر بن بلال:

وعليك في بعضِ الأمورِ صعوبةٌ والرِّفقُ للمستصعباتِ مِرانُ

وبحسنِ عقلِ المرءِ يثبتُ حالُه وعلى المغارسِ تُثمرُ العيدانُ[5]

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٦).
(٢) ((الحماسة البصرية)) لصدر الدين البصري (١/١٦٧).
(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٨).
(٤) ((نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)) للمقري التلمساني (٥/٥٨٢).
(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٢١٨).

وقال أبو الحسن الربعي:

الرِّفقُ ألطفُ ما اتخذتَ رفيقًا ... ويسوءُ ظنُّك أن تكونَ شفيقا

فخذِ المجازَ مِن الزمانِ وأهلِه ... ودعِ التعمقَ فيه والتحقيقا

وإذا سألتَ اللهَ صحبةَ صاحبٍ ... فاسألْه في أن يصحبَ التوفيقا

وانظرْ بعينِك حازمًا متعذرًا ... في حيثُ شئتَ وعاجزًا مرزوقا[1]



(١) ((مجمع الحكم والأمثال)) لأحمد قبش (ص ١٩٣).

فهرس الموضوعات



موسوعة الأخلاق

الجزء السادس

السَّتْرُ - السَّكِينَة - سَلَامَةُ الصَّدْر - السَّمَاحة - الشَّجَاعَة

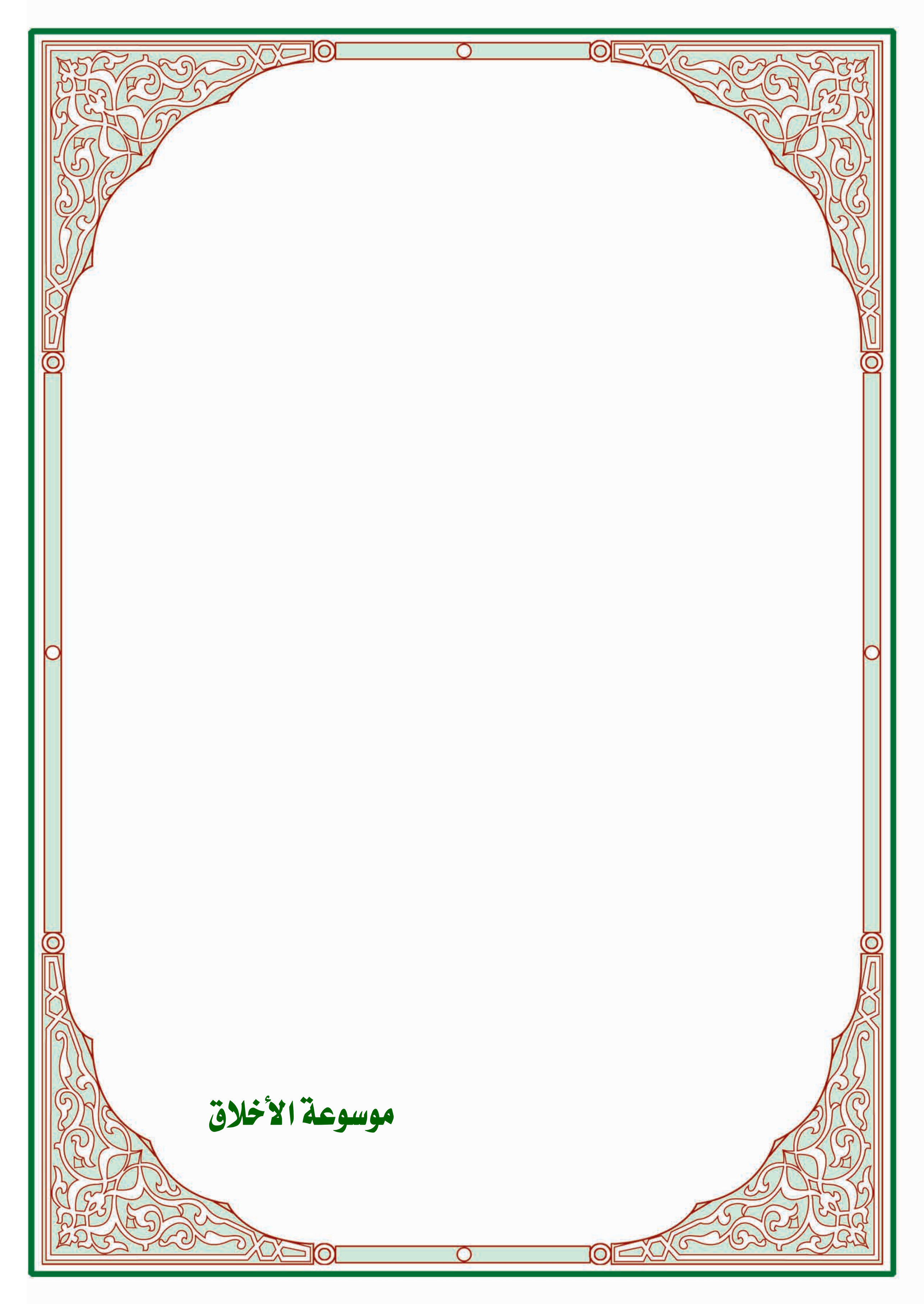
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بنِ عبدِ القادرِ السَّقَّافِ




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء السادس

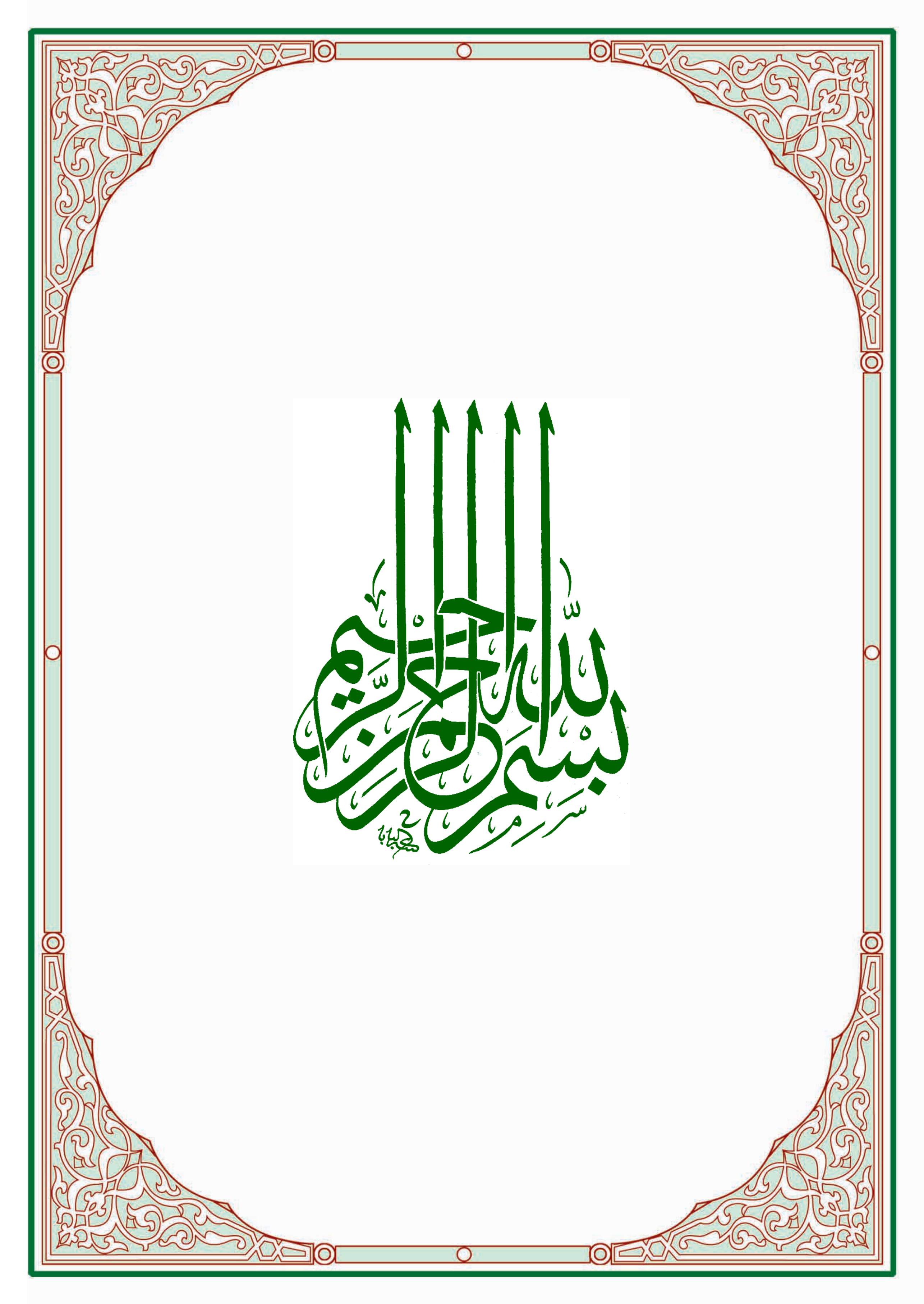
السَّتْرُ - السَّكِينَة - سَلَامَةُ الصَّدْر - السَّمَاحة - الشَّجَاعَة

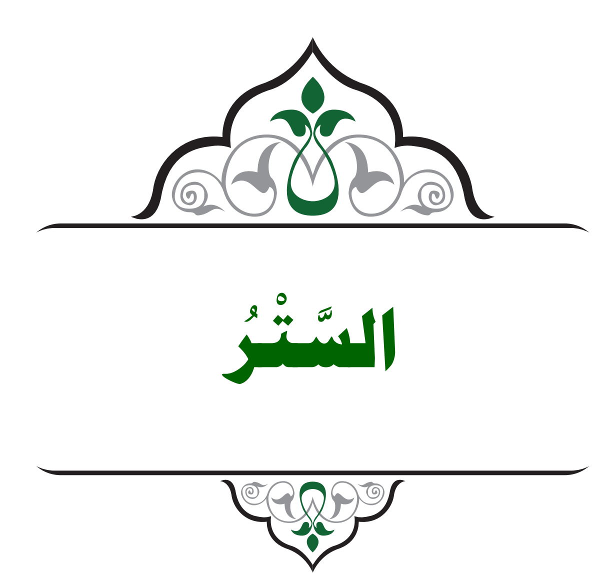
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف


بسم الله الرحمن الرحیم



السَّتْرُ

السَّتْرُ

معنى السَّتر لغةً واصطلاحًا:

• معنى السَّتر لغةً:

السَّتْرُ: تَغَطية الشَّيء، وهو مَصْدَرُ سَتَرَ الشَّيء يَسْتُرُه ويَسْتِرُه سَتْرًا وسَتَرًا، أي: غَطَّاهُ أو أخفاهُ.

وكلُّ شَيْء سَتَرْتَه فالشَّيء مَسْتُور، والذي تَسْتُرُه به سِتْرٌ له.

والسِّتْرُ والسُّتْرَةُ والمسْتَرُ والسِّتَارُ والسِّتَارَةُ: ما يُسْتَتَرُ به، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠][(١)].

• معنى السَّتر اصطلاحًا:

المراد بالسَّتْر هنا (السَّتْرُ على المسلم إن وقع في معصية، شريطة أن لا يعلنها ويجهر بها)[(٢)].

وقيل: (السَّتْرُ هو: إخفاء العيب، وعدم إظهاره، فمن كان معروفًا بالاستقامة، وحصل منه الوقوع في المعصية، نُوصِح وسُتِر عليه)[(٣)].

الفرق بين الغُفْران والسَّتر:

(أنَّ الغُفْران أخصُّ، وهو يقتضي إيجاب الثَّواب. والسَّتْر: سَتْرُك الشَّيء

---

(١) انظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب الأصفهاني (٣٩٦/١)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (٣٩٢/١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢٦٥/١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١٣٢/٣)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٤٦٥/٨، ٤٦٦)، ((مختار الصِّحاح)) للرازي (١٤٢/١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٤٣/٤، ٣٤٤)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (٤٠٤/١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٩٨/١١).

(٢) انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١٧/٥)، و((الترَّغيب والترَّهيب)) للمنذري (٢٣٧/٣).

(٣) ((فتح القوي المتين)) للشيخ عبد المحسن العباد (ص ١٢٢).

بسِتْرٍ، ثم استعمل في الإضراب عن ذِكْر الشَّيء، فيقال: سُتِر فلانٌ، إذا لم يُذْكر ما اطُّلِع عليه من عثراته. وسَتَر الله عليه، خلاف فضحه. ولا يقال لمن يُسْتر عليه في الدُّنيا إنَّه غُفِر له؛ لأنَّ الغُفْران يُنبئ عن استحقاق الثَّواب على ما ذكرنا، ويجوز أن يُستر في الدُّنيا على الكافر والفاسق)[1].

وقال أبو البقاء الكفوي: (الغُفْران: يقتضي إسقاط العقاب، ونيل الثَّواب، ولا يستحقُّه إلَّا المؤمن، ولا يُستعمل إلَّا في البارئ تعالى. والسَّتْرُ: أخص من الغُفْران إذ يجوز أن يَسْتر ولا يَغْفر)[2].

التَّرغيب في السَّتْر:

أولًا: في القرآن الكريم

لقد حثَّ الإسلام على السَّتْر، ورغَّب فيه، واتَّخذ وسائل من أجل ذلك، فشرع حدَّ القذف، حتَّى لا يُطْلِق كلُّ أحد لسانه، وكذا أمر في إثبات حدِّ الزِّنى بأربعة شهود، ونهى عن أن يتجسَّس المسلم على أخيه، كما توعَّد بالعذاب لكلِّ من يشيع الفاحشة في المؤمنين:

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النُّور: ١٩].

قال ابن كثير: (أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالحدِّ، وفي الآخرة بالعذاب)[3].

- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ

(١) ((الفروق اللغوية)) للعسكري (١/٢٣٦).

(٢) ((الكليات)) للكفوي (١/٦٦٦).

(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٦/٢٩).

وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ قال: (خذوا ما ظهر لكم، ودعوا ما سَتَرَ الله)[١].

وقال الطَّبري: (وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ يقول: ولا يتتبَّع بعضكم عَوْرة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظُّهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذمُّوا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره)[٢].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصِّلت: ٢٢].

قال القرطبي: (معنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: تستخفون، في قول أكثر العلماء، أي: ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرًا من شهادة الجوارح عليكم، ولأنَّ الإنسان لا يمكنه أن يُخفِي من نفسه عمله، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية)[٣].

وقال البيضاوي: (أي: كنتم تَسْتَتِرون عن النَّاس عند ارتكاب الفواحش، مخافة الفضيحة، وما ظننتم أنَّ أعضاءكم تشهد عليكم بها، فما اسْتَتَرْتم عنها. وفيه تنبيه على أنَّ المؤمن ينبغي أن يتحقَّق أنَّه لا يمرُّ عليه حال إلا وهو عليه رقيب. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصِّلت: ٢٢] فلذلك اجترأتم على ما فعلتم)[٤].

---

(١) ((تفسير الطَّبري)) (٢١/٣٧٥).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((تفسير القرطبي)) (١٥/٣٥٢).
(٤) ((تفسير البيضاوي)) (٥/٧٠).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

كان النَّبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرَّجل الشَّيء، لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ وهذا مشهور عنه صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة[1].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كلُّ أمَّتي معافى إلا المجَاهرين، وإنَّ من المجَاهرة: أن يعمل الرَّجل باللَّيل عملًا، ثمَّ يصبح وقد سَتَره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يَسْتُره ربُّه، ويصبح يكشف سِتْر الله عنه))[2].

قال ابن الجوزي: (المجَاهرون: الذين يجاهرون بالفواحش، ويتحدَّثون بما قد فعلوه منها سرًّا، والنَّاس في عافية من جهة الهمِّ مستورون، وهؤلاء مُفْتَضحون)[3].

قال العيني: (أنَّ ستْر الله مستلزم لستْر المؤمن على نفسه، فمن قصد إظهار المعصية والمجَاهرة، فقد أغضب الله تعالى فلم يَسْتُره، ومن قصد التَّسَتُّر بها حياءً من ربِّه ومن النَّاس، مَنَّ الله عليه بِسِتره إيَّاه)[4].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من نفَّس عن مؤمن كُرْبة من كُرَب الدُّنيا، نفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب الآخرة، ومن سَتَر على مسلم، سَتَره الله في الدُّنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه))[5].

---

(١) انظر على سبيل المثال ما رواه البخاري (٤٥٦، ٧٥٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٩) واللَّفظ له، ومسلم (٢٩٩٠).

(٣) ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/٣٩٧).

(٤) ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/١٣٨).

(٥) رواه مسلم (٢٦٩٩).

قال المباركفوري: (من سَتَر مسلمًا، أي: بَدَنه أو عيبه بعدم الغيبة له، والذَّبِّ عن معائبه، وهذا بالنِّسبة إلى من ليس معروفًا بالفساد، وإلَّا فيُستحب أن تُرْفع قصَّته إلى الوالي، فإذا [رآه] في معصية، فينكرها بحسب القدرة، وإن عَجز، يرفعها إلى الحاكم إذا لم يترتَّب عليه مفسدة)[١].

- وعن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عَورَاتهم، فإنَّه من اتَّبع عَوراتهم يتَّبع الله عَوْرته، ومن يتَّبع الله عَوْرته يفضحه في بيته))[٢].

(فاسْتُر إخوانك، فإنَّه لا طاقة لك بحرب الله، القادر على كشف عيوبك، وفضح ذنوبك، التي لا يعلمها النَّاس عنك، وألْجِم لسانك عن الخوض في الأعراض، وتتبُّع العَورات، وإفساد صِيت إخوانك، وإساءة سُمْعَتهم)[٣].

- وفي قصَّة ماعز بن مالك الأسلمي، عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترف على نفسه بالزِّنى، وسأله أن يقيم عليه الحدَّ ليطهِّره، فأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم برجمه[٤]. فإنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يسأله

(١) ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٤/٥٧٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٠)، وأحمد (٤/٤٢٠) (١٩٧٩١)، وأبو يعلى (١٣/٤١٩) (٧٤٢٣)، والبيهقي (١٠/٢٤٧) (٢١٦٩٦). وجوَّد إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٢٥٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٠): حسن صحيح.

(٣) ((هذه أخلاقنا)) لمحمود الخزندار (ص ٤٥٣).

(٤) حديث مشهور في ((صحيح البخاري)) (٧/٤٦) و((صحيح مسلم)) (٣/١٣٢٨) عن جابر ابن عبد الله، و((صحيح البخاري) (٧/٤٦) عن أبي هريرة، و((صحيح مسلم)) (٣/١٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنهم جميعًا-.

مع من زنيت، وكذلك المرأة الغامديَّة[(١)]، عندما أقرَّت على نفسها، لم يسألها النَّبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

- وفي إحدى روايات حديث ماعز، أنَّه جاء إلى أبي بكر الصِّديق، فقال له: ((إنَّ الآخر زنى -يريد نفسه- فقال له أبو بكر: هل ذكرت هذا لأحد غيري؟ فقال: لا. فقال له أبو بكر: فتُب إلى الله، واسْتَتِر بسِتر الله؛ فإنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده. فلم تُقْرِره نفسه، حتَّى أتى عمر بن الخطَّاب، فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال له عمر مثل ما قال له أبو بكر. فلم تُقْرِره نفسه حتَّى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: إنَّ الآخر زنى. فقال سعيد: فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرَّات، كلُّ ذلك يُعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتَّى إذا أكثر عليه، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال: أيشتكي، أم به جِنَّة؟ فقالوا: يا رسول الله، والله إنَّه لصحيح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبِكْر أم ثيِّب؟ فقالوا: بل ثيِّب، يا رسول الله، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرُجِم))[(٢)].

قال ابن عبد البر: (وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ السَّتْر أولى بالمسلم على نفسه -إذا وقَّع حدًّا من الحدود- من الاعتراف به عند السُّلطان، وذلك مع اعتقاد التَّوبة والنَّدم على الذَّنب، وتكون نيَّته ومعتقده ألَّا يعود، فهذا أولى به من

---

(١) صحيح مسلم (٣/١٣٢١) (١٦٩٥).

(٢) رواه مالك في ((لموطأ)) (٥/١١٩٦)، واللَّفظ له، والنَّسائي في ((السُّنن الكبرى)) (٤/٢٨١) (٧١٧٨)، والبيهقي (٨/٢٢٨) (١٧٤٥٥) من حديث سعيد بن المسيب. قال ابن حزم في ((المحلَّى)) (١١/١٤٦)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (١٢/١٢٥): مرسل. وقال ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٦/٤٧٠): رُوي متَّصلًا من وجوه.

الاعتراف، فإنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده، ويحبُّ التَّوَّابين)[١].

- وفي رواية: ((أنَّ رجلًا اسمه هَزَّال، هو الذي أشار على ماعز أن يأتي النَّبي صلى الله عليه وسلم فيخبره، فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم يا هَزَّال، لو سَتَرْته بردائك، لكان خيرًا لك))[٢].

قال أبو الوليد الباجي: (وقوله صلى الله عليه وسلم لهَزَّال ((يا هَزَّال، لو سَتَرْته بردائك، لكان خيرًا لك)). هَزَّال هذا هو: هَزَّال بن رئاب بن زيد بن كليب الأسلمي. ويريد بقوله: ((لو سَتَرْته بردائك، لكان خيرًا لك)). يريد: ممَّا أظهرته من إظهار أمره، وإخبار النَّبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر به، فكان ستْره بأن يأمره بالتَّوبة، وكتمان خطيئته، وإنَّما ذكر فيه الرِّداء على وجه المبالغة، بمعنى أنَّه لو لم تجد السَّبيل إلى سِتْره إلَّا بأن تَسْتُره بردائك ممَّن يشهد عليه، لكان أفضل ممَّا أتاه، وتسبَّب إلى إقامة الحدِّ عليه، والله أعلم وأحكم)[٣].

وقال ابن الأثير: (ومنه حديث ماعز ((ألَا سَتَرْته بثوبك يا هَزَّال)). إنما قال ذلك حبًّا لإخفاء الفضيحة، وكراهيةً لإشاعتها)[٤].

أقوال السَّلف والعلماء في الحثِّ على السَّتْر:

- قال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه: (لو أخذت سارقًا لأحببت أن

(١) ((التمهيد)) (١١٩/٢٣).

(٢) رواه مالك في ((الموطأ)) (١١٩٨/٥)، والنَّسائي في ((السُّنن الكبرى)) (٣٠٦/٤) (٧٢٧٧). من حديث سعيد بن المسيب. قال ابن حزم في ((المحلَّى)) (١٤٦/١١)، والزَّيلعي في ((نصب الرَّاية)) (٧٥/٤): مرسل. وقال ابن عبد البر في ((التمهيد)) (١٢٥/٢٣): [مرسل] وهو يستند من طرق صحاح.

(٣) ((المنتقى شرح الموطأ)) لأبي الوليد الباجي (١٣٥/٧).

(٤) ((النِّهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣٤١/٢).

يَسْتُره الله عزَّ وجلَّ، ولو أخذت شاربًا، لأحببت أن يَسْتُره الله عزَّ وجلَّ)[١].

- وعن أبي الشَّعثاء قال: (كان شُرَحْبِيل بن السِّمْط على جيشٍ، فقال لجيشه: إنَّكم نزلتم أرضًا كثيرة النِّساء والشَّراب- يعني الخمر- فمن أصاب منكم حدًّا فليأتنا، فنطهِّره، فأتاه ناس، فبلغ ذلك عمر بن الخطَّاب، فكتب إليه: أنت- لا أمَّ لك - الذي يأمر النَّاس أن يهتكوا سِتْر الله الذي سَتَرَهم به)[٢].

- وعن المعْرُور بن سُوَيْد قال: (أُتِي عمر بامرأة راعية زنت، فقال عمر: ويح المرِّيَّة، أفسدت حَسَبَها، اذهبا بالمرِّيَّة فاجلداها، ولا تخرقا عليها جلدها، إنَّما جعل الله أربعة شهداء سترًا ستركم به دون فواحشكم، ولو شاء لجعله رجلًا صادقًا أو كاذبًا، فلا يطَّلعنَّ سِتْر الله منكم أحد)[٣].

- وعن الشَّعبي: أنَّ رجلًا أتى عمر بن الخطَّاب، قال: (إنَّ ابنة لي أصابت حدًّا، فعَمَدت إلى الشَّفْرة، فذبَحَت نفسها، فأدركتُها، وقد قطعت بعض أوداجها، فداويتها فبرأت، ثم أنَّها نَسَكت، فأقبلت على القرآن، فهي تُخْطب إليَّ، فأخبر من شأنها بالذي كان، فقال له عمر: تعمد إلى سِتْر سَتَره الله فتكشفه؟ لئن بلغني أنَّك ذكرت شيئًا من أمرها، لأجعلنَّك نَكالًا لأهل الأمصار، بل أنكِحها نكاح العفيفة المسلمة)[٤].

---

(١) رواه ابن سعد في ((الطَّبقات الكبرى)) (١٣/٥)، وابن أبي شيبة في ((المصنَّف)) (٤٧٤/٥)، وصحَّح إسناده ابن حجر في ((الإصابة)) (٥٧٥/١).

(٢) ((مصنَّف عبد الرزاق الصنعاني)) (١٩٧/٥) (٩٣٧١)، و((الزهد)) لهناد بن السري (٦٤٦/٢).

(٣) ((مصنَّف عبد الرزاق الصنعاني)) (٣٧٤/٧) (١٣٥٣٠)، و((التوبيخ والتنبيه)) لأبي الشيخ الأصبهاني (٦٥/١).

(٤) رواه عبدالرزاق في ((المصنَّف)) (٢٤٦/٦)، وهناد في ((الزهد)) (١٤٠٩)، والحارث في ((بغية الباحث)) (٥٠٧) واللَّفظ له. قال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (٣٩٣/١): فيه انقطاع. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢٧٢/٤): إسناده رجاله ثقات إلا أنه منقطع، فإنَّ رواية الشَّعبي عن عمر مرسلة.

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ثلاث أحلف عليهنَّ، والرَّابعة لو حلفت لبَرَرْت: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولَّى اللهَ عبدٌ في الدُّنيا فولَّاه غيره يوم القيامة، ولا يحبُّ رجل قومًا، إلا جاء معهم يوم القيامة، والرَّابعة التي لو حلفت عليها لبَرَرْت: لا يَسْتُر الله على عبد في الدُّنيا، إلَّا سَتَر عليه في الآخرة)[1].

- وعن مريم بنت طارق: (أنَّ امرأة قالت لعائشة -رضي الله عنها-: يا أمَّ المؤمنين، إنَّ كَرِيًّا أخذ بساقي[2] وأنا مُحْرِمَة، فقالت -رضي الله عنها-: حِجْرًا حِجْرًا حِجْرًا[3]، وأعرضت بوجهها، وقالت بكفِّها، وقالت: يا نساء المؤمنين، إذا أذنبت إحداكنَّ ذنبًا، فلا تخبرنَّ به النَّاس، ولتستغفر الله تعالى، ولتتب إليه؛ فإنَّ العباد يُعَيِّرُون ولا يُغَيِّرُون، والله تعالى يُغَيِّر ولا يُعَيِّر)[4].

- وعن أبي عثمان النَّهدي، قال: (إنَّ المؤمن ليُعطى كتابه في سِتْرٍ من الله تعالى، فيقرأ سيِّئاته فيتغيَّر لونه، ثمَّ يقرأ حسناته فيرجع إليه لونه، ثمَّ ينظر، وإذا سيِّئاته قد بُدِّلت حسنات، فعند ذلك يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩])[5].

- وقال الحسن البصري: (من كان بينه وبين أخيه سِتْر فلا يكشفه)[6].

- وعن إبراهيم بن أدهم، قال: (بلغني أنَّ عمر بن عبد العزيز قال لخالد

(١) رواه عبدالرزاق في ((المصنَّف)) (١١/١٩٩)، وصحَّح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصَّحيحة)) (١٣٨٧) وقال: رجاله ثقات رجال الشيخين.
(٢) الكري: الذي يكري دابته. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٢١٩).
(٣) حجرا أي سترا وبراءة من هذا الأمر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/١٦٧).
(٤) ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (١/١٥٣) (٤٥١).
(٥) ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك (١/٤٩٧) (١٤١٥).
(٦) ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (١/١٤٩) (٤٤١).

ابن صفوان: عِظْني وأوجز. قال: فقال خالد: يا أمير المؤمنين، إنَّ أقوامًا غرَّهم سِتْر الله عزَّ وجلَّ، وفتنهم حُسْن الثَّناء، فلا يغلبنَّ جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالسِّتْر مغرورين، وبثناء النَّاس مسرورين، وعمَّا افترض الله متخلِّفين مقصرين، وإلى الأهواء مائلين. قال: فبكى، ثم قال: أعاذنا الله وإياك من اتِّباع الهوى)[1].

- وقال العلاء بن بدر: (لا يعذِّب الله عزَّ وجلَّ قومًا يسترون الذُّنوب)[2].

- وعن محمود بن آدم قال: سمعت سفيان بن عيينة، يقول: (لولا سِتْر الله عزَّ وجلَّ ما جالسَنا أحدٌ)[3].

- وعن شُبَيْل بن عوف الأَحْمَسِي، قال: (كان يقال: من سمع بفاحشة، فأفشاها، كان فيها كالذي بدأها)[4].

- وعن عبد الله بن المبارك، قال: (كان الرَّجل إذا رأى من أخيه ما يكره، أمره في سِتْر، ونهاه في سِتْر، فيُؤجر في سِتْره، ويُؤجر في نهيه، فأمَّا اليوم فإذا رأى أحدٌ من أحدٍ ما يكره، استغضب أخاه، وهتك سِتْره)[5].

- وقال الفضيل بن عياض: (المؤمن يَسْتر وينصح، والفاجر يهتِك ويُعيِّر)[6].

- وعن عبيد الله بن عبد الكريم الجِيْلِي، قال: (من رأيته يطلب العثرات على النَّاس، فاعلم أنَّه معيوب، ومن ذكر عَورات المؤمنين، فقد هتك سِتْر الله

(١) ((الزهد الكبير)) للبيهقي (١/١٨٧) (٤٤٩).
(٢) ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (١/١٥٣) (٤٥٠).
(٣) ((شعب الإيمان)) للبيهقي (٦/٢٩٠) (٤٢٠٣).
(٤) ((الزهد)) لوكيع (١/٧٦٨) (٤٥٠).
(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (١/١٩٦).
(٦) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/٢٢٥).

المرخَى على عباده)[١].

- وقال ابن رجب: (رُوي عن بعض السَّلف أنَّه قال: أدركت قومًا لم يكن لهم عيوب، فذكروا عيوب النَّاس، فذكر النَّاس عيوبهم. وأدركت أقوامًا، كانت لهم عيوب فكَفُّوا عن عيوب النَّاس فنُسيت عيوبهم)[٢].

قال ابن القيِّم: (وأمَّا اكتفاؤه في القتل بشاهدين دون الزِّنا، ففي غاية الحِكْمة والمصلحة؛ فإنَّ الشَّارع احتاط للقصاص والدِّماء، واحتاط لحدِّ الزِّنا، فلو لم يقبل في القتل إلَّا أربعة لضاعت الدِّماء، وتواثب العادون، وتجرَّءوا على القتل؛ وأمَّا الزِّنا فإنَّه بَالَغَ في سِتْره، كما قدَّر الله سِتْره، فاجتمع على ستْره شرع الله وقدره، فلم يقبل فيه إلَّا أربعة يصِفُون الفِعْل وصف مشاهدة، ينتفي معها الاحتمال؛ وكذلك في الإقرار، لم يكتف بأقلَّ من أربع مرَّات، حرصًا على سِتْر ما قدَّر الله ستْره، وكَرِه إظهاره، والتَّكلُّم به، وتوعَّد من يحبُّ إشاعته في المؤمنين بالعذاب الأليم، في الدُّنيا والآخرة)[٣].

وقال أيضًا: (للعبد سِتْرٌ بينه وبين الله، وسِتْرٌ بينه وبين النَّاس، فمن هتك السِّتْر الذي بينه وبين الله، هتك الله السِّتْر الذي بينه وبين النَّاس)[٤].

وقال أيضًا: (ومن النَّاس من طبعه طبع خنزير: يمرُّ بالطَّيِّبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عن رجيعه قَمَّه[٥]، وهكذا كثير من النَّاس، يسمع منك، ويرى من المحاسن أضعاف المساوئ، فلا يحفظها، ولا ينقلها،

(١) ((التوبيخ والتنبيه)) لأبي الشيخ الأصبهاني (١٠١/١) (٢٣٢).
(٢) ((جامع العلوم والحكم)) (٢٩١/٢).
(٣) ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (٥٠/٢).
(٤) ((الفوائد)) (٣١/١).
(٥) قم الشيء قما: كنسه، وقم الرجلُ: أكل ما على الخوان. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٩٣/١٢)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١١٥١)..

ولا تناسبه، فإذا رأى سقطة، أو كلمة عَوْراء، وجد بغيته، وما يناسبها، فجعلها فاكهته ونقله)[١].

وقال أبو البركات الغزي العامري في كلامه عن آداب العِشْرة بين المسلمين: (ومنها: الاجتهاد في سِتْر عَورَات الإخوان وقبائحهم، وإظهار مناقبهم، وكونهم يدًا واحدةً في جميع الأوقات)[٢].

فوائد السَّتْرِ:

١- نشر الحبِّ والألفة بين المؤمنين.

٢- أنه يعين العاصي على أن يتدارك نفسه، ويتوب إلى الله توبةً نصوحًا، وبالعكس فلو فُضِح وشُهِّر به، لكان في هذا إعانة للشَّيطان عليه، حيث يدفعه إلى مزيد من المعاصي والآثام.

٣- أنَّ فَضْح النَّاس -وخاصة أهل الفضل منهم إن بدت منهم زلَّة أو هفوة- قد يجرِّئ كثيرًا من عوام النَّاس على المعاصي.

٤- أنَّ نفس السَّاتر تزكو، ويرضى عنه الله، ويَسْتُره في الدُّنيا والآخرة.

متى ينبغي السَّتْر على المسلم؟

ينبغي على المسلم أن يَسْتر إخوانه المسلمين، وخاصَّةً إذا كانوا من ذوي الهيئات، وممَّن ليسوا معروفين بالأذى والفساد، أمَّا إذا كانوا معروفين بالفساد، ويجاهرون به، فلا يَسْتُر عليهم. يقول ابن تيمية: (فمن أظهر المنكر، وجب عليه الإنكار، وأن يُهْجَر ويُذَمَّ على ذلك. فهذا معنى قولهم: من ألقى جلباب

---

(١) ((مدارج السالكين)) (١/٤٠٦).

(٢) ((آداب العشرة)) لأبي البركات الغزي العامري (١/٥٣).

الحياء، فلا غيبة له. بخلاف من كان مُسْتَتِرًا بذنبه، مُسْتَخْفيًا، فإنَّ هذا يُسْتَر عليه؛ لكن يُنْصَح سِرًّا، ويَهْجُره من عرف حاله، حتَّى يتوب، ويَذْكر أمره على وجه النَّصيحة)[1].

وقال النَّووي: (وأمَّا السَّتر المندوب إليه هنا، فالمراد به: السَّتر على ذوي الهيئات ونحوهم، ممَّن ليس هو معروفًا بالأذى والفساد، فأمَّا المعروف بذلك، فيُسْتَحبُّ أن لا يُسْتَر عليه، بل تُرْفَع قضيته إلى وليِّ الأمر، إن لم يخف من ذلك مفسدة؛ لأنَّ السِّتر على هذا يُطْمِعه في الإيذاء والفساد وانتهاك الحرمات، وجسارة غيره على مثل فعله. هذا كلُّه في سِتْر معصية وقعت وانقضت، أمَّا معصية رآه عليها، وهو بعد متلبِّسٌ بها، فتجب المبادرة بإنكارها عليه، ومنعه منها على من قَدر على ذلك، ولا يحلُّ تأخيرها، فإن عجز، لزمه رفعها إلى ولي الأمر، إذا لم تترتَّب على ذلك مفسدة، وأمَّا جَرْح الرُّواة والشُّهود والأُمناء على الصَّدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم، فيجب جَرْحُهم عند الحاجة، ولا يحلُّ السِّتر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم، وليس هذا من الغيبة المحرَّمة، بل من النَّصيحة الواجبة، وهذا مُجْمَعٌ عليه، قال العلماء في القسم الأوَّل -الذي يُسْتَر فيه-: هذا السِّتر مندوب، فلو رفعه إلى السُّلطان ونحوه، لم يأثم بالإجماع، لكن هذا خلاف الأولى، وقد يكون في بعض صوره ما هو مكروه، والله أعلم)[2].

وقال ابن رجب: (واعلم أنَّ النَّاس على ضربين:

أحدهما: من كان مَسْتُورًا، لا يُعْرَف بشيء من المعاصي، فإذا وقعت منه هَفْوة، أو زلَّة، فإنَّه لا يجوز كشفها، ولا هتكها، ولا التَّحدث بها؛ لأنَّ

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/٢٢٠).

(٢) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٦/١٣٥).

ذلك غيبة محرَّمة، وهذا هو الذي وردت فيه النصوص، وفي ذلك قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النُّور: ١٩]. والمراد: إشاعة الفاحشة على المؤمن المسْتَتِر فيما وقع منه، أو اتُّهِم به وهو بريء منه، كما في قصَّة الإفك. قال بعض الوزراء الصَّالحين لبعض من يأمر بالمعروف: اجتهد أن تَسْتُر العصاة، فإنَّ ظهور معاصيهم، عيب في أهل الإسلام، وأولى الأمور ستْر العيوب، ومثل هذا لو جاء تائبًا نادمًا وأقرَّ بحدٍّ، ولم يفسِّره، لم يُسْتَفْسَر، بل يؤمر بأن يرجع ويَسْتر نفسه، كما أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم ماعزًا والغامديَّة، وكما لم يَسْتَفْسر الذي قال: أصبت حدًّا، فأقمه علي. ومثل هذا لو أُخِذ بجريمته، ولم يبلغ الإمام، فإنَّه يُشْفَع له، حتَّى لا يبلغ الإمام.

والثَّاني: من كان مُشْتَهِرًا بالمعاصي، معلنًا بها، لا يبالي بما ارتكب منها، ولا بما قيل له، فهذا هو الفاجر المعْلن، وليس له غيبة، كما نصَّ على ذلك الحسن البصري وغيره، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره؛ لتقام عليه الحدود. صرَّح بذلك بعض أصحابنا، واستدل بقول النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((واغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها))(١). ومثل هذا لا يُشْفَع له إذا أُخِذ، ولو لم يبلغ السُّلطان، بل يُتْرك حتَّى يُقَام عليه الحدُّ، لينكفَّ شرُّه، ويَرْتَدع به أمثاله. قال مالك: من لم يُعرف منه أذى للناس، وإنَّما كانت منه زلَّة، فلا بأس أن يُشْفع له، ما لم يبلغ الإمام، وأمَّا من عُرِف بشَرٍّ أو فساد، فلا أحبُّ أن يشفع له أحد، ولكن يُتْرك حتَّى يُقَام عليه الحدُّ. حكاه ابن المنذر وغيره.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٢٧، ٦٨٢٨)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني -رضي الله عنهما-.

وكره الإمام أحمد رَفْع الفُسَّاق إلى السُّلطان بكلِّ حال، وإنَّما كرهه؛ لأنَّهم غالبًا لا يقيمون الحدود على وجهها، ولهذا قال: إن عَلِمت أنَّه يقيم عليه الحدَّ فارفعه، ثمَّ ذكر أنَّهم ضربوا رجلًا، فمات، يعني: أنَّه لم يكن قَتْلُه جائزًا.

ولو تاب أحد من الضَّرب الأوَّل، كان الأفضل له أن يتوب فيما بينه وبين الله تعالى، ويَسْتُر على نفسه.

وأما الضَّرب الثَّاني، فقيل: إنَّه كذلك، وقيل: بل الأولى له أن يأتي الإمام، ويقرَّ على نفسه بما يوجب الحدَّ، حتَّى يطهِّره)[١].

السَّتْرُ لا يعني ترك إنكار المنكر:

لا يعني السَّتْر ترك الإنكار على من تَسْتُره فيما بينك وبينه، وإذا أنكرت عليه، ونصحته، فلم ينتهِ عن قبيح فعله، ثمَّ جَاهَر به جازت الشَّهاده عليه بذلك، كما ذكر ذلك العلماء، وقد فرَّق ابن حجر بين مَحَلِّ السَّتر والإنكار، قال: (والذي يظهر أنَّ السَّتر محلُّه في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حَصل التَّلبُّس بها، فيجب الإنكار عليه، وإلَّا رفعه إلى الحاكم، وليس من الغيبة المحرَّمة، بل من النَّصيحة الواجبة)[٢] [٣].

وينبغي أن تكون النَّصيحة سرًّا ولا تكون أمام الملأ.

يقول الشافعي في ذلك:

تَعَمَّدني بنصحك في انفرادي وجنِّبني النَّصيحة في الجماعهْ

فإنَّ النُّصح بين النَّاس نوع من التَّوبيخ لا أرضى استماعه

(١) ((جامع العلوم والحكم)) (٢/٢٩٢ - ٢٩٣).

(٢) ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/٩٧).

(٣) ((هذه أخلاقنا)) لمحمود الخزندار (ص ٤٥٢)، بتصرف.

وإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تُعط طاعةْ[1]

صور السَّتْرِ:

١- ستر المسلم نفسه:

(المسلم عليه أن يستر نفسه، فلا يُشْهر خطاياه أمام الخَلْق، ولا يذكر زلَّاته أمام النَّاس، ولو كانوا أصدقاءه، إلَّا على وجه السُّؤال والفتيا، دون تحديد أنَّه الفاعل، سيَّما عند من يعرفه)[2].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كلُّ أمَّتي معافى إلا المجَاهرين، وإنَّ من المجَاهرة أن يعمل الرَّجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يَسْتُره ربُّه، ويصبح يكشف سِتْر الله عنه))[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أيُّها النَّاس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئًا، فليَسْتَتر بسِتْر الله))[4].

٢- سِتْر المسلم لإخوانه المسلمين:

وكما يَسْتُر المسلم نفسه، عليه أن يَسْتُر إخوانه المسلمين، إذا رأى منهم

---

(١) ((ديوان الشافعي)) (ص ٨٥).

(٢) ((خُلُق المؤمن)) لمصطفى مراد (ص ١١٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٩) واللَّفظ له، ومسلم (٢٩٩٠).

(٤) رواه مالك في ((الموطأ)) (٥/١٢٠٥)، والبيهقي (٨/٣٢٦) (١٨٠٢٩) من حديث زيد بن أسلم رضي الله عنه. قال الشافعي في ((الأم)) (٧/٣٦٧): منقطع، ليس مما يثبت به هو نفسه حجة. وقال البيهقي في ((السُّنن الصغير)) (٣/٣٤٥): مرسل، وقد أُسند آخره عن ابن عمر مرفوعًا. وقال ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٦/٥٠٤)، وابن الملقن في ((خلاصة البدر المنير)) (٢/٣٠٣): مرسل.

عيبًا أو خطأً، قال صلى الله عليه وسلم: ((من نفَّس عن مؤمن كُرْبةً من كُرَب الدُّنيا، نفَّس الله عنه كُرْبةً من كُرَب الآخرة، ومن سَتَر على مسلم، سَتَره الله في الدُّنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه))(١).

٣- سِتْر الميِّت:

إذا غسَّل المسلم ميِّتا، فرأى فيه شيئًا معيبًا، فعليه أن يَسْتره، ويكتم أمره، قال صلى الله عليه وسلم: ((من غسَّل ميِّتًا، فكتم، غَفَر الله له أربعين مرَّةً))(٢).

الوسائل المعينة على اكتساب صفة السَّتْر:

١- أن تعلم فضل السَّتْر، وأنَّ من سَتَر أخاه المسلم، سَتَره الله في الدُّنيا والآخرة.

٢- أن تستشعر معنى أخوة الإيمان، فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾. [الحجرات: ١٠]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل المؤمنين في تَوَادِّهِم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عُضْو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى))(٣).

٣- أن تضع نفسك مكان أخيك الذي أخطأ وزلَّ، فهل تحبُّ أن تُفْضَح أم تُسْتَر؟ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني (٣١٥/١) (٩٢٩)، والبيهقي (٣٩٥/٣) (٦٩٠٠) واللَّفظ له.
قال المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٢٥٧/٤): رواته محتج بهم في الصحيح. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)): رجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في ((الفتوحات الربانية)) (١٦٣/٤): حسن غريب. وصحَّحه الألباني في ((صحيح التَّرغيب والترهيب)) (٣٤٩٢).

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظ له.

قال: ((لا يؤمن أحدكم، حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه))[1]، وعن عكرمة أنَّ ابن عبَّاس، وعمَّارًا، والزُّبير -رضي الله عنهم جميعًا- أخذوا سارقًا، فخلوا سبيله، فقلت لابن عبَّاس: (بئسما صنعتم حين خلَّيتم سبيله، قال: لا أمَّ لك، أما لو كنت أنت، لسرَّك أن يُخَلَّى سبيلك)[2].

٤- أن ينشغل العبد بإصلاح نفسه: قال الحسن البصري: (يا ابن آدم، لن تنال حقيقة الإيمان حتَّى لا تعيب النَّاس بعيب هو فيك، وتبدأ بذلك العيب من نفسك، فتصلحه، فما تصلح عيبًا إلَّا ترى عيبًا آخر، فيكون شغلك في خاصَّة نفسك). وقيل لربيع بن خُثَيْم: ما نراك تعيب أحدًا، ولا تذمُّه! فقال: ما أنا على نفسي براضٍ، فأتفرَّغ من عيبها إلى غيرها)[3].

السِّتْرُ في واحة الشِّعر:

قال ثعلب:

ثلاثُ خصالٍ للصَّديقِ جعلتُها مُضَارِعَةً للصَّومِ والصَّلواتِ

مواساتُه والصَّفحُ عن عثراتِه وتركُ ابتذالِ السِّرِّ في الخلواتِ[4]

وقيل:

إذا شئتَ أن تحيا ودينُك سالمٌ وحظُّك موفورٌ وعرضُك صَيِّنٌ

(١) رواه البخاري (١٣) واللَّفظ له، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنَّف)) (٢٨٠٨٤)، وصحح إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٢/٩٠).

(٣) ((موارد الظمآن)) لعبد العزيز السلمان (١/٣٧٧).

(٤) ((آداب العشرة)) لبدر الدين الغزي (١/٥٣).

لسانُك لا تذكرْ به عورةَ امرئٍ فعندك عَوراتٌ وللنَّاسِ ألسنُ
وعينُك إن أبدتْ إليك معايبًا لقومٍ فقلْ: يا عينُ للنَّاسِ أعينُ
وصاحبْ بمعروفٍ وجانبْ مَن اعتدَى وفارقْ ولكن بالتي هي أحسنُ[1]

وقال الشَّاعر:

إذا المرءُ لم يلبسْ ثيابًا مِن التُّقَى تقلَّبَ عريانًا وإن كان كاسيَا
وخيرُ لباسِ المرءِ طاعةُ ربِّه ولا خيرَ فيمَن كان للهِ عاصيًا[2]

وقال أحمد شوقي:

ومن لم يُقِمْ سِتْرًا على غيرِه يعِشْ مُسْتَباحَ العرضِ مُنْهَتك السِّتر[3]

وقيل:

شرُّ الورَى مَن بعيبِ النَّاسِ مُشْتَغلٌ مثلَ الذُّبابِ يراعي موضعَ العللِ[4]

وقال ابن الأعرابي:

إذا المرءُ وفى الأربعين ولم يكنْ له دونَ ما يأتي حياءٌ ولا سِتْرُ
فدعْه ولا تَنَفَسْ عليه الذي أتى ولو مد أسباب الحياة له العمر[5]

وقال الشَّاعر:

إذا أنت عِبْتَ النَّاس عابوا وأكثروا عليك وأبدوا منك ما كان يُسْتَرُ
وقد قال في بعض الأقاويل قائل له منطق فيه لسان محبر

(١) ((شذرات الذهب في أخبار من ذهب)) لابن العماد (٥/٣٢٥).
(٢) ((تفسير القرطبي)) (٧/١٨٤).
(٣) ((الأعمال الشعرية الكاملة)) لأحمد شوقي. المجلد الأول (٢/١٢٧).
(٤) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (١/٣٧٧).
(٥) ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١٠/ ٤٧).

إذا ما ذكرتَ النَّاسَ فاتركْ عيوبَهم ... فلا عيبَ إلا دون ما فيك يُذْكَرُ
فإن عِبْتَ قومًا بالذي ليس فيهم ... فذاك عندَ الله والنَّاسِ أكبرُ
وإن عِبْتَ قومًا بالذي فيك مثله ... فكيف يَعِيب العُورَ من هو أعورُ[1]



(١) ((مجمع الحكم والأمثال)) لأحمد قبش (ص ٣٧١).



السَّكِينَة

السَّكِينَة

معنى السَّكِينَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى السَّكِينَة لغةً:

أصل هذه المادة يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة.

فالسُّكُونُ ضدُّ الحركة، يقال: سَكَنَ الشَّيء يَسْكُنُ سُكونًا، إذا ذهبت حركته، وكلُّ ما هَدَأَ فقد سَكَن، كالرِّيح والحَرِّ والبرد ونحو ذلك، وسَكَنَ الرَّجل سكت.

والسكينة: الطمأنينة والاستقرار والرزانة والوقار[١].

• معنى السَّكِينَة اصطلاحًا:

قال ابن القيِّم: (هي الطُّمَأنِينة والوَقَار والسُّكون، الذي ينزِّله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدَّة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوَّة اليقين والثَّبات)[٢].

وقال الجرجاني: (السَّكِينَة: ما يجده القلب من الطُّمَأنِينة عند تنزُّل الغيب، وهي نور في القلب يَسْكُن إلى شاهده ويطمئن)[٣].

الفرق بين السَّكِينَة والوَقَار:

السَّكِينَة والوَقَار كلمتان مترادفتان، إلَّا أنَّ هناك فرقًا طفيفًا بينهما، قال أبو هلال العسكري: (إنَّ السَّكِينَة مُفَارَقة الاضطراب عند الغضب والخوف، وأكثر

---

(١) انظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/٨٨)، ((الصِّحاح)) للجوهري (١/٣٢٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢١١)، ((المعجم الوسيط)) (١/٤٤٠).

(٢) انظر: ((مدارج السالكين)) (٢/٥٠٣).

(٣) انظر: ((التعريفات)) (١/١٥٩).

ما جاء في الخوف؛ ألَا ترى قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التَّوبة: ٤٠] وقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ويُضَاف إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] فيكون هيبة وغير هيبة، والوَقَار لا يكون إلا هيبة.

المشهور في الفرق بينهما: أنَّ السَّكِينَة هيئةٌ بدنيَّةٌ تنشأ من اطمئنان الأعضاء.

والوَقَار: هيئةٌ نفسانيَّةٌ تنشأ من ثبات القلب، ذكر ذلك صاحب ((التنقيح))، ونقله صاحب ((مجمع البحرين)) عن بعض المحقِّقين.

ولا يخفى أنَّه لو عُكِس الفرق، لكان أصوب، وأحقَّ بأن تكون السَّكِينَة هيئةً نفسانيَّةً، والوَقَار: هيئةٌ بدنيَّةٌ[1].

التَّرغيب في السَّكِينَة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التَّوبة: ٢٦].

أي: أنزل عليهم ما يُسكِّنهم ويُذهب خوفهم، حتَّى اجترؤوا على قتال المشركين بعد أن ولَّوا[2].

- قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التَّوبة: ٤٠].

(١) ((الفروق اللغوية)) (١/٢٨١).

(٢) ((تفسير القرطبي)) (٨/١٠١).

قال أبو جعفر: (يقول تعالى ذكره: فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله، وقد قيل: على أبي بكر، ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾، يقول: وقوَّاه بجنود من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، وهي كلمة الشِّرك ﴿ٱلسُّفْلَىٰ ﴾، لأنَّها قُهِرت وأُذِلَّت، وأبطلها الله تعالى، ومحَق أهلها، وكلُّ مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى. ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾، يقول: ودين الله وتوحيده وقول لا إله إلَّا الله، وهي كلمته (العُليا)، على الشِّرك وأهله، الغالبة)[1].

- قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي: جعل الطُّمَأنينة. قاله ابن عبَّاس، وعنه: الرَّحمة. وقال قتادة: الوَقَار في قلوب المؤمنين. وهم الصَّحابة يوم الحُدَيبِية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلمَّا اطمأنَّت قلوبهم لذلك، واستقرَّت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم[2].

- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: من الصِّدق والوفاء، والسَّمع والطَّاعة، ﴿قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾: وهي الطُّمَأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾: وهو ما أجْرَى الله على أيديهم من الصُّلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل

(١) ((جامع البيان)) للطبري (٥/٣٢٦).

(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٧/٣٢٨).

بذلك من الخير العام المستمر المتَّصل بفتح خيبر، وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العزِّ والنَّصر والرِّفعة في الدُّنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨][1].

- قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦].

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أي الطُّمَأنينة والوَقَار.

﴿ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقيل: ثبَّتهم على الرِّضا والتَّسليم، ولم يدخل قلوبهم ما أدْخَل قلوب أولئك من الحَمِيَّة[2].

ثانيًا: في السُّنَّة النبوية

- عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إذا أُقِيمت الصَّلاة، فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السَّكِينَة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا))[3].

(فيه: النَّدب الأكيد إلى إتيان الصَّلاة بسَكِينة ووَقَار، والنَّهي عن إتيانها سعيًا، سواءً فيه صلاة الجمعة وغيرها، سواءً خاف فَوْت تكبيرة الإحرام أم لا. والمراد بقول الله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٩] الذَّهاب، يقال: سَعَيْت في كذا أو إلى كذا، إذا ذهبت إليه، وعملت فيه)[4].

---

(١) ((تفسير ابن كثير)) (٧/٣٣٦).

(٢) ((تفسير القرطبي)) (١٦/٢٨٨).

(٣) رواه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢).

(٤) ((شرح النَّووي على مسلم)) (٢/٣٧٨).

- وعن ابن عبَّاس أنَّهُ دفعَ معَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ عرَفَةَ ، فسمعَ النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ وراءَهُ زَجْرًا شديدًا، وضربًا وصوتًا للإبِلِ، فأشَارَ بسَوطِهِ إليهمْ، وقالَ: أيُّها الناسُ، عليكم بالسَّكِينَةِ)[1].

(عليْكُمْ بالسَّكِينَةِ) أي: لازموا الطُّمَأنينة والرِّفق، وعدم المزَاحمة في السَّير.

- وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ((ما رأيت أحدًا كان أشبه سَمْتًا وهديًا ودلًّا. وفي رواية: (حديثًا، وكلامًا برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه، قام إليها، فأخذ بيدها فقبَّلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها، قامت إليه، فأخذت بيده فقبَّلته، وأجلسته في مجلسها))[2].

قال القاري: (...((سمتًا)). أي: هيئة وطريقة كانت عليها من السَّكِينَة والوَقَار. قال الشَّارح: السَّمت في الأصل القَصْد، والمراد به: هيئة أهل الخير والتَّزيي بزيِّ الصَّالحين. ((وهديًا)) أي: سيرة وطريقة. يقال: فلان حَسَن الهدي، أي: حَسَن المذهب في الأمور كلِّها. ((ودلًّا)): بفتح دال وتشديد لام، فسَّره الرَّاغب بحُسْن الشَّمائل، وأصله من: دلِّ المرأة، وهو شَكْلها، وما يُسْتَحْسَن منها. والكلُّ ألفاظ متقاربة. قال التوربشتي: كأنَّها أشارت بالسَّمت

(١) رواه البخاري (١٦٧١).

(٢) رواه أبو داود (٥٢١٧)، والترِّمذي (٣٨٧٢)، والنَّسائي في ((السُّنن الكبرى)) (٥/٩٦) (٨٣٦٩)، وابن حبان (١٥/٤٠٣) (٦٩٥٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤/٢٤٢) (٤٠٨٩)، والحاكم (٣/١٦٧)، والبيهقي (٧/١٠١) (١٣٩٦٢). قال التِّرمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وصححه النَّووي في ((الترخيص بالقيام)) (٤٢)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٢١٧)، وجوَّد إسناده ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢/٩٢)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٥٩١).

إلى ما يُرَى على الإنسان من الخشوع والتَّواضع لله، وبالهدي: ما يتحلَّى به من السَّكِينَة والوَقَار، إلى ما يسلكه من المنهج المرضي)(١).

أقوال السَّلف والعلماء في السَّكِينَة:

- قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: (تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم السَّكِينَة والحلم)(٢).

- قال أبو محمَّد -في حديث علي-: إنَّ ابن عبَّاس -رحمه الله- قال: (ما رأيت رئيسًا مِحْرَبًا(٣) يُزَنُّ به(٤)، لرأيته يوم صفِّين، وعلى رأسه عمامة بيضاء، وكأنَّ عينيه سراجًا سليط(٥) وهو يحمش(٦) أصحابه إلى أن انتهى إليَّ وأنا في كثف(٧) فقال: معشر المسلمين استشعروا الخشية، وعَنُّوا الأصوات، وتَجَلْبَبوا السَّكينة، وأكْمِلُوا اللُّؤَم، وأَخِفُّوا الجُنَن، وأَقْلِقُوا السُّيوف في الغُمْد(٨) قبل السَّلَّة، والحَظُوا الشَّزْر، واطْعَنُوا الشَّزْر، أو النَّتْر، أو اليَسْر)(٩).

(١) ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/٢٩٦٩).

(٢) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/٢٨٧) (١٧٨٩)، ولفظه: (تعلَّموا العلم، وعلِّموه النَّاس، وتعلَّموا له الوَقَار والسَّكينة). قال البيهقي في ((المدخل إلى السُّنن الكبرى)) (٢/١٥٣): هذا هو الصَّحيح عن عمر من قوله، [وروي] مرفوعًا وهو ضعيف.

(٣) رجل محرب أي محارب لعدوه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٣٠٣).

(٤) زنه بالخير زنا وأزنه: ظنه به أو اتهمه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٠٠).

(٥) رجل سليط أي فصيح حديد اللسان. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/٣٢٠).

(٦) حمش الشيء: جمعه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/٢٨٨).

(٧) في كثف أي في حشد وجماعة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/٢٩٦).

(٨) حركوها في أغمادها قبل أن تحتاجوا الى سلها ليسهل عند الحاجة إليها. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٦/٣٤١).

(٩) انظر ما رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٢/٤٦٠).

- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كنَّا نتحدَّث أنَّ السَّكِينَة تنطق على لسان عمر وقلبه)[1].

- وقال ابن القيِّم: (السَّكِينَة إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح، وخشعت، واكتسبت الوَقَار، وأنطقت اللِّسان بالصَّواب والحِكْمة، وحالت بينه وبين قول الخَنَا والفحش، واللَّغو والهجر وكلِّ باطلٍ. وفي صفة رسول الله في الكتب المتقدِّمة: إنِّي باعث نبيًّا أمِّيًّا، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا متزيِّنٍ بالفحش، ولا قوَّالٍ للخَنَا. أسدِّده لكلِّ جميلٍ، وأَهَب له كلَّ خُلق كريم، ثمَّ أجعل السَّكِينَة لِبَاسه، والبرَّ شعاره، والتَّقوى ضميره، والحِكْمَة معقوله، والصِّدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خُلُقه، والعدل سيرته، والحقَّ شريعته، والهدي إمامه، والإسلام ملَّته، وأحمد اسمه)[2].

فوائد السَّكِينَة:

للتَّحلِّي بهذه الصِّفة فوائد وآثار طيِّبة، تخصُّ الفرد المتَحلِّي بها، وتعمُّ المجتمع من حوله.

قال ابن عثيمين: (السَّكِينَة هي: عدم الحركة الكثيرة، وعدم الطَّيش، بل يكون ساكنًا في قلبه، وفي جوارحه، وفي مقاله، ولا شكَّ أنَّ هذين الوصفين -الوَقَار والسَّكِينَة- من خير الخصال التي يمنُّ الله بها على العبد؛ لأنَّ ضدَّ ذلك: أن يكون الإنسان لا شخصيَّة له ولا هيبة له، وليس وقورًا ذا هيبة، بل

---

(١) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (١٠٨/٤٤)، وأحمد (١٠٦/١) (٨٣٤) ولفظه: (.. وما نبعد أنَّ السَّكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((المسند)) (١٤٧/٢).

(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٥٠٤/٢).

هو مَهِين، قد وضع نفسه ونزَّلها، وكذلك السَّكِينَة ضدُّها أن يكون الإنسان كثير الحركات، كثير التَّلفت، لا يُرَى عليه أثر سَكِينة قلبه، ولا قوله ولا فعله، فإذا مَنَّ الله على العبد بذلك، فإنَّه ينال بذلك خُلُقين كريمين)[١].

ومن فوائد السكينة ما يلي:

١- السَّكِينَة رداء ينزل فيثبِّت القلوب الطَّائرة، ويهدِّئ الانفعالات الثَّائرة.

٢- أنَّ المتَحلِّي بها يمتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ((السَّكِينَة السَّكِينَة))[٢].

٣- متى نزلت على العبد السَّكِينَة: استقام، وصَلحت أحواله، وصَلح بالُه، وإذا ترحَّلت عنه السَّكِينَة، ترحَّل عنه السُّرور والأمن والدَّعة والرَّاحة وطيب العيش، فمِنْ أعظم نعم الله على عبده: تَنَزُّل السَّكِينَة عليه، ومن أعظم أسبابها: الرِّضا عنه[٣].

٤- المتَحلِّي بالسَّكِينَة يخشع في صلاته.

٥- إنَّ من صفة النَّاسك السَّكِينَة؛ لغلبة التَّواضع وإتيان القناعة، ورفض الشَّهوات[٤].

٦- السَّكِينَة علامة من علامات رضا الله عزَّ وجلَّ.

٧- أنَّ من ثمارها محبَّة الله للعبد، ومن ثمَّ محبَّة النَّاس له.

٨- تجعل العبد قادرًا على تحمُّل المصيبة إذا نزلت.

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/٩٠).
(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٣) ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٢/٢٠٧).
(٤) ((الأمل والمأمول)) للجاحظ (١/١).

٩- تجعل العبد قادرًا على امتصاص غضبه في المواقف الصَّعبة.

وغير ذلك من الفوائد العظيمة، التي يجنيها الفرد والمجتمع المسلم من هذا الخُلِق الكريم.

أقسام السَّكِينَة:

١- عامَّة: وهى التى تخصُّ عامَّة الخَلْق، وهى التي يجدها العبد عند القيام بوظائف العبوديَّة، وهي التي تورث الخشوع والخضوع، وجمعيَّة القلب على الله، بحيث يؤدِّي عبوديَّته بقلبه وبدنه قانتًا لله عزَّ وجلَّ[١].

٢- خاصَّة: وهى التي تخصُّ أتباع الرُّسل بحسب متابعتهم، وهي سَكِينة الإيمان، وهي سَكِينةٌ تُسَكِّن القلوب عن الرَّيب والشَّك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن، أحوج ما كانوا إليها، ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الفتح: ٤] فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم، والجنود الدَّاخلة فيهم، وهي السَّكِينَة عند القلق والاضطراب[٢].

أعلى مراتبها وأخصُّ أقسامها:

أعلى مراتب السَّكِينَة وأخصُّ أقسامها هي: سَكِينة الأنبياء، وقد ذكر ذلك ابن القيِّم وأورد لها أمثلة، فقال: ومن أمثلتها:

- السَّكِينَة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد أُلْقي في المنْجَنِيق مسافرًا إلى ما أَضْرَم له أعداء الله من النَّار، فللَّه تلك السَّكِينَة التي كانت في قلبه حين ذلك السَّفر.

---

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/١٥٥).

(٢) ((المصدر السابق)).

- السَّكِينَة التي حصلت لموسى، وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم، والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟! هذا البحر أمامنا، وهذا فرعون خلفنا.

- وكذلك السَّكِينَة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداءً ونجاءً، كلامًا حقيقةً، سمعه حقيقةً بأذنه.

- وكذلك السَّكِينَة التي حصلت له، وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا.

- وكذلك السَّكِينَة التي نزلت عليه، وقد رأى حبال القوم وعِصِيَّهم كأنَّها تسعى، فأوجس في نفسه خِيفةً.

- وكذلك السَّكِينَة التي حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوُّهما، وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما.

- وكذلك السَّكِينَة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به، كيوم بدر، ويوم حُنين، ويوم الخندَّق وغيره.

فهذه السَّكِينَة أمر فوق عقول البَشَر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإنَّ الكذَّاب -ولا سيَّما على الله- أَمْلَق ما يكون، وأخوف ما يكون، وأشدُّه اضطرابًا في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرُّسل -صلوات الله وسلامه عليهم- من الآيات إلَّا هذه وحدها لكفتهم[1].

صور السَّكِينَة ودرجاتها:

قال صاحب ((المنازل)): (السَّكِينَة: اسم لثلاثة أشياء:

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيِّم (٤/٢٠١-٢٠٢).

أوَّلها: سَكِينة بني إسرائيل التي أعطوها في التَّابوت.

السَّكِينَة الثَّانية: هي التي تَنْطِق على لسان المحدَّثين، ليست هي شيئًا يُملك، إنَّما هي شيء من لطائف صنع الحقِّ، تُلقى على لسان المحدَّث الحِكْمة، كما يُلقي الملَك الوحي على قلوب الأنبياء، وتنطق بنُكَت الحقائق مع ترويح الأسرار، وكشف الشُّبه.

السَّكِينَة الثَّالثة: هي التي نزلت على قلب النَّبي، وقلوب المؤمنين، وهي شيء يجمع قوَّةً وروحًا، يَسْكن إليه الخائف، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر، ويَسْكن إليه العَصِيُّ والجريء والأَبِيُّ.

وأمَّا سَكِينة الوَقَار التي نزَّلها نعتًا لأربابها: فإنَّها ضياء.

تلك السَّكِينَة الثَّالثة التي ذكرناها، وهي على ثلاث درجات:

الدَّرجة الأولى: سكينة الخشوع عند القيام للخدمة: رعاية وتعظيمًا وحضورًا.

الدَّرجة الثَّانية: السَّكِينَة عند المعاملة بمحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق، ومراقبة الحق.

الدَّرجة الثَّالثة: السَّكِينَة التي تثبِّت الرِّضَى بالقَسْم، وتمنع من الشَّطْح الفاحش، وتوقِّف صاحبها على حدِّ الرُّتبة، والسَّكِينَة لا تَنْزل إلَّا في قلب نبيٍّ أو وليٍّ(١).

(١) ((منازل السائرين)) للهروي (١/٨٣-٨٥).

الوسائل المعينة على التَّخلُّق بخُلق السَّكِينَة:

١- الامتثال لقول الرَّسول صلى الله عليه وسلم ((عليكم بالسَّكِينَة))[(١)].

٢- مصاحبة ذوي الطَّبع الهادئ، وأصحاب السكينة فـ((المرء على دين خليله))[(٢)].

٣- القراءة في كتب السِّيرة النَّبويَّة.

٤- معرفة فوائد وآثار السَّكِينَة.

٥- التَّحلِّي بالصَّبر:

فالصَّبر من الفضائل الخُلقية، التي تُعَوِّد الإنسان السَّكِينَة والاطمئنان، وتكون بلسَمًا لجراحه، ودواءً لمرضه وبلائه، فالصَّابر يتلقَّى المكاره بالقبول، فيحبس نَفْسه عن السَّخط، فيتحلَّى بالسَّكِينَة والوَقَار[(٣)].

المواطن التي تطلب عندها السكينة:

(والمقصود أنَّ العبد محتاج إلى السَّكِينَة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان؛ ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان؛ لئلَّا تقوى وتصير هموما، وغموما، وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها، ليثبت قلبه، ويسكن جَأْشه، وعند أسباب

(١) جزء من حديث رواه البخاري (١٦٧١)، ومسلم (١٢٨٢).
(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/٣٣٤) (٨٣٩٨) واللَّفظ له، والحاكم (٤/١٨٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٥٥) (٩٤٣٦). قال التِّرمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٦/٤٧٠): حسن غريب. وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧)، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).
(٣) ((صيد الأفكار)) لحسين المهدي (٥٦٥).

الفرح؛ لئلَّا يطمح به مركبه، فيجاوز الحدَّ الذي لا يُعْبَر، فينقلب ترحًا وحزنًا، وكم ممَّن أنعم الله عليه بما يُفْرِحه، فجمح به مركب الفرح، وتجاوز الحدَّ، فانقلب ترحًا عاجلًا.

ولو أُعِين بسَكِينة تعدل فرحه، لأُرِيد به الخير، وبالله التوفيق. وعند هجوم الأسباب المؤلمة، على اختلافها: الظَّاهرة والباطنة، فما أحوجه إلى السَّكِينَة حينئذ، وما أنفعها له وأجْدَاها عليه، وأحْسَن عاقبتها.

والسَّكِينَة في هذه المواطن، علامة على الظَّفَر، وحصول المحبوب، واندِّفاع المكروه، وفقدها علامة على ضدِّ ذلك، لا يخطئ هذا ولا هذا. والله المستعان)[1].

نماذج في السَّكِينَة:

الرَّسول صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم من خُلُقِه السَّكِينَة الباعثة على الهيبة والتَّعظيم، الدَّاعية إلى التَّقديم والتَّسليم، وكان من أعظم مَهِيب في النُّفوس، حتَّى ارْتَاعت رُسُل كسرى من هيبته حين أتوه، مع ارتياضهم بصَوْلة الأكَاسِرة، ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان في نفوسهم أهيب، وفي أعينهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأهبة، ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتَّواضع موصوفًا، وبالوِطاء معروفًا[2].

نماذج من العلماء:

أحمد بن حنبل:

عن المروذي، قال: لم أرَ الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أحمد، كان

---

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيِّم (٤/٢٠٣-٢٠٤).

(٢) انظر: ((أعلام النُّبوَّة)) للماوردي، بتصرف (١/٢٥٤).

مائلًا إليهم، مُقْصرًا عن أهل الدُّنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعَجُول، وكان كثير التَّواضع، تعلوه السَّكِينَة والوَقَار، وإذا جلس في مجلسه بعد العصر للفُتيا، لا يتكلَّم حتَّى يُسْأل، وإذا خرج إلى مسجده، لم يتصدَّر[1].

آيات السَّكِينَة:

ومقتضى السَّكِينَة هدوء النَّفس وسُكُونها. وفي ذلك يقول ابن القيِّم:

(كان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إذا اشتدَّت عليه الأمور قرأ آيات السَّكِينَة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن حملها من محاربة أرواح شيطانيَّة ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوَّة، قال: فلمَّا اشتدَّ عليَّ الأمر، قلت لأقاربي ومن حولي: اقرؤوا آيات السَّكِينَة. قال: ثمَّ أقلع عنِّي ذلك الحال، وجلست وما بي قَلَبَةٌ[2].

وقال ابن القيِّم أيضًا: (قد جرَّبت -أنا أيضًا- قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرد عليه، فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته)[3].

السَّكِينَة في واحة الشِّعر:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب يرتجز برَجَز عبد الله بن رواحة، ويقول:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١١/٢١٨).

(٢) ما بي قلبة، أي علة أنقلب بها. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/٣٤٥).

(٣) انظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٢/٥٠٢).

فـأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيـنـةً عـلـيـنـا وثـبِّـت الأقــدام إن لاقـيـنـا

إنَّ الأعــداءَ قـد بـغـوا عـلـيـنـا إذا أرادوا فـتـنـةً أبـيـنـا[1]

وقال ابن المبارك في مسعر بن كدام:

من كان ملتمسًا جليسًا صالحًا فليأتِ حلقةَ مِسْعرِ بنِ كِدَامِ

فيها السَّكِينَةُ والوَقَارُ، وأهلُها أهلُ العفافِ وعِلْيَةُ الأقوامِ[2]

وقال آخر:

أهلًا بقوم صالحين ذوي تُقَى خير الرجال وزَيْن ملاءِ

يسعون في طلب الحديث بعفَّة وتوقُّر وسَكِينة وحياءِ

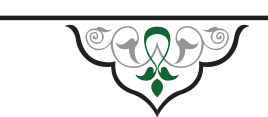
لهم المهابة والجلالة والتقى وفضائل جلَّت عن الإحصاءِ[3]

---

(١) ((صحيح البخاري)) (٤/٦٤) رقم (٣٠٣٤).
(٢) ((سير أعلام النبلاء)) (٧/١٧٠).
(٣) ((أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي)) (ص ٦٩).



سَلَامَةُ الصَّدْرِ



سلامة الصَّدر

معنى سلامة الصَّدر لغةً واصطلاحًا:

• معنى السلامة لغةً:

السلامة مصدر: سلم يسلَم بسلامة، يقال: سلم المسافر أي خلص ونجا من الآفات فهو سالم. ومعظم باب هذه المادة من الصِّحة والعافية؛ فالسلامة: أن يَسْلَم الإنسان من العاهة والأذى. قال أهل العلم: الله -جلَّ ثناؤه- هو السَّلام؛ لسلامته مما يَلْحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء، والسَّلام والسَلَامة: البرَاءة[١].

• معنى الصَّدر لغةً:

الصَّدر: أعلى مُقَدَّمِ كُلِّ شيءٍ، وكلُّ ما واجَهَكَ صَدْرٌ، وصَدْرُ القَناةِ أعلاها، وصَدْرُ الأمر أوَّلُه، كصَدْرُ النَّهارِ واللَّيْلِ، وصَدْرُ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وما أشْبَه ذلك. وصَدْرُ الإنسانِ: الجزء الممتدُّ من أسفل العنق إلى فضاء الجوف، وجمعُه: صُدورٌ، وسمِّي القلب صَدْرًا لحلوله به، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿ **قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٢٩][٢].

• معنى سلامة الصَّدر اصطلاحًا:

قال الشَّوكاني: (وأما سَلَامة الصَّدر، فالمراد به: عدم الحقد والغل والبغضاء)[٣].

---

(١) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/٩٠)، و((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٢٨٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/٢٨٦).

(٢) ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٨/٢٨٢)، ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/٩٤)، ((المعجم الوسيط)) (١/٥٠٩).

(٣) ((في السلوك الإسلامي القويم)) للشوكاني (ص ١٢١).

فسليم القلب والصَّدر هو من سَلِم وعُوفِي فؤاده من جميع أمراض القلوب وأَدْوَائها، ومن كلِّ آفة تبعده عن الله تبارك وتعالى.

الفرق بين سلامة الصَّدر والبَلَه والتَّغَفُّل:

يقول ابن القيِّم: (والفرق بين سَلَامة القلب والبَلَه والتَّغَفُّل: أنَّ سَلَامة القلب تكون من عدم إرادة الشرِّ بعد معرفته، فيَسْلَم قلبه من إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البَلَه والغَفْلة، فإنَّها جهل وقلَّة معرفة، وهذا لا يُحْمد؛ إذ هو نقص، وإنَّما يَحْمد النَّاس من هو كذلك؛ لسَلَامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشَّرِّ، سليمًا من إرادته، قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: (لست بِخَبٍّ ولا يخدعني الخِبُّ)[١]. وكان عمر أعقل من أن يُخْدع، وأورع من أن يَخْدع، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشُّعراء: ٨٨-٨٩] فهذا هو السَّليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة، من مرض الشُّبهة التي توجب اتِّباع الظَّنِّ، ومرض الشَّهوة التي توجب اتِّباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السَّليم الذي سَلِم من هذا وهذا)[٢].

التَّرغيب في سلامة الصَّدر:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) ((الروح)) لابن القيِّم (٢٤٣-٢٤٤).

(٢) ((المصدر السابق)).

قال ابن رجب: (أفضل الأعمال سَلَامة الصَّدر من أنواع الشَّحْناء كلِّها، وأفضلها السَّلَامة من شحناء أهل الأهواء والبدع، التي تقتضي الطَّعن على سلف الأمَّة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثمَّ يلي ذلك سَلَامة القلب من الشَّحْناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين عمومًا بأنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠])[١].

- وقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ففي هذه الآية الكريمة، يبيِّن الله -تبارك وتعالى- أنَّ سَلَامة الصَّدر، ونقاء القلب من أمراضه -والتي منها الغِلُّ- صفة من صفات أهل الجنَّة، وميزة من ميزاتهم، ونعيم يتنعمون به يوم القيامة. وقال -تبارك وتعالى- في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قال ابن عطية: (هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ أنَّه ينقِّي قلوب ساكني الجنَّة من الغلِّ والحقد، وذلك أنَّ صاحب الغلِّ متعذِّب به، ولا عذاب في الجنَّة)[٢].

وقال القشيري: (طهَّرنا قلوبهم من كلِّ غش، واستخلصنا أسرارهم عن كلِّ

(١) ((لطائف المعارف)) (ص ١٣٩).
(٢) ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) (٢/٤٠١).

آفة. وطهَّر قلوب العارفين من كلِّ حظٍّ وعلاقة، كما طهَّر قلوب الزَّاهدين عن كلِّ رغبة ومُنية، وطهَّر قلوب العابدين عن كلِّ تهمة وشهوة، وطهَّر قلوب المحبِّين عن محبَّة كلِّ مخلوق، وعن غلِّ الصَّدر- كلٌّ واحد على قدر رتبته)[١].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يُبَلِّغُنِي أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئًا، فإنِّي أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سَلِيم الصَّدر))[٢].

هذا الحديث يكشف عن مدى اهتمام المصطفى صلى الله عليه وسلم بسَلَامة صدره، فهو ينهى ويحذِّر من أن يُنْقَل إليه ما يُوغِر صَدْره، ويغيِّر قلبه تجاه أصحابه الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين.

قال المباركفوري شارحًا لهذا الحديث: (قوله: ((لا يبَلِّغُنِي)). أي: لا يوصلني. ((من أحد)). أي: من قبل أحد. ((شيئًا)). أي: مما أكرهه وأغضب عليه، وهو عامٌّ في الأفعال والأقوال، بأن شتم أحدًا وآذاه، قال فيه خصلة سوء. ((فإنِّي أحبُّ أن أخرج إليهم)). أي: من البيت وأُلَاقيهم. ((وأنا سليم الصَّدر)). أي: من مساويهم. قال ابن الملَك: والمعنى: أنَّه صلى الله عليه وسلم يتمنَّى أن يخرج من الدُّنيا وقلبه راض عن أصحابه، من غير سخط على أحد منهم)[٣].

---

(١) ((لطائف الإشارات)) (١/٥٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٠)، والترِّمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (١/٣٩٥) (٣٧٥٩)، والبزار (٥/٤٠٦) (٢٠٣٨)، وأبو يعلى (٩/٢٦٦، رقم ٥٣٨٨)، والبيهقي (٨/١٦٦) (١٧١١٩)، قال التِّرمذي: غريب من هذا الوجه، وقال أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/٢٨٦): إسناده حسن على الأقل. وضعَّفه الألباني في ((ضعيف سنن أبي داود)) (٤٨٦٠).

(٣) ((تحفة الأحوذي)) (١٠/٢٧٠).

- وعن محمَّد بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أوَّل من يدخل من هذا الباب، رجل من أهل الجنَّة، فدخل عبد الله بن سَلاَمٍ، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك، وقالوا: أخْبِرْنا بأوثق عملٍ في نفسك ترجو به. فقال: إنِّي لضعيف، وإنَّ أوثق ما أرجو به الله سَلَامة الصَّدر، وترك ما لا يعنيني))[1].

وهنا يذكر عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه أنَّه لم يكن له كثير عمل استحق علية شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنَّة، إلَّا أنَّ أرجى عمل وأوثقه لديه هو: أنَّه كان سليم الصَّدر مشتغل عما لا يعنيه.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خبٌّ لئيم))[2].

قال المناوي: (... ((المؤمن غِرٌّ)). أي: يغُرُّه كلُّ أحد، و يغُرُّه كلُّ شيء، ولا يعرف الشَّرَّ، وليس بذي مَكْر ولا فطنة للشَّرِّ، فهو يَنْخَدع لسَلَامة صَدْره، وحسن ظنِّه، وينخَدع لانقياده ولينه. ((كريم)). أي: شريف الأخلاق. ((والفاجر)). أي: الفاسق. ((خبٌّ لئيم)). أي: جريء، فيسعى في الأرض

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص ٩٤)، قال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/١٣٩): أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا، وفيه أبو نجيح اختلف فيه.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٠)، والترِّمذي (١٩٦٤)، وأحمد (٢/٣٩٤) (٩١٠٧)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٤١٨)، وأبو يعلى (١٠/٤٠١) (٦٠٠٧)، والحاكم (١/١٠٣)، والبيهقي (١٠/١٩٥) (٢١٣٣٠).

قال الترِّمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال البغوي في ((شرح السُّنَّة)) (٦/٤٨١): غريب. وقال المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٣/٣٤٠): رواته ثقات، سوى بشر بن رافع، وقد وُثِّق. وقال الذهبي في ((المهذب)) (٨/٤٢٠٢): فيه حجَّاج، تُكُلِّم فيه. وقال الشَّوكاني كما في ((الفتح الرباني)) (١١/٥٥٠٧): رجاله إسناده ثقات. وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٩٠).

بالفساد، فالمؤمن المحمود: من كان طبعه الغَرَارة، وقلَّة الفِطْنة للشَّرِّ، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلًا، والفاجر من عادته الخُبث والدَّهاء والتَّوغل في معرفة الشَّرِّ، وليس ذا منه عقلًا)(١).

- وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أي النَّاس أفضل؟ قال: كلُّ مَخْموم القلب، صدوق اللِّسان. قالوا: صدوق اللِّسان نعرفه، فما مَخْموم القلب؟ قال: هو النَّقيُّ التَّقيُّ، لا إثم عليه، ولا بَغْي ولا غلَّ ولا حسد))(٢).

قال علي القاري: (أي: سليم القلب، لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشُّعراء: ٨٩]، من خَمَمْت البيت، إذا كنسته، على ما في ((القاموس)) وغيره، فالمعنى: أن يكون قلبه مكنوسًا من غبار الأغيار، ومُنَظَّفًا من أخلاق الأقذار)(٣).

أقوال السَّلف والعلماء في سلامة الصَّدر:

- قال ابن العربي: (لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجبًا متكبرًا، وقد شرط النَّبي صلى الله عليه وسلم في الإيمان، أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)(٤).

---

(١) ((فيض القدير)) (٦/٢٥٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤١٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/١٨٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥/٢٦٤) (٦٦٠٤). وصحَّح إسناده المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٤/٣٣)، والبوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (٢/٣٢٥)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/١٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٤١٦).

(٣) ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (٨/٣٢٦٧- ٣٢٦٨).

(٤) ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/٤٥٩).

- وسئل ابن سيرين -رحمه الله تعالى- ما القلب السَّليم؟ فقال: النَّاصح لله في خلقه[١].

- وقيل: القلب السَّليم الذي يحبُّ للنَّاس ما يحبُّه لنفسه، قد سَلِم جميع النَّاس من غشِّه وظلمه، وأسْلَم لله بقلبه ولسانه، ولا يعدل به غيره[٢].

- وقال ابن تيمية: (فالقلب السَّليم المحمود، هو الذي يريد الخير لا الشَّر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشَّر، فأمَّا من لا يعرف الشَّر، فذاك نقص فيه لا يُمدح به)[٣].

- وقال الأكفاني وعبد الكريم: (وأصل العبادة مكابدة اللَّيل، وأقصر طرق الجنَّة سَلَامة الصَّدر)[٤].

- ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة، جمع ولده، وفيهم مَسْلمة، وكان سيِّدهم، فقال: أوصيكم بتقوى الله، فإنَّها عِصْمة باقية، وجُنَّة واقية، وهي أحصن كهف، وأزيَن حِلْية، ليعطف الكبير منكم على الصَّغير، وليعرف الصَّغير منكم حقَّ الكبير، مع سَلَامة الصَّدر، والأخذ بجميل الأمور...[٥].

- وقال سفيان بن دينار: قلت لأبي بشير -وكان من أصحاب علي-: أخبرني عن أعمال من كان قَبْلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويُؤْجَرون كثيرًا. قلت: ولم ذاك؟ قال: لسَلَامة صدورهم[٦].

---

(١) ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/٦١٢٢).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((الفتاوى الكبرى)) (٥/٢٦٤).
(٤) ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٤٩/١٢٣).
(٥) ((المصدر السابق)) (٦٣/١٧١).
(٦) ((الزهد)) لهناد بن السري (٢/٦٠٠).

- وقيل: أَنَّه لَا طَرِيق أقرب من الصِّدْق، وَلَا دَلِيل أنجح من العِلم، ولَا زَاد أبلغ من التَّقْوَى، وما رأيت أَنْفَى للوسواس من ترك الفضول، ولَا أنور للقلب من سَلَامة الصَّدر[١].

- ويقال: أخلاق الأبدال عشرة أشياء، سَلَامة الصَّدر، وسخاوة المال، وصدق اللِّسان، وتواضع النَّفس، والصَّبر في الشِّدة، والبكاء في الخُلوة، والنَّصيحة للخَلْق، والرَّحمة للمؤمنين، والتَّفكُّر في الفناء، والعبرة في الأشياء[٢].

- وقال قاسم الجوعي: أصل الدِّين الورع، وأفضل العبادة مكابدة اللَّيل، وأفضل طرق الجنَّة سَلَامة الصَّدر[٣].

- وقال بدر الدِّين الغزي: (فمن آداب العِشْرة... سَلَامة قلبه للإخوان، والنَّصحية لهم، وقبولها منهم، لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشُّعراء: ٨٩] وقال السقطي رحمه الله: (من أجلِّ أخلاق الأبرار: سَلَامة الصَّدر للإخوان، والنَّصيحة لهم)[٤].

فوائد سلامة الصَّدر:

١- من أعظم فوائد سَلَامة الصَّدر: أنَّها سبيل لدخول الجنَّة، فهي صفة من صفات أهلها، ونعت من نعوتهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشُّعراء ٨٨-٩٨].

٢- أنَّها تكسو صاحبها بحلَّة الخيريَّة، وتلبسه لباس الأفضلية، كما في

(١) ((رسالة المسترشدين)) للمحاسبي (١٦١ - ١٦٢).
(٢) ((تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين)) للسمرقندي (ص ٥٧٢).
(٣) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (٢/٣٨٩).
(٤) ((آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة)) لبدر الدِّين الغزي (ص ٢٠).

حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((خير النَّاس ذو القلب المخْمُوم واللِّسان الصَّادق، قيل: ما القلب المخْمُوم؟ قال: هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الذي لَا إثم فيه، ولَا بَغْي ولَا حسد، قيل: فمن على أَثَرِه؟ قال: الذي يَشْنَأُ الدُّنيا ويحبُّ الآخرة قيل: فمن على أَثَرِه؟ قال: مؤمن في خُلُق حسن)).

٣- أنَّها تجمع القلب على الخير والبِرِّ والطَّاعة والصَّلاح، فلا يجد القلب راحة إلا فيها، ولا تقرُّ عين المؤمن إلا بها.

٤- أنَّها تزيل العيوب، وتقطع أسباب الذُّنوب، فمن سَلِم صدره، وطَهُر قلبه عن الإرادات الفاسدة، والظُّنون السَّيئة، عفَّ لسانه وجوارحه عن كلِّ قبيح.

٥- ومن الفوائد أيضًا: أنَّ فيها اقتداء بالنَّبي صلى الله عليه وسلم وتأسِّيًا به، فهو -بأبي هو وأمي صلَّى الله عليه وسلم- أسلم النَّاس صدرًا، وأطيبهم قلبًا، وأصفاهم سريرة.

صور سلامة الصَّدر:

١- سَلَامة الصَّدر مع عامَّة النَّاس، فلا يحمل لهم في قلبه غلًّا ولا حسدًا، ولا غيرها من الأمراض والأَدْواء القلبيَّة، التي تقضي على أواصر المحبَّة، وتقطع صلات المودَّة.

٢- سَلَامة الصَّدر مع خاصَّة إخوانه ومقرَّبيه.

٣- سَلَامة الصَّدر مع وُلاة الأمر، فلا يحمل عليهم الحقد، ولا يثير عليهم العامَّة، ولا يذكر مثالبهم عند النَّاس، ويكون نصوحًا لهم، مُشْفِقًا عليهم،

غاضًّا الطرف عن أخطائهم التي يُتَجَاوز عنها، وينشر الخير عنهم، ويذكرهم بخير أعمالهم وصفاتهم.

٤- سَلَامة صدور الوُلاة للرَّعيَّة، فلا يُكثر من الشُّكوك فيهم، ولا يتربَّص بهم أو يتجسَّس عليهم، أو يؤذيهم في أموالهم أو ممتلكاتهم، ويكون مُشْفِقًا عليهم، ساعيًا وراء راحتهم.

٥- سَلَامة صدور العلماء وطلبة العلم بعضهم مع بعض، فـ(أحقُّ النَّاس -بعد العلماء- بسَلَامة الصَّدر طلَّاب العلم، فطالب العلم غدًا يقف أمام النَّاس يفتيهم ويعلِّمهم ويرشدهم، فلا بدَّ من أن يُرَبِّي نفسه على سَلَامة الصَّدر، ونقاء السَّريرة، التي هي صفة من صفات أهل الجنَّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧])[١].

موانع اكتساب سَلَامة الصَّدر:

١- نزغات الشَّيطان، ووساوسه، فالشَّيطان حريص على إيغار الصُّدور، وإفساد القلوب، لذا حذَّر الله -تبارك وتعالى- منه، وأمر عباده بانتقاء القول الحسن، قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الشَّيطان قد أَيِس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التَّحريش بينهم))[٢].

٢- إصابة القلب ببعض الأمراض الخُلُقيَّة، والتي تُفسد القلب، كالحسد

---

(١) ((معالم تربوية لطالبي أسنى الولايات الشرعية)) لمحمد المختار الشنقيطي (ص ٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٢).

والغلِّ والحقد، وإذا اشتمل القلب على هذه الأدواء لم يُعْتبر سليمًا، فهي تضادُّ سَلَامة القلب.

٣- التَّنافس على الدُّنيا فعن عمرو بن عوف رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى أَنْ تُبْسَط عليكم الدُّنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتهلككم كما أهلكتهم))[١].

٤- حبُّ الشُّهرة والرِّياسة، وهي داء عضال ومرض خطير، وشرٌّ مُستطير، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: (ما من أحدٍ أحبَّ الرِّياسة إلا حَسد وبَغى، وتَتبَّع عيوب النَّاس، وكره أن يُذكر أحد بخير)[٢]. وقال ابن عبد البر -رحمه الله- تعالى:

حبُّ الرِّياسة داء يخلق الدُّنيا ... ويجعل الحبَّ حربًا للمحبينا
يَفْرِي[٣] الحلاقم والأرحام يقطعها ... فلا مروءة يُبقي لا ولا دينًا[٤]

٥- الاتِّصاف ببعض الصِّفات، والتي من شأنها أن تُوغر الصُّدور، وتؤثر في سلامتها، ككثرة المزاح، وكثرة المراء والجدال، والعُجب وغيرها.

الوسائل المعينة على اكتساب سَلَامة الصَّدر:

١- الإخلاص لله -تبارك وتعالى- وهذا تصديقًا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((ثلاث لا

---

(١) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).
(٢) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٥٧١/١).
(٣) فراه يفريه فريا: شقه شقا. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٢٩/٣٩).
(٤) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٥٧١/١).

يَغِلُّ عليهنَّ قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمَّة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنَّ الدَّعوة تحيط من ورائهم))(١). قال ابن الأثير: (إنَّ هذه الخِلال الثَّلاث تُسْتَصلح بها القلوب، فمن تمسَّك بها طَهُر قلبه من الخيانة والدَّخل والشَّر)(٢).

٢- الإقبال على كتاب الله تعالى قراءةً وتعلُّمًا وتعليمًا، فهو شفاء لما في الصُّدور، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

٣- الدُّعاء، فهو العلاج النَّاجع والدَّواء النَّافع، فيدعو العبد مولاه أن يجعل قلبه سليمًا من الضغائن والأحقاد على إخوانه المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

٤- التَّخلُّق بالأخلاق التي تزيد من المحبَّة والألفة بين المؤمنين، كالبَشَاشة والتَّبسُّم، وإفشاء السَّلام، وإهداء الهديَّة وغيرها، فإنَّ هذه الأخلاق كفيلة بانتزاع سخيمة القلوب، وأغْلَاق الصُّدور، فتصبح نقيَّة صافية.

٥- الابتعاد عن كلِّ ما من شأنه أن يفسد الوُدَّ، ويعكِّر صفو الصُّدور، فيبتعد المؤمن عن الأخلاق الرَّديَّة، كالحسد والغلِّ والحقد والظَّنِّ السَّيئ وغيرها.

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٦٥٨)، والحميدي (١/٤٧)، والبيهقي في ((معرفة السُّنن والآثار)) (١/١٠٩). قال ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٢١/٢٧٨): المحفوظ في هذا الحديث خاصَّة: (ومناصحة ولاة المسلمين)، وقال ابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/١٨): مشهور في السُّنن. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن التِّرمذي)) (٢٦٥٨).

(٢) ((النِّهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/٣٨١).

٦- رضا العبد بما قسمه الله تعالى: (قال ابن القيِّم: إنَّ الرِّضا يفتح له باب السَّلَامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغشِّ والدَّغل والغلِّ، ولا ينجو من عذاب الله إلَّا من أتى الله بقلب سَلِيم، كذلك وتستحيل سَلَامة القلب مع السَّخط وعدم الرِّضا، وكلَّما كان العبد أشدَّ رضى، كان قلبه أسلم)[1].

نماذج لسلامة الصَّدر:

- **نماذج من الصَّحابة:**

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنَّا جلوسًا مع الرَّسول صلى الله عليه وسلم فقال: ((يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنَّة، فطلع رجل من الأنصار، تَنْطِفُ[2] لحيته من وضوئه، قد تَعَلَّق نَعْلَيه في يده الشِّمال، فلمَّا كان الغد، قال النَّبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فطلع ذلك الرَّجل مثل المرَّة الأولى، فلمَّا كان اليوم الثَّالث، قال النَّبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرَّجل على مثل حاله الأولى، فلمَّا قام النَّبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إنِّي لَاحَيْت[3] أبي فأقسمت ألَّا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تُؤْوِيَنِي إليك حتَّى تمضي، فَعلتَ. فقال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدِّث أنَّه بات معه تلك الليالي الثَّلاث، فلم يره يقوم من اللَّيل شيئًا، غير أنَّه إذا تعارَّ وتقلَّب على فراشه، ذَكَر الله عزَّ وجلَّ وكبَّر حتَّى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أنِّي لم أسمعه يقول إلَّا خيرًا. فلمَّا مضت الثَّلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، إنِّي لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هَجْرٌ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٢/٢٠١).

(٢) نطف الماء: سال وقطر قليلا قليلا. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/٤٢١).

(٣) لاحيت الرجل ملاحاة ولحاء إذا نازعته. انظر: ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (١١/١٣٨).

عليه وسلم يقول ثلاث مِرَار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنَّة، فطلعت أنت الثَّلاث مِرَار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عملٍ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنِّي لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشًّا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق))(١).

- وعن زيد بن أسلم، أنَّه دخل على ابن أبي دُجانة، وهو مريض، وكان وجهه يتهلَّل، فقال له: ما لك يتهلَّل وجهك؟ قال: ما من عملِ شيءٍ أوثق عندي من اثنين: أمَّا أحدهما، فكنت لا أتكلَّم بما لا يعنيني، وأما الأُخْرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا(٢).

- وأُثِر عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّه كان يدعو لسبعين من أصحابه، يسمِّيهم بأسمائهم، وهذا العمل علامة على سَلَامة الصَّدر(٣).

- وقد كان أبو موسى الأشعري صوَّامًا قوَّامًا، ربَّانيًّا، زاهدًا، عابدًا، ممَّن جمع العلم والعمل والجهاد وسَلَامة الصَّدر، لم تغيره الإمارة، ولا اغترَّ بالدُّنيا(٤).

- **نماذج من السَّلف:**

- (دخل رجل على عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- فذكر له عن رجل

---

(١) رواه أحمد (٣/١٦٦) (١٢٧٢٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥/٢٦٤) (٦٦٠٥). قال المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٤/٣٢) والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٢٣١) وابن كثير في ((التفسير)) (٨/٩٥): إسناده على شرط البخاري ومسلم. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٨١): رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن سعد في ((الطَّبقات الكبرى)) (٣/٥٥٦)، وابن أبي الدنيا في ((الصَّمت)) (ص ٩٥).

(٣) ذكره ابن بطال في ((شرح صحيح البخاري)) (٢/٤٥٠).

(٤) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤/٤٩).

شيئًا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك. فقال: العفو، يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا)[(١)].

- وعن الفضل بن أبي عيَّاش، قال: (كنت جالسًا مع وهب بن منبِّه، فأتاه رجل، فقال: إنِّي مررت بفلان وهو يشتُمك. فغضب، فقال: ما وجد الشَّيطان رسولًا غيرك؟ فما بَرِحْت من عنده حتَّى جاءه ذلك الرَّجل الشَّاتم، فسلَّم على وهب، فردَّ عليه، ومدَّ يده، وصافحه، وأجلسه إلى جنبه)[(٢)].

سلامة الصَّدر في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

بَني عمِّنا إنَّ العداوةَ شأنُها ... ضغائنُ تبقَى في نفوسِ الأقاربِ[(٣)]

وقال عنترة:

لا يحملُ الحقدَ من تَعْلُو به الرُّتبُ ... ولا ينالُ العلا مَن دأبُه الغضبُ[(٤)]

وقال الخليل:

سأُلزمُ نفسي الصَّفحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإن كثرتْ منه عليَّ الجرائمُ

فما النَّاسُ إلَّا واحدٌ مِن ثلاثةٍ ... شَرِيفٌ ومَشْرُوفٌ ومِثْلي مُقَاوِمُ

فأمَّا الذي فوقي فأعرفُ فضلَه ... وأتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ

(١) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/١٥٦).
(٢) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (١/٤٥٧).
(٣) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٤٠).
(٤) ((ديوان عنتر بن شداد)) (ص ١١).

وأمَّا الذي مثلي فإنْ زلَّ أو هفا تفضَّلت إنَّ الفضل بالعز حاكمُ
وأمَّا الذي دوني فإن قال صُنتُ عن إجابتِه عرضي وإن لام لائمُ[1]

وقال أبو الفتح البستي:

خذِ العفوَ وأْمرْ بعرفٍ كما أُمرت وأعرضْ عن الجاهلين
ولِنْ في الكلامِ لكلِّ الأنامِ فمُسْتَحْسَنٌ مِن ذوي الجاهِ لين[2]

وقال الشاعر:

إذا اسطعتَ كنْ إمَّا مسيحًا مسامحًا عداك وإمَّا فارسَ الحربِ عنترا
فما اللُّؤْمُ إلَّا إنْ حقدت فلم تكنْ كريمًا فتعفوا أو شجاعًا فتثأرا[3]



(١) ((مختصر تاريخ دمشق)) لابن منظور (١١/ ٢٤٢).
(٢) ((زهر الآداب وثمر الألباب)) للحصري (٢/ ٤٢٧).
(٣) ((مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي)) لأحمد قبش (ص ٣٣٤).



السَّمَاحة



السَّمَاحة

معنى السَّمَاحَة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى السَّمَاحَة لغةً:**

مادة (سمح) تدل على سلَاسةٍ وَسُهولةٍ. والمسامحة: المساهَلة، وسمح بكذا يسمح سُمُوحًا وسَماحه: جاد وأعطى، أو وافق على ما أريد منه(١).

- **معنى السَّمَاحَة اصطلاحًا:**

السَّمَاحَة في الاصطلاح تطلق على معنيين:

الأول: (بذل ما لا يجب تفضلًا)(٢).

الثاني: (في معنى التَّسامح مع الغير، في المعاملات المختلفة، ويكون ذلك بتيسير الأمور، والملاينة فيها، التي تتجلى في التيسير وعدم القهر)(٣).

الترغيب في السَّمَاحَة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال السعدي: (هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع النَّاس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به النَّاس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق... ويتجاوز عن

---

(١) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/٩٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/٩٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/٢٨٨).

(٢) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٦٠).

(٣) ((نضرة النعيم)) (٦/٢٢٨٧).

تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم)[1].

- وقال سبحانه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قال ابن عاشور: (ومعنى كون العفو أقرب للتقوى، أنَّ العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السَّمَاحَة والرَّحْمَة أقرب إلى التقوى، من القلب الصلب الشديد؛ لأنَّ التقوى تقرب بمقدار قوَّة الوازع، والوازع شرعي وطبيعي، وفي القلب المفطور على الرَّأفة والسَّمَاحَة، لين يزعه عن المظالم والقساوة، فتكون التقوى أقرب إليه؛ لكثرة أسبابها فيه)[2].

- ونفى الله عن رسوله الفظاظة، وغلظ القلب، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال السعدي: (أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه، ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأنَّ هذا يُنفرهم ويبغضهم

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ٣١٣).
(٢) ((التحرير والتنوير)) (٢/٤٦٥).

لمن قام به هذا الخلق السيِّئ)[(١)].

- وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ففي هذه الآية (وجَّه الله الدائنين إلى التيسير على المدينين المعسرين، فعلَّمهم الله بذلك سماحة النفس، وحسن التغاضي عن المعسرين)[(٢)].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى))[(٣)].

قال ابن بطال: (فيه الحضُّ على السَّمَاحَة، وحسن المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة والرقة في البيع، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه؛ لأن النَّبي عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم، في الدنيا والآخرة)[(٤)].

وقال المناوي: (... ((رحم الله عبدًا)). دعاء أو خبر، وقرينة الاستقبال المستفاد من. ((إذا)). تجعله دعاء. ((سَمْحًا)). بفتح فسكون، جوادًا أو متساهلًا، غير مضايق في الأمور، وهذا صفة مشبَّهة تدل على الثبوت؛ ولذا كرر أحوال البيع والشراء والتقاضي، حيث قال: ((إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى)). أي: وفى ما عليه بسهولة. ((سمحًا إذا اقتضى)).

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ١٥٤).
(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٦٧).
(٣) رواه البخاري (٢٠٧٦)
(٤) ((شرح صحيح البخاري)) (٦/٢١٠).

أي: طلب قضاء حقه، وهذا مسوق للحث على المسامحة في المعاملة، وترك المشاححة والتضييق في الطلب، والتَّخلُّق بمكارم الأخلاق، وقال القاضي: رتَّب الدعاء على ذلك؛ ليدل على أنَّ السهولة والتسامح سبب لاستحقاق الدعاء، ويكون أهلًا للرحمة والاقتضاء والتقاضي، وهو طلب قضاء الحق)(١).

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هيِّن سهل))(٢).

قال القاري: (أي: تحرم على كل سهل طلق حليم، ليِّن الجانب، قيل: هما يطلقان على الإنسان بالتثقيل والتخفيف. ((قريب)). أي: من النَّاس بمجالستهم في محافل الطاعة، وملاطفتهم قدر الطاعة. ((سهل)). أي: في قضاء حوائجهم، أو معناه أنَّه سمح القضاء، سمح الاقتضاء، سمح البيع، سمح الشراء)(٣).

- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب))(٤).

---

(١) ((فيض القدير)) (٢/٤٤١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٨)، وابن حبان (٢/٢١٥) (٤٦٩)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/٢٣١). قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢٦٩٧): إسناده جيد. وصححه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (١٧٤٤).

(٣) ((مرقاة المفاتيح)) (٨/٣١٧٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وأحمد (٤/٤٠٠) (١٩٥٩٧). قال الترمذي حسن صحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٧٥٩).

قال الطيبي: (ولما كانت الأوصاف الأربعة ظاهرة في الإنسان والأرض، أجريت على حقيقتها، وأُوِّلت الأربعة الأخيرة؛ لأنَّها من الأخلاق الباطنة، فإنَّ المعني بالسهل: الرفق واللين، وبالحزن: الخرق والعنف، وبالطيِّب: الذي يعني به الأرض العذبة، المؤمن الذي هو نفع كله، بالخبيث: الذي يراد به الأرض السبخة، الكافر الذي هو ضر كله، والذي سبق له الحديث هو الأمور الباطنة؛ لأنَّها داخلة في حديث القدر بالخير والشر، وأما الأمور الظاهرة من الألوان، وإن كانت مقدرة فلا اعتبار لها فيه)[١].

(والنفس السَّمحة كالأرض الطَّيِّبَة الهيِّنَة المستوية، فهي لكل ما يراد منها من خير صالحة، إن أردت عبورها هانت، وإن أردت حرثها وزراعتها لانت، وإن أردت البناءِ فيها سهلت، وإن شئت النوم عليها تمهدت)[٢].

- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: ((أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالًا، فقال له: ماذا عملت فى الدنيا؟ - قال ولا يكتمون الله حديثًا — قال: يا رب آتيتني مالك، فكنت أبايع النَّاس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيسَّر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال الله: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي))[٣].

قال النووي: (والتَّجاوز والتَّجوز معناهما، المسامحة في الاقتضاء، والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير، كما قال وأتجوَّز في السِّكَّة، وفي هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر والوضع عنه، إمَّا كل الدين، وإما بعضه من كثير، أو قليل، وفضل المسامحة في الاقتضاء وفي الاستيفاء، سواء استوفي من موسر أو معسر،

(١) ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/١٧٦).
(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٤٦).
(٣) رواه البخاري (٢٠٧٧)، ومسلم (١٥٦٠) واللفظ له.

وفضل الوضع من الدين، وأنَّه لا يحتقر شيء من أفعال الخير، فلعله سبب السعادة والرَّحْمَة)[١].

قال ابن تيمية: (وأما السَّمَاحَة والصبر، فخلقان في النفس. قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] وهذا أعلى من ذاك، وهو أن يكون صبَّارًا شكورًا، فيه سماحة بالرَّحْمَة للإنسان، وصبر على المكاره، وهذا ضد الذي خلق هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا؛ فإنَّ ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة، ولا صبر عند المصيبة)[٢].

فوائد سماحة النَّفس:

- (يستطيع سمح النفس الهين اللين، أن يغنم في حياته أكبر قسط من السعادة وهناءة العيش؛ لأنه بخلقه هذا يتكيَّف مع الأوضاع الطبيعية والاجتماعية بسرعة، مهما كانت غير ملائمة لما يحب.

- ويستطيع أن يستقبل المقادير بالرضى والتسليم، مهما كانت مكروهة للنفوس.

- ويستطيع سمح النفس الهين اللين، أن يظفر بأكبر قسط من محبة النَّاس له، وثقة النَّاس به؛ لأنه يعاملهم بالسَّمَاحَة والبشر ولين الجانب، والتغاضي عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النصح، كان في نصحه رفيقًا ليِّنًا، سمحًا هيِّنًا، يسر بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسد الثغرات، ولا ينشر الزلَّات والعثرات.

- ويعامل النَّاس أيضًا بالسَّمَاحَة في الأمور المادية، فإذا باع كان سمحًا،

(١) ((شرح مسلم)) للنووي (١٠/٢٢٥).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/٢٦٤).

وإذا اشترى كان سمحًا، وإذا أخذ كان سمحًا، وإذا أعطى كان سمحًا، وإذا قضى ما عليه كان سمحًا، وإذا اقتضى ما له كان سمحًا.

- ويجلب سمح النفس، الهيِّن الليِّن لنفسه، الخير الدنيوي بتسامحه؛ وذلك لأنَّ النَّاس يحبون المتسامح الهيِّن الليِّن، فيميلون إلى التعامل معه، فيكثر عليه الخير بكثرة محبيه والواثقين به.

- ويجلب سمح النفس الهيِّن الليِّن لنفسه رضى الله تعالى والخير الأخروي العظيم، ما ابتغى بسماحته رضوان الله عز وجل)[(١)].

صور السَّمَاحَة:

النَّاس على اختلاف مستوياتهم، واختلاف نماذجهم الخلقية، يوجد فيهم من يتمتعون بخلق سماحة النفس، فهم هيِّنون ليِّنون سمحاء، ويوجد فيهم آخرون نكدون، متشددون، يتذمرون من كل شيء لا يوافق هواهم[(٢)]. وصور سماحة النفس كثيرة فمنها:

١- السَّمَاحَة في التعامل مع الآخرين:

ويكون ذلك بعدم التشديد، وعدم الغلظة في التعامل مع الآخرين، حتى ولو كان خادمًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: ((خدمتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟))[(٣)].

٢- السَّمَاحَة في البيع والشراء:

وتكون السَّمَاحَة في البيع والشراء، بأن لا يكون البائع مغاليًا في الربح،

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٤٣).
(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٤٤١).
(٣) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩)، واللفظ للبخاري.

ومكثرًا في المساومة، بل عليه أن يكون كريم النفس. وبالمقابل على المشتري أيضًا أن يتساهل، وأن لا يدقق في الفروق القليلة، وأن يكون كريمًا مع البائع وخاصة إذا كان فقيرًا.

٣- السَّمَاحَة في قضاء الحوائج:

فإن الذي يقضي حوائج النَّاس، فينفس كربتهم وييسر على معسرهم، ييسر الله عنه في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[١].

٤- السَّمَاحَة في الاقتضاء:

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

قال السعدي: (﴿وَإِن كَانَ﴾ المدين ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ لا يجد وفاء ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إما بإسقاطها أو بعضها)[٢]. فمن السَّمَاحَة في الاقتضاء أن يراعي حال المدين، وأن لا يطالبه بشدة وأمام النَّاس، قال صلى الله عليه وسلم: ((من طلب حقًّا، فليطلبه في عفاف، واف أو غير واف))[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (١١٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٢١)، وابن حبان (٤٧٤/١١) (٥٠٨٠)، والحاكم (٣٨/٢) (٢٢٣٨) =

وسائل اكتساب خلق سماحة النفس:

هناك عدة وسائل لاكتساب خلق سماحة النفس، منها:

١- (التأمل في الترغيبات التي رغب الله بها الذين يتحلون بخلق السَّمَاحَة، والفوائد التي يجنونها في العاجلة والآجلة، والسعادة التي يظفرون بها في الحياة الدنيا والآخرة.

٢- التأمل في المحاذير التي حذَّر الله منها النكدين المتشدِّدين العسيرين، وما يجلبه لهم خلقهم وظواهره السلوكية، من مضار عاجلة وآجلة، ومتاعب وآلام كثيرة، وخسارة مادية ومعنوية)[١].

نماذج في السَّمَاحَة:

- **نماذج من سماحة النَّبي صلى الله عليه وسلم:**

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمحًا في تعامله وهو المثل الأكمل في السَّمَاحَة، يحكي لنا أنس رضي الله عنه ما لاقاه من النَّبي صلى الله عليه وسلم من حسن المعاملة فيقول: ((خدمتُ النَّبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟))[٢].

- وعنه أيضًا قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن النَّاس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيان،

= من حديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم. قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٣٨٤).

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٥١) بتصرف.

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٨).

وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: ((يا أنيس ذهبت حيث أمرتك؟ قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله))[1].

- ومن سماحته صلى الله عليه وسلم قضاء حوائج النَّاس، فعن أنس رضي الله عنه قال: (إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت)[2].

- ومن سماحته صلى الله عليه وسلم، عفوه عمن أراد قتله، فعن جابر رضي الله عنه أنَّه غزا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم قِبَلَ نجد، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قفل معهم فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق النَّاس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة، فعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: ((إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس))[3].

- ومن سماحته صلى الله عليه وسلم، تعامله مع الأعرابي الذي جذب رداءه بشدة؛ ليأمر له بعطاء، فعن أنس رضي الله عنه قال: ((كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، ورجع نبي الله صلى الله عليه وسلم في

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٣) رواه البخاري (٢٩١٠).

نحر الأعرابي، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء))(١).

• نماذج من سماحة السلف مع غير المسلمين:

- في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق -وكانوا من النصارى-: (وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله)(٢).

- وأوصى عمر رضي الله عنه الخليفة من بعده بأهل الذمة أن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم(٣).

- وذبحت لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، شاة في أهله، فلما جاء، قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنَّه سيورثه))(٤).

---

(١) رواه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٢) ((كتاب الخراج)) لأبي يوسف (ص ١٥٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٩٢).

(٤) رواه أبو داود (٥١٥٢)، الترمذي (١٩٤٣)، والبيهقي في ((معرفة السنن والآثار)) (٦/٢١٤). قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وصححه الألباني في ((الترغيب والترهيب)) (٢٥٧٤).

- وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: (وانظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولَّت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه)[1].

علامات سمح النفس:

هناك علامات للمتصف بخلق السَّمَاحَة منها[2]:

١- طلاقة الوجه، واستقبال النَّاس بالبشر، ومشاركتهم بالسمع والفكر والقلب.

وطلق الوجه حسن البشر بالنَّاس، محبب إليهم، مألوف في نفوسهم، قريب إلى قلوبهم.

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الظاهرة بقوله وعمله، فمن ذلك ما جاء عن جابر رضي الله عنه، إذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كل معروف صدقة، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك))[3].

وهكذا يكون سمح النفس طلق الوجه باسمًا مشرق المحيَّا، بخلاف النكد الصعب، حتى يبدو كأنه قَرِف من كل شيء، فإذا واجه النَّاس واجههم بسحنة منقبضة، لا انبساط فيها ولا بشر، وإذا اجتمع معهم، لم يشاركهم

(١) ((الأموال)) للقاسم بن سلاَّم (ص ٥٦).
(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٤٧) بتصرف.
(٣) رواه الترمذي (١٩٧٠)، وأحمد (٣/٣٦٠) (١٤٩٢٠). حسنه الترمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٣/٤٠٦)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٢٦٨٤).

بمشاعره ولا بحواسِّه، وكان بينهم كأنه غريب عنهم، وكأنهم غرباء عنه... وهذا الوضع يجعله ممقوتًا مكروهًا بعيدًا عن قلوب النَّاس؛ لأنَّه وضع يلازمه في معظم أحواله بسبب نكد نفسه الملازم له...

٢- مبادرة النَّاس بالتحية والسلام والمصافحة وحسن المحادثة:

فمن كان سمح النفس بادر إلى هذه المحاسن، ووجودها في الإنسان طبيعية غير متكلَّفة، يدل على أنَّه سمح هيِّن ليِّن رقيق حاشية النفس، ألوف ودود لا فظ ولا غليظ.

٣- حسن المصاحبة والمعاشرة والتغاضي وعدم التشدد في الأمور:

فمن كان سمح النفس، كان حسن المصاحبة لإخوانه، ولأهله، ولأولاده، ولخدمه، ولكل من يخالطه، ولكل من يرعاه.

وكان حسن المعاشرة خفيف المحاسبة والمؤاخذة، متغاضيًا عن المخالفات التي تتعلق به، لا يتشدد في الأمور، ولا يعظِّم الصغائر، بل يلتمس العذر لمن يقصر معه، أو لا يعطيه من الاحترام أو الخدمة حقه.

سماحة الإسلام:

كما دعا الإسلام المسلمين إلى التحلي بخلق السَّمَاحَة، فإنَّ السَّمَاحَة من خلق الإسلام نفسه، فمن السَّمَاحَة عفو الله ومغفرته للمذنبين من عباده، وحلمه تبارك وتعالى على عباده، وتيسير الشريعة عليهم، وتخفيف التكاليف عنهم، ونهيهم عن الغلو في الدين، ونهيهم عن التشديد في الدين على عباد الله[1].

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٦٥) بتصرف.

- قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

- وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

- وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

- قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والروحة، وشيء من الدلجة))(١).

- ونهى النَّبي عن التنطع والتَّشدد في الدين، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((هلك المتنطعون)). قالها ثلاثًا(٢).

- ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم على من يشق على المسلمين فقال: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق به))(٣).

- وأمر بالتخفيف على المسلمين ونهى عن التثقيل في أمور الدين فعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: ((أتى رجلٌ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول

---

(١) رواه البخاري (٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٨)

الله صلى الله عليه وسلم قط أشد غضبًا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال: يا أيها النَّاس إنَّ منكم منفِّرين، فأيُّكم ما صلى بالنَّاس فليتجوَّزْ، فإنَّ فيهم المريض، والكبير، وذا الحاجة))[1].

- ومن سماحة الإسلام، تيسيره لشؤون مناسك الحج، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل، فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، فقال: اذبح ولا حرج، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، قال: ارم ولا حرج، فما سئل النَّبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قُدِّمَ ولا أُخِّر، إلا قال: افعل ولا حرج))[2].

- سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين؛ فالإسلام لم تقتصر سماحته على المسلمين فحسب، بل شمل غير المسلمين، من اليهود والنصارى، والمشركين، حتى في حالة الحرب، فنهى الإسلام عن قتل الأطفال، والنساء، والشيوخ، والعجزة، فعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إذا أمَّر أميرًا على جيش، أو سريَّة، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال-: فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام))[3].

---

(١) رواه البخاري (٦١١٠).

(٢) رواه البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦).

(٣) رواه مسلم (١٧٣١).

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((إذا فتحتم مصر، فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمةً ورحمًا))(١).

السَّمَاحَة في واحة الشعر:

قال أوس بن حجر:

أيتها النفسُ أجملي جزعًا إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

إنَّ الذي جمع السَّمَاحَة والنجدةَ والحزمَ والقوى جمعا(٢)

وقال محمد بن أشكاب العجمي:

وإذا جدتَ للصديقِ بوعدٍ فصِلِ الوعدَ بالفعالِ الجميلِ

ليس في وعدِ ذي السَّمَاحَةِ مطلٌ إنَّما المطلُ في عداتِ البخيلِ(٣)

وقال الشافعي:

وكنْ رجلًا على الأهوالِ جلدًا وشيمتُكَ السَّمَاحَةُ والوفاءُ

وإن كثرت عيوبُكَ في البرايا وسَرَّك أَنْ يَكونَ لها غِطَاءُ

تَسَتَّر بالسَّخَاءِ فكُلُّ عَيْبٍ يُغطِّيه كما قيلَ السَّخاءُ

(١) رواه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٦/١٣٧)، والطبراني (١٩/٦١) (١١٣) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.
قال البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٦/٣٢٢): روي من أوجه أخر، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/٦٦): [روي] بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٩٨). والحديث رواه مسلم (٢٥٤٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما. أو قال: ذمة وصهرا)).

(٢) ((الفوائد والأخبار)) لأبي بكر بن دريد (ص ٣٤).

(٣) ((البخلاء)) للخطيب البغدادي (ص ١٥٠).

ولا ترجُ السَّمَاحَةَ مِن بخيلٍ ... فما في النَّارِ لِلظْمآنِ مَاءُ[1]

وقال آخر:

قد تحابى الجواد نائبة الدَّهْر ... وفيهَا على البَخِيلِ وقاحة

كم رَأينَا من نعْمَةٍ قادها الْبُخْل ... وأخرى تذودُ عنها السَّمَاحَة[2]



(١) ((ديوان الإمام الشافعي)) (ص ١٧).

(٢) ((يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)) لأبي منصور الثعالبي (٢/٣٥٣).



الشَّجَاعَة



الشَّجَاعَة

معنى الشَّجَاعَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الشَّجَاعَة لغةً:

الشجاعة: شدَّة القلب عند البأس، وأصل هذه المادة يدل على جرأة وإقدام. يقال: شجُع شجاعة: اشتد عند البأس[1].

• معنى الشَّجَاعَة اصطلاحًا:

قيل هي: (الإقدام على المكاره، والمهالك، عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت)[2].

وقال ابن حزم: (حد الشَّجَاعَة: بذل النفس للموت، عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلمًا في المال، والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قلَّ من يعارض أو كثر)[3].

الفرق بين الشَّجَاعَة وبعض الصفات:

• الفرق بين الشجاعة والقوة:

(كثير من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة وهما متغايران، فإن الشجاعة هي ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش.

وكان الصديق رضي الله عنه أشجع الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر وغيره أقوى منه، ولكن برز على الصحابة كلهم بثبات قلبه

(١) انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٧٣/٨)، ((الصحاح)) للجوهري (١٢٣٥/٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢٤٧/٣)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٣٥٤).

(٢) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص ٢٧).

(٣) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص ٨٠).

في كل موطن من المواطن التي تزلزل الجبال، وهو في ذلك ثابت القلب، ربيط الجأش، يلوذ به شجعان الصحابة وأبطالهم، فيثبتهم، ويشجعهم)[١].

- **الفرق بين البسالة والشَّجَاعَة:**

أنَّ أصل البسل: الحرام، فكأن الباسل يتعذَّر على أحد أو يحرم عليه، أن يصيبه في الحرب بمكروه؛ لشدته فيها وقوته.

والشَّجَاعَة: الجرأة، والشُّجاع: الجريء، المقدام في الحرب ضعيفًا كان أو قويًّا، والجرأة قوة القلب الداعي إلى الإقدام على المكاره، فالشَّجَاعَة تنبئ عن الجرأة، والبسالة تنبئ عن الشدَّة[٢].

- **الفرق بين الشَّجَاعَة والجرأة:**

أنَّ الشَّجَاعَة من القلب: وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنَّه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، كما أنَّ الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر.

وأما الجرأة: فهي إقدام، سببه قلة المبالاة، وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض، فإمَّا عليها، وإمَّا لها[٣].

الترغيب في الشَّجَاعَة:

أولًا: في القرآن الكريم

- أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالقتال في سبيله، والثبات عليه،

---

(١) ((الفروسية)) لابن القيم (ص ٥٠٠).

(٢) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٩٩).

(٣) ((الروح)) لابن القيم (ص ٢٣٧) بتصرف.

والإقدام في الحروب، وعدم الجبن، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

- وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

قال السعدي: (يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ ﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشِّط هممهم، من الترغيب في الجهاد، ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشَّجَاعَة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأنَّ الشَّجَاعَة بالمؤمنين أولى من غيرهم)[1].

- وقال سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

- وأمر الله المسلمين بالثبات في الجهاد فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ٣٢٥).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنِّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان))[1].

قال النووي: (والمراد بالقوة هنا، عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه، وذهابًا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة، والصوم، والأذكار، وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها، ومحافظةً عليها، ونحو ذلك)[2].

- وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: كان سعد يعلِّم بنيه هؤلاء الكلمات، كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة ويقول: ((إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ منهن دبر الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر، فحدثت به مصعبًا فصدقه))[3].

قال المهلب: (أما استعاذته صلى الله عليه وسلم من الجبن، فإنَّه يؤدي إلى

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (٤/٢٠٥٢).

(٣) رواه البخاري (٢٨٢٢).

عذاب الآخرة؛ لأنَّه يفر من قرنه في الزحف فيدخل تحت وعيد الله لقوله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ [الأنفال: ١٦] الآية، وربما يفتن في دينه، فيرتد لجبن أدركه)[١].

- وعن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده قال: ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم))[٢].

أقوال السلف والعلماء في الشَّجَاعَة:

- قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: (احرص على الموت، توهب لك الحياة)[٣].

- وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الجبن والشَّجَاعَة غرائز في النَّاس، تلقى الرجل يقاتل عمن لا يعرف، وتلقى الرجل يفر عن أبيه)[٤].

- وخطب عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، النَّاس لما بلغه قتل أخيه مصعب، فقال: (إن يقتل فقد قتل أبوه، وأخوه، وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن نموت قعصًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف، وإن يقتل مصعب فإنَّ في آل الزبير خلفًا منه)[٥].

---

(١) ((شرح البخاري)) لابن بطال (٥/٣٥).
(٢) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).
(٣) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/٩٢).
(٤) ((مكارم الأخلاق)) لابن أبي الدنيا (ص ٧٠).
(٥) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/١٠١)، والموت قعصًا أن يُرمى فيموت مكانه.

- وكتب زياد إلى ابن عباس رضي الله عنه: (أن صف لي الشَّجَاعَة، والجبن، والجود، والبخل، فكتب إليه: كتبت تسألني عن طبائع، رُكِّبت في الإنسان تركيب الجوارح، اعلم أنَّ الشجاع يقاتل عمن لا يعرفه، والجبان يفر عن عرسه، وأن الجواد يعطي من لا يلزمه، وأن البخيل يمسك عن نفسه)[١].

- وقالوا: (حد الشَّجَاعَة سعة الصدر، بالإقدام على الأمور المتلفة)[٢].

- وسئل بعضهم عن الشَّجَاعَة فقال: (جبلَّة نفسٍ أبيَّة، قيل له: فما النَّجدة؟ قال: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت، حتى تحمد بفعلها دون خوف)[٣].

- وقيل لبعضهم: (ما الشَّجَاعَة؟ فقال: صبر ساعة. وقال بعض أهل التجارب: الرجال ثلاثة: فارس، وشجاع، وبطل، فالفارس: الذي يشد إذا شدوا، والشجاع: الداعي إلى البراز والمجيب داعيه، والبطل: الحامي لظهور القوم إذا ولَّوا.

قال يعقوب بن السكيت في كتاب ((الألفاظ)): العرب تجعل الشَّجَاعَة في أربع طبقات، تقول: رجلٌ شجاعٌ، فإذا كان فوق ذلك، قالوا: بطلٌ، فإذا كان فوق ذلك، قالوا: بهمةٌ[٤]، فإذا كان فوق ذلك، قالوا: أَلْيس[٥])[٦].

---

(١) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/٣٤٧).
(٢) ((المصدر السابق)) (٣/٢٠٨).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) بهمة: البُهْمةُ بالضم: الشجاع وقيل هو الفارس الذي لا يُدْرَى من أَين يُؤتى له من شدَّة بأْسِه والجمع بُهَم. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٥٦).
(٥) الأَلْيَسُ مَن لا يُبَالي الحَرْبَ ولا يَرُوعُه. واللِّيسُ واللُّوسُ: الأَشِدَّاءُ. ((تاج العروس)) للزبيدي (١٦/٤٩٣).
(٦) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/٢٠٨).

- وقال بعض الحكماء: (جسم الحرب: الشَّجَاعَة، وقلبها: التدبير، ولسانها: المكيدة، وجناحها: الطاعة، وقائدها: الرفق، وسائقها: النصر)[(١)].

- وقال عمرو بن معد يكرب: (الفزعات ثلاثة: فمن كانت فزعته في رجليه، فذاك الذي لا تقله رجلاه، ومن كانت فزعته في رأسه، فذاك الذي يفر عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه، فذاك الذي لا يقاتل)[(٢)].

- وقال ابن تيمية: (ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشَّجَاعَة والكرم، بيَّن الله سبحانه أنَّه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه، أبدل الله به من يقوم بذلك، ومن تولَّى عنه بإنفاق ماله، أبدل الله به من يقوم بذلك)[(٣)].

- وقال ابن القيم: (الجبن والشَّجَاعَة غرائز وأخلاق، فالجبان يفر عن عرسه، والشجاع يقاتل عمَّن لا يعرفه، كما قال الشاعر:

يفر جبان القوم من أم نفسه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

والشجاع ضد البخيل؛ لأن البخيل يضن بماله، والشجاع يجود بنفسه، كما قال القائل:

كم بين قوم إنَّما نفقاتهم مال وقوم ينفقون نفوسا)[(٤)]

- وقال الذهبي: (الشَّجَاعَة والسخاء أخوان، فمن لم يجد بماله، فلن يجود بنفسه)[(٥)].

---

(١) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/٢٠٨).

(٢) ((الفروسية)) لابن القيم (ص ٤٩٨).

(٣) ((الاستقامة)) لابن القيم (٢/٢٦٩).

(٤) ((الفروسية)) لابن القيم (ص ٤٩٨).

(٥) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٩/٢٣٥).

فوائد الشَّجَاعَة:

الشَّجَاعَة لها فوائد تعود على الفرد والمجتمع، منها:

١- أنها سبب لانشراح الصدر:

قال ابن القيم: (فإنَّ الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق النَّاس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح ولذتها، ونعيمها، وابتهاجها، فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كل معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره)[١].

٢- الشَّجَاعَة أصل الفضائل:

فمن يتصف بالشَّجَاعَة يتحلى أيضًا بالنجدة، وعظم الهمة، والثبات، والصبر، والحلم، وعدم الطيش، والشهامة، واحتمال الكد.

٣- الشَّجَاعَة تحمل صاحبها على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم:

قال ابن القيم: (والشَّجَاعَة تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس، وقوتها، على إخراج المحبوب، ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ، والحلم، فإنَّه بقوة نفسه، وشجاعتها، يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ، والبطش، كما قال: ((ليس الشديد بالصرعة، إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))، وهو

(١) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/٢٢).

حقيقة الشَّجَاعَة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه)[1].

٤- الرجل الشجاع يحسن الظن بالله:

قال ابن القيم: (والجبن خلق مذموم عند جميع الخلق، وأهل الجبن: هم أهل سوء الظن بالله، وأهل الشَّجَاعَة والجود: هم أهل حسن الظن بالله، كما قال بعض الحكماء في وصيته: عليكم بأهل السخاء، والشَّجَاعَة، فإنَّهم أهل حسن الظن بالله، والشَّجَاعَة جُنَّة للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه على نفسه، فهو جند وسلاح يعطيه عدوه ليحاربه به، وقد قالت العرب: الشَّجَاعَة وقاية، والجبن مقتلة، وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنِّهم أنَّ جبنهم ينجيهم من القتل والموت، فقال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦].

ولقد أحسن قطري بن الفجاءة بقوله:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبرًا في مجال الموت صبرًا ... فما نيل الخلود بمستطاع
وما ثوب الحياة بثوب عز ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... وداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لم يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عدَّ من سقط المتاع)[2]

---

(١) ((الفروسية)) لابن القيم (ص ٤٩١).

(٢) ((المصدر السابق)).

٥- لا تتم مصلحة الإمارة والسياسة إلا بالشَّجَاعَة:

قال ابن تيمية: (لا تتم رعاية الخلق وسياستهم، إلا بالجود الذي هو العطاء، والنجدة التي هي الشَّجَاعَة، بل لا يصلح الدين والدنيا إلا بذلك، ولهذا كان من لا يقوم بهما، سلبه الأمر ونقله إلى غيره، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩] وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾. [الحديد: ١٠] فعلق الأمر بالإنفاق الذي هو السخاء، والقتال الذي هو الشَّجَاعَة، وكذلك قال الله تعالى في غير موضع: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. [التوبة: ٤١])[١].

وقال في موضع آخر: (كما أنَّ عليهم -أي ولاة الأمور- من الشَّجَاعَة والسَّمَاحَة ما ليس على غيرهم؛ لأنَّ مصلحة الإمارة لا تتم إلا بذلك)[٢].

---

(١) ((السياسة الشرعية)) (ص ٧٤).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/١٨٠).

٦- الشجاعة تجمع جملة من الفضائل وهي[1]:

أ- كِبَرُ النفس:

وهو الاستهانة باليسير، والاقتدار على حمل الكرائه، فصاحبه أبدًا يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافه لها.

ب- النَّجدة:

وهي ثقة النفس عند المخاوف، حتى لا يخامرها جزع.

ج- عظم الهمة:

وهي فضيلة للنفس، تحتمل بها سعادة الجد وضدها، حتى الشدائد التي تكون عند الموت.

د- الثبات:

وهو فضيلة للنفس، تقوى بها على احتمال الآلام، ومقاومتها في الأهوال خاصة.

هـ- الحلم:

وهو فضيلة للنفس، تكسبها الطمأنينة، فلا تكون شغِبَة، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة.

و- السكون:

وهو عدم الطيش، فهو إمَّا عند الخصومات، وإمَّا في الحروب التي يذب بها عن الحريم، أو عن الشريعة. وهو قوة للنفس، تقسر حركتها في هذه الأحوال لشدتها.

---

(١) ((تهذيب الأخلاق)) لابن مسكويه (ص ١٨)، بتصرف.

ز- الشهامة:

وهي الحرص على الأعمال العظام، توقعًا للأحدوثة الجميلة.

ح- احتمال الكد:

وهو قوة للنفس، بها تستعمل آلات البدن في الأمور الحسية، بالتمرين وحسن العادة.

أقسام الشَّجَاعَة:

ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) خمسة أنواع للشجاعة وهي:

- (سبعيَّة: كمن أقدم لثوران غضب وتطلُّب غَلَبة.

- وبهيميَّة: كمن حارب توصلًا إلى مأكل أو منكح.

- وتجريبيَّة: كمن حارب مرارًا فظفر. فجعل ذلك أصلًا يبني عليه.

- وجهاديَّة: كمن يحارب ذبًّا عن الدين.

- وحكميَّة: وهي ما تكون في كل ذلك عن فكر، وتمييز، وهيئة محمودة، بقدر ما يجب وعلى ما يجب، ألا ترى أنَّه يحمد من أقدم على كافر؛ غضبًا لدين الله، أو طمعًا في ثوابه، أو خوفًا من عقابه، أو اعتمادًا على ما رأى من إنجاز وعد الله في نصرة أوليائه، فإن كل ذلك محمود، وإن كان محض الشَّجَاعَة هو أن لا يقصد بالإقدام حوز ثواب، أو دفع عقاب...

ومن الشَّجَاعَة المحمودة مجاهدة الإنسان نفسه، أو غيره، وكل واحد منهما ضربان:

- مجاهدة النفس بالقول: وذلك بالتعلم، وبالفعل: وذلك بقمع الشهوة، وتهذيب الحمية.

- ومجاهدة الغير بالقول: وذلك تزيين الحق وتعليمه، وبالفعل: وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب)[١].

مراتب الشجعان:

تحدث ابن القيم عن مراتب الشجعان فقال:

(أوَّل مراتبهم الهُمام؛ وسمي بذلك لهمته وعزمه، وجاء على بناء فُعَال كشجاع.

الثاني المقدام؛ وسمي بذلك من الإقدام، وهو ضد الإحجام وجاء على أوزان المبالغة، كمعطاء، ومنحار، لكثير العطاء، والنحر، وهذا البناء يستوي فيه المذكر والمؤنث، كامرأة معطار كثيرة التعطر، ومذكار تلد الذكور.

الثالث الباسل: وهو اسم فاعل من بسل يبسل، كشرف يشرف، والبسالة الشَّجَاعَة والشدة، وضدها فشل يفشل فشالة، وهي على وزنها فعلًا ومصدرًا وهي الرذالة.

الرابع البطل: وجمعه أبطال وفي تسميته قولان:

أحدهما: لأنَّه يبطل فعل الأقران، فتبطل عند شجاعة الشجعان، فيكون بطل بمعنى مفعول في المعنى؛ لأنَّ هذا الفعل غير متعد.

والثاني: أنَّه بمعنى فاعل لفظًا ومعنى؛ لأنَّه الذي يبطل شجاعة غيره فيجعلها بمنزلة العدم، فهو بطل بمعنى مبطل.

ويجوز أن يكون بطل بمعنى مبطل بوزن مكرم، وهو الذي قد بطله غيره، فلشجاعته تحاماه النَّاس، فبطلوا فعله باستسلامهم له، وترك محاربتهم إياه.

(١) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٣٢٨).

الخامس: الصنديد بكسر الصاد[1].

صور الشَّجَاعَة:

١- الإقدام في ساحات الوغى في الجهاد في سبيل الله، والاستهانة بالموت.

٢- الجرأة في إنكار المنكر وبيان الحق:

قال صلى الله عليه وسلم: ((أفضل الجهاد، كلمة عدلٍ عند سلطانٍ جائر))[2].

٣- الشَّجَاعَة في الأعمال التي تحتاج إلى تحمل المخاطر ورباطة الجأش:

كرجال الشرطة، ورجال الإطفاء، وعمال المناجم، وغيرهم.

٤- حضور الذهن عند الشدائد:

من أكبر مظاهر الشَّجَاعَة، حضور الذهن عند الشدائد، فشجاعٌ من إذا عراه خطبٌ، لم يذهب برشده، بل يقابله برزانة وثبات، ويتصرف فيه بذهن حاضر، وعقل غير مشتت[3].

---

(١) ((الفروسية)) (٥٠٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤) بلفظ: ((أعظم)) بدلا من ((أفضل))، وابن ماجه (٣٢٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه ، وحسن إسناده ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (١٩/١٨٠)، وحسنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٩٦)، وقال أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/٧١٦): فيه عطية العوفي ضعيف. ولكنه ثابت ضمن حديث مطول بإسنادين صحيحين، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٣٤٤).

ورواه ابن ماجه (٣٢٥٧)، وأحمد (٥/٢٥١) (٢٢٢١٢)، والطبراني (٨/٢٨٢) (٨٠٨١). من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

حسنه البغوي في ((شرح السنة)) (٥/٣١٤)، وصحح إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٢٢٩)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١١/٥٤٤٧)، وحسنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٢٥٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٤٨٢).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لجمال نصار. بتصرف (ص ٢٠٦).

٥- الشَّجَاعَة الأدبية:

والمراد بها أن يبدي الإنسان رأيه، وما يعتقد أنَّه الحق، مهما ظنَّ النَّاس به، أو تقوَّلوا عليه، فيقول الحق بأدب، وإن تألَّم منه النَّاس، ويعترف بالخطأ، وإن نالته عقوبة، ويرفض العمل بما لا يراه صوابًا[1].

وسائل اكتساب خلق الشَّجَاعَة:

١- اللجوء إلى الله بالدعاء والإكثار من الذكر:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥].

(للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشَّجَاعَة المحمودة في النَّاس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم)[2].

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لجمال نصار. بتصرف (ص ٢٠٦).

(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (٨/٢٣).

٢- (ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الإنسان لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

٣- ترسيخ عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

٤- غرس اليقين بما أعده الله من النعيم في الجنة، للذين يقاتلون في سبيل الله.

٥- التدريب العملي بدفع الإنسان إلى المواقف المحرجة، التي لا يتخلص منها إلا بأن يتشجع.

٦- الاقتناع بأن معظم مثيرات الجبن، لا تعدو كونها مجرد أوهام لا حقيقة لها.

٧- القدوة الحسنة وعرض مشاهد الشجعان، وذكر قصصهم.

٨- إثارة دوافع التنافس، ومكافأة الأشجع بعطاءات مادية)[1].

ضوابط استعمال الشَّجَاعَة:

١- الاستعانة بها في طاعة الله، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله:

فيجب استعمال الشَّجَاعَة فيما يقربّ إلى الله سبحانه وتعالى، من مقارعة الأعداء، والإقدام في ساحات الوغى في الجهاد في سبيل الله.

قال ابن تيمية: (ومما ينبغي أن يعلم أن الشَّجَاعَة، إنَّما فضيلتها في الدين لأجل الجهاد في سبيل الله، وإلا فالشَّجَاعَة إذا لم يستعن بها صاحبها على الجهاد في سبيل الله كانت إمَّا وبالًا عليه إن استعان بها صاحبها على طاعة الشيطان، وإمَّا غير نافعة له إن استعملها فيما لا يقربه إلى الله تعالى، فشجاعة

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني. بتصرف (٢/٥٦٨).

علي، والزبير، وخالد، وأبي دجانة، والبراء بن مالك، وأبي طلحة، وغيرهم من شجعان الصحابة إنَّما صارت من فضائلهم؛ لاستعانتهم بها على الجهاد في سبيل الله، فإنَّهم بذلك استحقوا ما حمد الله به المجاهدين، وإذا كان كذلك فمعلومٌ أنَّ الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد، ومنه ما يكون بالحجة والبيان والدعوة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجاهد الكفار بالقرآن جهادًا كبيرًا، وهذه السورة مكيَّة نزلت بمكة قبل أن يهاجر النَّبي، وقبل أن يؤمر بالقتال، ولم يؤذن له، وإنَّما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب، والبيان والدعوة لا بالقتال، وأما القتال فيحتاج إلى التدبير، والرأي، ويحتاج إلى شجاعة القلب، وإلى القتال باليد، وهو إلى الرأي والشَّجَاعَة في القلب، في الرأس المطاع، أحوج منه إلى قوة البدن)[1].

٢- أن تكون في موضعها:

فيُقْدِمُ الشجاع في موضع الإقدام، ويثبت في موضع الثبات، ويحجم في موضع الإحجام.

وقال ابن القيم: (ولما كانت الشَّجَاعَة خلقًا كريمًا من أخلاق النفس ترتب عليها أربعة أمور: وهي مظهرها وثمرتها، الإقدام في موضع الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، والثبات في موضع الثبات، والزوال في موضع الزوال. وضد ذلك مخلٌّ بالشَّجَاعَة، وهو إمَّا جبن، وإمَّا تهور، وأما خفة وطيش)[2].

(١) ((منهاج السُّنَّة النَّبويَّة)) (٨/٦٣).

(٢) ((الفروسية)) (ص ٥٠٤).

٣- أن تقترن بالرأي الصحيح:

قال ابن القيم: (وإذا اجتمع في الرجل الرَّأي والشَّجَاعَة، فهو الذي يصلح لتدبير الجيوش وسياسة أمر الحرب. والنَّاس ثلاثة، رجل، ونصف رجل، ولا شيء، فالرَّجل من اجتمع له أصالة الرأي والشَّجَاعَة، فهذا الرجل الكامل، كما قال أحمد بن الحسين المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة   بلغت من العلياء كل مكان

ونصف الرجل، وهو من انفرد بأحد الوصفين دون الآخر، والذي هو لا شيء، من عري من الوصفين جميعًا)[1].

وقال أيضًا: (وصحة الرأي لقاح الشَّجَاعَة، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن قعدا فالخذلان والخيبة، وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإن حصلت الشَّجَاعَة بلا رأي فالتَّهور والعطب، والصبر لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما، قال الحسن: إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك)[2].

نماذج في الشَّجَاعَة:

- **نماذج من شجاعة النَّبي صلى الله عليه وسلم:**

- وعن علي رضي الله عنه قال: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد النَّاس يومئذ بأسًا)[3].

---

(١) ((الفروسية)) (٥٠٥).

(٢) ((الفوائد)) لابن القيم (ص ٢٠٠).

(٣) رواه أحمد (١/٨٦) (٦٥٤)، وابن أبي شيبة (٦/٤٢٦) (٣٢٦١٤). جوَّد إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٤٦٧)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (٢/٦٤).

- قال رجل للبراء رضي الله عنه: ((يا أبا عمارة، أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله، ما ولَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه خرج شبان أصحابه وأَخِفَّاؤُهم حُسَّرًا ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قومًا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن، وبني نصر، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل فاستنصر وقال: أنا النَّبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، ثُمَّ صفَّهم))[١].

- وعن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: ((شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَلَ الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها؛ إرادةَ أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيْ عباس، ناد أصحاب السمرة. فقال عباس: -وكان رجلًا صيِّتًا- فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة، قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، قال: ثُمَّ قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج،

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣٠)، ومسلم (١٧٧٦).

يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمي الوطيس))[١].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: ((كان النَّبي صلى الله عليه وسلم أحسن النَّاس، وأجود النَّاس، وأشجع النَّاس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق النَّاس قِبَل الصوت، فاستقبلهم النَّبي صلى الله عليه وسلم، قد سبق النَّاس إلى الصوت وهو يقول: لن تراعوا لن تراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري، ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحرًا[٢]، أو إنَّه لبحر))[٣].

- **نماذج من شجاعة الصحابة رضي الله عنهم:**

(وقد كان الموروث صلوات الله وسلامه عليه أشجع النَّاس، فكذلك وارثه وخليفته من بعده أشجع الأمة بالقياس، ويكفي أنَّ عمر بن الخطاب سهم من كنانته، وخالد بن الوليد سلاح من أسلحته، والمهاجرون والأنصار أهل بيعته وشوكته، وما منهم إلا من اعترف أنَّه يستمد من ثباته وشجاعته)[٤].

شجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

قال ابن القيم رحمه الله: (وكان الصديق رضي الله عنه أشجع الأمة بعد رسول الله... برز على الصحابة كلهم بثبات قلبه، في كل موطن من المواطن التي تزلزل الجبال، وهو في ذلك ثابت القلب، ربيط الجأش، يلوذ به شجعان الصحابة وأبطالهم، فيثبتهم ويشجعهم، ولو لم يكن له إلا ثبات قلبه يوم

(١) رواه مسلم (١٧٧٥).

(٢) بحرا: أي واسع الجري. ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/٦٨).

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٣).

(٤) ((الفروسية)) لابن القيم (ص ٥٠٢).

الغار، وليلته، وثبات قلبه يوم بدر، وهو يقول للنَّبي يا رسول الله كفاك بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك، وثبات قلبه يوم أحد، وقد صرخ الشيطان في النَّاس بأن محمدًا قد قتل، ولم يبق أحد مع رسول الله إلا دون عشرين في أحد، وهو مع ذلك ثابت القلب ساكن الجأش، وثبات قلبه يوم الخندق وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وثبات قلبه يوم الحديبية، وقد قلق فارس الإسلام عمر بن الخطاب، حتى إنَّ الصديق ليثبته ويسكنه ويطمئنه، وثبات قلبه يوم حنين حيث فر النَّاس وهو لم يفر، وثبات قلبه حين النازلة التي اهتزت لها الدنيا أجمع، وكادت تزول لها الجبال، وعقرت لها أقدام الأبطال، وماجت لها قلوب أهل الإسلام ،كموج البحر عند هبوب قواصف الرياح، وصاح لها الشيطان في أقطار الأرض أبلغ الصياح، وخرج النَّاس بها من دين الله أفواجًا، وأثار عدو الله بها أقطار الأرض عجاجًا، وانقطع لها الوحي من السماء، وكاد لولا دفاع الله لطمس نجوم الاهتداء، وأنكرت الصحابة بها قلوبهم، وكيف لا وقد فقدوا رسولهم من بين أظهرهم، وحبيبهم، وطاشت الأحلام، وغشي الآفاق ما غشيها من الظلام، واشْرَأَبَّ النفاق، ومد أهله الأعناق، ورفع الباطل رأسًا كان تحت قدم الرسول موضوعًا، وسمع المسلمون من أعداء الله ما لم يكن في حياته بينهم مسموعًا، وطمع عدو الله أن يعيد النَّاس إلى عبادة الأصنام، وأن يصرف وجوههم عن البيت الحرام، وأن يصد قلوبهم عن الإيمان والقرآن، ويدعوهم إلى ما كانوا عليه من التهود، والتمجس، والشرك، وعبادة الصلبان، فشمَّر الصديق رضي الله عنه من جده عن ساق غير خوار، وانتضى سيف عزمه الذي هو ثاني ذي الفقار، وامتطى من ظهور عزائمه جوادًا لم يكن يكبو يوم السباق، وتقدم جنود الإسلام فكان أفرسهم إنَّما همه اللحاق، وقال والله لأجاهدن أعداء الإسلام

جهدي، ولأصدقنهم الحرب حتى تنفرد سالفتي، أو أفرد وحدي، ولأدخلنهم في الباب الذي خرجوا منه، ولَأَرُدَّنَّهُمْ إلى الحق الذي رغبوا عنه، فثبَّت الله بذلك القلب الذي لو وزن بقلوب الأمة لرجحها جيوش الإسلام، وأذلَّ بها المنافقين، والمرتدين، وأهل الكتاب، وعبدة الأصنام، حتى استقامت قناة الدين من بعد اعوجاجها، وجرت الملة الحنيفية على سننها ومنهاجها، وتولَّى حزب الشيطان وهم الخاسرون، وأذَّن مؤذن الإيمان على رؤوس الخلائق ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

هذا وما ضعفت جيوش عزماته، ولا استكانت ولا وهنت، بل لم تزل الجيوش بها مؤيَّدة ومنصورة، وما فرحت عزائم أعدائه بالظفر في موطن من المواطن، بل لم تزل مغلوبة مكسورة، تلك لعمر الله الشَّجَاعَة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمَّة التي تصاغرت عندها عليات الهمم، ويحق لصديق الأمة أن يضرب من هذا المغنم بأوفر نصيب، وكيف لا وقد فاز من ميراث النبوة بكمال التعصب)[١].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ((لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل النَّاس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله. فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال

---

(١) ((الفروسية)) (ص ٥٠٢).

عمر بن الخطاب فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عزَّ وجلَّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنَّه الحق))[١].

– وعن عروة بن الزبير، قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنَّبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((بينا النَّبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم وقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الآية [غافر: ٢٨]))[٢].

– وعن محمد بن عقيل بن أبي طالب، قال: (خطبنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: أيها النَّاس، أخبروني بأشجع النَّاس، قالوا: لو قلنا أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع النَّاس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر الصديق، إنا لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشًا فقلنا: من يكون مع النَّبي صلى الله عليه وسلم لا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، وهذا أشجع النَّاس، قال علي: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذته قريش فهذا يجؤه، وهذا يتلتله، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، قال: فوالله ما دنا منه إليه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، ثم رفع علي بردة كانت عليه فبكى حتى أخضل لحيته،

(١) رواه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠).
(٢) رواه البخاري (٣٨٥٦).

ثم قال علي: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ قال: فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني ؟ والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه)[(١)].

شجاعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

- عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[(٢)].

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي، فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت، قال: فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أندية قريش، فقال: يا معشر قريش، إنَّ ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: كذب ولكني أسلمت وآمنت بالله، وصدَّقت رسوله، فثاوروه، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم، حتى فتر عمر وجلس، فقاموا على رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم...)[(٣)].

- وعن محمد بن إسحاق قال: (فلما قدم عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو

---

(١) رواه البزار (٣/١٤) (٧٦١)، وأبو نعيم في ((فضائل الخلفاء)) (١٨١)، قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩/٤٩): فيه من لم أعرفه.

(٢) رواه البخاري (٣٨٦٣).

(٣) رواه البزار (١/٢٦٠) (١٥٦)، وابن حبان (١٥/٣٠٢) (٦٨٧٩) واللفظ له، والطبراني مختصرًا (١/٧٢) (٨٣). جوَّد إسناده وقوَّاه ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٣/٧٩)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩/٦٨): رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس، وحسن إسناده الشوكاني في ((در السحابة)) (٩٩) وقال: [وروي] من حديث عمر نفسه بإسناد رجاله ثقات.

ابن العاص، على قريش ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردهم النجاشي بما يكرهون، أسلم عمر بن الخطاب، وكان رجلًا ذا شكيمة، لا يرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة بن عبد المطلب، حتى غزا قريشًا، فكان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلَّى عند الكعبة وصلَّينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة)[١].

شجاعة علي رضي الله عنه:

- عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه - في سياق ذكره ليوم خيبر - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله. قال: فأتيت عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسق في عينيه فبرأ، وأعطاه الرَّاية وخرج مرحب فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

(١) رواه ابن هشام في ((السيرة)) (٣٤٢/١)، وأحمد في ((فضائل الصحابة)) (٢٧٨/١).

قال فضرب رأس مرحب فقتله ثم كان الفتح على يديه))[١].

شجاعة الزبير رضي الله عنه:

- عن عمرو بن دينار قال كان يقال: (أشجع النَّاس الزبير، وأبسلهم علي رضي الله عنهما، والباسل فوق الشجاع)[٢].

- وعن هشام بن عروة، عن أبيه، (أنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للزبير يوم اليرموك، ألا تشد فنشد معك؟ فقال: إنِّي إن شددت كذبتم، فقالوا لا نفعل، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلًا فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر، قال عروة: كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير)[٣].

- وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: ((كنت يوم الأحزاب، جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين، أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت يا أبت رأيتك تختلف، قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه، فقال: فداك أبي وأمي))[٤].

شجاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه:

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: (لقد رأيتني يوم مؤتة تقطَّعت في يدي

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٧).

(٢) ((مكارم الأخلاق)) لابن أبي الدنيا (ص ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٩٧٥).

(٤) رواه البخاري (٣٧٢٠).

تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية)[١].

ولما احتضر قال: (لقد طلبت القتل مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيءٌ أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس بترسي، والسماء تهلبني ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار، ثُمَّ قال: إذا أنا مت فانظروا سلاحي وفرسي فاجعلوها عدَّة في سبيل الله عزَّ وجلَّ)[٢].

شجاعة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه: ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له أبويه قال: كان رجل من المشركين قد خرق المسلمين، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم لسعد: ارم فداك أبي وأمي، قال: فنزعت بسهم لي فيه نصل، فأصبت جنبه، فوقع وانكشفت عوراته، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه))[٣].

نماذج أخرى من شجاعة الصحابة رضي الله عنهم:

- عن أنس رضي الله عنه، قال: ((غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئنِ اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إنِّي أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت

---

(١) ((مكارم الأخلاق)) لابن أبي الدنيا (ص ٦١).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٦٢)، تهلبني: أي تبلني وتمطرني.

(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٦٣).

يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس كنا نرى، أو نظن أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ إلى آخر الآية))[1].

- وعنه رضي الله عنه، قال: ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ سيفًا يوم أحد فقال: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول أنا أنا. قال: فمن يأخذه بحقه؟ قال: فأحجم القوم، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال فأخذه ففلق به هام المشركين))[2].

- **نماذج من شجاعة العلماء المتقدمين:**

شجاعة العز بن عبد السلام رحمه الله في إنكار المنكر:

ذكر الباجي موقفًا من مواقف ابن عبد السلام رحمه الله، فقال: (طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٤٧٠).

بأعلى صوته والعساكر واقفون، فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

يقول الباجي: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي كيف الحال؟ فقال يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقط[(١)].

شجاعة ابن تيمية رحمه الله:

قال البزَّار: (كان رحمه الله من أشجع النَّاس، وأقواهم قلبًا، ما رأيت أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه، ولسانه، ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم، وأخبر غير واحد أنَّ الشيخ رحمه الله، كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعًا، أو رقَّة، أو جبانة، شجَّعه وثبته، وبشَّره، ووعده بالنصر، والظفر، والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة.

وكان إذا ركب الخيل يتحنَّك ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيرًا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدَّثوا أنَّهم رأوا منه في فتح عكة أمورًا من الشَّجَاعَة، يعجز الواصف عن وصفها.

(١) ((طبقات الشافعية)) للسبكي (٨/ ٢١١).

قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره، ولما ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة، جاءه ملك الكرج وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ فقام من فوره، وشجَّع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم بالنصر، والظفر، والأمن، وزوال الخوف.

فانتدب منهم رجال من وجوههم، وكبرائهم، وذوي الأحلام منهم، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل هم رؤساء دمشق، فأذن لهم فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ رحمه الله أولًا، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبةً عظيمة، حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولًا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين، وضمن له أموالًا وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكَّره ووعظه فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحقنت بسببه دماء المسلمين وحميت ذراريهم وصِين حريمهم)[1].

- **نماذج من شجاعة العلماء المعاصرين:**

شجاعة الشيخ ابن باز رحمه الله في إنكار المنكر:

(من شجاعة الشيخ ابن باز وقوته في الحق أنَّه ينكر المنكر، ويبيِّن الحق، ويردُّ على من أخطأ كائنًا من كان.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، وهذا الأمر معروف عن سماحة الشيخ في مقتبل عمره، وبعد أن طعن في السن.

---

(١) ((الأعلام العلية)) للبزار، بتصرف (ص ٦٧).

ومن الأمثلة على ذلك: أنَّه لما نشرت صحيفة الجيش السورية كلامًا كفريًّا، يتضمن إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، كتب سماحة الشيخ للرئيس السوري آنذاك، وهو نور الدين الأتاسي، وبيَّن له الحكم في ذلك، وأنَّ الواجب التوبة، وإعلانها في الصحف.

ومن ذلك أنَّه لما نشرت بعض الصحف الخارجيَّة أن بعض الرؤساء طعن في القرآن، وذكر أنَّه متناقض، وتكلَّم في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم كتب إليه سماحة الشيخ، وبيَّن له فداحة ما قال، وأوضح له أن ذلك كفر وردة، وأنَّ الواجب عليه إعلان التوبة في الصحف التي نشرت كلامه.

ولما لم ينشر ذلك الشخص ما أشار به سماحة الشيخ، ولم يعلن توبته ورجوعه، كتب سماحته مقالًا مطولًا بيَّن فيه كفر ذلك الشخص، وردته، ونشرت ذلك بعض الصحف)[١].

الشَّجَاعَة في واحة الشعر:

قالوا: أشجع بيت قاله العرب قول العباس بن مرداس السلمي:

أشُدُّ على الكتيبةِ لا أُبالي   أحتفي كان فيها أم سواها[٢]

وقد مدح الشعراء الشَّجَاعَة وأهلها، وأوسعوا في ذلك، فمن ذلك قول المتنبي:

شجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشقةٌ له   إذا زارها فدته بالخيلِ والرَّجْلِ[٣]

(١) ((جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز)) لمحمد إبراهيم الحمد (ص ٢٠٧).
(٢) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٢/ ٢١١).
(٣) ((ديوان المتنبي)) (٥٢١).

وقال أيضًا:

وكم رجالٍ بلا أرضٍ لكثرتِهم تركتَ جمعَهمُ أرضًا بلا رجلِ

ما زال طرفُك يجري في دمائِهمُ حتى مشَى بك مشيَ الشاربِ الثَّمِلِ[١]

وقال آخر:

مِن كلِّ متسعِ الأخلاقِ مبتسمٌ للخطبِ إن ضاقتِ الأخلاقُ والحيلُ

يسعَى به البرقُ إلا أنَّه فرسٌ في صورةِ الموتِ إلا أنَّه رجلُ

يلقَى الرِّماحَ بصدرٍ منه ليس له ظهرٌ وهادي جوادٍ ما له كفلُ[٢]

وقال البحتري:

معشرٌ أمسكتْ حلومُهم الأر ضَ وكادتْ لولاهم أن تميدا

فإذا المحل جاء جاؤوا سيولًا وإذا النقعُ[٣] ثار ثاروا أسودا

وكأنَّ الإلهَ قال لنا في الـ ـحربِ كونوا حجارةً أو حديدا[٤]

وقال ابن حيوس:

إن تردْ خبرَ حالِهم عن يقينٍ فأْتِهم يومَ نائلٍ[٥] أو نزالِ[٦]

(١) ((ديوان المتنبي)) (٢٧٦).

(٢) ((نهاية الأرب)) للنويري (٣/٢٢١).

(٣) النقْعُ: الغُبار الساطِعُ. ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/٣٥٩).

(٤) ((ديوان البحتري)) (١/ ٥٩٢).

(٥) نائل: النائِل ما نِلْت من معروف إنسان.. والتَّنَوُّل لا يكون إلا في الخير. ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٦٨٣).

(٦) نِزال: النِّزالُ في الحربِ أَن يتَنازَل الفريقان، وفي (المحكم) أَن يَنْزِل الفَرِيقان عن إِبلِهما إِلى خَيْلِهما فيَتضاربوا. ((المصدر السابق)) (١١/٦٥٦).

تلقَ بيضَ الوجوهِ سودَ مُثارِ الـ ـنقعِ خضرَ الأكنافِ[١] حمرَ النصالِ[٢]

وقال مسلم بن الوليد الأنصاري في يزيد بن مزيد:

تلقَى المنيةَ في أمثالِ عدتها كالسيلِ يقذفُ جلمودًا بجلمودِ[٣]

يجودُ بالنفسِ إذ ضنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ[٤]



(١) الَأكْنافِ: الجَوانِبِ. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/١٩٥).

(٢) ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص ٤١٥)، والنصال: النصل نصل السهم والسيف والسكين والرمح. والجمع نصول، ونصال. ((الصحاح)) للجوهري (٥/١٨٣٠).

(٣) الجُلْمود: الصخر، وقيل: الجُلْمُود: أَصغر من الجَنْدل قدر ما يرمى بالقَذَّاف. ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/١٢٩).

(٤) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/١٠٨-١٠٩).

فهرس الموضوعات

موسوعة الأخلاق

الجزء السابع

الشَّفَقَة - الشَّهَامَة - الصَّبْر

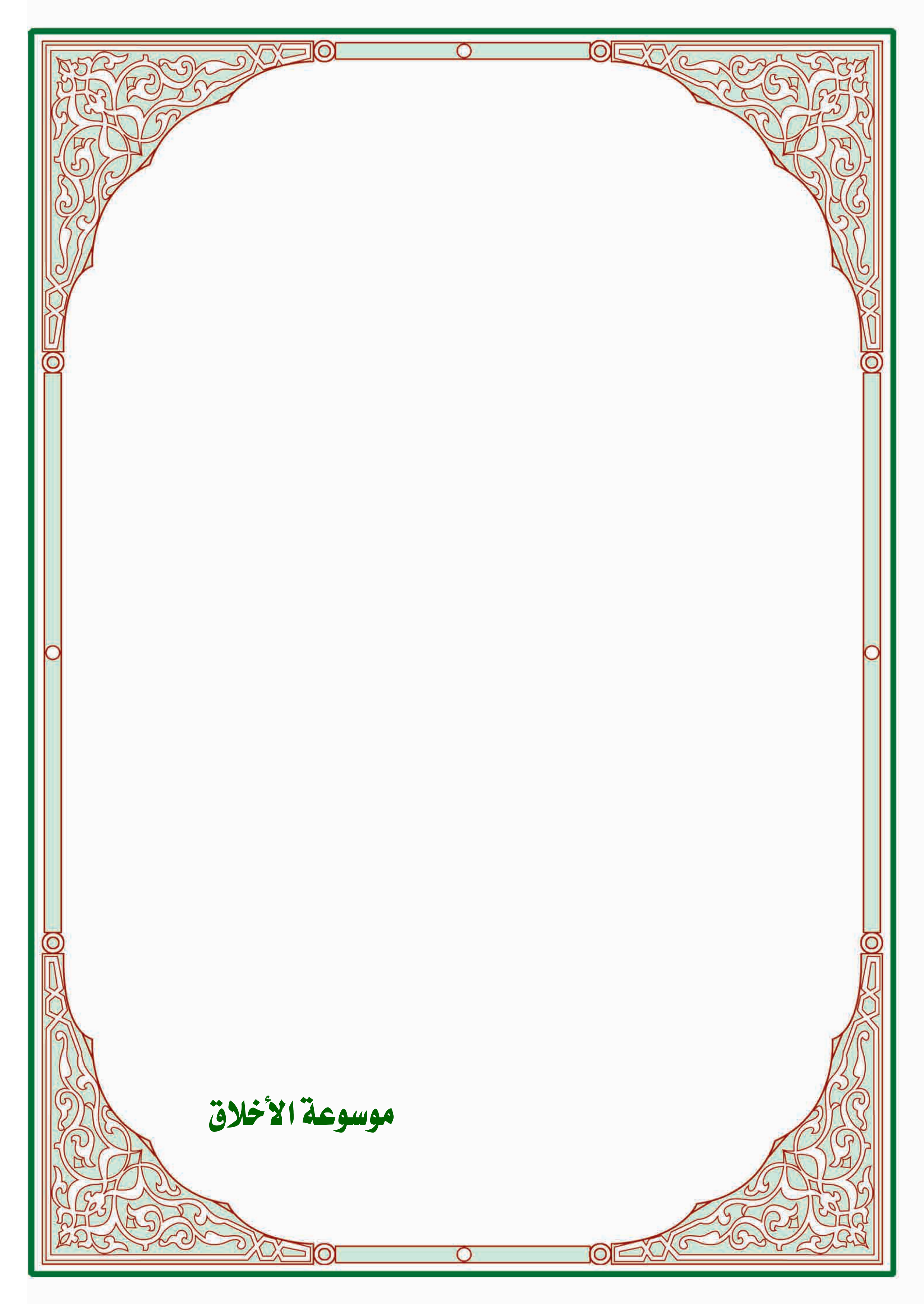
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء السابع

الشَّفَقَة - الشَّهَامَة - الصَّبْر

إعداد

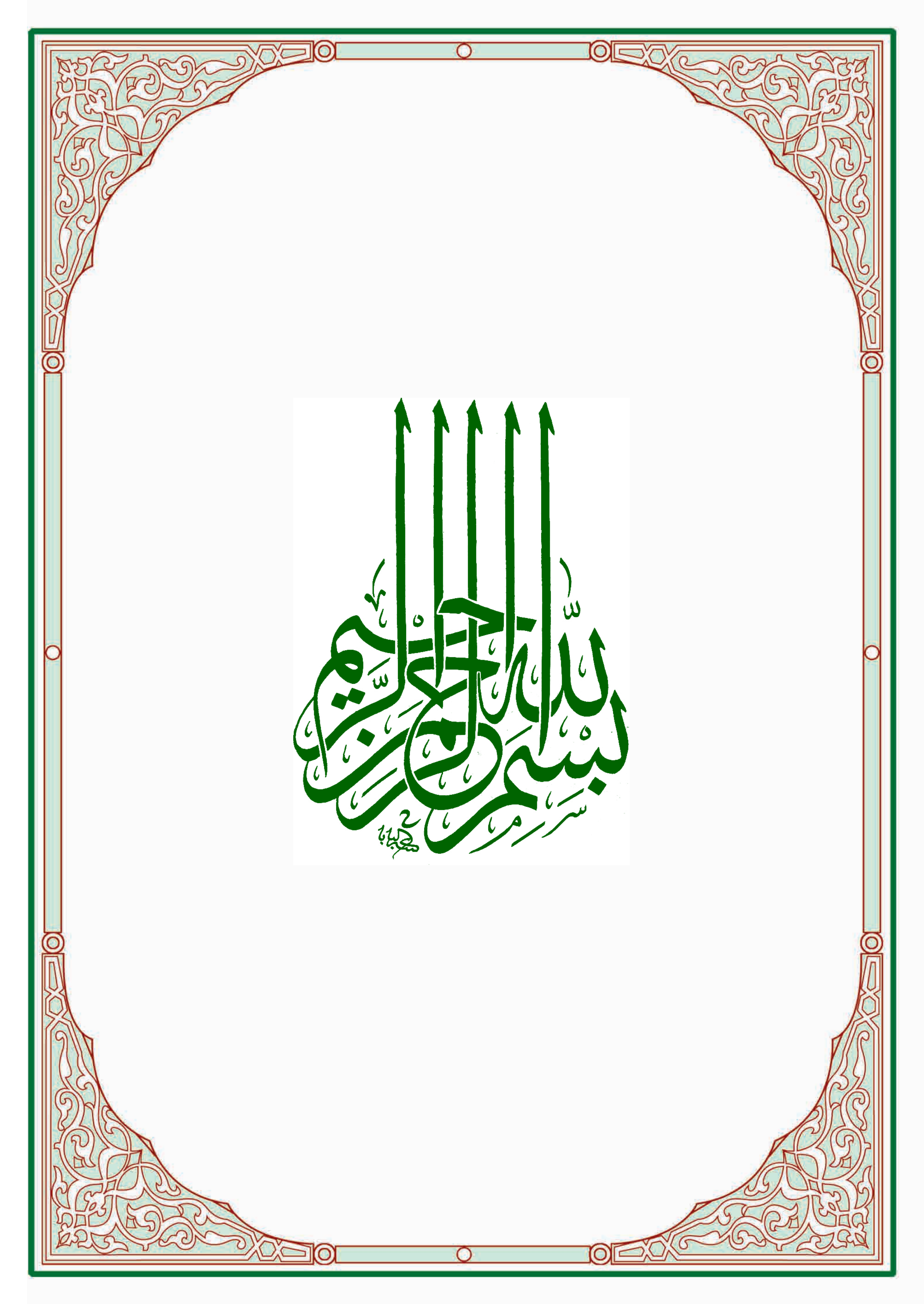
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

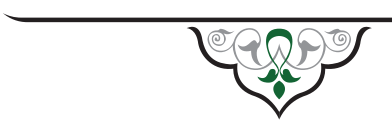
الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



الشَّفَقَة



الشَّفَقة

معنى الشَّفَقَة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الشَّفَقَة لغةً:**

الشَّفَق والشَّفَقَة: رِقَّة مِنْ نُصْحٍ أو حُبٍّ، يؤدِّي إلى خوفٍ، والشَّفَقَة: الاسم من الإشْفَاق.. وأَشْفَقْت عليه، فأنا مُشْفِق وشَفِيق.

والشَّفَق: الخوف، تقول: أنا مُشْفِق عليك، أي: خائف. وأنا مُشْفِق من هذا الأمر، أي: خائف. والشَّفَق -أيضًا- الشَّفَقَة، وهو أن يكون النَّاصح -من بلوغ نُصْحه- خائفًا على المنصُوح، تقول: أَشْفَقْت عليه أن يناله مكروه، والشَّفِيق: النَّاصح الحريص على صلاح المنصوح[1].

- **معنى الشَّفَقَة اصطلاحًا:**

قال الرَّاغب: (الإشْفَاق عناية مختلطة بخوف)[2].

قال ابن القيِّم: (الإشْفَاق رِقَّة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يُخاف عليه، فنسبته إلى الخوف، نسبة الرَّأفة إلى الرَّحمة، فإنَّها ألطف الرَّحمة وأرقُّها)[3].

قال الجرجاني: (هي صرف الهمَّة إلى إزالة المكروه عن النَّاس)[4].

---

(١) ((الصحاح)) للجوهري (٤/١٥٠١-١٥٠٢)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/٢٦١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/١٧٩).

(٢) وعلل ذلك بقوله: (لأنَّ المشْفِق يحبُّ المشْفَق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عُدِّي بـ(مِنْ)، فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عُدِّي بـ(في) فمعنى العناية فيه أظهر). ((مفردات القرآن)) للراغب الأصفهاني (٤٥٨-٤٥٩).

(٣) ((مدارج السالكين)) (١/٥١٤).

(٤) ((التعريفات)) (ص ١٢٧). وقال أبو إسماعيل الهروي: (الإشْفَاق: دوام الحذر، مقرونًا بالتَّرحُّم). ((منازل السائرين)) (ص ٢٧).

الفرق بين الشَّفَقَة وبعض الصِّفات:

• الفرق بين الشَّفَقَة والخَشْيَة:

قال أبو هلال: (إنَّ الشَّفَقَة ضرب من الرِّقَّة وضعف القلب، ينال الإنسان، ومِنْ ثمَّ يُقال للأمِّ: أنَّها تُشْفِق على ولدها، أي: تَرِقُّ له، وليست هي من الخَشْيَة والخوف في شيء، والشَّاهد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧]، ولو كانت الخَشْيَة هي الشَّفَقَة، لما حَسُن أن يقول ذلك، كما لا يَحْسُن أن يقول: يَخْشَون من خَشْيَة ربِّهم. ومن هذا الأصل قولهم: ثوبٌ شَفَقٌ، إذا كان رقيقًا،...، فقولك: أَشْفَقت من كذا، معناه: ضَعُف قلبي عن احتماله)[١].

• الفرق بين الشَّفَقَة والرِّقَّة:

قال أبو هلال: (إنَّه قد يرِقُّ الإنسان لمن لا يُشْفِق عليه، كالذي يَئِد المَوْؤُدَة[٢]، فيرَقُّ لها -لا محالة-؛ لأنَّ طبع الإنسانيَّة يوجب ذلك، ولا يُشْفِق عليها، لأنَّه لو أَشْفَق عليها ما وَأَدَها)[٣].

التَّرغيب في الشَّفَقَة:

- عن ابن عمر رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومَن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه كربةً مِن كربات يوم القيامة،

---

(١) ((الفروق اللغوية)) (ص ٣٠٠).

(٢) المَوْؤُدَة: وأد ابنته يئدها وأدًا، فهي موءودة، أي دفنها في القبر وهى حية. ((الصحاح)) للجوهري (٥٤٦/٢).

(٣) ((الفروق اللغوية)) (ص ٣٠٠).

ومَن ستر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة))[١].

ورواه التِّرمذي بلفظ آخر وقال في تبويبه له: (ما جاء في شَفَقَة المسلم على المسلم)[٢].

- وعن النُّعمان بن بَشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى))[٣].

قال ابن حبان: (وفيه مَثَّل النَّبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بما يجب أن يكونوا عليه من الشَّفَقَة والرَّأفة)[٤].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا أمَّ أحدكم النَّاس فليُخَفِّف؛ فإنَّ فيهم الصَّغير والكبير والضَّعيف والمريض، فإذا صلَّى وحْدَه، فليصل كيف شاء))[٥].

قال ابن عثيمين: (ومن الشَّفَقَة والرَّحمة بالمؤمنين: أنَّه إذا كان الإنسان إمامًا لهم، فإنَّه لا ينبغي له أن يُطِيل عليهم في الصَّلاة... والمراد بالتَّخفيف: ما وافق سُنَّة النَّبي صلى الله عليه وسلم، هذا هو التَّخفيف، وليس المراد بالتَّخفيف ما وَافَق أهواء النَّاس)[٦].

- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: لما جاءِ نعي جعفر، قال

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) ((سنن الترمذي)) (٤/٣٢٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظ له.

(٤) انظر: ((صحيح ابن حبان)) (١/٤٩٦).

(٥) رواه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

(٦) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٥٥٥).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم ما يشغلهم، أو أمر يشغلهم))[(١)].

قال وليُّ الله الدَّهْلوي: (هذا نهاية الشَّفَقَة بأهل المصيبة، وحفظهم من أن يتضوَّروا بالجوع)[(٢)].

أقوال السَّلف والعلماء في الشَّفَقَة:

- عن أسلم (أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه استعمل مولى له -يُدْعى هُنَيًّا- على الحِمَى[(٣)]، فقال: يا هُني، اضْمُم جناحك عن المسلمين، واتَّق دعوة المظلوم؛ فإنَّ دعوة المظلوم مستجابة)[(٤)].

قال العيني: (قوله: اضْمُم جناحك، ضَمُّ الجَنَاح: كناية عن الرَّحمة والشَّفَقَة، وحاصل المعنى: كُفَّ يدك عن ظلم المسلمين)[(٥)].

- عن عبد الملك بن حميد، قال: كنَّا مع عبد الملك بن صالح بدمشق، فأصاب كتابًا في ديوان دمشق: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من عبد الله بن عبَّاس، إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، فإنِّي أحمد إليك الله، الذي لا

(١) رواه أبو داود (٣١٣٢)، والترمذي (٩٩٨)، وابن ماجه (١٣١٦) واللَّفظ له، وأحمد (١/٢٠٥) (١٧٥١). قال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه البغوي في ((شرح السنة)) (٣/٣٠٠)، وحسن إسناده ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/٢٤٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٣١٦).

(٢) ((حجة الله البالغة)) للدهلوي (١/٤٨٧).

(٣) الحِمَى: أحميت المكان فهو محمي إذا جعلته حمى. وهذا شيء حمى: أي محظور لا يقرب، وحميته حماية إذا دفعت عنه ومنعت منه من يقربه. ((النهاية في غريب الأثر)) لابن الأثير (١/١٠٥٥).

(٤) رواه البخاري (٣٠٥٩).

(٥) ((عمدة القاري)) للعيني (١٤/٣٠٤).

إله إلا هو، عصمنا الله وإيَّاك بالتَّقوى... أمَّا بعد، فإنَّك من ذوي النُّهى من قريش، وأهل الحلم والخُلُق الجميل منها، فليَصْدر رأيك بما فيه النَّظر لنفسك، والتَّقيَّة على دينك، والشَّفَقَة على الإسلام وأهله، فإنَّه خير لك، وأوفر لحظِّك في دنياك وآخرتك)[١].

- قال الجنيد -عندما سُئل عن الشَّفَقَة على الخَلْق ما هي؟-: (تعطيهم من نفسك ما يطلبون، ولا [تحمِّلهم ما لا] يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون)[٢].

- وقال أبو الخير: (القلوب ظُرُوف، فقلب مملوء إيمانًا، فعلامته الشَّفَقَة على جميع المسلمين، والاهتمام بما يهمُّهم، ومعاونتهم على أن يعود صلاحه إليهم. وقلب مملوء نفاقًا، فعلامته الحقد والغلُّ والغشُّ والحسد)[٣].

قال المناوي: (الشَّفَقَة تَحَنُّن الرَّأفة، والإكباب على من يُشفِق عليه، وإنَّما يصير مُنكبًّا بشدَّة الرَّأفة، فإذا كانت الشَّفَقَة بغير مِعَةٍ -مشتقَّة من أمعاء البطن- انتشرت فأفسدت، وإذا كانت في مِعَةٍ، كانت في حصن، فلم تنتشر، ولم تَفْسَد؛ لأنَّ هنا حدًّا يحويها)[٤].

فوائد الشَّفَقَة:

١- أنَّ المتَحَلِّي بها يتحلَّى بخُلُق تحلَّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- أنَّ أهلها مخصوصون برحمة الله، جزاءً لشَفَقَتهم ورحمتهم بخَلْقه.

٣- أنَّ من ثمارها: محبَّة الله للعبد، ومن ثمَّ محبَّة النَّاس له.

---

(١) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٢٧/٤١٥).

(٢) رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٢٦٤) (٨٠٩٢).

(٣) ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٦٦/١٦١).

(٤) ((فيض القدير)) للمناوي (٢/٥٢٩).

٤- أنَّها ركيزة عظيمة ينبني عليها مجتمع مسلم متماسك، يعطف بعضه على بعض، ويُشفق بعضه على بعض.

٥- أنَّها مظهر من مظاهر العِشْرة الطَّيِّبة، قال محمَّد الغزي: (ومنها: أن تكون الشَّفَقَة على الأخ الموافق أكثر من الشَّفَقَة على الولد. قال أبو زائدة: كتب الأحنف إلى صديق له: أمَّا بعد، فإذا قدم أخ لك موافق، فليكن منك بمنزلة السَّمع والبصر؛ فإنَّ الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف. ألم تسمع قول الله عزَّ وجلَّ لنوح -عليه السَّلام- في ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦])[١].

٦- من أعظم فوائدها: أنَّها خُلق مُتعدٍّ إلى جميع خَلْق الله: من إنسان أو حيوان، بعيدٍ أو قريبٍ، مسلمٍ أو غير مسلمٍ.

٧- أنَّها سبب للالتفات إلى ضَعفة المجتمع من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والكبار والعَجَزة.

وغير ذلك من الفوائد العظيمة..

الشفقة المذمومة:

الشَّفَقَة المذمومة: وهو ما يحصل بسببها تعطيل لشرع الله، أو تهاون في تطبيق حدوده وأوامره، كمن يُشْفِق على من ارتكب جُرمًا يستحق به حدًّا، فيحاول إقالته والعفو عنه، ويحسب أنَّ ذلك من الشَّفَقَة على الخَلق، وهو ليس منها في شيء.

قال الحسن: (إن منعته أُمُّه عن العشاء في الجماعة -شفقةً- لم يُطِعها)[٢].

---

(١) ((آداب العشْرة)) لمحمد الغزي (ص ٥٢).

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل حديث (٦٤٤). وينظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٢٧٥/٢).

قال العيني: (يعني: إن منعت الرَّجل أُمُّه عن الحضور إلى صلاة العشاء مع الجماعة شَفَقَة عليه، أي: لأجل الشَّفَقَة. لم يُطِع أمَّه فيه.. مع أنَّ طاعة الوالدين فرض في غير المعصية، وإنَّما عيَّن العشاء، مع أنَّ الحُكم في كلِّ الصَّلوات سواء؛ لكونها من أثقل الصَّلاة على المنافقين... وإنَّما عيَّن الأمَّ مع أنَّ الأب كذلك في وجوب طاعتهما؛ لأنَّ الأمَّ أكثر شَفَقَة من الأب على الأولاد)[1].

وعن عامر بن سعد، أنَّ أسامة بن زيد رضي الله عنه أخبر والده سعد بن أبي وقاص: ((أنَّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنِّي أَعْزِل عن امرأتي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِمَ تفعل ذلك؟ فقال الرَّجل: أُشفِق على ولدها، أو على أولادها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كان ذلك ضارًّا، ضرَّ فارس والرُّوم)). وقال زهير في روايته: (إن كان لذلك فلا، ما ضارَّ ذلك فارس ولا الرُّوم)[2].

أو كمن يُشْفِق على الطُّلَّاب فيتركهم يغشُّون في الامتحان شَفَقَة منه عليهم أن يرسبوا.

أو كمن يَقتل من الأطباء -بدافع الشَّفَقَة- مرضاهم الذين لا يُرجى شفاؤهم، ويتألَّمون من مرضهم.. فكلُّ هذا ممَّا لا تجوز فيه الشَّفَقَة.

درجات الشَّفَقَة:

للشَّفَقَة ثلاث درجات، كما ذكر الإمام الهروي في كتابه ((منازل السائرين)):

---

(١) ((عمدة القاري)) (٥/١٥٩).

(٢) رواه مسلم (١٤٤٣).

(**الدَّرجة الأولى**: إشْفَاق على النَّفس أن تَجْمَح إلى العِناد، وإشْفَاق على العمل أن يصير إلى الضَّياع، وإشْفَاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها)[١].

قال ابن القيِّم في شرحه للدَّرجة: (إشْفَاق على النَّفس أن تَجْمَح إلى العِناد: أي: تُسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبوديَّة. وإشْفَاق على العمل أن يصير إلى الضَّياع: أي: يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان:٢٣] وهي الأعمال التي كانت لغير الله، وعلى غير أمره وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويخاف -أيضًا- أن يَضِيع عمله في المستقبل، إمَّا بتركه، وإمَّا بمعاصي تفرِّقه وتُحبِطه، فيذهب ضائعًا... قال: وإشْفَاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها: هذا قد يوهم نوع تناقض، فإنَّه كيف يُشفِق مع معرفة العُذر؟! وليس بمتناقض، فإنَّ الإشْفَاق -كما تقدَّم- خوف مقرون برحمة، فيُشفِق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنَّهي، مع نوع رحمة، بملاحظة جَرَيان القدر عليهم)[٢].

(**الدَّرجة الثَّانية**: إشْفَاقٌ على الوقت أن يشوبه تفرُّقٌ، وعلى القلب أن يزاحمه عارض، وعلى اليقين أن يُداخله سبب)[٣].

قال ابن القيِّم: (الدَّرجة الثَّانية: إشْفَاق على الوقت أن يشوبه تفرُّق، أي: يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرِّقه عن الحضور مع الله عزَّ وجلَّ. قال: وعلى القلب أن يزاحمه عارض، والعارض المزاحم: إمَّا فَتْرة، وإما شُبْهة، وإمَّا شهوة، وكلُّ سبب يعوق السَّالك. قال: وعلى اليقين أن يُداخله سبب، هو الطُّمأنينة

---

(١) ((منازل السائرين)) (ص ٢٨).
(٢) ((مدارج السالكين)) (١/٥١٤).
(٣) ((منازل السائرين)) لأبي إسماعيل الهروي (ص ٢٨).

إلى من بيده الأسباب كلِّها، فمتى داخل يقينه ركونٌ إلى سبب وتعلُّق به، واطمأنَّ إليه، قدح ذلك في يقينه، وليس المراد قطع الأسباب عن أن تكون أسبابًا، والإعراض عنها، فإنَّ هذا زندقة وكُفر ومُحَال... ولكن الذي يريد أن يُحْذَر منه: إضافة يقينه إلى سبب غير الله، ولا يتعلَّق بالأسباب، بل يَفْنَى بالمسبِّب عنها)[١].

(**الدَّرجة الثَّالثة:** إشْفَاق يصون سعيه من العُجب، ويكُفُّ صاحبه عن مخاصمة الخَلْق، ويحمل المريد على حفظ الجِدِّ)[٢].

قال ابن القيِّم: (الدَّرجة الثَّالثة: إشْفَاقٌ يصون سعيه عن العُجب، ويكُفُّ صاحبه عن مخاصمة الخَلْق، ويحمل المريد على حفظ الجِدِّ. الأوَّل: يتعلَّق بالعمل، والثَّاني: بالخَلْق، والثَّالث: بالإرادة، وكلٌّ منها له ما يُفسده. فالعُجب: يُفسد العمل، كما يُفسده الرِّياء، فيُشفِق على سعيه من هذا المفْسِد شَفَقَةً تصونه عنه. والمخاصمة للخَلْق مُفْسِدة للخُلُق، فيُشفِق على خُلُقه من هذا المفْسِد شَفَقَةً تصونه عنه. والإرادة يُفْسِدها عدم الجِدِّ، وهو الهزل واللَّعب، فيُشْفق على إرادته مما يُفسدها. فإذا صحَّ له عمله وخُلُقه وإرادته، استقام سلوكه وقلبه وحاله)[٣].

صور الشَّفَقَة:

أ- شَفَقَة الإمام على المأمومين، وتجنُّب ما يشق عليهم:

١- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ((أَعْتم[٤] النَّبي صلى الله عليه

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/٥١٤-٥١٥).

(٢) ((منازل السائرين)) لأبي إسماعيل الهروي (ص ٢٨).

(٣) ((مدارج السالكين)) (١/٥١٥-٥١٦).

(٤) أَعْتم: دخل في وقت العتمة. ((فتح الباري)) (٢/٤٦).

وسلم ذات ليلة، حتى ذهب عامَّة اللَّيل، وحتى نام أهل المسجد، ثمَّ خرج فصلَّى، فقال: إنَّه لوقتها لولا أن أشقَّ على أمَّتي))[1].

٢- عن أبي هريرة أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا أمَّ أحدكم النَّاس فليُخفِّف؛ فإنَّ فيهم الصَّغير والكبير والضَّعيف والمريض، فإذا صلَّى وحده فليصل كيف شاء))[2].

ب- الشَّفَقة على الأبناء، والعطف عليهم، والحُزن إذا أصابهم مكروه:

١- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: ((قَدِم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكنَّا -والله- ما نُقبِّل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأملك إن كان الله نزع منكم الرَّحمة))، وقال ابن نمير: ((من قلبك الرَّحمة))[3]. قال ابن عثيمين: (وفي هذا دليلٌ على تقبيل الصِّبيان شَفَقَة عليهم ورقَّة لهم ورحمة بهم)[4].

٢- وعن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: ((أرْسَلت ابنة النَّبي صلى الله عليه وسلم إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِض فائتنا. فأرسل يقرئ السَّلام، ويقول: إنَّ لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمًّى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينَّها، فقام، ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفِع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصَّبي ونَفْسُه تتقَعْقَع[5] - قال: حسبته أنَّه قال: كأنَّها

---

(١) رواه مسلم (٦٣٨).

(٢) رواه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) واللَّفظ له.

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧) واللَّفظ له.

(٤) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٥٥٤).

(٥) تتقَعْقَع: تتحرك وتضطرب بصوت. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٧٥).

شَنٌّ[1] – ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء))[2].

٣- عن شدَّاد بن الهاد رضي الله عنه قال: ((خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حسنًا أو حسينًا، فتقدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه، ثمَّ كبَّر للصَّلاة، فصلَّى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي، وإذا الصَّبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلمَّا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصَّلاة، قال النَّاس: يا رسول الله، إنَّك سجدتَّ بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها، حتى ظننَّا أنَّه قد حدث أمر، أو أنَّه يُوحى إليك. قال: كلُّ ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتَحَلَني، فكرهت أن أُعْجِلَه حتى يقضي حاجته))[3].

فالنَّبي صلى الله عليه وسلم يركب الطِّفل على ظهره الشَّريف وهو ساجد، ولا يقوم من سجوده، ليُكمل الطِّفل لعبه، حتى لا يزعجه، رحمةً به، وشَفَقَةً عليه.

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذِّئب، فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنَّما ذهب بابنك. وقالت الأخرى: إنَّما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكُبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال:

---

(١) الشَنّ: القربة الخلقة اليابسة. ((فتح الباري)) (١٥٧/٣).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٤) واللَّفظ له، ومسلم (٩٢٣).

(٣) رواه النسائي (٢٢٩/٢)، وأحمد (٤٩٣/٣) (١٦٠٧٦). احتج به ابن حزم في ((المحلى)) (٩٠/٣)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٢٢٩/٢)، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٤٧٥).

ائتوني بالسِّكين، أشقُّه بينهما. فقالت الصُّغرى: لا تفعل -يرحمك الله-، هو ابنها. فقضى به للصُّغرى)).[1].

قال ابن القيِّم: (ولم يكن سليمان ليفعل، ولكن أوهمهما ذلك، فطابت نفس الكبرى بذلك. استرواحًا منها إلى راحة التَّسلِّي، والتَّأسِّي بذهاب ابن الأخرى. كما ذهب ابنها، ولم تطِبْ نفس الصُّغرى بذلك، بل أدركتها شَفَقَة الأمِّ، ورحمتها، فناشدته أن لا يفعل، استرواحًا إلى بقاءِ الولد، ومشاهدته حيًّا، وإن اتَّصل إلى الأخرى)[2].

٦- عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: ((بينما هو يقرأ من اللَّيل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ، فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثمَّ قرأ، فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فأشْفَق أن تصيبه، فلما اجْتَرَّه، رفع رأسه إلى السَّماء حتى ما يراها، فلما أصبح، حدَّث النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير. قال: فأشْفَقت -يا رسول الله- أن تطأ يحيى...))[3].

الشَّفَقَة على النِّساء:

عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- قالت: (تزوَّجني الزُّبير، وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء، غير نَاضِح[4] وغير فرسه، فكنت

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢٧) واللَّفظ له، ومسلم (١٧٢٠).

(٢) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/٦٧).

(٣) رواه البخاري (٥٠١٨).

(٤) نَاضِح: الناضح البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقي عليه. ((فتح الباري)) (٣/٦٠٤).

أَعْلِف فرسه، وأستقي الماء، وأَخْرِز غَرْبَه[١] وأعجن، ولم أكن أُحْسِن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكنَّ نِسْوة صِدْقٍ، وكنت أَنْقُل النَّوَى من أرض الزُّبير -التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي منِّي على ثُلُثي فَرْسخ، فجئت يومًا والنَّوَى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار، فدعاني، ثمَّ قال: إخ إخ. ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرِّجال...)[٢].

قال النَّووي: (وفيه ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشَّفَقَة على المؤمنين والمؤمنات، ورحمتهم ومواساتهم فيما أمكنه)[٣].

الوسائل المعينة على اكتساب الشَّفَقَة:

١- عدم الشِّبَع:

قال أبو سليمان الدَّاراني: (من شَبِع دخل عليه ستُّ آفات: فَقَد حلاوة المنَاجاة، وتعذَّر حفظ الحِكْمة، وحرمان الشَّفَقَة على الخَلْق؛ لأنَّه إذا شَبِع، ظنَّ أنَّ الخَلْق كلَّهم شِبَاعٌ، وثُقْل العبادة، وزيادة الشَّهوات، وأنَّ سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشِّباع يدورون حول المزابل)[٤].

٢- عدم الحسد:

قال أبو عبد الرَّحمن السُّلمي: (الحسد عدوُّ نعمة الله، وإنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تحاسدوا))[٥]، وحسد المسلمين من قلَّة الشَّفَقَة عليهم.

---

(١) غَرْبَه: هو الدلو. ((فتح الباري)) (٩/٣٢٣).
(٢) رواه البخاري (٥٢٢٤) واللَّفظ له، ومسلم (٢١٨٢).
(٣) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٤/١٦٦).
(٤) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/٨٧).
(٥) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٣- الاختلاط بالضُّعفاء والمساكين وذوي الحاجة:

فإنَّه ممَّا يُرَقِّق القلب، ويدعو إلى الرَّحمة والشَّفَقَة بهؤلاء وغيرهم.

٤- مَسْحُ رأس اليتيم:

((عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلًا شكا إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قسوةَ قلبِه فقال امسَحْ رأسَ اليتيمِ وأطعِمِ المسكينَ))[١].

نماذج للشَّفَقَة:

- **نماذج من الأنبياء والمرسلين:**

كان الأنبياء -صلوات الله عليهم- يحرصون في التعامل مع أقوامهم على الرَّحمة بهم والشَّفَقَة عليهم، فكانوا يُشْفِقون عليهم بالرَّغم من إيذاء قومهم لهم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كأنِّي أنظر إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه فأَدْمَوه[٢]، فهو يمسح الدَّم عن وجهه، ويقول: ربِّ اغفر لقومي، فإنَّهم لا يعلمون)[٣].

قال النَّووي: (فيه ما كانوا عليه -صلوات الله وسلامه عليهم- من الحلم والتَّصبُّر والعفو والشَّفَقَة على قومهم، ودعائهم لهم بالهداية والغُفران، وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم: بأنَّهم لا يعلمون. وهذا النَّبي المشار إليه من

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٨٧) (٩٠٠٦).

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٣١٦)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٦٣): رجاله رجال الصحيح، وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/٤٨٦): سنده منقطع، وقال الألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٤٩٣٠): روي بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح، والآخر فيه رجل لم يسم، وقال الوادعي في ((أحاديث معلة)) (٤١٩): سنده رجال الصحيح ، ولكنه منقطع.

(٢) أَدْمَوه: جعلوه صاحب دم خارج من رأسه. ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٨/٣٣٣٠).

(٣) رواه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

المتقدِّمين، وقد جرى لنبينا صلى الله عليه وسلم مثل هذا يوم أحد)[1].

نوح عليه السَّلام:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

قال السعدي: (لعلَّه -عليه الصَّلاة والسَّلام- حملته الشَّفقَة، وأنَّ الله وعده بنجاة أهله، ظنَّ أنَّ الوعد لعمومهم: مَنْ آمن، ومَنْ لم يؤمن، فلذلك دعا ربَّه بذلك الدُّعاء، ومع هذا، ففوَّض الأمر لحكمة الله البالغة)[2].

إبراهيم عليه السَّلام:

كان نبيُّ الله إبراهيم -عليه السَّلام- شَفِيقًا على النَّاس، وكان يجادل عن قوم لوط، حتى لا يأتيهم العذاب، وذلك لغلبة الشَّفقَة عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

قال ابن عجيبة: (ظاهر قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أنَّ مجادلته كانت عن قومه فقط، لغلبة الشَّفَقَة عليه، كما هو شأنه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، حتى قال له تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ﴾ لمَّا تَحَتَّمَ عليهم العذاب)[3].

---

(١) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٢/١٥٠).

(٢) ((تفسير السعدي)) (ص ٣٨٢).

(٣) ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/٣٠٠-٣٠١).

وقال أيضًا: (والحاصل أنَّ إبراهيم -عليه السَّلام- حملته الشَّفَقَة والرَّحمة، حتى صدر، منه ما صدر مع خُلَّته واصطفائيَّته، فالشَّفَقَة والرَّحمة من شأن الصَّالحين والعارفين المقرَّبين، غير أنَّ العارفين بالله -مع مراد مولاهم- يُشْفِقون على عباد الله، ما لم يتعيَّن مراد الله، فالله أرحم بعباده من غيره. ولذلك قال لخليله، لمَّا تعيَّن قضاؤه: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ ﴾)[1].

نماذج من شَفَقَة النَّبي صلى الله عليه وسلم:

١- شَفَقَة النَّبي صلى الله عليه وسلم على أمَّته:

كان صلى الله عليه وسلم شَفِيقًا على أمَّته، رحيمًا بهم، وشَفَقَته ورحمته لم تكن خاصَّة بالمؤمنين، بل كان يُشْفِق على الكافرين ممَّن لا يدين بدين الإسلام. ونشير هنا إلى بعض النَّماذج التي هي من أقواله وسيرته، فصلوات ربِّي وسلامه عليه:

- عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشَّفاعة: ((أمَّتي أمَّتي))[2].

قال الفارسي أبو الحسين: (انظر هل وصف الله عزَّ وجلَّ أحدًا من عباده بهذا الوصف من الشَّفَقَة والرَّحمة التي وَصَف بها حبيبَه صلى الله عليه وسلم ، ألا تراه في القيامة إذا اشتغل النَّاس بأنفسهم كيف يَدَع حَدَث نفسه، ويقول: (أمَّتي أمَّتي)، يرجع إلى الشَّفَقَة عليهم، ويقول: إنِّي أسلمت نفسي إليك،

---

(١) ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٢/٥٤٤).

(٢) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

فافعل بي ما شئت، ولا تردَّني في شفاعتي في عبادك)[١].

٢- شَفَقَة النَّبي صلى الله عليه وسلم على الكفَّار:

عن عائشة -رضي الله عنها- زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّها قالت للنَّبي صلى الله عليه وسلم: ((هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العَقَبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالِيلَ بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت. وأنا مهموم على وجهي، فلم أَسْتَفق إلَّا وأنا بِقَرْن الثَّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني مَلَك الجبال فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين. فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا))[٢].

قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث بيان شَفَقَة النَّبي صلى الله عليه وسلم على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧])[٣].

---

(١) ((شعب الإيمان)) للبيهقي (٢/١٦٣).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٣) ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/٣١٦).

٣- شَفَقَة النَّبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه:

- قال صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك: (أَبْشِر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك. قال: قلت أمن عندك -يا رسول الله- أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله)[١].

قال ابن القيِّم: (وفي سرور رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشَّفَقَة على الأمَّة، والرَّحمة بهم والرَّأفة، حتى لعلَّ فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه)[٢].

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: ((حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطَّائف، فلم ينل منهم شيئًا. فقال: إنَّا قافلون[٣]، إن شاء الله. قال أصحابه: نرجع ولم نفتتحه! فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اغدوا على القتال. فغدوا عليه، فأصابهم جِراح. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّا قافلون غدًا. قال: فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم))[٤].

قال النَّووي: (معنى الحديث أنَّه صلى الله عليه وسلم قصد الشَّفَقَة على أصحابه والرِّفق بهم بالرَّحيل عن الطَّائف؛ لصعوبة أمره، وشِدَّة الكفَّار الذين فيه، وتقويتهم بحصنهم، مع أنَّه صلى الله عليه وسلم علم أو رجا أنَّه سيفتحه بعد هذا بلا مشقَّة كما جرى...)[٥].

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) ((زاد المعاد)) (٣/٥٨٥).

(٣) قافلون: أصله الرجوع ومنه مقفله من خيبر ولا تسمى قافلة إلا إذا رجعت وقد يطلق في الابتداء عليها تفاؤلا. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٧٥).

(٤) رواه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) واللَّفظ له.

(٥) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٢/١٢٤).

- عن أبي هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّما أنا لكم مثل الوالد أعلِّمكم...))[١].

قال علي القاري: ((إنَّما أنا لكم مثل الوالد) أي: ما أنا لكم إلا مثل الوالد في الشَّفَقَة لولده، (أعلِّمكم) أي: أمور دينكم)[٢].

٤- شَفَقَة النَّبي صلى الله عليه وسلم على الأطفال:

- عن شدَّاد بن الهاد رضي الله عنه قال: ((خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حسنًا أو حسينًا، فتقدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه، ثمَّ كبَّر للصَّلاة، فصلَّى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي، وإذا الصَّبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلمَّا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصَّلاة، قال النَّاس: يا رسول الله، إنَّك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها، حتى ظننَّا أنَّه قد حدث أمر، أو أنَّه يُوحَى إليك. قال: كلُّ ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتَحَلَني[٣] فكرهت أن أُعْجِلَه حتى يقضي حاجته))[٤].

---

(١) رواه النسائي (١/٣٨)، وابن ماجه (٢٥٦)، وأحمد (٢/٢٥٠) (٧٤٠٣)، والدارمي (١/١٨٢). صحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (١/٢٧٢)، والنَّووي في ((المجموع)) (٢/٩٥)، وصحَّح إسناده ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/٢٩٧) وقال: وأصله في مسلم. و صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١/٣٨).

(٢) ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (١/٣٨٠).

(٣) ارتَحَلَني: أي جعلني كالراحلة فركب على ظهري. ((النهاية في غريب الأثر)) لابن الأثير (٢/٥٠٣).

(٤) رواه النسائي (٢/٢٢٩)، وأحمد (٣/٤٩٣) (١٦٠٧٦). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٢/٢٢٩)، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٤٧٥).

- عن أبي قتادة رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلِّي وهو حامل أُمَامَة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي العاص ابن الرَّبيع، فإذا قام حملها، وإذا سجد وضعها؟ قال يحيى: قال مالك: نعم)[١].

فمن رحمته صلى الله عليه وسلم وشَفَقَته بأُمَامَة أنَّه كان إذا ركع أو سجد يخشى عليها أن تسقط، فيضعها على الأرض.

قال النَّووي: (وفيه ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشَّفَقَة على المؤمنين والمؤمنات، ورحمتهم ومواساتهم فيما أمكنه)[٢].

نماذج من شَفَقَة الصَّحابة:

١- أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

- عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: ((كنت جالسًا عند النَّبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: أما صاحبكم فقد غامر[٣]. فسلَّم، وقال: إنِّي كان بيني وبين ابن الخطَّاب شيء، فأسرعت إليه ثمَّ ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ، فأقبلت إليك. فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر. ثلاثًا، ثمَّ إنَّ عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فسلَّم، فجعل وجه النَّبي صلى الله عليه وسلم يتمعَّر[٤]، حتى

---

(١) رواه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) واللَّفظ له.

(٢) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٦٦/١٤).

(٣) غامر: أي خاصم، والمعنى دخل في غمرة الخصومة، والغامر الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره. وقيل هو من الغمر بكسر المعجمة وهو الحقد، أي صنع أمرا اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ويحقد الآخر عليه. ((فتح الباري)) لابن حجر (٢٥/٧).

(٤) يتمعَّر: أي تذهب نضارته من الغضب، وأصله من العر وهو الجرب، يقال: أمعر المكان إذا أجرب. ((فتح الباري)) لابن حجر (٢٥/٧).

أشْفَق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم. مرَّتين، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كَذَبْت. وقال أبو بكر: صَدَق. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ مرَّتين، فما أُوذي بعدها))[١].

قال العيني: ((حتى أشْفَق أبو بكر)) أي: حتى خاف أبو بكر أن يكون من رسول الله إلى عمر ما يكره)[٢].

٢- عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

- عن الأصمعي، قال: (كلَّم النَّاس عبد الرَّحمن بن عوف أن يكلِّم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في أن يلين لهم؛ فإنَّه قد أخاف الأبكار في خدورهنَّ[٣]؛ فكلَّمه عبد الرَّحمن، فالتفت عمر إلى عبد الرَّحمن -رضي الله عنهما- فقال له: يا عبد الرَّحمن! إنِّي لا أجد لهم إلَّا ذلك، والله لو أنَّهم يعلمون ما لهم عندي من الرَّأفة والرَّحمة والشَّفَقَة؛ لأخذوا ثوبي عن عاتقي)[٤].

نماذج من العلماء:

- **محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زُرعة:**

محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زُرعة ابن أبي زُرعة بن إبراهيم الثَّقفي.

قال ابن عساكر: ولي قضاء مصر في سنة أربع وثمانين ومائتين، في إمارة خمارويه.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦١).

(٢) ((عمدة القاري)) (١٨٠/١٦).

(٣) خدورهنَّ: الخدر ستر يكون للجارية البكر في ناحية البيت، وقيل: الخدور البيوت. ((فتح الباري)) لابن حجر (١١٠/١).

(٤) رواه ابن قتيبة في ((المجالسة وجواهر العلم)) (٤٣/٤).

كان كثير الشَّفَقَة، رقيق القلب، يَغْرَم عن الفقراء والمستورين إذا أفلسوا، حتى كان بعضهم إذا أراد أن يتنزَّه، أخذ بيد رفيقه فادَّعى عليه عند القاضي، فيعترف ويبكي، ويدَّعي أنَّه لا يقدر على وفائه، ويسأل خصمه فيه، فلا يجيبه، فيغرم عنه.

وحكى بعض الشَّاميين أنَّه حصلت له إضاقة[1]، فقال لبعض أصدقائه: قدِّمني إلى القاضي فلعلَّه يعطيك عني شيئًا أنتفع به. ففعلت، وقلت: أيَّد الله القاضي: لي على هذا الرَّجل ستون درهمًا صحاحًا. فقال: ما تقول؟ فأقرَّ. فقال: أعطه حقَّه، فبكى، وقال: ما معي شيء. فقال لي: إن رأيت أن تنظره؟ فقلت: لا. قال: فصالحه. فقلت: لا. فقال إنَّك لقيط، فما الذي تريد؟ قلت: السِّجن. فقال: لا تفعل. فأدخل يده تحت مصلَّاه، فأخرج دراهم، فعدَّ لي ستين درهمًا، فدفعتها للرَّجل، وآليت أن لا أفعل ذلك بعدها[2].

الأمثال في الشَّفَقَة:

- الشَّفيق بسوء ظنٍّ مولع.

(يراد أنَّ ذا الشَّفَقَة يضع سوء الظَّنِّ في غير موضعه)[3].

- ما هذا الشَّفَقُ الطَّارِفُ حُبى.

(الشَّفَق: الشَّفَقَة، والطَّارف: الحادث، وحُبى: اسم امرأة)[4].

---

(١) إضاقة: أضاقه إضاقة، وضيقه تضييقًا فهو ضيق، والضيق ضد السعة. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٦/٤٥-٤٦).

(٢) ((رفع الإصر عن قضاة مصر)) لابن حجر العسقلاني (ص ٣٩١).

(٣) ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (١/٥٥٥).

(٤) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (٢/٢٨٦).

- أشْفَق من أمٍّ على ولد[١].

الشَّفَقَة في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

وصاحبٌ كان لي وكنتُ له   أَشْفَقَ مِن والدٍ على ولدِ
كنَّا كساقٍ تسعَى بها قَدَمٌ   أو كذراعٍ نِيطَت[٢] إلى عَضُدِ[٣]

وقال الشاعر:

قد كنت أُشْفِق مما قد فُجِعت به   إن كان يدفعُ عن ذي اللَّوعة الشَّفقُ[٤]

وقال جرير:

يُسِرُّ لك البَغْضَاءَ كلُّ مُنَافِقٍ   كما كلُّ ذِي دِينٍ عليك شَفِيقُ[٥]

قال ابن هرمة:

وموعظةُ الشَّفِيقِ تكونُ داءً   إذا خالفْتَ موعظةَ الشَّفِيقِ[٦]

وقال الشَّاعر:

رُبَّ رَحيمٍ مُشْفِقٍ مُتعطِّفٍ   لا يَنتَهي بالحَصْر ما أَعطاه
كَمْ نعمةٍ أَولى وَكَمْ من كُرْبةٍ   أَجلى وَكَمْ من مُبتَلى عافاه[٧]

---

(١) ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (١/٥٣٨).

(٢) نيطت: ناطه نوطا: علقه. وانتاط: تعلق. والأنواط: المعاليق. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص٨٩٢).

(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٣/٩٣).

(٤) ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (١/٧٢).

(٥) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/١٤١).

(٦) ((التذكرة السعدية)) لمحمد بن عبد الرحمن العبيدي (ص ٣٣٨).

(٧) ((صيد الأفكار)) لحسين المهدي (١/٤٧١).

وقال محمَّد الإخسيكائي:

ارحمْ أخيَّ عبادَ اللهِ كلَّهم وانظرْ إليهمْ بعينِ اللُّطفِ والشَّفَقَه

وَقِّرْ كبيرَهمُ وارحَمْ صغيرَهمُ وراعِ في كلِّ خلقٍ وجْهَ مَن خَلَقَه[1]

قال: أبو الحسن الربعي:

الرِّفقُ ألطفُ ما اتَّخذْتَ رفيقًا ويسوءُ ظنُّكَ أن تكون شَفِيقًا

فخُذِ المجازَ من الزَّمانِ وأهلِه ودعِ التَّعمُّقَ فيه والتَّحْقيقا[2]



(١) ((معجم الأدباء)) لياقوت الحموي (٦/ ٢٦٤٠).

(٢) ((مجمع الحكم والأمثال)) أحمد قبش (ص ١٩٤) (ص ١٩٣).



الشَّهَامَة



الشهامة

تعريف الشهامة لغةً واصطلاحًا:

- **تعريف الشهامة لغةً:**

الشهامة مصدر شهم، وهذه المادة تدلُّ على الذكاء.

والشهم: الذكي الفؤاد المتوقد، الجلد، والجمع شهام... وقد شهم الرجل، بالضم، شهامة وشهومة إذا كان ذكيًّا، فهو شهم أي جلد.

وقيل: الشهم معناه في كلام العرب: الحمول، الجيد القيام بما يحمل، الذي لا تلقاه إلا حمولًا، طيب النفس بما حمل[١].

- **معنى الشهامة اصطلاحًا:**

قال ابن مسكويه: (الشهامة هي: الحرص على الأعمال العظام توقعًا للأحدوثة الجميلة)[٢].

وقيل الشهامة هي: (الحرص على الأمور العظام؛ توقعًا للذكر الجميل عند الحقِّ والخلق)[٣].

وقيل هي: (عزة النفس وحرصها على مباشرة أمور عظيمة، تستتبع الذكر الجميل)[٤].

(١) ((كتاب العين)) للخليل بن أحمد (٣/٤٠٥)، ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) لأبي بكر الأنباري (١/١١٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٤/١٩٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٣٢٨)، ((معجم ديوان الأدب)) لأبي إبراهيم الفارابي (٢/٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/٢٢٣).

(٢) ((تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)) لابن مسكويه (ص ٣٠).

(٣) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص ٥).

(٤) ((المعجم الوسيط)) (ص ٤٩٨).

الترغيب في الشهامة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

قال ابن عطية: (استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر فأخبرتاه بخبرهما)(١).

قال الحجازي: (فثار موسى، وتحركت فيه عوامل الشهامة والرجولة، وسقى لهما، وأدلى بدلوه بين دلاء الرجال حتى شربت ماشيتهما)(٢).

- وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

قال السعدي: (ذكر سبحانه ما يقوّي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين: الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك؛ لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من

---

(١) ((المحرر الوجيز)) (٤/٢٨٣).
(٢) ((التفسير الواضح)) للحجازي محمد محمود (٢/٨٢٥).

توالت عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى)[١].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أنس رضي الله عنه، قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، قال: وقد فزع أهل المدينة ليلة سمعوا صوتًا، قال: فتلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ[٢]، وهو متقلِّد سيفه، فقال: لم تراعوا[٣]، لم تراعوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجدته بحرًا[٤]، يعني الفرس))[٥].

قال القرطبي: (في هذا الحديث ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد جمع له من جودة ركوب الخيل، والشَّجَاعَة، والشهامة، والانتهاض الغائي في الحروب، والفروسية وأهوالها، ما لم يكن عند أحد من الناس، ولذلك قال أصحابه عنه: إنه كان أشجع الناس، وأجرأ الناس في حال الباس، ولذلك قالوا: إن الشجاع منهم كان الذي يلوذ بجنابه إذا التحمت الحروب، وناهيك به؛ فإنه ما ولَّى قطُّ منهزمًا، ولا تحدث أحد عنه قط بفرار)[٦].

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((إنَّ النبي صلى الله عليه

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ١٩٩).
(٢) عُرْيٍ: أي ليس عليه سرج ولا أداة، ولا يقال في الآدميين إنما يقال عريان. ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/٧٠).
(٣) لم تراعوا: هي كلمة تقال عند تسكين الروع تأنيسًا، وإظهارًا للرفق بالمخاطب. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/٤٥٧).
(٤) بحرا: أي واسع الجري ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/٦٨).
(٥) رواه البخاري (٣٠٤٠) واللفظ له ومسلم (٢٣٠٧).
(٦) ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (٦/١٠٠).

وسلم لما رأى من الناس إدبارًا، قال: اللهم سبع كسبع يوسف[١]، فأخذتهم سنة حصت[٢] كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف[٣]، وينظر أحدهم إلى السماء، فيرى الدخان من الجوع، فأتاه أبو سفيان، فقال: يا محمد، إنك تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإنَّ قومك قد هلكوا، فادع الله لهم))[٤].

قال ابن حجر: (قوله: فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر؛ فإنها قد هلكت. إنَّما قال لمضر؛ لأن غالبهم كان بالقرب من مياه الحجاز، وكان الدعاء بالقحط على قريش وهم سكان مكة فسرى القحط إلى من حولهم، فحسن أن يطلب الدعاء لهم، ولعل السائل عدل عن التعبير بقريش؛ لئلا يذكرهم فيذكِّر بجرمهم، فقال: لمضر؛ ليندرجوا فيهم، ويشير أيضًا إلى أنَّ غير المدعو عليهم قد هلكوا بجريرتهم، وقد وقع في الرواية الأخيرة: وإن قومك هلكوا. ولا منافاة بينهما؛ لأنَّ مُضر أيضًا قومه وقد تقدم في المناقب أنه صلى الله عليه وسلم كان من مضر، قوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمضر: إنك لجريء، أي: أتأمرني أن أستسقي لمضر مع ما هم عليه من المعصية والإشراك به؟!)[٥].

---

(١) سبع كسبع يوسف: أي: اجعل سنيهم سبعًا، أو ليكن سبعًا، ويُروى سبع بالرفع، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: البلاء المطلوب عليهم سبع سنين، كالسنين السبع التي كانت في زمن يوسف، وهي السبع الشداد التي أصابهم فيها القحط، أو يكون المعنى: المدعو عليهم قحط كقحط يوسف. ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (٢٨/٧).

(٢) حصّت: حصت بحاء وصاد مشددة مهملتين أي: استأصلته. ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٤١/١٧).

(٣) الجيف: جيفة بالكسر الميت الذي أنتن وقوله: (الجيف) بالكسر وفتح الياء هو الجمع. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠١/١).

(٤) رواه البخاري (١٠٠٧) ومسلم (٢٧٩٨). واللفظ للبخاري.

(٥) ((فتح الباري)) (٥٧١/٨).

فالنبي صلى الله عليه وسلم رغم عداوة قريش وإيذائها للمؤمنين، لما جاءه أبو سفيان يطلب منه الاستسقاء لم يرفض لحسن خلقه، وشهامته، ورغبته في هدايتهم، فإنَّ الشهامة ومكارم الأخلاق مع الأعداء، لها أثر كبير في ذهاب العداوة، أو تخفيفها.

فوائد الشهامة:

١- الشهامة من مكارم الأخلاق الفاضلة.

٢- إنها من صفات الرجال العظماء.

٣- تشيع المحبة في النفوس.

٤- تزيل العداوة بين الناس.

٥- فيها حفظ الأعراض، ونشر الأمن في المجتمع.

٦- إنَّها علامة على علو الهمة، وشرف النفس.

موانع اكتساب صفة الشهامة:

١- قسوة القلب.

٢- الأنانية، وخذلان المسلمين، واللامبالاة بمعاناتهم:

إنَّ خذلان المسلم لأخيه المسلم أمر تنكره الشريعة، وإن من حق المسلم على المسلم أن لا يخذله، (وهو إن حدث ذريعة لخذلان المسلمين جميعًا حيث تنتشر عدوى الأنانية وحب الذات، وإيثار الراحة والمصلحة الخاصة على مشاركة الغير آلامهم وآمالهم، فيكثر التَّنصل من المسؤولية بين المسلمين، حتى يقضي عليهم أعداؤهم واحدًا تلو الآخر، فتموت فيهم خلال الآباء،

والشهامة، ونجدة الملهوف، وإغاثة المنكوب، وسوف يجنح المظلوم والضعيف إلى الأعداء طوعًا أو كرهًا، لما يقع به من ضيم وما يصيبه من خذلان من إخوانه ثم ينزوي بعيدًا عنهم، وتنقطع عرى الأخوة بينه وبين من خذلوه وأسلموه للأعداء)[1].

٣- الجبن والبخل:

فالشهامة إنما تقوم على الشَّجَاعَة لنجدة المحتاج، والكرم لإعانة أصحاب الحاجات، فمن فقدهما ضعفت شهامته، وماتت مروءته.

٤- الذُّل، والهوان، وضعف النفس:

فالإنسان الذليل والأمة الذليلة أبعد الناس عن النصرة، وتلبية نداء الإغاثة؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

٦- الحقد والعداوة والبغضاء.

٧- تشبه الرجال بالنساء في اللباس، كلبس الذهب والحرير:

قال ابن القيم: (حرم -الذهب- لما يورثه بملامسته للبدن من الأنوثة والتخنث، وضد الشهامة والرجولة)[2].

الوسائل المعينة على اكتساب صفة الشهامة:

١- الصبر.

قال الراغب الأصفهاني: (الصبر يزيل الجزع، ويورث الشهامة المختصة بالرجولية)[3].

---

(١) ((الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية)) لمحماس الجلعود (٢/٩٣٧).

(٢) ((زاد المعاد)) (٤/٧٣).

(٣) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص ١١٥).

٢- الشَّجَاعَة.

٣- علو الهمة وشرف النفس.

فـ(من سجايا الإسلام التحلي بكبر الهمة، مركز السالب والموجب في شخصك، الرقيب على جوارحك، كبر الهمة يجلب لك بإذن الله خيرًا غير مجذوذ؛ لترقى إلى درجات الكمال، فيجري في عروقك دم الشهامة، والركض في ميدان العلم والعمل، فلا يراك الناس واقفًا إلا على أبواب الفضائل، ولا باسطًا يديك إلا لمهمات الأمور)[1].

٤- العدل والإنصاف.

٥- مصاحبة ذوي الشهامة والنجدة.

٦- الإيمان بالقضاء والقدر.

فـ (من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: أنه يدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والقوة والشهامة؛ فالمجاهد في سبيل الله يمضي في جهاده ولا يهاب الموت؛ لأنه يعلم أن الموت لا بد منه، وأنه إذا جاء لا يؤخر؛ لا يمنع منه حصون ولا جنود، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهكذا حينما يستشعر المجاهد هذه الدفعات القوية من الإيمان بالقدر؛ يمضي في جهاده حتى يتحقق النصر على الأعداء، وتتوفر القوة للإسلام والمسلمين)[2].

---

(١) ((حلية طالب العلم)) لبكر أبو زيد (ص ١٧٣)، ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (٣/٤٠٩).

(٢) ((الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد)) لصالح الفوزان (٣٠٣ – ٣٠٤).

نماذج في الشهامة:

- **نماذج من حياة النبي صلى الله عليه وسلم:**

كان للنبي صلى الله عليه وسلم النصيب الأوفى من هذه الصفة، فكان صلوات الله وسلامه عليه ((أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، قال: وقد فزع أهل المدينة ليلة سمعوا صوتًا، قال: فتلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم على فرس لأبي طلحة عري، وهو متقلد سيفه، فقال: لم تراعوا، لم تراعوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجدته بحرًا. يعني الفرس)).

- وعن أبي إسحاق قال سأل رجل البراء رضي الله عنه، فقال يا أبا عمارة أَوَلَّيتم يوم حنين؟ قال البراء وأنا أسمع: ((أما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُوَلِّ يومئذ، كان أبو سفيان بن الحارث آخذًا بعنان بغلته، فلما غشيه المشركون نزل، فجعل يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))[1].

وغيرها من الآثار التي تدل على شهامة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

- **نماذج من الصحابة رضي الله عنهم في الشهامة:**

- عن عبد الرحمن بن عوف قال: (إنِّي لفي الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فَتَيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل. فقلت: يا ابن أخي، وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله، أو أموت دونه. فقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء)[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٢).

(٢) رواه البخاري (٣٩٨٨).

قال ابن حجر: (قوله الصقرين.. شبههما به لما اشتهر عنه من الشَّجَاعَة، والشهامة، والإقدام على الصيد، ولأنه إذا تشبث بشيء لم يفارقه حتى يأخذه)[1].

- وعن أسلم، مولى عمر قال: (خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارًا، والله ما ينضجون كراعًا، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم. فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا في الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا، وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرت لها؟ قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها، قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهمانهما فيه)[2].

- وعن سلمة بن الأكوع قال: ((بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره[3] مع رباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أنديه[4] مع الظهر، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستاقه[5] أجمع، وقتل راعيه،

---

(١) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٣٠٨/٧).

(٢) رواه البخاري (٤١٦٠).

(٣) ظهره: الظهر: الإبل التي يحمل عليها وتركب. يقال: عند فلان ظهر: أي إبل. ((النهاية في غريب الأثر)) لابن الأثير (٣٦٤/٣).

(٤) أنديه: معناه أن يورد الماشية الماء فتسقى قليلا ثم ترسل في المرعى ثم ترد الماء فترد قليلا ثم ترد إلى المرعى. ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٧٨/١٢).

(٥) استاقه: من السوق وهو السير العنيف. ((فتح الباري)) لابن حجر (٣٣٩/١).

قال: فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد أغاروا على سرحه[١]، قال: ثم قمت على أكمة[٢]، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول: أنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرُّضَّع[٣]، فألحق رجلًا منهم فأصك[٤] سهمًا في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضع قال: فوالله، ما زلت أرميهم وأعقر[٥] بهم، فإذا رجع إليَّ فارس أتيت شجرة، فجلست في أصلها، ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه، علوت الجبل فجعلت أرديهم بالحجارة، قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا، يستخفون ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا[٦] من الحجارة يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا من ثنية[٧]، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون -يعني يتغدون-

(١) السرح: أي: الإبل التي ترعي. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٣١).

(٢) أكمة: دون الجبل وأعلى من الرابية وقيل دون الرابية. ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (٦/١٩٣).

(٣) الرضع جمع رضيع أي لئيم والمعنى يوم هلاك اللئام. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٢٣).

(٤) الصك: الضرب الشديد بالشيء العريض، وقيل: هو الضرب عامة بأي شيء كان. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٤٥٦).

(٥) عقره أي: جرحه. انظر: ((المصدر السابق)) (٤/٥٩٢).

(٦) آرام جمع إرم، حجارة تنصب علما في المفازة. انظر: ((المصدر السابق)) (١٢/١٤).

(٧) الثنية من الجبل ما يحتاج في قطعه وسلوكه إلى صعود وحدور فكأنه يثني السير. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/٢٩٥).

وجلست على رأس قرن[١]، قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[٢]، والله، ما فارقنا منذ غلس[٣] يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم، لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظنُّ، قال: فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر، قال: فإذا أولهم الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي، قال: فأخذت بعنان[٤] الأخرم، قال: فولوا مدبرين، قلت: يا أخرم، احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أنَّ الجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، فلا تحُل بيني وبين الشهادة، قال: فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه ولحق أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الرحمن، فطعنه فقتله، فوالذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم، لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولا غبارهم شيئًا حتى يعدلوا قبل

---

(١) رأس قرن: هو كل جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٢/١٧٩).

(٢) البرح: الشدة والشر، والأذى والعذاب الشديد والمشقة. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/٣٠٤).

(٣) الغلس: ظلام آخر الليل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/١٥٦).

(٤) العنان، بكسر العين لجام الفرس. انظر: ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (١٤/١٧٢).

غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قرد ليشربوا منه وهم عطاش، قال: فنظروا إلي أعدو وراءهم، فخليتهم عنه -يعني أجليتهم عنه- فما ذاقوا منه قطرة، قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية[١]، قال: فأعدو فألحق رجلاً منهم، فأصكه بسهم في نغض[٢] كتفه، قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَّع. قال: يا ثكلته أمه، أكوعُه بُكرة؟[٣] قال: قلت: نعم يا عدو نفسه، أكوعك بكرة، قال: وأردوا[٤] فرسين على ثنية، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ولحقني عامر بسطيحة[٥] فيها مذقة[٦] من لبن، وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الماء الذي حلأتهم[٧] عنه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كبدها وسنامها، قال: قلت: يا رسول الله، خلني فأنتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا

(١) الثنية من الجبل ما يحتاج في قطعه وسلوكه إلى صعود وحدور فكأنه يثني السير. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩٥/٣٧).

(٢) النغض: العظم الدقيق الذي على طرف الكتف أو على أعلى الكتف. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢٧٦/٣).

(٣) البكرة: الغدوة. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٣٦/١٠).

(٤) أردوا فرسين: أهلكوهما وأتعبوهما حتى أسقطوهما. تركوهما. انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨١/١٢).

(٥) السطيحة: من أواني المياه. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٧٢/٦).

(٦) المذقة: الطائفة من اللبن. انظر: ((المصدر السابق)) (٣٨٢/٢٦).

(٧) حلأتهم أي طردتهم. انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨١/١٢).

قتلته، قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: يا سلمة، أتراك كنت فاعلًا؟ قلت: نعم، والذي أكرمك، فقال: إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان، قال: فجاء رجل من غطفان، فقال: نحر لهم فلان جزورًا فلما كشفوا جلدها رأوا غبارًا، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجَّالتنا[١] سلمة، قال: ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين: سهم الفارس، وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه على العضباء[٢] راجعين إلى المدينة))[٣].

- حادثة تبين لنا شهامة عثمان بن طلحة رضي الله عنه، تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: ((... وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرَّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح[٤]، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت.

---

(١) رجالة جمع راجل وهو الماشي على قدمه. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/٢٩).

(٢) العضباء: اسم ناقة النبي، صلى الله عليه وسلم، اسم لها علم، وليس من العضب الذي هو الشق في الأذن. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦٠٩/١).

(٣) رواه البخاري (٤١٩٤) ومسلم (١٨٠٧) واللفظ له.

(٤) الأبطح: يعني أبطح مكة وهو مسيل واديها ويجمع على البطاح والأباطح. ومنه قيل قريش البطاح هم الذين ينزلون أباطح مكة وبطحاءها. ((النهاية في غريب الأثر)) لابن الأثير (٣٤٨/١).

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: قلت: [أتبلغ] بمن لقيت حتى أقدم على زوجي حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وابني هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام[1] البعير فانطلق معي يهوي به، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني، حتى إذا نزلنا استأخر ببعيري فحطَّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله[2]، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلًا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة، قال: وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب أبو سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة))[3].

---

(١) خطام: خطام البعير أن يؤخذ حبل من ليف أو شعر أو كتان فيجعل في أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ثم يقاد البعير ثم يثنى على مخطمه. ((النهاية في غريب الأثر)) لابن الأثير (٣/١٢٠).

(٢) رحله: رَحَل البعير يرْحَله رَحْلاً فهو مرحول ورَحِيل وارْتَحَله: جعل عليه الرَّحْل ورَحَله رَحَلةً: شدَّ عليه أَداته. ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٢٦٥).

(٣) ((سيرة ابن هشام)) (١/٤٦٩)، وذكره ابن منده في ((الفوائد)) (٢٩٢-٢٩٣).

الشهامة في واحة الشعر:

قال أوس:

حتى أُتيحَ له أخو قَنَص شهمٌ، يُطِرُّ[1] ضواريًا[2] كُتُبَا[3]

وقال ابن سيده:

شهمٌ إذا اجتمع الكماةُ[4]، وألهمتْ أفواهها بأواسطِ الأوتارِ[5]

وقال الشاعر:

شهمُ الفؤادِ ذكاؤه ما مثلُه عندَ العزيمةِ في الأنامِ ذكاءُ

وقال الشاعر:

يابسُ الجنبين مِن غيرِ بُؤسٍ ونَدِي الكفين شهمٌ مدِلُّ[6]

وقال ابن هرمة:

حييٌّ تقيٌّ ساكنُ الطيرِ وادعٌ إذا لم يُتَرْ، شهمٌ إذا تِير مانعُ[7]

وقال الشاعر:

جميعُ الكتبِ يدركُ مَن قراها فتورٌ أو كلالٌ أو سآمهْ

---

(١) أطره يطره إطرارا إذا طرده. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٤٩٨).

(٢) الضواري: الأسود. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/٤٧٠).

(٣) ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٤٩٨).

(٤) الكماة جمع (الكمي) أي: الشجاع (المتكمي) في سلاحه أي المتغطي المتستر بالدرع والبيضة. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٧٣).

(٥) الأوتار: جمع وتر القوس. انظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٥/١٤٨).

(٦) ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٩/ ٤٠٢). وأدل عليه وتدلل: انبسط. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٢٤٧).

(٧) ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٩/٥٣١).

سوى القرآنِ فافهمْ واستمعْ لي وقول المصطفى يا ذا الشهامةْ[١]

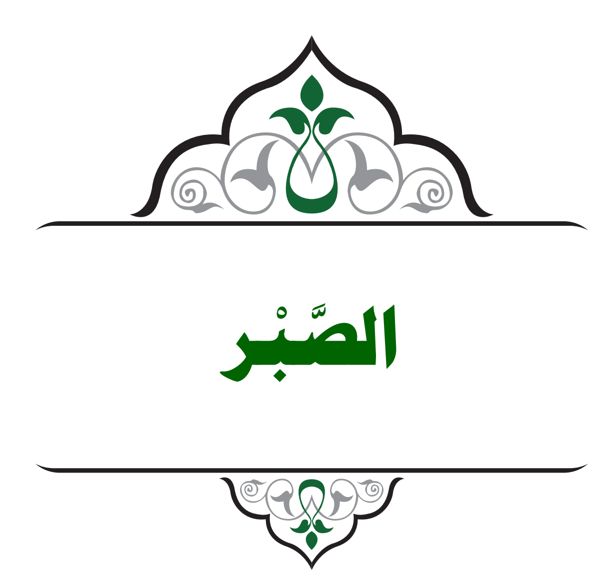
وقال الشاعر:

لك في الشهامةِ والصرامةِ موقفٌ لصفاته إعجازُ كلِّ مفوَّهِ[٢]



(١) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (١/٤٧٤).

(٢) ((البرق الشامي)) لعماد الدين الأصبهاني (٥/٦٤).



الصَّبْر

الصَّبْر

معنى الصبر لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الصبر لغةً:**

الصَّبْرُ نقيض الجَزَع، صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا فهو صابِرٌ وصَبَّار وصَبِيرٌ وصَبُور والأُنثى صَبُور أَيضًا بغير هاء وجمعه صُبُرٌ.وأَصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَس شيئًا فقد صَبَرَه، والصبر: حبس النفس عن الجزع[1].

- **معنى الصبر اصطلاحًا:**

(الصبر هو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره)[2].

وقيل هو:(ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله)[3].

وقيل الصبر: (حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه)[4].

الفرق بين الصبر، والتصبر، والاصطبار، والمصابرة، والاحتمال:

(الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره:

- فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن؛ إن كان خلقًا له وملكة سمي صبرًا.

---

(١) ((الصحاح)) للجوهري (ص ٧٠٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٤٣٧).

(٢) ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص ١٨).

(٣) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٣١).

(٤) ((مفردات ألفاظ القرآن الكريم)) للراغب الأصفهاني (٤٧٤). وقريب منه تعريف ابن القيم الصبر بأنه: ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية. ((الروح)) (ص ٢٤١).

- وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبرًا.

كما يدل عليه هذا البناء لغةً، فإنه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له.

كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ومن يتصبر يصبره الله))[1]. وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق ...

- وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر:

فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أنَّ التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا.

- وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر:

فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. [آل عمران: ٢٠٠] فأمرهم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حالة في الصبر مع خصمه والمرابطة، وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر؛ فهي لزوم ثغر القلب؛ لئلا يدخل منه

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته)[١].

والفرق بين الاحتمال والصبر:

(أنَّ الاحتمال للشيء يفيد كظم الغيظ فيه، والصبر على الشدة يفيد حبس النفس عن المقابلة عليه بالقول والفعل، والصبر عن الشيء يفيد حبس النفس عن فعله، وصبرت على خطوب الدهر، أي: حبست النفس عن الجزع عندها، ولا يستعمل الاحتمال في ذلك؛ لأنك لا تغتاظ منه)[٢].

لماذا سمي الصبر صبرًا؟

حكى أبو بكر بن الأنباري عن بعض العلماء أنه قال:(إنما سمي الصبر صبرًا؛ لأن تمرره في القلب وإزعاجه للنفس كتمرر الصبر[٣] في الفم)[٤].

الترغيب في الصبر:

أولًا: في القرآن الكريم

الصبر من أكثر الأخلاق التي اعتنى بها دين الإسلام؛ لذا تكرر ذكره في القرآن في مواضع كثيرة.

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: (ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا)[٥].

وقد سيق الصبر في القرآن في عدة أنواع ذكرها ابن القيم في كتابه (عدة الصابرين) ونحن نذكر بعضها:

---

(١) ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص ٤١) - بتصرف.

(٢) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٢٢).

(٣) الصبر: هو الدواء المر المعروف. انظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٣١٧/٤).

(٤) ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص ٥٨).

(٥) ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص ١١٣).

أحدها: الأمر به، كقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور: ٤٨].

- الثاني: النهي عما يضاده، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨].

- الثالث: تعليق الفلاح به، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . [آل عمران: ٢٠٠] فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

- الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره، كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص: ٥٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

- الخامس: تعليق الإمامة في الدين، به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤][1].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر))[2].

---

(١) ((عدة الصابرين)) لابن القيم – بتصرف يسير (ص ١١٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩).

(قوله صلى الله عليه وسلم: ((ومن يتصبر)): أي يطلب توفيق الصبر من الله؛ لأنه قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾. [النحل: ١٢٧] أي يأمر نفسه بالصبر ويتكلف في التحمل عن مشاقه، وهو تعميم بعد تخصيص؛ لأن الصبر يشتمل على صبر الطاعة والمعصية والبلية، أو من يتصبر عن السؤال والتطلع إلى ما في أيدي الناس بأن يتجرع مرارة ذلك ولا يشكو حاله لغير ربه. ((يصبِّره الله)): بالتشديد أي: يسهل عليه الصبر، فتكون الجمل مؤكدات. ويؤيد إرادة معنى العموم قوله: ((وما أعطي أحد من عطاء)): أي معطى أو شيئًا، ((أوسع)): أي أشرح للصدر، ((من الصبر)): وذلك لأن مقام الصبر أعلى المقامات؛ لأنه جامع لمكارم الصفات والحالات)[١].

- وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّ الصبر عند الصدمة الأولى، فعن أنس رضي الله عنه قال: ((مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري. قالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوَّابين[٢]، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى))[٣].

قال ابن القيم: (فإنَّ مفاجئات المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب، وتزعجه بصدمها، فإن صبر الصدمة الأولى انكسر حدها، وضعفت قوتها، فهان عليه استدامة الصبر، وأيضًا فإنَّ المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه، وهي الصدمة الأولى، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطَّن لها،

(١) ((عون المعبود شرح سنن أبي داود)) لشمس الحق العظيم أبادي (٥/٥٩).
(٢) البواب: اللازم للباب، وحرفته البوابة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٢٢٣).
(٣) رواه البخاري (١٢٨٣).

وعلم أنَّه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار، وهذه المرأة لما علمت أنَّ جزعها لا يجدي عليها شيئًا؛ جاءت تعتذر إلى النبي كأنها تقول له قد صبرت، فأخبرها أنَّ الصبر إنما هو عند الصدمة الأُولى)[١].

- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: ((أنه قال لعطاء: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: إن شئت صبرت؛ ولك الجنة. وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. قالت: أصبر. قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها))[٢].

- وبيَّن صلى الله عليه وسلم أنَّ من صبر على فقد عينيه عوضه الله الجنة، فعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنَّ الله- عز وجل- قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، فصبر عوضته منهما الجنة- يريد عينيه))[٣].

قال ابن بطال: (في هذا الحديث حجة في أنَّ الصبر على البلاء ثوابه الجنة، ونعمة البصر على العبد، وإن كانت من أجلِّ نعم الله تعالى فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا؛ لنفاد مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا، وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة)[٤].

- وعن صهيب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته

(١) ((عدة الصابرين)) (ص ١٢١).
(٢) رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).
(٣) رواه البخاري (٥٦٥٣).
(٤) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٣٧٧).

سرَّاء[١] شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء[٢] صبر فكان خيرًا له))[٣].

(قوله: ((عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خير)). أي: أن الرسول عليه الصلاة والسلام أظهر العجب على وجه الاستحسان لأمر المؤمن، أي: لشأنه، فإنَّ شأنه كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

ثم فصل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الخير فقال: ((إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)). هذه حال المؤمن وكل إنسان، فإنه في قضاء الله وقدره بين أمرين: إما سراء وإما ضراء، والناس في هذه الإصابة ينقسمون إلى قسمين: مؤمن وغير مؤمن، فالمؤمن على كل حال ما قدر الله له فهو خير له، إن أصابته الضراء صبر على أقدار الله، وانتظر الفرج من الله، واحتسب الأجر على الله فكان خيرًا له، فنال بهذا أجر الصابرين.

وإن أصابته سراء من نعمة دينية كالعلم والعمل الصالح، ونعمة دنيوية كالمال والبنين والأهل شكر الله، وذلك بالقيام بطاعة الله عز وجل.

فيشكر الله فيكون خيرًا له، ويكون عليه نعمتان: نعمة الدين ونعمة الدنيا، نعمة الدنيا بالسراء، ونعمة الدين بالشكر هذه حال المؤمن.

وأما الكافر فهو على شرٍّ -والعياذ بالله- إن أصابته الضراء لم يصبر بل يضجر، ودعا بالويل والثبور، وسبَّ الدهر، وسبَّ الزمن...

والحديث فيه الحث على الصبر على الضراء، وأن ذلك من خصال

---

(١) السراء: الرخاء. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٦١/٤).

(٢) الضراء: نقيض السراء. انظر: ((المصدر السابق)) (٤٨٣/٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩).

المؤمنين، فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا محتسبًا، تنتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى، وتحتسب الأجر على الله فذلك عنوان الإيمان، وإن رأيت بالعكس فلُمْ نفسك، وعدِّل مسيرك، وتُبْ إلى الله)[١].

أقوال السلف والعلماء في الصبر:

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنَّ أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أنَّ الصبر كان من الرجال كان كريمًا)[٢].

- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له)[٣].

وقال: (الصبر مطية لا تكبو[٤]، والقناعة سيف لا ينبو[٥])[٦].

- وقال عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر: (ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر، إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزع منه، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠])[٧].

- (وجاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقًا من حاله ومعاشه، واغتمامًا بذلك، فقال: (أيسرك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا. قال: فبسمعك؟ قال: لا. قال:

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/١٩٧-١٩٩) (بتصرف).
(٢) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٢٣).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٢٤).
(٤) كبا يكبو كبوة إذا عثر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٢١٣).
(٥) نبا حد السيف إذا لم يقطع. انظر: ((المصدر السابق)) (١٥/٣٠١).
(٦) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٩٤).
(٧) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٣٠).

فبلسانك؟ قال: لا. قال: فبعقلك؟ قال: لا... في خلال. وذكَّره نعم الله عليه، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفًا وأنت تشكو الحاجة؟!)[١].

- وعن إبراهيم التيمي، قال: (ما من عبد وهب الله له صبرًا على الأذى، وصبرًا على البلاء، وصبرًا على المصائب، إلا وقد أُوتي أفضل ما أوتيه أحد، بعد الإيمان بالله)[٢].

- وعن الشعبي، قال شريح: (إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني)[٣].

- وقال ميمون بن مهران: (الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي)[٤].

- وعن أبي ميمون ، قال: (إن للصبر شروطًا، قلت -الراوي-: ما هي يا أبا ميمون؟ قال: إن من شروط الصبر أن تعرف كيف تصبر؟ ولمن تصبر؟ وما تريد بصبرك؟ وتحتسب في ذلك وتحسن النية فيه، لعلك أن يخلص لك صبرك، وإلا فإنما أنت بمنزلة البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك، ثم هدأ فهدأت، فلا هي عقلت ما نزل بها فاحتسبت وصبرت، ولا هي صبرت، ولا هي عرفت النعمة حين هدأ ما بها، فحمدت الله على ذلك وشكرت)[٥].

- وقال أبو حاتم: (الصبر على ضروب ثلاثة: فالصبر عن المعاصي، والصبر

---

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٦/٢٩٢).
(٢) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٢٨).
(٣) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤/١٠٥).
(٤) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٢٩).
(٥) ((المصدر السابق)) (ص ٥٣).

على الطاعات، والصبر عند الشدائد المصيبات، فأفضلها الصبر عن المعاصي، فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة التي ذكرناها بلزوم الصبر على المراتب التي وصفناها قبل، حتى يرتقي بها إلى درجة الرضا عن الله جل وعلا في حال العسر واليسر معًا)[١].

- وقال زياد بن عمرو: (كلنا نكره الموت وألم الجراح، ولكنا نتفاضل بالصبر)[٢].

- وقال زهير بن نعيم: (إنَّ هذا الأمر لا يتمُّ إلا بشيئين: الصبر واليقين، فإن كان يقين ولم يكن معه صبر لم يتمَّ، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين لم يتمَّ، وقد ضرب لهما أبو الدرداء مثلًا فقال: مثل اليقين والصبر مثل فَدادين[٣] يحفران الأرض، فإذا جلس واحد جلس الآخر)[٤].

- وقال أبو عبد الرحمن المغازلي: (دخلت على رجل مبتلى بالحجاز، فقلت: كيف تجدك؟ قال: أجد عافيته أكثر مما ابتلاني به، وأجد نِعَمه عليَّ أكثر من أن أحصيها، قلت: أتجد لما أنت فيه ألمًا شديدًا؟ فبكى ثم قال: سلا بنفسي عن ألم ما بي ما وعد عليه سيدي أهل الصبر من كمال الأجور في شدة يوم عسير، قال: ثم غشي عليه فمكث مليًّا[٥]،ثم أفاق، فقال: إني لأحسب أنَّ لأهل الصبر غدًا في القيامة مقامًا شريفًا لا يتقدمه من ثواب

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٢).
(٢) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٤٤).
(٣) الفدادين، مخففة، واحدها فدان، بالتشديد؛ عن أبي عمرو، وهي البقر التي يحرث بها. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/٣٣٠).
(٤) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (٤/٨).
(٥) الملي: الزمان الطويل. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٩٨).

الأعمال شيء، إلا ما كان من الرضا عن الله تعالى)[(١)].

- وعن عمرو بن قيس الملائي: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: (الرضا بالمصيبة، والتسليم)[(٢)].

- وعن ميمون بن مهران قال (ما نال عبد شيئًا من جسم الخير من نبي أو غيره إلا بالصبر)[(٣)].

- وعن الحسن قال: (سبَّ رجل رجلًا من الصدر الأول، فقام الرجل وهو يمسح العرق عن وجهه، وهو يتلو: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] قال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون)[(٤)].

- وقال يحيي بن معاذ: (حُفَّت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الضنا)[(٥)].

- وقال أبو حاتم: (الصبر جماع الأمر، ونظام الحزم، ودعامة العقل، وبذر الخير، وحيلة من لا حيلة له، وأول درجته الاهتمام، ثم التيقظ، ثم التثبت، ثم التصبر، ثم الصبر، ثم الرضا، وهو النهاية في الحالات)[(٦)].

- وقال عمر بن ذر: (من أجمع على الصبر في الأمور فقد حوى الخير،

---

(١) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٨٠).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٨٦).

(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٢).

(٤) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٨٧).

(٥) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (٤/٩٤).

(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦١).

والتمس معاقل البر وكمال الأجور)[١].

فوائد الصبر:

من فوائد الصبر أنه[٢]:

١- دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٢- يورث الهداية في القلب.

٣- يثمر محبة الله ومحبة الناس.

٤- سبب للتمكين في الأرض.

٥- الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٦- معية الله للصابرين.

٧- الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

٨- مظهر من مظاهر الرجولة الحقة.

٩- صلاة الله ورحمته وبركاته على الصابرين.

أقسام الصبر:

ينقسم الصبر بعدة اعتبارات:

- فباعتبار محله ينقسم إلى ضربين:

(ضرب بدني وضرب نفساني، وكل منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام:

(١) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ١١٣).

(٢) ((نضرة النعيم)) (٦/٢٤٧١-٢٤٧٢).

الأول: البدني الاختياري: كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختيارًا وإرادة.

الثاني: البدني الاضطراري: كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات، والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث: النفساني الاختياري: كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعًا ولا عقلًا.

الرابع: النفساني الاضطراري: كصبر النفس عن محبوبها قهرًا إذا حيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام فهي مختصة بنوع الإنسان دون البهائم، ومشاركة للبهائم في نوعين منها، وهما: صبر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الإنسان، وإنما يتميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم، لا في النوع الذي يخص الإنسان فيعد صابرًا وليس من الصابرين... فالإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين، وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم، قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلًا وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم، ولما خلق الإنسان في ابتداء أمره ناقصًا، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، فصبره في هذه الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة الاختيار، فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب، استعد لقوة الصبر

الاختياري على ضعفها فيه، فإذا تعلقت به شهوة النكاح، ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقوي، استعان بجيش الصبر)[(١)].

- وباعتبار متعَلَّقه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها...

فأما الذي من جهة الرب فهو أنَّ الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري، فالشرعي متعلِّق بأمره، والكوني متعلِّق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر، وحكمه الديني الطلبي نوعان: بحسب المطلوب، فإنَّ المطلوب إن كان محبوبًا له فالمطلوب فعله إما واجبًا وإما مستحبًّا، ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه إما تحريمًا وإما كراهة، وذلك أيضًا موقوف على الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي، وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد، أصحهما أنه مستحب، فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفًا، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر، ولا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها،

(١) ((عدة الصابرين)) لابن قيم الجوزية -بتصرف- (ص ٤٣).

فالصبر متعلق بالأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر)[1].

- وباعتبار تعلق الأحكام الخمسة به ينقسم إلى خمسة أقسام:

(إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح.

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على أداء الواجبات.

والثالث الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها، كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب: فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

وأما المحظور فأنواع: أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت، وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام، إذا خاف بتركه الموت، قال طاوس وبعده أحمد: من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار...

ومن الصبر المحظور: صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين، فإنه مباح له، بل يستحب، كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه المسألة بعينها فقال: ((كن

(١) ((عدة الصابرين)) لابن قيم الجوزية – بتصرف- (ص ٥٢).

كخير ابني آدم))[١]. وفي لفظ: ((كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل))[٢]...

وأما الصبر المكروه فله أمثلة:

أحدها: أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه.

الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به.

الثالث: صبره على المكروه.

الرابع: صبره عن فعل المستحب.

وأما الصبر المباح: فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين، خُيِّر بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام. والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح)[٣].

الصبر المحمود وأقسامه:

قسم العلماء الصبر المحمود إلى أقسام عدة، وذكر له ابن القيم ثلاثة أنواع:

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وأحمد (٤/٤١٦) (١٩٧٤٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه. وصححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠١)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٠٤٩).

(٢) رواه أحمد (٥/١١٠) (٢١١٠١)، والطبراني في ((الكبير)) (٤/٥٩)، وأبو يعلى (١٣/١٧٦) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/٣٠٥): [فيه من] لم أعرف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في ((إرواء الغليل)) (٨/١٠٣): رجاله ثقات غير الرجل الذي لم يسم وله شاهد.

(٣) ((عدة الصابرين)) لابن قيم الجوزية –بتصرف– (ص ٥٧).

(صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله:

فالأول: الاستعانة به ورؤيته أنه هو المصبر، وأنَّ صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾. [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها مقيمًا بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلت مضاربها، فهذا معنى كونه صابرًا مع الله، أي قد جعل نفسه وقفًا على أوامره ومحابِّه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين)[1].

وقسَّمه الماوردي إلى ستة أقسام فقال:

(فأول أقسامه وأولاها: الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتهاء عما نهى الله عنه؛ لأن به تخلص الطاعة، وبها يصحُّ الدين، وتؤدَّى الفروض، ويُستحقُّ الثواب، كما قال في محكم الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].. وليس لمن قلَّ صبره على طاعة حظٌّ من برٍّ ولا نصيب من صلاح ...

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف، فإنَّ من خاف

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٤٢٩/٢).

الله عزَّ وجلَّ صبر على طاعته، ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره.

الثاني: الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد كدَّه الهمُّ بها، فإنَّ الصبر عليها يعقبه الراحة منها، ويكسبه المثوبة عنها. فإن صبر طائعًا وإلا احتمل همًّا لازمًا، وصبر كارهًا آثمًا.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور...

الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيله من مسرة مأمولة، فإن الصبر عنها يعقب السلو منها، والأسف بعد اليأس خرق.

...وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله، مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله.

الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها، فلا يتعجل هم ما لم يأت، فإنَّ أكثر الهموم كاذبة، وإنَّ الأغلب من الخوف مدفوع...

وقال الحسن البصري رحمه الله: لا تحملنَّ على يومك همَّ غدك، فحسب كلِّ يوم همُّه.

الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظر من نعمة يأملها، فإنه إن أدهشه التوقع لها، وأذهله التطلع إليها انسدت عليه سبل المطالب، واستفزه تسويل المطامع، فكان أبعد لرجائه، وأعظم لبلائه .

وإذا كان مع الرغبة وقورًا، وعند الطلب صبورًا، انجلت عنه عماية الدهش،

وانجابت عنه حيرة الوله، فأبصر رشده وعرف قصده. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((الصبر ضياء))[١]. يعني - والله أعلم - أنه يكشف ظلم الحيرة، ويوضح حقائق الأمور.

السادس: الصبر على ما نزل من مكروه، أو حلَّ من أمر مخوف.

فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء، وتستدفع مكائد الأعداء، فإنَّ من قلَّ صبره عزب رأيه، واشتد جزعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]... واعلم أنَّ النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر)[٢].

مراتب الصبر:

ذكر ابن القيم أربعة مراتب للصبر:

(إحداها: مرتبة الكمال، وهي مرتبة أولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله.

فيكون في صبره مبتغيًا وجه الله صابرًا به، متبرئًا من حوله وقوته، فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

الثانية: أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخس المراتب وأردأ الخلق، وهو جدير بكل خذلان وبكل حرمان.

الثالثة: مرتبة من فيه صبر بالله، وهو مستعين متوكل على حوله وقوته، متبرئ من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله؛ إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه، فهذا ينال مطلوبه ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، وربما كانت

(١) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي - بتصرف - (٢٩٥-٢٩٨).

عاقبته شرَّ العواقب، وفي هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية، فإنَّ صبرهم بالله لا لله ولا في الله...

الرابع: من فيه صبر لله، لكنه ضعيف النصيب من الصبر به والتوكل عليه والثقة به والاعتماد عليه، فهذا له عاقبة حميدة، ولكنه ضعيف عاجز مخذول في كثير من مطالبه؛ لضعف نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فنصيبه من الله أقوى من نصيبه بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصابر بالله لا لله: حال الفاجر القوي، وصابر لله وبالله: حال المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

فصابر لله وبالله: عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله: مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله: قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله: عاجز محمود)[(١)].

صور الصبر:

إن صور الصبر ومجالاته كثيرة في حياة الإنسان، فلا يستغني عنه أحد بحال من الأحوال، يقول ابن القيم: (إن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجري عليه اتفاقًا، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات، وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما: يوافق هواه ومراده، والآخر: يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كلٍّ منهما)[(٢)].

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٤٥٠).

(٢) ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص ١٠١).

ومن المجالات التي ينبغي للإنسان أن يضبط نفسه عندها ويصبر عليها:

١- ضبط النفس عن الضجر والجزع عند حلول المصائب ومس المكاره.

٢- ضبط النفس عن السأم والملل لدى القيام بأعمال تتطلب الدأب والمثابرة خلال مدة مناسبة.

٣- ضبط النفس عن العجلة والرعونة لدى تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

٤- ضبط النفس عن الغضب والطيش لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس.

٥- ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس.

٦- ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها.

٧- ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

٨- ضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية(١).

موانع التحلي بالصبر:

على المسلم الذي يريد أن يتحلى بالصبر أن يحذر من الموانع التي تعترض طريقه حتى لا تكون سدًّا منيعًا أمامه، ومن هذه الموانع(٢):

١- الاستعجال: فالنفس مولعة بحب العاجل؛ والإنسان عجول بطبعه، حتى جعل القرآن العجل كأنه المادة التي خلق الإنسان منها: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره، وضاق

---

(١) ملخص من كتاب ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/٢٩٤).

(٢) ((الصبر في القرآن الكريم)) ليوسف القرضاوي (ص ١٠٩) - باختصار.

صدره، ناسيًا أنَّ لله في خلقه سننًا لا تتبدل: وأنَّ لكل شيء أجلًا مسمًّى، وأنَّ الله لا يعجل بعجلة أحد من الناس، ولكل ثمرة أوان تنضج فيه، فيحسن عندئذ قطافها، والاستعجال لا ينضجها قبل وقتها، فهو لا يملك ذلك، وهي لا تملكه، ولا الشجرة التي تحملها، إنها خاضعة للقوانين الكونية التي تحكمها، وتجري عليها بحساب ومقدار...

٢- الغضب: فقد يستفزُّ الغضب صاحب الدعوة، إذا ما رأى إعراض المدعوين عنه، ونفورهم من دعوته، فيدفعه الغضب إلى ما يليق به من اليأس منهم، أو النأي عنهم، مع أن الواجب على الداعية أن يصبر على من يدعوهم، ويعاود عرض دعوته عليهم مرة بعد مرة، وعسى أن يتفتح له قلب واحد يومًا، تشرق عليه أنوار الهداية، فيكون خيرًا له مما طلعت عليه الشمس وغربت.

وفي هذا يقول الله لرسوله: ﴿ **فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

٣- شدة الحزن والضيق مما يمكرون، فليس أشد على نفس المرء المخلص لدعوته من الإعراض عنه، والاستعصاء عليه. فضلًا عن المكر به، والإيذاء له، والافتراء عليه، والافتنان في إعناته. وفي هذا يقول الله لرسوله: ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٧] ثم يؤنسه بأنه في معيته سبحانه ورعايته فيقول: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٨].

٤- اليأس: فهو من أعظم عوائق الصبر، فإنَّ اليائس لا صبر له؛ لأنَّ الذي يدفع الزارع إلى معاناة مشقة الزرع وسقيه وتعهده، هو أمله في الحصاد، فإذا

غلب اليأس على قلبه، وأطفأ شعاع أمله، لم يبق له صبر على استمرار العمل في أرضه وزرعه، وهكذا كل عامل في ميدان عمله...

ولهذا حرص القرآن على أن يدفع الوهم عن أنفس المؤمنين، فبذر الأمل في صدورهم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠]، ولما أمر موسى قومه بالصبر إزاء طغيان فرعون وتهديده، أضاء أمامهم شعلة الأمل، فقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨- ١٢٩].

الوسائل المعينة على الصبر:

أ- الوسائل المعينة على الصبر عن المعصية والصبر على الطاعة[١]:

١- مما يعين على الصبر عن المعصية علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره.

٢- الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع وكان حييًّا - استحيي من ربه أن يتعرض لمساخطه بترك طاعته أو ارتكاب معاصيه.

---

(١) ملخص من كتاب ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص ٢٧٥).

٣- مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبا إلا زالت عنه نعمه من الله بحسب ذلك الذنب، ومن أطاعه وشكره زاده من نعمه وآلائه.

٤- خوف الله وخشية عقابه، ورجاء ثوابه ومغفرته، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله.

٥- محبة الله وهي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي داعي المحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

٦- شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع من قدرها وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة.

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها والضرر الناشئ منها؛ من سواد الوجه وظلمة القلب وضيقه وغمه وحزنه وألمه وانحصاره وشدة قلقه واضطرابه وتمزق شمله وضعفه عن مقاومة عدوه وتعريه من زينته والحيرة في أمره وتخلي وليه وناصره عنه وتولي عدوه المبين له، وقوة العلم بحسن عاقبة الطاعة وأثرها الطيب على النفس.

٨- قصر الأمل وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها، فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

٩- مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس.

١٠- ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، وكلما قوي داعي الإيمان في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه، وهذا السبب جامع للأسباب كلها.

ب - الوسائل المعينة على الصبر على البلاء:

١- أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه.

٢- أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع، ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلا.

٣- أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الداء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

٤- أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج من عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت

على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية، فالابتلاء كِير العبد ومحك إيمانه[1].

٥- أن يعلم أن ما أصابه مقدر من الله:

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

٦- أن يتذكر أعظم المصائب التي حلت بالأمة الإسلامية؛ وهي موت الرسول صلى الله عليه وسلم:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب))[2].

٧- أن يتجنب الجزع فهو لا ينفعه بل يزيد من مصابه:

قال ابن القيم: (إن الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه ورده خاسئًا، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم

---

(١) من رقم ١ إلى ٤ ملخص من كتاب ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص ٢٧٦).

(٢) رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٦٧/٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٩٦٧٨)، والبغوي في ((معجم الصحابة)) (٢٠/٤)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٤٤٠/٣) من حديث سابط القرشي رضي الله عنه. قال ابن حجر العسقلاني في ((الإصابة)) (٢/٢): إسناده حسن، لكن اختلف فيه على علقمة، وصححه الألباني بمجموع طرقه في ((السلسلة الصحيحة)) (١١٠٦).

الخدود وشق الجيوب والدعاء بالويل والثبور والسخط على المقدور)[١].

٨- أن يتسلى المصاب بمن هم أشد منه مصيبة:

قال ابن القيم: (ومن علاجه أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟! ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟! وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل؛ إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا ساءت دهرًا، وإن متعت قليلًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور)[٢].

٩- أن يتسلى المصاب بأنه لله، وأن مصيره إليه:

قال ابن القيم: (إذا تحقق العبد بأنه لله وأن مصيره إليه تسلى عن مصيبته، وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته: أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة... الثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته، فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود؟!)[٣].

١٠- أن يعلم أن ابتلاء الله له هو امتحان لصبره:

يقول ابن قيم الجوزية في ذلك: (أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين أرحم

---

(١) ((زاد المعاد)) لابن القيم (١٧٣/٤).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((المصدر السابق)) بتصرف.

الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه به ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه وليسمع تضرعه وابتهاله وليراه طريحًا ببابه لائذًا بجنابه مكسور القلب بين يديه رافعًا قصص الشكوى إليه)[١].

١١- أن يعلم أن مرارة الدنيا هي حلاوة الآخرة:

قال ابن القيم: (إن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق: ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))[٢]. وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثار العاجلة ورفض الآخرة)[٣].

١٢- **أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم**، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيئته، فالعباد آلة، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترح من الهم والغم.

---

(١) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/١٧٣).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢) واللفظ له، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/١٧٣).

١٣- **أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه**، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

١٤- **أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر**، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

١٥- **أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه**، ونقائه من الغش والغل وطلب الانتقام وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلًا وآجلًا.

١٦- **أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلًّا يجده في نفسه**، فإذا عفا أعزه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: ((ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا))(١).

١٧- **أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب**، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر لهم غفر الله له.

١٨- **أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه**، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه مالا يمكن استدراكه.

١٩- **إن أوذي على ما فعله لله، أو على ما أمر به من طاعته ونهى عنه من معصيته، وجب عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام**، فإنه قد أوذي في الله فأجره على الله.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠- أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبه الله له إذا صبر، ورضاه. ومن كان الله معه دفع عنه أنواع الأذى والمضرات مالا يدفعه عنه أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٢١- أن يشهد أن صبره حكم منه على نفسه، وقهر لها وغلبة لها، فمتى كانت النفس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه وأسره وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها، لم تزل به حتى تهلكه، أو تتداركه رحمة من ربه.

٢٢- أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فالله وكيل من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها.

٢٣- أن صبره على من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيذائه له مستحييًا منه نادمًا على ما فعله، بل يصير مواليًا له(١).

نماذج في الصبر:

- **نماذج من صبر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:**

صَبرُ أولي العزم من الرسل على مشاق الدعوة إلى الله:

صَبَرَ أولو العزم من الرسل على مشاقِّ الدعوة إلى الله، فأبلوا بلاءً حسنا، صبر نوح عليه السلام وقضى ألف سنة إلا خمسين عامًا كلها دعوة، وصبر إبراهيم عليه السلام على كل ما نزل به فجُمع له الحطب الكثير، وأوقدت فيه النار العظيمة، فألقي فيها، فكانت بردًا وسلامًا. وموسى عليه السلام يصبر

(١) من رقم ١٢ إلى ٢٣، ملخص من كتاب ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/١٦٨-١٧٤).

على أذى فرعون وجبروته وطغيانه. ويصبر عيسى عليه السلام على تكذيب بني إسرائيل له، ورفض دعوته، ويصبر على كيدهم ومكرهم حتى أرادوا أن يقتلوه ويصلبوه، إلا أن الله سبحانه وتعالى نجاه من شرهم. وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فما أكثر ما لاقاه في سبيل نشر هذا الدين، فصبر صلوات ربي وسلامه عليه.

قال تعالى آمرًا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

قال السعدي: (أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتمَّ يقينهم، فهم أحقُّ الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم)[1].

أيوب عليه السلام وصبره على البلاء:

كان نبي الله أيوب عليه السلام، غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

(يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده -يقال بالجذام في سائر بدنه- ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه،

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (٧٨٣).

يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره)(١).

نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وصبرهما على طاعة الله:

رأى نبي الله إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل؛ ورؤيا الأنبياء وحي، فأخبر ابنه بذلك، وعرض عليه الأمر. قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

(﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابرًا محتسبًا، مرضيًا لربه، وبارًّا بوالده: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ أي: امض لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازمًا بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالًا لأمر ربه، وخوفا من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: تلَّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه؛ لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ﴾ أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٥/٣٥٩).

ﵟٱلۡمُحۡسِنِينَﵞ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم)[١].

- **نماذج من صبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:**

لقد صبر الرسول صلى الله عليه وسلم وبلغ صبره مبلغًا عظيمًا، وهذه نماذج متنوعة من صبره صلى الله عليه وسلم:

صبره صلى الله عليه وسلم على المشركين حينما آذوه، ورموه بالكذب، والكهانة، والسحر، والجنون:

- قال ابن مسعود رضي الله عنه: ((بينا النبي صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور، فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع))[٢].

- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال: فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (٧٠٥).

(٢) رواه البخاري (٣١٨٥)، ومسلم (١٧٩٤).

عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئًا))[١].

– وعن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيءٍ صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ((بينا رسول الله وسلم يصلي بفناء الكعبة؛ إذ أقبل عقبة بن أبي معيط وهو من الكفار، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا))[٢].

صبره صلى الله عليه وسلم على المنافقين:

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ((أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارًا عليه إكَاف، تحته قطيفة فدَكِيَّة، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال: فلما غشيت المجلس عجاجة[٣] الدَّابة ، خمَّر عبد الله بن أبي أنفه، ثم قال: لا تغبِّروا[٤] علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء –يريد النبي صلى الله عليه وسلم– لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقًّا فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن

(١) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) رواه البخاري (٣٨٥٦).

(٣) العجاج: الغبار. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣١٩/٢).

(٤) غبره تغبيرا: لطخه بالغبار. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩٠/١٣).

رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك ، قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي- قال كذا وكذا؟ فقال سعد رضي الله عنه: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة أن يتوجوه فيعصِّبوه بالعصابة -أي يجعلوه ملكًا عليهم- فلما ردَّ الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاكه شرق[١] بذلك، فلذلك فعل به ما رأيت، قال: فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم))[٢].

صبره صلى الله عليه وسلم على مشاق الحياة وشدتها:

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: ((ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، فقلت: ما كان يُعيِّشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كان لهم منائح[٣]، وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبياتهم فيسقيناه))[٤].

وأنه صلى الله عليه وسلم قال: ((لقد أخفت في الله، وما يخاف أحد، وقد أوذيت في الله، وما يُؤذى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما لي طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))[٥].

---

(١) الشرق: الشجا والغصة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/١٧٧).
(٢) رواه البخاري (٦٢٥٤)، ومسلم (١٧٩٨).
(٣) منائح جمع منيحة، وهي كعطية لفظا ومعنى. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/١٩٩).
(٤) رواه البخاري (٦٤٥٩).
(٥) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، وأحمد (٣/٢٨٦) (١٤٠٨٧) من حديث =

صبره صلى الله عليه وسلم على فقد الأولاد والأحباب:

فمات عمه أبو طالب، وتوفيت زوجته خديجة، وتوفي أولاده كلهم في حياته إلا فاطمة، وقتل عمه حمزة، فصلوات ربي وسلامه عليه.

- ### نماذج من صبر الصحابة رضوان الله عليهم:

(علَّم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه كيف يصبرون في مختلف الأمور وضروبها، فقد علمهم الصبر من أجل هذا الدين، والتضحية في سبيله)[١].

(والصحابة رضي الله عنهم لهم مواقف كثيرة جدًّا، لا يستطيع أحد أن يحصرها؛ لأنهم رضي الله عنهم باعوا أنفسهم، وأموالهم، وحياتهم لله، ابتغاء مرضاته، وخوفًا من عقابه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة)[٢]. وإليك نماذج من صبرهم رضي الله عنهم وأرضاهم:

صَبرُ آل ياسر رضي الله عنهم:

وآل ياسر رضي الله عنهم - عمار، وأبوه ياسر، وأمه سمية - يعذبهم المشركون بسبب إيمانهم فيصمدون، وروى الحاكم في المستدرك عن ابن إسحاق قال: ((كان عمار بن ياسر وأبوه وأمه أهل بيت إسلام، وكان بنو مخزوم يعذبونهم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: صبرًا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة))[٣].

= أنس بن مالك رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن غريب. وصححه ابن القيم في ((عدة الصابرين)) (١/٢٩٩)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٤٧٢).

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد (ص ١٩٧).

(٢) ((دروس إيمانية في الأخلاق الإسلامية)) لخميس السعيد (ص ٨٩).

(٣) رواه ابن هشام في ((السيرة)) (١/٣١٩)، الحاكم في ((المستدرك)) (٣/٤٣٢) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/٢٣٩) (١٦٣١) من حديث ابن إسحاق.

بلال رضي الله عنه يُعَذَّب فيصبر:

فهذا بلال بن رباح رضي الله عنه يعذب من أجل إيمانه فيصبر، (فكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره ثم يقول: لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد، فيقول وهو في ذلك: أحد أحد)[١].

وقال ابن مسعود: (أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وبلال، وصهيب، والمقداد.

فأما النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر: فمنعهما الله بقومهما.

وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد)[٢].

أم سلمة رضي الله عنها وصبرها عند فقد ابنها:

وهذه أم سلمة تصبر عن موت فلذة كبدها، يروي لنا أنس رضي الله عنه قصتها فيقول: ((أن أبا طلحة كان له ابن يكنى أبا عمير قال: فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أبا عمير ما فعل النغير؟ قال: فمرض وأبو طلحة غائب في بعض حيطانه فهلك الصبي فقامت أم سليم فغسلته وكفنته وحنطته وسجت عليه ثوبًا وقالت: لا يكون أحد يخبر أبا طلحة حتى أكون أنا الذي أخبره، فجاء أبو طلحة كالًا، وهو صائم، فتطيبت له وتصنعت له، وجاءت

---

(١) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/١٤٨) من حديث ابن إسحاق رحمه الله.

(٢) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١/٣٠٢).

بعشائه، فقال: ما فعل أبو عمير؟ فقالت: تعشى وقد فرغ، قال: فتعشى وأصاب منها ما يصيب الرجل من أهله، ثم قالت: يا أبا طلحة أرأيت أهل بيت أعاروا أهل بيت عارية فطلبها أصحابها، أيردونها أو يحبسونها؟ فقال: بل يردونها عليهم، قالت: احتسب أبا عمير، قال: فغضب، وانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بقول أم سليم، فقال صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما في غابر[١] ليلتكما))[٢].

- **نماذج من صبر السلف رحمهم الله:**

عروة بن الزبير وصبره على الابتلاء:

(وقعت الأكلة[٣] في رجل عروة بن الزبير، فصعدت في ساقه، فبعث إليه الوليد، فحُمل إليه ودعا الأطباء فقالوا: ليس له دواء إلا القطع، وقالوا له: اشرب المرقِد[٤]، فقال عروة للطبيب: امض لشأنك، ما كنت أظن أن خلقًا يشرب ما يزيل عقله حتى يعرف به، فوضع المنشار على ركبته اليسرى، فما سُمع له حسٌّ، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت. وما ترك جزءه من القرآن تلك الليلة. قال الوليد: ما رأيت شيخًا قط أصبر من هذا. ثم إنه أصيب بابنه محمد في ذلك السفر، ركضته بغلة في إصطبل، فلم يُسمع من عروة في ذلك كلمة. فلما كان بوادي القرى قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٣]، اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحدًا وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت واحدًا وأبقيت

---

(١) الغابر: الباقي. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٤٤)، وابن حبان في ((صحيحه)) (١٦/١٥٨) واللفظ له.

(٣) الأكلة: داء يقع في العضو فيأتكل منه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٢٢).

(٤) المرقد: شيء يشرب فينوم من شربه ويرقده. انظر: ((المصدر السابق)) (٣/١٨٣).

ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت)[١].

- **نماذج من صبر العلماء المتقدمين:**

صبر الإمام أحمد بن حنبل على محنة خلق القرآن:

(أخذ أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن أيام المأمون، ليحمل إلى المأمون ببلاد الروم، وأخذ معه أيضًا محمد بن نوح مقيَّدين، ومات المأمون قبل أن يلقاه أحمد، فَرُدَّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح في أقيادهما، فمات محمد بن نوح في الطريق، وردَّ أحمد إلى بغداد مقيدًا.

ودخل على الإمام أحمد بعض حفاظ أهل الحديث بالرقة وهو محبوس، فجعلوا يذاكرونه ما يروى في التقيَّة من الأحاديث، فقال أحمد: وكيف تصنعون بحديث خباب: ((إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار، ثم لا يصده ذلك عن دينه))[٢]؟! فيئسوا منه.

وقال إبراهيم البوشنجي: ذكروا أن المعتصم رق في أمر أحمد، لما عُلِّق في العقابين، ورأى ثبوته وتصميمه، وصلابته في أمره، حتى أغراه ابن أبي دؤاد، وقال له: إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون، وسخطت قوله، فهاجه ذلك على ضربه.

وقال أبو غالب ابن بنت معاوية: ضرب أحمد بن حنبل بالسياط في الله، فقام مقام الصِّدِّيقين، في العشر الأواخر من رمضان سنة عشرين ومائتين)[٣].

---

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤/٤٣٠).

(٢) رواه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٣) ((صلاح الأمة)) لسيد العفاني (٤/٤٠٩).

• نماذج من صبر العلماء المعاصرين:

الشيخ الألباني وصبره على العلم والتعليم:

يقول أحد تلامذة الشيخ: (إن الشيخ جلس ليلة ساهرًا، حتى أذَّن الفجر في المدينة، وهو في نقاش مع الشباب، وبعد أداء الصلاة في المسجد النبوي أراد الشيخ أن يسافر إلى مكة لأداء العمرة، فقلنا له: أنت لم تنم. قال: أجد بي قوة ونشاطًا. فركب السيارة وسافرنا معه إلى مكة وعند الساعة التاسعة صباحًا تقريبًا أوقف السيارة عند ظل شجرة، وقال سأنام ربع ساعة فقط، فإن لم أستيقظ فأيقظوني. فضمرنا في أنفسنا أن لا نوقظ الشيخ حتى يستريح، وبعد ربع ساعة من الوقت استيقظ الشيخ وحده، فركب السيارة وتوجهنا إلى مكة، فأدينا العمرة، ثم ذهبنا إلى بيت صهره ... فإذا طلبة العلم ينتظرون الشيخ، فجلس معهم كما هي عادة الشيخ في نقاش ومناظرة إلى ساعة متأخرة من الليل دون تعب)[1].

ويقول: (ومما يدل على صبره وجلده في طلب العلم... أن الشيخ ناصر صعد على السلم في المكتبة الظاهرية ليأخذ كتابًا مخطوطًا، فتناول الكتاب وفتحه، فبقي واقفًا على السلم يقرأ في الكتاب لمدة تزيد على الست ساعات)[2].

ما هو الباعث على الصبر؟

يجب أن يكون الباعث على الصبر ابتغاء وجه الله عز وجل، والتقرب إليه ورجاء ثوابه، لا لإظهار الشَّجَاعَة وقوة النفس وغير ذلك من الأغراض، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾ [الرعد: ٢٢].

(١) ((مقالات الألباني)) نور الدين طالب (٢١٨).
(٢) ((المصدر السابق)) (٢٢٠).

قال السعدي في تفسيره للآية: (﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾: (لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبًا لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة)[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ (أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل)[2].

الصبر في واحة الشعر:

قال الشاعر:

صبرًا جميلًا على ما ناب من حدثٍ ... والصبرُ ينفعُ أحيانًا إذا صبروا

الصبرُ أفضل شيءٍ تستعين به ... على الزمانِ إذا ما مسَّك الضررُ[3]

وقال الشاعر:

إني رأيتُ وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثرِ

وقلَّ من جدَّ في شيء يحاوله ... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفرِ[4]

وقال آخر:

أتاك الروح والفرج القريب ... وساعدك القضاء، فلا تخيبُ

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ٤١٦).
(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٨/٢٦٤).
(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦١).
(٤) ((المصدر السابق)).

صبرت، فنلت عقبى كلِّ خير كذلك لكلِّ مصطبر عقيبُ[١]

قال الشاعر:

فما شدة يومًا، وإن جلَّ خَطبها بنازلة إلَّا سيتبعها يسر
وإن عسرت يومًا على المرء حاجة وضاقت عليه كان مفتاحها الصبر[٢]

قال الشاعر:

تعزَّ، فإنَّ الصبر بالحرِّ أجمل وليس على رَيب الزمان معولُ
فإن تكن الأيام فينا تبدلَّت بنُعمَى وبُؤسَى، والحوادث تفعلُ
فما ليَّنتْ منا قناةً صليبةً ولا ذلَّلتْنا للذي ليس يجملُ
ولكن رحلناها نفوسًا كريمة تُحمَّل مالا تستطيعُ فتَحملُ[٣]

قال الشاعر:

إني رأيت الخير في الصبر مسرعًا وحسبك من صبر تحوز به أجرا
عليك بتقوى الله في كلِّ حالة فإنك إن تفعل تصيب به ذخرا[٤]

قال الشاعر:

وإذا عَرتْك بليةٌ فاصبرْ لها صبرَ الكريم، فإنَّه بك أعلمُ
وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يَرحمُ[٥]

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦١).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٦٢).
(٣) ((الحث على طلب العلم)) لأبي هلال العسكري (ص ٥٨).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٢).
(٥) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٤٣٥).

قال الشاعر:

تعزَّ بحسن الصبر عن كلِّ هالك ... ففي الصبر مسلاة الهموم اللوازمِ

إذا أنت لم تسلُ اصطبارًا وخشية ... سلوت على الأيام مثلَ البهائمِ[(١)]

وقال ابن زنجي البغدادي:

غاية الصبر لذيذٌ طعمُها ... وبديُّ الصبر منه كالصَّبِرِ

إنَّ في الصبر لفضلًا بيِّنًا ... فاحمل النفس عليه تصطبر[(٢)]

وقال الكريزي:

صبرتُ ومَن يصبرْ يجدْ غِبَّ صبره ... ألذَّ وأحلَى مِن جنَى النَّحل في الفمِ

ومَن لا يطِبْ نفسًا، ويستبْقِ صاحبًا ... ويغفرْ لأهل الودِّ يصرمْ ويصرمِ[(٣)]

قال الشاعر:

إذا لم تسامح في الأمور تعقَّدت ... عليك فسامح وأخرِجِ العسرَ باليسرِ

فلم أرَ أوفى للبلاء مِن التُّقَى ... ولم أرَ للمكروه أشفَى مِن الصبرِ[(٤)]

قال الشاعر:

اصبر لكلِّ مصيبة، وتجلَّدِ ... واعلم بأنَّ المرء غيرُ مخلدِ

أوَما ترَى أنَّ المصائب جمَّةٌ ... وترَى المنيَّة للعباد بمرصدِ

مَن لم يُصَبْ ممن ترَى بمصيبةٍ ... هذا سبيلٌ لست فيه بأوحدِ

فإذا ذكرتَ محمدًا ومُصابه ... فاذكرْ مُصابك بالنبيِّ محمدِ[(٥)]

---

(١) ((المحاضرات والمحاورات)) للسيوطي (٢٨٢).

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٣).

(٣)((المصدر السابق))، ((الصداقة والصديق)) لأبي حيان (ص ٣٥٥).

(٤) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٤٥).

(٥) ((غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب)) للسفاريني (ص ٢٧٦).

قال الشاعر:

مفتاحُ بـاب الفـرج الصـبر وكلُّ عسـرٍ معه يسـرُ
والدهـرُ لا يبقَـى على حالِه والأمـرُ يـأتي بعـدَه الأمـرُ
والكـرهُ تُفنيـه الليـالي التي يفـنَى عليهـا الخير والشـرُّ
وكيـف يبقَـى حـالُ مَـن حالُه يُسـرع فيهـا اليوم والشـهرُ[1]

قال الشاعر:

تجري المقادير إن عسرًا وإن يسرَا حـاذرت واقعهـا أو لم تكـن حـذرا
والعسر عـن قـدر يجري إلى يسر والصـبر أفضـل شـيء وافـق الظفرا[2]

(١) ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص ٥٨).
(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٤).

فهرس الموضوعات



موسوعة الأخلاق

الجزء الثامن

الصِّدْق - الصَّمْت - العَدْل

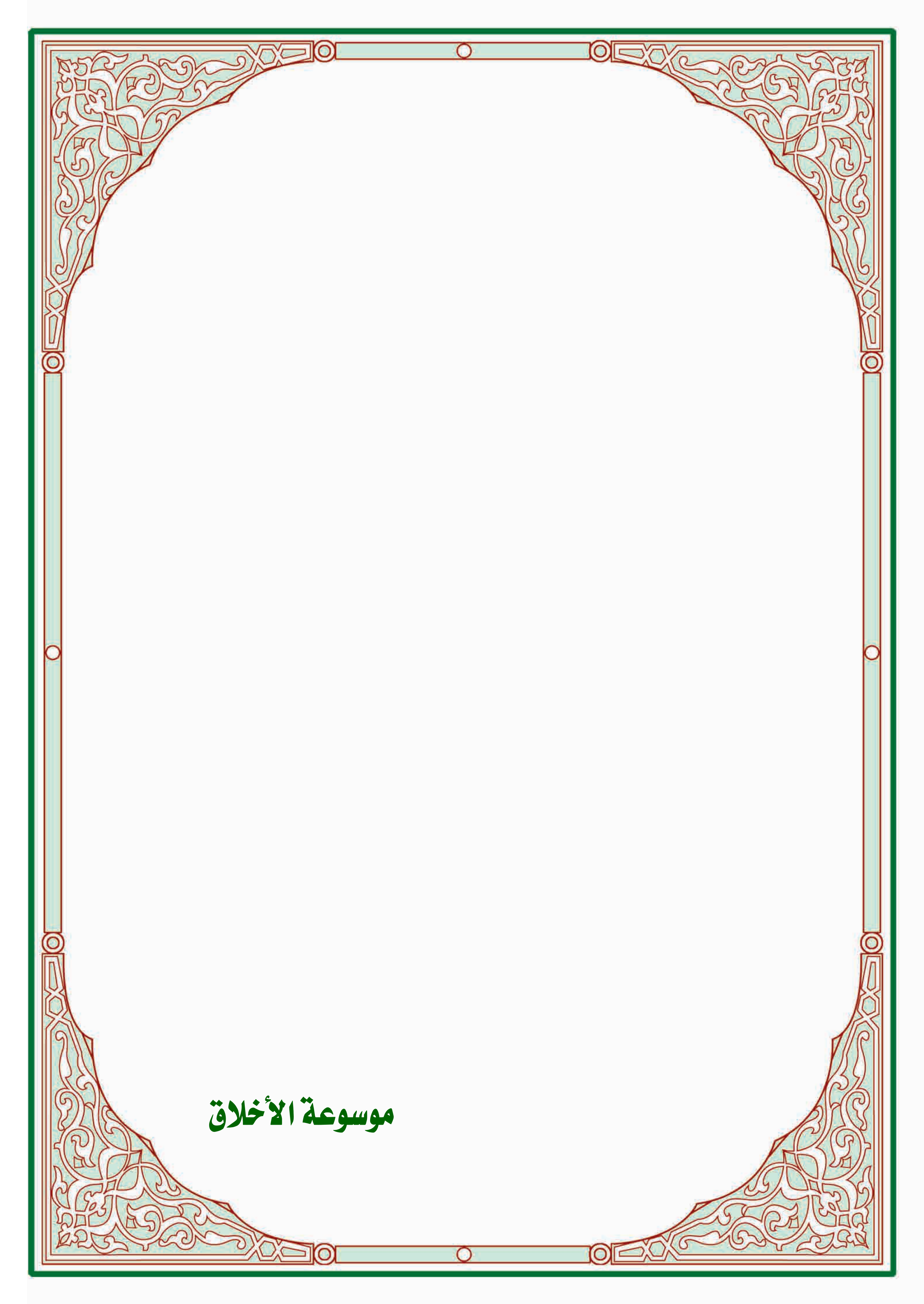
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الثامن

الصِّدْق - الصَّمْت - العَدْل

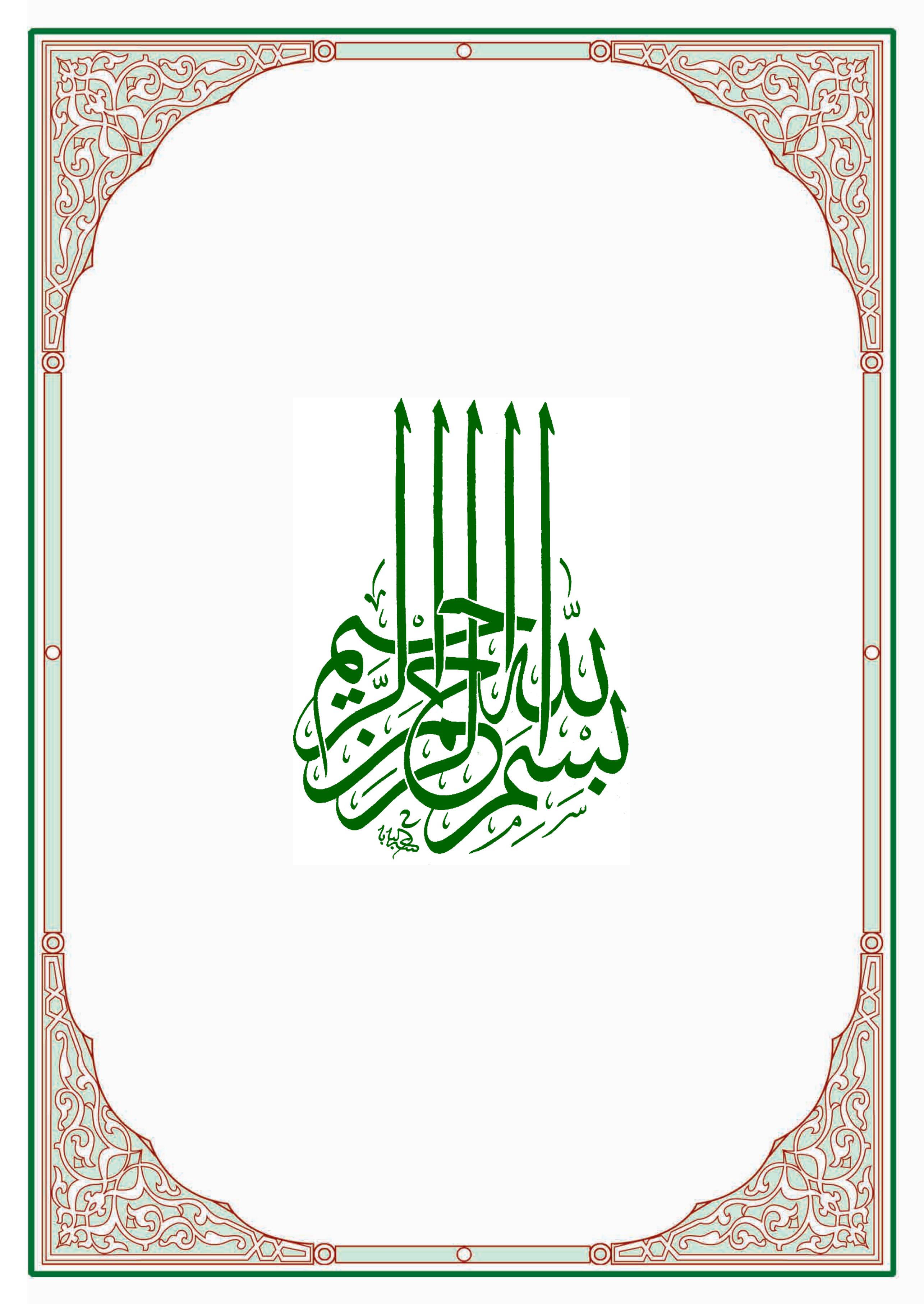
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



الصِّدْق



الصِّدْق

معنى الصدق لغةً واصطلاحًا:

• معنى الصدق لغةً:

الصدق ضدُّ الكذب، صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا، وصَدَّقه: قَبِل قولَه، وصدَقَه الحديث: أَنبأَه بالصِّدْق، ويقال: صَدَقْتُ القوم. أي: قلت لهم صِدْقًا وتصادقا في الحديث وفي المودة[1].

• معنى الصدق اصطلاحًا:

الصدق: (هو الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب)[2].

وقال الباجي: (الصدق الوصف للمخبَر عنه على ما هو به)[3].

وقال الراغب الأصفهاني: (الصدق مطابقة القول الضمير والمخبَر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًّا)[4].

الفرق بين الصدق وبعض الصفات:

• الفرق بين الحقِّ والصدق:

(الحق في اللغة: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، من حقَّ الشيء يحقُّ إذا ثبت ووجب. وفي اصطلاح أهل المعاني: الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال، والعقائد، والأديان، والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل.

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/١٩٣)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ١٧٤).

(٢) ((الواضح في أصول الفقه)) لابن عقيل (١/١٢٩).

(٣) ((إحكام الفصول)) للباجي (ص ٢٣٥).

(٤) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص ٢٧٠).

وأما الصدق، فقد شاع في الأقوال خاصة، ويقابله الكذب.

وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق: من جانب الواقع، وفي الصدق: من جانب الحكم.

فمعنى صدق الحكم: مطابقته للواقع.

ومعنى حقيته: مطابقة الواقع إياه، وقد يطلق الحق على الموجد للشيء، وعلى الحكمة، ولما يوجد عليه، كما يقال: الله: حق، وكلمته: حق)[١].

- **الفرق بين الوفاء والصدق:**

(قيل: هما أعم وأخص.

فكل وفاء صدق، وليس كل صدق وفاء.

فإن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلا في القول؛ لأنه نوع من أنواع الخبر، والخبر قول)[٢].

- **الفرق بين الصَّادق والصِّدِّيق:**

قال الماوردي: (والفرق بين الصَّادق والصِّدِّيق: أن الصادق في قوله بلسانه، والصديق من تجاوز صدقه لسانه إلى صدق أفعاله في موافقة حاله لا يختلف سره وجهره، فصار كلُّ صِدِّيق صادقًا، وليس كل صادق صِدِّيقًا)[٣].

أهمية الصدق في المجتمع:

(تبدو لنا حاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق، حينما نلاحظ أن

---

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ١٩٤).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٥٧٥).
(٣) ((تفسير الماوردي)) (٣/٤٣).

شطرًا كبيرًا من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، تعتمد على شرف الكلمة، فإذا لم تكن الكلمة معبرة تعبيرًا صادقًا عما في نفس قائلها، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف فيها إرادات الناس، ونعرف فيها حاجاتهم ونعرف فيها حقيقة أخبارهم.

لولا الثقة بشرف الكلمة وصدقها لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس، ويكفي أن نتصور مجتمعًا قائمًا على الكذب؛ لندرك مبلغ تفككه وانعدام صور التعاون بين أفراده.

كيف يكون لمجتمع ما كيان متماسك، وأفراده لا يتعاملون فيما بينهم بالصدق؟! وكيف يكون لمثل هذا المجتمع رصيد من ثقافة، أو تاريخ، أو حضارة؟!

كيف يوثق بنقل المعارف والعلوم إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني؟!

كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع؟!

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟!

كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟!)[1].

يقول ابن القيم في الصدق إنه: (منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (١/٤٨٥).

الهالكين، وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تردَّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة، التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين، وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩])[1].

وقال أبو حاتم: (إنَّ الله جلَّ وعلا فضَّل اللسان على سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلته، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يعود آلة خلقها الله للنطق بتوحيده بالكذب، بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعه في داريه؛ لأنَّ اللسان يقتضي ما عُوِّد؛ إن صدقًا فصدقًا، وإن كذبًا فكذبًا)[2].

الترغيب في الصدق:

أولًا: في القرآن الكريم

أمر الإسلام بالصدق وحث عليه في كل المعاملات التي يقوم بها المسلم، والأدلة كثيرة من القرآن الكريم على هذا الخلق النبيل:

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/٥).

(٢) ((روضة العقلاء)) (ص ٥١).

- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

(أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا)[١].

وعن عبد الله بن عمر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما.

وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكفِّ عن أهل الملة)[٢].

- ووصف الله به نفسه فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

- وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال الشوكاني: (قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إلى المطيعين، كما تفيده من ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩] بدخول الجنة، والوصول إلى ما أعدَّ الله لهم، والصدِّيق المبالغ في الصدق، كما تفيده الصيغة، وقيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء، والشهداء: من ثبتت لهم الشهادة، والصالحين: أهل الأعمال الصالحة)[٣].

---

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٤/٢٣٠).
(٢) ((المصدر السابق)) (٤/٢٣١).
(٣) ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/١٧٢).

- وقوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

(أي: ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم، ونطقت به جوارحهم فافتضحوا)(١).

- وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ (أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعدٍّ وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشرِّ، الذي من قام بهنَّ، فقد قام بالدين كلِّه، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم)(٢).

ثانيًا: في السنة النبوية

جاءت الأحاديث النبوية متضافرة في الحث على الصدق، والأمر به، وأنَّه وسيلة إلى الجنة.

(١) ((معالم التنزيل)) للبغوي (٣/١٢٣).
(٢) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (٦٦٤).

- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((إنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وإنَّ الرجل ليصدق حتى يكون صِدِّيقًا، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا))[١].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (قال العلماء: هذا فيه حث على تحرِّي الصدق، وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه؛ فإنَّه إذا تساهل فيه كثر منه، فعرف به، وكتبه الله لمبالغته صِدِّيقًا إن اعتاده، أو كذَّابًا إن اعتاده. ومعنى يكتب هنا يحكم له بذلك، ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذابين وعقابهم، والمراد إظهار ذلك للمخلوقين، إما بأن يكتبه في ذلك؛ ليشتهر بحظِّه من الصفتين في الملأ الأعلى، وإما بأن يلقي ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، وكما يوضع له القبول والبغضاء، وإلا فقدر الله تعالى وكتابه السابق بكلِّ ذلك)[٢].

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك في الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة))[٣].

- وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدَّثتم،

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).
(٢) ((شرح صحيح مسلم)) (١٦/٢٤١-٢٤٣).
(٣) رواه أحمد (٢/١٧٧) (٦٦٥٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٤٤٩). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/١٦)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/٢٩٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (١٧١٨).

وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم))[(١)].

(أي: ((اضمنوا لي ستًّا)) من الخصال، ((من أنفسكم)) بأن تداوموا على فعلها، ((أضمن لكم الجنة)) أي دخولها، ((اصدقوا إذا حدثتم)) أي: لا تكذبوا في شيء من حديثكم، إلا إن ترجح على الكذب مصلحة أرجح من مصلحة الصدق، في أمر مخصوص، كحفظ معصوم...)[(٢)].

- وعن أبي محمد، الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك؛ فإنَّ الصدق طمأنينة، والكذب ريبة))[(٣)].

(أي: اترك ما تشكُّ في كونه حسنًا أو قبيحًا، أو حلالًا أو حرامًا، ((إلى ما لا يريبك)) أي: واعدل إلى ما لا شك فيه يعني ما تيقنت حسنه وحِلَّه، ((فإنَّ الصدق طمأنينة)) أي: يطمئن إليه القلب ويسكن، وفيه إضمار أي محلُّ طمأنينة أو سبب طمأنينة، ((وإنَّ الكذب ريبة)) أي: يقلق القلب ويضطرب، وقال الطِّيبي: جاء هذا القول ممهدًا لما تقدمه من الكلام، ومعناه: إذا وجدت نفسك ترتاب في الشيء فاتركه؛ فإنَّ نفس المؤمن تطمئنُّ إلى الصدق وترتاب من الكذب، فارتيابك من الشيء منبئ عن كونه مظنَّة للباطل

---

(١) رواه أحمد (٥/٣٢٣) (٢٢٨٠٩)، والحاكم (٤/٣٩٩)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٦٩١). وقال الذهبي في ((المهذب)) (٢/٢٤٥١)، وحسن إسناده ابن كثير في جامع ((المسانيد والسنن)) (٥٨٠٧).

(٢) ((فيض القدير شرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/٦٨٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١). وقال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه النووي في ((المجموع)) (١/١٨١)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣١٨).

فاحذره، وطمأنينتك للشيء مشعر بحقيقته فتمسك به، والصدق والكذب يستعملان في المقال والأفعال وما يحقُّ أو يبطل من الاعتقاد، وهذا مخصوص بذوي النفوس الشريفة القدسية المطهرة عن دنس الذنوب، ووسخ العيوب)(١).

- وعن أبي سفيان في حديثه الطويل في قصة هرقل عظيم الروم قال هرقل: فماذا يأمركم -يعني النبي صلى الله عليه وسلم- قال أبو سفيان قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والصدقة، والعفاف، والصلة(٢).

أقوال السلف والعلماء في الصدق:

- قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما بويع للخلافة: (أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة)(٣).

- وقال عمر: (لا يجد عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وهو محقٌّ، ويدع الكذب في المزاح، وهو يرى أنَّه لو شاء لغلب)(٤).

- وعن عبد الله بن عمرو قال: (ذر ما لست منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن دراهمك)(٥).

- وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]: (أي لا تخلطوا الصدق بالكذب)(٦).

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٧٢٤).

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) رواه الطبري في ((التاريخ)) (٣/٢١٠)، وابن الأثير في ((الكامل)) (٢/١٩٢).

(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص ٥٥).

(٥) رواه البيهقي في ((الشعب)) (٧/٦٦) (٤٦٥٣)، وابن حبان ((روضة العقلاء)) (٥٥).

(٦) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١/٥٦٨).

- وعن إسماعيل بن عبيد الله قال: (كان عبد الملك بن مروان يأمرني أن أُجنِّب بنيه السمن، وكان يأمرني أن لا أطعم طعامًا حتى يخرجوا إلى البراز[١]، وكان يقول: علِّم بنيَّ الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم الكذب، وإن فيه كذا وكذا يعني القتل)[٢].

- وقال ميمون بن ميمون: (من عُرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه)[٣].

- وقال الفضيل بن عياض: (ما من مضغة أحب إلى الله من لسان صدوق، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب)[٤].

- وقالوا: (من شرف الصدق أن صاحبه يصدق على عدوه)[٥].

- وقال الأحنف لابنه: (يا بني، يكفيك من شرف الصدق، أنَّ الصادق يُقبل قوله في عدوه، ومن دناءة الكذب، أن الكاذب لا يُقبل قوله في صديقه ولا عدوه، لكلِّ شيء حِليةٌ، وحليةُ المنطق الصدق؛ يدلُّ على اعتدال وزن العقل)[٦].

- وقال إبراهيم الخواص: (الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه)[٧].

- وقيل: (ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة والملاحة والهيبة)[٨].

---

(١) البراز: المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/٣٠٩).
(٢) ((روضة العقلاء)) لأبي حاتم البستي (ص ٥١).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٢/٢٧).
(٤) ((روضة العقلاء)) لأبي حاتم البستي (ص ٥٢).
(٥) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٢/٢٦).
(٦) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/٢٢٤).
(٧) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/٢٠).
(٨) ((المصدر السابق)).

- وقال أبو حاتم: (الصدق يرفع المرء في الدارين كما أنَّ الكذب يهوي به في الحالين، ولو لم يكن الصدق خصلة تحمد؛ إلا أنَّ المرء إذا عرف به قُبل كذبه، وصار صدقًا عند من يسمعه؛ لكان الواجب على العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه حتى يستقيم له على الصدق، ومجانبة الكذب، والعيُّ في بعض الأوقات خير من النطق؛ لأنَّ كلَّ كلام أخطأ صاحبه موضعه، فالعيُّ خير منه)[١].

- وقال الجنيد: (حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب)[٢].

- وقال القيني: (أصدق في صغار ما يضرني، لأصدق في كبار ما ينفعني)[٣].

- وقال بعض البلغاء: (الصادق مصان جليل، والكاذب مهان ذليل). وقال بعض الأدباء: (لا سيف كالحق، ولا عون كالصدق)[٤].

- وقال بعضهم: (من لم يؤدِّ الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت، قيل: وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق وقيل: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل، وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك؛ فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك؛ فإنه يضرك، وقيل: ما أملق[٥] تاجر صدوق)[٦].

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ٥٤).
(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٢/ ٢٨).
(٤) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٧٠).
(٥) أملق الرجل، فهو مملق إذا افتقر. ((لسان العرب)) (١٠/ ٣٤٨).
(٦) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٢).

- (وروي أن بلالًا لم يكذب منذ أسلم، فبلغ ذلك بعض من يحسده، فقال: اليوم أكذبه فسايره، فقال له: يا بلال ما سنُّ فرسك؟ قال عظم، قال: فما جريه؟ قال: يحضر[١] ما استطاع، قال: فأين تنزل؟ قال: حيث أضع قدمي، قال: ابن من أنت؟ قال ابن أبي وأمي، قال: فكم أَتى عليك؟ قال: ليالٍ وأيامٌ، الله أعلم بعدها، قال: هيهات، أعيت فيك حيلتي، ما أتعب بعد اليوم أبدًا)[٢].

فوائد الصدق[٣]:

إذا تمكن الصدق من القلب سطع عليه نوره، وظهرت على الصادق آثاره، في عقيدته وعباداته، وأخلاقه وسلوكياته، ومن هذه الآثار:

١- سلامة المعتقد:

فمن أبرز آثار الصدق على صاحبه: سلامة معتقده من لوثات الشرك ما خفي منه وما ظهر.

٢- البذل والتضحية لنصرة الدين:

فالصادق قد باع نفسه وماله وعمره لله، ولنصرة دين الله؛ إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، همه رضا مولاه.

٣- الهمة العالية:

الصادقون أصحاب همة عالية، وعزيمة قوية ماضية، همهم رضا ربهم، يسيرون معها أين توجهت ركائبها، ويستقلون معها أين استقلت مضاربها؛

---

(١) الحضر: ارتفاع الفرس في عدوه. ((القاموس المحيط)) (ص ٣٧٦).

(٢) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/٢٢٥).

(٣) ((الرائد... دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (٣/٢٥٨). بتصرف.

ترى الصادق قد عمَّر وقته بالطاعات، وشغله بالقربات، (فبينما هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو، ثم في حجٍّ، ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثم في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم – إن أمكن – إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

٤- تلافي التقصير واستدراك التفريط:

الصادق قد تمر به فترة ولكنها إلى سنة، وقد يعتريه تقصير ولكنه سرعان ما يتلافاه بتكميل، وقد يلم بذنب ولكنه سريع التيقظ والتذكر، فيقلع ويندم ويرجع: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقد يحصل منه تفريط فيستدرك، فبالصدق يتلاقى كل تفريط، فيصلح من قلبه ما مزقته يد الغفلة والشهوة، ويعمر منه ما خربته يد البطالة، ويلم منه ما شعثته يد التفريط والإضاعة.

٥- حب الصالحين وصحبة الصادقين:

من علامات الصادق وأثر الصدق في قلبه، أنه يضيق بصحبة أهل الغفلة، ولا يصبر على مخالطتهم إلا بقدر ما يبلغهم به دعوة الله، وينشر الخير بينهم، فلا يصحبهم إلا لضرورة من دين أو دنيا؛ ذلك لأن ((المرء على دين خليله))[1]، والصاحب ساحب، وكل قرين بالمقارن يقتدي؛ ولهذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترِّمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/٣٣٤) (٨٣٩٨) واللَّفظ له، والحاكم (٤/١٨٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٥٥) (٩٤٣٦). قال التِّرمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٦/٤٧٠): حسن غريب. وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧)، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).

قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال الله تعالى للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فمجالسة الصالحين نعمة يستعين بها المرء للوصول إلى رضا ربه.

٦- الثبات على الاستقامة:

فمن آثار الصدق تمسك الصادق بدينه عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة، سلوكًا وهديًا؛ فالتزامه بهذا الدين ليس انتقائيًّا، يلتزم بما يهوى، ويترك ما لا يروق له ولا تشتهيه نفسه، كما أنَّه التزام ثابت راسخ غير متذبذب ولا متردد، لا تغويه الشبهات، ولا تغريه الشهوات، ولا تستنزله الفتن، ولا تزلزله المحن.

٧- البعد عن مواطن الريب:

((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الصدق طمأنينة والكذب ريبة))[١].

(فيه إشارة إلى الرجوع إلى القلوب الطاهرة والنفوس الصافية عند الاشتباه، فإن نفس المؤمن جبلت على الطمأنينة إلى الصدق، والنفر من الكذب)[٢].

٨- حصول البركة في البيع والشراء:

((البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه النووي في ((المجموع)) (١/١٨١)، وصححه الشوكاني كما في ((الفتح الرباني)) (٢/٢٨٤)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٣٧٨)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣١٨).

(٢) ((تطريز رياض الصالحين)) لفيصل المبارك (ص ٥٥).

كتما وكذبا محقت بركة بيعهما))[١].

(حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط وهو الصدق والتبيين، ومحقها إن وجد ضدهما وهو الكذب)[٢].

٩- الوفاء بالعهود:

قال أبو إسماعيل الهروي: ((وعلامة الصادق: ألا يتحمل داعية تدعو إلى نقض عهد)).

صور الصدق[٣]:

الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدِّيق.

١- صدق اللسان:

وهو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. وصدق اللسان لا يكون إلا في الإخبار، أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه، وحقٌّ على كلِّ عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق.

فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولهذا الصدق كمالان، فالأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضًا، إلا عند الضرورة، والكمال الثاني أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

(٢) ((فتح الباري)) لابن رجب (٣١١/٤).

(٣) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣٨٧/٤) بتصرف.

٢- صدق النية والإرادة:

ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا.

٣- صدق العزم:

فإنَّ الإنسان قد يقدم العزم على العمل؛ فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالًا تصدقت بجميعه أو بشطره، أو إن لقيت عدوًّا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال، وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة.

٤- صدق الوفاء بالعزم:

فإنَّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال؛ إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة، وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فقد روي عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، أما والله، لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرينَّ الله ما أصنع، قال: فشهد أُحُدًا في العام القابل،

فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال واهًا[١] لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون؛ ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه. فنزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][٢].

٥- صدق في الأعمال:

وهو أن يجتهد حتى لا تدلَّ أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائمًا بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابًا هو فيه كاذب، وهو مطالب بالصدق في الأعمال، وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار، وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله، وإن لم يكن ملتفتًا إلى الخلق ولا مرائيًا إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرًا من ظاهره.

٦- الصدق في مقامات الدين:

وهو أعلى الدرجات وأعزها، ومن أمثلته: الصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل وغيرها من الأمور.

---

(١) واها كلمة تحنن وتلهف. ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/٤٨).

(٢) انظر ما رواه البخاري (٢٨٠٥).

دواعي الصدق:

هناك دوافع تجعل الإنسان حريصًا على الصدق، متحريًا له، وقد ذكر الماوردي منها: (العقل؛ لأنه موجب لقبح الكذب، لا سيما إذا لم يجلب نفعًا ولم يدفع ضررًا . والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنًا، ويمنع من إتيان ما كان مستقبحًا.

ومنها: الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب؛ لأنَّ الشرع لا يجوز أن يرد بإرخاص ما حظره العقل، بل قد جاء الشرع زائدًا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب؛ لأن الشرع ورد بحظر الكذب، وإن جرَّ نفعًا، أو دفع ضررًا. والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعًا، ولا يدفع ضررًا .

ومنها: المروءة؛ فإنها مانعة من الكذب باعثة على الصدق؛ لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرهًا، فأولى من فعل ما كان مستقبحًا .

ومنها: حب الثناء والاشتهار بالصدق، حتى لا يُردَّ عليه قول، ولا يلحقه ندم)[1].

الأمور التي تخلُّ بالصدق[2]:

هذه بعض الآفات التي تخل بصدق المسلم، وتوهن أركان الصدق في شخصيته؛ ولذا يجب الحذر منها، ومجاهدة النفس على الابتعاد عنها، والتخلص منها، ومن هذه الأمور:

١- الكذب الخفي:

الرياء وهو الشرك الخفي، الذي تختلف فيه سريرة المرء عن علانيته، وظاهره

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي. بتصرف.

(٢) ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (٣/٢٥٥). بتصرف يسير.

عن باطنه، قال صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناس، اتقوا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. قالوا: وكيف نتقيه يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه))(١).

٢- الابتداع:

إنَّ من كمال الصدق حسن الاتباع، وبقدر استمساك المرء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم يكون صدقه مع ربه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، أي: إن كنتم صادقين في محبتكم لربكم اتبعوا سنة رسولكم صلى الله عليه وسلم، فعلامة صدق المحبة كمال الاتباع؛ ولهذا (كانت الصديقيَّة: كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهرًا وباطنًا).

٣- كثرة الكلام:

من كثر كلامه كثر سقطه؛ إذ لا يخلو – في كثير من الأحيان – من التزيد واللغو أو الهذر الذي إذا لم يضرَّ فإنَّه لا ينفع، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ومن الكذب أن يحدث الإنسان بكلِّ ما يسمع من أحاديث وأخبار دون تحرير لها ولا تنقيح؛ لأنه بتهاونه وإهماله وعدم تحريه الصدق في الأخبار يساهم

---

(١) رواه أحمد (٤٠٣/٤) (١٩٦٢٢)، وابن أبي شيبة (٧٠/٦) (٢٩٥٤٧)، والطبراني في ((الأوسط)) (١٠/٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢٢٦/١٠): رجاله رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان. وحسنه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٦).

في نشر الأكاذيب وإشاعتها؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ((كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكلِّ ما سمع))[١].

٤- مداهنة النفس:

الاسترسال مع النفس في أهوائها وشهواتها، ليست من صفات الصادقين؛ ولهذا قيل: (لا يشمُّ رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره)[٢]. فكلما ألجمها بلجام المجاهدة، وزمَّها بزمام المراقبة والمحاسبة، ثبتت على الصدق قدمه.

٥- التناقض بين القول والعمل:

لقد عدَّ بعض السلف مخالفة عمل المرء لقوله أمارة كذب ونفاق. قال إبراهيم التيمي: (ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا)[٣].

الوسائل المعينة على الصدق[٤]:

الصدق شديد على النفس؛ ولهذا قال ابن القيم: (فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة، لا يجد له صاحبه ثقلًا البتة، فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة، فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله) وإليك بعض الوسائل التي تعين على الصدق:

١- مراقبة الله تعالى:

إن إيمان المرء بأن الله عز وجل معه، يبصره ويسمعه؛ يدفعه للخشية

---

(١) رواه مسلم في المقدمة (باب النهي عن الحديث بكل ما سمع).

(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٣١١).

(٣) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل حديث (٤٨)، ووصله ابن أبي شيبة (٧/١٦٠) (٣٤٩٧٠)، واللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة)) (١٥٨٠).

(٤) ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (٣/٢٥١). بتصرف يسير.

والتحفظ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. [المجادلة: ٧] وعندما يستحضر أن كلماته وخطراته، وحركاته وسكناته كلها محصية مكتوبة: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، فإن ذلك يقوده إلى رياض الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال.

٢- الحياء:

الحياء يحجب صاحبه عن كل ما هو مستقبح شرعًا وعرفًا وذوقًا، والمرء يستحيي أن يعرف بين الناس أنه كذاب، وهذا هو الذي حمل أبا سفيان -وهو يومئذ مشرك- أن يصدق هرقل وهو يسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو سفيان: (فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه)[١]، أي: ينقلوا عليَّ الكذب لكذبت عليه. قال ابن حجر: (وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب، إما بالأخذ عن الشرع السابق، أو بالعرف.. وقد ترك الكذب استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعي ذلك كذابًا)[٢]. قلت: فالمسلم أولى بالحياء من ربه أن يسمعه يقول كذبًا، أو يطلع على عمل، أو حال هو فيه كاذب.

٣- صحبة الصادقين:

فقد أمر الله -عز وجل- المؤمنين أن يكونوا مع أهل الصدق، فقال -عز

(١) رواه البخاري (٧).

(٢) ((فتح الباري)) لابن حجر (١/٣٥)، بتصرف يسير.

وجل-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، أي: اقتدوا بهم واسلكوا سبيلهم، وهم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم، ووفوا بعهودهم وصدقوا في أقوالهم وأعمالهم.

٤- إشاعة الصدق في الأسرة:

الإسلام يوصي أن تغرس فضيلة الصدق في نفوس الأطفال، حتى يشبوا عليها، وقد ألفوها في أقوالهم وأحوالهم كلها.

فعن عبد الله بن عامر قال: ((دعتني أمي يومًا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: تعال أعطك، فقال لها صلى الله عليه وسلم: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمرًا، فقال لها: أما لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة))[١].

٥- الدعاء:

لما كان حمل النفس على الصدق في جميع أمورها شاق عليها، ولا يمكن لعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه، أمر الله نبيه أن يسأله الصدق في المخرج والمدخل، فقال عز وجل: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾. [الإسراء: ٨٠] وقد ذكر المفسرون عدة أقوال في تأويلها.

٦- معرفة وعيد الله للكذابين وعذابه للمفترين:

قد جاءت النصوص الكثيرة التي تحذر من الكذب، وتبين سوء عاقبته في الدنيا والآخرة؛ ولهذا فإنَّ تذكير النفس بها، مما يعين المرء على الصدق في أحواله كلها.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩١)، وأحمد (٣/٤٤٧) (١٥٧٤٠). وسكت عنه أبو داود، وحسنه ابن حجر في ((تخريج المشكاة)) (٤/٣٩٥)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٤٩٩١).

نماذج في الصدق:

• نماذج من حياة الأنبياء عليهم السلام مع الصدق:

الأنبياء عليهم السلام كلهم موصوفون بالصدق، وقد ذكر الله أنبياءه بالصدق فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦].

وأثنى الله على إسماعيل، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤].

وَوُصِفَ يوسف عليه السلام بالصدق حينما جاءه الرجل يستفتيه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ [يوسف: ٤٦].

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ﴾. [الزمر: ٣٣] قال السعدي في تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ (أي: في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره)[1].

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٧٢٤).

صدق إمام الصادقين النبي صلى الله عليه وسلم:

(الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان فيما قال له: ((أوَ كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل[1])).)[2].

قال علي رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس صدرًا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة[3]، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة[4] هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم)[5].

ويعلق ابن القيم على كلام عليٍّ قائلًا: (وقوله: أصدق الناس لهجة. هذا مما أقر له به أعداؤه المحاربون له، ولم يجرب عليه أحد من أعدائه كذبة واحدة

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٤/٦٠٥).

(٣) العريكة: الطبيعة. يقال: فلان لينِّ العريكة إذا كان سَلِسًا مُطَاوِعًا مُنْقَادًا قليل الخلاف والنُّفور. ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (١/١٠٨).

(٤) بَديهةً أي: مُفاجأة وبَغْتة، يعني من لَقِيه قبل الاختلاط به هابه لوقاره وسكونه، وإذا جالسه وخالطه بان له حسن خُلُقه. ((النهاية في غريب الحديث والثر)) لابن الأثير (١/١٠٨).

(٥) رواه الترمذي باختلاف يسير في بعض ألفاظه (٣٦٣٨)، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١١/٥١٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/١٤٨) (١٤١٥).

قال الترمذي: حسن غريب ليس إسناده بمتصل، وقال ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٧/٣٣٦): من أحسن شيء في صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وضعفه الألباني في ((ضعيف سنن الترمذي)) (٣٦٣٨).

قط، دع شهادة أوليائه كلهم له به، فقد حاربه أهل الأرض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم وليس أحد منهم يومًا من الدهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة.

قال المسور بن مخرمة قلت لأبي جهل- وكان خالي-: يا خال، هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته؟ فقال: والله يا ابن أختي، لقد كان محمد وهو شاب يُدعى فينا الأمين، فلما وخطه الشيب[١] لم يكن ليكذب. قلت: يا خال، فلم لا تتبعونه؟ فقال: يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان[٢]، قالوا: منا نبي. فمتى نأتيهم بهذه؟ أو كما قال)[٣].

وقد روى البخاري من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: ((لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعِد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي- لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١- ٢]))[٤].

---

(١) وخطه الشيب: أي خالطه. ((الصحاح)) للجوهري (٣/٦٦).
(٢) أي: متساويين. ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/١٢٤).
(٣) ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص ١٨٣).
(٤) رواه البخاري (٤٧٧٠).

• نماذج من صدق الصحابة رضي الله عنهم:

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

أبو بكر الصديق رضي الله عنه صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ورفيقه في الغار، وقد سُمِّي صديقًا لتصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى؛ أصبح يتحدث الناس بذلك؛ فارتدَّ ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنَّه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سُمِّي أبا بكر الصديق رضي الله عنه[(١)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حقِّه: ((إنَّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. في أول الأمر، وقال أبو بكر: صدقت. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟! فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟! فما أوذي بعدها))[(٢)].

أبو ذر رضي الله عنه صادق اللهجة:

كان أبو ذر رضي الله عنه صادق اللهجة[(٣)]، فقد قال عنه النبي صلى الله

---

(١) رواه الحاكم (٨١/٣) (٤٤٥٨)، وعبد الرزاق في ((المصنف)) (٣٢١/٥)، والآجري في ((الشريعة)) (١٠٣٠). وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٣٠٦): متواتر.

(٢) رواه البخاري (٣٦٦١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) اللهجة: هي لغة الإنسان التي جُبِل عليها فاعتادها. ومعنى صادق اللهجة: أنه لا يذهب إلى التورية والمعاريض في الكلام، فلا يرخي عنان كلامه، ولا يحابي مع الناس ولا يسامحهم، =

عليه وسلم: ((ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء -لا الأرض ولا السماء- من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، وهو شبيه عيسى ابن مريم))[١].

كعب بن مالك رضي الله عنه ينجو بالصدق:

وإليك قصة كعب بن مالك تبين صدق الصحابة رضي الله عنهم، ووقعت أحداث هذه القصة في غزوة تبوك، ولنترك الحديث لعبد الله بن كعب بن مالك، يروي لنا تفاصيل ما حدث، فعن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلَّف عن قصة تبوك، قال كعب: ((لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهد بدر. وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه، في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا وعدوًّا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي

= ويظهر الحق البحت، والصدق المحض. انظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (١٠/٢٠٦)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/٢٠٤١).

(١) رواه الترمذي (٣٨٠٢)، وابن حبان (١٦/٧٦) (٧١٣٢). قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وصحح إسناده ابن جرير الطبري في ((مسند علي)) (١٥٩)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٥٣٧).

يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلًا حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدًا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلَّ قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله صلى الله عليه و سلم قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس؛ فلما فعل

ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟! فقلت: بلى، إني والله- يا رسول الله- لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلًا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدَّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك. فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرًا فيهما أُسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا... فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء فرج،

وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبي مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة، يقولون: لِتَهْنِك(١) توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو يبرق وجهه من السرور-: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سرَّ استنار وجهه، حتى كأنَّه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إنَّ مِن توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إنَّ الله إنما نجاني بالصدق، وإنَّ مِن توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك

---

(١) التهنئة خلاف التعزية. يقال: هنأه بالأمر والولاية هنأ وهنأه تهنئة وتهنيئا إذا قلت له ليهنئك. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ١٨٥).

لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ -إلى قوله- ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩]، فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلِك، كما هلك الذين كذبوا، فإنَّ الله قال للذين كذبوا -حين أنزل الوحي- شرَّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ -إلى قوله- ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]))[1].

وقد ذكر ابن القيم الفوائد المستنبطة من هذه القصة، فقال: (ومنها عظم مقدار الصدق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء. فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس. فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب. وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم. وجعل علم المنافقين الذي تميزوا به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم، فجميع ما نعاه

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

عليهم أصله الكذب في القول والفعل، فالصدق بريد الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، بل هو لبه وروحه. والكذب بريد الكفر والنفاق، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، ولبه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه، والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المخلفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده)[١].

عبد الله بن جحش رضي الله عنه:

عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي ((أنَّ عبد الله بن جحش قال يوم أحد: ألا نأتي ندعو الله، فخلوا في ناحية فدعا سعد قال: يا رب، إذا لقينا القوم غدًا فلقني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده[٢]، فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سَلَبه[٣]، فأمَّن عبد الله ابن جحش، ثم قال: اللهم ارزقني غدًا رجلًا شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع[٤] أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبد الله، فيمَ جُدع أنفك وأذنك؟! فأقول: فيك وفي رسولك صلى الله عليه وسلم، فتقول: صدقت. قال سعد بن أبي وقاص: يا بني، كانت دعوة

---

(١) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/٤٨٠).

(٢) الحرد الغضب. ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ١٤٦).

(٣) السلب: وهو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٨٧).

(٤) الجدع: قطع الأنف، والأذن- والشفة، وهو بالأنف أخص، فإذا أطلق غلب عليه. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٤٦).

عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار، وإن أذنه وأنفه لمعلَّقان في خيط))[1].

معنى ما أضيف إلى الصدق من المدخل والمخرج واللسان والقدم والمقعد:

ذكر ابن القيم معاني هذه الكلمات في كتابه (مدارج السالكين) فقال:

(وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

- وأخبر عن خليله إبراهيم أنه سأله أنه يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

- وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

- وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق ومخرج الصدق ولسان الصدق وقدم الصدق ومقعد الصدق)[2].

ثم بعد أن سرد الآيات قال: (وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق

---

(١) رواه الحاكم (٢/٨٦)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٧٦٩)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (٣/١٦٠٧). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٩/٣٠٤): رجاله رجال الصحيح. وصحح إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/٢٨٥).

(٢) ((مدارج السالكين)) (٣/٥).

الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

- فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته، بالظفر بالبغية وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة: كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضات الله، فاتصل به التأييد، والظفر، والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله حصن بني قريظة، فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله، وصاحبه ضامن على الله فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره، رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق، ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه، وإلا فمداخله كلها مداخل صدق

ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلًا آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

- وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه صلى الله عليه وسلم من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن، فلما كان الصدق باللسان وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقًا، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا واللغة كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. [النحل: ١٠٣] ويراد به الجارحة نفسها كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

- وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة وفسر بمحمد وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة القدم ما قدموه وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي: فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم، فالثلاثة قدم صدق.

- وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق ودوامه ونفعه وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل)[١].

معنى الصِّدِّيقية:

الصِّدِّيقية: هي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسل[٢].

وقال القرطبي: (الصديق هو الذي يحقق بفعله ما يقوله بلسانه)[٣].

وقال ابن تيمية: (فالصِّدِّيق قد يراد به الكامل في الصدق، وقد يُراد به الكامل في التصديق)[٤].

وقال ابن العربي: (وأما الصِّدِّيق فهو من أسماء الكمال، ومعناه الذي صدَّق علمه بعمله)[٥].

الأمثال في الصدق:

١- قولهم: سُبَّنِي واصْدُق:

يقال ذلك في الحض على الصدق، والنهي عن الكذب، يقول: إني لا أبالي

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/٩).
(٢) ((المصدر السابق)) (٣/٨).
(٣) ((تفسير القرطبي)) (٦/٤٤٩)
(٤) ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٤/٢٦٦).
(٥) ((كتاب التعريفات الاعتقادية)) لسعد آل عبد اللطيف (ص ٢١٨)، نقلاً عن كتاب: ((قانون التأويل)) لابن العربي (ص ٣٤٣).

أن تسبني بما أعرفه من نفسي بعد أن تجانب الكذب[١].

٢- لا يكذِب الرَّائدُ أهله:

والرائد هو الذي يقدمونه ليرتاد لهم كلأً أو منزلًا أو ماءً أو موضع حرز يلجؤون إليه من عدو يطالبهم، فإن كذبهم أو غرهم صار تدبيرهم على خلاف الصواب، فكانت فيه هلكتهم[٢].

٣- الصدق عزٌّ والكذب خضوع:

يضرب في مدح الصدق وذمِّ الكذب[٣].

٤- إن الكذوب قد يصدق:

يقال في الرجل المعروف بالكذب تكون منه الصدقة الواحدة أحيانًا[٤].

الصدق في واحة الشعر:

قال الشاعر:

عوِّد لسانك قول الخير تحظَ به ... إنَّ اللسان لما عوَّدتَ معتادُ

موكلٌ بتقاضي ما سننتَ له ... فاخترْ لنفسك وانظر كيف ترتادُ[٥]

وقال الكريزي:

كذبت ومن يكذبْ فإنَّ جزاءه ... إذا ما أتَى بالصِّدق أن لا يُصدَّقا

إذا عُرِفَ الكذَّابُ بالكذب لم يزل ... لدى الناس كذَّابًا وإن كان صادقا

(١) ((الأمثال)) لأبي عبيد بن سلام (ص ٤٦).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٤٩).
(٣) ((مجمع الأمثال)) للميداني (ص ٤٠٨).
(٤) ((الأمثال)) لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص ٥٠).
(٥) ((الجليس الصالح الكافي)) للجريري (ص ١٩٤)

ومن آفة الكذَّاب نسيان كذبه وتلقاه ذا فقهٍ إذا كان حاذقا[١]

وأنشد محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا ما المرء أخطأه ثلاثٌ فبِعْه ولو بكفٍّ مِن رمادِ

سلامة صدره والصدق منه وكتمان السَّرائر في الفؤادِ[٢]

وقال آخر:

وإذا الأمور تزاوجت فالصدق أكرمها نتاجا

الصدق يعقد فوق رأس حليفه بالصدق تاجا

والصدق يقدح زَنده في كلِّ ناحية سِراجا[٣]

قال آخر:

تحدَّث بصدق إن تحدَّثتَ وليكنْ لكلِّ حديث من حديثك حينُ

فما القولُ إلا كالثيابِ فبعضُها عليك وبعض في التخوت مصونُ[٤]

وقال آخر:

كم مِن حسيب كريم كان ذا شرفٍ قد شانه الكذب وسط الحي إن عمدا

وآخر كان صعلوكًا فشرَّفه صدقُ الحديث وقول جانب الفندا[٥]

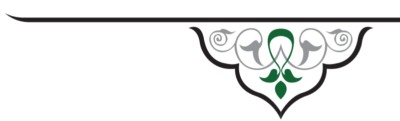
فصار هذا شريفًا فوق صاحبه وصار هذا وضيعًا تحته أبدا[٦]

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٥٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٥٣).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٥٥).
(٥) الفند: الخطأ في القول والرأي. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ٣٠٧).
(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٥٥).



الصَّمْت



الصَّمْت

معنى الصمت لغةً واصطلاحًا:

• معنى الصمت لغةً:

صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وصُموتًا وصُماتًا: سَكَتَ. وأَصْمَتَ مثله، والتصْميتُ: التسكيتُ. ويُقال لغير الناطق: صامت ولا يقال ساكت. وأصمتُّه أنا إصماتًا إذا أَسْكَتُّهُ. وَيُقَال: أَخذه الصُّمات. إِذا سكت فلم يتكلم[١].

• معنى الصمت اصطلاحًا:

قال المناوي: (الصمت: فقد الخاطر بوجد حاضر. وقيل: سقوط النطق بظهور الحق. وقيل: انقطاع اللسان عند ظهور العيان)[٢].

وقال الكفوي: (والصمت إمساك عن قوله الباطل دون الحق)[٣].

الفرق بين الصمت والسكوت[٤]:

١- أن السكوت هو ترك التكلم مع القدرة عليه، وبهذا القيد الأخير يفارق الصمت؛ فإن القدرة على التكلم غير معتبرة فيه.

٢- كما أن الصمت يراعى فيه الطول النسبي، فمن ضم شفتيه آنًا يكون ساكتًا، ولا يكون صامتًا إلا إذا طالت مدة الضم.

٣- السكوت إمساك عن الكلام حقًّا كان أو باطلًا، أما الصمت فهو

---

(١) ((الصحاح تاج اللغة)) للجوهري (١/٢٥٦)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد الأزدي (١/٤٠٠)، ((المعجم الوسيط)) (ص ٥٢٢).

(٢) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص ٢١٩).

(٣) ((الكليات)) (ص ٨٠٦).

(٤) ((نضرة النعيم)) (٧/٢٦٣٤).

إمساك عن قول الباطل دون الحق.

(قال الراغب: الصمت أبلغ من السكوت؛ لأنَّه قد يستعمل فيما لا قوة له للنطق، وفيما له قوة النطق؛ ولهذا قيل لما لا نطق له: الصامت والمصمت، والسكوت يقال لما له نطق فيترك استعماله)[1].

أسماء مرادفة للصمت:

قال النيسابوري[2]: (ترك الكلام له أربعة أسماء:

١- الصمت، وهو أعمها حتى إنه يستعمل فيما ليس يقوى على النطق كقولهم: (مال ناطق أو صامت).

٢- والسكوت، وهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام.

٣- والإنصات، هو السكوت مع استماع قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٤- والإصاخة، وهو الاستماع إلى ما يصعب إدراكه، كالسرِّ والصوت من المكان البعيد).

أهمية الصمت:

إن الشرع قد حث على الصمت ورغب فيه؛ لأنه يحفظ الإنسان من الوقوع في آفات اللسان ومنكرات الأقوال، ويسلم به من الاعتذار للآخرين.

(ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

---

(١) ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) لأبي الحسن الهروي (٣٠٣٨/٧).

(٢) ((غرائب القرآن ورغائب الفرقان)) للنيسابوري (٥٣٧/٤).

أما الذي هو ضرر محض؛ فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر.

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر؛ فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان، وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجًا يخفى دركه، فيكون الإنسان به مخاطرًا ومن عرف دقائق آفات اللسان... علم قطعًا، أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال: ((من صمت نجا))[1]. فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعًا، وجوامع الكلم ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء)[2].

الترغيب في الصمت:

أولًا: في القرآن الكريم

- قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

قال ابن كثير: (﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أي: ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢])[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وأحمد (٢/١٥٩) (٦٤٨١)، والدارمي (٣/١٧٨١) (٢٧٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وثق رواته: المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٣٤٣)، و ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/٣١٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((المسند)) (١٠/١٤٠)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٣٦٧).

(٢) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/١١١-١١٢).

(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (٧/٣٩٨).

وقال الشوكاني: (أي: ما يتكلم من كلام، فيلفظه ويرميه من فيه إلا لديه، أي: على ذلك اللافظ رقيب، أي: ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكاتب الخير هو ملك اليمين، وكاتب الشر ملك الشمال. والعتيد: الحاضر المهيأ. قال الجوهري: العتيد: الحاضر المهيأ،... والمراد هنا أنه معد للكتابة مهيأ لها)[١].

وقال الشنقيطي: (قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾، أي إلا والحال أن عنده رقيبًا، أي ملكًا مراقبًا لأعماله، حافظًا لها شاهدًا عليها لا يفوته منها شيء. ﴿عَتِيدٌ﴾: أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر)[٢].

وقال السمعاني: (أي: رقيب حاضر. قال الحسن: يكتب الملكان كل شيء، حتى قوله لجاريته: اسقيني الماء، وناوليني نعلي، أو أعطيني ردائي. ويقال: يكتب كل شيء حتى صفيره بشرب الماء)[٣].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أبي هريرة -رضي اللّه عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت))[٤].

قال ابن عبد البر: (وفي هذا الحديث آداب وسنن، منها التأكيد في لزوم الصمت، وقول الخير أفضل من الصمت؛ لأن قول الخير غنيمة، والسكوت سلامة، والغنيمة أفضل من السلامة)[٥].

---

(١) ((فتح القدير)) (٥/٨٩).بتصرف

(٢) ((أضواء البيان)) (٧/٤٢٧).

(٣) ((تفسير القرآن)) (٥/٢٤٠).

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٥) ((التمهيد)) لابن عبد البر (٢١/٣٥).

وقال النووي: (وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((فليقل خيرًا أو ليصمت)) فمعناه: أنه إذا أراد أن يتكلم؛ فإن كان ما يتكلم به خيرًا محققًا يثاب عليه واجبًا أو مندوبًا فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين؛ فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورًا بتركه، مندوبًا إلى الإمساك عنه؛ مخافةً من انجراره إلى المحرم أو المكروه، وهذا يقع في العادة كثيرًا أو غالبًا)[١].

- عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من صمت نجا))[٢].

قال القاري: (... ((من صمت)): أي: سكت عن الشرِّ. ((نجا)): أي: فاز وظفر بكل خير، أو نجا من آفات الدارين)[٣].

قال الغزالي: (من تأمل جميع... آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم: ((من صمت نجا))؛ لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم من الكل، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه، إلا أن يوافقه لسان فصيح، وعلم غزير، وورع حافظ، ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام؛ فعساه يسلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين)[٤].

(١) ((شرح النووي على مسلم)) (٢/١٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وأحمد (٢/١٥٩) (٦٤٨١)، والدارمي (٣/١٧٨١) (٢٧٥٥). قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٣٤٣): رواته ثقات. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٣٦٧).

(٣) ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (٧/٣٠٣٨).

(٤) ((إحياء علوم الدين)) (٣/١٦٢) بتصرف .

- عن سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة))[١].

قال ابن عبد البر: (في هذا الحديث دليل على أن أكبر الكبائر إنما هي من الفم والفرج، وما بين اللحيين الفم، وما بين الرجلين الفرج، ومن الفم ما يتولد من اللسان وهو كلمة الكفر، وقذف المحصنات، وأخذ أعراض المسلمين، ومن الفم أيضا شرب الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلمًا، ومن الفرج الزنى واللواط)[٢].

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: (فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه، أو الصمت عما لا يعنيه ضمن له الرسول صلى الله عليه وسلم الجنة... فإن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب، فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم، وقال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وقي شرهما وقي أعظم الشر)[٣].

أقوال السلف والعلماء في الصمت:

أخذ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه بطرف لسانه وقال: (هذا الذي أوردني الموارد)[٤].

- وعن علي رضي الله عنه قال: (بكثرة الصمت تكون الهيبة)[٥].

- و(عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: تعلموا الصمت كما تعلمون

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤).
(٢) ((الاستذكار)) (٨/ ٥٦٥).
(٣) ((فتح الباري)) (١١/٣٠٩-٣١٠).
(٤) رواه مالك (٢/٩٨٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠/٤٠٢) (١١٨٤١).
(٥) ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (٢/١٣٦)، و((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (١/٣٦٠).

الكلام، فإنَّ الصمت حلم عظيم، وكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تتكلم، ولا تتكلم في شيء لا يعنيك، ولا تكن مضحاكًا من غير عجب، ولا مشَّاءً إلى غير أرب)[١].

- (عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: أربعٌ لا يصبن إلا بعجب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله، وقلة الشيء)[٢].

- (وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أفضل العبادة الصمت، وانتظار الفرج)[٣].

- (عن وهيب بن الورد رحمه الله، قال: كان يقال: الحكمة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الصمت، والعاشرة عزلة الناس)[٤].

- و(قال: أبو عمر الضرير: سمعت رياحًا القيسي، يقول: قال لي عتبة: يا رياح، إن كنت كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمت فبئس الناظر أنا، يا رياح، إنَّ لها موقفًا تغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول)[٥].

- وقالوا: (اللسان سبع عقور)[٦].

- (وقال الحسن رحمه الله: إملاء الخير خير من الصمت، والصمت خير

(١) رواه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (ص ١٣٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص ٢٦٢)، وابن أبي عاصم في ((الزهد)) (ص ٣٦)، وابن شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (ص ١١٦)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٦٦/٩) موقوفًا.

(٣) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (٢٤٥/١).

(٤) ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص ٦٢).

(٥) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٢٣٢/٦).

(٦) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (١٧٠/١).

من إملاء الشر)[١].

- وقال عبد الله بن أبي زكريا: (عالجت الصمت ثنتي عشرة سنةً، فما بلغت منه ما كنت أرجو، وتخوفت منه فتكلمت)[٢].

فوائد الصمت[٣]:

للصمت المحمود فوائد عديدة يعود نفعها على الفرد المتحلي به ومنها:

١- دليل كمال الإيمان، وحسن الإسلام.

٢- السلامة من العطب في المال، والنفس، والعرض.

٣- دليل حسن الخلق، وطهارة النفس.

٤- يثمر محبة الله، ثم محبة الناس.

٥- سبب للفوز بالجنة، والنجاة من النار.

٦- من أقوى أسباب التوقير.

٧- دليل على الحكمة.

٨- داعية للسلامة من اللغط.

٩- يجمع للإنسان لبَّه.

١٠- الفراغ للفكر والذكر والعبادة.

١١- جمع الهم ودوام الوقار.

١٢- السلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة.

---

(١) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (٧٨/٢).

(٢) ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص ٣٠٣).

(٣) انظر: ((نضرة النعيم)) (٢٦٤٤/٧)، ((منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول)) لعبد الله بن سعيد الشحاري (ص ٤١٨)، ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١١١/٣).

١٣- يكسبك احترام الآخرين لك، ولاسيما في المواقف التي يدور فيها الجدال والصراع.

١٤- يساعدك على تعلم حسن الإنصات والاستماع.

المفاضلة بين الصمت والكلام:

(الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه، وعند إصابة فرصته. وذاك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عيًّا ولا رهبة. فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص، وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة)[١].

قال النووي: (وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري رحمه الله قال: الصمت بسلامة وهو الأصل، والسكوت في وقته صفة الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال، قال: وسمعت أبا علي الدقاق يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس، قال: فأما إيثار أصحاب المجاهدة السكوت؛ فلما علموا ما في الكلام من الآفات، ثم ما فيه من حظِّ النفس، وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق، وغير هذا من الآفات)[٢].

(فليس الكلام مأمورًا به على الإطلاق، ولا السكوت كذلك، بل لابد من الكلام بالخير، والسكوت عن الشرِّ، وكان السلف كثيرًا يمدحون الصمت عن الشر، وعما لا يعني؛ لشدته على النفس، وذلك يقع فيه الناس كثيرًا، فكانوا يعالجون أنفسهم، ويجاهدونها على السكوت عما لا يعنيهم)[٣].

---

(١) ((الرسائل السياسية)) للجاحظ (ص ٧٩).

(٢) ((شرح النووي على مسلم)) (٢/١٩-٢٠).

(٣) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص ٣٤١).

(ومن مدح الصمت، فاعتبارًا بمن يسيء في الكلام، فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا. فإذا ما اعتبرا بأنفسهما، فمحال أن يقال في الصمت فضل، فضلًا أن يخاير بينه وبين النطق. وسئل حكيم عن فضلهما فقال: الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق، وسئل آخر عن فضلهما فقال: الصمت عن الخنا، أفضل من الكلام بالخطا)[١].

وقال شمس الدين السفاريني: (المعتمد أنَّ الكلام أفضل؛ لأنَّه من باب التحلية، والسكوت من التخلية، والتحلية أفضل، ولأنَّ المتكلم حصل له ما حصل للساكت وزيادةٌ، وذلك أنَّ غاية ما يحصل للساكت السلامة، وهي حاصلةٌ لمن يتكلم بالخير مع ثواب الخير)[٢].

وقال ابن تيمية: (فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء، فذلك من البدع المذمومة أيضًا، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا قائما في الشمس، فقال: ما هذا؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مروه فليجلس، وليستظل، وليتكلم، وليتم صومه)[٣].

(وتذاكروا عند الأحنف بن قيس، أيهما أفضل الصمت أو النطق؟ فقال قوم: الصمت أفضل، فقال الأحنف: النطق أفضل؛ لأنَّ فضل الصمت لا يعدو صاحبه، والمنطق الحسن ينتفع به من سمعه.

---

(١) ((محاسن التأويل)) للقاسمي (٩/١٠٠).

(٢) ((غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب)) (١/٧٤).

(٣) ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) (ص ٦١).

وقال رجل من العلماء عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله: الصامت على علم كالمتكلم على علم، فقال عمر: إني لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلهما يوم القيامة حالًا، وذلك أن منفعته للناس، وهذا صمته لنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين وكيف بفتنة النطق؟ فبكى عمر عند ذلك بكاءً شديدًا)[١].

وقال ابن عبد البر: (الكلام بالخير من ذكر الله وتلاوة القرآن وأعمال البر أفضل من الصمت، وكذلك القول بالحق كله، والإصلاح بين الناس وما كان مثله)[٢].

وقال أيضًا: (مما يبين لك أنَّ الكلام بالخير والذكر أفضل من الصمت أن فضائل الذكر الثابتة في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يستحقها الصامت)[٣].

وقال النيسابوري: (والإنصاف أن الصمت في نفسه ليس بفضيلة، لأنَّه أمر عدمي، والنطق في نفسه فضيلة، وإنما يصير رذيلة لأسباب عرضية مما عددها ذلك القائل، فيرجع الحق إلى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: ((رحم الله امرأً قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم[٤])).)[٥].

وقال علي بن أبي طالب: (لا خير في الصمت عن العلم، كما لا خير في الكلام عن الجهل)[٦].

---

(١) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص ٣٤١).
(٢) ((التمهيد)) (٢٢/٢٠).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص ٧١) من حديث خالد بن أبي عمران رحمه الله.وقال السيوطي في ((الجامع الصغير)) (٤٤٢٧): مرسل حسن.
(٥) ((غرائب القرآن)) (٤/٥٣٧).
(٦) ذكره الرازي في ((تفسيره)) (٢/٤٠١)، والنيسابوري في ((غرائب القرآن)) (١/٢٢٧).

أقسام الصمت:

- **الصمت ينقسم إلى قسمين:**

١- صمت محمود:

أي أن تصمت عن كلِّ ما حرَّم الله ونهى عنه، مثل الغيبة والنَّمِيمَة والبذاءة وغيرها، وكذلك الصمت عن الكلام المباح الذي يؤدِّي بك إلى الكلام الباطل.

قال ابن عبد البر: (وإنما الصمت المحمود الصمت عن الباطل)[١].

وقال العيني: (الصمت المباح المرغوب فيه ترك الكلام الباطل، وكذا المباح الذي يجرُّ إلى شيء من ذلك)[٢].

٢- صمت مذموم:

كالصمت في المواطن التي يتطلَّب منك أن تتكلم فيها، مثل الأماكن التي ترى فيها المنكرات، وكذلك الصمت عن نشر الخير، وكتم العلم.

(وقد اختلف الفقهاء في الصمت هل هو حرام أو مكروه؟ والتحقيق أنه إذا طال، وتضمن ترك الواجب صار حرامًا، كما قال الصديق رضي الله عنه)[٣].

(قال علي بن أبي طالب: لا خير في الصمت عن العلم، كما لا خير في الكلام عن الجهل)[٤].

وقال ابن تيمية: (والصمت عما يجب من الكلام حرام، سواء اتخذه دينًا أو لم يتخذه)[٥].

---

(١) ((التمهيد)) (٢٢/٢٠).
(٢) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (١٦/٢٩١).
(٣) ((مختصر الفتاوى المصرية)) للبعلي (٢٥/٢٩٤).
(٤) ذكره الرازي في ((تفسيره)) (٢/٤٠١)، والنيسابوري في ((غرائب القرآن)) (١/٢٢٧).
(٥) ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/٢٩٤).

وقال أيضًا: (فقول الخير وهو الواجب أو المستحب خير من السكوت عنه)[١].

وقال الباجي: (وأما الصمت عن الخير وذكر الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليس بمأمور به، بل هو منهي عنه نهي تحريم، أو نهي كراهة)[٢].

وقال العيني (والصمت المنهي عنه ترك الكلام عن الحق لمن يستطيعه، وكذا المباح الذي يستوي طرفاه)[٣].

الوسائل المعينة على اكتساب الصمت:

الوسائل المعينة على اكتساب صفة الصمت كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- النظر في سيرة السلف الصالح، والاقتداء بهم في صمتهم.

٢- التأمل في العواقب الوخيمة والسيئة للكلام الذي لا فائدة فيه، والذي يفضي إلى الكلام الباطل.

٣- العزلة والابتعاد عن المجالس التي يكثر فيها اللغط والفحش والكلام البذيء.

قال الغزالي: (وأما الصمت فإنه تسهله العزلة، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة، فإنَّ الكلام يشغل القلب، وشَرَهُ القلوب إلى الكلام عظيم، فإنَّه يستروح إليه، ويستثقل التجرد للذكر والفكر، فيستريح إليه، فالصمت يلقِّح العقل، ويجلب الورع، ويعلم التقوى)[٤].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩٣/٢٥).
(٢) ((المنتقى شرح الموطأ)) (٢٤٢/٧).
(٣) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (٢٩١/١٦).
(٤) ((إحياء علوم الدين)) (٧٦/٣).

نماذج في الصمت:

• صمت النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم طويل الصمت، كثير الذكر، قليل الضحك، فعن سماك بن حرب، قال: ((قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشيء من أمورهم، فيضحكون، وربما يتبسم))[(١)].

• نماذج من صمت الصحابة:

- (عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اطلع على أبي بكر رضي الله عنه، وهو يمدُّ لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: إن هذا أوردني الموارد، إنَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: ((ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدَّته))[(٢)].

- (وقال ابن بريدة: رأيت ابن عباس آخذًا بلسانه، وهو يقول: ويحك قل خيرًا تغنم، أو اسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنَّك ستندم، قال: فقيل له: يا ابن عباس، لم تقول هذا؟ قال: إنه بلغني أنَّ الإنسان -أراه قال- ليس على شيء من جسده أشدُّ حنقًا أو غيظًا يوم القيامة منه على لسانه إلا ما

---

(١) رواه أحمد (٨٦/٥) (٢٠٨٢٩)،والطيالسي (١٢٩/٢) (٨٠٨) والطبراني في ((الأوسط)) (١٢٠/٧) (٧٠٣١). صححه ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٤٧٤/٥)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣٠٠/١)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٨٢٢).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص٥٠)، وأبو يعلى (١٧/١) (٥)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٤/٧) (٤٥٩٦). وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥٣٥): صحيح الإسناد على شرط البخاري.

قال به خيرًا، أو أملى به خيرًا)[١].

- (عن خالد بن سمير قال: كان عمار بن ياسر طويل الصمت)[٢].

- و(دخلوا على بعض الصحابة في مرضه ووجهه يتهلل، فسألوه عن سبب تهلل وجهه، فقال: ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليمًا للمسلمين)[٣].

- **نماذج من صمت السلف:**

- (قال عمرو بن قيس الملائي: مرَّ رجل بلقمان والناس عنده، فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني)[٤].

- وقال الفضيل بن عياض: كان بعض أصحابنا يحفظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة[٥].

- (وكان أعرابي يجالس الشعبي ويطيل الصمت، فقال له الشعبي يومًا: ألا تتكلم فقال: أسكت فأسلم وأسمع فأعلم؛ إنَّ حظَّ المرء في أذنه له، وفي لسانه لغيره)[٦].

---

(١) رواه أحمد في ((فضائل الصحابة)) (٢/٩٥٢)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (١/٣٢٧)، والفاكهي في ((أخبار مكة)) (١/١٧٨).
(٢) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/١٤٢).
(٣) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٣/٥٥٧) من حديث زيد بن أسلم.
(٤) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص ٢٩٣).
(٥) ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (٥/٣٧٥).
(٦) ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (٣/١٤).

- وقال محارب: (صحبنا القاسم بن عبد الرحمن فغلبنا بطول الصمت)[١].

- وقال الأعمش عن إبراهيم قال: (كانوا يجلسون فأطولهم سكوتًا: أفضلهم في أنفسهم)[٢].

• نماذج من صمت العلماء:

- عن أبي إسحاق الفزاري قال: (كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يطيل السكوت؛ فإذا تكلم ربما انبسط قال: فأطال ذات يوم السكوت فقلت: لو تكلمت؟ فقال: الكلام على أربعة وجوه: فمن الكلام كلام ترجو منفعته وتخشى عاقبته، والفضل في هذا السلامة منه، ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته، فأقلُّ ما لك في تركه خفة المؤنة على بدنك ولسانك، ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره، قال خلف: فقلت لأبي إسحاق: أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام؟ قال: نعم)[٣].

- و(قال إبراهيم التيمي: أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين سنة، فلم يتكلم بكلام لا يصعد)[٤].

- (وقيل: ما تكلم الربيع بن خثيم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسًا وقلمًا، فكلُّ ما تكلم به كتبه، ثم يحاسب نفسه عند المساء)[٥].

---

(١) ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (٥/٣٧٦).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص ٦٧).

(٤) ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (٥/٣٧٤).

(٥) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/١١١).

- (قال إسماعيل بن أمية: كان عطاء: يطيل الصمت، فإذا تكلم يخيل إلينا أنه يؤيد)[١].

- (قال خارجة بن مصعب: صحبت ابن عون ثنتي عشرة سنة، فما رأيته تكلم بكلمة كتبها عليه الكرام الكاتبون)[٢].

- (قال مورِّق العجلي: أمرٌ أنا في طلبه منذ عشر سنين لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه أبدًا، قال: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني)[٣].

وصايا في الصمت:

- (قال رجل لسلمان رضي الله عنه: أوصني. قال: لا تتكلم. قال: وكيف يصبر رجل على أن لا يتكلم؟ قال: فإن كنت لا تصبر عن الكلام، فلا تتكلم إلا بخير أو اصمت)[٤].

- و(قال رجل لبعض العارفين: أوصني قال: اجعل لدينك غلافًا كغلاف المصحف؛ لئلا يدنسه، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك الكلام إلا فيما لا بد منه، وترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه، وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه)[٥].

- وعن عقيل بن مدرك يرفعه إلى أبي سعيد (أن رجلًا أتاه، فقال: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله، وعليك بالصمت، فإنك به تغلب الشيطان)[٦].

---

(١) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٣/٣١٣).
(٢) ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (٥/٣٧٧).
(٣) ((المصنف)) لابن أبي شيبة (٧/١٨٠).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص ٦٥).
(٥) ((فيض القدير)) للمناوي (٣/٨٢).
(٦) ((الزهد)) لابن أبي عاصم (ص ٣٣).

- و(عن أبي الذيَّال، قال: تعلَّم الصمت كما تعلم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك، فإن الصمت يقيك، ألا في الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به من علم من هو أعلم منك)[١].

- وعن حبيب بن عيسى، قال: (كان ابن مريم يقول: ابن آدم الضعيف؛ علم نفسك الصمت كما تعلمها الكلام، وكن مكينًا[٢] حتى تسمع، ولا تكن مضحاكًا في غير عجبٍ، ولا هشًّا في غير أربٍ[٣].)[٤].

- (وقال لقمان لابنه: يا بني، إن غلبت على الكلام، فلا تغلب على الصمت، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، إني ندمت على الكلام مرارًا، ولم أندم على الصمت مرة واحدة)[٥].

- و(تكلم أربعة من حكماء الملوك بأربع كلمات كأنها رمية عن قوس: فقال ملك الروم: أفضل علم العلماء السكوت. وقال ملك الفرس: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها. وقال ملك الهند: أنا على ردِّ ما لم أقل أقدر مني على ردِّ ما قلت. وقال ملك الصين: ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت)[٦].

- (وقد قال بعض الصالحين: الزم الصمت يكسبك صفو المحبة، ويأمنك سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفك مؤنة الاعتذار. وقيل: الصمت آية الفضل، وثمرة العقل، وزين العلم، وعون الحلم؛ فالزمه تلزمك السلامة)[٧].

---

(١) ((الزهد)) لابن أبي عاصم (ص ٥١).
(٢) المكانة المنزلة. وفلان مكين عند فلان بين المكانة. والمكانة: الموضع. ((لسان العرب)) (٣٦/١٣).
(٣) أرب: الإربة والإرب: الحاجة. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٢٠٨).
(٤) ((الجامع في الحديث)) لابن وهب (ص ٥٣٢).
(٥) ((الظرف والظرفاء)) لأبي الطيب الوشاء (ص ٧-٨).
(٦) ((تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك)) للماوردي (ص ٥٩).
(٧) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال)) لحسين المهدي (ص ٤٩٦).

صوم الصمت:

- وهو الامتناع عن الكلام فلا يتكلم يومه وليلته، وهذا كان في الجاهلية، ومنعه الإسلام:

- (قال الخطابي في شرح حديث: ((لا يتم بعد احتلام ولا صمت يوم إلى الليل)):[١] كان من نسك أهل الجاهلية الصمت، فكان أحدهم يعتكف اليوم والليلة ويصمت، فنهوا عن ذلك، وأُمروا بالنطق بالخير)[٢].

- (قال ابن الهمام: يُكره صوم الصمت، وهو أن يصوم ولا يتكلم، يعني يلتزم عدم الكلام، بل يتكلم بخير وبحاجة)[٣].

---

(١) رواه رواه أبو داود (٢٨٧٣) ، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (١/٩٥) (٢٩٠)، والبيهقي (٦/٥٧) (١١٦٤٢). من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
قال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٣/٥٣٦): فيه علل ، وحسن إسناده النووي في ((المجموع)) (٦/٣٧٦)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/٥١): إسناده غريب، وقال ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٧/٣٢٠): إسناده يقرب من الحسن لولا عبد الله بن خالد، ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٤/٣٣٧)، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٥/٣٧٠): روي نحوه بسند لا بأس به، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/٤٦٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧٣).
ورواه من طريق آخر عن علي رضي الله عنه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٧/٢٢٢) (٧٣٣١).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٤/٢٦٥): فيه مطرف بن مازن وهو ضعيف، وصححه الألباني بطرقه وشواهده في ((إرواء الغليل)) (٥/٨٠).
ورواه من طريق آخر عن علي رضي الله عنه عبدالرزاق في ((المصنف)) (٦/٤١٦).
قال ابن عبدالبر في ((الاستذكار)) (٥/١٩٧): ثابت صحيح، وقال البغوي في ((شرح السنة)) (٥/١٤٦): فيه جويبر بن سعيد البلخي، ضعفه يحي بن سعيد القطان ويحيى بن معين ، وصححه الألباني بطرقه وشواهده في ((إرواء الغليل)) (٥/٨٠).
والحديث روي من طرق عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/١٥٠).

(٣) ((شرح مسند أبي حنيفة)) لأبي الحسن الهروي (ص ٤٨٨).

صمت العيي:

- (كان رجل يجلس إلى أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تتكلم؟ فقال: بلى، متى يفطر الصائم. قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغِبْ إلى نصف الليل؟ قال: فضحك أبو يوسف، وقال: أصبت في صمتك، وأخطأت أنا في استدعاء نطقك، ثم تمثل:

عجبت لإزراء العييِّ بنفسه وصمت الذي قد كان للقول أعلما

وفي الصمت ستر للعييِّ، وإنما صحيفة لبِّ المرء أن يتكلما)[1]

حكم وأمثال في الصمت:

- (الصمت أخفى للنقيصة، وأنفى للغميصة)[2].
- (إذا فاتك الأدب فالزم الصمت)[3].
- (إنَّ في الصمت لحكمًا)[4].
- (الندم على السكوت خير من الندم على القول)[5].
- (الزم الصمت إذا لم تسأل)[6].
- (الصمت يكسب المحبة)[7].
- (الصمت زين العاقل، وستر الجاهل)[8].

---

(١) ((تاريخ بغداد وذيوله)) للخطيب البغدادي (٢٥١/١٤).
(٢) ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (١٣٤/٢).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١٩٢/٢).
(٤) ((الأمثال المولدة)) لأبي بكر الخوارزمي (ص ١٠١).
(٥) ((الأمثال)) لأبي عبيد (ص ٤٤).
(٦) ((الأمثال المولدة)) لأبي بكر الخوارزمي (ص ٢٠٢).
(٧) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (٢٠٢/١).
(٨) ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (١٤٢/٢).

- (الصمت في غير فكرة سهو... والقول في غير حكمة لغو)[1].

- (الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل)[2].

- وقال لقمان لابنه: (يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك)[3].

- (وقالوا: بقدر ما يصمت اللسان يعمر الجنان، وبقدر ما كان يتكلم اللسان يخرب الجنان.

وقالوا أيضًا: إذا كثر العلم قلَّ الكلام، وإذا قلَّ العلم كثر الكلام.

وقالوا أيضًا: من عرف الله كَلَّ لسانه.

وقيل لبعض العلماء: هل العلم فيما سلف أكثر، أو اليوم أكثر؟ قال: العلم فيما سلف أكثر، والكلام اليوم أكثر)[4].

- (خير الخلال حفظ اللسان) يضرب في الحث على الصمت[5].

- (قولهم: سكت ألفًا ونطق خلفًا: يضرب مثلًا للرجل يطيل الصمت ثم يتكلم بالخطأ. والخلف الرديء من القول. وكان للأحنف بن قيس جليس طويل الصمت فاستنطقه يومًا؛ فقال: أتقدر يا أبا بحر أن تمشي على شرف المسجد، فقال الأحنف: سكت ألفًا، ونطق خلفًا)[6].

---

(١) ((السحر الحلال في الحكم والأمثال)) لأحمد الهاشمي (ص ١١٢).
(٢) منسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه. ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (٢/١٣٦).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)) لأبي العباس الفاسي (١/٥٦٠).
(٥) ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/٢٤٢).
(٦) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (١/٥٠٩-٥١٠).

-(ربَّ كلمة سلبت نعمة) يضرب في اغتنام الصمت[١].

- (الصمت حُكم[٢] وقليل فاعله) يقال: إن لقمان الحكيم دخل على داود عليهما السلام وهو يصنع درعًا، فهمَّ لقمان أن يسأله عما يصنع، ثم أمسك ولم يسأل حتى تمَّ داود الدرع، وقام فلبسها، وقال: نعم أداة الحرب، فقال لقمان: الصمت حُكم وقليل فاعله[٣].

- (مُخْرَنْبِقٌ لينباع): والمعنى: (مطرق وساكت ليثب إذا أصاب فرصة، والمعنى إنه ساكت لداهية يريدها، ويضرب في الرجل يطيل الصمت حتى يحسب مغفلًا وهو ذو نكراء)[٤].

الصمت في واحة الشعر:

قال الشافعي:

قالوا سكتَّ وقد خُوصِمتَ قلتُ لهم ... إنَّ الجواب لِبابِ الشرِّ مفتاحُ

والصَّمت عن جاهل أو أحمقٍ شرف ... وفيه أيضًا لِصون العِرض إصلاحُ

أمَا ترَى الأُسود تُخشَى وهي صامتة ... والكلب يُخسَى[٥] لعمري وهو نبَّاحُ[٦]

وقال أيضًا:

وجدتُ سكوتي متجرًا فلزمتُه ... إذا لم أجدْ ربحًا فلستُ بخاسرِ

وما الصَّمتُ إلَّا في الرجالِ متاجر ... وتاجره يعلو على كلِّ تاجرِ[٧]

---

(١) ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/٣٠٥).

(٢) الحكم: العلم والفقه. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ١٤٠)

(٣) ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/٤٠٢).

(٤) ((زهر الأكم في الأمثال والحكم)) للحسن بن مسعود (١/٤٠٢).

(٥) يطرد. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٦٥).

(٦) ((نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن)) للشرواني (ص ٢١٧).

(٧) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ٢٧).

وقال آخر:

قالوا نراك تطيلُ الصَّمت قلتُ لهم ... ما طولُ صمتي مِن عِيٍّ[(١)] ولا خرسِ

الصمتُ أحمدُ في الحالَين عاقبةً ... عندي وأحسنُ بي من منطق شكسِ[(٢)]

قالوا فأنت مصيبٌ لستَ ذا خطأ ... فقلتُ هاتوا أروني وجهَ معتبسِ

أأفرشُ البرَّ فيمَن ليس يعرفُه؟ ... أم أنثرُ الدرَّ بين العُمْي في الغَلَسِ[(٣)]

وقال آخر:

متى تُطبق على شفتيك تَسلمْ ... وإن تفتحْهما فقلِ الصَّوابا

فما أحدٌ يُطيل الصَّمت إلَّا ... سيأمنُ أن يُذمَّ وأن يُعابا

فقلْ خيرًا أو اسكتْ عن كثيرٍ ... مِن القول المحلِّ بك العقابا[(٤)]

وأجاد من قال:

مهلًا سُليمَى أقلِّي اللوم أو فلُمِي ... مَن أقعدته صروفُ الدَّهر لم يقمِ

حظِّي يقصر بي عن كلِّ مكرُمةٍ ... ولا تقصر بي عن نيلها هممِي

سألزم الصمت ما دام الزمان كذا ... وأمنع الدهرَ مِن نطق اللسان فَمِي

إن لامني لائمٌ في الصَّمت قلتُ له ... حبسُ الفتى نطقَه حرزٌ من الندمِ[(٥)]

وقال أبو جعفر القرشي:

استرِ العِيَّ[(٦)] ما استطعتَ بصمت ... إنَّ في الصَّمت راحة للصَّمُوتِ

---

(١) العي: الجهل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١١٣).

(٢) سيئ. انظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١٢).

(٣) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ١٠٢).

(٤) ((المصدر السابق)) (ص ١١٤)، ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (ص ٢٧٧) .

(٥) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ١١٨).

(٦) الجهل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١١٣).

واجعلِ الصَّمت إن عَيِيت جوابًا ... ربَّ قولٍ جوابُه في السُّكوتِ[(١)]

وقال آخر:

إن كان يعجبك السُّكوت فإنَّه ... قد كان يُعجبُ قبلك الأخيارَ

ولئن ندمتُ على سكوتٍ مرةً ... فلقد ندمتُ على الكلام مِرارا

إنَّ السُّكوت سلامةٌ ولربَّما ... زرع الكلام عداوة وضرارا

وإذا تقرَّب خاسر مِن خاسر ... زادَا بذاك خسارةً وتَبارا[(٢)]

وأنشد الأبرش:

ما ذلَّ ذو صمت وما مِن مُكثرٍ ... إلَّا يَزلُّ وما يُعاب صَمُوتُ

إن كان مَنطقُ ناطقٍ مِن فضَّةٍ ... فالصَّمت دُرٌّ زانه الياقوتُ[(٣)]

وقال آخر:

وكن رزينًا طويل الصمت ذا فكر ... فإن نطقت فلا تكثر من الخطبِ

ولا تجبْ سائلًا من غير تروية ... وبالذي عنه لم تُسألْ فلا تُجِبِ[(٤)]

قال أحيحة بن الجلاح:

والصَّمت أجملُ بالفتَى ... ما لم يكنْ عِيٌّ يَشينُه

والقولُ ذو خطَلٍ[(٥)] إذا ... ما لم يكنْ لبٌّ يعينُه[(٦)]

---

(١) ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص ٣٠٠)، ((الظرف والظرفاء)) للوشاء (ص ٧).

(٢) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ١١٥).

(٣) ((روضة العقلاء)) للدارمي (ص ٤٤).

(٤) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ١١٤).

(٥) الخطل: الكلام الفاسد الكثير. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ٩٩٣).

(٦) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (ص ١١٤).

وقال مخرز بن علقمة:

لقد وارى المقابرُ مِن شريكٍ كثيرَ تحلُّمٍ وقليلَ عابِ

صموتًا في المجالس غيرَ عِيٍّ جديرًا حين ينطقُ بالصَّوابِ(١)

وقال مكي بن سوادة:

تسلَّمَ بالسكوتِ مِن العيوبِ فكان السَّكتُ أجلبَ للعيوبِ

ويرتجلُ الكلامَ وليس فيه سِوَى الهَذَيانِ مِن حشد الخطيبِ(٢)

وقال آخر:

عجبتُ لإدلال العَيِيِّ بنفسه وصمتِ الذي كان بالقول أعلما

وفي الصَّمتِ سترٌ للعييِّ وإنما صحيفةُ لبِّ المرءِ أن يتكلَّما(٣)

وقال أحد الشعراء:

أرَى الصَّمت أدَنى لبعض الصواب وبعض التكلُّم أدنى لعِيٍّ(٤)

وقال أبو العتاهية:

إذا كنت عن أن تحسن الصَّمت عاجزًا فأنت عن الإبلاغ في القول أعجزُ

يخوض أناس في المقال ليُوجزوا ولَلصمتُ عن بعض المقالات أوجزُ(٥)

---

(١) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (١/ ٢٩).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) ((المصدر السابق)) (١/١٨٩).

(٤) ((عيون الأخبار)) للدينوري (٢/١٩٠).

(٥) ((الظرف والظرفاء)) لأبي الطيب الوشاء (ص ٦).

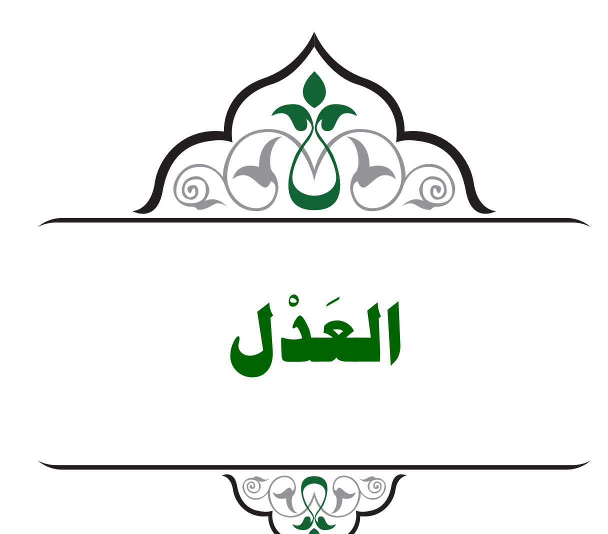
وقال آخر:

قد أفلح الصَّامتُ السَّكوت كلامُ راعي الكلامِ قوتُ

ما كلُّ نطقٍ له جوابُ جوابُ ما يُكرهُ السُّكوتُ[١]



(١) ((تاريخ بغداد وذيوله)) (٢/ ٣٤).



العَدْل

العَدْل

معنى العدل لغةً واصطلاحًا:

- **معنى العدل لغةً:**

العدل خلاف الجور، وهو القصد في الأمور، وما قام في النفوس أنه مستقيم، مِن عَدَلَ يَعْدِلُ فهو عادل من عُدولٍ وعَدْلٍ، يقال: عَدَلَ عليه في القضية فهو عادِلٌ. وبسط الوالي عَدْلَهُ[(١)].

- **معنى العدل اصطلاحًا:**

العدل هو:(أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه)[(٢)].

وقيل هو: (عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور دينًا)[(٣)].

وقيل هو: (استعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، من غير سرف، ولا تقصير، ولا تقديم، ولا تأخير)[(٤)].

الفرق بين العدل وبعض الصفات:

- **الفرق بين العدل والقسط:**

(القسط: هو العدل البيِّن الظاهر، ومنه سمي المكيال قسطًا، والميزان قسطًا؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما

---

(١) ((الصحاح في اللغة)) للجوهري (٥/١٧٦٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٤٣٠). ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص١٠٣٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/٣٩٦).
(٢) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص ٨١).
(٣) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٤٧).
(٤) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص ٢٨).

يخفى، ولهذا قلنا: إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط)[1].

- **الفرق بين العدل والإنصاف:**

(الإنصاف: إعطاء النصف، والعدل يكون في ذلك وفي غيره، ألا ترى أنَّ السارق إذا قُطع قيل: إنه عدل عليه. ولا يقال: إنه أنصف، وأصل الإنصاف أن تعطيه نصف الشيء، وتأخذ نصفه من غير زيادة ولا نقصان، وربما قيل: أطلب منك النصف. كما يقال: أطلب منك الإنصاف. ثم استعمل في غير ذلك مما ذكرناه، ويقال: أنصف الشيء. إذا بلغ نصف نفسه، ونصف غيره إذا بلغ نصفه)[2].

أهمية العدل:

أرسل الله رسله وأنزل معهم ميزان العدل؛ ليقوم الناس بالقسط، وما ذلك إلا لأهميته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

ووردت نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تأمر بالعدل وترغب فيه، وتمدح من يقوم به.

يقول ابن القيم: (... إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان؛ فثم شرع الله ودينه، والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخصَّ طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٤٢٨).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٨٠).

ما هو أظهر منها وأقوى دلالة وأبين أمارة فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بيَّن سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له)[1].

الترغيب في العدل:

أولًا: في القرآن الكريم

أمر الله بإقامة العدل وحثَّ عليه، ومدح من قام به، وذلك في آيات كثيرة منها:

١- آيات فيها الأمر بالعدل:

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال السعدي: (فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقِّه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة؛ بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقِّه وحقِّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كلُّ والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر

(١) ((الطرق الحكمية)) (ص ١٩).

المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقًّا، ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب)[(١)].

- وقال عزَّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

يقول ابن كثير: (يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوَّامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ كما قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ﴾. أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًّا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾. أي: اشهد الحقَّ، ولو عاد ضررها عليك، وإذا سُئِلتَ عن الأمر فقل الحقَّ فيه، وإن كان مضرة عليك، فإنَّ الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كلِّ أمر يضيق عليه)[(٢)].

- وقال سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].

---

(١) ((تفسير الكريم الرحمن)) (ص ٤٤٧).

(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) (٢/٤٣٣).

يقول تعالى ذكره: (وقل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعًا بالحق الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه... وعن قتادة، قوله: ((﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قال: أمر نبي الله صَلَّى الله عليه وسلَّم أن يعدل، فعدل حتى مات صلوات الله وسلامه عليه))[1]. والعدل ميزان الله في الأرض، به يأخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الشديد، وبالعدل يصدق الله الصادق، ويكذب الكاذب، وبالعدل يرد المعتدي ويوبخه)[2].

٢- آيات فيها مدح من يقوم بالعدل:

- قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: ومن الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق، قولًا وعملًا ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون.

وقد جاء في الآثار: أنَّ المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية.

قال سعيد، عن قتادة في تفسير هذه الآية: بلغنا أنَّ نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية: هذه لكم، وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[3] [الأعراف:١٥٩])[4].

---

(١) رواه الطبري في ((جامع البيان)) (٥١٧/٢١).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) رواه الطبري في ((جامع البيان)) (٢٨٦/١٣).
(٤) ((تفسير القرآن العظيم)) (٥١٦/٣).

- وقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

(يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكلُّ على مولاه، الذي لا يأتي بخير حيث توجَّه، ومن هو ناطق متكلم، يأمر بالحقِّ، ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذكره، والصنم الذي صفته ما وصف. وقوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] يقول: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحقِّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يعوج عن الحقِّ، ولا يزول عنه)[١].

ثانيًا: في السنة النبوية

لقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم العدل، ورغَّب فيه، وقد وردت الأحاديث تدلُّ على تطبيقه قواعد العدل، وإرسائه لمعالمه منها:

- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكارهنا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالعدل أين كنَّا، لا نخاف في الله لومة لائم))[٢].

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ المقسطين يوم القيامة على منابر من

---

(١) ((جامع البيان)) للطبري (١٧/٢٦٢).

(٢) رواه النسائي (٤١٥٣)، وأحمد (٣/٤٤١) (١٥٦٩١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وصححه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٢٣/٢٧٢)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/٩١)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٤١٦٤).

نور، عن يمين الرحمن، -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا[١].))[٢].

قال ابن عثيمين: (فالعدل واجب في كلِّ شيء، لكنه في حق ولاة الأمور آكد وأولى وأعظم؛ لأنَّ الظلم إذا وقع من ولاة الأمور حصلت الفوضى والكراهة لهم، حيث لم يعدلوا)[٣].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((سبعة يظلُّهم الله تعالى في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلَّق في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه))[٤].

قال ابن رجب: (وأول هذه السبعة: الإمام العادل: وهو أقرب الناس من الله يوم القيامة، وهو على منبر من نور على يمين الرحمن، وذلك جزاء لمخالفته الهوى، وصبره عن تنفيذ ما تدعوه إليه شهواته وطمعه وغضبه، مع قدرته على بلوغ غرضه من ذلك؛ فإنَّ الإمام العادل دعته الدنيا كلها إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، وهذا أنفع الخلق لعباد الله، فإنه إذا صلح صلحت الرعية كلها، وقد رُوي أنَّه ظلُّ الله في الأرض؛ لأنَّ الخلق كلَّهم يستظلون بظلِّه، فإذا عدل فيهم أظلَّه الله في ظلِّه)[٥].

---

(١) أي: كانت لهم عليه ولاية. ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١١).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٣) ((شرح رياض الصالحين)) (٣/٦٤١).

(٤) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٥) ((فتح الباري)) (٤/٥٩).

أقوال السلف والعلماء في العدل:

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنَّ الله إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول؛ لتحيا القلوب، فإنَّ القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئًا فلينفع به، إنَّ للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر بابًا، ويسَّر لكلِّ باب مفتاحًا، فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت ،والاستعداد بتقديم الأموال، والزهد أخذ الحقِّ من كلِّ أحد قِبَله حقٌّ، والاكتفاء بما يكفيه من الكفاف، فإن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء...)[١].

- (وقدم على عمر بن الخطاب رجل من أهل العراق، فقال: لقد جئتك لأمر ما له رأس ولا ذنب. فقال عمر: ما هو؟ قال: شهادات الزور ظهرت بأرضنا. فقال عمر: أو قد كان ذلك؟! قال نعم. فقال عمر: والله لا يؤسر رجل في الإسلام بغير العدول[٢].)[٣].

- وقال رِبعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس لما سأله: ما جاء بكم؟ فقال: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه

(١) رواه الطبري في ((تاريخ الرسل والملوك)) (٣/٤٨٥)، وذكره ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٧/٤٣).

(٢) أي: لا يحبس، والأسر الحبس، أو لا يملك ملك الأسير؛ لإقامة الحقوق عليه إلا بالصحابة الذين جميعهم عدول، وبالعدول من غيرهم، فمن لم يكن صحابيا ولم تعرف عدالته لم تقبل شهادته حتى تعرف عدالته من فسقه. ((شرح الزرقاني على الموطأ)) (٤/ ١٠)

(٣) رواه مالك في ((الموطأ)) (٢/٧٢٠).

حتى نفيء إلى موعود الله...)[١].

- وقال عمرو بن العاص: (لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل)[٢].

- وقال ميمون بن مهران: (سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: لو أقمت فيكم خمسين عامًا ما استكملت فيكم العدل، إني لأريد الأمر وأخاف أن لا تحمله قلوبكم فأخرج معه طمعًا من الدنيا؛ فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا)[٣].

- (وخطب سعيد بن سويد بحمص، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناس، إنَّ للإسلام حائطًا منيعًا، وبابًا وثيقًا، فحائط الإسلام الحقُّ، وبابه العدل، ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتدَّ السلطان، وليست شدة السلطان قتلًا بالسيف، ولا ضربًا بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذًا بالعدل)[٤].

- وقال ابن حزم: (أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحقِّ وإيثاره)[٥].

- وقال ابن تيمية:(العدل نظام كلِّ شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم

---

(١) رواه الطبري في ((تاريخ الرسل والملوك)) (٣/٥٢٠)، وذكره ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٧/٣٩).

(٢) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/٣٣).

(٣) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٥/١٨١)، وذكره الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (٧/١٩٧).

(٤) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/٢٧).

(٥) ((الأخلاق والسير)) (ص ٩٠).

تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[1].

- وقال أيضا: (وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام)[2].

- وقال ابن القيم: (ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنَّه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أنَّ السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأنَّ من أحاط علمًا بمقاصدها، ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة.

فإنَّ السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحقَّ من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة علمها من علمها، وجهلها من جهلها)[3].

فوائد العدل:

١- بالعدل يستتب الأمن في البلاد، وتحصل الطمأنينة في النفوس، ويشعر الناس بالاستقرار، وبذلك يُقضى على المشكلات الاجتماعية والاضطرابات التي تحدث في الدول، بسبب الظلم.

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (١٤٦/٢٨).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٤٦/٢٨).

(٣) ((الطرق الحكمية)) (ص ٥).

٢- بالعدل يعم الخير في البلاد:

فالعدل سبب في حصول الخير والبركة إذا كان منتشرًا بين الولاة، وبين أفراد المجتمع، يقول ابن الأزرق: (إنَّ نية الظلم كافية في نقص بركات العمارة فعن وهب بن منبه قال: إذا هم الولي بالعدل أدخل الله البركات في أهل مملكته حتى في الأسواق والأرزاق وإذا هم بالجور أدخل الله النقص في مملكته حتى في الأسواق والأرزاق)[1].

فقيام العدل في الأرض كالمطر الوابل، بل هو خير من خصب الزمان كما قيل، فمن كلامهم: (سلطان عادل خير من مطر وابل، وقالوا عدل السلطان خير من خصب الزمان، وفي بعض الحكم: ما أمحلت أرض سال عدل السلطان فيها ولا محيت بقعة فاء ظله عليها)[2].

٣- ظهور رجحان العقل به:

قيل لبعضهم: مَن أرجح الملوك عقلًا، وأكملهم أدبًا وفضلًا؟ قال: من صحب أيامه بالعدل، وتحرَّز جهده من الجور، ولقي الناس بالمجاملة، وعاملهم بالمسألة، ولم يفارق السياسة، مع لين في الحكم، وصلابة في الحقِّ، فلا يأمن الجريء بطشه، ولا يخاف البريء سطوته[3].

٤- العدل أساس الدول والملك وبه دوامهما:

فبالعدل يدوم الملك، ويستقر الحاكم في حكمه، و(في بعض الحِكم: أحقُّ الناس بدوام الملك وباتصال الولاية، أقسطهم بالعدل في الرعية، وأخفهم عنها

(١) ((بدائع السلك)) لابن الأزرق (١/٢٢٧).
(٢) ((المصدر السابق)) (١/٢٣٢).
(٣) ((المصدر السابق)) (١/٢٣١).

كلًّا ومؤونة، ومن أمثالهم: من جعل العدل عُدَّة طالت به المدة)[١].

٥- من قام بالعدل نال محبة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]

٦- بالعدل يحصل الوئام بين الحاكم والمحكوم.

٧- بالعدل يسود في المجتمع التعاون والتماسك.

أقسام العدل:

(والعدل ضربان:

١- مطلق: يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخًا، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو: الإحسان إلى من أحسن إليك، وكفِّ الأذية عمن كفَّ أذاه عنك.

٢- وعدل يعرف كونه عدلًا بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخًا في بعض الأزمنة، كالقصاص وأروش الجنايات، وأصل مال المرتد. ولذلك قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٩٤]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى:٤٠]، فسمي اعتداء وسيئة، وهذا النحو هو المعني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، فإنَّ العدل هو المساواة في المكافأة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه، والشرَّ بأقلَّ منه)[٢].

(١) ((بدائع السلك)) لابن الأزرق (٢٣١/١).
(٢) ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (ص٥٥٢).

صور العدل:

العدل له صور كثيرة، تدخل في جميع مناحي الحياة، نقتصر على ذكر أهمها، فمنها:

١- عدل الوالي:

والوالي سواء كانت ولايته ولاية خاصة أو عامة يجب عليه أن يعدل بين الرعية. وأن يستعين بأهل العدل.

قال ابن تيمية، بعد أن ذكر عموم الولايات وخصوصها، كولاية القضاء، وولاية الحرب، والحسبة، وولاية المال قال: (وجميع هذه الولايات هي في الأصل ولاية شرعية ومناصب دينية، فأيُّ مَن عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان- فهو من الأبرار الصالحين، وأيُّ مَن ظلم وعمل فيها بجهل، فهو من الفجار الظالمين)[١].

وقال أيضًا: (يجب على كلِّ ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل، وإذا تعذَّر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل)[٢].

٢- العدل في الحكم بين الناس:

سواء كان قاضيًا، أو صاحب منصب، أو كان مصلحًا بين الناس، وذلك بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

٣- العدل مع الزوجة أو بين الزوجات:

بأن يعامل الزوج زوجته بالعدل سواء في النفقة والسكنى والمبيت، وإن كن

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/٦٨).
(٢) ((المصدر السابق)).

أكثر من واحدة، فيعطي كلًّا منهنَّ بالسوية.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:٣].

أما إذا كان له ميل قلبيٌّ فقط إلى إحداهن، فهذا لا يدخل في عدم العدل، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٢٩].

قال ابن بطال: (قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾. أي: لن تطيقوا أيها الرجال أن تسووا بين نسائكم في حبهنَّ بقلوبكم حتى تعدلوا بينهنَّ في ذلك؛ لأنَّ ذلك مما لا تملكونه ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ يعنى ولو حرصتم في تسويتكم بينهن في ذلك. قال ابن عباس: لا تستطيع أن تعدل بالشهوة فيما بينهنَّ ولو حرصت. قال ابن المنذر: ودلت هذه الآية أن التسوية بينهنَّ في المحبة غير واجبة)[1].

٤- العدل بين الأبناء:

قال صلى الله عليه وسلم: ((فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم))[2]. ويكون العدل بين الأولاد في العطية[3]، والهبة، والوقف، والتسوية بينهم حتى في القُبَل،

---

(١) ((شرح صحيح البخاري)) (٣٣٦/٧).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) تنبيه: في حالة النفقة الواجبة يعطي الوالد كل واحد من الأولاد ما يحتاجه، فلو احتاج أحد أبنائه إلى الزواج، زوجه ودفع له المهر؛ لأن الابن لا يستطيع دفع المهر، ولا يلزم أن يعطي =

فعن إبراهيم النخعي قال: (كانوا يستحبون أن يعدل الرجل بين ولده حتى في القُبَل)[1].

٥- العدل في القول:

فلا يقول إلا حقًّا، ولا يشهد بالباطل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥].

٦- العدل في الكيل والميزان:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢] (يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعَّد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ -٦] وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان)[2].

٧- العدل مع غير المسلمين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا

= الآخرين مثل ما أعطى لهذا الذي احتاج إلى الزواج؛ لأن التزويج من النفقة، كذلك النفقة على الدراسة، إلى غير ذلك. انظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١١/٨٠).

(١) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٦/٢٣٤).

(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٣/٣٦٤).

يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

(وفي كون العدل مع الأعداء الذين نبغضهم أقرب للتقوى احتمالان:

الأول: أن يكون أقرب إلى كمال التقوى، وذلك لأنَّ كمال التقوى يتطلب أمورًا كثيرة، منها هذا العدل، والأخذ بكلِّ واحد من هذه الأمور يقرب من منطقة التقوى الكاملة.

الثاني: أن يكون أقرب إلى أصل التقوى فعلًا من ترك العدل مع الأعداء، ملاحظين في ذلك مصلحة للإسلام وجماعة المسلمين، وذلك لأنَّه قد يشتبه على ولي الأمر من المسلمين في قضية من القضايا المتعلقة بعدو من أعدائهم، هل التزام سبيل العدل معه أرضى لله؟ أو ظلمه هو أرضى لله باعتباره معاديًا لدين الله؟ وأمام هذا الاشتباه يعطي الله منهج الحل، فيقول: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨] أي: مهما لاحظتم أنَّ ظلمه لا يتنافى مع التقوى، فالعدل معه أقرب للتقوى.

ولا يخفى أن من ثمرات هذا العدل ترغيب أعداء الإسلام بالدخول فيه، والإيمان بأنَّه هو الدين الحقُّ، وكم من حادثة عدل حكم فيها قاضي المسلمين لغير المسلم على المسلم اتباعًا للحق، فكانت السبب في تحبيبه بالإسلام ثم في إسلامه)[1].

نماذج في العدل:

- **نماذج من عدل الرسول صلى الله عليه وسلم:**

الإسلام هو دين العدالة، وإنَّ أمة الإسلام هي أمة الحق والعدل، وقد أقام

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٥٨١/١).

الرسول صلى الله عليه وسلم العدل، وكان نموذجًا في أعلى درجاته، وأقامه خلفاؤه من بعده.

- فقد ورد ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيَّة حليف بني عدي ابن النجار قال: وهو مستنتل[١] من الصف، فطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدح في بطنه، وقال: استو يا سواد. فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالعدل، فأقدني. قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: استقد. قال: يا رسول الله، إنَّك طعنتني، وليس عليَّ قميص. قال: فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه، وقال: استقد[٢] قال: فاعتنقه، وقبَّل بطنه، وقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضرني ما ترى، ولم آمن القتل، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم له بخير))[٣].

- وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ((أنَّ قريشًا أهمَّهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

---

(١) استنتل من الصف إذا تقدم أصحابه. ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٦٤٤).

(٢) اقتص. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٩).

(٣) رواه أبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (٣/١٤٠٤)، قال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٦/٨٠٨): إسناده حسن إن شاء الله تعالى.

فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني -والذي نفسي بيده- لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[١]. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطعت يدها.

- **نماذج من عدل الصحابة رضي الله عنهم:**

عدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

- عن عطاء: قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالموسم، فإذا اجتمعوا قال:

(أيها الناس، إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم. فمن فعل به غير ذلك فليقم. فما قام أحد إلا رجل واحد قام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ عاملك فلانا ضربني مائة سوط. قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه. فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك. فقال: أنا لا أُقيد وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه. قال: فدعنا فلنرضه. قال: دونكم فأرضوه. فافتدى منه بمائتي دينار. كل سوط بدينارين)[٢].

- ولما أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسواريه، قال: (إنَّ الذي أدَّى هذا لأمين! قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله يؤدون إليك ما أديت إلى الله تعالى، فإذا رتعت رتعوا)[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).
(٢) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٣/٢٩٣) من حديث عطاء.
(٣) رواه البيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٣٠٣٣).

عدل علي رضي الله عنه:

- افتقد علي رضي الله عنه درعًا له في يوم من الأيام، ووجده عند يهودي، فقال لليهودي: (الدرع درعي لم أبع ولم أهب، فقال اليهودي: درعي وفي يدي، فقال: نصير إلى القاضي، فتقدَّم علي فجلس إلى جنب شريح، وقال: لولا أنَّ خصمي يهودي لاستويت معه في المجلس، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((وأصغروهم من حيث أصغرهم الله)). فقال شريح: قل يا أمير المؤمنين. فقال: نعم، هذه الدرع التي في يد هذا اليهودي درعي لم أبع ولم أهب، فقال شريح: إيش تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي يدي. فقال شريح: ألك بينة يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم: قَنْبَر والحسن يشهدان أنَّ الدرع درعي. فقال شريح: شهادة الابن لا تجوز للأب. فقال علي: رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة)). فقال اليهودي: أمير المؤمنين قدَّمني إلى قاضيه، وقاضيه قضى عليه، أشهد أنَّ هذا هو الحقُّ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، وأنَّ الدرع درعك)[1].

من أقوال الحكماء في العدل

- قال ابن عبد ربه: (قالت الحكماء: مما يجب على السلطان العدل في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه؛ فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب

---

(١) ذكره السيوطي في ((تاريخ الخلفاء)) (١٤٢) وقال: أخرجه الدراج في جزئه المشهور بسند مجهول عن ميسرة عن شريح القاضي.

الأمور مراتبها وإنزالها منازلها)[١].

- وقيل: (من عمل بالعدل فيمن دونه، رزق العدل ممن فوقه)[٢].

- وقالوا أيضًا: (يوم العدل على الظالم، أشد من يوم الظلم على المظلوم)[٣].

- وقيل: (الملك لا تصلحه إلا الطاعة والرعية لا يصلحها إلا العدل)[٤].

- (وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب)[٥].

- وقيل: (منهل العدل أصفى من المرآة بعد الصقال، ومن قريحة البليغ الصائب في المقال. ومورد الجور أكدر من هناء الطال، ومن الوعد الممزوج بالمطال)[٦].

- وكما قيل أيضًا: (المنصف يبغض حق أخيه فيولِّيه، والجائر مشغوف به فلا يخلِّيه)[٧].

- (وقال أفلاطون: بالعدل ثبات الأشياء، وبالجور زوالها، لأن المعتدل هو الذي لا يزول.

- وقال الإسكندر: لا ينبغي لمن تمسك بالعدل أن يخاف أحدًا، فقد قيل: إن العدول لا يخافون الله تعالى، أي: لا خوف عليهم منه، إذا اتبعوا رضاه وانتهوا إلى أمره.

---

(١) ((العقد الفريد)) (٢٣/١).
(٢) ((نثر الدر في المحاضرات)) لأبي سعيد الآبي (١٩٥/٤).
(٣) ((ديوان المعاني)) لأبي هلال العسكري (٩٠/٢).
(٤) ((نثر الدر في المحاضرات)) لأبي سعيد الآبي (١٧٥/٤).
(٥) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢٣/١).
(٦) ((نثر الدر في المحاضرات)) لأبي سعيد الآبي (١٧٣/٤).
(٧) ((أطواق الذهب في المواعظ والخطب)) للزمخشري (٢٦).

- وقال ذيو جانس للإسكندر: أيها الملك، عليك بالاعتدال في الأمور، فإن الزيادة عيبٌ، والنقصان عجزٌ.

- وقال الإسكندر لقومٍ من حكماء الهند: أيما أفضل: العدل أو الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة)[١].

- (وقال أردشير لابنه: يا بني، إنّ الملك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما عن صاحبه فالملك أسٌّ والعدل حارس، وما لم يكن أسٌّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع)[٢].

- وقيل: (يُبقي الملك ثلاثة: العدل وحسن التدبير، وفعل الخير)[٣].

- وقيل أيضًا: (عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان)[٤].

العدل في واحة الشعر:

قال ابن حزم:

زمامُ أُصولِ جميع الفضائلِ ... عدلٌ وفهمٌ وجُودٌ وباسُ

فمِن هذه رُكِّبت غيرُها فمَن ... حازها فهو في الناس راسُ

كذا الرأسُ فيه الأمورُ التي ... بإحساسها يُكشفُ الالتباسُ[٥]

وقال الزمخشري: قدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء، فقال: أبيات بلغتني عن سليمان بن يزيد العدوي في العدل، فمرَّ بنا إليه،

---

(١) ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (ص ٥٧).

(٢) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١/٢٣).

(٣) ((نظم الآل في الحكم والأمثال)) لعبد الله فكري (ص ١٢).

(٤) ((نثر الدر في المحاضرات)) لأبي سعيد الآبي (٤/١٧٣).

(٥) ((الأخلاق والسير في مداواة النفوس)) (ص ٨٥).

فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل: من هذا الذي معك؟ قال: عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فقال: رحب على رحب[١]، وقرب إلى قرب، فقال: يحب أن يستمع إلى أبياتك في العدل، فأنشده:

حتَّى متى لا نرَى عدلًا نُسَرُّ به ... ولا نرَى لِوُلاةِ الحقِّ أعوانا
مستمسكين بحقٍّ قائمين به ... إذا تلَّون أهلُ الجوْرِ ألوانا
يا للرجالِ لدَاءٍ لا دواءَ له ... وقائدٍ ذي عمًى يقتادُ عُميانا[٢]

وقال آخر:

أدِّ الأمانةَ والخيانةَ فاجتنبْ ... واعدلْ ولا تظلمْ يطيب المكسبُ[٣]

وقال أبو الفتح البستي:

عليك بالعدلِ إن وُلِّيت مملكةً ... واحذرْ مِن الجوْرِ فيها غايةَ الحذرِ
فالملك يبقَى على عدلِ الكفورِ ولا ... يبقَى مع الجوْرِ في بدْوٍ ولا حَضَرِ[٤]

وقال آخر:

عن العدلِ لا تعدلْ وكنْ متيقِّظًا ... وحكمُك بين النَّاس فليكُ بالقسطِ
وبالرِّفقِ عاملْهم وأحسنْ إليهمُ ... ولا تبدلنَّ وجه الرِّضا منك بالسَّخطِ
وحَلِّ بدُرِّ الحقِّ جِيد نظامِهم ... وراقبْ إله الخلق في الحلِّ والربطِ[٥]

---

(١) الرحب: السعة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤١٤).
(٢) ((ربيع الأبرار)) (٣/٣٩١-٣٩٢).
(٣) ((مجموعة القصائد الزهديات)) للسلمان (٢/ ٤٨١).
(٤) ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (١/٤٨).
(٥) ((نسيم الصبا)) للحسن بن عمر بن الحسن (ص: ١١٠- ١١١).

فهرس الموضوعات



موسوعة الأخلاق

الجزء التاسع

العِزَّة - العَزْم والعَزِيمَة - العِفَّة

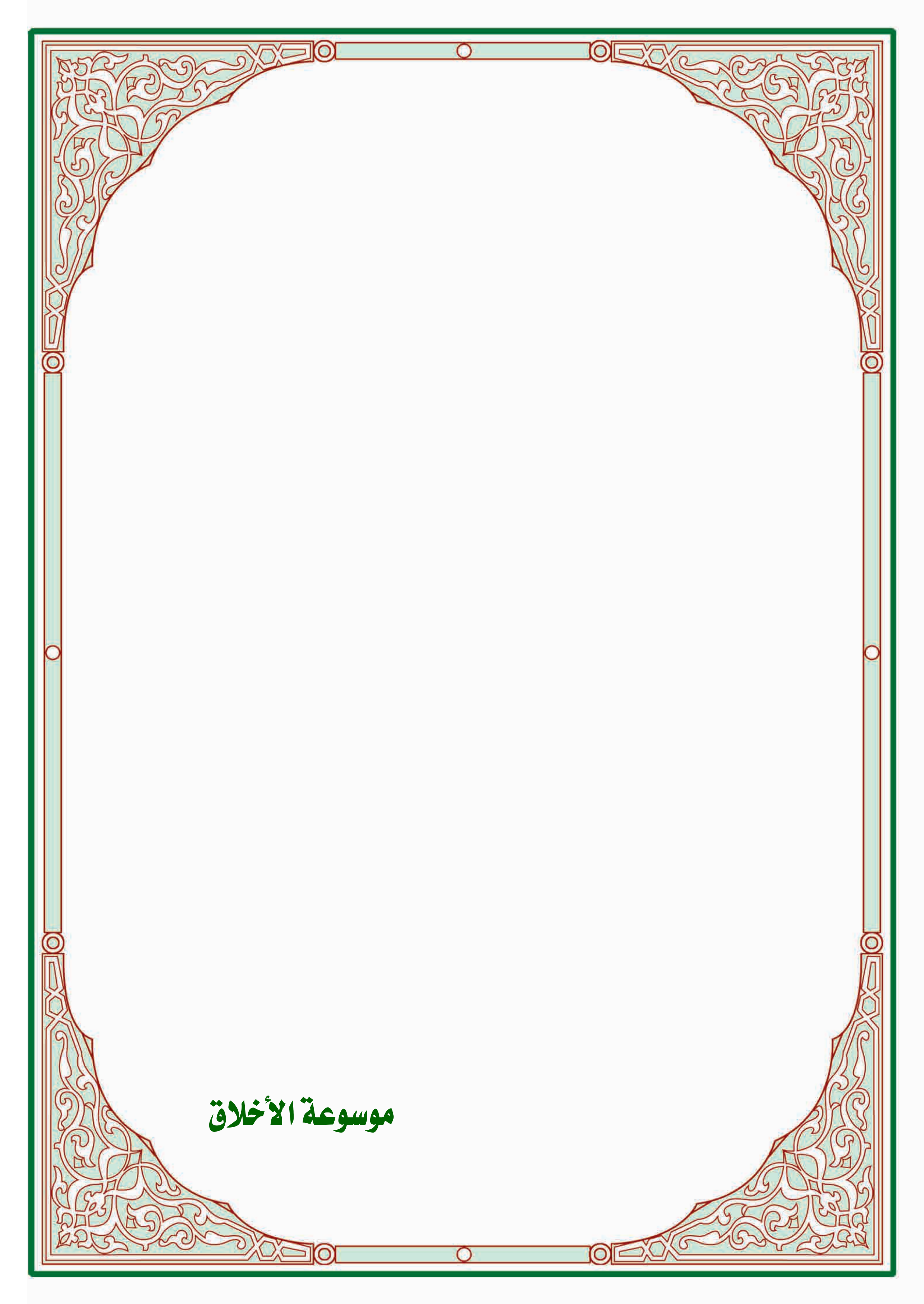
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء التاسع

العِزَّة - العَزْم والعَزِيمَة - العِفَّة

إعداد

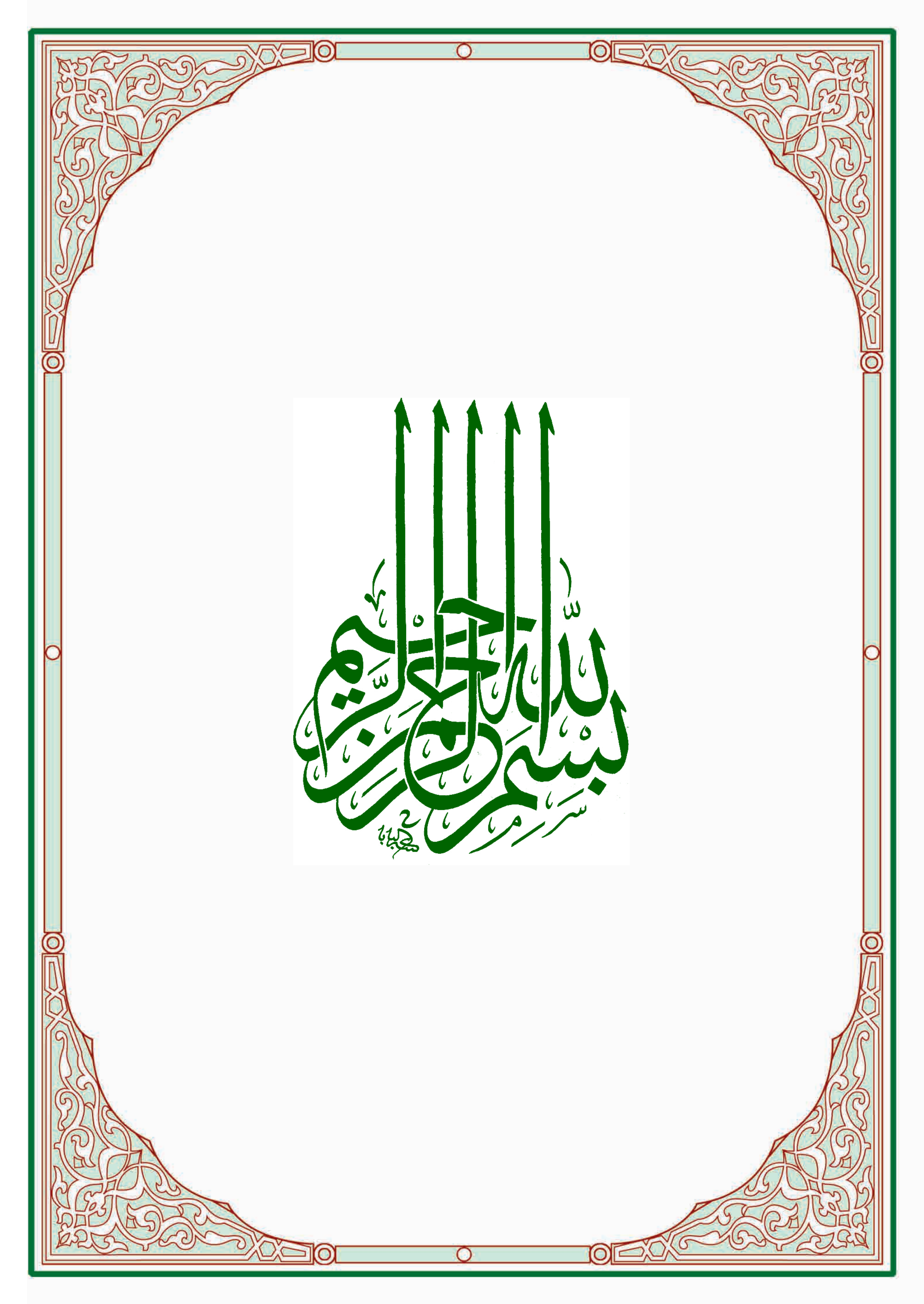
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

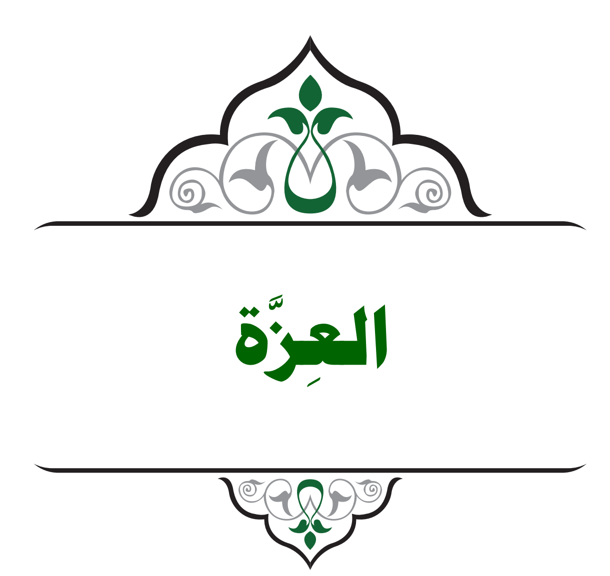
إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



العِزَّة

العِزَّة

معنى العِزَّة لغةً واصطلاحًا:

• معنى العِزَّة لغةً:

العِزُّ: خلاف الذُلِّ. وهو في الأصل: القُوَّة والشِّدَّة والغَلَبَة والرِّفعة والامْتِنَاع. يقال: عَزَّ يَعَزُّ -بالفتح للمضارع-: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمضارع: إذا قَوِيَ وامتنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر. ويقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صَار عَزِيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعَزَّهُ الله. وهو يَعْتَزُّ بفلان، ورَجُلٌ عَزِيزٌ: مَنِيعٌ، لَا يُغْلب، وَلَا يُقْهر. وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقْدَر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئ من الذُّل[1].

فهذه المادة في كلام العرب لا تخرج عن معانٍ ثلاثةٍ:

(أحدها: بمعنى الغَلَبَة، يقولون: مَنْ عَزَّ بَزَّ. أي: من غَلَبَ سَلَبَ، يقال منه: عَزَّ يَعُزُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣].

والثَّاني: بمعنى الشِّدَّة والقُوَّة، يقال منه: عَزَّ يَعَزُّ.

والثَّالث: أن يكون بمعنى نَفَاسَة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ)[2].

• معنى العِزَّة اصطلاحًا:

العِزَّة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب[3].

---

(١) انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٥/٢١٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/٨٨)، و((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/٣٨-٣٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/٣٧٤، ٣٧٥). ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص ٢٤١)، ((شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)) لنشوان الحميري (٧/٤٣١٠)، ((مُعْجَم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/١٤٩٢).

(٢) ((زاد المسير في علم التَّفسير)) لابن الجوزي (١/ ١١٣) - بتصرف.

(٣) ((تاج العروس)) للزبيدي (١٥/ ٢١٩).

وقيل: العِزَّة: القُوَّة والغَلَبَة والحَمِيَّة والأَنَفَة[١].

وقيل: العِزَّة: التَّأَبِّي عن حمل المذَلَّة، وقيل: التَّرَفُّع عمَّا تَلْحَقه غَضَاضَة[٢].

الفرق بين الشَّرَف والعِزَّة:

أنَّ العِزَّة تتضمَّن معنى الغَلَبَة والامْتِنَاع. فأمَّا قولهم: عَزَّ الطَّعام، فهو عَزِيزٌ، فمعناه: قَلَّ حتى لا يُقْدَر عليه، فشُبِّه بمن لا يُقْدَر عليه، لقُوَّته ومَنْعَته؛ لأنَّ العِزَّ بمعنى القِلَّة. والشَّرَف إنما هو في الأصل شَرَفُ المكان، ومنه قولهم: أَشْرَف فلان على الشَّيء، إذا صار فَوْقَه، ومنه قيل: شُرْفَة القصر، وأَشْرَف على التَّلَف، إذا قَارَبَه، ثمَّ استُعْمِل في كَرَم النَّسَب، فقيل للقرشي: شَرِيف. وكلُّ من له نسب مذكور عند العرب: شَرِيف. ولهذا لا يقال لله تعالى: شَرِيف، كما يقال له: عَزِيز[٣].

أهمية العِزَّة:

العِزَّة والإيمان صِنْوَان لا يفترقان، فمتى وَقَرَ الإيمان في قلب الرَّجل، وتشبَّع به كيَانُه، واختلط بشِغَاف قلبه، تشرَّب العِزَّة مباشرةً، فانبثقت منه أقوال وأفعال صادرة عن شعور عظيم بالفَخْر والاستعْلاء، لا فخرًا واستعلاءً على المؤمنين، بل هو على الكافرين. بل يَنْتُج -أيضًا- عن هذا الخُلُق الكريم، صِدْقُ الانتماء لهذا الدِّين، وقُوَّةُ الرَّابط مع أهله، والتَّواضُع لهم، والرَّحمة بهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [المنافقون: ٨] (فجعل العِزَّة صِنْو الإيمان في

---

(١) ((المعْجَم الوسيط)) (٢/٥٩٨).

(٢) ((مُعْجَم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) للسيوطي (ص ٢٠٣).

(٣) ((نضرة النعيم)) (٦/٢٣٤٤).

القلب المؤمن؛ العِزَّة المستمدَّة من عِزَّته تعالى، العِزَّة التي لا تَهُون ولا تَهُن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تُزَايل القلب المؤمن في أحرج اللَّحظات، إلَّا أن يتضَعْضَع فيه الإيمان، فإذا استقرَّ الإيمان ورسخ، فالعِزَّة معه مستقِرَّة راسخة؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكيف يعلمون وهم لا يتذوَّقون هذه العِزَّة، ولا يتَّصِلون بمصدرها الأصيل؟!)[١].

والعِزَّة تَنْتُج عن معرفة الإنسان لنفسه، وتقديره لها، وترفُّعه بها عن أن تصيب الدَّنايا، أو تُصَاب بها، أو أن تَخْنَع لغير الله عزَّ وجلَّ أو أن تركع لسواه، أو أن تُدَاهن، وتحابي في دين الله عزَّ وجلَّ، أو أن ترضى بالدَّنيَّة فيه، فهي نتيجة طبيعيَّة لهذه المعرفة، كما أنَّ الكِبْر نتيجة طبيعيَّة للجهل بقيمة هذه النَّفس وبمقدارها، يقول الراغب الأصفهاني: (العِزَّة: منزلة شريفة، وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه، وإكرامها عن الضَّراعة للأعراض الدُّنيويَّة، كما أنَّ الكِبْر نتيجة جهل الإنسان بقدر نفسه، وإنزالها فوق منزلتها)[٢].

والعِزَّة في الإسلام الحنيف، يستشعرها الدَّاخل في الإسلام بمجرَّد نُطْقه للشَّهادتين، فهو قد دخل في دين الحقِّ، الذي لا يضاهيه دين، والذي أظهره الله على الدِّين كلِّه، ولولا اتِّصافه بهذه الصِّفات ما دخل فيه، ولا استسلم وخضع لأحكامه وتشريعاته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوبة: ٣٣]، وفي سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيِّد قطب (٦/٣٥٨٠).
(٢) ((الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة)) للراغب الأصفهاني (ص ٢١٥).

ومما يُظْهِر فضيلة هذه الصِّفة ومَزِيَّتها: أنَّ الله قد تسمَّى بها في كتابه، فسمَّى نفسه: العزيز، أي: الغَالِب الذي لا يُقْهر، واتَّصف بصفة العِزَّة الذي تضمَّنها الاسم. قال ابن بطَّال: (العزيز يتضمَّن العِزَّة، والعِزَّةُ يُحْتَمل أن تكون صفة ذات، بمعنى القُدْرَة والعظمة، وأن تكون صفة فعل، بمعنى القَهْر لمخلوقاته، والغَلَبَة لهم، ولذلك صحَّت إضافة اسمه إليها)[١].

وقال الغزالي: (العزيز: هو الخَطِير الذي يَقِلُّ وجود مِثْله، وتشتدُّ الحاجة إليه، ويصعُب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثَّلاثة، لم يُطْلَق عليه اسم العزيز... ثمَّ في كلِّ واحد من المعاني الثَّلاثة كمال ونقصان، والكمال في قلَّة الوجود: أن يرجع إلى واحد، إذْ لا أقلَّ من الواحد، ويكون بحيث يستحيل وجود مِثْله، وليس هذا إلا الله تعالى؛... وشدَّة الحاجة: أن يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء، حتى في وجوده وبقائه وصفاته، وليس ذلك -على الكمال- إلَّا لله عزَّ وجلَّ ، والكمال في صعوبة المنَال: أن يستحيل الوصول إليه على معنى الإحاطة بكُنْهِه، وليس ذلك -على الكمال- إلَّا لله عزَّ وجلَّ ، فإنَّا قد بيَّنَّا أنَّه لا يَعرف اللهَ إلَّا الله؛ فهو العزيز المطْلَق الحقُّ، لا يوازيه فيه غيره)[٢].

ويقول ابن القيِّم: (والعِزَّة يُرَاد بها ثلاثة معان: عِزَّة القُوَّة، وعِزَّة الامْتِنَاع، وعِزَّة القَهْر، والرَّبُّ -تبارك وتعالى- له العِزَّة التَّامة بالاعتبارات الثَّلاث)[٣].

كما أنَّه سَمَّى نفسه المعِزَّ، فهو الذي يَهَب العِزَّة لمن يشاء، كما أنَّه يُذِلُّ من يشاء، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ

(١) ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٩).
(٢) ((المقصد الأسنى)) لأبي حامد الغزالي (٧٣- ٧٤).
(٣) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/٢٤١).

وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فهو المعِزُّ الحقيقي لمن يشاء إعزازه من البَشَر، بما يُقيِّض له من الأسباب الموجِبَة للعِزِّ.

إذن فهو عزيز في ذاته، فلا يَحْصُل له الغَلَبَة والقَهْر من أحدٍ سبحانه وتعالى، ومُعِزٌّ لمن شاء من خَلْقه متى شاء، وكَيْفَمَا شاء.

الترغيب في العِزَّة:

أولًا: في القرآن الكريم

لم يفتأ كتاب الله عزَّ وجلَّ يبثُّ في قلب المؤمن وروحه هذا الشُّعور العظيم، الشُّعور بالعِزَّة المستمدَّة من عِزَّة هذا الدِّين وقُوَّته، والمسْتَلْهَمة من آيات كتابه وتعاليمه، عِزَّةٌ تجعله يترفَّع عن كلِّ ما من شأنه أن يَحُطَّ من قدره، أو يرْغِمه على إعطاء الدَّنيَّة في دينه.

ففي العديد من آيات الكتاب الكريم، ينبِّه المولى -تبارك وتعالى- على هذه القضيَّة، والتي ينبغي على المؤمن أن يجعلها نُصْب عينيه، فلا يغفل عنها، ولا يتساهل بها؛ لأنَّ الإسلام إنَّما جاء بالعِزَّة لأتباعه والرِّفعة لأوليائه.

وقبل أن نشْرَع في ذكر الآيات التي تحثُّ على صفة العزة وتدعو إليها، نذكر قول ابن الجوزي وهو يتحدَّث عن العِزَّة في القرآن، فيقول:

(ذكر بعض المفسِّرين أنَّ العِزَّة في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: العَظَمَة. ومنه قوله تعالى في سورة الشُّعراء: ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشُّعراء: ٤٤]، وفي ص: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

والثَّاني: المنْعَة. ومنه قوله تعالى في سورة النِّساء: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّساء: ١٣٩].

والثَّالث: الحَمِيَّة. ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وفي سورة ص: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢])[١].

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

(أي: من كان يَوَدُّ أن يكون عزيزًا في الدُّنْيا والآخرة، فليلزم طاعة الله تعالى، فإنَّ بها تُنَال العِزَّة؛ إذْ لله العِزَّة فيهما جميعًا)[٢].

ويقول الشِّنقيطي: (بيَّن -جلَّ وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنَّ من كان يريد العِزَّة، فإنَّها جميعها لله وحده، فليطلبها منه، وليتسبَّب لنيلها بطاعته -جلَّ وعلا- فإنَّ مَنْ أطاعه، أعطاه العِزَّة في الدُّنْيا والآخرة)[٣]. و(هذه الحقيقة كفيلة -حين تستقرُّ في القلوب- أن تبدِّل المعايير كلَّها، وتبدِّل الوسائل والخطط أيضًا! إنَّ العِزَّة كلَّها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه، فمن كان يريد العِزَّة، فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك، وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كَنَف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾)[٤].

- وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وهنا (يضمُّ الله -سبحانه- رسوله

---

(١) ((نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)) لابن الجوزي (ص ٤٣٥).
(٢) ((تفسير المراغي)) لأحمد مصطفى المراغي (١١٢/٢٢).
(٣) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢٨٠/٦).
(٤) ((المصدر السابق)).

والمؤمنين إلى جانبه، ويُضْفِي عليهم من عِزَّته، وهو تكريم هائل، لا يكرِّمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يُوقِف الله -سبحانه- رسوله والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أُولاء! هذا لواء الأعزَّاء)[1].

- وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّساء: ١٣٩].

قال ابن كثير: (أخبر تعالى بأنَّ العِزَّة كلَّها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، والمقصود من هذا التَّهْيِيج على طلب العِزَّة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديَّته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النُّصْرَة في هذه الحياة الدُّنْيا، ويوم يقوم الأشهاد)[2].

ويقول الطَّبري: (فإنَّ الذين اتخذوهم -أي المنافقين- من الكافرين أولياء ابتغاء العِزَّة عندهم، هم الأذلَّاء الأقلَّاء، فهلَّا اتَّخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العِزَّة والمنْعة والنُّصْرَة من عند الله الذي له العِزَّة والمنْعَة، الذي يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، فيُعِزُّهم ويمنعهم)[3].

- وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

في هذه الآية الكريمة أدب قرآني عظيم، وتوجيه ربَّانيٌّ كبير للثُّلَّة المؤمنة

---

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيِّد قطب (٦/٣٥٨٠).
(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٢/٤٣٥).
(٣) ((تفسير الطَّبري)) (٩/٣١٩).

المجاهدة والصَّابرة، يحثُّهم فيه على عدم الهَوَان الذي ينافي العِزَّة ويضادُّها، ويُنْهِيها ويقضي عليها.

فهو أمرٌ للمؤمنين بالثَّبات على عِزَّتهم، حتى في الأوقات العصيبة؛ لتبقى العِزَّة ملازمة لهم، لا تنفكُّ عنهم في الضرَّاء والسَّرَّاء، في الفرح والحزن، في الحرب والسِّلم، في النَّصْر والهزيمة.

يقول الفَخْر الرَّازي: (كأنَّه قال: إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية، علمتم أنَّ أهل الباطل، وإن اتَّفقت لهم الصَّولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضَّعف والفُتور، وصارت دولة أهل الحقِّ عالية، وصَوْلة أهل الباطل مُنْدَرِسة، فلا ينبغي أن تصير صَوْلَة الكفَّار عليكم -يوم أُحد- سببًا لضعف قلبكم وجُبْنكم وعجزكم، بل يجب أن يقْوى قلبكم، فإنَّ الاستعلاء سيحصل لكم، والقُوَّة والدَّولة راجعة إليكم)[1].

- قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

في هذه الآية الكريمة يُبيِّن الله -تبارك وتعالى- أنَّ العِزَّة على أهل الكفر، هي صفة من صفات جيل التَّمْكين، الذين أحبَّهم الله وأحبُّوه، وارتضاهم بديلًا عمَّن يرتد عن دينه، وبالمقابل فهم أذلَّة في تعاملهم مع إخوانهم من أهل الإيمان، يَخْفِضُون لهم الجناح تواضعًا، ويلينون لهم القول.

يقول الشِّنقيطي في ((أضواء البيان)): (أخبر تعالى المؤمنين -في هذه الآية

(١) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١).

الكريمة- إنَّهم إن ارتدَّ بعضهم، فإنَّ الله يأتي -عوضًا عن ذلك المرتد- بقوم، من صفاتهم: الذُّل للمؤمنين، والتَّواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشِّدَّة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين)[١].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن تميم الدَّاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليَبْلُغن هذا الأمر ما بلغ اللَّيل والنَّهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ[٢] ولا وَبَرٍ[٣] إلَّا أدخله اللهُ هذا الدِّين، بِعِزِّ عَزِيزٍ أو بِذُلِّ ذَليلٍ، عِزًّا يُعِزُّ الله به الإسلام، وذُلًّا يُذِلُّ الله به الكفر))[٤]، وكان تميم الدَّاري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرُ والشَّرَف والعزُّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذُّل والصَّغَار والجِزْية.

- وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَرٍ، ولا وَبَرٍ، إلَّا أدخله الله كلمة الإسلام، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أو ذُلِّ ذَليلٍ، إمَّا يُعِزُّهم الله، فيجعلهم من أهلها، أو يُذِلُّهم، فيدينون لها))[٥].

---

(١) ((أضواء البيان)) (١/ ٤١٥).

(٢) مدر: الطين الصلب. ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/٦٩).

(٣) الوبر: صوف أو شعر. ((تحفة الأحوذي)) لعبد الرحمن المباركفوري (٦/٤١٩).

(٤) رواه أحمد (٤/١٠٣) (١٦٩٩٨)، والطَّبراني (٢/٥٨) (١٢٨٠)، والحاكم (٤/٤٧٧)، والبيهقي (٩/١٨١) (١٩٠٨٩). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/١٧): رجاله رجال الصَّحيح. وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): على شرط مسلم، وله شاهد على شرط مسلم أيضًا.

(٥) رواه أحمد (٦/٤) (٢٣٨٦٥)، والطَّبراني (٢٠/٢٥٤) (٦٠١)، وابن حبان (١٥/٩١) (٦٦٩٩)، والحاكم (٤/٤٧٦)، والبيهقي (٩/١٨١) (١٩٠٨٩). قال ابن عساكر في ((مُعْجَم الشيوخ)) (١/٤١٧)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/١٧): رجاله رجال =

ففي هذا الحديث يُبَشِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بِعِزِّ هذا الدِّين وتمكينه في الأرض، وأنَّ هذا العِزَّ والتَّمكين سيكون سواءً بِعِزِّ عَزِيزٍ، أو بِذُلِّ ذَلِيلٍ، أي: (أدخل الله تعالى كلمة الإسلام في البيت مُلْتَبسة بِعِزِّ شخص عزيز، أي يُعِزُّه الله بها، حيث قَبِلها من غير سَبْيٍ وقتال، ((وذُلِّ ذَلِيلٍ)) أي: أو يُذِلُّه الله بها حيث أباها، والمعنى: يُذِلُّه الله –بسبب إبائها– بِذُلِّ سَبْيٍ أو قتال، حتى ينقاد إليها كَرْهًا أو طَوْعًا، أو يُذْعِن لها ببذل الجِزْية. والحديث مُقْتَبَسٌ من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التَّوبة: ٣٣]، ثمَّ فسَّر العِزَّ والذُّل بقوله: (إمَّا يُعِزُّهم) أي: قومًا أَعَزُّوا الكلمة بالقبول، ((فيجعلهم من أهلها)) بالثَّبات إلى الممات، ((أو بِذُلِّهم)) أي: قومًا آخرين لم يلتفتوا إلى الكلمة وما قبلوها، فكأنَّهم أذَلُّوها، فَجُوزُوا بالإذلال جزاءً وفاقًا، ((فيدينون لها))... أي يُطيعون وينقادون لها)[1].

– و((أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عُيينة بن حصن بن حذيفة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة، رئيسي غَطَفَان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة، وجرت المراوَضةَ في ذلك، ولم يتمَّ الأمر، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: يا رسول الله، أشيء أمرك الله به فلا بدَّ لنا منه؟ أم شيء تحبُّه فنصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أنِّ رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة. فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنَّا نحن وهؤلاء القوم على الشِّرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطيقون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرَى

= الصَّحيح. وحسَّن إسناده الألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٣٩)، وصحَّحه الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (١١٥٩).

(١) ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (١/ ١١٦).

أو بَيْعًا، فحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه- نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلَّا السَّيف. فصوَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه، وتمادوا على حالهم))(١).

وهكذا كأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يربِّيهم على معاني العِزَّة، ويغرسها في قلوبهم غرسًا.

أقوال الصحابة والسَّلف والعلماء في العِزَّة:

- قال عبد الله بن عمرو: (إيَّاك وعزَّة الغضب، فيضيرك إلى ذُلِّ الاعتذار. وإذا ما عَرَتك في الغضب العِزَّة فاذكر مَذَلَّة الاعتذار)(٢).

- وقيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: فيك عَظَمَة. قال: لا، بل فيَّ عِزَّة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨](٣).

- وقال ابن أبي لبابة: (من طلب عِزًّا بباطل، أورثه الله ذُلًّا بحقٍّ)(٤).

- قال رجل للحسن: (إنِّي أريد السِّند فأوصني. قال: أَعِزَّ أَمْرَ الله حيث ما كنت، يُعِزَّك الله. قال: فلقد كنت بالسِّند، وما بها أحدٌ أعزَّ منِّي)(٥).

- وقال ابن عطاء: (العِزُّ في التَّواضع، فمن طلبه في الكِبْر، فهو كتطلُّب الماء من النَّار).

(١) ذكره ابن حزم في ((جوامع السيرة)) (ص ١٨٨).
(٢) ((الشكوى والعتاب)) للثعالبي (ص ٢٣٩).
(٣) ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزمخشري (٢/ ٢٢٠).
(٤) ((المصدر السابق)).
(٥) ((الشكوى والعتاب)) للثعالبي (٢٣٩، ٢٤٠).

- وقال الأحنف: (لا تعدَّنَّ شَتم الوالي شَتْمًا، ولا إغلاظه إغلاظًا، فإنَّ ريح العِزَّة تُبْسط اللِّسان بالغلظة في غير بأس ولا سخط)(١).

- وقال بعض السَّلف: (النَّاس يطلبون العِزَّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلَّا في طاعة الله)(٢).

- وقال إبراهيم بن شيبان: (الشَّرَف في التَّواضع. والعِزُّ في التَّقوى. والحرِّية في القناعة).

- وعن سفيان الثَّوري أنَّه قال: (أَعَزُّ الخَلْق خمسة أنفس: عالم زاهد، وفقيه صوفيٌّ، وغنيٌّ متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني)(٣).

- وكان من دعاء بعض السَّلف: (اللهمَّ أعِزَّني بطاعتك، ولا تذلَّني بمعصيتك)(٤).

- وقال آخر: (إذا طلبت العِزَّة، فاطلبها في الطَّاعة، وإن طلبت الغِنى، فاطلبه في القناعة)(٥).

- وقال الغزالي: (من رزقه القناعة حتى استغنى بها عن خَلْقه، وأمدَّه بالقوَّة والتَّأييد حتى استولى بها على صفات نفسه، فقد أعزَّه، وآتاه الملك عاجلًا، وسيعزُّه في الآخرة بالتَّقريب)(٦).

- وقال -أيضًا-: (العزيز من العباد: من يحتاج إليه عباد الله في أهمِّ

(١) ((نثر الدر في المحاضرات)) لأبي سعد الآبي (٥/ ٤١).
(٢) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٨).
(٣) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٣١٤).
(٤) ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص ٥٩).
(٥) ((الكشكول)) لبهاء الدين العاملي (٢/ ٦٦).
(٦) ((المقصد الأسنى))، بتصرف يسير (ص ٨٩).

أمورهم، وهي الحياة الأخرويَّة، والسَّعادة الأبديَّة، وذلك ممَّا يَقِلُّ -لا محالة- وجوده، ويصعب إدراكه، وهذه رتبة الأنبياء -صلوات الله عليهم أجمعين- ويشاركهم في العزِّ، من ينفرد بالقُرب من درجتهم في عصره، كالخلفاء وورثتهم من العلماء، وعزَّة كلِّ واحدٍ منهم بقدر عُلوِّ رتبته عن سهولة النَّيل والمشاركة، وبقدر عنائه في إرشاد الخَلْق)[١].

- وقال ابن القيِّم: (العِزَّة والعُلُوُّ إنَّما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علمٌ وعملٌ وحالٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. [آل عمران: ١٣٩] فللعبد من العُلُوِّ بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العِزَّة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظٌّ من العُلُوِّ والعِزَّة، ففي مُقَابَلة ما فاته من حقائق الإيمان، علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا)[٢].

- وقال ابن باديس: (الجاهل يمكن أن تعلِّمه، والجافي يمكن أن تهذِّبه، ولكن الذَّليل الذي نشأ على الذُّلِّ، يَعْسُر أو يتعذَّر أن تغرس في نفسه الذَّليلة المهينة عزَّةً وإباءً وشهامةً تُلْحِقه بالرِّجال)[٣].

أقسام العِزَّة:

الخُلُق المحمود دائمًا ما يكون خُلقًا بين خُلقين مذمومين، فهو وسط بينهما، قال ابن القيِّم: (وكلُّ خُلُق محمود مُكْتَنف بخُلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خُلُقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خُلُقان: البخل

(١) ((المقصد الأسنى)) للغزالي، بتصرف يسير (٧٣-٧٤).
(٢) ((إغاثة اللهفان)) (٢/١٨١).
(٣) ((تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)) (ص ٣٩٢).

والتَّبذير. والتَّواضع الذي يكتنفه خُلُقان: الذُّل والمهَانة، والكِبْر والعُلُو. فإنَّ النَّفس متى انحرفت عن التَّوسط، انحرفت إلى أحد الخُلُقين الذَّميمين ولا بدَّ...)[١]، وهكذا هو حال في العِزَّة، فهي خُلُق بين خُلُقين، أحدهما: الكِبْر، والآخر: الذُّل والهَوَان، والنَّفس (إذا انحرفت عن خُلُق العِزَّة -التي وهبها الله للمؤمنين- انحرفت إمَّا إلى كِبْرٍ، وإمَّا إلى ذُلٍّ. والعِزَّة المحمودة بينهما)[٢].

وقد ذكر الله العِزَّة في مواطن، فمدحها حينًا، وذمَّها حينًا آخر، (فمن الأوَّل: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصَّافَّات: ١٨٠]، ومن الثَّاني: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]، وبيان ذلك: أنَّ العِزَّة التي هي لله -جلَّ وعلا-، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين -رضوان الله عليهم- هي الدَّائمة الباقية؛ التي هي العِزَّة الحقيقيَّة. والعِزَّة التي هي للكافرين والمخَالفين هي: التَّعزُّز، وهو -في الحقيقة- ذُلٌّ)[٣].

وعلى ما سبق، يُمْكِننا أن نقسِّم العِزَّة إلى قسمين: شرعيَّة، وغير شرعيَّة.

العِزَّة الشَّرعيَّة:

إنَّها العِزَّة الحقيقيَّة.. العِزَّة في الحقِّ، وبالحقِّ، والتي يكون صاحبها عزيزًا ولو كان ضعيفًا مَظْلومًا، شامخًا ولو كان طريدًا مُستضَامًا، فتجده لا يركع إلا لله، ولا يتنازل عن شيء ممَّا أَمَره به، فهو يَعْتَزُّ بعِزَّة الله -تبارك وتعالى-، الذي يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء. فهذه هي العِزَّة بالحقِّ؛ لأنَّها اعْتِزَاز بمن يملكها، وإذعان له، وانتساب لشرعه وهديه.

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٢٩٥).

(٢) ((المصدر السابق)) (٢/٢٩٦).

(٣) ((الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية)) للمناوي (ص ٨٢).

وهي التي ترتبط بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ووجه ذلك: أنَّ العِزَّة - التي لله ولرسوله وللمؤمنين - هي الدَّائمة الباقية، التي هي العِزَّة الحقيقيَّة، والعِزَّة التي هي للكافرين: هي التَّعزُّز، وهو -في الحقيقة- ذُلٌّ.

إنَّ (العِزَّة والإِباء والكرامة من أبرز الخِلَال التي نادى بها الإسلام، وغرسها في أنحاء المجتمع، وتعهَّد نماءها بما شرع من عقائد، وسنَّ من تعاليم، وإليها يشير عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بقوله: أُحِبُّ الرَّجل -إذا سِيمَ خطَّة خَسْف[1]- أن يقول -بملء فيه-: لا)[2].

صور العِزَّة الشَّرعيَّة:

١- الاعْتِزَاز بالله تبارك وتعالى:

فهو يعرف أنَّ الله عزيز، يَهَب العِزَّة من يشاء، كما أنَّه ينزعها ممَّن يشاء، كما أنَّه يوقن أنَّ الاعْتِزَاز بالعزيز عزَّة، والاعتماد عليه قوَّة، والالتزام بنَهْجِه شموخ، فتراه قويًّا بإيمانه به، عزيزًا بتوكُّله عليه، شامخًا بيقينه به.

وهو يعلم أنَّ الاعْتِزَاز بغيره ذلٌّ وهَوَان، والاستقواء بغيره ضعف، مُعْتَبِرًا بحال كلِّ من اعتزَّ بغير الله تعالى كيف هَوَى إلى مدارك الذِّلة، وهبط إلى حضيض المَهَانة، وكيف تخلَّى عنه من اعتزَّ بهم، ليتَدَحْرج من ذُرَى العلياء والمجد -المزعوم الكاذب- إلى أسفل دركات الذُّلِّ؛ قال عبيدة بن أبي لبابة: (من طلب عزًّا بباطل وجور، أورثه الله ذُلًّا بإنصاف وعدل)[3].

---

(١) الخسف: الإذلال وتحميل الإنسان ما يكره. ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٦٨).

(٢) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص ١٨١).

(٣) ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص ٥٢٣).

٢- الاعْتِزَاز بالانتساب للإسلام، والاعْتِزَاز بهديه وشرائعه:

فهو يعلم أنَّ هذا الدِّين دين العِزَّة والقوَّة، الذي يستمدُّ المسلمون عزَّهم من عِزِّه، وقوَّتهم من قوَّته، ومتى طلبوا العِزَّة في سواه -من مناهج الأرض الشَّرقيَّة أو الغربيَّة- أذلَّهم الله.

كما أنَّه لا يعتزُّ بقبيلة أو قوميَّة أو نسب أو عِرْق ممَّا ينتسب إليه أهل الجاهليَّة في القديم والحديث، بل عزَّته بدينه فقط، وعلى هذا ربَّى نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أصحابه، فلمَّا سمعهم -بأبي هو وأمي، صلَّى الله عليه وسلَّم- ينادي بعضهم: يا للأنصار، وآخرون ينادون: يا للمهاجرين. قال صلى الله عليه وسلم: ((أبِدَعْوَى الجاهليَّة وأنا بين أظهركم))[1]، وقال: ((دعوها فإنَّها منتنة))[2].

حال المسلم -في اعْتِزَازه بدينه- كحال أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حين قال: (نحن أمَّة أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العِزَّة بغيره، أذلَّنا الله)[3].

فلا اعْتِزَاز إلَّا بالإسلام، ولا انتماء إلَّا إلى الإسلام.

أبي الإســلام لا أبَ لي سـواه إذا افـتـخـروا بـقـيـس أو تميـم

٣- الاعْتِزَاز برسول الله صلى الله عليه وسلم:

فهو يعتَزُّ بكونه فَرْدًا في أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ينتسب إليه إذا انتسبت الأمم، ويُفَاخر به إذا ذُكِر القادة والمصلحون العظماء، يرجو

(١) ذكرها ابن هشام في ((السِّيرة)) (ص ٥٥٥)، قال الشَّوكاني في ((فتح القدير)) (١/٥٤٨): رُوِيت هذه القصَّة مختصرة ومطولة من طُرُق.

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٠٦).

(٣) رواه -بنحوه- الحاكم (١/١٣٠)، وصحَّحه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصَّحيحة)) (١/١١٧) على شرط الشيخين.

شفاعته، ويتمنَّى لقائه، ويسأل الله أن يوفِّقه للسِّير على نهجه وإحياء سنَّته، والقيام بحقوقه.

٤- إظهار العِزَّة على الكافرين، والذِّلَّة وخفض الجناح للمؤمنين:

وهذه من أعظم صور العِزَّة ومظاهرها: أن يُرِي المؤمن الكافرين من نفسه عزَّةً وقوَّةً واستعلاءً، لا كِبْرًا وبَطَرًا، بل إظهارًا لقوَّة هذا الدِّين وعزَّته وعلوِّه، قال الله عزَّ وجلَّ وهو يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهم رُحَماء فيما بينهم، ألَّا إنَّهم أشدَّاء على الكافرين، أقوياء في مواجهتهم. وقال -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهذه صفتهم التي استحقُّوا بها التَّمكين، ونالوا بها شرف القيادة، فهم أذِلَّة على المؤمنين، خافضين الجناح لهم، ليِّنين في تعاملهم معهم، إلَّا أنَّهم -في الجانب الآخر- أشدَّاء أقوياء على الكافرين.

العِزَّة غير الشَّرعيَّة:

كاعْتِزَاز الكفَّار بكفرهم، وهو -في الحقيقة- ذُلٌّ، يقول -سبحانه-: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢] أو الاعْتِزَاز بالنَّسب على جهة الفَخْر، أو الاعْتِزَاز بالوطن والمال ونحوها، كلُّ هذه مذمومة.

من صور العِزَّة غير الشَّرعيَّة:

١- الاعْتِزَاز بالكفَّار من يهود ونصارى ومنافقين وغيرهم:

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ

ﭐلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّساء: ١٣٨-١٣٩].

(واللهُ -جلَّ جلاله- يسأل في استنكار: لِمَ يتَّخذون الكافرين أولياء، وهم يزعمون الإيمان؟ لِمَ يضعون أنفسهم هذا الموضع، ويتَّخذون لأنفسهم هذا الموقف؟ أهم يطلبون العِزَّة والقوَّة عند الكافرين؟ لقد استأثر الله عزَّ وجلَّ بالعِزَّة، فلا يجدها إلَّا من يتولَّاه، ويطلبها عنده، ويَرْتَكِن إلى حِمَاه)[1].

٢- الاعْتِزَاز بالآباء والأجداد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قال: ((لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنَّما هم فَحْم جهنَّم، أو ليكوننَّ أهْوَن على الله من الجُعَلِ الذي يُدَهْدِهُ الخِرَاءَ بأنفه، إنَّ الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّة وفخرها بالآباء، إنَّما هو مؤمن تقيٌّ، وفاجر شقيٌّ، النَّاس كلُّهم بنو آدم، وآدم خُلِق من تراب))[2].

٣- الاعْتِزَاز بالقبيلة والرَّهط:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١-٩٢].

---

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيِّد قطب (٢/ ٧٨٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) واللَّفظ له، وأحمد (٢/٣٦١) (٨٧٢١)، والبيهقي (١٠/٢٣٢) (٢١٥٩٣) قال الترمذي: حسن غريب. وحسَّن إسناده المنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٤/٦٢)، وصحَّحه ابن تيمية في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/٢٤٧)، وحسَّنه الألباني ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٩٥٥).

(أَجَماعة من البَشَر -مهما يكونوا من القُوَّة والمنْعة- فهم ناس، وهم ضِعَاف، وهم عِبَاد من عِبَاد الله.. أهؤلاء أعزُّ عليكم من الله؟ أهؤلاء أشدُّ قوَّة ورهبة في نفوسكم من الله؟ ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] . وهي صورة حسِّية للتَّرك والإعراض، تزيد في شناعة فِعْلَتهم، وهم يتركون الله ويُعْرِضون عنه، وهم من خَلْقه، وهو رازقهم وممتِّعهم بالخير الذي هم فيه. فهو البَطَر وجحود النِّعمة وقلَّة الحياء، إلى جانب الكفر والتَّكذيب وسوء التَّقدير)[1].

وعن أبي مالك الأشعري، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أربع في أمَّتي من أمر الجاهليَّة، لا يتركونهنَّ: الفَخْر في الأحساب، والطَّعن في الأنساب، والاستسقاء بالنُّجوم، والنِّياحة))، وقال: ((النَّائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقَام يوم القيامة وعليها سِرْبَال من قَطِرَان ودِرْع من جَرَب[2]))[3].

٤- الاعْتِزَاز بالكثرة، سواءً كان بالمال أو العدد:

قال تعالى في قصَّة صاحب الجنَّة، في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

قال ابن كثير: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.

قال قتادة: تلك -والله- أمنيَّة الفاجر: كثرة المال وعزَّة النَّفر[4]).

---

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/١٩٢٢).

(٢) (سربال) أي: قميص (من قطران) طلاء يطلى به، وقيل: دهن يدهن به الجمل الأجرب، (ودرع) أي قميص، (من جرب) أي: من أجل جرب كائن بها. انظر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) لملا علي القاري (٣/ ١٢٣٥).

(٣) ((صحيح مسلم)) (٩٣٤).

(٤) ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧).

٥- الاعْتِزَاز بجمال الثِّياب:

عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من لبس ثوب شُهْرة في الدُّنيا، ألبسه الله ثوب مذلَّة يوم القيامة))[١].

(والمراد أنَّ ثوبه يَشْتَهر بين النَّاس، لمخالفة لونه لألوان ثيابهم، فيرفع النَّاس إليه أبصارهم، ويختال عليهم بالعُجب والتَّكبُّر.

قال ابن رسلان: لأنَّه لَبِس الشُّهْرَة في الدُّنيا ليَعِزَّ به، ويفتخر على غيره، ويُلْبِسه الله -يوم القيامة- ثوبًا يَشْتهر مذلَّته واحتقاره بينهم عقوبةً له، والعقوبة من جنس العمل، انتهى.

وقوله: ((ثوب مذَلَّة))، أي: أَلْبَسه الله -يوم القيامة- ثوب مذَلَّة، والمراد به: ثوب يوجب ذِلَّته يوم القيامة، كما لَبِس في الدُّنْيا ثوبًا يتعَزَّز به على النَّاس، ويترفَّع به عليهم)[٢].

٦- الاعْتِزَاز بالأصنام والأوثان:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

(فهؤلاء -الذين كفروا ربَّهم- يتَّخذون من دونه آلهة، يطلبون عندها العِزَّة، والغَلَبَة والنُّصْرَة، وكان فيهم من يعبد الملائكة، ومن يعبد الجنَّ ويستنصر بهم، ويتَّقون بهم ﴿كَلَّا﴾، فسيكفر الملائكة والجنُّ بعبادتهم، وينكرونها عليهم،

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٠٧)، وأحمد (٢/٩٢) (٥٦٦٤) والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٥/٤٦٠) (٩٥٦٠)، وأبو يعلى (١٠/٦٢) (٥٦٩٨). وقال الشَّوكاني في ((الدراري المضية)) (٨٠): إسناده رجاله ثقات. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٨/٤٣)، وحسَّن الحديث الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٩٢٢).

(٢) ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (١١/ ٥٠، ٥١).

ويَبْرَؤون إلى الله منهم، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ بالتَّبرُّؤ منهم، والشَّهادة عليهم)[(١)].

أسباب العِزَّة الشَّرعيَّة:

١- الاعتقاد الجازم والإيمان اليقينيُّ بأنَّ الله تعالى هو العزيز الذي لا يغْلِبه شيء، وأنَّه هو مصدر العِزَّة وواهبها. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فلا نصر إلَّا به، ولا استئناس إلَّا معه، ولا نجاح إلَّا بتوفيقه.

قال ابن القيِّم: (العِزَّة والعُلُوُّ إنَّما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو عِلمٌ وعملٌ وحالٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فللعبد من العُلُوِّ بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العِزَّة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظٌّ من العُلُوِّ والعِزَّة، ففي مُقَابَلة ما فاته من حقائق الإيمان، علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا)[(٢)].

وهنا يُقْبِل مُريد العِزَّة على طاعة الله -تبارك وتعالى- فبمقدار طاعته له، تكون العِزَّة والشَّرَف والسُّؤدد، والعكس.. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، قال طنطاوي: (والمعنى: من كان من النَّاس يريد العِزَّة التي لا ذِلَّة معها. فليطع الله، وليعتمد عليه وحده، فللَّه- تعالى- العِزَّة كلُّها في الدُّنْيا والآخرة، وليس لغيره منها شيء... قال القرطبي ما ملخَّصه:

---

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٣٢٠) بتصرف يسير.

(٢) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨١).

يريد -سبحانه- في هذه الآية، أن ينبّه ذوي الأقدار والهمم، من أين تُنَال العِزَّة، ومن أين تُسْتَحق، فمَنْ طلب العِزَّة من الله- تعالى- وجدها عنده - إن شاء الله-، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه.. ومن طلبها من غيره، وَكَلَه إلى من طلبها عنده... ولقد أحسن القائل.

وإذا تذلَّلَتِ الرِّقاب تواضعًا منَّا إليك فعزُّها في ذلِّها[1]

وقال قتادة: (من كان يريد العِزَّة، فليتعزَّز بطاعة الله تعالى)[2].

وكما أنَّ الطَّاعة تكسو الإنسان ثوب العِزَّة، وتَخْلَع عليه ثياب الكرامة، فإنَّ المعصية تكسوه ثياب الذُّلِّ، وتَخْلَع عليه المهَانة والانكسار، (والمعاصي تَسْلُب صاحبها أسماء المدح والشَّرَف والعِزَّة، وتكسوه أسماء الذُّل والذَّمِّ والصَّغار، وشتَّان ما بين الأمرين: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨])[3].

٢- صدق الانتماء لهذا الدِّين، والشُّعور بالفَخْر للانتساب له، والاعْتِزَاز به، حتى ولو كان ذلك في زمن الاستضعاف، واستقواء أعداء المسلمين، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ويقول النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ اللَّيل والنَّهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخله الله هذا الدِّين، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليلٍ، عزًّا يُعِزُّ الله به الإسلام، وذُلًّا يُذِلُّ الله به الكفر))[4].

---

(١) ((التَّفسير الوسيط)) للطنطاوي (٣٢٩/١١).

(٢) ((السراج المنير)) للخطيب الشِّربيني (٣١٥/٣).

(٣) ((موسوعة فقه القلوب)) للتويجري (٤/ ٢٩٢٧).

(٤) رواه أحمد (١٠٣/٤) (١٦٩٩٨)، والطَّبراني (٥٨/٢) (١٢٨٠)، والحاكم (٤٧٧/٤)، والبيهقي (١٨١/٩) (١٩٠٨٩). من حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه. قال الهيثمي في =

٣- متابعة الرَّسول صلى الله عليه وسلم في هديه، وطاعته في أمره، ولزوم سنَّته، فإنَّه بقدر ذلك تكون عِزَّة العبد في الدُّنْيا، وفلاحه في الآخرة، ودليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه عبد الله ابن عمرو أنَّه قال: ((بُعِثْت بالسَّيف بين يدي السَّاعة، وجُعِل رزقي تحت ظلِّ رمحي، وجُعل الذُّل والصَّغار على من خالف أمري))[(١)].

يقول ابن القيِّم: (والمقصود أن بحسب متابعة الرَّسول تكون العِزَّة والكِفَاية والنُّصْرَة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنَّجاة، فالله - سبحانه - علَّق سعادة الدَّارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدَّارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعِزَّة والكِفَاية والنُّصْرَة والولاية والتَّأييد وطيب العيش في الدُّنْيا والآخرة، ولمخالفيه الذِّلَّة والصَّغار والخوف والضَّلال والخذلان والشَّقاء في الدُّنْيا والآخرة)[(٢)].

٤ - اليقين بأنَّ دين الله قد كُتِب له العُلُوُّ والتَّمكين في الأرض، وأنَّ دولة الكافرين وعزَّتهم سائرة إلى زوال؛ لأنَّها بُنيت على باطل وسراب، فبهذا الاعتقاد يتولَّد عند المؤمن شعور بالعِزَّة، وإحساس بالشَّرَف والعُلُوِّ.

= ((مجمع الزوائد)) (١٧/٦): رجاله رجال الصَّحيح. وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): على شرط مسلم، وله شاهد على شرط مسلم أيضًا.

(١) روى البخاري نصفه الثَّاني معلقًا بصيغة التَّضعيف قبل حديث (٢٩١٤)، ورواه أحمد (٥٠/٢) (٥١١٥)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٥/٢) (١١٩٩). قال ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٧٦/١١): فيه أبو المنيب الجرشي ليس به بأس. وصحَّح إسناده الذَّهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (٥٠٩/١٥)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٨١/٢)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٢٢/٧)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥٢/٦): فيه عبد الرَّحمن بن ثابت، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١٦/٦): فيه أبو منيب، لا يعرف اسمه. وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٣١).

(٢) ((زاد المعاد)) (١/ ٣٩).

نماذج في العِزَّة:

- **نماذج في العِزَّة عند الصَّحابة رضي الله عنهم:**

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر)[1].

- عن طارق بن شهاب، قال: خرج عمر بن الخطَّاب إلى الشَّام، ومعنا أبو عبيدة بن الجرَّاح، فأتوا على مَخَاضَة[2]، وعمر على ناقة له، فنزل عنها، وخلع خُفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخَاضَة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هذا، تخلع خُفَّيك، وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخَاضَة؟ ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك. فقال عمر: (أَوَّه[3]، لم يقل ذا غيرك -أبا عبيدة- جعلته نكالًا لأمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم، إنَّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العِزَّة بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله)[4].

- قال الشَّعبي: كانت دِرَّة عمر رضي الله عنه أهيب من سيف الحجَّاج. ولما جيء بالهرمزان -ملك خوزستان- أسيرًا إلى عمر، لم يزل الموكَّل به يقتفي أثر عمر، حتى عَثَر عليه في المسجد نائمًا متوسِّدًا دِرَّته، فلمَّا رآه الهرمزان، قال: هذا هو الملك؟! والله إنِّي خدمت أربعة من الملوك الأكاسرة أصحاب التيجان،

---

(١) ((أخرجه البخاري)) (٣٦٨٤).

(٢) الخوض: المشي في الماء، والموضع مخاضة وهي ما جاز الناس فيها مشاة وركبانا. ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ١٤٧).

(٣) هي كلمة توجع وتحزن. ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ٢٢).

(٤) رواه الحاكم (١/١٣٠)، وصحَّحه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصَّحيحة)) (١/١١٧) على شرط الشيخين.

فما هِبْت أحدًا منهم كهيبتي لصاحب هذه الدِّرَّة[1].

أسامة بن زيد رضي الله عنه:

عن حكيم بن حزام، قال: كان محمَّد صلى الله عليه وسلم أحبَّ رجل من النَّاس إليَّ في الجاهليَّة، فلما نُبِّئ صلى الله عليه وسلم ، وخرج إلى المدينة، شهد حكيم الموْسِم وهو كافر، فوجد حُلَّة لذي يزَن تُبَاع، فاشتراها ليهديها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقَدِم بها عليه المدينة، فأراده على قبضها هديَّةً، فأَبَى، فقال: إنَّا لا نقبل من المشركين شيئًا، ولكن إن شئت أخذتها منك بالثَّمن، فأعطيته إيَّاها حين أبى عليَّ الهديَّة، فلبسها، فرأيتها عليه على المنبر، فلم أر شيئًا أحسن منه يومئذ، ثمَّ أعطاها أسامة بن زيد، فرآها حكيم على أسامة، فقال: يا أسامة، أنت تلبس حُلَّة ذي يزَن؟! فقال: نعم، والله لأنا خير من ذي يزَن، ولأبي خير من أبيه. قال حكيم: فانطلقت إلى أهل مكَّة، أُعجِّبهم بقول أسامة[2].

• نماذج من العِزَّة في حياة التَّابعين:

طاووس:

قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا إلى مكَّة، فلما دخلها، قال: ائتوني برجل من الصَّحابة. فقيل: يا أمير المؤمنين، قد تفانوا. قال: فمن التَّابعين، فأتوه بطاووس اليماني. فلما دخل عليه، خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلِّم بإمرة

---

(١) ذكر أوله الثَّعالبي في ((الإعجاز والإيجاز)) (ص ٣٧)، وذكره -كاملاً- جار الله الزَّمخشري في ((ربيع الأبرار)) (١٣/٤).

(٢) رواه الطَّبراني (٢٠٢/٣) (٣١٢٥)، والحاكم (٥٥١/٣)، قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٥٤/٤): إسناده رجاله ثقات.

أمير المؤمنين، ولكن قال: السَّلام عليك، ولم يُكَنِّه، ولكن جلس بإزائه. قال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا، حتى همَّ بقتله. فقيل له: أنت في حرم الله ورسوله، فلا يمكن ذلك. فقيل له: يا طاووس، ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟! فازداد هشام غضبًا، وقال: لقد خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبِّل يدي، ولم تسلِّم بإمرة أمير المؤمنين، ولم تكنِّني، وجلست بإزائي بغير إذني. وقلت: كيف أنت يا هشام؟ فقال: أمَّا ما خلعت نعلي بحاشية بساطك، فإنِّي أخلعهما بين يدي رب العِزَّة كلَّ يوم خمس مرَّات، فلا يعاتبني، ولا يغضب علي. وأما قولك: لم تقبِّل يدي. فإنِّي سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (لا يحلُّ لرجل أن يقبِّل يد أحد، إلَّا امرأته من شهوة أو ولده برحمة). وأما قولك: لم تسلِّم بإمرة أمير المؤمنين. فليس كلُّ النَّاس راضين بإمرتك، فكرهت أن أَكْذب. وأما قولك: جلست بإزائي؛ فإنِّي سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: (إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النَّار، فانظر إلى رجل جالس وحوله ناس قيام). وأما قولك: لم تكنِّني. فإنَّ الله عزَّ وجلَّ سمَّى أولياءه، وقال يا داود، يا يحيى، يا عيسى، وكنَّى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] فقال هشام: عِظْني. فقال: سمعت أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه يقول: (إنَّ في جهنَّم حيَّات كأمثال القِلَال، وعقارب كالبغال، تلدغ كلَّ أمير لا يعدل في رعيَّته)، ثمَّ قام وذهب[1].

(١) ذكره ابن خلكان في ((وفيات الأعيان)) (٢/٥١٠).

• نماذج في العِزَّة عند العلماء المعاصرين:

عبد الحميد الجزائري:

استدعى المندوب السَّامي الفرنسي في سورية الشَّيخ عبد الحميد الجزائري، وقال له: إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار، وإلَّا أرسلت جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السُّموم ضدَّنا، وإخماد أصواتك المنكرة. فأجاب الشَّيخ عبد الحميد: أيُّها الحاكم، إنَّك لا تستطيع ذلك؟! واستشاط الحاكم غضبًا، وقال: كيف لا أستطيع؟ قال الشَّيخ: إذا كنتُ في عُرْسٍ علَّمتُ المحتفلين، وإذا كنتُ في مأتم وعظتُ المعزِّين، وإن جلستُ في قطار علَّمتُ المسافرين، وإن دخلتُ السِّجن أرشدت المسجونين، وإن قتلتموني ألهبت مشاعر المواطنين، وخير لك أيُّها الحاكم ألا تتعرَّض للأمَّة في دينها ولغتها[١].

قالوا عن العِزَّة..

- ذكر الماوردي قول بعض الأدباء، فقال: (إيَّاك وعزَّة الغضب، فإنَّها تُفْضِي إلى ذُلِّ العذر)[٢].

- وقيل في الحِكَم: (إذا أردت أن يكون لك عزٌّ لا يفنى، فلا تستعزَّ بعزٍّ يفنى. العطاء من الخَلْق حرمان، والمنع من الله إحسان، جلَّ ربُّنا أن يعامل العبد نقدًا فيجازيه نسيئة، إنَّ الله حَكَم بحكم قبل خَلْق السَّماوات والأرض: أن لا يطيعه أحد إلَّا أعزَّه، ولا يعصيه أحد إلَّا أذلَّه، فرَبَط مع الطَّاعة العزَّ، ومع المعصية الذُّلَّ، كما رَبَط مع الإحراق النَّار، فمن لا طاعة له لا عزَّ له)[٣].

- وقال الحكيم: (الاعْتِزَاز بالعبيد منشؤه من حبِّ العزِّ وطلبه له، فإذا

---

(١) ((أقباس روحانية. نقلا من صلاح الأمة)) (٣/٢٧٧-٢٧٨) بتصرف.

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ٢٥٩).

(٣) ((فيض القدير)) للمناوي (٦/٧٣).

طلب العزَّ للدُّنْيا، وطلبه من العبيد، تَرَك العمل بالحقِّ والقولَ به، لينال ذلك العزَّ، فيعزُّوه ويعظِّموه، وعاقبة أمره الذِّلَّة، وأنَّه سبحانه يُمْهِل المخْذول، وينتهي به إلى أن يستخفَّ لباس الذُّلِّ، فعندها يَلْبسه، إمَّا في الدُّنْيا، أو يوم خروجه فيها، فيخرجه من أذلِّ ذلَّة وأعنف عُنْف)[1].

- قيل في بعض الصُّحف الأولى: (العِزَّة والقوَّة يعظمان القلب، وأفضل منهما خوف الله تعالى؛ لأنَّ من لزم خشية الله، لم يخف الوَضِيعة، ولم يحتج إلى ناصر)[2].

- وقيل: (احذر دعوة المظْلوم وتوقَّها، ورِقَّ لها إن واجهك بها، ولا تبعثك العِزَّة على البطش، فتزداد ببطشك ظلمًا، وبعزَّتك بغيًا. وحسبك بمَنْصُور عليك، الله ناصره منك)[3].

- وقيل: (من غرس الزُّهد اجتنى العِزَّة)[4].

- وقال ابن المقفَّع: (من تعزَّز بالله لم يذلَّه سلطان، ومن توكَّل عليه لم يضرَّه إنسان)[5].

- وقال المنفلوطي: (جاء الإسلام بعقيدة التَّوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في قلوبهم الشَّرَف والعِزَّة والأَنَفَة والحَمِيَّة، وليعتق رقابهم من رقِّ العبوديَّة، فلا يَذِلُّ صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويَّهم، ولا يكون

(١) ((فيض القدير)) للمناوي (٦/٧٣).
(٢) ((نهاية الأرب)) للنويري (٦/ ١٠٧).
(٣) ((المصدر السابق)) (٦/ ١٤٠).
(٤) ((روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار)) للأماسي (ص ٣٠).
(٥) ((المصدر السابق)) (ص ٢٤٢).

لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحقِّ والعدل)[١].

العِزَّة في الأمثال:

- (لا تُقرع له عصا) يشير إلى معاني العِزَّة والمنْعة التي يتَّصف بها الإنسان[٢].
- الموت في مقام العِزَّة خير من الحياة في الذُّلِّ[٣].
- ليست العِزَّة في حُسن البزَّة[٤].
- قال أبو عبيد: ومن أمثالهم في العِزَّة قولهم: (تمرَّد ماردٌ، وعزَّ الأَبْلَقُ)[٥].

(يضرب مثلًا للرجل العزيز المنيع الذي لا يقدر على اهتضامه. والمثل للزباء الملكة، ومارد حصن دومة الجندل، والأبلق حصن تيماء، وكانت الزباء أرادت هذين الحصنين فامتنعا عليها فقالت (تمرد مارد وعز الأبلق) وعزَّ أي: امتنع من الضيم)[٦].

العِزَّة في واحة الشِّعر:

قال المتنبِّي:

عِش عزيزًا أو مُتْ وأنت كريم   بين طَعنِ القَنَا[٧] وخفق البنُودِ[٨]

---

(١) ((النظرات)) (٢/١٨).

(٢) ((مُعْجَم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/١٨٠١).

(٣) ((مرزبان نامه)) (ص ١٢٠).

(٤) ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (ص ٢٨٤).

(٥) ((فصل المقال في شرح كتاب الأمثال)) لأبي عبيد البكري (ص ١٣٠).

(٦) ((جمهرة الأمثال)) لأبي عبيد (١/٢٥٧).

(٧) القنا: جمع قناة وهي الرمح. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٢٠٣).

(٨) ((الوساطة بين المتنبي وخصومه)) للجرجاني (١/٣٥١). والبنود: جمع بند وهو العلَم الكبير. ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٩٧).

وقال آخر:

ستٌّ عيونٍ مَن تأتَّتْ له كانت له شافيةً كافية

العِلْمُ والعلياءُ والعفوُ والعِـ ـزَّةُ والعِفَّةُ والعافية[١]

وقال آخر:

لنا العِزَّة القَعْسَاءُ[٢] والعدد الذي عليه إذا عُدَّ الحصى يُتَحَلَّفُ[٣]

وقال آخر:

وإذا ما اعْتَرَتْك في الغَضَب العِزَّة فَاذْكُر تَذَلُّلَ الاِعْتِذَارِ[٤]

وقال عبد الصَّمد بن المعَذَّل:

إذا عزَّ يومًا أخوك في بعض أمرٍ فهُنْ[٥]

وقال الرَّبيع بن أبي الحُقَيق اليهودي:

إذا ماتَ منَّا سيِّدٌ قام بعده له خلَفٌ بادي السِّيادةِ بارعُ

من أبنائنا والغصن ينضُر فرعُهُ على أصله والعِرق للمرءِ نازعُ

وإنَّا لتغشانا الجدوبُ فما نُرى تُقَرِّبُنا للمُدنياتِ المطامعُ[٦]

---

(١) ((مجمع الحكم والأمثال)) أحمد قبش.

(٢) عزة قعساء: ثابتة. ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ١٧٧).

(٣) ((المعاني الكبير في أبيات المعاني)) لابن قتيبة الدينوري (١/٥٣٤). ويتحلف أي يحلف ما لأحد مثل عددنا.

(٤) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٥٩).

(٥) ((نهاية الأرب)) للنويري (٣/٩٠).

(٦) ((حماسة الخالديين)) لأبي بكر محمد بن هاشم الخالدي، وأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (١/ ٣٦).

وقال قَطَرِيُّ بن الفُجَاءة مُظهرًا عزَّة نفسه:

أقولُ لها إذا جاشتْ حياءً ... من الأبطالِ ويحَك لن تُراعِي
فإنَّكِ لو طلبتِ حياةَ يومٍ ... على الأجلِ الذي لكِ لن تُطاعي
فصبرًا في مجال الموتِ صبرًا ... فما نَيْلُ الخلودِ بمُستطاعِ
وما ثوبُ الحياةِ بثوب عزٍّ ... فيُطوَى عن أخي الخَنَع اليَرَاعِ[1]
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ ... وداعِيه لأهل الأرض داعِي
ومَن لا يُعتبَطْ[2] يهرَمْ ويسأَمْ ... ويُفضِ به البقاءُ إلى انقطاعِ[3]

وقال آخر:

ألا هل أتى الأقوام بَذْلي نصيحة ... حبوت بها منِّي سبيعًا وميثمًا[4]
وقلت اعلما أنَّ التَّدابر غادرت ... عواقبه للذُّلِّ والقُلِّ جرهما
فلا تقدحا زَنْد العقوق[5] وأبقيا ... على العِزَّة القَعْسَاء أن تتهدَّما[6]

وقال النَّابغة الجعدي:

فإن كنتَ ترجو أن تحوِّل عزَّنا ... بكفَّيْك فانقل ذا المناكب يذبُلا
وإني لأرجو إن أردت انتقاله ... بكفَّيك أن يأتي عليك ويثقُلا[7]

---

(١) الخنوع: الخضوع والذل. ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/٧٩).
(٢) من اعتبطه الموت إذا مات من غير علة. انظر: ((المصدر السابق)) (٧/٣٤٨).
(٣) سبيع وميثم: اسما رجلين. انظر: ((أمالي القالي)) (١/٩٢).
(٤) ((حماسة الخالديين)) لأبي بكر محمد بن هاشم الخالدي، وأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (١/٤٦).
(٥) قدح الزند ضربه بحجره ليخرج النَّار مِنه. ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٧١٧).
(٦) ((أمالي القالي)) (١/ ٩٣).
(٧) ((الشكوى والعتاب)) للثعالبي (١/٢٤٠).



العَزْم والعَزِيمَة



العَزْم والعَزِيمَة

معنى العزم والعزيمة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى العزم والعزيمة لغةً:**

العزم: الصبر والجد، مصدر عَزَم على الأمر يَعْزِم عَزْمًا ومَعْزِمًا، وعُزْمانًا، وعَزِيمًا، وعَزِيمة. وعَزَمَه. والعَزْمُ الصبر في لغة هذيل. والعزيمة هي الحاجة التي قد عزمت على فعلها [1]. قال الطبري: (أصل العزم اعتقاد القلب على الشيء)[2].

- **معنى العزم والعزيمة اصطلاحًا:**

قال ابن عاشور في تعريف العزم: هو (إمضاء الرأي، وعدم التردد بعد تبين السداد)[3].

وقال الهروي: (العزم تحقيق القصد طوعًا أو كرهًا)[4].

وقال ابن الأثير: العزيمة (هي ما وكدت رأيك وعزمك عليه، ووفيت بعهد الله فيه)[5].

الفرق بين العزم والحزم والنية:

الفرق بين العزم والحزم:

في العزم والحزم وجهان:

أحدهما: أن معناهما واحد وإن اختلف لفظهما.

---

(١) انظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩١/٢)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٥٣٣/١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢٣١/٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٣٩٩).

(٢) ((تفسير الطبري)) (١٨ / ٣٨٥).

(٣) ((التحرير والتنوير)) (١٩٠/٤).

(٤) ((منازل السائرين)) (٦٥/١).

(٥) ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٢٣١/٣).

الثاني: معناهما مختلف:

الحزم والعزم أصلان، وما قاله المبرد من أن العين قلبت حاء ليس بشيء، لاطراد تصاريف كل واحد من اللفظين، فليس أحدهما أصلًا للآخر.

وفي اختلافهما وجهان:

- الحزم جودة النظر في الأمر، ونتيجته الحذر من الخطأ فيه. والعزم قصد الإمضاء، وعليه فالحزم الحذر والعزم القوة، ومنه المثل: لا خير في عزم بغير حزم.

الثاني: أن الحزم التأهب للأمر والعزم النفاذ فيه، ومنه قولهم في بعض الأمثال: رَوِّ بحزم فإذا استوضحت فاعزم[١].

الفرق بين العزم والنية:

(الصلة بين النية والعزم: أنهما مرحلتان من مراحل الإرادة، والعزم اسم للمتقدم على الفعل، والنية اسم للمقترن بالفعل مع دخوله تحت العلم بالمنوي)[٢].

الترغيب في العزم والعزيمة على فعل الخير:

أولًا: في القرآن الكريم

العزم على فعل الخير وعدم التردد والمسارعة لفعل الخيرات من شيم الصالحين، والعزيمة هي الدافع لفعل الخير، ولهذا حثَّ الله عليها في كتابه في غير آية ومن ذلك:

- قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

---

(١) انظر: ((تفسير النكت والعيون)) للماوردي (٢/٢١٤)، و((البحر المحيط)) لأبي حيان الأندلسي (٣/٤٦٤).

(٢) ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٢/٦٠).

لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال ابن جرير الطبري: (أما قوله: فإذا عزمت فتوكل على الله. فإنه يعني: فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك، أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك وتدع وتحاول أو تزاول على ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم، فإنَّ الله يحبُّ المتوكلين، وهم الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه)(١).

وقال الجصاص: (في ذكر العزيمة عقيب المشاورة دلالة على أنها صدرت عن المشورة، وأنه لم يكن فيها نص قبلها)(٢).

وقال البخاري: (فإذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله)(٣).

- وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

قال الشوكاني في قوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: (مما يجب عليكم أن تعزموا عليه؛ لكونه عزمة من عزمات الله التي أوجب عليهم القيام بها)(٤).

---

(١) ((تفسير الطبري)) (٧/٣٤٣).
(٢) ((أحكام القرآن)) (٢/٣٣١).
(٣) ((صحيح البخاري))، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى ٣٨] (٦/٢٦٨١).
(٤) ((فتح القدير)) (١/٤٦٨).

وقال الرازي: (من صواب التدبير الذي لا شكَّ في ظهور الرشد فيه، وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه، فتأخذ نفسه لا محالة به... ولا يجوز ذلك الترخص في تركه، فما كان من الأمور حميد العاقبة معروفًا بالرشد والصواب، فهو من عزم الأمور؛ لأنه مما لا يجوز لعاقل أن يترخص في تركه)[1].

وقال ابن عاشور: (وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم؛ فإن ذلك من عزم الأمور)[2].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال أبو حيان الأندلسي: (العزم مصدر، فاحتمل أن يراد به المفعول، أي من معزوم الأمور، واحتمل أن يراد به الفاعل، أي عازم الأمور)[3].

قال القرطبي: (إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به قاله ابن جريج، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وقول ابن جريج أصوب)[4].

- وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال الماوردي: (يحتمل قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ وجهين:

---

(١) ((تفسير الرازي)) (٩/٤٥٥).

(٢) ((التحرير والتنوير)) (٤/١٩٠).

(٣) ((البحر المحيط)) (٨/٤١٥).

(٤) ((تفسير القرطبي)) (١٤/٦٩).

أحدهما: لمن عزائم الله التي أمر بها.

الثاني: لمن عزائم الصواب التي وفق لها)(١).

وقال ابن كثير: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل)(٢).

وقال السعدي: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يُوفَّق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر)(٣).

وقال الواحدي: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ (أي: الصبر والغفران ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ لأنَّه يوجب الثواب، فهو أتمُّ عزم)(٤).

- وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾. قال: ((إذا جدَّ الأمر)). وقال قتادة: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ يقول: طواعية الله ورسوله، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم)(٥).

قال الرازي: (جوابه -أي جواب إذا- محذوف تقديره ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ خالفوا وتخلفوا، وهو مناسب لمعنى قراءة أُبيٍّ، كأنه يقول في أول الأمر قالوا

(١) ((تفسير النكت والعيون)) (٥/٢٠٩).
(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٧/٢١٣).
(٣) ((تيسير الكريم الرحمن)) (١/٧٦٠).
(٤) ((الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) (ص ٩٦٧).
(٥) انظر: ((تفسير الطبري)) (٢٢/١٧٦-١٧٧).

سمعًا وطاعة، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه: فإذا عزم صاحب الأمر. هذا قول الزمخشري، ويحتمل أن يقال هو مجاز، كقولنا: جاء الأمر وولى، فإنَّ الأمر في الأول يتوقع أن لا يقع، وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال ﴿عَزَمَ﴾، والوجهان متقاربان)[1].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ العزم في اللغة: توطين النفس على الفعل. وفي المعنى أربعة أقوال.

أحدها: لم نجد له حفظًا، رواه العوفي عن ابن عباس، والمعنى: لم يحفظ ما أُمِر به.

والثاني: صبرًا، قاله قتادة ومقاتل، والمعنى: لم يصبر عما نُهي عنه.

والثالث: حزمًا، قاله ابن السائب. قال ابن الأنباري: وهذا لا يُخرج آدم من أولي العزم. وإنما لم يكن له عزم في الأكل فحسب.

والرابع: عزمًا في العَوْد إلى الذَّنْب)[2].

وقال الرازي: (قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يحتمل ولم نجد له عزمًا على القيام على المعصية، فيكون إلى المدح أقرب، ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزمًا على ترك المعصية، أو لم نجد له عزمًا على التحفظ والاحتراز عن الغفلة، أو لم نجد له عزمًا على الاحتياط في كيفية الاجتهاد؛ إذا قلنا: إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد)[3].

---

(١) ((مفاتيح الغيب)) (٢٨/٥٣-٥٤).
(٢) ((زاد المسير)) (٣/١٧٩).
(٣) ((مفاتيح الغيب)) (٢٢/١٠٦).

ورجح ابن جرير الطبري أن تأويل ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ هو (لم نجد له عزم قلب، على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه)[١].

وقال ابن عاشور: (واستعمل نفي وجدان العزم عند آدم في معنى عدم وجود العزم من صفته فيما عهد إليه؛ تمثيلًا لحال طلب حصوله عنده بحال الباحث على عزمه، فلم يجده عنده بعد البحث)[٢].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أبي هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يقولنَّ أحدكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت. ليعزم في الدعاء؛ فإنَّ الله صانع ما شاء لا مكره له))[٣].

قال النووي: (عزم المسألة: الشدة في طلبها، والحزم من غير ضعف في الطلب، ولا تعليق على مشيئة ونحوها)[٤].

وقال ابن حجر: (قوله: ((فليعزم المسألة)). في رواية أحمد عن إسماعيل المذكور الدعاء، ومعنى الأمر بالعزم الجد فيه، وأن يجزم بوقوع مطلوبه، ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأمورًا في جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى، وقيل معنى العزم: أن يحسن الظن بالله في الإجابة... وقال الداودي: معنى قوله ليعزم المسألة أن يجتهد ويلح، ولا يقل إن شئت كالمستثنى، ولكن دعاء البائس الفقير)[٥].

---

(١) ((تفسير الطبري)) (١٨- ٣٨٣- ٣٨٥).
(٢) ((التحرير والتنوير)) (١/ ٢٦٧٧).
(٣) رواه البخاري (٦٣٣٩) ومسلم (٢٦٧٩).
(٤) ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٧).
(٥) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (١١/١٤٠).

قال بدر الدين العيني: (قوله: فليعزم المسألة. أي: فليقطع بالسؤال، ولا يعلق بالمشيئة؛ إذ في التعليق صورة الاستغناء عن المطلوب منه والمطلوب)(١).

وقال السيوطي: (ليعزم المسألة أي يعري دعاءه وسؤاله من لفظ المشيئة)(٢).

- و(عن ابن مسعود، قال: لقد سألني رجل عن أمر ما دريت ما أردُّ عليه، فقال: أرأيت رجلًا مؤديًا نشيطًا يخرج مع أمرائنا في المغازي، فيعزم علينا في أشياء لا نحصيها؟ فقلت له: والله ما أدري ما أقول لك، إلا أنا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فعسى أن لا يعزم علينا في أمر إلا مرة حتى نفعله، وإنَّ أحدكم لن يزال بخير ما اتقى الله، وإذا شك في نفسه شيء سأل رجلًا فشفاه منه، وأوشك أن لا تجدوه، والذي لا إله إلا هو ما أذكر ما غبر من الدنيا إلا كالثغب(٣) شرب صفوه، وبقي كدره)(٤).

قال بدر الدين العيني: (قوله: فيعزم علينا. أي: الأمير يشدد علينا في أشياء لا نطيقها، وقال الكرماني: فيعزم إن كان بلفظ المجهول فهو ظاهر يعني لا يحتاج إلى تقدير الفاعل ظاهرًا، هذا إن كان جاءت به رواية، قوله: حتى نفعله غايةً لقوله: لا يعزم. أو للعزم الذي يتعلق به المستثنى)(٥).

- وعن جماعة من الصحابة مرفوعًا (إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه

---

(١) ((عمدة القاري)) (٢٢/٢٩٩).

(٢) ((تنوير الحوالك)) (١/٢٢١).

(٣) الثغب: -بالفتح والسكون-: الموضع المطمئن في أعلى الجبل يستنقع فيه ماء المطر. وقيل: هو غدير في غلظ من الأرض أو على صخرة ويكون قليلًا. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٦١٣).

(٤) رواه البخاري (٢٩٦٤).

(٥) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (٢٢/٢٩٩).

كما يجب أن تؤتى عزائمه)[١].

قال المناوي: (عزائمه أي مطلوباته الواجبة، فإنَّ أمر الله في الرخص والعزائم واحد)[٢].

قال القاري: (الرخصة إذا كانت حسنًا فالعزيمة أولى بذلك)[٣].

- وعن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: ((إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في صلاته: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم))[٤].

قال المناوي: (... ((وأسألك عزيمة الرشد)) وفي رواية: ((العزيمة على

---

(١) رواه ابن حبان (٢/٦٩) (٣٥٤)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (٦/٢٧٦)، والضياء في ((المختارة)) (١٢/٢٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه ابن حبان (٨/٣٣٣) (٣٥٦٨)، والبزار (١٢/٢٥٠)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٣/٢٠٠) (٥٤١٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. ورواه الطبراني في ((الكبير)) (١٠/٨٤)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (٢/١٠١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه الطبراني في ((الأوسط)) (٨/٨٢)، والقضاعي في ((مسنده)) (٢/١٥١) من حديث عائشة رضي الله عنها. وحسن المنذري إسناد البزار في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٨٨)، وجوَّد النووي إسناد البيهقي في ((الخلاصة)) (٢/٧٢٩)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (١/٣٨٨) في إسناد ابن عباس: هذا إسناد رجاله ثقات. وصحح الحديث الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٨٨٥).

(٢) ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) (١/٥٤٧).

(٣) ((مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للمباركفوري (٢٠٤٩).

(٤) رواه الترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٤). قال ابن رجب في ((جزء من الكلام على حديث إذا كنز الناس)) (١/٣٣٥): له طرق متعددة، وقال ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/٦٧): رجاله من رواة الصحيح، إلا في سماع حسان بن عطية من شداد نظر وله طرق يقوي بعضها بعضًا يمتنع معها إطلاق القول بضعف الحديث، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٢/٣٣٢): رجال إسناده ثقات، وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٣٢٢٨).

الرشد))، قال الحرالي: وهو حسن التصرف في الأمر، والإقامة عليه بحسب ما يثبت ويدوم)[١].

من أقوال العلماء في العزم والعزيمة:

- قال ابن منظور: (لا خير في عزم بغير حزم، فإنَّ القوة إذا لم يكن معها حذر أورطت صاحبها)[٢].

- وقال فخر الدين الرازي: (منصب النبوة والإمامة لا يليق بالفاسقين؛ لأنَّه لا بد في الإمامة والنبوة من قوة العزم، والصبر على ضروب المحنة حتى يؤدي عن الله أمره ونهيه، ولا تأخذه في الدين لومة لائم، وسطوة جبار)[٣].

- وقال الغزالي: (التقوى في قول شيوخنا: تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق منك مثله، حتى يحصل للعبد من قوة العزم على تركه وقاية بينه وبين المعاصي)[٤].

- وقال ابن الجوزي: (ليس في سياط التأديب أجود من سوط العزم)[٥].

فوائد العزم والعزيمة:

١- مظنة قبول الدعاء:

فقوة العزم والجزم في الدعاء، وعدم تعليقه بالمشيئة من آداب الدعاء وأرجى للقبول.

٢- قوة العزم والعزيمة من وسائل تهذيب النفس، وتحصيل الأخلاق الفاضلة:

قال ابن قدامة: (وأشدُّ حاجة الرائض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان مترددًا

---

(١) ((فيض القدير)) (٢/١٦٥).
(٢) ((لسان العرب)) (١٢/٣٩٩).
(٣) ((تفسير الرازي)) (٤/٤٩).
(٤) ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروز آبادي (٥/٢٥٧).
(٥) ((صيد الخاطر)) (٦٧).

بعد فلاحه، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبر، فإذا انقضت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعنيك؟! لأعاقبنك بصوم سنة)[1]. ومن صفات المؤمن القوي قوة العزم على الأمر.

٣- قوة العزم والعزيمة تعين على تحقيق التقوى:

وذلك بحمل النفس على فعل المأمورات وترك المنهيات وهذه هي حقيقة التقوى قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٤- قوة العزم والعزيمة تعين على ترك المعاصي.

٥- العزم والعزيمة من وسائل التخلص من تلبيس الشيطان ووسوسته:

لأنه إذا كانت مهمة الشيطان هي الوسوسة، ومقصده منها (التشكيك والذبذبة والتردد، فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون تردد، كما في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاقتداء بهم ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]... فمن هذا كله كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف، مما يقضي على نوازع الشك والتردد، ولم يبق في قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة)[2].

---

(١) ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة المقدسي (٢٠١).
(٢) ((أضواء البيان)) للشنقيطي، تكملة عطية سالم (٩/١٨٩).

٦- العزم على ترك الذنب من شروط قبول التوبة:

فالتوبة واجبة من كل ذنب ولها ثلاثة شروط:ومنها العزم على عدم العودة للذنب أبدًا[١].

قال أبو حازم: (عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أمَّه الفتوح)[٢].

٧- قوة العزم والعزيمة من علامات التوفيق:

قال ابن القيم: (الدين مداره على أصلين العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في (الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد))[٣]. وأصل الشكر: صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيِّد العبد بعزيمة وثبات فقد أُيِّد بالمعونة والتوفيق)[٤].

٨- قوة العزم والعزيمة تحصل للمرء كل مقام شريف ومنزلة رفيعة:

قال ابن القيم: (فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص ،ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انضمَّ الثبات إلى العزيمة أثمر كلَّ مقام شريف وحال كامل، ولهذا في دعاء النبي الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: ((اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد))[٥] ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر)[٦].

---

(١) انظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (٢٢/١).
(٢) ((حلية الأولياء)) لأبي نُعيم الأصبهاني (٢٣٠/٣).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) ((عدة الصابرين)) (٩٠/١).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) ((طريق الهجرتين)) (١/ ٤٠١).

٩- صاحب العزم والعزيمة القوية الصادقة أكثر الناس صبرًا على البلاء.

١٠- قوة العزم من صفات الأنبياء والمرسلين والصالحين:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

موانع اكتساب صفة العزم والعزيمة:

١- مرض القلب وضعف النفس وانهزامها:

إذا فقد القلب عزمه خارت قوى الجسد مهما كان قويًّا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإنَّ ضعف العزيمة من ضعف حياة القلب، وهي دليل على حياته، وعلى مرضه أو موته.

٢- العجز والكسل:

فالعجز والكسل (هما العائقان اللذان أكثر الرسول من التعوذ بالله سبحانه منهما[١]، وقد يعذر العاجز لعدم قدرته، بخلاف الكسول الذي يتثاقل ويتراخى مما ينبغي مع القدرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦][٢].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ))[٣].

(١) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال)) رواه البخاري (٢٨٩٣).

(٢) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (٣٣٦).

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

٤- التسويف والتمني وترك الأخذ بالأسباب:

(وهما صفة بليد الحس عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخير- وعزمت عليه- إما يعيقها بـ(سوف) حتى يفجأه الموت ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، وإما يركب بها بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، يدمن ركوبه مفاليس العالم ...وما أحسن ما قال أبو تمام:

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأماني لم يزل مهزولا)[1]

٥- الخوف من الفشل:

إن الخوف الدائم من الفشل، وتوقع انتقاد الآخرين، من العوامل المؤثرة في ضعف عزيمة النفس، فالمطلوب هو أن تقاوم الخوف، وتتأسى بأصحاب العزم الصادق الذين قال الله تعالى عن عزمهم، وقوتهم في مواجهة الحياة، وحسن توكلهم عليه سبحانه في تقوية عزائمهم على مواجهة الصعوبات ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] واعلم أن عليك أن تسعى وتأخذ بالأسباب، وليس عليك تحصيل النتائج قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٦- التردد وعدم وضوح الأهداف:

(إن الإسلام يكره لك أن تكون مترددًا في أمورك، تحار في اختيار أصوبها

---

(١) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (٣٣٨-٣٣٩) بتصرف. وانظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/٤٥٧).

وأسلمها، وتكثر الهواجس في رأسك؛ فتخلق أمامك جوًّا من الريبة والتوجس، فلا تدري كيف تفعل، وتضعف قبضتك في الإمساك بما ينفعك فيفلت منك، ثم يذهب سدى)[١]، ولهذا شرع لنا الله سبحانه مشاورة أهل الرأي والخبرة من أهل الصلاح قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، وشرع لنا الرسول الاستخارة[٢]، إعانة للمرء على بلوغ الصواب، وبعد المشاورة يكون التنفيذ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٧- سوء الظن بالله، واليأس، وفقدان الأمل، والنظرة التشاؤمية للحياة:

إن فقدان الأمل يقعد الإنسان عن طلب المعالي؛ ليأسه وحكمه على المستقبل بما يعيشه من واقع أليم، وإنَّ (عمل الشيطان هو تشييع الماضي بالنحيب والإعوال، هو ما يلقيه في النفس من أسى وقنوط على ما فات، إن الرجل لا يلتفت وراءه إلا بمقدار ما ينتفع به في حاضره ومستقبله، أما الوقوف مع هزائم الأمس، واستعادة أحزانها، والتعثر في عقابيلها وتكرار لو، وليت، فليس ذلك من خلق المسلم... قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦])[٣].

وانظر لنبي الله يعقوب؛ لم يمنعه طول الزمان بعد فقدانه ليوسف في الأمل في الله أن يعيده له، بل ازداد أمله بعد حبس ابنه الثاني بمصر فقال لأولاده

---

(١) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (٨٨).

(٢) البخاري برقم (١١٠٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (٨٩).

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

٨- قلة الصبر، وعدم الثبات، واستطالة الطريق، واستعجال النتائج:

قلة الصبر وعدم الثبات تحرم الإنسان من بلوغ أي هدف، وتحقيق أي كمال، وما أخرج آدم عليه الصلاة والسلام من جنة الخلد، وجوار الرحمن، والعيش الهني، والمسكن الطيب إلى شقاء الدنيا، وتعبها، وهمومها إلا قلة الصبر عما نهاه الله عنه، وعدم الثبات على ما أمر به، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ [طه: ١١٥][1].

٩- الفتور والغفلة:

الفتور والغفلة هما رأس البلاء، ومكمن الداء، وإن كان (لابد من سنة الغفلة ورقاد الغفلة ولكن كن خفيف النوم)[2] فلا يعني ذلك ترك الواجبات وفعل المحرمات، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ((إِن لكل عمل شِرَّة[3]، ولكل شِرَّة فَتْرَة[4] فمن كانت شِرَّتُهُ إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك))[5].

ومن مظاهر ذلك:

---

(١) راجع أقوال المفسرين حول هذه الآية من هذا البحث.

(٢) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (ص ٣٣٧).

(٣) الشرة: النشاط والرغبة. ((النهاية في غريب الأثر)) (٦١٣/١).

(٤) فترة: فتر الشيء يفتر ويفتر فتورا وفتارا سكن بعد حدة ولان بعد شدة وفتر هو والفتر الضعف. ((عمدة القاري)) للعيني (٥٣/١).

(٥) رواه أحمد (٢١٠/٢) (٦٩٥٨)، وابن حبان (١٨٧/١) (١١)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٥٩/١١). وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢١٥٢)، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٨١٠) على شرط الشيخين.

- (تضييع الوقت وعدم الإفادة منه، وتزجيته بما لا يعود بالنفع، وتقديم غير المهم على المهم، والشعور بالفراغ الروحي والوقتي وعدم البركة في الأوقات، وعدم إنجاز شيء من العمل مع طول الزمن.

- عدم الاستعداد للالتزام بشيء، والتهرب من كل عمل جدي.

- الفوضوية في العمل: فلا هدف محدد، ولا عمل متقن، الأعمال ارتجالية، التنقل بين الأعمال بغير داع.

- خداع النفس؛ بالانشغال مع الفراغ، وبالعمل وهي عاطلة، الانشغال بجزئيات لا قيمة لها ولا أثر يذكر، ليس لها أصل في الكتاب أو السنة، وإنما هي أعمال تافهة ومشاريع وهمية لا تسمن ولا تغني من جوع.

- النقد لكل عمل إيجابي؛ تنصلًا من المشاركة والعمل، وتضخيم الأخطاء والسلبيات؛ تبريرًا لعجزه وفتوره، تراه يبحث عن المعاذير، ويصطنع الأسباب؛ للتخلص والفرار ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. [التوبة: ٨١].)[(١)].

الوسائل المعينة على تقوية العزم والعزيمة:

١- التوكل على الله وحسن الظن به سبحانه في الوصول للهدف:

أرشدنا الله سبحانه لهذا بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وإن من آثار عقيدة التوحيد في نفس المؤمن قوة العزم والصبر والثبات لعلمه أن الله معه وأنه مؤيده وناصره، فهو يردد قول الله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] التي

(١) انظر: ((الفتور)) لناصر العمر (١٩-٢٠).

قالها إبراهيم عندما أُريد إلقاؤه في النار، ومحمد صلى الله عليه وسلم عندما خوِّف بصناديد المشركين، وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٥٥-٥٦][1].

٢- الدعاء:

فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم ((اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد)).

٣- الاقتداء بأصحاب العزائم من أهل الصلاح والدين:

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى في الاقتداء بالصالحين ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

٤- مصاحبة أهل العزائم القوية، والهمم العالية:

فالمرء على دين خليله، قال ابن تيمية: (الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض)[2]، وقال لقمان الحكيم لابنه: (من يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم، يا بني كن عبدًا للأخيار، ولا تكن خليلًا للأشرار)[3].

أحبُّ الصالحين ولست منهم   لعلي أن أنال بهم شفاعة

---

(١) انظر: ((مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة))، العدد ٣٢ توحيد الله (٣٦/١٢).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) (١٥٠/٢٨).

(٣) ((بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروز آبادي (٩١/٦).

وأكره من تجارته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة[(١)]

٥- المسارعة في التنفيذ، وعدم التردد بعد عقد العزم على العمل:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١].

٦- أخذ الأمور بجدية:

الجدية في الحياة كلها، وإلزام النفس بما يراد تحقيقه طريق الناجحين في حياتهم، ومن جدَّ وجدَ، ومن زرع حصد، قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

٧- عدم الاتكال على الحسب والنسب:

والقاعدة الإسلامية لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا يستوي العا لم والجاهل، ولا المؤمن والكافر، ولا المجتهد والكسول، ولا القوي والضعيف.

قال المتنبي:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

ولسنا وإن أحسابنا كرمت يومًا على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

إذا ما المرء لم يبن افتخارًا لنفسه تضايق عنه ما بنته جدوده[(٢)]

(١) ((ديوان الإمام الشافعي)) (ص ٧٤).

(٢) ((العود الهندي مجالس أدبية في ديوان المتنبي)) لعبد الرحمن السقاف، (٢/٣٦٧-٣٧٤-٣٨٨).

٨- الرغبة الصادقة في تقوية العزم والعزيمة:

وهذا يشمل خطوات:

- تغيير العادات السلبية إلى أخرى إيجابية:

السعي الحثيث لرفع العزيمة وتقويتها يبدأ بالرغبة في إصلاح مواطن الضعف في النفس، والصدق في تحويلها لمواطن قوة، ولهذا فلم تمنع قاتل التسعة والتسعين نفسًا آثامه من السعي للتغيير، بل ولما أكمل المائة ما زال عازمًا على التوبة، فبحث وسأل، بل وترك ما يحبُّ من أهل ووطن في سبيل ما يرجو، حتى كانت العاقبة مغفرة الله ورضوانه[١].

- تحديد الهدف المراد تحقيقه ووضوحه.

- معرفة فائدة العمل في حياتك الدينية والدنيوية.

فمعرفة فائدة العمل تعين على تحمل مشاق العمل، ولهذا جاءت الشريعة بالترغيب في العمل الصالح، والترهيب من المعاصي، وذمِّ البطالة والكسل.

- وضع أهداف قصيرة المدى.

- مكافأة النفس بعد كل عمل تنجزه، والمكافأة بقدر العمل.

- محاسبة النفس على التقصير، ومعاقبتها بترك بعض ما تحب.

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله، فقال له هل من توبة قال لا. فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا. فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي. وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي. وقال قيسوا ما بينهما. فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له).

نماذج من قوة العزم والعزيمة:

- **نماذج من عزم الأنبياء والمرسلين:**

لقد نال الأنبياء والمرسلين من قومهم الأذى الشديد، ولكنهم صبروا مما لقوه من المكاره وواصلوا مهمتهم بالعزم والإصرار، وقد أشاد القرآن بعزمهم الصادق في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم من الرسل هم الذين صبروا وجدوا في سبيل دعوتهم[1].

نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام والعزم على طلب العلم:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠].

(يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لخادمه لا أزال مسافرًا وإن طالت علي الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالِمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي: مسافة طويلة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه) [2]، ولم يمنعه من الاستمرار في رحلته قوله ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ أي تعبًا، وكذلك لم يثنِ عزمه صلى الله عليه وسلم أنهم أخطؤوا الطريق ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٤-٦٦].

---

(١) ((المعجم الوسيط)) (٢/٥٩٩).

(٢) انظر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (٤٨٠-٤٨١).

وسبب رحلة نبي الله موسى لطلب العلم أنه (بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل؛ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه)[١].

نماذج من عزم النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الرسالة:

لقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل تبليغه للرسالة أشد الأذى والمحن، فصبر، مع عزم لا يلين، ممتثلًا لأمر الله عز وجل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقد تجلت عزيمة النبي صلى الله عليه وسلم في مثابرته وجهاده ودعوته إلى الله عز وجل.

قال ابن جرير الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، مثبته على المضي لما قلده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوة صلى الله عليه وسلم، وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد)[٢].

وقال ابن عجيبة: (فإنك من جملتهم، بل من أكملهم وأفضلهم)[٣].

والنماذج في تحمل النبي صلى الله عليه وسلم مشاق الدعوة وقوة عزيمته كثيرة، ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: ((يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال صلى

(١) رواه البخاري (٧٤).
(٢) ((تفسير الطبري)) (٢٢/ ١٤٥)، وانظر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (٧٨٣/١).
(٣) ((تفسير البحر المديد)) لابن عجيبة (٤٩/٦).

الله عليه وسلم: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال: فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئًا))[(١)].

• نماذج من عزم الصحابة رضي الله عنهم:

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم[(٢)] على ما أرادوا، إلا بلالاً فإنَّه قد هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه؛ فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة،

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) واتاهم: أتت أتوا وآتاه على الأمر طاوعه والمؤاتاة حسن المطاوعة وآتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته وطاوعته والعامة تقول واتيته.. ولا تقل واتيته إلا في لغة لأهل اليمن. ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/٥٨٨).

وهو يقول: أحد أحد)[1].

قال السيوطي: (قد وافقوا المشركين على ما أرادوا منهم تقية، والتقية في مثل هذه الحال جائزة، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، والصبر على أذاهم مستحب، وقد علموا على الرخصة، وعمل بلال على العزيمة)[2].

قال ابن الجوزي: (ولولا جدُّ أنس بن النضر في ترك هواه، وقد سمعت من أثر عزمته: لئن أشهدني الله مشهدًا ليرينَّ الله ما أصنع. فأقبل يوم أحد يقاتل حتى قتل، فلم يعرف إلا ببنانه، فلولا هذا العزم ما كان انبساط وجهه يوم حلف، والله لا تكسر سنُّ الربيع)[3].

– عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود قال: ((إني والله ما آمن يهود على كتاب)). قال: فما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم)[4].

– أرسل يزدجرد كسرى فارس إلى ملك الصين يطلب المدد لمحاربة المسلمين الذين استولوا على بلاد فارس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل ملك الصين يعتذر عن نجدته بقوله: (إنه لم يمنعني أن أبعث إليك

---

(١) رواه ابن ماجه (١٥٠)، وابن حبان (١٥/٥٥٨) (٧٠٨٣). حسنه الألباني في ((صحيح ابن ماجه))، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٨٩٨).
(٢) ((شرح سنن ابن ماجة)) (١/١٤).
(٣) ((صيد الخاطر)) (١٣٩).
(٤) رواه أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥)، وأحمد (٥/١٨٦) (٢١٦٥٨). قال الترمذي حسن صحيح. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة، ولا تهجهم ما لم يهيجوك)[١].

- في (سنة سبع وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع، وقيل في جمادى الأولى، أمير الجيوش: أبو النجم بدر الجمالي كان مملوكًا أرمنيًّا لجمال الدولة بن عمار؛ فلذلك عرف: بالجمال، وما زال يأخذ بالجد من زمن سببه فيما يباشره، ويوطن نفسه على قوة العزم، وينتقل في الخدم، حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر)[٢].

أمثال في العزم والعزيمة:

- قوة العزم تذيب الحجرا[٣].

- رَوِّ بحزم، فإذا استوضحت فاعزم[٤].

(ومعنى المثل أنَّ من حزم الإنسان أن يتروى في الأمر، ويتفكر في مجاريه وعواقبه، إذا أراد أن يأتيه، حتى إذا تبين له أنَّه محمود فليقدم عليه بعزم، ولا يتوانَ فيه حتى يدرك فتور فيتعطل)[٥].

- قد أحزم لو أعزم[٦].

---

(١) ((تاريخ الأمم والملوك)) لابن جرير الطبري (٢/ ٥٤٩).
(٢) ((المواعظ والاعتبار)) للمقريزي (٢/٢١٤).
(٣) ((دواوين الشعر العربي على مر العصور)) (٨٧/٢٠١).
(٤) ((تفسير النكت والعيون)) للماوردي (٤/٣٣٢).
(٥) ((زهر الأكم في الأمثال والحكم)) للحسن بن مسعود (٣/٧١).
(٦) ((البحر المحيط)) لأبي حيان الأندلسي (٣/٤٦٤).

العزم والعزيمة في واحة الشعر:

إذا هَمَّ ألقَى بين عينيه عزمَه ... ونَكَّب[١] عن ذكر العواقب جانبا

ولم يستشِرْ في أمره غيرَ نفسه ... ولم يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا[٢]

قال امرؤ القيس:

ولو أنَّما أسعَى لأدنَى معيشةٍ ... كفاني- ولم أطلبْ- قليلٌ من المالِ

ولكنَّما أسعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ[٣] ... وقد يدركُ المجدَ المؤثلَ أمثالي[٤]

وقال أبودُلَف:

وليس فراغُ القلبِ مجدًا ورفعةً ... ولكنَّ شغلَ القلبِ للمرءِ رافعُ[٥]

قال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرومٍ[٦] ... فلا تقنعْ بما دونَ النُّجومِ

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ[٧]

وقال أيضًا:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وتعظمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها ... وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ[٨]

---

(١) نكَّب: نَكَبَ عن الشيءِ وعن الطريق يَنْكُب نَكْبًا ونُكُوبًا ونَكِبَ نَكَبًا ونَكَّبَ وتَنَكَّبَ عَدَلَ. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٧٧٠).

(٢) ((تفسير التحرير والتنوير)) لابن عاشور (٤/١٥١).

(٣) مؤثل: أي قديم واثلة الشيء أصله. ((شرح النووي على مسلم)) (١١/٨٦).

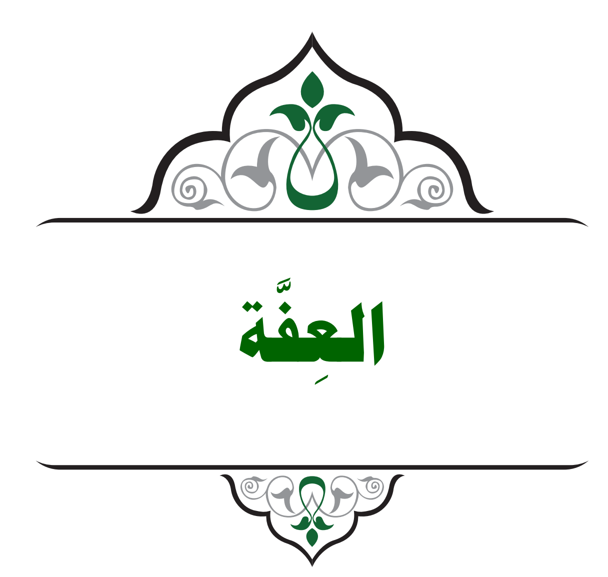
(٤) ((العود الهندي مجالس أدبية في ديوان المتنبي)) لعبد الرحمن السقاف (٣/١٢، ٩).

(٥) ((الرسائل)) للجاحظ (٢/ ٣٥٣).

(٦) مروم: رام الشيء يَرومُهُ رَوْمًا ومَرامًا طلبه. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/٢٥٨).

(٧) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (١/٥٢٤).

(٨) ((ديوان أبي الطيب المتنبي)) (ص ٣٨٥).



العِفَّة

العفة

معنى العفة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى العفة لغةً:**

مصدر عفَّ يقال: عَفَّ عن الحرام يعِفُّ عِفَّةً وعَفًّا وعَفَافَةً أي: كفَّ، فهو عَفٌّ وعَفِيفٌ والمرأة عَفَّةٌ وعَفِيفَةٌ وأعَفَّهُ الله، واسْتَعَفَّ عن المسألة أي: عفَّ، وتَعَفَّفَ: تكلف العِفَّةَ.

والعِفة الكَفُّ عما لا يَحِلُّ ويَجْمُل، والاسْتِعْفاف طلَبُ العَفافِ[1].

- **معنى العفة اصطلاحًا:**

هي: (هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة، والخمود الذي هو تفريطها، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة)[2].

وقيل هي: (ضبط النفس عن الشهوات وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السَّرف في جميع الملذات وقصد الاعتدال)[3].

وقيل هي: (ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية، وهي حالة متوسطة من إفراط وهو الشره وتفريط وهو جمود الشهوة)[4].

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/٢٥٣). ((مختار الصحاح)) للرازي (٤/١٤٠٥)
(٢) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٥١).
(٣) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص ٢١)
(٤) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص ٣١٨)

الترغيب في العفة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

- وقال سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

(أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون ما لا ينكحون به للصداق والنفقة، ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يوسع عليهم من رزقه)[(١)].

- وقال سبحانه: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور: ٦٠].

(وقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وترك وضعهنَّ لثيابهنَّ وإن كان جائزًا خير وأفضل لهن، والله سميع عليم)[(٢)].

---

(١) ((معالم التنزيل)) للبغوي (٦/٤١).

(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٦/٨٤)

- وقال سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

يحسبهم (... ﴿الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء، والتعفف التفعل من العفة وهي الترك يقال: عفَّ عن الشيء إذا كف عنه، وتعفف إذا تكلف في الإمساك.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ السيماء والسيمياء والسمة: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها هاهنا، فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال السدي: أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقال الضحاك: صفرة ألوانهم من الجوع والضر وقيل رثاثة ثيابهم، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ قال عطاء: إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاءً، وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداءً، وقيل: معناه لا يسألون الناس إلحافًا أصلًا لأنه قال: من التعفف، والتعفف ترك السؤال)[1].

- وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[النساء: ٦].

(أي: من كان في غُنْية عن مال اليتيم فلْيستعففْ عنه، ولا يأكل منه شيئًا.

---

(١) ((معالم التنزيل)) للبغوي (١/٣٣٨).

قال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم)[١].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف))[٢].

(أي العفة من الزنا . قال الطِّيبي: إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأن هذه الأمور من الأمور الشاقة التي تفدح الإنسان وتقصم ظهره، لولا أنَّ الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها، وأصعبها العفاف؛ لأنَّه قمع الشهوة الجبلِّية المركوزة فيه، وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين، فإذا استعفَّ وتداركه عون الله تعالى ترقَّى إلى منزلة الملائكة وأعلى عليين)[٣].

- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم))[٤].

قال ابن عبد البرِّ في شرحه لهذا الحديث: (اضمنوا لي ستًّا: من الخصال ((من أنفسكم)) بأن تداوموا على فعلها ((أضمن لكم الجنة)) أي دخولها

---

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٢/٢١٦).

(٢) رواه الترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨). وحسنه الترمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٥/٦)، وصححه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/٥)، وجوَّد إسناده ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥).

(٣) ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٥/٢٩٦).

(٤) رواه أحمد (٥/٣٢٣) (٢٢٨٠٩)، وابن حبان (١/٥٠٦)، والحاكم (٤/٣٩٩). وصحح إسناده الحاكم، وقال الذهبي في ((المهذب)) (٥/٢٤٥١): إسناده صالح.

((اصدقوا إذا حدثتم)) أي: لا تكذبوا في شيء من حديثكم إلا إن ترجح على الكذب مصلحة أرجح من مصلحة الصدق في أمر مخصوص كحفظ معصوم ((وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا ائتمنتم)). قال البيهقي: ودخل فيه ما تقلَّد المؤمن بإيمانه من العبادات، والأحكام، وما عليه من رعاية حق نفسه، وزوجه، وأصله، وفرعه، وأخيه المسلم، من نصحه، وحق مملوكه، أو مالكه، أو موليه، فأداء الأمانة في كل ذلك واجب ((واحفظوا)) أيها الرجال والنساء ((فروجكم)) عن فعل الحرام لثنائه تعالى على فاعليه بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ((وغضُّوا أبصاركم)) كفوها عما لا يجوز النظر إليه ((وكفُّوا أيديكم)) امنعوها من تعاطي ما لا يجوز تعاطيه شرعًا، فلا تضربوا بها من لا يسوغ ضربه، ولا تناولوا بها مأكولًا، أو مشروبًا حرامًا، ونحو ذلك، فمن فعل ذلك؛ فقد حصل على رتبة الاستقامة المأمور بها في القرآن، وتخلقوا بأخلاق أهل الإيمان)[١].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: ((إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم. حتى إذا نفد ما عنده. قال: ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله. ومن يصبر يصبره الله. وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر))[٢].

قال ابن عبد البر: (فيه الحض على التعفف والاستغناء بالله عن عباده، والتصبر، وأنَّ ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان، وفي هذا كلِّه نهي عن السؤال،

(١) ((فيض القدير)) للمناوي (١/٦٨٣).
(٢) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

وأمر بالقناعة والصبر)[١].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((سرحتني[٢] أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وقعدت فاستقبلني وقال: من استغنى أغناه الله عز وجل ومن استعفَّ أعفَّه الله عزَّ وجلَّ، ومن استكفى كفاه الله عزَّ وجلَّ، ومن سأل وله قيمة أوقية، فقد ألحف. فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية فرجعت ولم أسأله))[٣].

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى))[٤].

قال النووي: (أما العفاف والعفة؛ فهو التنزه عما لا يباح، والكف عنه، والغنى هنا غنى النفس، والاستغناء عن الناس، وعما في أيديهم)[٥].

أقوال السلف والعلماء في العفة:

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف)[٦].

- وقال رضي الله عنه وهو على المنبر: (لا تكلفوا الأمة غير ذات الصنعة الكسب؛ فإنكم متى كلفتموها ذلك كسبت بفرجها، ولا تكلفوا الصغير الكسب؛ فإنه إذا لم يجد يسرق، وعفُّوا إذا أعفَّكم الله، وعليكم من المطاعم

(١) ((التمهيد)) لابن عبد البر (١٠/١٣٣).
(٢) السرح: الإرسال. يقال: سرح إليه رسولاً: أي أرسله. ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/٤٦٣).
(٣) رواه النسائي (٢٥٩٥)، وأحمد (٣/٩) (١١٠٧٥). وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/٣٢٩)، وجود إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥/٤٠١).
(٤) رواه مسلم (٢٧٢١).
(٥) ((شرح صحيح مسلم)) (١٧/٤١).
(٦) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢/١٥٠).

بما طاب منها)[١].

- وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (نحن معشر قريش نعدُّ الحلم والجود السؤدد، ونعدُّ العفاف وإصلاح المال المروءة)[٢].

- وقدم وفد على معاوية فقال لهم: (ما تعدون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد)[٣].

- وقال محمد بن الحنفية (الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة)[٤].

- وقال عمر بن عبد العزيز: (خمس إذا أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة: أن يكون فهمًا[٥] حليمًا عفيفًا صليبًا[٦]، عالمًا سؤولًا عن العلم)[٧].

- وقال أيوب السختياني: (لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عنهم)[٨].

- وقال الحسن البصري: (لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه وأبغضوه).

---

(١) رواه مالك (٢/٩٨١) (٤٢)، والطحاوي في ((شرح المشكل)) (٢/٨٦) (٦٢٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١١/٨٩) موقوفًا على عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/٢١٥).

(٣) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢/١٥٠).

(٤) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٣٢٩).

(٥) فهمًا: بفتح الفاء وكسر الهاء وهو من صيغ المبالغة، ويجوز تسكين الهاء أيضا. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/١٤٩).

(٦) صليبًا: من الصلابة بوزن عظيم، أي قويًا شديدًا يقف عند الحق ولا يميل مع الهوى، ويستخلص حق المحق من المبطل ولا يحابيه. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/١٤٩).

(٧) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل حديث (٧١٦٣).

(٨) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص ٣١٩).

- وقال الشافعي: (الفضائل أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها الفكرة. والثانية: العفَّة، وقوامها الشهوة.

والثالثة: القوة، وقوامها الغضب. والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس).

- وقال أبو حاتم البستي: (أعظم المصائب: سوء الخلق، والمسألة من الناس، والهم بالسؤال نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسؤال، ومن عزت عليه نفسه، صغرت الدنيا في عينيه، ولا ينبل الرجل حتى يعفَّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم، والسؤال من الإخوان ملال، ومن غيرهم ضد النوال)[1].

- وعن المديني قال: (كان يقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف، والغنى أكثر من مروءة الإعطاء)[2].

فوائد العفة:

١- سلامة المجتمع من الفواحش:

فالمجتمع الذي يتصف بالعفة يكون بعيدًا من الفواحش والرذائل.

٢- أن العفيف من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

(ورجلٌ طلَبَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمالٍ، فقال إني أخافُ اللهَ)[3]

٣- العفة سبب للنجاة من الابتلاءات والمضائق:

فقد جاء في قصة أصحاب الغار، الذين انطبقت عليهم الصخرة، أن

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ١٤٦).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٥١).

(٣) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

أحدهم توسل إلى الله بقوله: ((اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار؛ فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها فقالت: اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه[١]، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا))[٢].

٤- إعانة الله لمن أراد العفاف:

إن الله سبحانه وتعالى تكفل بمقتضى وعده إعانة من يريد النكاح حتى يعفَّ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة حقٌّ على الله عزَّ وجل عونهم: المكاتَب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله))[٣].

أقسام العفة:

(العفة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم.

فأما العفة عن المحارم فنوعان:

أحدهما: ضبط الفرج عن الحرام.

والثاني: كف اللسان عن الأعراض.

---

(١) بحقه: أرادت به الحلال، أي لا أحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح. ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/٥٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه الترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨). وحسنه الترمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٥/٦)، وصححه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/٥)، وجوَّد إسناده ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥).

فأما ضبط الفرج عن الحرام؛ فلأنه مع وعيد الشرع، وزاجر العقل معرة فاضحة، وهتكة واضحة)[١].

(وأما العفة عن المآثم فنوعان: أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة)[٢].

شروط العفة:

ذكر الراغب الأصفهاني شروطًا للعفة في كتابه (الذريعة)[٣] وهي:

١- أن لا يكون تعففه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه.

٢- أو لأنه لا يوافقه.

٣- أو لجمود شهوته.

٤- أو لاستشعار خوف من عاقبته.

٥- أو لأنه ممنوع من تناوله.

٦- أو لأنه غير عارف به لقصوره.

فإنَّ ذلك كله ليس بعفة، بل هو إما اصطياد، أو تطبب، أو مرض، أو خرم، أو عجز، أو جهل، وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عن الغضب.

فالشهوة مغتالة مخادعة، والغضب مغالب، والمتحيز عن قتال المخادع أردأ حالا من المتحيز عن قتال المغالب. ولهذا قيل: عبد الشهوة أذلُّ من عبد الرقِّ، وأيضًا بالشَّرَه قد يجهل عيبه.

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٣٢١).

(٢) ((المصدر السابق)) بتصرف (ص ٣٢٩) .

(٣) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٣١٩) بتصرف.

أساس العفة وتمامها:

قال الراغب الأصفهاني وهو يبين أساس وتمام العفة: ((وأسها يتعلق: بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية، وعن اعتقاد ما يكون جالبًا للبغي والعدوان.

وتمامها يتعلق: بحفظ الجوارح، فمن عدم عفة القلب يكون منه التمني وسوء الظنِّ، اللذان هما أسُّ كلِّ رذيلة، لأن من تمنى ما في يد غيره حسده، وإذا حسده عاداه، وإذا عاداه نازعه، وإذا نازعه ربما قتله.

ومن أساء الظنَّ عادى وبغى وتعدى، ولذلك نهى الله سبحانه عنهما جميعًا فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [النساء: ٣٢] وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾ [الحجرات: ١٢] فأمر فيهما بقطع شجرتين يتفرع عنهما جلُّ الرذائل والمآثم.

ولا يكون الإنسان تامَّ العفة؛ حتى يكون عفيف اليد، واللسان، والسمع، والبصر.

فمن عدمها في اللسان: السخرية، والتجسس، والغيبة، والهمز، والنَّمِيمَة، والتنابز بالألقاب.

ومن عدمها في البصر: مدُّ العين إلى المحارم، وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة.

ومن عدمها في السمع: الإصغاء إلى المسموعات القبيحة.

وعماد عفة الجوارح كلِّها، ألا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكلِّ واحد منهما، إلا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى))(١).

---

(١) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٣١٨).

صور العفة:

١- العفة عما في أيدي الناس:

وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، ويترك مسألتهم، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا وأتكفَّل له بالجنة)). فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا[1].

٢- العفة عما حرم الله:

وهي أن يعفَّ عن المحرمات والفواحش. ونذكر هنا عفة نبي الله يوسف عليه السلام؛ حيث وجدت دواعي الفتنة، ولم يستسلم أمام التهديدات والإغراءات.

٣- كف اللسان عن الأعراض:

يجب على المسلم كف لسانه عن أعراض الناس، وأن لا يقول إلا طيبًا. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه))[2].

موانع العفة:

المعوقات التي تقف في طريق العفة في هذا الزمن كثيرة جدًّا، وقد أُعلنت الحرب على العفة، وتضاعفت جهود أهل الباطل، حتى تنتشر الرذيلة، وتشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، واتخذوا الوسائل العديدة فمنها:

---

(١) رواه أبو داود (١٦٤٣)، وأحمد (٥/٢٧٦) (٢٢٤٢٨)، والحاكم (١/٥٧١). وصحح إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٣٩)، وصحح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٢٣٧)، وصححه الألباني في ((صحيح أبي داود)) (١٦٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٠).

١- وسائل الإعلام:

فإنَّ الناظر إلى أغلب وسائل الإعلام الموجودة في البلاد الإسلامية فضلًا عن غيرها، يجد فيها الكثير من الفساد، سواء كان في القنوات الفضائية، أو الشبكة العنكبوتية، أو الإذاعات والمجلات والصحف، فتجدها تبث السموم وتنشر الرذيلة، وتدعو إلى خلاف العفة.

٢- الاختلاط والخلوة:

(إن العِفَّة حجاب يُمَزِّقه الاختلاط، ولهذا صار طريق الإسلام التفريق والمباعدة بين المرأة والرجل الأجنبي عنها، فالمجتمع الإسلامي مجتمع فردي لا زوجي، فللرجال مجتمعاتهم، وللنساء مجتمعاتهنَّ، ولا تخرج المرأة إلى مجتمع الرجال إلا لضرورة أو حاجة بضوابط الخروج الشرعية.

كل هذا لحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضائل، والبعد عن الرِّيب والرذائل، وعدم إشغال المرأة عن وظائفها الأساس في بيتها، ولذا حُرِّم الاختلاط، سواء في التعليم، أم في العمل، والمؤتمرات، والندوات، والاجتماعات العامة والخاصة، وغيرها؛ لما يترتب عليه من هتك الأعراض ومرض القلوب، وخطرات النفس، وخنوثة الرجال، واسترجال النساء، وزوال الحياء، وتقلص العفة والحشمة، وانعدام الغيرة)[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[الأحزاب: ٥٣].

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إياكم والدخول على النساء! فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو

---

(١) ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (٩٧-٩٨).

قال الحمو الموت[١].))[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ ، ولا تسافِرَنَّ امرأةٌ وإلا معها محرمٌ))[٣].

٣- تبرج النساء:

فتبرج النساء من الأسباب التي تعوق العفة؛ لذا أُمرت المرأة بالقرار في البيت، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإذا خرجت التزمت بالضوابط الشرعية للخروج، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، قال السعدي في تفسيره لهذه الآية: (أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة. ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأنَّ الأمر إذا كان مباحًا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه)[٤].

٤- استماع الأغاني والمعازف:

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه قال: ((والله ما كذبني سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ليكونن من

---

(١) الحمو الموت: معناه أن الخوف منه أكثر من غيره والشر يتوقع منه والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي والمراد بالحمو هنا أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/١٥٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

(٣) رواه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (٥٦٦).

أمتي أقوام يستحلون الحر[١]، والحرير، والخمر، والمعازف))[٢].

(والحكمة في التحريم ظاهرة: حيث أن المتتبع لمجالس الغناء الفاسق، ومسارح الطرب، وأماكن اللهو، وما يصاحبها من معازف وآلات، في ذلك يجد الرقص الخليع الفاجر، من نساء امتهنَّ الرذيلة والفاحشة، ويجد العربدة والصياح المتعالي من أفواه السكارى، ويجد الكلمات البذيئة الفاحشة العارية من الحياء والخجل، والمتخمة بالوقاحة وسوء الأدب، يجد الاختلاط الشائن بين عوائل متحللة؛ حيث التخلع والمراقصة وهدر النخوة والشرف... وباختصار يجد التحلل والإباحية في أسوأ تبذلها ومظاهرها)[٣].

قال الفُضَيل بن عِيَاض: الغناء رُقْيَة الزنا[٤].

وقال ابن القيم: (فإنه رُقْيَة الزنا ومُنبِت النفاق وشَرَك الشيطان وخمرة العقل، وصَدُّه عن القرآن أعظم من صدِّ غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس ورغبتها فيه)[٥].

الوسائل المعينة على العفة:

١- أن يتقي الله في سره وعلانيته:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ

---

(١) الحر: فرج المرأة، قيل: أصله حرح فحذفت الأخيرة تخفيفا وهي ظاهرة في الجمع. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠٤/١).

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٥٥٩٠)، وصححه ابن القيم في ((تهذيب السنن)) (١٥٣/١٠).

(٣) ((تربية الأولاد في الإسلام)) لعبد الله العلوان (٩٢١/٢-٩٢٢).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ((ذم الملاهي)) (٥٥).

(٥) ((إغاثة اللهفان)) (٢٤٠/١).

وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:٣] ويقول تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ قال: (هو الرجل يكون بين الرجال، فتمر بهم امرأة فينظر إليها، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره)[1].

٢- أن يدعو الله بأن يصرف عنه السوء والفحشاء:

قال سبحانه وتعالى عن نبيه يوسف عليه السلام ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤]، قال ابن تيمية: (فلا بد من التقوى بفعل المأمور، والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه السلام اتقى الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس)[2].

٣- تنشئة الأبناء على التربية الإسلامية:

التربية الإسلامية من أهم الوسائل المعينة على العفة، والتي ينبغي فيها مراعاة غرس الفضيلة والعفة في الأبناء، والتربية على الالتزام بالأحكام الشرعية منذ نعومة أظفارهم.

٤- الزواج:

الزواج المبكر من أقوى الوسائل المعينة للعفاف، قال صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[3]؛ فليتزوج فإنه أغض للبصر،

---

(١) ((تفسير القرآن)) لأبي المظفر السمعاني (٥/١٣).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/١٣١)
(٣) الباءة: الجماع. ((شرح النووي على مسلم)) (٩/١٧٣).

وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء[١].))[٢].

٥- سد الذرائع التي تؤدي إلى الفساد:

- عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية:

قال صلى الله عليه وسلم: ((الحمو الموت))[٣]، وقال: ((ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))[٤].

قال ابن تيمية: (ولهذا حرمت الخلوة بالأجنبية؛ لأنها مظنة الفتنة. والأصل أن كل ما كان سببًا للفتنة فإنه لا يجوز؛ فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدُّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة؛ ولهذا كان النظر الذي يفضي إلى الفتنة محرمًا إلا إذا كان لمصلحة راجحة مثل: نظر الخاطب، والطبيب، وغيرهما؛ فإنَّه يباح النظر للحاجة؛ لكن مع عدم الشهوة)[٥].

- عدم التبرج:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

- الاستئذان عند الدخول:

وقد جعل الاستئذان من أجل البصر كما قال صلى الله عليه وسلم، وقال

---

(١) الوجاء: فبكسر الواو وبالمد وهو رض الخصيتين والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة ويقطع شر المني كما يفعله الوجاء. ((شرح النووي على مسلم)) (٩/١٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) واللفظ له، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/٢٥١).

سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧].

- غض البصر:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠].

قال ابن القيم: (فلما كان غض البصر أصلا لحفظ الفرج بدأ بذكره... وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدركٌ ذلك لا محالة؛ فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذِّبه))(٢).

وكما قال الشاعر:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغير موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر

يسر ناظره ما ضر خاطره ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر(٣)

---

(١) ((روضة المحبين)) (ص ٩٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٧).

(٣) ((الكبائر)) للذهبي (٥٩).

- التفريق في المضاجع:

لابد من التفريق في المضاجع بين الأولاد، كما أمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم: ((مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع))(١).

(فهذا الحديث نصٌّ في النهي عن بداية الاختلاط داخل البيوت، إذا بلغ الأولاد عشر سنين، فواجب على الأولياء التفريق بين أولادهم في مضاجعهم، وعدم اختلاطهم، لغرس العفة والاحتشام في نفوسهم، وخوفًا من غوائل الشهوة التي تؤدي إليها هذه البداية في الاختلاط، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه)(٢).

٦- إقامة الحدود:

فإقامة الحدود تردع لمن تسول له نفسه أن يقوم بأمر حذر منه الشارع.

نماذج في العفة:

• عفة يوسف عليه السلام:

فقد أخبر الله سبحانه (عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد (١٨٧/٢) (٦٧٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
صححه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢٣٨/٣)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٨٦/٢٩)، والألباني في ((الإرواء)) (٢٩٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (٣٦/١١).
(٢) ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص ١٢٩).

وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة.

الثاني: أنَّ يوسف عليه السلام كان شابًّا، وشهوة الشباب وحدَّته أقوى.

الثالث: أنَّه كان عزبًا، ليس له زوجة ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنَّه كان في بلاد غربة، يتأتَّى للغريب فيها من قضاءِ الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أنَّ المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إنَّ كلَّ واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب، وذلَّ الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنَّه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنَّه لا يخشى أن تنمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلَّقت الأبواب، وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنَّه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقًا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهنَّ، وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهنَّ عليه.

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه.

الثالث عشر: أنَّ الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ وللمرأة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾. وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأنَّ ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهنَّ بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه)[1].

- **عفة جريج العابد:**

- نموذج آخر في العفة عما حرم الله، وهو جريج العابد؛ تتعرض له بغي من بغايا بني إسرائيل، فيعفُّ نفسه ولا يلتفت إليها، فتحاول أن تنتقم منه لامتناعه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه ((... تذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم -قال- فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته[2] فأمكنته من نفسها، فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج. فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه،

---

(١) ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص ٢٠٨) بتصرف.

(٢) الصومعة: هو منارة الراهب ومتعبده. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٤٥).

فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك. فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي -قال- فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب. قال: لا أعيدوها من طين كما كانت))[١].

• نماذج من عفة النبي صلى الله عليه وسلم:

- كان النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات العفة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كخ كخ[٢]! ارم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة))[٣].

- وعنه أيضًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إني لأنقلب إلى أهلي؛ فأجد التمرة ساقطة على فراشي، ثم أرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها))[٤].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بتمرة في الطريق قال: ((لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها))[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٠).

(٢) كخ كخ: هو زجر للصبي وردع. ويقال عند التقذر أيضًا فكأنه أمره بإلقائها من فيه وتكسر الكاف وتفتح وتسكن الخاء وتكسر بتنوين وغير تنوين. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢٧٣/٤).

(٣) رواه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩).

(٤) رواه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

(٥) رواه البخاري (٢٤٣١).

• نماذج من عفة الصحابة رضي الله عنهم:

عفة حكيم بن حزام رضي الله عنه:

- عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: ((سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة[١]؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، كالذي يأكل، ولا يشبع اليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ[٢] أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقَّه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي))[٣].

عفة مرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه:

- عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: ((كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلًا يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلا من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من

---

(١) خضرة حلوة: شبهه في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المستلذة فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده والحلو كذلك على انفراده فاجتماعهما أشد وفيه إشارة إلى عدم بقائه لأن الخضروات لا تبقى ولا تراد للبقاء والله أعلم. ((شرح النووي على مسلم)) (١٢٦/٧).

(٢) لا أرزأ: من الرزء بالفتح وهو النقص. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢٢/١).

(٣) رواه البخاري (١٤٧٢) ومسلم (١٠٣٥). واللفظ للبخاري.

حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط، فلما انتهت إليَّ عرَفَتْ، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحبًا وأهلًا، هلمَّ فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا عناق، حرم الله الزنا. قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أُسراءَكم[1]، قال: فتبعني ثمانية وسلكت الخندمة، فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي وعمَّاهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلًا ثقيلًا حتى انتهيت إلى الإذخر[2]، ففككت عنه أكبله[3]، فجعلت أحمله ويعييني حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يردَّ علي شيئًا حتى نزلت ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النور: ٣]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها))[4].

عفة عثمان بن طلحة رضي الله عنه:

- حادثة تبين لنا عفة وشهامة عثمان بن طلحة رضي الله عنه، ولنترك

---

(١) أسراءكم: بضم الهمزة وفتح السين جمع أسير، والمعنى تنبهوا يا أهل الخيام وخذوا هذا الرجل الذي يذهب بأساراكم. ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (١٧/٩).

(٢) الإذخر: بكسر الهمزة: حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيت فوق الخشب وهمزتها زائدة. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٦٥/١).

(٣) أكبله: جمع قلة للكبل: القيد. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢٤٨/٤).

(٤) رواه الترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨). قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٢٦٠/٦): حسن صحيح جدًّا. وحسن إسناده الألباني في ((صحيح النسائي)) (٣٢٢٨).

المجال لصاحبة الموقف أُمِّ سلمة رضي الله عنها تروي لنا القصة فتقول: ((... وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرَّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح(١)، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: قلت: [أتبلغ] بمن لقيت حتى أقدم على زوجي حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وابني هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي به، فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني، حتى إذا نزلنا استأخر ببعيري فحطَّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلًا – فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة، قال: وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما

(١) أبطح مكة، وهو مسيل واديها. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ١٣٤).

أصاب أبو سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة))[١].

- **نماذج من عفة السلف:**

عفة سالم بن عبد الله بن عمر:

- قال ابن عيينة: (دخل هشام الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سلني حاجة. قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره. فلما خرجا، قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا. قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟)[٢].

عفة الربيع بن خُثيم:

- عن سعدان قال: (أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خُثيم فلعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيَّبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيَّرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟[٣] أم كيف بك لو قد ساءلك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشيًّا عليها. فوالله لقد أفاقت، وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق)[٤].

---

(١) ((سيرة ابن هشام)) (٤٦٩/١)، وذكره ابن منده في ((الفوائد)) (٢٩٢-٢٩٣).

(٢) رواه الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (٣٨٤/١).

(٣) الوتين عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٤١/١٣).

(٤) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (١٩١/٣)

عفة الأشرف، صاحب دمشق:

- قال سبط الجوزي: (كان الأشرف يحضر مجالسي بحرَّان، وبخلاط، ودمشق، وكان ملكًا عفيفًا، قال لي: ما مددت عيني إلى حريم أحد، ولا ذكر ولا أنثى، جاءتني عجوز من عند بنت صاحب خلاط شاه أرمن بأنَّ الحاجب عليًّا أخذ لها ضيعة، فكتبت بإطلاقها. فقالت العجوز: تريد أن تحضر بين يديك. فقلت: باسم الله، فجاءت بها، فلم أر أحسن من قوامها، ولا أحسن من شكلها، فَخَدَمَت، فقمت لها، وقلت: أنت في هذا البلد وأنا لا أدري؟ فسفرت عن وجه أضاءت منه الغرفة، فقلت: لا، استتري. فقالت: مات أبي، واستولى على المدينة بكتمر، ثم أخذ الحاجب قريتي، وبقيت أعيش من عمل النقش وفي دار بالكراء. فبكيت لها، وأمرت لها بدار وقماش، فقالت العجوز: يا خوند، ألا تحظى الليلة بك؟ فوقع في قلبي تغير الزمان وأنَّ خلاط يملكها غيري، وتحتاج بنتي أن تقعد هذه القعدة، فقلت: معاذ الله، ما هذا من شيمتي. فقامت الشابة باكية تقول: صان الله عواقبك[١].)[٢].

العفة في واحة الشعر:

قال الشافعي:

عِفُّوا تعِفَّ نساؤكم في المحرمِ ... وتجنَّبُوا ما لا يليقُ بمسلمِ
إنَّ الزِّنا دَينٌ إذا أقرضتَه ... كان الوفا مِن أهلِ بيتِك فاعلمِ
يا هاتكًا حُرَمَ الرجالِ وقاطعًا ... سُبلَ المودةِ عشتَ غيرَ مُكرَّمِ
لو كنتَ حرًّا مِن سُلالةِ ماجدٍ ... ما كنتَ هتَّاكًا لحرمةِ مُسلمِ

(١) عقب كل شيء: آخره. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٦١١).
(٢) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤٢/١٢٦).

من يزنِ يُزنَ به ولو بجدارهِ إن كنتَ يا هذا لبيبًا فافهمِ[1]

وقال معن بن أوس:

لعمرُكَ ما أهويتُ كفِّي لريبةٍ ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلَّني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلمُ أني لم تُصبني مصيبةٌ مِن الدهر إلا قد أصابتْ فتًى قبلي
ولست بماشٍ ما حييتُ بمنكرٍ مِن الأمرِ لا يسعَى إلى مثلِه مثلي
ولا مُؤْثرًا نفسي على ذي قرابةٍ وأُوثرُ ضيفي ما أقام على أهلي[2]

وقال آخر:

تقنَّع بالكفافِ تعشْ رخيا ولا تبغِ الفضولَ مِن الكفافِ
ففي خبزِ القفارِ بغيرِ أُدْمٍ وفي ماءِ [القِراحِ] غنًى وكافِ
وفي الثوب المرقَّع ما يُغطَّى به مِن كلِّ عُريٍ وانكشافِ
وكلُّ تزيُّنٍ بالمرءِ زينٌ وأزينُه التزيُّنُ بالعفافِ[3]

وقال آخر:

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإنَّ ذلك نقصٌ منك في الدِّينِ
لن يقدرَ العبدُ أن يعطيَك خَرْدلةً إلا بإذنِ الذي سوَّاك مِن طينِ
فلا تصاحبْ غنيًّا تستعزُّ به وكن عفيفًا وعظِّمْ حُرمةَ الدِّينِ
واسترزقِ اللهَ ممَّا في خزائنِه فإنَّ رزقَك بينَ الكافِ والنُّونِ

---

(١) ((ديوان الإمام الشافعي)) (ص ١٠٨).
(٢) ((أمالي القالي)) (٢/٢٣٤).
(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٥٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



موسوعة الأخلاق

الجزء العاشر

العَفْو والصَّفْح - عُلُو الهِمَّة - الغَيْرَة

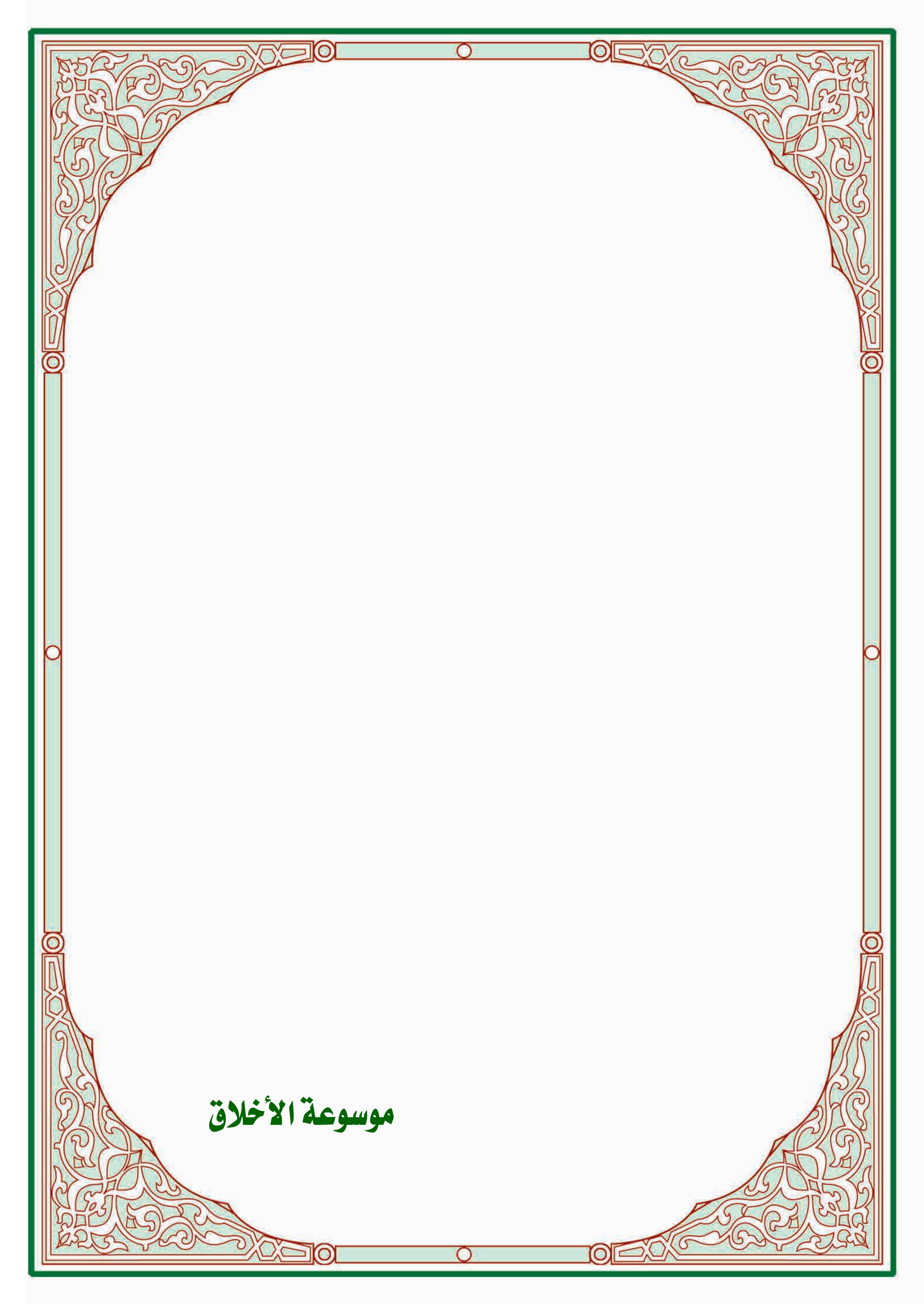
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء العاشر

العَفْو والصَّفْح - عُلُو الهِمَّة - الغَيْرَة

إعداد

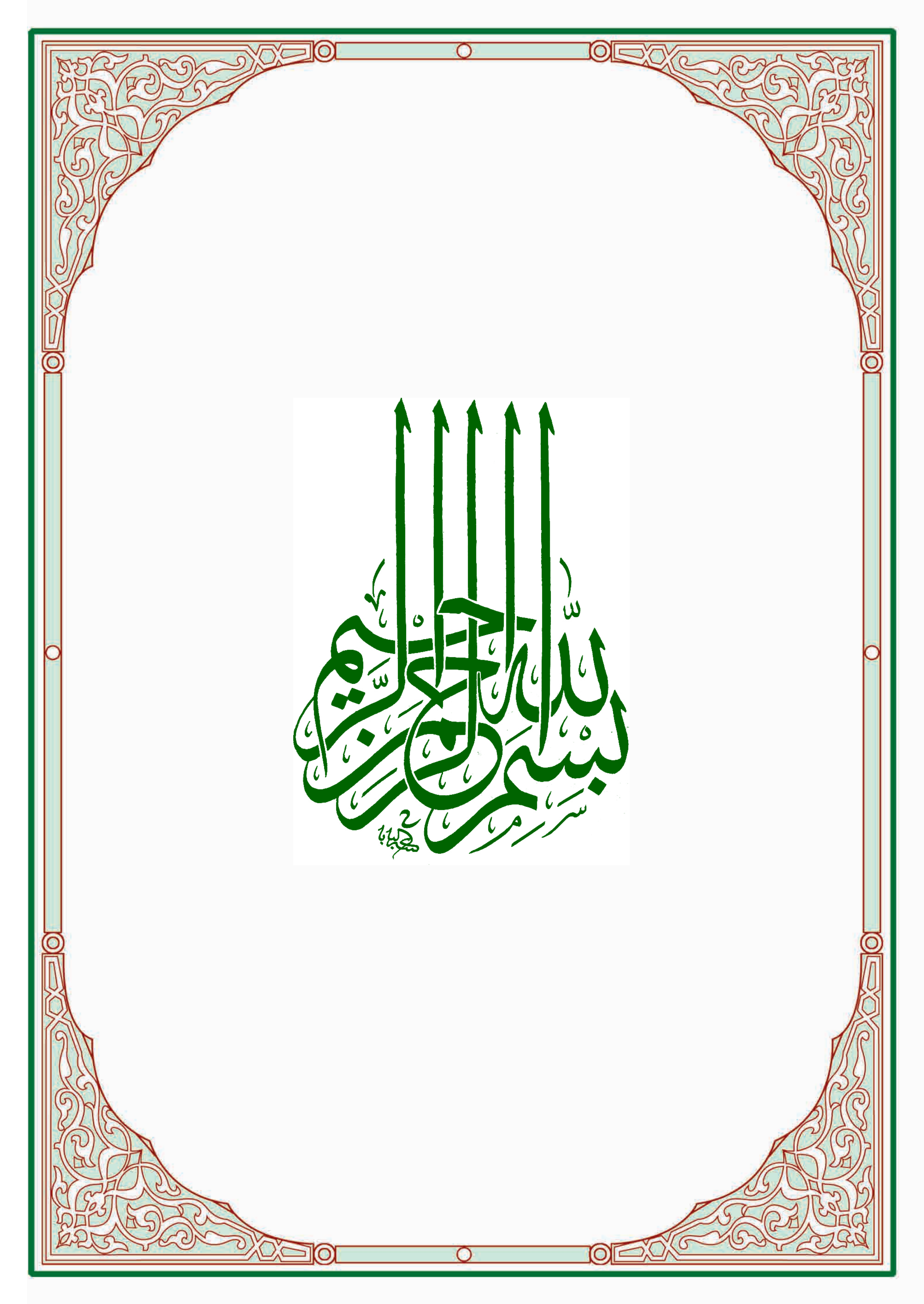
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم



العَفْو والصَّفْح



العفو والصفح

معنى العفو والصفح لغةً واصطلاحًا:

معنى العفو لغةً واصطلاحًا:

- **معنى العفو لغةً:**

العفو مصدر عَفَا يَعْفُو عَفْوًا، فهو عافٍ وعَفُوٌّ، والعَفْوُ هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، وعفوت عن الحق: أسقطته، كأنك محوته عن الذي عليه[1].

وقال الخليل: (وكلُّ مَن استحقَّ عُقوبةً فتركْتَه فقد عفوتَ عنه. وقد يكون أن يعفُوَ الإنسان عن الشَّيء بمعنى الترك، ولا يكون ذلك عن استحقاق)[2].

- **معنى العفو اصطلاحًا:**

العفو اصطلاحًا: (هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب)[3].

وقال الراغب: (العفو هو التجافي عن الذنب)[4].

وقيل: (هو القصد لتناول الشيء، والتجاوز عن الذنب)[5].

معنى الصفح لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الصفح لغةً:**

الصفح مصدر (صَفَحَ عنه يَصْفَح صَفْحًا: أَعرض عن ذنبه، وهو صَفُوح

---

(١) انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/٧٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/٤١٩).

(٢) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/٥٦).

(٣) ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٦/١٤٣).

(٤) ((مفردات ألفاظ القرآن)) (ص ٥٧٤).

(٥) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص ٥١٨).

وصَفَّاحٌ عَفُوٌّ، والصَّفُوحُ الكريم؛ لأنه يَصْفَح عمن جَنى عليه)[١].

وذكر بعض أهل العلم أن الصفح مشتق من صفحة العنق؛ لأنَّ الذي يصفح كأنه يولي بصفحة العنق، إعراضًا عن الإساءة[٢].

- **معنى الصفح اصطلاحًا:**

الصفح: (هو ترك التأنيب)[٣].

وقيل: إزالة أثر الذنب من النفس[٤].

الفرق بين لفظة العفو ومترادفاتها:

- **الفرق بين العفو والصفح:**

(العفو والصفح متقاربان في المعنى:

قال الراغب: الصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو وقد يعفو الإنسان ولا يصفح.

وقال البيضاوي: العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك لومه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ترقيًا في الأمر بمكارم الأخلاق من الحسن إلى الأحسن، ومن الفضل إلى الأفضل)[٥].

وقال القرطبي: (العفو: ترك المؤاخذة بالذنب. والصفح: إزالة أثره من النفس. صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه)[٦].

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/٥١٢).
(٢) انظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/٤٨٧).
(٣) انظر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص ٤٥٧).
(٤) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (٢/٧١).
(٥) ((الفروق)) لأبي هلال العسكري (ص ٣٦٢).
(٦) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٢/٧١).

- **الفرق بين العفو والغفران:**

أن الغفران يقتضي إسقاط العقاب وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب فلا يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب ولهذا لا يستعمل إلا في الله فيقال غفر الله لك ولا يقال غفر زيد لك إلا شاذا قليلا ... والعفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي إيجاب الثواب ولهذا يستعمل في العبد فيقال عفا زيد عن عمرو وإذا عفا عنه لم يجب عليه إثابته[1].

- **الفرق بين العفو والذلِّ:**

(أنَّ العفو إسقاط حقِّك جودًا، وكرمًا، وإحسانًا، مع قدرتك على الانتقام؛ فتؤثر الترك رغبة في الإحسان، ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذُّل، فإنَّ صاحبه يترك الانتقام عجزًا، وخوفًا، ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالًا منه. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩])[2].

الترغيب في العفو والصفح:

أولًا: في القرآن الكريم

وردت آيات كثيرة في ذكر العفو والصفح والترغيب فيهما، ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

---

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٢٣٥)

(٢) ((الروح)) لابن قيم الجوزية (ص ٢٤١).

قال ابن كثير: (هذه الآية نزلت في الصدِّيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح ابن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال،... فلما أنزل الله براءةَ أمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على مَن كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأُقيم الحدُّ على مَن أُقيم عليه، شَرَع تبارك وتعالى، وله الفضل والمنة، يُعطِّفُ الصدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَح بن أثاثة، فإنَّه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر، رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق[1] وَلْقَة تاب الله عليه منها، وضُرب الحدَّ عليها. وكان الصديق رضي الله عنه معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنَّا نحبُّ -يا ربنا- أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته)[2].

- وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(قوله تعالى... ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كلِّ من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم؛ لأنَّ العفو

(١) الولق: أخف الطعن. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٣٨٣).
(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٦/٣١).

ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلَّى بالأخلاق الجميلة، وتخلَّى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشرِّ عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠])(١).

- وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

(قال ابن عباس رضي الله عنه: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) أي إن الله يأجره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة)(٢).

قال السعدي: (ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم.

فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به.

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ١٤٨).
(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (١٦/٤١).

وفي جعل أجر العافي على الله ما يُهيِّج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم)[١].

- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

(هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإنَّ بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذا وصفه والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإنَّ في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤] لأنَّ الجزاء من جنس العمل.

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٧٦٠).

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره)[١].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (أي: سجيتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس)[٢].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله))[٣].

قال القاضي عياض: (وقوله: ((ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا)). فيه وجهان:

أحدهما: ظاهره أنَّ من عُرف بالصفح والعفو ساد وعظم في القلوب وزاد عزه.

الثاني: أن يكون أجره على ذلك في الآخرة وعزته هناك)[٤].

- وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت لحالفًا عليهن: لا ينقص مال من صدقة فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة إلا زاده الله بها عزًّا يوم القيامة،

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٨٦٨).
(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) (٧/٢١٠).
(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٤) ((إكمال المعلم)) (٨/٢٨).

ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر))[١].

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: ((ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم))[٢].

قال المناوي في قوله: (واغفروا يغفر لكم): (لأنَّه سبحانه وتعالى يحب أسمائه وصفاته التي منها: الرحمة، والعفو، ويحب من خلقه من تخلق بها)[٣].

- وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: ((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! كم نعفو عن الخادم؟ فصمت! ثم أعاد عليه الكلام، فصمت! فلما كان في الثالثة، قال: (اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة))[٤].

أقوال السلف والعلماء في العفو والصفح:

- عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه (أنه قام يوم مات المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة، حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن، ثم قال: استعفوا

---

(١) رواه أحمد (١/١٩٣) (١٦٧٤)، والبزار (٣/٢٤٤)، وأبو يعلى (٢/١٥٩). قال ابن كثير في ((جامع المسانيد والسنن)) (٧٠٨٠): له شاهد في الصحيحين، وصححه الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٧/١٧٧)، وصححه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٤٦٢).

(٢) رواه أحمد (٢/٢١٩) (٧٠٤١)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٣٨٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٣/٦٥١). وجوَّد إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٢٨٦)، والسخاوي في ((البلدانيات)) (٤٩)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/٤١٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٢٤٦٥).

(٣) ((فيض القدير)) (١/٤٧٤).

(٤) رواه أبو داود (٥١٦٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٣/٣٢٦)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٨/١٨) (١٥٧٩٩). وسكت عنه أبو داود، وحسنه ابن حجر في ((تخريج المشكاة)) (٣/٣٤١)، وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٤٨٨).

لأميركم، فإنه كان يحب العفو. ثم قال: أما بعد، فإني أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علي (والنصح لكل مسلم). فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم، ثم استغفر ونزل)[(١)].

- (وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعامًا فابتاع، ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت، فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا، فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه)[(٢)].

- وقيل لأبي الدرداء: مَن أعزُّ الناس؟ فقال: (الذين يعفون إذا قدروا؛ فاعفوا يعزكم الله تعالى)[(٣)].

- وقال الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما: (لو أنَّ رجلًا شتَمني في أذني هذه، واعتذر في أُذني الأخرَى، لقبِلتُ عذرَه)[(٤)].

- وقال معاوية رضي الله عنه: (عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال)[(٥)].

- وعن وهب بن كيسان قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول على المنبر: (﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال: والله

---

(١) رواه البخاري (٥٨).

(٢) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/١٨٤).

(٣) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٦/٥٨).

(٤) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (١/٣٠٢).

(٥) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/١٨٤).

ما أمر بها أن تؤخذ إلا من أخلاق الناس، والله لآخذنها منهم ما صحبتهم)[١].

- وأُتي عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث، فقال لرجاء بن حيوة: (ماذا ترى؟). قال:(إن الله -تعالى- قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم)[٢].

- وقال مالك بن دينار: (أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلًا وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن، وهو خائف فدخلنا معه عليه، فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج[٣]، فذكر الحسن قصة يوسف -عليه السلام- وما صنع به إخوته، فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع يوسف حين أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه، قال الحكم: فأنا أقول لا تثريب عليكم اليوم، ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته)[٤].

- وعن عمر بن عبد العزيز قال: (أحبُّ الأمور إلى الله ثلاثة: العفو في القدرة، والقصد في الجدة، والرفق في العبادة، وما رفق أحد بأحد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة)[٥].

---

(١) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٤٤)، وهناد في ((الزهد)) (٥٩٦/٢). وصححه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٢٤٤).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٢٦٠).

(٣) الفراريج جمع فروج: وهو الفتي من ولد الدجاج. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٨٣/١٠).

(٤) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٨٤/٣).

(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٧).

- وعن سعيد بن المسيب قال: (ما من شيء إلا والله يحب أن يعفى عنه، ما لم يكن حدًّا)[١].

- وعن الحسن، قال: (أفضل أخلاق المؤمن العفو)[٢].

- وقال الفضيل بن عياض: (إذا أتاك رجلٌ يشكو إليك رجلًا، فقل: يا أخي، اعفُ عنه؛ فإنَّ العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمِل قلبي العفوَ، ولكن أنتصر كما أمرَني الله عزَّ وجل فقل له: إن كنتَ تُحسِن أن تنتَصِر، وإلا فارجع إلى باب العفو؛ فإنه باب واسع، فإنَّه مَن عفَا وأصلحَ فأجره على الله، وصاحِبُ العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلِّب الأمور؛ لأن الفُتُوَّة هي العفوُ عن الإخوان)[٣].

- وقال إبراهيم النخعي: (كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا)[٤].

- وعن أيوب قال:(لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم)[٥].

فوائد العفو والصفح:

١- في العفو رحمة بالمسيء، وتقدير لجانب ضعفه البشري، وامتثال لأمر الله، وطلب لعفوه وغفرانه[٦].

---

(١) رواه مالك (٢/٨٤٣) (٤).

(٢) ذكره ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (١/٧١) وعزاه للخلال.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١٠/٣٢٨٠)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (٨/١١٢).

(٤) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٧/٢١٠).

(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٧).

(٦) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (١/٤٠٨).

٢- في العفو توثيق للروابط الاجتماعية التي تتعرض إلى الوهن والانفصام بسبب إساءة بعضهم إلى بعض، وجناية بعضهم على بعض[1].

٣- العفو والصفح عن الآخرين سبب لنيل مرضات الله سبحانه وتعالى.

٤- العفو والصفح سبب للتقوى قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٥- العفو والصفح من صفات المتقين، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٦- من يعفو ويصفح عن الناس يشعر بالراحة النفسية.

٧- بالعفو تُنال العزة، قال صلى الله عليه وسلم: ((.. وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا..))[2].

٨- العفو والصفح سبيل إلى الألفة والمودة بين أفراد المجتمع.

٩- في العفو والصفح الطمأنينة، والسكينة، وشرف النفس.

١٠- بالعفو تكتسب الرفعة والمحبة عند الله وعند الناس.

نماذج في العفو:

• نماذج من عفوه صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ القمة، والدرجة العالية في العفو

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (١/٤٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

والصفح، كما هو شأنه في كلِّ خلُقٍ من الأخلاق الكريمة، فكان عفوه يشمل الأعداء فضلًا عن الأصدقاء.

(وكان صلى الله عليه وسلم أجمل الناس صفحًا، يتلقى من قومه الأذى المؤلم فيعرض عن تلويمهم، أو تعنيفهم، أو مقابلتهم بمثل عملهم، ثم يعود إلى دعوتهم ونصحهم كأنما لم يلقَ منهم شيئًا.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب أنزل الله عليه في المرحلة المكية قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٥-٨٦] ثم أنزل عليه قوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩] فكان يقابل أذى أهل الشرك بالصفح الجميل، وهو الصفح الذي لا يكون مقرونًا بغضب أو كبر أو تذمر من المواقف المؤلمة، وكان كما أدَّبه الله تعالى. ثم كان يقابل أذاهم بالصفح الجميل، ويعرض قائلًا: سلام.

وفي العهد المدني لقي الرسول صلى الله عليه وسلم من يهود المدينة أنواعًا من الخيانة فأنزل الله عليه قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، فصبر الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم وعفا وصفح، حتى جاء الإذن الرباني بإجلائهم، ومعاقبة ناقضي العهد منهم)[(١)].

- فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى.

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (١/٤٣٢).

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٦] وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو عنهم ما أمر الله به...))[١].

- وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي اللهُ عنهما واصفًا النبي صلى الله عليه وسلم: ((...ولا يَدفَعُ السيئةَ بالسيئةِ ، ولكن يعفو ويَصفَحُ))[٢].

- وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ((أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارًا، عليه إكاف[٣]، تحته قطيفة فدكية. وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج. وذاك قبل وقعة بدر. حتى مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة[٤] الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه،ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل؛ فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك، قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٦).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٨).

(٣) الإكاف: يكون للبعير والحمار والبغل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/٣٦٤).

(٤) العجاج: الغبار. انظر: ((المصدر السابق)) (٢/٣١٩).

يخفِّضهم[١]، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة. فقال: (أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ يريد عبد الله بن أبي، قال كذا وكذا قال: اعف عنه يا رسول الله، واصفح، فو الله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[٢] أن يتوِّجوه، فيعصبوه بالعصابة[٣] فلما ردَّ الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاكه، شرق[٤] بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم))[٥].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله عزَّ وجلَّ))[٦].

- وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- ((أنَّه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَل نجد، فلما قفل[٧] رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه، فأدركتهم القائلة[٨] في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله

---

(١) يخفضهم: أي يسكنهم ويهون عليهم الأمر. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/٥٤).

(٢) البحيرة: مدينة سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهي تصغير البحرة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٤٤).

(٣) فيعصبوه بالعصابة يعني: يرئسوه عليهم ويسودوه وسمي الرئيس معصبا لما يعصب برأسه من الأمور. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/٢٣٢).

(٤) الشرق: الشجا والغصة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/١٧٧).

(٥) رواه مسلم (١٧٩٨).

(٦) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٧) القفول: الرجوع من السفر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٥٦٠).

(٨) القائلة: الظهيرة. انظر: ((المصدر السابق)) (١١/٥٧٧).

عليه وسلم، وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة، وعلَّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، وإذا عنده أعرابي.فقال: إن هذا اخترط[١] عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا[٢]، فقال: من يمنعك مني؟. فقلت: الله. ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس))[٣].

موقفه صلى الله عليه وسلم مع أهل ثقيف:

فعن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد فقال: ((لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالِيلَ بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إنَّ الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من

---

(١) اخترط السيف: استله من غمده. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/٢٤١).
(٢) صلت: الصلت: البارز المستوي. وسيف صلت: منجرد. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/٥٣).
(٣) رواه البخاري (٢٩١٠).

أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا))[١].

موقفه صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة:

((لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دخل البيت، فصلى بين الساريتين[٢]، ثم وضع يديه على عضادتي[٣] الباب، فقال: لا إله إلا الله وحده ماذا تقولون، وماذا تظنون؟ قالوا: نقول خيرًا، ونظن خيرًا: أخ كريم، وابن أخ، وقد قدرت، قال: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]))[٤].

موقفه صلى الله عليه وسلم مع عكرمة بن أبي جهل:

عن عروة بن الزبير قال: ((قال عكرمة بن أبي جهل: لما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: يا محمد، إنَّ هذه أخبرتني أنَّك أمَّنتني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت آمن. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنت عبد الله ورسوله، وأنت أبرُّ الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس، قال عكرمة: أقول ذلك وإني لمطأطئ رأسي استحياء منه، ثم قلت: يا رسول الله، استغفر لي كلَّ عداوة عاديتكها، أو موكب أوضعت[٥] فيه أريد فيه إظهار الشرك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اغفر

---

(١) رواه مسلم (١٧٩٥).

(٢) السارية: الأسطوانة، وقيل: أسطوانة من حجارة أو آجر. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/٣٨٣).

(٣) عضادتا الباب هما خشبتاه من جانبيه. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (٣/٧٠).

(٤) رواه الأزرقي في ((أخبار مكة)) (٢/١٢١)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٧٣/٥٣)، وابن زنجويه في ((الأموال)) (١/٢٩٣) من حديث عطاء والحسن وطاوس رحمهم الله.

(٥) الإيضاع: السير بين القوم. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/٣٩٨).

لعكرمة كلَّ عداوة عادانيها، أو موكب أوضع فيه يريد أن يصدَّ عن سبيلك. قلت: يا رسول الله، مرني بخير ما تعلم فأُعلِّمُه، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وتجاهد في سبيله، ثم قال عكرمة: أما والله يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصدِّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالًا في الصدِّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله. ثم اجتهد في القتال حتى قتل يوم أجنادين شهيدًا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه))(١).

- **نماذج من عفو الصحابة رضي الله عنهم:**

عفو أبي بكر رضي الله عنه:

- عفوه عن مسطح بن أثاثة: و((كان مسطح بن أثاثة ممن تكلم في الإفك، فلما أنزل الله براءة عائشة، قال أبو بكر الصديق: -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره- والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبدًا))(٢).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أن رجلًا شتم أبا بكر والنبي صلى الله عليه وسلم جالس، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعجب، ويتبسم، فلما

---

(١) رواه الحاكم (٣/٢٧٠)، والطبري في ((تاريخه)) (١١/٥٠٢)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤١/٦٤).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١).

أكثر ردَّ عليه بعض قوله؛ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، وقام فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت، قال: إنه كان معك مَلَك يردُّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان؛ فلم أكن لأقعد مع الشيطان. ثم قال: يا أبا بكر، ثلاث كلُّهنَّ حقٌّ: ما من عبد ظلم بمظلمة، فيغضي عنها لله عزَّ وجلَّ إلا أعزَّ الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عزَّ وجلَّ بها قلة))[1].

عفو عمر رضي الله عنه:

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا، أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي[2] يا ابن الخطاب، فوالله، ما تعطينا الجزل[3]، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر، حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحرُّ: يا أمير

(١) رواه أحمد (٢/٤٣٦) (٩٦٢٢)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٠/٤٠٠) (٢١٠٩٦): قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٩٢): رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/٤٧٨): رواته ثقات. وجوَّد إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥/٢٧١).

(٢) هي: كلمة تقال في الاستزادة، وبمعنى التهديد. انظر: ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (٢٥/٣١).

(٣) الحطب اليابس، وقيل الغليظ، وقيل ما عظم من الحطب ويبس ثم كثر استعماله حتى صار كل ما كثر جزلًا. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/١٠٩).

المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله))[١].

• نماذج من عفو السلف:

عفو مصعب بن الزبير:

- حكي عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق، جلس يوما لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى، أين عمرو بن جرموز؟ وهو الذي قتل أباه الزبير، فقيل له: (أيها الأمير، إنه قد تباعد في الأرض. فقال: أوَ يظن الجاهل أني أقيده[٢] بأبي عبد الله؟ فليظهر آمنًا ليأخذ عطاءه موفرًا)[٣].

• نماذج من عفو الملوك:

عفو سليمان بن عبد الملك:

- (غضب سليمان بن عبد الملك على خالد القسري، فلما أدخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ القدرة تذهب الحفيظة[٤]، وإنك تجلُّ عن العقوبة، فإن تعفُ فأهلٌ لذلك أنت، وإن تعاقب فأهل لذلك أنا، فعفا عنه)[٥].

- (واحتال يزيد بن راشد في الدخول على سليمان متنكرًا بعد أن ولي الخلافة، فقعد في السماط[٦] وكان سليمان قد نذر أنه إن أفضت إليه الخلافة

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢).
(٢) القود: قتل النفس بالنفس. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٧٢/٣).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٣١١).
(٤) الحفيظة: الحمية والغضب. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢١٩/٢٠).
(٥) ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (٤٢٥/٢).
(٦) السماط: الجماعة من الناس والنحل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٢٥/٧).

قطع لسانه؛ لأنَّه كان ممن دعا إلى خلع سليمان، والبيعة لعبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، كن كنبي الله أيوب عليه السلام، ابتُلي فصبر، وأُعطي فشكر، وقدر فغفر. قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد، فعفا عنه)(١).

عفو أبي جعفر المنصور:

- عن مبارك بن فضالة قال: (كنا عند المنصور فدعا برجل ودعا بالسيف، فقال المبارك: يا أمير المؤمنين، سمعت الحسين يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ((إذا كان يوم القيامة، قام مناد من عند الله ينادي: ليقم الذين أجرهم على الله، فلا يقوم إلا من عفا)) فقال المنصور: خلوا سبيله)(٢).

- وعن الأصمعي قال: (أُتي المنصور برجل يعاقبه فقال: يا أمير المؤمنين، الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس(٣) النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين. فعفا عنه)(٤).

عفو المأمون:

- (أُتي المأمون برجل يريد أن يقتله، وعلي بن موسى الرضا جالس فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: أقول: إنَّ الله تعالى لا يزيدك بحسن العفو إلا عزًّا. فعفا عنه . وكان المأمون مؤثرًا للعفو كأنه غريزة له؛ وهو الذي يقول: لقد حُبِّب إليَّ العفو حتى إني أظنُّ أني لا أثاب عليه.

- وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب، فقال له المأمون: أنت الذي فعلت

---

(١) ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (٢/٤٢٥).

(٢) ((تاريخ الخلفاء)) للسيوطي (ص ٢٢٩).

(٣) الوكس: النقص. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/٢٥٧).

(٤) ((تاريخ الخلفاء)) للسيوطي (ص ٢٢٩).

كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك؛ فعفا عنه.

- قال: ولما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي أمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه، قال: وليُّ الثأر محكمٌ في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، والقدرة تذهب الحفيظة، ومن مدَّ له الاعتذار في الأمل هجمت به الأناة على التلف، وقد جعل الله كلَّ ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقِّك. قال المأمون: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلك فأشارا عليَّ به؛ قال: أما أن يكونا قد نصحاك في عظم قدر الملك، ولما جرت عليه السياسة فقد فعلا، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، ثم استعبر باكيًا؛ فقال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جذلًا[1] إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته. ثم قال: إنه وإن كان جرمي بلغ سفك دمي فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغاني عفوه، ولي بعد هذا شفعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب. قال المأمون: لو لم يكن في حقِّ نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلغك إليه حسن تنصُّلك[2].

قالوا عن العفو:

- قال الأحنف: (إيَّاك وحمية الأوغاد[3]. قيل: وما هي؟ قال: يرون العفو مغرمًا، والتحمل مغنمًا.

(١) جذلاً: أي فرحا. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠٧/١١).
(٢) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٥٥/٦).
(٣) الوغد: الخفيف الأحمق الضعيف العقل الرذل الدنيء. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٦٤/٣).

- وقيل لبعضهم: هل لك في الإنصاف، أو ما هو خير من الإنصاف؟ فقال: وما هو خير من الإنصاف؟ فقال: العفو .

- وقيل: العفو زكاة النفس. وقيل: لذة العفو أطيب من لذة التشفي؛ لأنَّ لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم .

- وقيل للإسكندر: أي شيء أنت أسرُّ به مما ملكت؟ فقال: مكافأة من أحسن إلي بأكثر من إحسانه، وعفوي عمن أساء بعد قدرتي عليه .

- وقالوا: العفو يزين حالات من قدر، كما يزين الحلي قبيحات الصور)[1].

- وقال أبو حاتم: (الواجب على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العالم بأسرهم؛ رجاء عفو الله جلَّ وعلا عن جناياته التي ارتكبها في سالف أيامه؛ لأنَّ صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثاره الجزاء، وصاحب العقاب، وإن انتقم، كان إلى الندم أقرب، فأمَّا من له أخ يوده، فإنَّه يحتمل عنه الدهر كله زلاته)[2].

- وقال بعض البلغاء: (ما ذبَّ عن الأعراض كالصفح والإعراض)[3].

- وقال بعضهم: (أحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر)[4].

- وقال أبو حاتم: (الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة، إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن

---

(١) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٦/٥٤).
(٢) ((روضة العقلاء)) (ص ١٦٨).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٣٠٩).
(٤) ((المصدر السابق)) (٣١١).

من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها)[١].

- وقال أيضًا: (من أراد الثواب الجزيل، واسترهان الود الأصيل، وتوقع الذكر الجميل، فليتحمل من ورود ثقل الردى، ويتجرع مرارة مخالفة الهوى، باستعمال السنة التي ذكرناها في الصلة عند القطع، والإعطاء عند المنع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الظلم؛ لأنَّه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا)[٢].

- (وقيل للمهلب بن أبي صُفرة: ما تقول في العفو والعقوبة؟ قال: هما بمنزلة الجود والبخل، فتمسك بأيهما شئت)[٣].

ومن الأمثال:

- قولهم: ملكت فأسجح. أي: ظفرت فأحسن[٤].

- وقولهم: إن المقدرة تذهب الحفيظة[٥].

- وقولهم: إذا ارجحنَّ شاصيًا فارفع يدًا. أي: إذا رأيته قد خضع واستكان فاكفف عنه[٦].

العفو والصفح في واحة الشعر:

قال الشافعي:

لما عفوتُ ولم أحقِدْ على أحدٍ   أرحتُ نفسي مِن همِّ العداواتِ

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ١٦٦).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٤٩).
(٤) ((الأمثال)) لابن سلام (ص ١٥٤).
(٥) ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/١٤).
(٦) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٣/١٠٤).

إني أُحيِّي عدُوِّي عندَ رؤيتِه ... لأدفعَ الشرَّ عني بالتحياتِ
وأُظهرُ البشْرَ للإنسانِ أُبغضُه ... كأنما قد حشَى قلبي محباتِ
النَّاسُ داءٌ، وداءُ النَّاسِ قُربُهمُ ... وفي اعتزالِهمُ قطعُ الموداتِ[1]

وقال أيضًا:

قالوا سكتَّ وقد خُوصِمتَ قلتُ لهم ... إنَّ الجواب لِبابِ الشرِّ مفتاحُ
فالعفو عن جاهل أو أحمق أدب ... نعم وفيه لصونِ العِرض إصلاحُ
إن الأُسود لتخشَى وهي صامتة ... والكلب يُخثَى ويُرمَى وهو نبَّاحُ[2]

وقال منصور بن محمد الكريزي:

سأُلزمُ نفسي الصفحَ عن كلِّ مذنب ... وإن كثرت منه إليَّ الجرائمُ
فما الناسُ إلَّا واحدٌ مِن ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مُقاومُ
فأمَّا الذي فوقي فأعرفُ فضلَه ... وأتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنتُ عن ... إجابتِه عِرضي وإن لام لائمُ
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا ... تفضَّلتُ إنَّ الحلم للفضلِ حاكمُ[3]

وقال أبو الفتح البستي:

خذِ العفوَ وأْمُرْ بعرفٍ كما ... أمرت وأعرضْ عن الجاهلين
ولِنْ في الكلامِ لكلِّ الأنامِ ... فمستحسَنٌ من ذوي الجاه لينُ[4]

---

(١) ((ديوان الإمام الشافعي)) (ص ٣٦).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٤٢).
(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٦٦).
(٤) ((زهر الآداب وثمر الألباب)) لأبي إسحاق القيرواني (٢/٤٢٧).

وقال آخر:

إذا كنتُ لا أعفو عن الذنبِ مِن أخٍ وقلتُ أُكافيه فأينَ التفاضلُ

فإن أقطعِ الإخوانَ في كلِّ عسرةٍ بقيتُ وحيدًا ليس لي من أُواصلُ

ولكنني أُغضي جُفوني على القذَى وأصفحُ عمَّا رابني وأُجاملُ[1]



(١) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٣/ ٨٠).



عُلُو الهِمَّة



عُلُو الهِمَّة

معنى علو الهمَّة لغةً واصطلاحًا:

• معنى العلو لغةً:

العلوُّ مصدر من علا الشيءُ عُلُوًّا فهو عَليٌّ وعَلِيَ وتَعَلَّى،... ويقال: عَلا فلانٌ الجبل إذا رَقِيَه وعَلا فلان فلانًا إذا قَهَره، والعَليُّ الرَّفيعُ، وتَعالَى تَرَفَّع، وأصل هذه المادة يدلُّ على السموِّ والارتفاع[١].

• معنى الهمَّة لغةً:

الهِمَّةُ: ما هَمَّ به من أمر ليفعله، تقول: إنه لعظيمُ الهَمِّ، وإِنه لَصغيرُ الهِمَّة، وإِنه لَبَعيدُ الهِمَّةِ والهَمَّةِ بالفتح[٢].

وقال ابن القيم في تعريف الهمة: (والهمة فعلة من الهمِّ، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهمُّ مبدؤها، والهمَّة نهايتها)[٣].

• معنى علو الهمَّة اصطلاحًا:

الهمة في الاصطلاح هي: (توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق؛ لحصول الكمال له أو لغيره)[٤].

وأما علو الهمة فهو (استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب السامية)[٥].

---

(١) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١١٢/٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٨٣/١٥).
(٢) ((المصدر السابق)) (٨٣/١٥).
(٣) ((مدارج السالكين)) (٥/٣).
(٤) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ٢٥٧).
(٥) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص ٢٨).

وقال المناوي: (عظم الهمة عدم المبالاة بسعادة الدنيا وشقاوتها)[١].

وقال الراغب الأصفهاني: (والكبير الهمة على الإطلاق: هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه، فلا يصير عبد رعاية بطنه، وفرجه، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة)[٢].

الفرق بين الهمَّة والهمِّ:

(الهمَّة: اتساع الهم وبعد موقعه، ولهذا يمدح بها الإنسان، فيقال: فلان ذو همة وذو عزيمة. وأما قولهم: فلان بعيد الهمة وكبير العزيمة، فلأنَّ بعض الهمم يكون أبعد من بعض وأكبر من بعض، وحقيقة ذلك أنَّه يهتمُّ بالأمور الكبار.

والهمُّ: هو الفكر في إزالة المكروه، واجتلاب المحبوب، ومنه يقال: أهمُّ بحاجتي)[٣].

الترغيب في علو الهمة:

أولًا: في القرآن الكريم

(علو الهمة خلق رفيع وغاية نبيلة، تتعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفطر القويمة، وعلو الهمة من الأسس الأخلاقية الفاضلة، وإليه يرجع مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجد في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، وكالطموح إلى المعالي)[٤]. والإسلام يحثُّ على هذا الخلق النبيل، وقد وردت آيات من القرآن الكريم، تدل على ذلك، ومنها:

---

(١) ((التوقيف)) (ص ٥١٧).

(٢) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٢٩١).

(٣) ((الفروق)) لأبي هلال العسكري (ص ٥٥٨).

(٤) ((الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها)) لمحمد الحمد (ص ٨١).

- قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ففي هذه الآية (ندب الله عباده إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات، والمسارعة إلى نيْل القُرُبات)[١]، وهو أمر من الله بالهمة العالية.

- وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فهذه الآية فيها ثناء (على أصحاب الهمم العالية، وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم... وقد تجلت همتهم العالية في مثابرتهم، وجهادهم، ودعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ، كما أوضحه الله عزَّ وجلَّ في قصص الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)[٢].

- وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بوصف الرجال، الذين هم أصحاب الهمم العالية، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، و(وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم[٣] في مرضاته، وسبلوا أنفسهم في طاعته. ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ أي: إرادته ومطلوبه، وما عليه من الحقِّ، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤديًا لحقه، لم ينقصه شيئًا. ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء

---

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٢/١١٧).

(٢) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (ص ١٢٨).

(٣) مهجهم: المهجة خالص دم الإنسان الذي إذا خرج خرجت روحه وهو دم القلب. ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (١٠٣).

ما عليه، ووفاء نحبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك، مجدٌّ)[١].

- وقال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

فهؤلاء الرجال هم أصحاب الهمم العالية، (ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ وهذا يشمل كلَّ تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه)[٢].

- وقال الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر عددًا من الأنبياء ومواقفهم، ودعوتهم لقومهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله))[٣].

قال ابن بطال: (فيه ندب إلى التعفف عن المسألة، وحض على معالي

---

(١) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (ص ١٢٨).

(٢) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٥٦٩).

(٣) رواه البخاري (١٤٢٧) ومسلم (١٠٣٤). واللفظ للبخاري.

الأمور، وترك دنيئها، والله يحب معالي الأمور)[١].

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز))[٢].

(وعامة نصوص الترغيب والترهيب في الوحيين الشريفين؛ إنما ترمي إلى توليد قوة دافعة تحرك قلب المؤمن، وتوجهه إلى إقامة الطاعات، وتجنب المعاصي والمخالفات، وإلى بعث الهمة وتحريكها واستحثاثها للتنافس في الخيرات، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر)[٣] ومن ذلك:

- قوله صلى الله عليه وسلم: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا. ولو يعلمون ما في التهجير[٤] لاستبقوا إليه. ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا[٥].))[٦].

- وقوله صلى الله عليه وسلم: ((يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارق، ورتل، كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها))[٧].

---

(١) ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٣/٤٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٦٦٠).

(٤) التهجير : السير في الهاجرة، وهي شدة الحر، ويدخل في معنى التهجير المسارعة إلى الصلوات كلها قبل دخول أوقاتها. ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/٢٨٠).

(٥) الحبو: أن يمشي على يديه وركبتيه، أو استه. وحبا البعير إذا برك ثم زحف من الإعياء. وحبا الصبي: إذا زحف على استه. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٣٣٦).

(٦) رواه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) رواه أبو داود (١٤٦٤)، الترمذي (٢٩١٤)، وأحمد (٢/١٩٢) (٦٧٩٩) من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن صحيح، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((المسند)) (١١/٥٥)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨١٢٢)، وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٧٩٨).

أقوال السلف والعلماء في علو الهمة:

- روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لا تصغرنَّ همتكم؛ فإني لم أرَ أقعد عن المكرمات من صغر الهمم)[1].

- وقال مالك: (عليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتقِ رذائلها وما سفَّ منها؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّ معالي الأمور، ويكره سفسافها)[2].

- وعن دكين الراجز قال: (أتيت عمر بن عبد العزيز بعد ما استُخلف أستنجز منه وعدًا كان وعدنيه، وهو والي المدينة، فقال لي: يا دكين، إن لي نفسًا توَّاقة[3]، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلمَّا نلتها تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها تاقت إلى الجنة)[4].

- وقال ابن الجوزي: (من علامة كمال العقل علوُّ الهمة، والراضي بالدون دني)[5].

- وقال ابن القيم: (فمن علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكلِّ خلق جميل. ومن دنت همته، وطغت نفسه، اتصف بكلِّ خلق رذيل)[6].

- وقال أيضًا: (الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تعرُّف لصفة من الصفات العليا، تزداد بمعرفتها محبة، وإرادة، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٣١٩).
(٢) ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض (٢/٦٥).
(٣) توَّاقة: من تاق إلى الشيء توقًا وتؤوقًا، أي: اشتاق، فهو تائق وتوَّاق. انظر: ((شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)) (٢/٧٨٣)، لنشوان اليمني.
(٤) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٣٣٤).
(٥) ((صيد الخاطر)) (٢٨).
(٦) ((الفوائد)) (ص ٩٧).

شكرًا، أو إطاعة؛ وتذكُّر لذنب تزداد بتذكره توبة، وخشية، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة، جالت[1] في أودية الوساوس والخطرات، من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده، فصيَّرته من خدمها وعبيدها وأذلَّته، ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته، وذلَّت له. إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة، وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كلَّه، فمتى يصل إلى مقصده؟)[2].

- وقال أيضًا: (العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة)[3].

- وقال أيضًا: (لا تكون الروح الصافية إلا في بدن معتدل، ولا الهمة العالية إلا في نفس نفيسة)[4].

درجات علو الهمة:

قَسَّم الهروي درجات علو الهمة على ثلاث:

١- (الدرجة الأولى: همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني، وتحمله على الرغبة في الباقي، وتصفيه من كدر[5] التواني)[6].

يقول ابن القيم: (الفاني الدنيا وما عليها. أي: يزهد القلب فيها وفي أهلها. وسمى الرغبة فيها وحشة؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

---

(١) جالت: جال يجول جولة إذا دار. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣١٧/١).
(٢) ((الفوائد)) لابن القيم (ص ٩٩).
(٣) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (ص ٧٤٧).
(٤) ((المصدر السابق)) (ص ٧٥٠).
(٥) الكَدَرُ: نَقِيضُ الصَّفَاءِ. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣٤/٥).
(٦) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٦/٣).

أما الراغبون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم. إذ فاتها ما خلقت له. فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم. لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم. ولا شيء أوحش عند القلب، مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه. ولذلك كان من نازع الناس أموالهم، وطلبها منهم أوحش شيء إليهم وأبغضه.

وأيضًا: فالزاهدون فيها: إنما ينظرون إليها بالبصائر. والراغبون ينظرون إليها بالأبصار، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل:

وإذا أفاق القلب واندمل[1] الهوى رأت القلوب ولم تر الأبصار

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته. وهو الحق سبحانه. والباقي بإبقائه: هو الدار الآخرة.

وتصفيه من كدر التواني. أي: تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط)[2].

٢- قال الهروي: (الدرجة الثانية: همة تورث أنفة من المبالاة بالعلل، والنزول على العمل، والثقة بالأمل)[3].

يقول ابن القيم: (العلل هاهنا: هي علل الأعمال من رؤيتها، أو رؤية ثمراتها وإرادتها. ونحو ذلك. فإنها عندهم علل.

فصاحب هذه الهمة: يأنف على همته، وقلبه من أن يبالي بالعلل؛ فإنَّ همته فوق ذلك. فمبالاته بها، وفكرته فيها نزول من الهمة.

---

(١) اندمل:تماثل وصلح. ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٥٠/١١).
(٢) ((مدارج السالكين)) (٦/٣).
(٣) ((المصدر السابق)) (٧/٣).

وعدم هذه المبالاة: إما لأنَّ العلل لم تحصل له؛ لأنَّ علوَّ همته حال بينه وبينها. فلا يبالي بما لم يحصل له؛ وإما لأنَّ همته وسعت مطلوبه، وعلوه يأتي على تلك العلل، ويستأصلها. فإنَّه إذا علَّق همته بما هو أعلى منها، تضمنتها الهمة العالية؛ فاندرج حكمها في حكم الهمة العالية، وهذا موضع غريب عزيز جدًّا. وما أدري قصده الشيخ أو لا؟

وأما أنفته من النزول على العمل: فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين. وهو أن العالي الهمة مطلبه فوق مطلب العمال والعباد، وأعلى منه، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي، إلى مجرد العمل والعبادة، دون السفر بالقلب إلى الله؛ ليحصل له ويفوز به؛ فإنَّه طالب لربه تعالى طلبًا تامًّا بكلِّ معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله؛ فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيما صبغة.

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة؛ فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال، ولا بالاقتصار على الطلب حال العمل فقط.

وأما أنفته من الثقة بالأمل: فإنَّ الثقة توجب الفتور والتواني، وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذلك، كيف؟ وهو طائر لا سائر)[1].

٣- قال الهروي: (الدرجة الثالثة: همة تتصاعد عن الأحوال والمعاملات. وتزري بالأعواض والدرجات. وتنحو عن النعوت نحو الذات)[2].

يقول ابن القيم: (أي: هذه الهمة أعلى من أن يتعلق صاحبها بالأحوال

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/٧).
(٢) ((المصدر السابق)) (٣/٨).

التي هي آثار الأعمال والواردات، أو يتعلق بالمعاملات، وليس المراد تعطيلها. بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها، والتعلُّق بها.

ووجه صعود هذه المهمة عن هذا: ما ذكره من قوله: تزري بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات، أي: صاحبها لا يقف عند عوض ولا درجة؛ فإنَّ ذلك نزول من همته، ومطلبه أعلى من ذلك؛ فإنَّ صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى، الذي لا شيء أعلى منه، والأعواض والدرجات دونه، وهو يعلم أنَّه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما نحوها نحو الذات، فيريد به: أنَّ صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات، بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال.)[1].

صور علو الهمة:

مظاهر وصور علو الهمة كثيرة جدًّا؛ فالأعمال الجادة كلها تحتاج إلى علو الهمة، وسنتحدث عن بعض مظاهر علو الهمة وهي كالتالي:

١- علو الهمة في طلب العلم:

من مظاهر علو الهمة: الاجتهاد في طلب العلم؛ والجد والمثابرة في تحصيله وإن من أعظم ما يعين على علو الهمة في طلب العلم مطالعة ما أعده الله عزَّ وجلَّ لطالب العلم والعلماء.

قال الشوكاني في الحثِّ على علو الهمة في طلب العلم: (فإنَّ الله سبحانه قد قرن العلماء في كتابه بنفسه وملائكته فقال: ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ** ﴾ [آل عمران:١٨].

(١) ((مدارج السالكين)) (٣/٨).

وقصر الخشية له التي هي سبب الفوز لديه عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وأخبر عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن العلماء ورثة الأنبياء.

وناهيك بهذه المزية الجليلة، والمنقبة النبيلة، فأكرم بنفس تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب، وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة، ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة)[1].

كذلك مطالعة أحوال السلف، وعلو همتهم في التعلم والتعليم، والقراءة والإقراء والتصنيف، والرحلة في طلب العلم، والسهر في المذاكرة، والتعرض للأخطار، ومعاناة الجوع والمرض في سبيله، والضن بالوقت أن يضيع في غير تحصيل فائدة، أو الوقوف على نكتة علمية، إلى غير ذلك من صور علو همتهم في طلب العلم .

٢- علو الهمة في الدعوة إلى الله:

من مظاهر علو الهمة: الدعوة إلى الله؛ فالمسلم يدعو إلى الله سبحانه وتعالى بما علم. قال صلى الله عليه وسلم: ((بلغوا عني ولو آية))[2] والداعية إلى الله سبحانه وتعالى همه هداية الناس، ودعوتهم إلى الحق، فيقوم ببذل نفسه في سبيل الدعوة إلى الله، قال ابن حزم: (لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حقٍّ، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم، وباذل نفسه

---

(١) ((أدب الطلب ومنتهى الأدب)) (ص ١٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى)[١]. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته، وسلف الأمة، القدوة الحسنة، فقد بذلوا كل غال ونفيس في سبيل الدعوة إلى الله.

٣- علو الهمة في الجهاد في سبيل الله:

من مظاهر علو الهمة الاندفاع إلى الجهاد في سبيل الله؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة[٢]، أو فزعة[٣]، طار عليه يبتغى القتل والموت مظانه ...))[٤] والمواقف من حياة الصحابة والسلف كثيرة في بيان جهادهم في سبيل الله، وما بذلوه من تضحيات من أجل هذا الدين.

٤- علو الهمة في العبادة:

من مظاهر علو الهمة: الجد والاجتهاد في عبادة الله سبحانه وتعالى، والاستقامة على دينه و(لقد فقه سلفنا الصالحون عن الله أمره، وتدبروا في حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم من مطامعها، وارتفعت همتهم على السفاسف، فلا تراهم إلا صوَّامين قوامين، باكين والهين، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة، تشير بعلو همتهم في التوبة والاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات[٥]... قال الحسن: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في

---

(١) ((مداواة النفوس)) لابن حزم (ص ١٦).

(٢) الهيعة: الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/٢٨٨).

(٣) الفزع: هو الذعر، والإفزاع، الإخافة، ويقال فزعه، أي أخافه. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (٢٣٩).

(٤) رواه مسلم (١٨٨٩).

(٥) الإخبات: هو الخشوع. ((مختار الصحاح)) للرازي (٨٧).

دنياه فألقها في نحره. وقال وُهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل)[(١)].

أسباب دنو الهمة:

١- المعاصي:

إن المعاصي أحد أسباب انحطاط الهمم، إذ كيف ينطلق الإنسان إلى المعالي وهو مكبل بالشهوات، مثقل بالذنوب، منهك القوى بالمعاصي، يقول ابن قيم الجوزية: (فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي ستسيره، فإذا زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه، فالله المستعان)[(٢)].

٢- الخوف والهم والحزن:

وهذه الثلاثة من الآفات التي توهن الهمة، وتضعف العزيمة، وتدفع إلى الفتور؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يستعيذ بالله منها، فيقول: ((اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال[(٣)].))[(٤)].

(فاستعاذ من ثمانية أشياء، كلُّ اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل، والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب

(١) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (ص ٢٠٩).
(٢) ((الجواب الكافي)) (٧٣).
(٣) رواه البخاري (٢٨٩٣).
(٤) انظر: ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (٤/٢٧٢).

يرد على الروح فإن تعلق بالماضي سمي حزنًا، وإن تعلق بالمستقبل سمي همًّا)[١].

٣- الغفلة:

الغفلة من أسباب ضعف الهمة، فكيف يرتقي الإنسان معالي الأمور، وهو في غفلة عن مصالحه وأسباب سعادته، والغفلة والجهل قرينان، فـ(شجرة الغفلة تُسْقَى بماءِ الجهل الذي هو عدو الفضائل كلِّها.

هل علمتم أمة في جهلها ظهرت في المجد حسناءَ الرداء؟

قال عمر رضي الله عنه: الراحة للرجال غفلة.

وقال شعبة بن الحجاج: لا تقعدوا فراغًا فإنَّ الموت يطلبكم.

وسئل ابن الجوزي: أيجوز أن أفسح لنفسي في مُباح الملاهي؟ فقال: عند نفسك من الغفلة ما يكفيها)[٢].

٤- إهدار الوقت:

فالوقت هو رأس مال الإنسان، فإذا أهدره فهو في الحقيقة يضيع عمره، فيبوء بالخسران، وما أفدحها من خسارة، فينبغي تجنب (إهدار الوقت الثمين في الزيارات والسمر وفضول المباحات: قال – صلى الله عليه وسلم: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)).

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه وأراه أسهلَ ما عليك يضيع

(ويقول الفضيل بن عياض: أعرف من يَعُدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

ودخلوا على رجل من السلف، فقالوا: لعلنا شغلناك؟، قال: أصدقكم،

---

(١) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/٢٠٧).

(٢) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (٣٣٧).

كنت أقرأ فتركتُ القراءة لأجلكم.

وجاء عابدٌ إلى السَّرِيِّ السَّقَطي، فرأى عنده جماعة، فقال: صِرتَ مُناخَ البطالين! ثم مضى ولم يجلس.

وقعد جماعة عند معروف الكرخي، فأطالوا، فقال: إن مَلَك الشمس لا يفتر عن سوقها، فمتى تريدون القيام؟)[(١)].

٥- الوهن:

(وهو كما فسره رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((حب الدنيا، وكراهية الموت))[(٢)].

أمَّا حب الدنيا: فرأس كلِّ خطيئة كما في الحكمة المشهورة، وهو أصل التثاقل إلى الأرض، وسبب الاستئسار للشهوات، والانغماس في الترف، والتنافس على دار الغرور التي:

تفانى الرجال على حبِّها وما يحصلون على طائل

(يقول -أي ابن الجوزي- واعلم أنَّ زمان الابتلاء ضيف قِراهُ الصبر، كما قال أحمد بن حنبل: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، فلا تنظر إلى لذة المترفين، وتَلَمَّحْ عواقبهم، ولا تضق صدرًا بضيق المعاش، وعلل الناقة بالحدْو تسِرْ:

طاوِلْ بها الليلَ مالَ النجمُ أم جَنحَا وماطِلِ النومَ ضَنَّ الجَفْنُ أمْ سَمَحا

(١) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (٣٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٢٩/٢٣). من حديث ثوبان رضي الله عنه. حسن إسناده ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٠٦/٥)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٢٩٧).

فإن تَشَكَّتْ فعَلِّلْها المجَرَّةَ مِن ضوءِ الصباحِ وعِدْها بالرواحِ ضحَى

... وأما كراهية الموت فثمرة حب الدنيا والحرص على متاعها مع تخريب الآخرة، فيكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب، قال الطغرائي مبينا أثر حب السلامة في الانحطاط بالهمة:

حبُّ السلامة يثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل)[1]

٦- التسويف والتمني:

(وهما صفة بليد الحس، عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخير، إما يعيقها بـ (سوف) حتى يفجأه الموت، فيقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، وإما يركب بها بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، يُدمن ركوبه مفاليس العالم، كما قيل:

إذا تمنيت بتُّ الليلَ مغتبطًا إن المنى رأسُ أموال المفاليس)[2]

٧- مجالسة البطالين والمثبطين:

(مجالس البطالين والقاعدين توهن العزائم وتضعف الهمم بما يعلق في القلب من أقوالهم من الشبه، وما يحصل بمجالستهم من ضياع للوقت، وإشغال بتوافه الأمور.. وكلما أردت العمل ثبطك[3] وقال: أمامك ليل طويل فارقد.)[4].

إياك إياك ومجالسة البطالين (فإن طبعك يسرق منهم، وأنت لا تدري،

---

(١) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (ص ٣٣٢) بتصرف.

(٢) ((المصدر السابق)) (٣٣٨).

(٣) من التثبيط: وهو التعويق والشغل عن المراد. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢٠٧/١).

(٤) ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (٢٧٤/٤).

وليس إعداء الجليس جليسة بمقاله وفعاله فقط، بل بالنظر إليه، والنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه، فإن مَن دامت رؤيته للمسرور سرَّ، أو للمحزون حزن... ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟)[١].

٨- المناهج التربوية والتعليمية الهدامة:

هذه المناهج (التي تثبط الهمم وتخنق المواهب، وتكبت الطاقات وتخرب العقول، وتنشئ الخنوع وتزرع في الأجيال ازدراء النفس، وتعمق فيه احتقار الذات والشعور بالدونية)[٢].

٩- توالي الضربات وازدياد اضطهاد العاملين للإسلام:

وينتج عنه الشعور بالإحباط في نفوس الذين لا يفقهون حقيقة البلاء، وسنن الله عز وجل في خلقه، كما ينتج عنه استطالة الطريق فيضعف السير إلى الله عز وجل. وقد كان صلى الله عليه وسلم يعزي أصحابه المضطهدين في مكة بتبشيرهم بأن المستقبل للإسلام، وبأن العاقبة للمتقين[٣].

فلا ينبغي أن يستولي اليأس والتشاؤم على الدعاة، فعندما يرى بعضهم (تفوق الأعداء، وتفرق الأصدقاء، والتضييق على الدعاة، وتشريدهم، والزج بهم في السجون، ونحوها من الابتلاءات، ييأسوا ويتشاءموا ويدب الوهن إلى قلوبهم؛ فتضعف هممهم، ويقعدوا عن العمل، ويفقدوا الأمل.. على الرغم من

---

(١) ((فيض القدير)) للمناوي (٥/٥٠٦).

(٢) ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (٣٤١).

(٣) ((المصدر السابق)) (٣٤٣).

انتصارات الدعوة والبشائر التي تبدو في الأفق؛ ولكن يأبى بعضهم إلا النظرة المتشائمة)[١].

أسباب علو الهمة[٢]:

إن علو الهمة يحتاج إلى جهد ومجاهدة وصبر ومصابرة، وتلمس الأسباب التي توصل إليه، وسلوك الطرق التي تؤدي إليه، وفيما يلي بعض أسباب علو الهمة:

١- العلم:

العلم أحد أسباب علو الهمة، فهو يرشد من طلبه إلى مصالحه، ويدفعه إلى العمل، ويعرفه بآفات الطريق ومخاطره، ويورث صاحبه فقها بالأولويات ويعرفه بمراتب الأعمال. وكلما ازداد الإنسان من العلم النافع علت همته، وازداد عمله؛ ونماذج العلماء الصادقين الذين علت هممهم أكبر برهان على ذلك.

٢- الدعاء:

وهو سلاح المؤمن الذي يلجأ إليه إذا فترت الهمة وضعفت العزيمة، فعلى المسلم ألا يغفل هذا الباب فهو من أعظم الأسباب لتحصيل الهمة العالية، والعاجز من عجز عن الدعاء.

٣- تذكر اليوم الآخر:

فلا شك أن تذكر الموت، وفتنة القبر، وأهوال القيامة، يبعث في القلب الهمة ويوقظه من غفلته، وتبعثه من رقدته؛ وتدبر قوله عز وجل ﴿وَسَارِعُوٓاْ

---

(١) ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (٤/٢٧٤).

(٢) انظر: ((الهمة العالية)) لمحمد إبراهيم الحمد (ص ١٠١)، ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) (٤/٢٦٥)، ((علو الهمة)) لمحمد إسماعيل المقدم (٣٤٤).

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وكان صلى الله عليه وسلم يذكر أصحابه بالجنة والنار، فالحث على العمل وبعث الهمم يكون بالتذكير باليوم الآخر والجنة والنار.

٤- طبيعة الإنسان:

من الناس من جبل على علو الهمة، فلا يرضى بالدون، ولا يقنع بالقليل، ولا يلتفت إلى الصغائر.

ولهذا قيل: ذو الهمة إن حط فنفسه تأبى إلا علوًّا، كالشعلة في النار يصوبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا[١].

قال عمر بن عبد العزيز: إنَّ لي نفسًا تواقة؛ لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها تاقت إلى الجنة[٢]!

٥- أثر الوالدين، ودورهما في التربية الصحيحة:

فأثر الوالدين في التربية عظيم، ودورهما في إعلاء همم الأولاد خطير وجسيم؛ فإذا كان الوالدان قدوة في الخير، وحرصا على تربية الأولاد، واجتهدا في تنشئتهم على كريم الخلال وحميد الخصال، مع تجنيبهم ما ينافي ذلك من مساوئ الأخلاق ومرذول الأعمال – فإن لذلك أثرًا عظيمًا في نفوس الأولاد؛ لأن الأولاد سيشبون – بإذن الله – متعشقين للبطولة، محبين لمعالي الأمور، متصفين بمكارم الأخلاق، مبغضين لسفساف الأمور، نافرين عن مساوئ الأخلاق.

---

(١) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٢٣٣/١).
(٢) ((المصدر السابق)).

٦- النشأة في مجتمع مليء بالقمم:

فمن بواعث الهمة، أن ينشأ الصغير في مجتمع تكثر فيه النماذج المشرقة من الأبطال المجاهدين، والعلماء العاملين؛ والتي تمثل القدوة، فهذا مما يحرك همته؛ كي يقتدي بهم، ويسير على طريقهم، ومن لم يتهيأ له ذلك فليتحول عن البيئة المثبطة، الداعية إلى الكسل والخمول وإيثار الدون.

٧- وجود المربين الأفذاذ، والمعلمين القدوات:

الذين يستحضرون عظم المسؤولية، ويستشعرون ضخامة الأمانة، والذين يتسمون ببعد النظرة، وعلو الهمة، وسعة الأفق وحسن الخلق، والذين يتحلون بالحلم والعلم، والصبر والشَّجَاعَة، وكرم النفس والسماحة.

٨- مصاحبة أصحاب الهمم ومطالعة سيرهم:

فلا شك أنَّ الصحبة لها تأثير كبير، لذا من أراد تحصيل الهمة العالية فليصحب أصحاب الهمم العالية، فإنه يستفيد من أفعالهم قبل أقوالهم، ومن لم يوفق لصحبة هؤلاء فليكثر من مطالعة سيرهم، وقراءة أخبارهم فإن ذلك مما يبعث الهمة، ويدعو إلى علوها.

يقول ابن الجوزي: (فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب، التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة؛ فإنه يرى من علوم القوم، وعلو هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة...

فالله الله وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم)[١]. إلى أن قال: (فاستفدت بالنظر

(١) ((صيد الخاطر)) (٤٥٣).

فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم، وحفظهم وعباداتهم، وغرائب علومهم: ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب)[١].

٩- استشعار المسؤولية:

وذلك بأن يستشعر الإنسان مسؤوليته، ويعمل ما في وسعه ومقدوره، ويحذر كل الحذر من التهرب من المسؤولية، والإلقاء باللائمة والتبعة على غيره؛ ذلك أن المسؤولية في الإسلام عامة، تشمل كل فرد من المسلمين؛ فهم جميعًا داخلون في عموم قوله صلى الله عليه وسلم: ((كلكم راع وكلم مسؤول عن رعيته))[٢].

فالمسؤولية مشتركة، كل امرئ بحسبه، هذا بتعليمه وكلامه، وهذا بوعظه وإرشاده، وهذا بقوته وماله، وهذا بجاهه وتوجيهه إلى السبيل النافع وهكذا.

نماذج في علو الهمة:

- **نماذج من علو همة النبي صلى الله عليه وسلم:**

(الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة، والقدوة الرائعة، في علو الهمة والشَّجَاعَة والإقدام، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حمي الوطيس في الحرب[٣]، كان أكثر الناس شجاعة، وأعظمهم إقدامًا، وأعلاهم همة، وقد قاد صلوات الله عليه بنفسه خلال عشر سنين سبعًا وعشرين غزاة، وكان يتمنى أن يقوم بنفسه كل البعوث التي بعثها والسرايا التي سيرها، ولكن

---

(١) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (٤٥٣).

(٢) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٣) الوَطِيسُ: التَّنُّور وهو كناية عن شِدَّة الأمرِ واضْطِرام الحَرْب. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٤٤٧).

أقعده عن ذلك أنه كان لا يجد ما يزود به جميع أصحابه للخروج معه في كل بعث، وكان أكثرهم لا تطيب نفسه أن يقعد ورسول الله قد خرج إلى الجهاد.

- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده، لولا أن رجالًا من المسلمين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل))(١). فأية همة عالية أعلى من هذه الهمة النبوية)(٢).

- وكان صلى الله عليه وسلم القدوة في الهمة العالية في العبادة. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا))(٣).

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فأطال القيام، حتى هممت بأمر سوء، قيل وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه(٤).

- **نماذج للصحابة في علو الهمة:**

الصحابة رضي الله عنهم قد ضربوا لنا أروع الأمثلة في الهمة العالية، سواء كان في الجهاد في سبيل الله، والتضحية في سبيل هذا الدين، أو في طلب

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٧).

(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/ ٤٨٠).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨١٩) واللفظ للبخاري.

(٤) رواه مسلم (٧٧٣).

العلم، وغير ذلك، وكذا سار التابعون على منوالهم، وإليك بعضًا من النماذج التي تدل على علو همتهم.

علو الهمة في طلب العلم:

١- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فقال: ((يا غلام، هل من لبن؟ قال: قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟ فأتيته بشاة، فمسح ضرعها، فنزل لبن، فحلبه في إناء، فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي، وقال: يرحمك الله، فإنك غليم معلم))(١).

- وعنه أيضًا قال: (والله لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعًا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم)(٢)، قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت رادًّا يقول غير ذلك.

٢- أبو هريرة رضي الله عنه:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: يقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث،

---

(١) رواه أحمد (١/٣٧٩) (٣٥٩٨)، وابن حبان (١٥/٥٣٦) (٧٠٦١)، والطبراني في ((الكبير)) (٩/٧٩).

(٢) رواه البخاري (٥٠٠٠).

والله الموعد، ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكينًا، ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني، فأحضر حين يغيبون، وأعي حين ينسون، وقال النبي صلى الله عليه وسلم يومًا: ((لن يبسط أحد منكم ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه، ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئًا أبدًا. فبسطت نمرة ليس علي ثوب غيرها، حتى قضى النبي صلى الله عليه وسلم مقالته، ثم جمعتها إلى صدري، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا، والله لولا آيتان في كتاب الله، ما حدَّثتكم شيئًا أبدًا: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ** ﴾ [البقرة: ١٥٩] إلى قوله ﴿ **ٱلرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٦٠]))[١].

- وعنه أيضًا قال: إنه لم يكن يشغلني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرس الودي[٢]، ولا صفق بالأسواق إني إنما كنت أطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة يعلمنيها، وأكلة يطعمنيها، فقال له ابن عمر: أنت يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلمنا بحديثه[٣].

٣- جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه:

- عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله، يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتريت بعيرًا، ثم شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهرًا، حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله ابن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال ابن عبد الله؟ قلت:

(١) رواه البخاري (٢٣٥٠).
(٢) الودي: هو صغار النخل واحدتها ودية. ((غريب الحديث)) لأبي عبيد (٢٠٢/٤).
الصفق: الضرب باليد عند البيع. ((الفائق في غريب الحديث)) للزمخشري (٥١/٤).
(٣) رواه البخاري (١١٨)، ومسلم (٢٤٩٢)،وأحمد (٢/٢) (٤٤٥٣) واللفظ له.

نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني، واعتنقته، فقلت: حديثًا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص، فخشيت أن تموت، أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((يحشر الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عراة غرلًا بُهمًا. قال: قلنا: وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار، أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حقٌّ، حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد من أهل النار عنده حق، حتى أقصه منه، حتى اللطمة قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله عزَّ وجلَّ عراة غرلًا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات))[1].

٤- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم؟ قال: فتركت ذاك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح علي من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحقُّ أن آتيك، قال: فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٩٥) (١٦٠٨٥)، والحاكم (٢/٤٧٥)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨/٢٦٥). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/٢١٨)، والهيثمي في ((المجمع)) (١٠/٣٥٤)، وحسنه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٦٠٨).

رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني)[١].

علو الهمة في الجهاد:

١- أنس بن النضر رضي الله عنه:

- عن أنس رضي الله عنه قال: ((غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين؛ لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء. يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة وربِّ النضر، إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع[٢]، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظنُّ أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية[٣].

---

(١) رواه الحاكم (١/١٨٨)، وابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٢/٣٦٧). قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (١/٢١٢): إسناده رجاله ثقات.

(٢) قال ابن حجر: (قال ابن بطال: يريد ما استطعت أن أصف ما صنع أنس من كثرة ما أغنى وأبلى في المشركين. قلت: وقع عند يزيد بن هارون عن حميد، فقلت: أنا معك فلم أستطع أن أصنع ما صنع، وظاهره أنه نفى استطاعة إقدامه الذي صدر منه حتى وقع له ما وقع من الصبر على تلك الأهوال، بحيث وجد في جسده ما يزيد على الثمانين من طعنة وضربة ورمية، فاعترف سعد بأنه لم يستطع أن يقدم إقدامه، ولا يصنع صنيعه، وهذا أولى مما تأوله ابن بطال) ((فتح الباري)) (٦/٢٣).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٥).

٢- سعد بن خيثمة رضي الله عنهما:

- عن سليمان بن بلال رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعًا الخروج معه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهما، فقال خيثمة ابن الحارث لابنه سعد رضي الله عنهما: إنه لابد لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد ودٍّ ... الحديث[١].

٣- عمير بن أبي وقاص رضي الله عنه:

- عن سعد رضي الله عنه قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟، قال: إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرني فيردني، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة. قال: فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فردَّه، فبكى فأجازه، فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة[٢].

• نماذج للسلف في علو الهمة:

علو الهمة في طلب العلم:

سفيان الثوري:

- عن أبي شهاب الحناط قال: بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب إلى

---

(١) رواه الحاكم (٣/٢٠٩).

(٢) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٣/١٤٩)، وذكره الحافظ في ((الإصابة)) (٤/٦٠٣).

سفيان وهو بمكة فيه كعك وخُشْكِنانْج[١]، فقدمت مكة فسألت عنه فقيل لي: إنَّه ربما قعد دبر الكعبة مما يلي باب الحناطين، قال: فأتيته هناك، وكان لي صديقًا، فوجدته مستلقيًا، فسلَّمت عليه فلم يسائلني تلك المسائلة، ولم يسلِّم علي كما كنت أعرف منه، فقلت له: إن أختك بعثت إليك معي بجراب فيه كعك وخشكنانج، قال: فعجل به علي، واستوى جالسًا.

فقلت: يا أبا عبد الله، أتيتك وأنا صديقك. فسلَّمت عليك، فلم تردَّ عليَّ ذاك الرد، فلما أخبرتك أني أتيتك بجراب كعك لا يساوي شيئًا جلست وكلمتني، فقال: يا أبا شهاب، لا تلمني؛ فإنَّ هذه لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذواقًا. فعذرته[٢].

وعن سفيان بن عيينة، قال: جاع سفيان الثوري جوعًا شديدًا، مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئًا، فمرَّ بدار فيها عرس، فدعته نفسه إلى أن يدخل فعصمه الله، ومضى إلى منزل ابنته، فأتته بقرص فأكله، وشرب ماءً فتجشى[٣] ثم قال:

سيكفيك عما أغلق الباب دونه ... وضن به الأقوام ملح وجردق[٤]

وتشرب من ماء فرات وتغتدي ... تعارض أصحاب الثريد الملبق[٥]

تجشى إذا ما هم تجشوا كأنما ... ظللت بأنواع الخبيص[٦] تفتق

---

(١) خَشْكَنانِج: نوع من الخبز يعمل بالزبد والسكر واللوز والفستق وهو على شكل الهلال. ((تكملة المعاجم العربية)) لرينهارت بيتر آن دُوزِي (٤/ ١٠٢).

(٢) ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد (٦/٣٥٠).

(٣) التجشؤ: تنفس المعدة عند الامتلاء. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٨).

(٤) الجردقة: الرغيف، فارسية معربة. ((المصدر السابق)) (١٠/٣٥).

(٥) الثريد الملبق: الشديد التثريد المُلَيَّنَّ بالدَسم. ((المصدر السابق)) (١٠/٣٢٦).

(٦) الخبيص: المعمول من التمر والسمن، حلواء معروف يخبص بعضه في بعض. ((تاج العروس)) للزبيدي (١٧/٥٤٢).

القاضي شريك بن عبد الله النخعي:

- عن يزيد بن يحيى قال: (مرَّ شريك القاضي بالمستنير بن عمرو النخعي، فجلس إليه فقال: يا أبا عبد الله، من أدَّبك؟ قال: أدَّبتني نفسي والله، ولدت ببخارى من أرض خراسان، فحملني ابن عمٍّ لنا حتى طرحني عند بني عم لي بنهر صرصر، فكنت أجلس إلى معلم لهم تعلَّق بقلبي يعلِّم القرآن؛ فجئت إلى شيخهم فقلت: يا عماه، الذي كنت تجري عليَّ ها هنا أجره علي بالكوفة أعرف بها السنة والجماعة وقومي، ففعل؛ قال: فكنت بالكوفة أضرب اللبن وأبيعه؛ فأشتري دفاتر وطروسًا، فأكتب فيها العلم والحديث، ثم طلب الفقه فقلت: ما نرى؟ فقال المستنير بن عمرو لولده: قد سمعتم قول ابن عمكم وقد أكثرت عليكم، فلا أراكم تفلحون فيه، فليؤدِّب كلُّ رجل نفسه، ثم من أحسن فلها، ومن أساء فعليها)[1].

- وعن عمر بن الهياج بن سعيد: قال: (كنت من صحابة شريك، فأتيته يومًا وهو في منزله باكرًا، فخرج إلي في فرو ليس تحته قميص، عليه كساء. فقلت له: قد أضحت عن مجلس الحكم، فقال: غسلت ثيابي أمس فلم تجف، فأنا أنتظر جفوفها، اجلس. فجلست فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير إذن مواليه، فقال: ما عندك فيه؟ ما تقول فيه؟...)[2].

• نماذج للعلماء المتقدمين في علو الهمة:

أبو الفرج ابن الجوزي:

يصف ابن الجوزي علو همته في طلب العلم وهو يخاطب ابنه فيقول:

---

(١) ((أخبار القضاة)) لوكيع (٣/١٥٠).

(٢) ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (٩/٢٨٨).

(وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود، فتلمَّح كيف حِفظُكَ لها؟ فإنه من راعى رُوعي، ومن أهملَ تُرِك... فإني أذكر نفسي ولي همةٌ عالية، وأنا في المكتب ولي نحو من ست سنين، وأنا قرينُ الصبيان الكبار قد رُزِقتُ عقلًا وافرًا في الصغر يزيدُ على عقلِ الشيوخ، فما أذكر أني لعبتُ في طريقٍ معَ صبيٍّ قط، ولا ضحِكتُ ضحكًا جارحًا، حتى إني كنتُ ولي سبعُ سنين أو نحوُها أحضرُ رحبةَ الجامع، ولا أتخيرُ حلقةَ مشعبذٍ، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسند الطويل، فأحفظُ جميعَ ما أسمع، وأرجع إلى البيت فأكتبه.

ولقد وُفِّقَ لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله، فكان يحملني إلى الأشياخ، وأسمعني (المسند) وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يُراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبتها، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فأدركتُ به معرفة الحديث والنقل.

ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءًا، وأقعد حُجزةً من الناس إلى جانب الرَّقة فأتشاغلُ بالعلم)[1].

ثم قال: (ولم أقنع بفنٍّ واحد من العلم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد. ثم قرأت اللغة ولم أترك أحدًا ممن قد انزوى أو يعظ، ولا غريبًا يقدم إلا وأحضره وأتخير الفضائل... ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث، فينقطع نفَسي من العَدْوِ لئلا أُسبَق، وكنت أصبح وليس لي ما آكل، وأمسي وليس لي شيء، وما أذلَّني الله لمخلوق، ولكنَّه ساق رزقي

---

(١) ((لفتة الكبد في نصيحة الولد)) لابن الجوزي (ص١٠).

لصيانة عِرضي، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح)[1].

يحيى بن شرف النووي:

كان النووي عالي الهمة في طلب العلم منذ صغره، فقد ذكر ابن داود العطار عن ياسين بن يوسف المراكشي قال: (رأيت الشيخ محيي الدين، وهو ابن عشر سنين بنوى، والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي، لإكراههم، ويقرأ القرآن في هذه الحالة، فوقع في قلبي محبته، وجعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن، قال: فأتيت الذي يقرئه القرآن، فوصيته به، وقلت له: هذا الصبي يُرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم، وينتفع الناس به، فقال لي: أمنجم أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك، فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه، إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام)[2].

• نماذج للعلماء المعاصرين في علو الهمة:

محمد الأمين الشنقيطي:

محمد الأمين الشنقيطي صاحب (أضواء البيان) (حفظ القرآن في بيت أخواله وعمره عشر سنوات، وتعلم رسم المصحف العثماني عن ابن خاله وقرأ عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش، وقالون من رواية أبي نشيط، وعمره ست عشرة سنة... وقد صور الشيخ شدة انشغاله في شأن طلب العلم في شبابه، بقوله رحمه الله: ومما قلت في شأن طلب العلم، وقد كنت في أخريات

---

(١) ((لفتة الكبد في نصيحة الولد)) لابن الجوزي - بتصرف (ص ١١).
(٢) ((طبقات الشافعية الكبرى)) للسبكي (٨/٣٩٦-٣٩٧).

زمني في الاشتغال بطلب العلم دائم الاشتغال به عن التزويج؛ لأنه ربما عاق عنه، وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي يرغب في زواجي ويطمع فيه، فلما طال اشتغالي بطلب العلم عن ذلك المنوال، أيست مني، فتزوجت ببعض الأغنياء، فقال لي بعض الأصدقاء: إن لم تتزوج الآن من تصلح لك؛ تزوجت عنك ذوات الحسب والجمال، ولم تجد من يصلح لمثلك. يريد أن يُعجلني عن طلب العلم، فقلت في ذلك هذه الأبيات:

دعاني الناصحون إلى النكاح غداة تزوجت بيض الملاح

فقالوا لي تزوج ذات دلٍّ خلوب اللحظ جائلة الوشاح[١]

ضحوكًا عن مؤشرة رقاق تمج الراح بالماء القراح[٢]

كأن لحاظها رشقات نبل تذيق القلب آلام الجراح

ولا عجب إذا كانت لحاظ لبيضاء المحاجر[٣] كالرماح

فكم قتلت كميا ذا دلاص[٤] ضعيفات الجفون بلا سلاح

فقلت لهم دعوني إن قلبي من الغيِّ[٥] الصُّراح اليوم صاح

ولي شغل بأبكار عذارى كأن وجوهها غرر الصحاح

أبيت مفكرًا فيها فتضحي لفهم الفدم خافضة الجناح)[٦]

---

(١) يقال وِشاحٌ جائِلٌ: أَي سَلِسٌ. ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥٣/٢٨).

(٢) والماء القراح: الماء الذي لم يخالطه شيء يطيب به. ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٥٦١).

(٣) محاجر: جمع محجر وهو من العين: ما دار بها، وبدا من البرقع، أو ما يظهر من نقابها. انظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ٣٧٢).

(٤) ذا دلاص: ذا درع لينة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٧/٧).

(٥) الغي: الضلال والخيبة. ((المصدر السابق)) (١٤٠/١٥).

(٦) ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (٥٧٦/١).

محمد ناصر الدين الألباني:

كان الألباني همته عالية، وشغفه بالعلم ليس له حدود في عصر وصف بـ(عصر الفتن والغوايا وخساسة الهمم، عصر الزهد في العلم، والقصور في طلبه)[١]. فقيض الله لهذه الأمة عالما (بكَّر في طلبه للعلم ودوَّنه، وصبر على تلقيه صبرًا طويلًا، وحرَّض شباب الأمة على طلبه، ودلَّهم على مصادره ومظانه)[٢]. فاهتم بعلم الحديث وأصبح شغله الشاغل (حتى كان يغلق محله ويذهب إلى المكتبة الظاهرية، ويبقى فيها اثنتي عشرة ساعة، لا يفتر عن المطالعة والتعليق والتحقيق، إلا أثناء فترات الصلاة، وكان يتناول طعامه البسيط في المكتبة في كثير من الأحيان فيها... ولهذا قدرته إدارة المكتبة، فخصصت له غرفة خاصة به؛ ليقوم فيها مع بعض أمهات المصادر بأبحاثه العلمية المفيدة، فكان يدخل قبل الموظفين صباحًا، وفي بعض الأحيان كان من عادة الموظفين الانصراف إلى بيوتهم ظهرًا ثم لا يعودون؛ ولكن الشيخ يبقى في المكتبة ما شاء الله له البقاء فربما يصلي العشاء ثم ينصرف. وإنَّ كلَّ من رآه في المكتبة يعرف مدى اجتهاده وحرصه على الاستفادة من وقته... وكان يجيب عن بعض الأسئلة التي توجه إليه، وهو ينظر في الكتاب، دون أن يرفع بصره إلى محدثه، بأوجز عبارة تؤدي إلى الغرض...)[٣].

(ويقول محمد بن إبراهيم الشيباني: الشيخ لم تسنح له الفرصة ليكتب قصة حياته بنفسه؛ لانشغاله بطلب العلم والتنقل في فنونه، وإلا لأصبحت

---

(١) ((حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه)) لمحمد الشيباني (١/٢٧).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((المصدر السابق)) (١/٥٢).

قصته مؤثرة حزينة مبكية، وقد قال لي يومًا: لو كان عندي فسحة من الوقت، لكتبت ما لم تسمع به من القصص.

ومن شدة العنت والفقر الذي عاشه الشيخ، أنه كان لا يملك قيمة ورقة يشتريها ليسودها بما مَنَّ الله تعالى عليه من علم فيها، فكان يطوف في الشوارع والأزقة[١] يبحث عن الأوراق الساقطة فيها من هنا وهناك؛ ليكتب على ظهرها)[٢].

علامات عالي الهمة[٣]:

هذه بعض العلامات على صاحب الهمة العالية، نذكرها مختصرة:

١- الزهد في الدنيا.

٢- المسارعة في الخيرات والتنافس في الصالحات.

٣- التطلع إلى الكمال والترفع عن النقص.

٤- الترفع عن محقرات الأمور وصغائرها ونشدان معالي الأمور وكمالاتها.

٥- الأخذ بالعزائم.

٦- الاستدراك على ما فات.

٧- أداء الواجبات وتحمل المسؤوليات.

٨- الاهتمام بواقع الأمة والسعي لإصلاحه.

٩- حسن إدارة الأوقات.

---

(١) أَزِقَّة: سِكّة أو طريق ضيِّق نافذ أو غير نافذ. ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/٩٨٨).

(٢) ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (١/٥٩٠).

(٣) انظر: ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٤٨٠-٥٠٨)، ((الرائد.. دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (٤/٢٦١-٢٦٥).

يا عالي الهمة، انتبه[١]!!

١- صاحب الهمّة تحلّق به همته دائمًا، فتأمره بإنجاز كثير من الأعمال المتداخلة في وقت واحد، فليطعها بقدر، ولا يستبعد ما تأمره به، وفي الوقت نفسه لا يقوم به كلَّه، بل يأخذ منه بقدر ما يعرف من إسعاف همته له بالقيام به.

٢- صاحب الهمَّة العالية معرض لنصائح تُثْنيه عن همته، وتحاول أن تذكره دائمًا بأنه ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وأن صاحب الصنعتين كاذب والثالثة سارق، وهكذا، فالحصيف لا يلتفت لهذه النصائح إلا بقدر محدود.

٣- صاحب الهمَّة معرض لسهام العين والحسد، فعليه بالأذكار المأثورة؛ ليدرأ عن نفسه ما قد يصيبه من سهام القدر على يد الحساد.

٤- صاحب الهمَّة قد تعتريه فَتْرة وضعف قليل لما يراه من تدنِّي همم غالب الخلق، فلا يحزن لأجل هذه الفترة، وليوطِّن نفسه على الإحسان، وعلو الهمَّة مهما ضعف أو تخاذل مَن حوله، وأيًّا كان سبب الفترة التي تعتريه فهي أمر طبيعيٌّ يعتري العاملين والسالكين، وليتذكر حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((لكل عمل شِرَّة، ولكل شِرَّة فَتْرة))[٢].

٥- أهل الهمَّة العالية قد يكونون مفرِّطين في بعض الأمور التي قد لا يرون

---

(١) انظر: ((الهمة طريق إلى القمة)) لمحمد بن حسن الشريف (ص ٦٧).

(٢) رواه أحمد (٢/٢١٠) (٦٩٥٨)، وابن حبان (١/١٨٧) (١١)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢١٥٢)، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٨١٠) على شرط الشيخين، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/١٥٩).

فيها تعلقًا مباشرًا بموضوع هممهم، وذلك مثل بعض حقوق الأهل والأقارب، فينبغي على من وقع في هذا المحذور أن يلتفت إلى إصلاحه، ولو بالقدر الذي يُبعد عنه سهام اللائمين.

٦- قد تؤدي الهمَّة العالية بصاحبها إلى أن يتحمَّس تحمسًا اندفاعيًّا، فيستعجل ويرتكب من الأخطاء ما كان يمكن تلافيه بقليل من التعقل، وحساب العواقب، وعلى من وقع في مثل هذا أن يعرف السنن الكونية، وأنَّ الأمر لا يحسم بين عشية وضحاها.

٧- صاحب الهمَّة العالية لا بدَّ له من المداومة على الأعمال التي تدوم ولا تنقطع، وليتذكر صاحب الهمَّة العالية أن أحبَّ الأعمال إلى الله ((أدومها وإن قل))[1]، فهمة متوسطة العلو تدوم خير من همة عظيمة متقطعة.

علو الهمة في واحة الشعر:

قال علي رضي الله عنه:

إذا أظْمَأتْك أكفُّ الرِّجالِ كفَتْك القناعةُ شِبعًا ورِيًّا
فكنْ رُجلًا رِجلُه في الثَّرَى[2] وهامةُ هِمَّتِه في الثُّرَيَّا[3]

وقال أيضًا:

ومحترسٍ من نفسِه خوفَ ذلةٍ تكونُ عليه حجةٌ هي ماهيَا

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٢). من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) الثَّرَى: التُّرَابُ النَّدِيُّ. ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٤٩).

(٣) ((الكشكول)) للعاملي (٢/٢٦٨)، ((صيد الأفكار)) لحسين محمد المهدي (٢/٣٣٠). والثريا: النجم المعروف، وهو تصغير ثروى. ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (١/٢١٠).

فقَلَّصَ بُرْدَيهِ وأفضَى بقلبِهِ إلى البِرِّ والتقوى فنالَ الأمانيا
وجانب أسبابَ السفاهةِ والخَنا[١] عفافًا وتنزيهًا فأصبحَ عاليا
وصانَ عن الفحشاءِ نفسًا كريمةً أبتْ همةً إلا العُلَى والمعاليا
تراهُ إذا ما طاشَ ذو الجهلِ والصِّبا[٢] حليمًا وقورًا ضائنَ[٣] النفسِ هاديا
له حِلْمُ كهلٍ في صرامةِ حازمٍ وفي العينِ إن أبصرتَ أبصرتَ ساهيا
يروقُ صفاء الماءِ منه بوجهه فأصبحَ منه الماءُ في الوجهِ صافيا
ومن فضلِه يرعَى ذِمامًا لجارهِ ويحفظُ منه العهد إذ ظلَّ راعيا
صَبورًا على صَرْفِ الليالي[٤] [ورزئها] كَتومًا لأسرارِ الضميرِ مُداريا
له هِمَّةٌ تعلو على كُلِّ همةٍ كما قد علا البَدرُ النجومَ الدراريا[٥]

وقال المتنبي:

لولا المشقةُ ساد النَّاسُ كلُّهمُ الجُودُ يُفقرُ والإقْدامُ قتَّالُ[٦]

وله أيضًا:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا تعِبتْ في مُرادِها الأجسامُ[٧]

---

(١) الخنا: الفحش في القول. ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٨٦/٢).
(٢) الصبا: من الصبوة: جهلة الفتوة واللهو. ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٤٩/١٤).
(٣) ضائن: لين. ((المصدر السابق)) (٢٥٢/١٣).
(٤) تواليها وتخالفها. ((المعجم الوسيط)) (٥١٣/١).
(٥) ((مجمع الحكم والأمثال)) لأحمد قبش (١٦٥). والدراريا: جمع دري: وهو الثاقب المضيء. ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٨٢/٤).
(٦) ((ديوان أبي الطيب المتنبي)) (ص ٤٩٠).
(٧) ((المصدر السابق)) (ص ٢٦١).

وقال أيضًا:

ولم أرَ في عيوبِ النَّاسِ شيئًا كنقصِ القادرين على التَّمامِ[1]

وقال ابن هانئ الأندلسي:

ولم أجِد الإنسانَ إلا ابن سعيِه فمن كان أسعَى كان بالمجدِ أجدرا

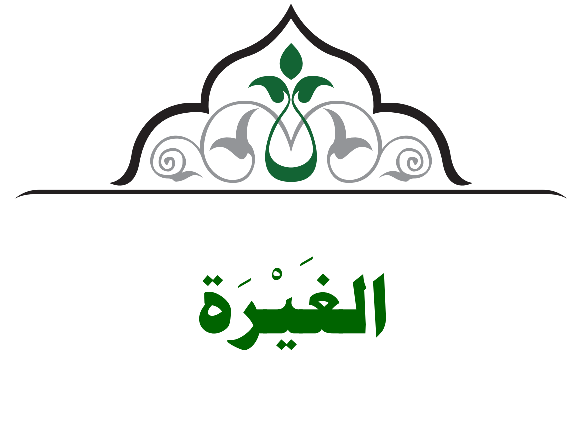
وبالهمةِ العلياءِ يرقَى إلى العُلا فمن كان أرقَى هِمَّةً كان أظهرا

ولم يتأخرْ مَن يريدُ تقدمًا ولم يتقدمْ مَن يريدُ تأخرا[2]



(١) ((ديوان أبي الطيب المتنبي)) (ص ٤٨٣).

(٢) ((مجمع الحكم والأمثال)) لأحمد قبش (٢١٧).



الغَيْرَة



الغَيْرة

معنى الغَيْرة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الغَيْرة لغةً:**

الغَيْرة بالفتح المصدر من قولك: غار الرجل على أَهْلِه والمرأَة على بَعْلها تَغار غَيْرة وغَيْرًا وغارًا وغِيارًا والغَيْرة هي الحَمِيَّة والأَنَفَة[١].

- **معنى الغَيْرة اصطلاحًا:**

الغَيْرة: كراهة الرجل اشتراك غيره فيما هو حقه[٢].

- وقال الراغب الأصفهاني: (الغَيْرة ثوران الغضب حماية على أكرم الحرم، وأكثر ما تراعى في النساء)[٣].

الترغيب في الغيرة:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه))[٤].

(معناه: أن الله يغار إذا انتهكت محارمه، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله؛ لأن انتهاك المحارم فعل العبد، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره. وغيرة الله تعالى من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل الغضب، والرضا، ونحو ذلك

---

(١) انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/٤٠١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٣٢). و((لسان العرب)) لابن منظور (٥/٣٤).

(٢) ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص ٦٧١). وبنحوه قال الجرجاني: (الغَيْرة كراهة شركة الغير في حقِّه) ((التعريفات)) (ص ١٦٣).

(٣) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٣٤٧).

(٤) رواه البخاري (٥٢٢٣).

من خصائصه التي لا يشاركه الخلق فيها)[١].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((المؤمن يغار، والله أشد غيرًا))[٢].

- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن من الغَيْرة ما يحب الله -عز وجل- ومنها ما يبغض الله -عز وجل- ومن الخيلاء ما يحب الله -عز وجل- ومنها ما يبغض الله -عز وجل- فأما الغَيْرة التي يحب الله -عز وجل- فالغَيْرة في الريبة. وأما الغَيْرة التي يبغض الله -عز وجل- فالغَيْرة في غير ريبة والاختيال الذي يحب الله -عز وجل- اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة. والاختيال الذي يبغض الله -عزَّ وجلَّ- الخيلاء في الباطل))[٣].

قال الشوكاني: (فالغَيْرة في الريبة: نحو أن يغتار الرجل على محارمه إذا رأى منهم فعلًا محرمًا؛ فإن الغَيْرة في ذلك ونحوه مما يحبه الله... والغَيْرة في غير ريبة: نحو أن يغتار الرجل على أمه أن ينكحها زوجها، وكذلك سائر محارمه؛ فإن هذا مما يبغضه الله تعالى؛ لأنَّ ما أحلَّه الله تعالى فالواجب علينا الرضى به؛ فإن لم نرض به كان ذلك من إيثار حمية الجاهلية على ما شرعه الله لنا)[٤].

---

(١) ((شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري)) لعبد الله الغنيمان (٣٣٥/١).
(٢) رواه مسلم (٢٧٦١).
(٣) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٧٨/٥) واللفظ له، وأحمد (٤٤٥/٥) (٢٣٨٠١)، والدارمي (٢٠٠/٢) (٢٢٢٦)، والبيهقي (٣٠٨/٧) (١٥١٩٨). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (١٠٨/٢٥): إسناده جيد، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٣٢٥/٣)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)).
(٤) ((نيل الأوطار)) (٢٨٧/٧).

أقوال السلف والعلماء في الغَيْرة:

- كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (لا تكثر الغَيْرة على أهلك فتُرمى بالسوء من أجلك)[١].

- وقال إسماعيل بن خارجة الفزاري وهو يوصي ابنته: (... وإياك والغيرة؛ فإنها مفتاح الطلاق)[٢].

- وقال أبو الأسود لابنته: (إياك والغَيْرة فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل؛ وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء)[٣].

- وقال ابن القيم: (إن أصل الدين الغَيْرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغَيْرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغَيْرة تميت القلب، فتموت له الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع البتة، ومثل الغَيْرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلًا، ولم يجد دافعًا، فتمكَّن، فكان الهلاك، ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وولده، فإذا تكسرت طمع فيها عدوه)[٤].

- وقال الراغب الأصفهاني عن الغيرة: (جعل اللَّه سبحانه هذه القوة في الإنسان سببًا لصيانة الماء وحفظًا للإنسان، ولذلك قيل: كلُّ أمة وضعت الغَيْرة في رجالها وضعت العفة في نسائها، وقد يستعمل ذلك في صيانة كل ما يلزم الإنسان صيانته)[٥].

---

(١) ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (٢/٤٦).
(٢) ((أدب النساء الموسوم بكتاب العناية والنهاية)) لعبد الملك بن حَبِيب القرطبي (١٦٤).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٤/٧٦).
(٤) ((الجواب الكافي)) (ص ٦٨).
(٥) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٣٤٧).

فوائد الغَيْرة:

١- الغَيْرة دليل على قوة الإيمان بالله.

٢- خصلة يحبها الله سبحانه وتعالى.

٣- هي السياج المعنوي لحماية الحجاب، ودفع التبرج والسفور والاختلاط[١].

٤- الغَيْرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغَيْرة تميت القلب، فتموت له الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع البتة[٢].

٥- هي من الأسباب الدافعة لإنكار المنكر.

٦- تطهر المجتمع من الرزائل.

٧- الغَيْرة سبب لصون الأعراض.

أقسام الغَيْرة:

أولًا: أقسام الغيرة من حيث كونها غيرة للمحبوب أو عليه

قسَّم ابن القيم الغَيْرة إلى نوعين: (غيرة للمحبوب، وغيرة عليه.

١- فأما الغَيْرة له: فهي الحمية له، والغضب له، إذا استهين بحقه وانتقصت حرمته، وناله مكروه من عدوه؛ فيغضب له المحب ويحمى، وتأخذه الغَيْرة له بالمبادرة إلى التغيير، ومحاربة من آذاه، فهذه غيرة المحبين حقًّا، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به، واستحلَّ محارمه، وعصى أمره، وهذه الغَيْرة هي التي تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحبوبه؛ حتى يزول ما يكرهه، فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفة يكرهها محبوبه ويمقته عليها، أو

(١) ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص ٨٧).

(٢) ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص ٦٨).

يفعل ما يبغضه عليه، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويبغضها، والدين كله في هذه الغَيْرة، بل هي الدين، وما جاهد مؤمن نفسه وعدوه، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بهذه الغَيْرة، ومتى خلت من القلب خلا من الدين؛ فالمؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحبُّ، والغَيْرة تصفي القلب، وتخرج خبثه كما يخرج الكير خبث الحديد.

٢- وأما الغَيْرة على المحبوب فهي: أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوبه غيره. وهذه أيضًا نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه غيره)[١].

ثانيًا: أقسام الغيرة من حيث كونها محمودة أو مذمومة

قال ابن القيم: (وغيرة العبد على محبوبه نوعان:

١- غيرة ممدوحة يحبها الله.

٢- وغيرة مذمومة يكرهها الله.

فالتي يحبها الله: أن يغار عند قيام الريبة.

والتي يكرهها: أن يغار من غير ريبة، بل من مجرد سوء الظن، وهذه الغَيْرة تفسد المحبة، وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه. وفي المسند وغيره عنه قال: ((الغَيْرة غيرتان: فغيرة يحبها الله، وأخرى يكرهها الله، قلنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الغَيْرة التي يحب الله؟ قال: أن تؤتى معاصيه، أو تنتهك محارمه، قلنا: فما الغَيْرة التي يكره الله؟ قال: غيرة أحدكم في غير كنهه))[٢])[٣].

---

(١) ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن قيم (ص ٣٤٧).

(٢) رواه الخرائطي في ((اعتلال القلوب)) (٧١٧). من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ((روضة المحبين)) (ص ٢٩٧).

(وكما يجب على الرجل أن يغار على زوجته وعرضه؛ فإنه يطلب منه الاعتدال في الغَيْرة، فلا يبالغ فيها حتى يسيء الظن بزوجته، ولا يسرف في تقصي حركاتها وسكناتها؛ لئلا ينقلب البيت نارًا، وإنما يصح ذلك إن بدت أسباب حقيقية تستدعي الريبة)[١]. قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من الغَيْرة ما يحبُّ الله، ومنها ما يكره الله؛ فالغَيْرة التي يحبُّها الله الغَيْرة في الريبة، والغَيْرة التي يكرهها الله الغَيْرة في غير ريبة))[٢].

وقد نهى النبي صلي الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلًا يتخونهم، ويطلب عثراتهم[٣].

ويمكن إجمال أسباب الغَيْرة المذمومة في ضعف الإيمان، ووسوسة الشيطان، وما يعتري القلب من أمراض إلى غير ذلك.

ويترتب على هذه الغيرة المذمومة أمور منها: الوقوع في الغيبة والتلبس بالسخرية، وترك بذل الخير للآخرين، السعي في الإضرار بالغير، ومعاداة أقارب الزوج وهضم حقوقهم، والحسد، والحقد، والسحر، والتجسس، والآلام النفسية، والأمراض البدنية، والاحتيال والكيد، والقتل، وقد تصل الغيرة المذمومة بصاحبها إلى الكفر والعياذ بالله.

---

(١) ((خلق المؤمن)) لمصطفى مراد (ص ١٠٩).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/٧٨)، وأحمد (٥/٤٤٥) (٢٣٨٠١)، والدارمي (٢/٢٠٠) (٢٢٢٦)، والبيهقي (٧/٣٠٨) (١٥١٩٨). من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه. والحديث سكت عنه أبو داود، وقال ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٢٥/١٠٨): إسناده جيد، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٣/٣٢٥)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)).

(٣) رواه البخاري (١٨٠١) و مسلم (٧١٥) واللفظ له.

وتتلخص معالجة الغيرة المذمومة في تقوى الله تعالى، ومطالعة الأجر العظيم للصابرين، وإحسان الظن، والقناعة، والبعد عن مجالس السوء، وذكر الموت وتقوية الإيمان باليوم الآخر، والدعاء، وفي الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأمِّ سلمة لما ذكرت من غيرتها: ((وأدعو الله أن يذهب بالغَيْرة))(١).

صور الغَيْرة:

١- الغَيْرة لله سبحانه وتعالى:

ومن صور هذه الغَيْرة:

الغيرة لدين الله:

فالمسلم يغار أن تؤتى المعاصي، أو أن تنتهك المحارم، ومن الغيرة لدين الله القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال صلى الله عليه وسلم: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))(٢).

الفرح بزوال الظلم والظلمة:

إن المسلم الغيور ليفرح إذا أزيل منكر، وقمعت فاحشة، وأخمدت فتنة، كيف لا، وربنا يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

(بل إن الفرح بما يصيب الناس من البلاء، وإن كان مذمومًا؛ فإنه حين يكون لإصابة مفسد، أو ظالم ببلاء يمنعه من فساده وظلمه، ويجعله لغيره

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه مسلم (٤٩).

من الظلمة عبرة، فلا يكون مذمومًا، بل غيرة في الدين، والغَيْرة من الإيمان، ففرحه حينئذ بزوال الفساد والظلم، لا بإصابة البلاء والمصيبة، كما ذكره بعض العلماء)[1]. وكيف لا يفرح المسلم إذا رأى الظلمة والمستبدين يزولون ويتساقطون كأوراق الخريف!!.

٢- الغيرة للرسول صلى الله عليه وسلم:

يجب على كلِّ مسلم أن يغار لرسوله الكريم إذا أُسيء إليه، فيدافع عنه، ويذبُّ عن عرضه، وينصره بما يستطيع.

٣- غيرة الرجل على أهله:

قال النووي: (والرجل غيور على أهله أي: يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر، أو حديث، أو غيره)[2].

وقال ابن القيم: (وأما الغَيْرة على المحبوب فهي: أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوبه غيره)[3].

أقسام الناس في الغَيْرة على محارم الله:

عدَّ ابن تيمية أقسام الناس في الغَيْرة على محارم الله بعد أن بيَّن الغَيْرة التي يحبها الله، والغَيْرة التي يبغضها الله فقال: (وهنا انقسم بنو آدم أربعة أقسام:

١- قوم لا يغارون على حرمات الله بحال، ولا على حرمها مثل: الديُّوث والقوَّاد وغير ذلك، ومثل أهل الإباحة الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله،

---

(١) ((الغيرة على المرأة)) لعبد الله المانع (ص ٧٢).

(٢) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٠/١٣٢).

(٣) ((روضة المحبين)) (ص ٣٤٧).

ولا يدينون دين الحقِّ، ومنهم من يجعل ذلك سلوكًا وطريقًا ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

٢- وقوم يغارون على ما حرَّمه الله، وعلى ما أمر به مما هو من نوع الحبِّ والكره، يجعلون ذلك غيرة، فيكره أحدهم من غيره أمورًا يحبها الله ورسوله، ومنهم من جعل ذلك طريقًا ودينًا، ويجعلون الحسد والصدَّ عن سبيل الله، وبغض ما أحبه الله ورسوله غيرة.

٣- وقوم يغارون على ما أمر الله به دون ما حرمه، فتراهم في الفواحش لا يبغضونها ولا يكرهونها، بل يبغضون الصلوات والعبادات، كما قال تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

٤- وقوم يغارون مما يكرهه الله، ويحبون ما يحبه الله، هؤلاء هم أهل الإيمان)[1].

أسباب ضعف الغَيْرة:

لضعف الغيرة أسباب عديدة، نقتصر على ذكر بعضها فيما يلي:

١- ضعف الإيمان:

يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الغيرة لا تكون إلا من مؤمن بقوله: ((إن الله يغار وإن المؤمن يغار))[2]. فحياة القلب بالإيمان تجعل الإنسان غيورًا، وبقدر إيمانه تكون غيرته، وإذا ضعف الإيمان ضعفت الغيرة.

---

(١) ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٠).

(٢) رواه البخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١) واللفظ له.

٢- كثرة الذنوب:

قال ابن القيم: (ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغَيْرة، التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن؛ فالغَيْرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخبث، والصفات المذمومة)[١].

٣- الجهل:

فمن أسباب ضعف الغيرة الجهل بأهمية الغيرة، وخطورة غيابها، فضدُّ الغيرة الدياثة، وضد الغيور الديوث، كذلك الجهل بعظم المسؤولية تجاه الأهل؛ فالرجل محاسب ومسؤول يوم القيامة عن رعيته ومن تحت رعايته.

٤- التقليد للكفار والمفسدين:

فالغيرة من الأخلاق الفاضلة التي يراد لها أن تقلع من بلاد المسلمين، بفعل دعاة تقليد الغرب الذين انعدمت لديهم الغيرة؛ لذا يريدون إماتة خلق الغَيْرة في نفوس المسلمين، وقد حذَّر الإسلام من تقليد الكفار والتشبه بهم، قال صلى الله عليه وسلم: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[٢].

٥- وسائل الإعلام الفاسدة:

إن لوسائل الإعلام دورًا كبيرًا في إفساد الناس: كالإذاعة، والتلفاز، والصحف، والشبكة العنكبوتية، وغيرها، فالكثير من هذه الوسائل مليء

---

(١) ((الجواب الكافي)) (ص ٦٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٣١) واللفظ له، وأحمد (٢/٥٠) (٥١١٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/٧٥) (١١٩٩). من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه.
والحديث سكت عنه أبو داود، وصحح إسناده الذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/٥٠٩)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/٣٥٩)، وحسنه ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٠/٢٨٢)، وصحح الحديث ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٤/٣٥٨)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٣١). والحديث روي من طرق عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

بالأغاني الفاحشة، والصور الخليعة، والمسلسلات الماجنة التي اعتاد الناس مشاهدتها، وغرس قيم وأخلاق لا تمت للإسلام ولا للمسلمين بصلة، فأخذ خلق الغَيْرة يضعف شيئًا فشيئًا.

٦- انتشار المنكرات:

إنَّ انتشار المنكرات في المجتمعات الإسلامية بلا نكير ولا تغيير يجعلها مألوفة لدى الناس، فتضعف الغيرة في القلوب، يقول ابن القيم في أثر المعاصي في الإنسان: و(كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره)[١].

الوسائل المعينة على اكتساب الغَيْرة[٢]:

يمكن أن تنمَّى الغَيْرة بأمور كثيرة ومنها:

١- تربية الأولاد على الغَيْرة، وغرس هذا الخلق في نفوسهم.

٢- الابتعاد عن أسباب ضعف الغيرة، كالقنوات الفضائية الماجنة، والمجلات الهابطة، وغيرها من وسائل الهدم.

٣- الرجوع إلى قيم الدين وغرسها في نفوس الناس.

٤- التأكيد على دور الرجل.

٥- توعية المجتمع توعية شاملة بجميع وسائل الإعلام، والخطب والمحاضرات.

٦- تعظيم قدر الأعراض، وبيان خطورة ضياعها.

(١) ((الجواب الكافي)) لابن القيم (٦٧).
(٢) انظر: ((الغيرة على المرأة)) لعبد الله المانع (ص ٢٣٥).

نماذج في الغَيْرة:

• نماذج من غيرة الأنبياء عليهم السلام:

غيرة داود عليه السلام:

- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: ((كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب؛ فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار؛ فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود. فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني شيء، فقال داود: أنت والله ملك الموت فمرحبًا بأمر الله، فرمل داود مكانه[١]؛ حيث قبضت روحه، حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا، قال أبو هريرة: يرينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله صلى الله عليه و سلم، وغلبت عليه يومئذ المصرحية))[٢].

غيرة موسى عليه السلام:

- قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ

---

(١) الرمل: يقال رمل يرمل رملاً ورملانًا: إذا أسرع في المشي وهز منكبيه. ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٢/٢٥٦).

(٢) رواه أحمد (٢/٤١٩) (٩٤٢٢). قال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٢/١٦): إسناده جيد قوي رجاله ثقات، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٠٩): فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح.

لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ٩-١٠].

قال ابن عباس وغيره: (هذا حين قضى الأجل وسار بأهله، وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى عليه السلام رجلًا غيورًا: يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه، لئلا يروا امرأته فأخطأ الرفقة لما سبق في علم الله تعالى، وكانت ليلة مظلمة)[(١)].

- **نماذج من غيرة النبي صلى الله عليه وسلم:**

- غيرته على حرمات الله: النبي صلى الله عليه وسلم أعظم الناس غيرة لله، فكان يغضب إذا انتهكت حرمات الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء يؤتى إليه، حتى ينتهك من حرمات الله، فينتقم لله))[(٢)] والنماذج والصور على غيرته على محارم الله كثيرة جدًّا.

- غيرته على نسائه: كان أعدل البشر غيرة على نسائه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي رجل قاعد، فاشتدَّ ذلك عليه، ورأيت الغضب في وجهه، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنَّه أخي من الرضاعة، قالت: فقال: انظرن إخوتكن من الرضاعة، فإنما الرضاعة من المجاعة))[(٣)].

قال الحافظ بن حجر: (والمعنى: تأملن ما وقع من ذلك، هل هو رضاع

(١) ذكره القرطبي في ((الجامع لأحكام القرآن)) (١١/١٧١).
(٢) رواه البخاري (٦٨٥٣).
(٣) رواه البخاري (٢٦٤٧) ومسلم (١٤٥٥).

صحيح بشرطه من وقوعه في زمن الرضاعة ومقدار الارتضاع؟ فإنَّ الحكم الذي ينشأ من الرضاع؛ إنما يكون إذا وقع الرضاع المشترط. قال المهلب: معناه انظرن ما سبب هذه الأخوة؛ فإنَّ حرمة الرضاع، إنما هي في الصغر، حتى تسد الرضاعة المجاعة)[1].

- وعن أم سلمة رضي الله عنها ((أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان عندها، وفي البيت مخنث، فقال المخنث لأخي أم سلمة عبد الله بن أبي أمية: إن فتح الله لكم الطائف غدًا، أدلك على بنت غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يدخلنَّ هذا عليكنَّ))[2].

- **نماذج من غيرة الصحابة:**

نماذج من غيرة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يغارون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ضربوا أروع الأمثلة في محبته وطاعته ونصرته، ومن أمثلة الغيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

- غيرة عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من بني تميم - فقال: يا رسول الله، اعدل. فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه؛ فإنَّ له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم،

(١) ((فتح الباري)) (٩/١٤٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٥) ومسلم (٢١٨٠)، واللفظ للبخاري.

وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه – وهو قدحه – فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم: رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس))[1].

– غيرة عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة، إنَّ الله يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه. قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: قد قلت: وعليكم))[2].

– غيرة ابن عمر للنبي صلى الله عليه وسلم:

مرَّ ابن عمر براهب، فقيل: إنَّ هذا سبَّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (لو سمعته لضربت عنقه، إنَّا لم نعطهم العهد على أن يسبُّوا نبينا صلى الله عليه وسلم)[3].

– غيرة حسان بن ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم:

عن عائشة، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((اهجوا قريشًا، فإنَّه أشدُّ عليها من رشق بالنبل. فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم. فهجاهم

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) رواه البخاري (٢٩٣٥)، ومسلم (٢١٦٥).
(٣) رواه الحارث في ((مسنده)) (٢/٥٦١).

فلم يرضَ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه. ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينَّهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل، فإنَّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسبًا، حتى يلخص لك نسبي. فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق، لأسلنَّك منهم كما تسلُّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول لحسان: إنَّ روح القدس لا يزال يؤيِّدك، ما نافحت عن الله ورسوله. وقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى. قال حسان:

هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمدًا برًّا حنيفًا ... رسول الله شيمته الوفاء

فإنَّ أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

ثكلت بُنيتي إن لم تروها ... تثير النقع من كنفي كداء

يبارين الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء

فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لضراب يوم ... يعز الله فيه من يشاء

وقال الله: قد أرسلت عبدًا ... يقول الحق ليس به خفاء

وقال الله: قد يسرت جندًا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء))[1]

- **نماذج أخرى من غيرة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم:**

عن عثمان الشحام قال: ((كنت أقود رجلًا أعمى، فانتهيت إلى عكرمة فأنشأ يحدثنا قال: حدثني ابن عباس أنَّ أعمى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت له أمُّ ولد، وكان له منها ابنان، وكانت تكثر الوقيعة برسول الله صلى الله عليه وسلم وتسبه، فيزجرها فلا تزدجر، وينهاها فلا تنتهي، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم فوقعت فيه، فلم أصبر أن قمت إلى المعول، فوضعته في بطنها، فاتكأت عليه، فقتلتها فأصبحت قتيلًا، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فجمع الناس، وقال: أنشد الله رجلًا لي عليه حق فعل ما فعل إلا قام. فأقبل الأعمى يتدلدل، فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها كانت أمَّ ولدي، وكانت بي لطيفة رفيقة، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك، وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تزدجر، فلما كانت البارحة ذكرتك فوقعت فيك، فقمت إلى المعول، فوضعته في بطنها، فاتكأت عليها حتى قتلتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا اشهدوا أنَّ دمها هدر))[2].

- عن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال: سمعت أنس بن مالك يقول:

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٦١)، والنسائي (١٠٧/٧)، والطبراني (٣٥١/١١) (١١٩٨٤)، والبيهقي (٦٠/٧) (١٣٧٥٧).

قال ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (٣٦٣): رواته ثقات، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٠١) حسن رجاله رجال الصحيح.

(مرَّ يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السام عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك. قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم)[١].

- **نماذج أخرى في الغيرة:**

غيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ((أن نفرًا من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس، فدخل أبو بكر الصديق، وهي تحته يومئذ، فرآهم، فكره ذلك، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: لم أرَ إلا خيرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله قد برأها من ذلك. ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال: لا يدخلنَّ رجل، بعد يومي هذا، على مغيبة، إلا ومعه رجل أو اثنان))[٢].

غيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

- كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أعظم الصحابة غيرة على النساء، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم غيرته في الرؤيا التي رأى فيها قصر عمر بن الخطاب في الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته، فوليت مدبرًا . فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟!))[٣].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢٦).
(٢) رواه مسلم (٢١٧٣).
(٣) رواه البخاري (٣٢٤٢) ومسلم (٢٣٩٥)، واللفظ للبخاري.

- وعن ابن عمر قال: ((كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله))[١].

- وقد أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يحجب نساءه، ثم نزل القرآن موافقًا له، فعن أنس رضي الله عنه قال: (قال عمر: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى. فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنَّه يكلمهنَّ البرُّ والفاجر. فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغَيْرة عليه، فقلت لهنَّ: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرا منكن، فنزلت هذه الآية)[٢].

غيرة عائشة رضي الله عنها:

- فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدَّثت، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلا. قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع. فقال: ((ما لك؟ يا عائشة! أغرت؟ فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقد جاءك شيطانك؟. قالت: يا رسول الله! أو معي شيطان؟. قال: نعم. قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم. قلت: ومعك؟ يا رسول الله! قال: نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم))[٣].

---

(١) رواه البخاري (٩٠٠) ومسلم (٤٤٢) واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري (٤٠٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨١٥).

- وعنها أيضًا رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة فخرجنا معه جميعا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان الليل سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك فتنظرين، وأنظر. قلت: بلى. فركبت حفصة على بعير عائشة وركبت عائشة على بعير حفصة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلَّم، ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فغارت، فلما نزلت جعلت تجعل رجليها بين الإذخر، وتقول: يا رب سلِّط عليَّ عقربًا أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أقول له شيئًا)[1].

- وعنها رضي الله عنها، قالت: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهنَّ، فدخل على حفصة بنت عمر، فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل، فسقت النبي صلى الله عليه وسلم منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالنَّ له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنَّه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير، فإنَّه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد منك، فإنَّه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحله العرفط، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذاك، قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أباديه بما أمرتني به فرقًا منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه

---

(١) رواه البخاري (٥٢١١) ومسلم (٢٤٤٥) واللفظ له.

الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل. فقالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إلي قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي فيه. قالت: تقول سودة: والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي))(١).

غيرة سعد بن عبادة رضي الله عنه:

- وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: (لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفح، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعجبون من غيرة سعد؟! والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)(٢).

غيرة الزبير رضي الله عنه:

- وعن أسماء رضي الله عنها: تزوَّجني الزبير، وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأسقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه النبي على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئت يوما والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار، فدعاني، ثم قال: (إخ، إخ. ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته- وكان أغير الناس- فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت، فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٨) ومسلم (١٤٧٤) واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩).

وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه، وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه. قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني[1].

الغَيْرة في واحة الشعر:

قال الخريمي:

ما أحسنَ الغَيْرَةَ في حينِها   وأقبحَ الغَيْرَةَ في كلِّ حينِ
من لم يزلْ متهمًا عرسَه   مناصبًا فيها لريبِ الظُّنونِ
أوشك أن يُغريَها بالذي   يخاف أن يبرزها للعيونِ
حسبك من تحصينها وضعُها   منك إلى عِرض صحيح ودينِ
لا تطَّلع منك على ريبة   فيتبعَ المقرونُ حبلَ القرينِ[2]

وقال آخر في غيرته على زوجته:

أغارُ عليك مِن نفسي ومني   ومنك ومِن مكانِك والزمانِ
ولو أني خبَأتُك في عيوني   إلى يومِ القيامةِ ما كفاني[3]

وقال ابن مطروح:

ولو أمسى على تلفي مصرًّا   لقلتُ معذبي بالله زدني
ولا تسمحْ بوصلِك لي فإني   أغارُ عليك منك فكيف مني[4]

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٤) ومسلم (٢١٨٢) واللفظ للبخاري.
(٢) ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (١٤٨/٩).
(٣) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٤٣٣).
(٤) ((المصدر السابق)) (ص ٤٣٣).

فهرس الموضوعات



موسوعة الأخلاق

الجزء الحادي عشر

الفِرَاسَة - الفَصَاحَة - الفِطْنَة والذَّكَاء

القَنَاعَة - كِتْمَان السِّرِّ

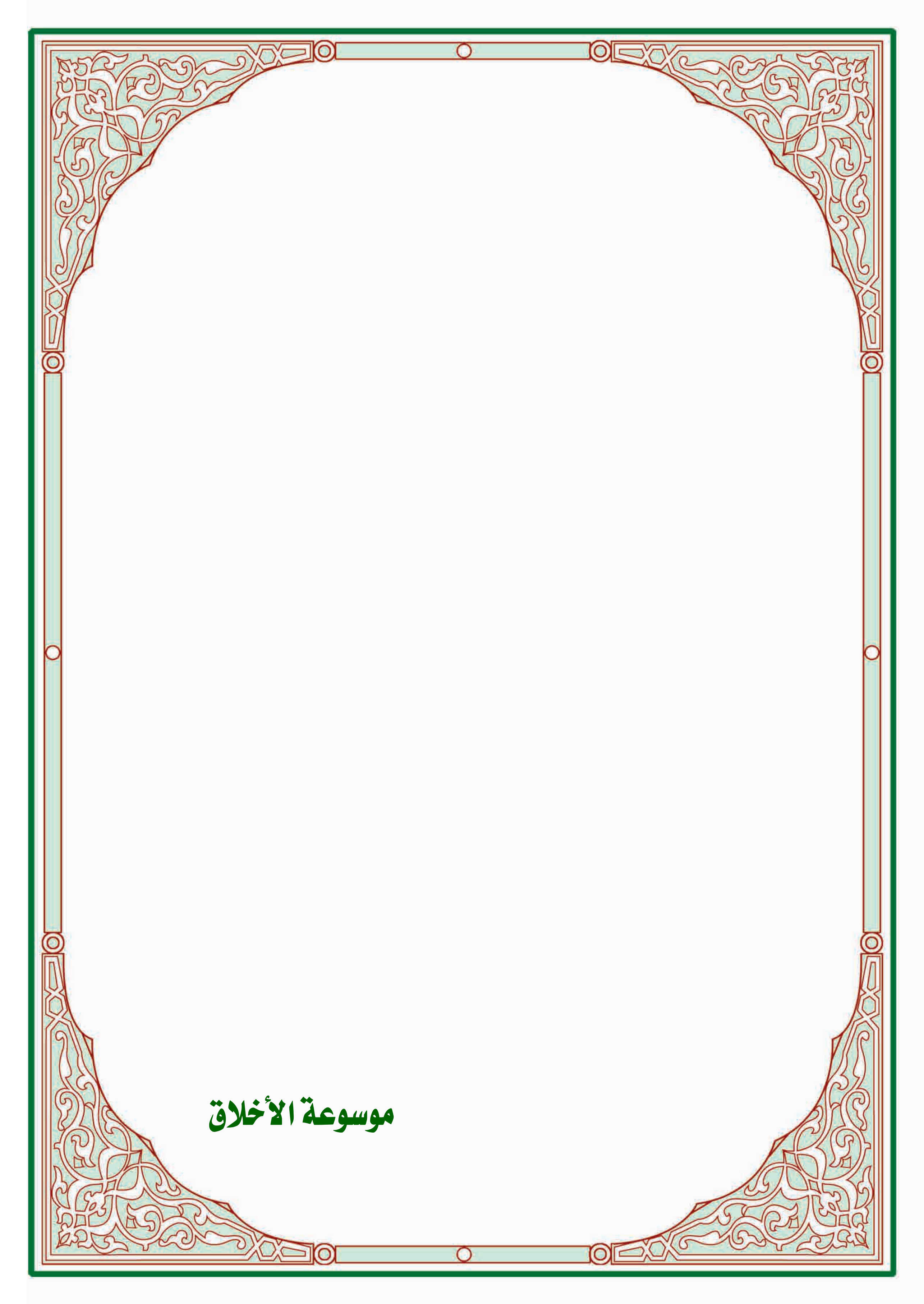
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق

موسوعة الأخلاق

الجزء الحادي عشر

الفِرَاسَة - الفَصَاحَة - الفِطْنَة والذَّكَاء

القَنَاعَة - كِتْمَان السِّرِّ

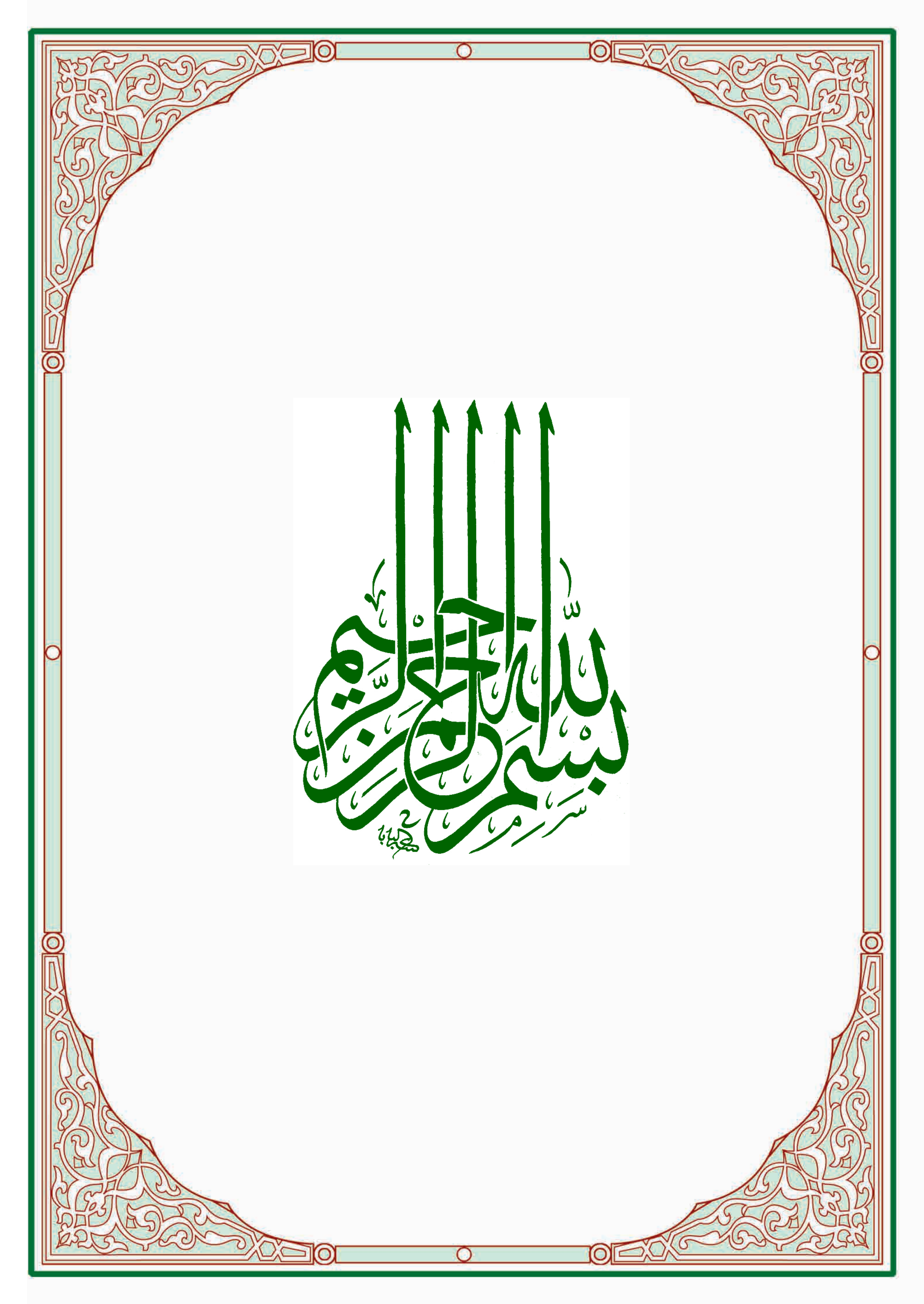
إعداد

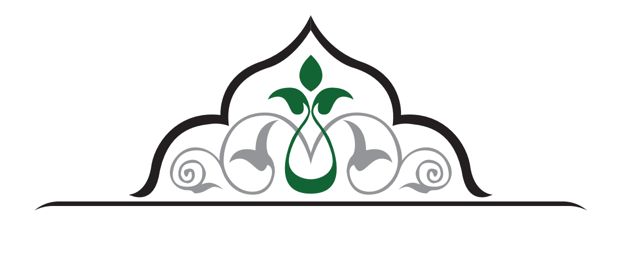
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف




بسم الله الرحمن الرحيم



الفِرَاسَة



الفِرَاسَة

معنى الفِرَاسَة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى الفِرَاسَة لغةً:**

الفِراسة مصدرٌ، من قولك: تَفرَّس، يتَفَرَّس فِرَاسَة، وهي بمعنى: التَّثبُّت والنَّظر، ومنه: تَفَرَّسْت فيه خَيْرًا. أي: تَعَرَّفْته بالظَّنِّ الصَّائب. وهو يَتفَرَّسُ، أي: يَتَثَبَّت ويَنْظر. تقول منه: رجل فارِس النَّظَر، وفارِسٌ بذلك الأمر، إذا كان عالـمًا به[1].

- **معنى الفِرَاسَة اصطلاحًا:**

قيل: هو عِلْمٌ تُتَعرَّف منه أخلاق الإنسان: من هيئته ومزاجه وتوابعه، وحاصله الاستدلال بالخَلْق الظَّاهر على الخُلق الباطن[2].

وقيل: الفِرَاسَة هي الاستدلال بالأمور الظَّاهرة على الأمور الخفيَّة[3].

الفرق بين الفِرَاسَة وغيرها من الصِّفات:

- **الفرق بين الفِرَاسَة وسوء الظَّنِّ:**

قال أبو طالب المكي: (الفرق بين الفِرَاسَة وسوء الظَّنِّ: أنَّ الفِرَاسَة ما توسَّمته من أخيك بدليل يظهر لك، أو شاهد يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفَرَّس من ذلك فيه، ولا تنطق به إن كان سوءًا، ولا تُظْهره، ولا تحكم عليه، ولا تقطع به فتأثم.

---

(١) انظر: ((مختار الصِّحاح)) للرازي (ص ٢٣٧)، و((لسان العرب)) لابن منظور (٦/١٥٩)، و((المصباح المنير)) للفيومي (٢/٤٦٧)، و((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٦٦)، و((تاج العروس)) للزبيدي (١٦/٣٢٨).

(٢) ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (١/٥٦).

(٣) ((المصدر السابق)) (٢/١٢٦٥).

وسوء الظَّنِّ: ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقد في نفسك عليه، أو لسوء نيَّة تكون، أو خُبْث حال فيك، تعرفها من نفسك، فتحمل حال أخيك عليها، وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظَّنِّ والإثم، وهو غيبة القلب)(١).

- **الفرق بين الفِرَاسَة والإلهام:**

قال الملا علي القاري: (الفرق بين الإلهام والفِرَاسَة: أنَّها كشف الأمور الغيبيَّة بواسطة تفرُّس آثار الصُّور. والإلهام كشفها بلا واسطة)(٢).

- **الفرق بين الفِرَاسَة والكَهَانَة:**

الفِرَاسَة: غالبًا لا يَدَّعي صاحبها الغيب، بخلاف الكاهن؛ فإنَّه يدَّعي الغيب، ويفتخر بادِّعائه، بل وربَّما كَثُر مريدوه بسبب هذا الادِّعاء، وهذا بخلاف المتفرِّس، لا يدَّعي الغيب، فضلًا أن يفتخر به.

الكَهَانَة: لها مقدِّمات غالبًا غير مشروعة، وأما الفِرَاسَة فإنَّها تعتمد على مقدِّمات مشروعة(٣).

الفراسة في القرآن الكريم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال النَّسفي: (للمتفرِّسين المتأمِّلين، كأنَّهم يعرفون باطن الشَّيء بِسمَةٍ ظاهرة)(٤).

(١) ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (٢/٣٧١).
(٢) ((مرقاة المفاتيح)) (١/٢٨٠).
(٣) ((مغني المريد الجامع لشروح كتاب التوحيد)) لعبد المنعم إبراهيم (٥/١٨٦٦).
(٤) ((مدارك التنزيل)) للنسفي (٢/١٩٦).

وقال ابن زيد في نفس الآية: (المتفكِّرون والمعتبرون، الذين يتوسَّمون الأشياء، ويتفكَّرون فيها ويعتبرون)(١).

وقال أبو المظفَّر السَّمعاني: (أي: للنَّاظرين المعتبرين. وقيل: للمتفَرِّسين، وهم الذين يعلمون النَّاس [بسِيمَاهم] على ما يُرِيهم الله منها)(٢).

أقوال السَّلف والعلماء في الفِرَاسَة:

- قال أبو الدَّرداء: (اتَّقوا فِرَاسَة العلماء؛ فإنَّهم ينظرون بنور الله، إنَّه شيء يقذفه الله في قلوبهم، وعلى ألسنتهم)(٣).

- قال الشَّافعي: (خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفِراسة، حتى كتبتها وجمعتها)(٤).

- وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: (إذا جالستم أهل الصِّدق، فجالسوهم بالصِّدق؛ فإنَّهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تُحسُّون)(٥).

- وقال الهروي عن الفراسة: (هو استئناس حكم غيبٍ من غير اسْتِدْلَال بشَاهِد، ولا اختبار بتجربة)(٦).

- وقال أبو حفص النَّيسابوري: (ليس لأحد أن يدَّعي الفِرَاسَة. ولكن

---

(١) ((جامع البيان)) للطبري (١٤/٩٧).
(٢) ((تفسير السَّمعاني)) (٣/١٤٦).
(٣) رواه العسكري، كما قال السخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (ص٥٩). وذكره ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/٨٥١).
(٤) ((آداب الشافعي ومناقبه)) لابن أبي حاتم الرازي (ص ٢٧).
(٥) ((المصدر السابق)) (٢/٣٨٩).
(٦) ((منازل السائرين)) للهروي (ص ٨٠).

يتَّقي الفِرَاسَة من الغير؛ لأنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اتَّقوا فِرَاسَة المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله)). ولم يقل: تفرَّسوا. وكيف يصحُّ دعوى الفِرَاسَة لمن هو في محلِّ اتقاء الفِراسة؟!).

- وقال ابن القيِّم: (الفِراسة الإيمانيَّة... سببها نورٌ يقذفه الله في قلب عبده، يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، والصَّادق والكاذب، وهذه الفِرَاسَة على حسب قوَّة الإيمان، وكان أبو بكر الصِّدِّيق أعظم الأمَّة فِرَاسَة)[1].

أقسام الفِرَاسَة:

قسمها ابن القيِّم إلى ثلاثة أقسام:

إيمانيَّة: وسببها: نورٌ يقذفه الله في قلب عبده، يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، والحالي والعاطل، والصَّادق والكاذب.

وحقيقتها: أنَّها خاطر يهجم على القلب، ينفي ما يضادُّه. يَثِب على القلب كوُثُوب الأسد على الفريسة...

وهذه الفِرَاسَة على حسب قوَّة الإيمان. فمن كان أقوى إيمانًا، فهو أحدُّ فِرَاسَةً... وأصل هذا النَّوع من الفِرَاسَة: من الحياة والنُّور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ. قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] كان ميِّتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وجعل له -بالقرآن والإيمان- نورًا يستضيء به في النَّاس على قَصْد السَّبيل. ويمشي به في الظُّلَم.

- **فِرَاسَة الرِّياضة والجوع، والسَّهر والتَّخلِّي**؛ فإنَّ النَّفس إذا تجرَّدت عن

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٢/ ٤٥٣).

العوائق، صار لها من الفِرَاسَة والكشف بحسب تجرُّدها. وهذه فِرَاسَة مشتركة بين المؤمن والكافر. ولا تدلُّ على إيمان ولا على ولاية. وكثير من الجهَّال يغترُّ بها. وللرُّهبان فيها وقائع معلومة. وهي فِرَاسَة لا تكشف عن حقٍّ نافع. ولا عن طريق مستقيم. بل كشفها جزئي من جنس فِرَاسَة الولاة، وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم.

وللأطباء فِرَاسَة معروفة من حِذْقهم في صناعتهم. ومن أحبَّ الوقوف عليها فليطالع تاريخهم وأخبارهم. وقريب من نصف الطِّبِّ فِرَاسَةٌ صادقةٌ، يقترن بها تجربة. والله سبحانه أعلم.

- **الفِرَاسَة الخَلْقية:** وهي التي صنَّف فيها الأطبَّاء وغيرهم. واستدلُّوا بالخَلْق على الخُلُق؛ لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله. كالاستدلال بصِغر الرَّأس -الخارج عن العادة- على صِغَر العقل. وبكبره، وبسعة الصَّدر، وبُعْد ما بين جانبيه: على سعة خُلُق صاحبه، واحتماله وبسْطته. وبضيقه على ضيقه. وبخمود العين وكَلَال نظرها على بَلَادة صاحبها، وضعف حرارة قلبه. وبشدَّة بياضها مع إشْرَابه بحُمْرة -وهو الشَّكل- على شجاعته وإقدامه وفِطْنته. وبتدويرها مع حُمْرتها وكثرة تقلُّبها، على خيانته ومكره وخداعه.

ومعظم تعلُّق الفِرَاسَة بالعين. فإنَّها مرآة القلب، وعنوان ما فيه. ثمَّ باللِّسان. فإنَّه رسوله وترجمانه... وأصل هذه الفِرَاسَة: أنَّ اعتدال الخِلْقة والصُّورة، هو من اعتدال المِزَاج والرُّوح. وعن اعتدالها يكون اعتدال الأَخْلَاق والأفعال، وبحسب انحراف الخِلْقة والصُّورة عن الاعتدال، يقع الانحراف في الأخلاق والأعمال)[١].

---

(١) انظر: ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم (٢/٤٥٣ - ٤٥٧)، بتصرُّف يسير.

صُوَر الفِرَاسَة:

١- فِرَاسَة تحسين الألفاظ: وهو جزء من الفِرَاسَة اعتنى به العلماء وغيرهم، ومن أمثلته: أنَّ الرَّشيد رأى في داره حزمة خَيْزُران، فقال لوزيره الفضل بن الرَّبيع: ما هذه؟ قال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يقل الخَيْزُران لموافقته لاسم أمِّه.

ونظير هذا أنَّ بعض الخلفاء سأل ولده -وفي يده مِسْوَاك- ما جَمْع هذا؟ قال: ضدُّ محاسنك، يا أمير المؤمنين. خشية أن يقول مساويك.

وخرج عمر رضي الله عنه يَعُسُّ المدينة باللَّيل، فرأى نارًا موقدةً في خِبَاء، فوقف، وقال: يا أهل الضَّوء. وكَرِه أن يقول يا أهل النَّار[١].

قيل للعبَّاس بن عبد المطَّلب: أيُّما أكبر، أنت أم النَّبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو أكبر منِّي، وأنا وُلدت قبله[٢].

٢- التَّأمُّل والنَّظر في عواقب الأمور ومآلاتها، سواءً في الفعل أو التَّرك، وهو أعظم مقصود في هذا الباب.

٣- ومنها توسُّم المعلِّم في طلَّابه لمعرفة قدراتهم الذِّهنيَّة والعلميَّة، ليعطي كلَّ شخص من الاهتمام بحسبه، قال الماوردي: (ينبغي أن يكون للعالم فِرَاسَة يتوسَّم بها المتعلِّم، ليعرف مَبْلغ طاقته، وقَدْر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمَّله بذكائه، أو يَضْعُف عنه ببلادته، فإنَّه أروح للعالم، وأنجح للمتعلِّم)[٣].

---

(١) ذكره الخطابي في ((غريب الحديث)) (٢/٥٢).

(٢) رواه الطبراني، كما قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩/٢٧٣)، والحاكم (٣/٣٦٢)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصَّحيح.

(٣) ((أدب الدُّنْيا والدِّين)) للماوردي (ص ٨١).

٤- من الفِرَاسَة: معرفة حِيَل المجرمين، وطرائقهم، ودسائسهم في تدمير عقائد النَّاس وأخلاقهم.

٥- ومن صُوَرها: فِرَاسَة القاضي في الخُصُوم، قال ابن فَرْحُون: (يُسْتَحبُّ للقاضي أن يستعمل الفِرَاسَة، ويراقب أحوال الخِصْمَين عند الإدلاء بالحجج ودعوى الحقوق، فإنْ توسَّم في أحد الخِصْمَين أنَّه أبْطَن شُبْهة، فليتلطَّف في الكشف والفحص عن حقيقة ما توهَّم فيه)[١].

نماذج للفِرَاسَة:

• نماذج من الصَّحابة:

فِرَاسَة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

رُوِي عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: أنَّه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر، فصعَّد عمر فيه النَّظر وصوَّبه، وقال: أيُّهم هذا؟ فقالوا: مالك ابن الحارث، فقال: ما له -قاتله الله- إنِّي لأرى للمسلمين منه يومًا عصيبًا. فكان منه في الفتنة ما كان[٢].

فِرَاسَة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه:

وهذا عثمان بن عفَّان، دخل عليه رجل من الصَّحابة، وقد رأى امرأة في الطَّريق، فتأمَّل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل عليَّ أحدكم، وأثر الزِّنا ظاهر على عينيه. فقلت: أوحيٌّ بعد رسول الله؟! فقال: لا، ولكن تَبْصِرة وبرهان، وفِرَاسَة صادقة[٣].

---

(١) ((تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام)) لابن فَرْحُون (٢/١١٦).

(٢) ذكره القرطبي في ((تفسيره)) (١٠/٤٤).

(٣) انظر: ((الروح)) لابن القيِّم (ص ٢٤٠)، وذكره القشيري في ((الرسالة القشيرية)) (٢/٣٩٣).

فِرَاسَة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَكْثَرَ رجلٌ الثَّناء على عليٍّ رضي الله عنه بلسان لا يوافقه القلب، فقال له: (أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك)[١].

فِرَاسَة السَّائب بن الأقرع:

أنَّ أبا موسى الأشعري وجَّه السَّائب بن الأقرع في خلافة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى مهرجا، بعد أن فتحها ودخل دار الهرمزان، بعد أن جمع السَّبي والغنائم، ورأى في بعض مجالس الدَّار تصاوير فيها مثال ظبي، وهو مُشِير بإحدى يديه إلى الأرض، فقال السَّائب: لأمرٍ ما صُوِّر هذا الظَّبي هكذا، إنَّ له لشأنًا، فأمر بحفر الموضع الذي الإشارة إليه، فأفضى إلى موضع فيه حوض من رخام، فيه سفط[٢] جوهر، فأخذه السَّائب، وخرج به إلى عمر رضي الله عنه[٣].

- **نماذج من السَّلف والعلماء المتقدِّمين:**

فِرَاسَة الشَّافعي:

- قال محمَّد بن إدريس الشَّافعي: (خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفِرَاسَة، حتى كتبتها وجمعتها، ثمَّ لما حان انصرافي، مررت على رجل في طريقي وهو مُحْتَبٍ[٤] بفناء داره، أزرق العينين، ناتئ الجبهة[٥]، سِنَاط، فقلت له:

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنْيا في ((الصَّمت)) (ص٢٧٥)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٢/٥١٨).

(٢) السفط: الذي يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء. ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ٣١٥).

(٣) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/١٤٩).

(٤) احتبى الشَّخصُ: جلس على أَلْيَتَيه وضمَّ فَخِذَيه وساقَيه إلى بطنه بذراعيه ليستند. ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/٤٤٠).

(٥) ناتئ الجبهة: أي مرتفعها. ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (٩/٣٧٩٨).

هل من منزل؟ فقال: نعم. قال الشَّافعي: وهذا النَّعت أخبث ما يكون في الفِرَاسَة. فأنزلني، فرأيت أَكْرَم رجل، بَعَث إليَّ بعشاء وطِيب، وعلفٍ لدابَّتي، وفِرَاش ولِحَاف، فجعلت أتقلَّب اللَّيل، أجمع ما أصنع بهذه الكتب؟ إذ رأيت هذا النَّعت في هذا الرَّجل، فرأيت أكرم رجل، فقلت: أرمي بهذه الكتب. فلمَّا أصبحت، قلت للغلام: أَسْرِج[1]، فأَسْرَج، فركبت ومررت عليه، وقلت له: إذا قدمت مكة، ومررت بذي طوى، فسل عن منزل محمَّد بن إدريس الشَّافعي. فقال لي الرَّجل: أمولى لأبيك أنا؟! قلت: لا. قال: فهل كانت لك عندي نعمة؟! فقلت: لا. فقال: أين ما تكلَّفت لك البارحة؟ قلت: وما هو؟ قال: اشتريت لك طعامًا بدرهمين، وإدامًا بكذا، وعِطْرًا بثلاثة دراهم، وعَلَفًا لدابَّتك بدرهمين، وكِرَاء الفِراش، واللِّحاف درهمان. قال: قلت: يا غلام أعطه، فهل بقي من شيء؟ قال: كِرَاء المنزل؛ فإنِّي وسَّعت عليك، وضيَّقت على نفسي. قال الشَّافعي: فغَبِطت نفسي بتلك الكتب، فقلت له بعد ذلك: هل بقي من شيء؟ قال: امض، أخزاك الله، فما رأيت قطُّ شرًّا منك)[2].

- و(كان الشَّافعي ومحمد بن الحسن -رحمهما الله تعالى- في المسجد الحرام، فدخل رجل، فقال محمَّد بن الحسن: أتفرَّس أنَّه نجَّار، وقال الشَّافعي: أتفرَّس أنه حدَّاد. فسألاه، فقال: كنت قبل هذا حدَّادًا، والساعة أُنَجِّر)[3].

---

(١) أَسْرَج: السراج أوقده، وَالشَّيْء حسنه وزينه، وَالْفرس شدَّ عَلَيْهِ السرج. ((المعجم الوسيط)) (١/٤٢٥).

(٢) ((آداب الشافعي ومناقبه)) لأبي حاتم الرَّازي (٩٦ – ٩٧).

(٣) ((الرسالة القشيرية)) للقشيري (٢/٣٨٧).

فِرَاسَة إبراهيم الخواص:

- قال إبراهِيم الخَوَّاص: (كنت في الجَامِع، فأقبل شابٌّ طيِّب الرَّائحة، حَسن الوَجْه، حَسن الحُرْمَة، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنَّه يَهُوديٌّ. فكلُّهم كِرَه ذلك، فخرجت، وخرج الشَّاب، ثمَّ رجع إليهم، فقال: إيش قال الشَّيخ؟ فاحتشموه، فألحَّ عليهم، فقالوا: قال: إنَّك يَهُودِيٌّ. فجاء فأكبَّ على يدي، فأَسْلَم، فقلت: ما السَّبَب؟ فقال: نَجِد في كتَابنَا أنَّ الصِّدِّيق لا تخطئ فِرَاسَته. فقلت: أمتحن المسلمين، فتأمَّلتهم، فقلت: إنْ كان فيهم صدِّيق، ففي هذه الطَّائفة، فلَبِست عليكم، فلمَّا اطَّلع هذا الشَّيخ عليَّ، وتفرَّسني، علمت أنَّه صدِّيق[1]).

- **نماذج من العلماء المعاصرين:**

فِرَاسَة الشَّيخ عبد العزيز بن باز:

- كان الشَّيخ عبد العزيز صاحب بصيرة نافذة، وفِرَاسَة حادَّة، يعرف ذلك جيِّدًا من عاشره وخالطه، وأخذ العلم على يديه. وممَّا يؤكِّد على فِرَاسَته، أنَّه يعرف الرِّجال وينزلهم منازلهم، فيعرف الجادَّ منهم في هدفه ومقصده من الدُّعاة وطلبة العلم، فيكرمهم أشدَّ الإكرام، ويقدِّمهم على من سواهم، ويخصُّهم بمزيد من التَّقدير، ويسأل عنهم وعن أحوالهم دائمًا، وله فِرَاسَة في معرفة رؤساءِ القبائل، والتَّفريق بين صالحهم وطالحهم، وله فِرَاسَة -أيضًا- في ما يعرض عليه من المسائل العويصة، والمشكلات العلميَّة؛ فتجده فيها متأمِّلًا

---

(١) ((الروح)) لابن القيِّم (٢٣٩-٢٤٠).

متمعِّنًا لها، تُقْرأ عليه عدَّة مرَّات، حتى يفكَّ عقدتها، ويحلَّ مشكِلَها، وله فِرَاسَة -أيضًا- في ما يتعلق بالإجابة عن أسئلة المستفتين، فهو دائمًا يرى الإيجاز ووضوح العبارة، ووصول المقصد، إن كان المستفتي عاميًّا من أهل البادية، وإن كان المستفتي طالب علم حريص على التَّرْجيح في المسألة، أطال النَّفَس في جوابه مع التَّعليلات وذِكْر أقوال أهل العلم، وتقديم الأرجح منها، وبيان الصَّواب بعبارات جامعة مانعة[١].

الفِرَاسَة في الأمثال والحِكَم:

١- من لم ينْتَفع بظنِّه، لم ينْتَفع بيقينه. يُضْرب في حَمْد الفِرَاسَة[٢].

٢- وقال محمَّد بن حرب: (صواب الظَّنِّ، الباب الأكبر من الفِرَاسَة)[٣].

٣- وقالوا: ولا بدَّ في باب البصر بجواهر الرِّجال من صِدْق الحسِّ، ومن صحَّة الفِرَاسَة، ومن الاستدلال في البعض على الكلِّ، كما استدلَّت بنت شُعيب- صلوات الله عليه- حين قضت لموسى -عليه السَّلام- بالأمانة والقوَّة، وهما الركنان اللَّذان تُبنى عليهما الوكالة[٤].

٤- و(كان ابن الزُّبير يقول: لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه.

٥- ويقال: من لم تعرفك غائبًا أذناه، لم تعرفك شاهدًا عيناه.

٦- وقيل: كما أنَّ الأبصار تنطبع فيها المشاهدات إذا سَلِمَت من صدأ

(١) موقع الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرَّسمي.
(٢) ((المستقصى في أمثال العرب)) للزَّمخشري (٢/٣٦٠).
(٣) ((البرصان والعرجان والعميان والحولان)) للجاحظ (ص ٣٢).
(٤) ((الرسائل الأدبية)) للجاحظ (ص ٢٣٢).

الآفات، فكذلك العقول مَرَايَا تنطبع فيها الغائبات، إذا سَلِمت من صدأ الشَّهوات)[١].

٧- (وأشار ابن عبَّاس على عليٍّ -رضي الله عنهم- بشيء، فلم يعمل به، ثمَّ ندم، فقال: ويح ابن عبَّاس، كأنَّما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق.

٨- يقال: ألْمَعِيَّته ألْمَعِيَّة[٢] ابن عبَّاس، وفراسته فِرَاسَة إياس)[٣].

٩- ويقال: فلان جاسوس القلوب. إذا كان حاذق[٤] الفِرَاسَة، وإنَّ له نظرة تهتك حجب الضَّمير، وتصيب مقاتل الغيب، وتنكشف لها مغيَّبات الصُّدور، ويقال: هذه فِرَاسَة ذات بصيرة. أي: صادقة[٥].

الفِرَاسَة في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

ألا إنَّ عين المرء عنوان قلبه ... تخبِّر عن أسراره، شاء أم أبى[٦]

وقال ابن الرُّومي:

وخبيءُ الفؤادِ يعلمُه العا ... قلُ قبلَ السَّماع بالإيماءِ

وظنونُ الذكيِّ أنفذُ في الحقِّ ... سهامًا من رُؤيَةِ الأغبياءِ[٧]

---

(١) ((روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار)) للأماسي (ص ٩٨).

(٢) ألمعية: مصدر صناعي من ألْمَعُ: ذكاء مُفرط ونجابة. ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢٠٣٧/٣).

(٣) ((روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار)) للأماسي (ص ٩٩).

(٤) الحاذق: هو الماهر، والحذاقة: المهارة في كل عمل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٠/١٠).

(٥) ((نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد)) (٢٠٧/٢) .

(٦) ((روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار)) للأماسي (ص ٩٩).

(٧) ((ديوان ابن الرومي)) (٦٠/١)، ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (١٨٠/١).

وقال آخر:

لا تسألِ المرءَ عن خلائقِه في وجهِه شاهدٌ مِن الخبرِ[١]

وقال البحتري:

وإذا صحَّت الرويَّة يومًا فسواء ظنُّ امرئٍ وعيانُه[٢]

ومن الفِرَاسَة قول عمرو بن مرَّة العبدي:

إذا ما الظَّنُّ أكذبَ في أُناسٍ رميتُ بصدقِه سترَ الغيوبِ[٣]

وقال الشَّاعر:

وشاعت الحِكْمةُ عن لقمان وهكذا الخطبةُ عن سَحْبَان

واشتهرت فِرَاسَةُ الأفراس عن عامرٍ والحِذْقُ عن إياس[٤]

وقال آخر:

وإذا اعتراك الوهمُ في حالِ امرئٍ فأردتَ تعرفُ خيرَه من شرِّه

فاسألْ ضميرَك عن ضميرِ فؤادِه يُنْبِيك سرُّك بالذي في سرِّه[٥]



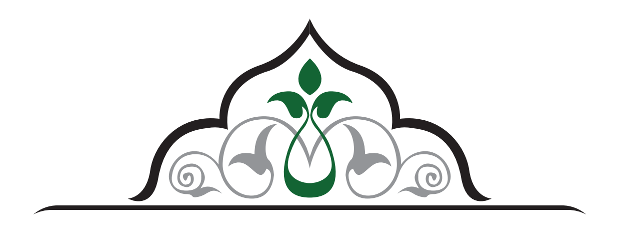
(١) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (١/١٨٠).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (٨/٢٠).

(٤) ((مجمع البحرين)) لليازجي (ص ٩٤).

(٥) ((فيض القدير)) للمناوي (١/٢٤٨).



الفَصَاحَة



الفَصَاحة

معنى الفَصَاحة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الفَصَاحة لغةً:

الفَصَاحة هي الإِبَانَة والظُّهور، يقال: أفْصَحَ الصُّبح، إذا بدا ضوؤه. وكلُّ وَاضِحٍ: مُفْصِحٌ. ورجلٌ فَصِيح وكلامٌ فَصِيح، أي: بَلِيغ. ولِسَانٌ فَصِيح، أي: طَلْقٌ. ويقال: كلُّ ناطقٍ فَصِيح، وما لا ينطِقُ فهو أَعْجَمُ. وفَصُحَ الْأَعْجَم، تكلَّم بالعَرَبيَّة وفُهِم عنه. وأفْصَحَ، تكلَّم بالفَصَاحة. وفَصُحَ الرَّجل وتَفَصَّحَ: إذا كَانَ عَرَبِيَّ اللِّسان فازداد فَصَاحة[١]. وأصل هذه المادة يدلُّ على خُلوصٍ في شيءٍ، ونقاء من الشَّوب[٢].

• معنى الفَصَاحة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: (وهي -أي الفَصَاحة- في المفرد: خُلُوصه من تَنَافر الحروف والغَرَابة ومُخَالفة القِياس، وفي الكلام: خُلُوصه من ضعف التَّأليف، وتَنَافُر الكلمات مع فَصَاحَتها،... وفي المتكلِّم: مَلَكَةٌ يقتدر بها على التَّعبير عن المقصود بلفظ فَصِيح)[٣].

وقال الرَّازي: (الفَصَاحة خُلُوص الكلام من التَّعقيد)[٤].

وقيل: (الفَصَاحة عبارة عن الألفاظ البيِّنة الظَّاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأْنُوسة الاستعمال بين الكُتَّاب والشُّعراء لمكان حُسْنِها... وفَصَاحة الكلام:

---

(١) انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٤٠)، و((الصحاح)) للجوهري (١/٣٩١)، و((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/١٦٤).

(٢) انظر: ((معجم مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/٥٠٦).

(٣) ((التعريفات)) (ص ١٦٧).

(٤) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٥٠).

سلامته بعد فَصَاحة مفُرداته ممَّا يُبهم معناه، ويَحُول دون المراد منه)[١].

اختلاف النَّاس في معنى الفَصَاحة:

(وقد اختلف النَّاس في الفَصَاحة: فمنهم من قال: أنَّها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال: إنَّها لا تَخُصُّ الألفاظ وحدها... والذي أراه في ذلك أنَّ الفَصِيح هو اللَّفظ الحَسَن، المألوف في الاستعمال، بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحًا حسنًا)[٢].

الفرق بين الفَصَاحة والبلاغة والبَيَان والبَرَاعة:

قال الهاشمي: (يرى الإمام عبد القاهر الجرجاني، وجمع من المتقدِّمين، أنَّ الفَصَاحة والبَلَاغة والبَيَان والبَرَاعة ألفاظ مترادفة، لا تتَّصف بها المفردات، وإنَّما يُوصَف بها الكلام بعد تحرِّي معاني النَّحو فيما بين الكَلِم حَسَب الأغراض التي يُصَاغ لها.

وقال أبو هلال العسكري في كتاب (الصناعتين): (الفَصَاحة والبَلَاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإنْ اختلف أصلهما؛ لأنَّ كلَّ واحد منهما إنَّما هو الإبانة عن المعنى، والإظهار له. وقال الرَّازي في (نهاية الإيجاز): وأكثر البلغاء لا يكادون يفرِّقون بين الفَصَاحة والبَلَاغة. وقال الجوهري في كتابه (الصحاح): الفَصَاحة هي البَلَاغة)[٣].

وأمَّا من يذهب إلى التفريق بين الفصاحة والبلاغة فيرى (أنَّ الفَصَاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبَلَاغة لا تكون إلَّا وصفًا للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة -لا تدل على معنى يَفْضُل عن مثلها- بَلِيغة، وإن

---

(١) ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (١٩-٣٢).

(٢) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٥١).

(٣) ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص ١٧).

قيل فيها أنَّها فَصِيحة. وكلُّ كلام بَلِيغ فَصِيح، وليس كلُّ فَصِيح بَلِيغًا، كالذي يقع فيه الإسْهَاب في غير موضعه)[1].

كذلك من وجوه التفريق بينهما عند أصحاب هذا القول أنَّ (البَلَاغة هي: أن يبلغ المتكلِّم بعبارته كُنْه مراده، مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة من غير إملال. والفَصَاحة خُلُوص الكلام من التَّعقيد. وقيل: البَلَاغة في المعاني، والفَصَاحة في الألفاظ، فيقال: لفظ فَصِيح ومعنى بَلِيغ. والفَصَاحة خاصَّة تقع في المفرد، يقال: كلمة فَصِيحة، ولا يقال: كلمة بَلِيغة، وأنت تريد المفرد، فإنَّه يقال للقصيدة كلمة، كما قالوا: كلمة لبيد. ففَصَاحة المفرد خُلُوصه من تنَافر الحروف، والفَصَاحة أعمُّ من البَلَاغة؛ لأنَّ الفَصَاحة تكون صِفةٌ للكلمة والكلام، يقال: كلمة فَصِيحة، وكلام فَصِيح. والبَلَاغة لا يُوصف بها إلَّا الكلام، فيقال: كلام بَلِيغ، ولا يقال: كلمة بَلِيغة. واشتركا في وصف المتكلِّم بهما، فيقال: متكلِّم فَصِيح بَلِيغ)[2].

الفَصَاحة في الكتاب والسنة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرَّحمن: ١-٤].

قال الزَّمخشري: (ثمَّ ذكر ما تميَّز به من سائر الحيوان من البَيَان، وهو المنطق الفَصِيح المعِرب عمَّا في الضمير)[3].

(١) ((سر الفصاحة)) للخفاجي (ص ٥٩).
(٢) ((خزانة الأدب وغاية الأرب)) لابن حجَّة الحموي (٢/٤١٤).
(٣) ((الكشاف)) للزمخشري (٤/٤٤٣).

وقال ابن عطية: (البَيان النُّطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول. قاله ابن زيد والجمهور، وذلك هو الذي فضَّل الإنسان من سائر الحيوان)(١).

وقال السمرقندي: (عَلَّمَهُ البَيَان يعني: الكلام. ويقال: يعني: الفَصَاحة. ويقال: الفهم)(٢).

- وقال الله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السَّلام: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٤-٣٥].

قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾. أي: (أحسن بيانًا عما يريد أن يبينه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ يقول: عونا ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾: أي يبين لهم عني ما أخاطبهم به)(٣).

- وقال أيضًا على لسانه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

قال الشَّافعي: (الفَصَاحة إذا استعملتها في الطَّاعة أشفى وأكفى في البَيَان، وأبلغ في الإعذار، لذلك دعا موسى ربَّه، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ لما عَلِم أنَّ الفَصَاحة أبلغُ في البَيَان)(٤).

وقال ابن المظفَّر الرَّازي: (طلب زيادة الفَصَاحة في تبليغ الرسالة)(٥).

(١) ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) لابن عطية (٥/٢٢٣).
(٢) ((تفسير بحر العلوم)) للسمرقندي (٣/ ٣٧٨).
(٣) ((جامع البيان)) للطبري (١٨/ ٢٤٩).
(٤) ((تفسير الإمام الشافعي)) (٣/ ١٠٧٠).
(٥) ((مباحث التفسير)) (ص ٢١٣).

وقال السعدي: (أنَّ الفَصَاحة والبَيَان مما يعين على التَّعليم، وعلى إقامة الدَّعوة، لهذا طَلَب موسى من ربِّه أن يحلَّ عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأنَّ اللُّثْغة[١] لا عيب فيها إذا حصل الفهم للكلام...)[٢].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبَويَّة

- عن عبد الله بن عمر، قال: قدم رجلان من المشْرق فخطبا فعجب النَّاس لبيَانِهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ من البَيَان لسِحْرًا، أو: إنَّ بعْضَ البَيَان لسِحْرٌ)[٣].

والمراد بالبيان (اجتماع الفَصَاحة والبَلَاغة وذكاء القلب مع اللِّسان، وإنَّما شُبِّه بالسِّحر لحِدَّة عمله في سامعه، وسرعة قبول القلب له، يُضْرب في استحسان المنطق، وإيراد الحجَّة البالغة)[٤].

ونقل أبو هلال العسكري عن عسل بن ذكوان، أنَّه قال: (قال أبو عبد الرَّحمن: أَذَمَّ البَيَان أمْ مَدَحه؟ فما أبان أحد بشيء، فقال: ذمَّه؛ لأن السِّحر تمويه، فقال: إنَّ من البَيَان ما يُمَوِّه الباطل، حتى يُشَبِّهه بالحقِّ، وقال غيره: بل مَدَحه؛ لأنَّ البَيَان من الفهم والذَّكاء.

قال أبو هلال: الصَّحيح أنَّه مَدَحه، وتسميته إياه سِحْرًا، إنَّما هو على جهة التَّعجب منه، لأنَّه لما ذمَّ عمرو الزبرقان، ومدحه في حالة واحدة، وصدق في مدحه وذمِّه فيما ذَكَر، عجب النَّبي صلى الله عليه وسلم كما يعجب من

(١) اللثغة: أن تعدل الحرف إلى حرف غيره. والألثغ: الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء. ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/٤٤٨).

(٢) ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧٦٧).

(٤) ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (١٣/ ٢٤٠).

السِّحر، فسمَّاه سحرًا من هذا الوجه)[١].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أعطيت جوامع الكلم))[٢].

فوائد الفَصَاحة المحمودة:

١- الفصاحة من وسائل تبليغ الدين:

الفصاحة وسيلة مهمة من وسائل تبليغ دين الله تبارك وتعالى، لذا طلب موسى عليه السَّلام من ربِّه أن يمدَّه بأخيه هارون عليه السَّلام وعلَّل ذلك بكونه أفصح منه لسانًا. فصاحب اللِّسان الفَصِيح يقدر على إبلاغ حجَّته للنَّاس، وإيصال الحقِّ لهم.

٢- القدرة على الدِّفاع عن الحقوق:

الفَصِيح أقدر وأجدر في الدِّفاع عن حقِّه، وانتزاعه من المعتدين، وذلك إذا كان الميدان ميدان حِجَاج وكلام. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد ذمَّ من كانت بلاغته وبيانه سببًا في أن يقضى له بما ليس له بحق، فلا شك أنَّ هذه الفصاحة والبلاغة إذا أدت إلى الوصول للحق تكون حينئذ محمودة، وإلا كانت مذمومة.

قال المناوي في شرح حديث: ((ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض))[٣]، قال: (أَلْحَن- بفتح الحاء-: الفَطانَة، أي: أبْلغ وأفْصح، وأعلم في تقرير مقصوده، وأفْطن ببيان دليله، وأقدر على البَرْهنة على دفع دعوى

(١) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (١/ ١٤).
(٢) رواه مسلم (٥٢٣).
(٣) البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

خصمه، بحيث يُظنُّ أنَّ الحقَّ معه)[١].

٣- الفصاحة من وسائل التأثير في المستمع:

ومن فوائد الفَصَاحة أنَّها تدعو السَّامع للعمل بالكلام الذي يسمعه، قال ابن عثيمين: (أنَّه ينبغي صياغة الكلام بما يحمل على العمل به، لأنَّ من الفَصَاحة، صياغة الكلام بما يحمل على العمل به)[٢].

ذو الفَصَاحة يستطيع تمثيل المسلمين في المحافل والاجتماعات دون خوف أو خجل، ويستطيع أن يتكلَّم بما يُمْلِيه عليه دينه. ويكون صاحب كلمة مسموعة، تهفو إليه الأرواح، وتَشْرَئِبُّ إليه الأعناق[٣]، وتتطلع إليه قلوب المؤمنين إذا تكلَّم أو خطب، فيكون حاله كما قال سحبان:

لقد علم الحي اليمانون أنَّني إذا قلت أمَّا بعد أنِّي خطيبها

٤- الفصاحة وسيلة لمعرفة إعجاز القرآن:

يقول أبو هلال العسكري: (أنَّ أحقَّ العلوم بالتعلُّم، وأولاها بالتحفُّظ- بعد المعرفة بالله جلَّ ثناؤه- علم البَلَاغة، ومعرفة الفَصَاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى، النَّاطق بالحقِّ، الهادي إلى سبيل الرَّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحَّة النُّبوَّة، التي رفعت أعلام الحقِّ، وأقامت منار الدِّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حُجُب الشكِّ بيقينها. وقد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغفل علم البَلَاغة، وأخلَّ بمعرفة الفَصَاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حُسْن التأليف، وبراعة التَّركيب،

---

(١) ((فيض القدير)) (٢/٥٦٤).
(٢) ((شرح الأربعين النووية)) (ص ١٦٤).
(٣) تَشْرَئِبُّ: اشرأب ارتفع وعلا؛ وكل رافع رأسه: مشرئب. ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٩٣/١).

وما شَحَنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللَّطيف؛ وضمَّنَه من الحلاوة، وجلَّله من رَوْنَق الطَّلاوة، مع سهولة كَلِمِه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيَّرت عقولهم فيها...[1].

أقسام الفَصَاحة:

الفَصَاحة قسمان:

١- (راجعٌ على المعنى، وهو خُلُوص الكلام عن التَّعقيد... وهو أن يُعَثِّر صاحبه فكرَك في مُتَصَرَّفه، ويَشِيك طريقك على المعنى، ويُوعِر مذهبك نحوه، حتى يُقَسِّم فكرك، ويشعِّب ظنَّك على أن لا تدري من أين تتوصَّل، وبأيِّ طريق معناه يتحصَّل.

٢- وراجعٌ على اللَّفظ، وهو أن تكون الكلمة عربيَّة أصليَّة، وعلامة ذلك: أن تكون على أَلْسِنة الفُصَحاء من العرب -الموثوق بعربيَّتهم- أَدْور، واستعمالهم لها أكثر، لا ممَّا أحدثها المولدون، ولا ممَّا أخطأت فيه العامَّة، وأن تكون أَجْرَى على قوانين اللُّغة، وأن تكون سليمة عن التَّنافر)[2].

الوسائل المعينة على اكتساب الفَصَاحة:

١- الإكثار من قراءة القرآن وحفظه، فهو أفصح كلام وأكمله، ومِنْ أكثر من قراءة القرآن انطلق لسانه فَصَاحةً، واكتسى كلامه عذوبة، وتزيَّنت عباراته بالبَلَاغة.

٢- حِفْظ أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم والإكثار من قراءتها، فهو أفصح النَّاطقين بالضَّاد قاطبة.

---

(١) ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) (١-٢).

(٢) ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص ٤١٦).

٣- تعلُّم النَّحو وقواعد العربيَّة، والبعد عن اللَّحن في الكلام.

٤- تعلُّم علم البَلَاغة وقواعده من معان وبيان وبَدِيع، ومحاولة استخدامه أثناء الكتابة أو الكلام.

٥- مُجَالسة الفُصَحَاء ومُعَاشرتهم، وهذا من أفضل طرق اكتساب الفَصاحة والبَيان، فإنَّ الجليس يأخذ من أخلاق وطِبَاع جليسه حتى في كلامه.

٦- الإكثار من قراءة كتب الأدب ودواوين العربيَّة، والاهتمام بها، فإنَّ ذلك يعطي المرء مَلَكَة لغويَّة تُمَكِّنه من التَّحدُّث بطلاقة، والكلام بفَصاحة.

٧- محاولة انتقاء الكلام وتخيُّر محَاسنه عند الحديث، وتَجَنُّب المرْذُول منه والقبيح، الذي تَنْبُو عنه الأسماع، وتستقبحه النُّفوس والطبَّاع السَّليمة.

نماذج في الفصاحة:

- **نماذج من فصاحة النَّبي صلى الله عليه وسلم:**

قال السيوطي: (أفصحُ الخَلْق على الإطلاق سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيب ربِّ العالمين جلَّ وعلا)[١].

و(قال الخطابي: ... ومن فَصَاحَته أنَّه تكلَّم بألفاظ اقتضبها، لم تُسْمع من العرب قبله، ولم توجد في متقَدِّمِ كلامها، كقوله: مات حَتْفَ أنفه[٢]، وحَمِي الوَطِيس، ولا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين)[٣].

---

(١) ((المزهر في علوم اللغة وأنواعها)) (١/ ١٦٥).

(٢) مات حَتْفَ أنفه: إذا مات من غير قتل ولا ضرب. ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٦٦).

(٣) ((المزهر في علوم اللغة وأنواعها)) للسيوطي (١/ ١٦٥).

• نماذج من فصاحة الصَّحابة رضي الله عنهم:

فَصَاحة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

عن هشام بن عروة، قال عبيد الله، أظنُّه عن أبيه، قال: (لما وَلِيَ أبو بكر، خطب النَّاس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: أمَّا بعد، أيُّها النَّاس، قد وُلِّيت أمركم، ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن، وسنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم السُّنن فعَلَّمنا فعَلِمنا. اعلموا أنَّ أَكْيَس الكَيْس: التَّقوى، وأنَّ أَحْمَق الحُمْق: الفجور. وأنَّ أقواكم عندي الضَّعيف، حتى آخذ له بحقِّه، وأنَّ أضعفكم عندي القويُّ، حتى آخذ منه الحقَّ. أيُّها النَّاس، إنَّما أنا متَّبع ولست بمبتدع. فإنْ أحسنت فأعينوني، وإنْ زِغْتُ فقوِّموني)[1].

فَصَاحة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

خطب عمر رضي الله عنه فقال بعد ما حمد الله، وأثنى عليه، وصلَّى على النَّبي صلى الله عليه وسلم: (أيها النَّاس، إنَّ بعض الطَّمع فَقْر، وإنَّ بعض اليأس غِنى، وإنَّكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجَّلون في دار غرور، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، تُؤْخَذون بالوحي، فمن أَسَرَّ شيئًا، أُخِذ بسريرته، ومن أعلن شيئًا، أُخِذ بعلانيته، فأَظْهِروا لنا أَحْسَن أخلاقكم، والله أعلم بالسَّرائر، فإنَّه مَنْ أَظْهَر شيئًا، وزعم أنَّ سريرته حسنة، لم نصدِّقه، ومن أَظْهَر لنا علانية حسنة، ظننَّا به حسنًا، واعلموا أنَّ بعض الشُّح شُعبة من النِّفاق، فأنفقوا خيرًا لأنفسكم، ومن يُوق شحَّ نفسه،

---

(١) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (١٨٢/٣).

فأولئك هم المفلحون. أيُّها النَّاس، أطيبوا مثواكم، وأصلحوا أموركم، واتَّقوا الله ربَّكم، ولا تلبسوا نساءكم القَبَاطي[١]، فإنَّه إن لم يَشِفَّ فإنَّه يَصِف. أيُّها النَّاس، إنِّي لوددت أن أنجو كفافًا[٢]، لا لي ولا عليَّ، وإنِّي لأرجو إنْ عُمِّرت فيكم يسيرًا أو كثيرًا، أنْ أعمل بالحقِّ فيكم -إن شاء الله-، وألَّا يبقى أحد من المسلمين -وإن كان في بيته- إلَّا أتاه حقُّه ونصيبه من مال الله، ولا يعمل إليه نفسه، ولم ينصب إليه يومًا. وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله، ولَقَليل في رِفْق، خيرٌ من كثير في عُنْف، والقتل حَتْف من الحُتُوف، يصيب البرَّ والفاجر، والشَّهيد من احتسب نفسه. وإذا أراد أحدكم بعيرًا فليعمد إلى الطَّويل العظيم فليضربه بعصاه، فإنْ وجده حديد الفؤاد فليشتره)[٣].

فَصَاحة عائشة رضي الله عنها:

كانت عائشة رضي الله عنها على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة، فعن معاوية قال: (ما رأيت خطيبًا قطُّ أبلغ ولا أفصح من عائشة)[٤].

- وقال موسى بن طلحة: (ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة)[٥].

---

(١) القباطي جمع القبطي: وهو ثوب رقيق من كتان يعمل بمصر نسبة إلى القبط. ((شرح الزرقاني على موطأ مالك)) (٢/٤٨٩).

(٢) كفافًا: أي مكفوفا عني شرها وخيرها. ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/٢٠٧).

(٣) ذكر بعضه الوراق في ((أنساب الأشراف)) (٣/٤١٠).

(٤) رواه الطبراني (٢٣/١٨٣) (١٩٢٥٢). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩/٢٤٦): رجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه الترمذي (٣٨٨٤)، و أحمد في ((فضائل الصحابة)) (٢/٨٧٦)، رقم (١٦٤٦)، والطبراني (٢٣/١٨٢) (١٩٢٤٦)، والحاكم (٤/١٢).

قال الترمذي: ((حسن صحيح غريب))، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩/٢٤٦): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).

- وعن الأحنف بن قيس قال: (سمعت خطبة أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهم، والخلفاء هلم جرًّا إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها)[1].

- وحينما توفي أبوها قالت رضي الله عنها: (رحمك الله يا أبة! لقد قمتَ بالدين حين وهى شُعبه، وتفاقم صَدْعه، ورَحبت جوانبه، وبَغضتَ ما أصغوا إليه، وشمَّرتَ فيما وَنَوا عنه، واستخففتَ من دنياك ما استوطنوا، وصغَّرتَ منها ما عظَّموا، ولم تهضم دينك، ولم تنسَ غدك؛ ففاز عند المساهمة قَدَحك، وخفَّ مما استوزروا ظهرك، حتى قرَّرت الرؤوس على كواهلها، وحَقَنت الدماء في أُهُبها - يعني: في الأجساد -؛ فنضَّر الله وجهك يا أبة! فلقد كنت للدنيا مُذِلًّا بإدبارك عنها، وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها، ولكأنَّ أجلَّ الرزايا بعد رسول الله صلَّى الله عليه وسلم رُزْؤك[2]، وأكبر المصائب فَقدك؛ فعليك سلام الله ورحمته، غير قاليةٍ لحياتك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك)[3].

- **نماذج أخرى في الفصاحة:**

- قال الرَّبيع بن سليمان: (لو رأيت الشَّافعي وحُسْن بيانه وفَصَاحَته

---

(١) رواه الحاكم (١٢/٤) واللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة)) (١٥٢٢/٨)، رقم (٢٧٦٧)، والأثر في سنده أحمد بن سلمان الفقيه، وعلي بن عاصم، وهما صدوقان، والأخير ضعفه بعضهم. انظر: ((ميزان الاعتدال)) للذهبي (١٠١/١)، و((الكاشف)) (٤٢/٢)، و((تقريب التهذيب)) (ص ٤٠٣).

(٢) الرزء: المصيبة. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢١٨/٢).

(٣) رواه أبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (٩٤/٦)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٤٣/٣٠)، وأورده محب الدين الطبري في ((الرياض النضرة في مناقب العشرة)) (٢٦٥/١).

لعجبتَ، ولو أنَّه ألَّف الكتب على عربيَّته التي يتكلم بها في المناظرة، لم نقدر على كتبه لفَصَاحَته وغرائب ألفاظه، غير أنَّه في تأليفه يوضِّح للعوام)[1].

- دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء، وعنده كثيرٌ من أهل العلم، فأحبَّ الحسن أن يتكلَّم، فزجره، وقال: يا صبي تتكلَّم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت صبيًّا، فلست بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السَّلام حين قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، ثمَّ قال: ألم تر أنَّ الله فهَّم الحُكْم سليمان، ولو كان الأمر بالكِبَر لكان داود أولى[2].

- وحُكي: أنَّ البادية قحطت في أيام هشام، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلِّموه، وكان فيهم دِرْواس بن حبيب، وهو ابن ستٍّ عشرة سنة، له ذُؤابة، وعليه شَمْلَتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلَّا دخل، حتى الصبيان، فوثب دِرْواس حتى وقف بين يديه مُطْرِقًا، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ للكلام نشْرًا وطَيًّا، وإنَّه لا يعرف ما في طيِّه إلا بنشْره، فإنْ أذن لي أمير المؤمنين أنْ أنشُره نشَرته. فأعجبه كلامه، وقال له: انشُره لله درُّك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشَّحم، وسنة أكلت اللَّحم، وسنة دقَّت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإنْ كانت لله ففرِّقوها على عباده، وإنْ كانت لهم، فَعَلام تحبسونها عنهم، وإنْ

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٠/ ٧٤).
(٢) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٥٦).

كانت لكم، فتصدَّقوا بها عليهم، فإنَّ الله يجزي المتَصدِّقين. فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثَّلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصَّة نفسي دون عامَّة المسلمين. فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم(١).

- قيل للرَّشيد: إنَّ عبد الملك بن صالح يعدُّ كلامه، ويفكر فيه، فلذلك بانت بلاغته، فأنكر ذلك الرَّشيد، وقال هو طَبعٌ فيه، ثمَّ أمسك، حتى جاء يومًا، ودخل عبدُ الملك، فقال للفضل بن الرَّبيع: إذا قَرُب من سريري، فقل له: وُلِد لأمير المؤمنين في هذه اللَّيلة ابنٌ، ومات له ابنٌ. فقال له الفضل ذلك، فدنا عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، سرَّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرَّك، وجعلها واحدة بواحدةٍ، ثواب الشَّاكرين، وأجر الصَّابرين. فلما خرج، قال الرَّشيد: أهذا الذي زعموا أنه يتصنع للكلام، ما رأى النَّاس أطبع من عبد الملك في الفَصَاحة قطُّ(٢).

أقوالٌ وأمثالٌ وحِكَمٌ في الفَصَاحة:

- قال محمَّد بن سيرين: (ما رأيت على رجل أجمل من فَصَاحة)(٣).

- وقال العاص بن عدي: (الشَّجَاعَة قلب رَكِين، والفَصَاحة لسان رَزِين)(٤).

- وقال يحي بن خالد: (ما رأيت رجلًا قطُّ إلا هبته حتى يتكلَّم، فإنْ كان

---

(١) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٥٦).
(٢) ((ديوان المعاني)) لأبي هلال العسكري (١٧٣/٢).
(٣) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٣٠٥/٢).
(٤) ((الصناعتين: الكتابة والشِّعر)) لأبي هلال العسكري (ص ٩).

فَصِيحًا، عَظُم في صدري، وإنْ قصَّر سقط من عيني)[١].

- وقيل: (من عُرف بفَصَاحة اللِّسان، لحظته العيون بالوَقَار)[٢].

- وقال الخليفة المقتدي بأمر الله: (وَعْدُ الكُرَماء ألزم من ديون الغُرَماء، الألسن الفَصِيحة أنفع من الوجوه الصَّبيحة، والضَّمائر الصَّحيحة أَبْلَغ من الألسن الفَصِيحة. حقُّ الرَّعيَّة لازم للرُّعاة، ويقبح بالوُلاة الإقبال على السُّعاة)[٣].

- وقال خالد بن صفوان بن الأَهْتَم في فَصَاحة الكلام: (أحسن الكلام ما لم يكن بالبدويِّ المغْرِب، ولا بالقُرَوِيِّ المخَدَّجِ، ولكن ما شرُفت مَنَابِته، وطَرُفت معانيه، ولذَّ على الأفواه، وحَسُن في الأسماع، وازداد حسنًا على ممرِّ السِّنين، تُحَنْجِنه الدَّوَاة، وتَقْتَنيه السَّرَاة)[٤].

الفَصَاحة في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبقَ إلَّا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ[٥]

ويقول شاعر آخر:

طويلُ القَنَاةِ قصيرُ العدات ... ذميمُ العداة حميدُ الشِّيم[٦]

فَصِيحُ اللِّسانِ بديعُ البنانِ ... رفيعُ السنانِ سريعُ القلم

(١) ((الصناعتين: الكتابة والشِّعر)) لأبي هلال العسكري (ص ٩).

(٢) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٥١).

(٣) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٨/ ٣٢٣).

(٤) ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٢٦).

(٥) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٥١).

(٦) الشيمة: الخُلُق، جمع شيم. ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥٠٤).

يكيلُ الرِّجالَ بأقدارِها ويرعَى البيوتاتِ رعْيَ الحرم[١]

وقال إبراهيم بن العبَّاس الصولي:

إذا ما الفكرُ أضمرَ حسنَ لفظٍ وأدَّاهُ الضميرُ إلى العيانِ
ووشَّاهُ ونمنمَهُ[٢] مُسَدٌّ فَصِيحٌ بالمقالِ وباللِّسانِ
رأيتَ حُلى البَيان منوَّراتٍ تضاحكُ بينها صُورَ المعاني[٣]

وقال ابن عبد البر: ما زالت العرب تمدح البَيان والفَصَاحة في أشعارها وأخبارها، فمِنْ ذلك قول حسَّان بن ثابت في ابن عبَّاس:

إذ قال لم يتركْ مقالًا لقائل بمنتظمات لا ترَى بينها فصلًا
كفَى وشفَى ما في النُّفوس فلم يدعْ لذي إرْبَة في القول جدًّا ولا هزلًا[٤]

ولعبد الله بن المبارك في مالك بن أنس:

صَموتٌ إذا ما الصَّمت زيَّن أهله وفتَّاقُ[٥] أبكارِ الكلام المختَّمِ[٦]
وَعَى ما وَعَى القرآن من كلِّ حِكْمة ونِيطَت لها الآداب باللَّحم والدَّمِ[٧]

قالت الخنساء:

كأنَّ كلامَ النَّاس جُمِّع حولَه فأطلق في إحسانه يتخيَّرُ[٨]

---

(١) ((يتيمة الدهر)) للثعالبي (٤/٢٥٩).
(٢) نمنمه: زخرفه ونقشه. ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٤/١١).
(٣) ((زهر الآداب وثمر الألباب)) لأبي إسحاق الحصري (٢/٥٦٢).
(٤) ((الأوراق قسم أخبار الشعراء)) للصولي (٢/٧٨).
(٥) فتَّاق: فتقت الشيء فتقا: شققته. وفَتَّقْتُهُ تَفْتيقًا مثله. ((الصحاح)) للجوهري (٤/١٥٣٩).
(٦) المختوم ضد المفتوح. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٨٨).
(٧) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٢/٨٨).
(٨) ((محاضرات الأدباء)) للراغب (١/٨٣).

وقال بكر بن سوادة في خالد بن صفوان:

عليمٌ بتنزيلِ الكلامِ مُلَقَّن ذَكُورٌ لما سدَّاه أولَ أولا
ترَى خطباءَ النَّاس يومَ ارتجالِه كأنَّهم الكِروان[1] عاين أَجْدَلَا[2]



(١) قال الجاحظ: (الكِروان: جمع كروان، وهو ذكر الحبارى) ((البيان والتبيين)) (١/٢٧٥).
وقال ابن منظور: (الكروان، بالتحريك: طائر ويدعى الحجل والقبج، وجمعه كِروان). ((لسان العرب)) (١٥/٢٢٠).

(٢) ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/٥٥٩). الأجدل: الصقر. ((الصحاح)) للجوهري (١٦٥٣/٤)



الفِطْنَة والذَّكَاء



الفِطْنَة والذَّكاء

معنى الفِطْنَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الفِطْنَة لغةً:

أصل هذه المادة يدلُّ على ذكاءٍ وعلم بشيء. والفِطْنَة والفَطَانَة كالفهم، وهي ضِدُّ الغَباوة، ورجل فَطِنٌ: بَيِّنُ الفِطْنَة، وفَطُنَ -بالضم- إذا صارت الفَطَانَة له سجيَّة، ورجل فَطِنٌ بخصومته، عالم بوجوهها حاذق، ويتعدَّى بالتَّضعيف، فيقال: فَطَّنتُهُ للأمر[١].

• معنى الفِطْنَة اصطلاحًا:

قال العسكري: (الفِطْنَة: العلم بالشَّيء من وجه غامض)[٢].

وقال الرَّاغب: (الفِطْنَة: سرعة إدراك ما يُقْصد إشكاله)[٣].

وقال الكفوي: (الفِطْنَة: التَّنَبُّه للشَّيء الذي يُقْصد معرفته)[٤].

معنى الذَّكاء لغةً واصطلاحًا:

• معنى الذَّكاء لغةً:

الذَّكاء: سُرْعة الفِطْنَة، مِنْ قولك: قلب ذَكِي وصَبِي ذكِي، إذا كان سريعَ الفِطْنَة، وقد ذَكِيَ -بالكسر- يَذْكَى ذَكًا. وَيُقَال: ذَكا يَذْكُو ذَكاءً، وذَكُوَ فهو ذَكِيٌّ[٥].

---

(١) انظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/٥١٠). و((الصِّحاح)) للجوهري (٨/٣٥). و((لسان العرب)) لابن منظور(١٣/٣٢٣). و((المصباح المنير)) للفيومي (٢/٤٧٧).

(٢) ((الفروق اللغوية)) (١/٨٥).

(٣) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ١٤٣).

(٤) ((الكليات)) (١/٤٥٦)، ومعه ((التَّعريفات)) للجرجاني (ص١٤٣).

(٥) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/٢٨٧).

- **معنى الذَّكاء اصطلاحًا:**

قال المناوي: (الذَّكاء: سرعة الإدراك، وحِدَّة الفهم[١])[٢].

الفرق بين الفِطْنَة والذَّكاء:

قال العسكري: (الذَّكاء تمام الفِطْنَة، من قولك: ذكَت النَّار إذا تمَّ اشتعالها، وسُمِّيت الشَّمس ذكاءً؛ لتمام نورها. والتَّذكية: تمام الذَّبح، ففي الذَّكاء معنى زائدٌ على الفِطْنَة)[٣].

قال الشَّاعر في الذَّكاء -الذي معناه تَمام الفِطْنَة-:

شهم الفؤادِ ذكاؤه ما مِثْلُهُ   عند العزيمةِ في الأَنامِ ذَكاءُ[٤]

الفرق بين الفِطْنَة والصِّفات الأخرى:

- **الفرق بين الفِطْنَة، والعِلم، والحِذْق، والكَيْس:**

قال العسكري: (الفِطْنَة: هي التَّنبُّه على المعنى، وضدُّها: الغفلة، ورجل مغفَّلٌ: لا فِطْنَة له. وهي الفِطْنَة والفَطَانَة، والطَّبانة مثلها، ورجل طَبِنٌ: فَطِنٌ. ويجوز أن يقال: إنَّ الفِطْنَة ابتداء المعْرِفة من وجه غامض، فكلُّ فِطْنَة علمٌ، وليس كلُّ علمٍ فِطْنَةً، ولما كانت الفِطْنَة عِلْمًا بالشَّيء من وجه غامض، لم يَجُز أن يقال: الإنسان فَطَن بوجود نفسه، وبأنَّ السَّماء فوقه)[٥].

---

(١) ((التوقيف على مهمات التعريف)) (ص ١٧١).

(٢) وقال الكفوي: (الذَّكاء: شدَّة قوَّة النَّفس، مُعدَّةٌ لاكتساب الآراء بحسب اللُّغة.

وفي الاصطلاح: قد يُستعمل في الفَطَانَة، يقال: رجل ذَكِيٌّ، وفلان من الأذْكِياء، يريدون به المبالغة في فَطَانَته، كقولهم: فلان شعلة نار) ((الكليات)) (١/٤٥٦).

(٣) ((الفروق اللغوية)) (١/٨٥).

(٤) ((الأذكياء)) لابن الجوزي (ص ١٢).

(٥) ((الفروق اللغوية)) (١/٨٥).

وأما (الكَيْس: هو سرعة الحركة في الأمور، والأخذ في ما يعني منها دون ما لا يعني، يقال: غلام كَيِّسٌ، إذا كان يُسْرِع الأَخْذ في ما يؤمر به، ويترك الفُضُول، وليس هو من قبيل العلوم. والحِذْق أصله: حِدَّة القَطع، يقال: حَذَقَه، إذا قطعه. وقولهم: حَذَقَ الصَّبيُّ القرآن، معناه: أنَّه بلغ آخره، وقطع تعلُّمه، وتناهى في حفظه. وكلُّ حَاذِق بصناعة، فهو الذي تناهى فيها، وقطع تعلُّمها، فلمَّا كان الله تعالى لا توصف معلوماته بالانقطاع، لم يَجُز أن يُوصف بالحِذْق[1].

- **الفرق بين الفِطْنَة والنَّفاذ:**

قال العسكري: (أنَّ النَّفَاذ أصله في الذَّهاب، يقال: نَفَذ السَّهم، إذا ذَهَب في الرَّمِيَّة، ويُسمَّى الإنسان نافذًا، إذا كان فِكْره يبلغ حيث لا يبلغ فِكْر البَلِيد، ففي النَّفَاذ معنى زائد على الفِطْنَة، ولا يكاد الرَّجل يُسمَّى نافذًا، إلا إذا كَثُرت فِطْنَته للأشياء، ويكون خرَّاجًا ولَّاجًا في الأمور)[2].

الفِطْنَة في الكتاب والسُّنَّة:

أولًا: في القرآن الكريم

قال الله -تعالى-: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨١].

---

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي الهلال العسكري (١/٨٥).

(٢) ((المصدر السابق)) (١ /٨٦).

- عن ابن مسعود في قوله: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ قال: كَرْمٌ قد أنبتت عَنَاقيده، فأفسدته. قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تَدْفَع الكَرْم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكَرْم، فيصيب منها، حتى إذا كان الكَرْم كما كان، دفعت الكَرْم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾[1].

- قرَأَ الحسن: (﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ ﴾ فحَمَد سليمان، ولم يَلُم داود، ولولا ما ذكر الله من أمر هذين، لرأيت أنَّ القضاة هلكوا، فإنَّه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده)[2].

- وقال ابن الجوزي: (كان لسليمان من الفِطْنَة ما بان بها الصَّواب في حُكْمه دون حُكْم أبيه في قصَّة الحرث وغيره، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾)[3].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم النَّاس، وقال: إنَّ الله خيَّر عبدًا بين الدُّنْيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله

---

(١) ((تفسير ابن كثير)) (٥/٢٥٥).

(٢) البخاري (٩/٦٧).

(٣) ((التبصرة)) لابن الجوزي (١/٢٩٦).

صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ أمنَّ النَّاس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا -غير ربِّي- لاتَّخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودَّته. لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر))(١).

قال ابن الجوزي: (هذا الحديث قد دلَّ على فِطْنَة أبي بكر، إذْ عَلِم أنَّ المخَيَّر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٢).

- عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنَّها مَثَل المسلم، فحدِّثوني ما هي؟ فوقع النَّاس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنَّها النَّخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: هي النَّخلة. قال: فذكرت ذلك لعمر. قال: لأن تكون قلت: هي النَّخلة، أحبُّ إليَّ من كذا وكذا))(٣).

- عن أمِّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أَلْحَن بحجَّته من بعض، فمن قضيت له بحقِّ أخيه شيئًا، بقوله: فإنَّما أقطع له قطعة من النَّار فلا يأخذها))(٤).

قال ابن القيِّم: (اللَّحن ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصَّواب نوعان،

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)، واللَّفظ للبخاري.

(٢) ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/١٤٦).

(٣) رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) واللَّفظ له.

(٤) البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

أحدهما: الفِطْنَة. ومنه الحديث: ((ولعلَّ بعضكم أن يكون أَلْحَن بحجَّته من بعض))[(١)][(٢)].

وقال المناوي: (أَلْحَن -بفتح الحاء-: الفَطَانَة، أي: أَبْلغ وأَفْصح وأعلم في تقرير مقصوده، وأَفْطن ببيان دليله، وأقدر على البَرْهنة على دفع دعوى خصمه، بحيث يُظنُّ أنَّ الحقَّ معه، فهو كاذب، ويُحْتمل كونه من اللَّحن، وهو الصَّرْف عن الصَّواب، أي: يكون أَعْجز عن الإِعْرَاب بحجَّته من بعض)[(٣)].

فوائد الفِطْنَة:

١- أنَّها تدلُّ العبد على حكم الله وسننه الشَّرعية والكونيَّة، فتبصِّره بها، كما أنَّها تدعوه إلى التَّفكر في آلاء الله، فيزداد خشوعًا لله وتعظيمًا له، وإيمانًا ويقينًا به.

قال علي رضي الله عنه: (اليقين على أربع شعب: تبصرة الفِطْنَة، وتأويل الحِكْمة، ومعرفة العبرة، وسنَّة الأولين، فمن تبصَّر الفِطْنَة، تأوَّل الحِكْمة، ومن تأوَّل الحِكْمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنَّما كان في الأوَّلين)[(٤)].

٢- الفطنة من أسباب السلامة والخروج من المآزق.

٣- أنَّها تدعو إلى فعل صنائع المعروف، وتقديم الفضل إلى محتاجيه:

قال الأبشيهي: (يُستدلُّ على عقل الرَّجل بأمور متعدِّدة منها: ميله إلى

---

(١) رواه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٤٥٢ و٤٥٣).

(٣) ((فيض القدير)) (٢/٥٦٤).

(٤) ((موضح أوهام الجمع والتفريق)) للخطيب البغدادي (١/٢١٤).

محاسن الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنُّبه ما يكسبه عارًا، ويورثه سوء السُّمعة)[١].

ويقول الرَّازي: (العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى يدعو إلى الشَّيطان، ثمَّ إنَّ الرُّوح أخرج الفِطْنَة إعانة للعقل، فأخرج الشَّيطان في مقابلة الفِطْنَة الشَّهوة، فالفِطْنَة توقفك على معايب الدُّنْيا، والشَّهوة تحركك إلى لذات الدُّنْيا، ثمَّ إنَّ الرُّوح أمدَّ الفِطْنَة بالفكرة لتقوى الفِطْنَة بالفكرة)[٢].

٤- الفطن ينتفع بفطنته، وينتفع بها غيره، ويفيدون منها.

٥- ومن فوائدها وفضائلها -في نفس الوقت-: أنَّها ميَّزت هذه الأمَّة عن سواها، قال ابن الجوزي: (اعلم أنَّ فضيلة هذه الأمَّة على الأمم المتقدِّمة، وإنْ كان ذلك باختيار الحقِّ لها وتقديمه إيَّاها، إلَّا أنَّه جعل لذلك سببًا، كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم علمه بما جهلوا، فكذلك جعل لتقديم هذه الأمَّة سببًا هو الفِطْنَة والفهم واليقين وتسليم النُّفوس)[٣].

ولا يعني هذا أنَّ هذه الأمَّة اختصت بالفِطْنَة دون غيرها من الأمم، وإنَّما المقصود هو: أنَّ الله حباهم من الفِطْنَة ما يميِّزون به بين الحقِّ والباطل، والخير والشَّرِّ، والهداية والضَّلال.

٧- هي مقوِّم من مقوِّمات الشَّخصية النَّاجحة، فقد يتمتَّع الرَّجل بالقوَّة والأمانة، إلَّا أنَّه لا يتمتَّع بالفِطْنَة، وفي هذه الحالة قد لا يستطيع أن يسيِّر

(١) رواه العدني في ((الإيمان)) (ص ١١٨)، وانظر: ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ٢٠).
(٢) ((تفسير الرازي)) (٤٠/٢٢).
(٣) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٤٩٥/١).

أعماله بالطَّريقة المطلوبة، قال الرَّازي: (القُوَّة والأمانة لا يكفيان في حصول المقصود ما لم ينضمَّ إليهما الفِطْنَة والكَيَاسة)[1].

أقسام الفِطْنَة:

تنقسم الفِطْنَة إلى قسمين:

١- فِطْنَة موهوبة من الله -تبارك وتعالى-، يهبها الله من يشاء من عباده، فينير بصيرته، ويُفَهِّمه ما لا يفهم غيره، فتراه قويَّ الملاحظة، سريع الفهم، نافذ البصيرة، ذكيَّ القلب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

٢- فِطْنَة مكتسبة تجريبيَّة تتحصَّل للمرء باجتهاده، وكثرة تجاربه، ومعاشرته لأهل العلم والذَّكاء والفِطْنَة والاستفادة منهم ومن تجاربهم، فيتولَّد عنده من الذَّكاء والفِطْنَة ومعرفة الأمور ما لم يكن لديه. ولعلَّنا نستشهد بقول الإبشيهي عن العقل الغريزيِّ والعقل المكتسب، باعتبار أنَّ العقل هو مصدر الفِطْنَة ومحلُّ الذَّكاء، قال الإبشيهي: (العقل: ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزِّيادة والنُّقصان، وقسم يقبلهما، فأمَّا الأوَّل: فهو العقل الغريزيُّ المشترك بين العقلاء، وأما الثَّاني: فهو العقل التجريبيُّ، وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التَّجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة، يقال: أنَّ الشَّيخ أكمل عقلًا، وأتمُّ دِرَاية، وإنَّ صاحب التَّجارب، أكثر فهمًا وأرجح معرفة)[2].

الوسائل المعينة على اكتساب الفِطْنَة:

١- الإيمان:

الإيمان طريق عظيم من طرق اكتساب الفِطْنَة، يقول الطَّاهر بن عاشور:

---

(١) ((تفسير الرازي)) (٢٤/٥٩١).
(٢) ((المستطرف)) للأبشيهي (١/٣٣).

(الإيمان يزيد الفِطْنَة؛ لأنَّ أصول اعتقاده مبنيَّة على نَبْذ كلِّ ما من شأنه تضليل الرَّأي، وطمس البصيرة)[١].

ومن وسائل اكتسابها -أيضًا-: التَّفقُّه في الدِّين، وطلب العلم الذي ينير البصيرة، ويُعْمِل الفِكَر، وينمِّي الفِطْنَة.

٢- إعمال الفكر ومحاولة الفهم:

ومن الوسائل -أيضًا-: محاولة التَّفكر في الأشياء وفهمها، وإعمال الفِكْرة فيها، فإنَّ ذلك ينمِّي الفِطْنَة. يقول ابن القيِّم: (الفِكْر هو الذي ينقل من موت الفِطْنَة إلى حياة اليَقَظَة)[٢].

٣- ترك فضول الطعام والشراب والنوم:

فإنَّ فضول هذه الأشياء تجعل الفِكْر راكدًا خاملًا، لا يكاد يَتَفَطَّن للأشياء، إلَّا بصعوبة بالغة، ومشقَّة شديدة.

قال الشَّافعي: (ما شبعت منذ ست عشرة سنة، إلا شبعة اطَّرحتها، يعني فطرحتها؛ لأنَّ الشِّبَع يثقل البدن، ويقسِّي القلب، ويزيل الفِطْنَة، ويجلب النَّوم، ويُضعف صاحبه عن العبادة)[٣].

وعن مكحول: (خصال ثلاث يحبُّها الله عزَّ وجلَّ وثلاث يبغضها الله عزَّ وجلَّ، فأما اللاتي يحبُّها: فقلَّة الأكل، وقلَّة النَّوم، وقلَّة الكلام، وأمَّا اللاتي يبغض: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النَّوم، فأمَّا النَّوم، فإنَّ في مداومته

(١) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (١/٢٧٥).

(٢) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/١٨٣).

(٣) ((آداب الشافعي ومناقبه)) للرازي (ص ٧٨).

طول الغفلة، وقلَّة العقل، ونقصان الفِطْنَة، وسهوة القلب)[١].

قال شمس الدِّين السَّفاريني: (والبِطْنَة تُذْهِب الفِطْنَة، وتجلب أمراضًا عَسِرة، ومقام العدل أن لا يأكل حتى تُصدَّ الشَّهوة، وأن يرفع يده، وهو يشتهي الطعام)[٢]. وقال أبو حامد الغزالي: (الشِّبَع يثقل البدن ويقسِّي القلب، ويزيل الفِطْنَة، ويجلب النَّوم، ويُضعف صاحبه عن العبادة)[٣].

و(الجوع إذَا ساعدته القناعة، فَهُوَ من مزرعة الفِكْر، وينبوع الحِكْمة، وحياة الفِطْنَة، ومصباح القلب)[٤].

٤- محاسبة النفس:

ومن وسائل اكتساب هذه الصِّفة: محاسبة النَّفس، قال الحارث بن أسد: (المحاسَبة تورث الزِّيادة في البصيرة، والكَيْس في الفِطْنَة، والسُّرعة إلى إثبات الحجَّة، واتِّساع المعرفة)[٥].

نماذج في الفطنة:

- **نماذج في فِطْنَة الأنبياء والمرسلين:**

- قال ابن عبَّاس: (لما شبَّ إسماعيل، تزوَّج امرأة من جُرْهم، فجاء إبراهيم فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثمَّ سألها عن عَيْشهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، في ضيق وشدَّ، وشكت إليه. فقال: فإذا جاء زوجك

---

(١) ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (١/١٧٥).
(٢) ((غذاء الألباب)) (٢/١١٦).
(٣) ((إحياء علوم الدين)) (١/٢٤).
(٤) ((الرسالة القشيرية)) للقشيري (١/١٢٧).
(٥) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (١٠/٨٨).

فاقرئي –عليه السَّلام– وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء فأخبرته، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك)[1].

– وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذِّئب، فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنَّما ذهب بابنك أنت. وقالت الأخرى: إنَّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السَّلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أشقُّه بينكما. فقالت الصُّغرى: لا، يرحمك الله هو ابنها. فقضى به للصُّغرى))[2].

قال ابن الجوزي: (أمَّا داود عليه السَّلام فرأى استواءهما في اليد، فقدم الكبرى لأجل السِّنِّ، وأما سليمان عليه السَّلام فرأى الأمر محتملًا، فاستنبط، فأَحْسَن، فكان أَحَدَّ فِطْنَةً من داود، وكلاهما حَكَم بالاجتهاد، لأنَّه لو كان داود حكم بالنَّص، لم يسع سليمان أن يحكم بخلافه، ولو كان ما حَكَم به نصًّا، لم يَخْفَ على داود.

وهذا الحديث يدل على أنَّ الفِطْنَة والفهم موهبة لا بمقدار السِّنِّ)[3].

- **نماذج في فِطْنَة النَّبي صلى الله عليه وسلم الفِطْرِيَّة:**

– عن علي رضي الله عنه قال: (لما قدمنا المدينة، أصبنا من ثمارها فاجتَوَيناها، وأصابنا بها وَعْكٌ، وكان النَّبي صلى الله عليه وسلم يتخبَّر عن بدر، فلمَّا بلغنا أنَّ المشركين قد أقبلوا، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري بنحوه (٣٣٦٤).

(٢) رواه البخاري (٦٧٦٩)، ومسلم (١٧٢٠).

(٣) ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٥١٠).

إلى بدر -وبدر بئر-، فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم؛ رجلًا من قريش، ومولى لعقبة بن أبي مُعَيط، فأمَّا القرشي: فانفلت، وأمَّا مولى عقبة: فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هُمْ -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون -إذ قال ذلك- يضربوه حتى انتهوا به إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: كم القوم؟ قال: هُمْ -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم. فجهد النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يخبره: كم هم؟ فأبَى، ثمَّ إنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم سأله: كم ينحرون من الجُزر؟ فقال: عشرًا كلَّ يوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القوم ألف، كلُّ جَزُور لمائة وتبعها)[1].

- أنَّ علقمة بن وائل حدَّثه؛ أنَّ أباه حدَّثه، قال: (إنِّي لقاعد مع النَّبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاء رجل يقود آخر بِنِسْعَةٍ، فقال: يا رسول الله، هذا قتل أخي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقتلته؟ فقال: إنَّه لو لم يعترف أقمت عليه البيِّنة. قال: نعم. قتلته. قال: كيف قتلته؟ قال: كنت أنا وهو نختبط من شجرة، فسبَّني فأغضبني، فضربته بالفأس على قرنه فقتلته. فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم: هل لك من شيء تؤدِّيه عن نفسك؟ قال: ما لي مال إلا كسائي وفأسي. قال: فترى قومك يشترونك؟ قال: أنا أهون على قومي من ذاك. فرمى إليه بِنِسْعَةٍ. وقال: دونك صاحبك. فانطلق به الرَّجل. فلما ولَّى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنْ قتله فهو مثله.

(١) رواه أحمد (١/١١٧) (٩٤٨)، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٧/٣٥٦). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/٧٨): رجاله رجال الصَّحيح، غير حارثة بن مضرب، وهو ثقة. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢/١٩٣)، وصحَّحه الوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٣١١) وقال: ورواته ثقات معروفون.

فرجع فقال: يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك قلت: إنْ قتله فهو مثله. وأخذته بأمرك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما تريد أن يبوء بإثمك وإثم صاحبك. قال: يا نبي الله، - لعلَّه قال - بلى. قال: فإنَّ ذاك كذاك. قال: فرمى بنِسْعَته، وخلَّى سبيله)[(١)].

قال ابن قتيبة: (لم يُرِد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه مثله في المأثم، واستيجاب النَّار إن قتله، وكيف يريد هذا وقد أباح الله عزَّ وجلَّ قتله بالقصاص، ولكن كَرِه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتصَّ، وأحبَّ له العفو، فعرَّض تعريضًا أوهمه به أنَّه إن قتله كان مثله في الإثم، ليعفو عنه، وكان مراده: أنَّه يقتل نفسًا كما قتل الأوَّل نفسًا، فهذا قاتل وهذا قاتل، فقد استويا في قاتل وقاتل، إلَّا أنَّ الأوَّل ظالم، والآخر مُقْتَصٌّ)[(٢)].

- **نماذج في فِطْنَة الصَّحابة رضي الله عنهم:**

فِطْنَة أبي بكر رضي الله عنه:

عن ثابت عن أنس، قال: (لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب وأبو بكر رَدِيفه، وكان أبو بكر يعرف الطَّريق لاختلافه إلى الشَّام، فكان يمرُّ بالقوم، فيقولون: مَنْ هذا بين يديك يا أبا بكر، فيقول: هاد يهديني)[(٣)].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم النَّاس، وقال:((إنَّ الله خيَّر عبدًا بين الدُّنْيا وبين ما عنده، فاختار

---

(١) رواه مسلم (١٦٨٠).

(٢) ((الأذكياء)) لابن الجوزي (ص ٢٢).

(٣) رواه أحمد (٣/١٢٢) (١٢٢٥٦)، وأبو يعلى (٦/٢٠٣) (٣٤٨٦). وصحَّح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/١٢٢).

ذلك العبد ما عند الله)). قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه، أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا[1].

قال ابن الجوزي: (هذا الحديث قد دلَّ على فِطْنَة أبي بكر، إذْ عَلِم أنَّ المخَيَّر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

فِطْنَة عمر رضي الله عنه:

- عن أسلم عن أبيه قال: (قَدِمَت على عمر بن الخطَّاب حُلَلٌ من اليمن، فقسَّمها بين النَّاس، فرأى فيها حُلَّة رديئة، فقال كيف أصنع بهذه، إذا أعطيتها أحدًا، لم يقبلها إذا رأى هذا العيب فيها، قال: فأخذها فطواها، فجعلها تحت مجلسه، وأخرج طرفها، ووضع الحُلَل بين يديه، فجعل يقسم بين النَّاس، قال فدخل الزُّبير بن العوَّام، وهو على تلك الحال، قال: فجعل ينظر إلى تلك الحلَّة، فقال له: ما هذه الحلَّة؟ قال عمر: دع هذه عنك. قال: ما هيه؟ ما هيه؟ ما شأنها؟ قال: دعها عنك. قال: فأعطنيها. قال: إنَّك لا ترضاها. قال: بلى، قد رضيتها. فلمَّا توثَّق منه، واشترط عليه أن يقبلها ولا يردَّها، رمى بها إليه، فلمُّا أخذها الزُّبير ونظر إليها، إذا هي رديئة، فقال: لا أريدها. فقال عمر: هيهات، قد فرغت منها، فأجازها عليه، وأبى أن يقبلها منه)[3].

- وعن جرير (عن عمر قال له -قال لجرير - والنَّاس يتحامون العراق وقتال الأعاجم-: سِر بقومك، فما قد غلبت عليه فلك ربعه، فلمَّا جُمِعت الغنائم -غنائم جلولا- ادعى جرير أنَّ له ربع ذلك كلِّه، فكتب سعد إلى عمر

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦) (٣٦٥٤).

(٢) ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) (٣/ ١٤٦).

(٣) ((الأذكياء)) لابن الجوزي (ص ٢٣).

بذلك، فكتب عمر: صدق جرير قد قلت ذلك له، فإن شاء أن يكون قَاتَل هو وقومه على جُعْلٍ فأَعْطُوه جُعْلَه، وإن يكن إنَّما قاتل لله ولدينه ولحبيبه، فهو رجل من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم. فلمَّا قَدِم الكتاب على سعد، أخبر جرير بذلك، فقال جرير: صدق أمير المؤمنين، لا حاجة لي به، بل أنا رجل من المسلمين)[١].

فِطْنَة علي رضي الله عنه:

عن خنبش بن المعتمر: (أنَّ رجلين أتيا امرأة من قريش فاستودعاها مائة دينار، وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منَّا دون صاحبه حتى نجتمع، فلبثا حولًا، فجاء أحدهما إليها، فقال: إنَّ صاحبي قد مات، فادفعي إليَّ الدَّنانير، فأبت، وقالت: إنَّكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منَّا دون صاحبه، فلست بدافعتها إليك، فثقل عليها بأهلها وجيرانها فلم يزالوا بها، حتى دفعتها إليه، ثم لبثت حولًا، فجاء الآخر فقال: ادفعي إليَّ الدَّنانير. فقالت: إنَّ صاحبك جاءني، فزعم أنَّك مِتَّ، فدفعتها إليه، فاختصما إلى عمر بن الخطَّاب، فأراد أن يقضي عليها، فقالت: أنشدك الله أن تقضي بيننا، ارفعنا إلى عليٍّ، فرفعهما إلى عليٍّ، وعرف أنهما قد مكرا بها، فقال: أليس قد قلتما لا تدفعيها إلى واحد منَّا دون صاحبه؟ قال: بلى. قال: فإنَّ مالك عندنا، فاذهب فجئ بصاحبك حتى ندفعهما إليكما)[٢].

فِطْنَة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنَّها مَثَل المسلم، فحدِّثوني

(١) ((الأذكياء)) لابن الجوزي (ص ٢٤).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٢٥).

ما هي؟ فوقع النَّاس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنَّها النَّخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: هي النَّخلة. قال: فذكرت ذلك لعمر قال: لأن تكون قلت: هي النَّخلة. أحبُّ إليَّ من كذا وكذا))[1].

- **نماذج في فِطْنَة العلماء:**

فِطْنَة القاضي إياس بن معاوية:

القاضي إياس يُضْرب بفطنته وذكائه المثَل، وإيَّاه عنى أبو تمَّام الطَّائي الشَّاعر بقوله:

إقدامُ عَمْرو في سَمَاحَة حاتم   في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إِيَاس

تحاكم إليه رجلان، فقال أحدهما: إنِّي نزلت إلى النَّهر لأستحمَّ، ولي قطيفة خضراء جديدة وضعتها على جانب النَّهر، وجاء هذا، وعليه قطيفة حمراء عتيقة، فوضعها ونزل الماء، ولما طلعنا، سبقني وأخذ القطيفة الخضراء، فقال: ألكما بينة؟ فقالا: لا. فأمر بمشط فحضر فمشَّطهما به، فلما فعله خرج الصُّوف الأخضر من رأس صاحب القطيفة الخضراء فأمر له بها[2].

- وكان يومًا في بريَّة فأعوزهم الماء، فسمع نُبَاح كلب، فقال: هذا على رأس بئر، فاستقروا النُّبَاح، فوجدوه كما قال، فسألوه عن ذلك، فقال: لأنِّي سمعت صوته كالذي يخرج من بئر[3].

فِطْنَة الخليل بن أحمد الفراهيدي:

يقال: إنَّه كان عند رجل دواء لظُلْمة العين، ينتفع به النَّاس، فمات، وأضرَّ

---

(١) رواه البخاري (١٣١) ومسلم (٢٨١١)..

(٢) ((الوافي بالوفيات)) لصلاح الدين الصفدي (٩/٢٦٢).

(٣) ((المصدر السابق)).

ذلك بمن كان يستعمله، فقال الخليل بن أحمد: أله نسخة معروفة؟ قالوا: لا.

قال: فهل له آنية كان يعمله فيها؟ قالوا: نعم، إناء كان يجمع فيه الأخلاط.

فقال: جيئوني به، فجاؤوه به، فجعل يشمُّه، ويخرج نوعًا نوعًا، حتى ذكر خمسة عشر نوعًا، ثمَّ سأل عن جميعها ومقدارها، فعرف ذلكم من يعالج مثله، فعمله وأعطاه النَّاس، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة، ثمَّ وجدت النُّسخة في كتب الرَّجل، فوجدوا الأخلاط ستة عشر خلطًا، كما ذكر الخليل، لم يفته منها إلا خلط واحد[١].

فِطْنَة أبي حازم:

جاء رجل إلى أبي حازم، فقال له: (إنَّ الشَّيطان يأتيني، فيقول: إنَّك قد طلَّقت زوجتك، فيشكِّكُني، فقال له: أو ليس قد طلَّقتها؟ قال: لا. قال: ألم تأتني أمس، فطلَّقتها عندي. فقال: والله، ما جئتك إلَّا اليوم، ولا طلَّقتها بوجه من الوجوه. قال: فاحلف للشَّيطان إذا جاءك، كما حلفت لي، وأنت في عافية)[٢].

الفِطْنَة في الأمثال والحِكَم:

- يقولون: فِطْنَة الْأَعْرَاب يُضْرب بهَا الْمثل، وذلك لصفاء أذهانهم، وجودة قَرَائِحهم[٣].

- قال الحُكَمَاء: الخَلْق المعتدل والبِنْيَة المتناسبة دَلِيلٌ على قُوَّة الْعقل وجودة الفِطْنَة[٤].

---

(١) ((الوافي بالوفيات)) لصلاح الدين الصفدي (١٣/٢٤٢).
(٢) ((الأذكياء)) لابن الجوزي (ص ٨٠).
(٣) ((ثمار القلوب في المضاف والمنسوب)) للثعالبي (ص ٦٨٤).
(٤) ((الأذكياء)) لابن الجوزي (ص ١٣).

- قال بعض الحُكَماء: اعلم أنَّ مِنْ يقظة الفِطْنَة: إظهارُ الغفلةِ مع شدَّة الحَذَر[١].

- وقيل: الكَرَم فِطْنَةٌ، واللُّؤم تَغَافلٌ[٢].

- وقيل: البصيرة الفِطْنَة، تقول العرب: أعمى الله بصائره. أي: فِطَنَه.

- وكان عمر بن هبيرة يقول: (اللهمَّ! إنِّي أعوذ بك من طول الغفلة، وإفراط الفِطْنَة. اللهمَّ! لا تجعل قولي فوق عملي، ولا تجعل أسوأ عملي ما قَرُبَ مِنْ أجلي)[٣].

- وقال معاوية رضي الله عنه: (العقل مِكْيالٌ، ثلثه فِطْنَةٌ، وثُلثاه تغافلٌ)[٤].

- قال ابن القيِّم: (من دقيق الفِطْنَة: أنَّك لا تردُّ على المطَاع خطأه بين الملأ، فتَحْمِله رُتْبَته على نُصْرة الخطأ. وذلك خطأ ثان، ولكن تلطَّف في إعلامه به، حيث لا يشعر به غيره)[٥].

- وقال أبو الفتح الأبشيهي: (العين المتوسطة في حجمها تدلُّ على الفِطْنَة)[٦].

- وقال الرَّازي: (الفِطْنَة والبَلَادة من الأحوال الغريزيَّة)[٧].

- وقال العتابي: (الأقلام مطايا الفِطن)[٨].

---

(١) ((الذخائر والعبقريات)) للبرقوقي (٢/١٨٠).
(٢) ((الأمثال المولدة)) لأبي بكر الخوارزمي (ص ٣٠٩).
(٣) ((المجالسة وجواهر العلم)) للدينوري (٥/١١٨).
(٤) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٢/١٠٥).
(٥) ((المصدر السابق)) (٢/١٠٥).
(٦) ((المستطرف)) (ص ٢٧٥).
(٧) ((تفسير الرازي)) (٢/٢٩٧).
(٨) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٤/٢٧٩).

الفِطْنَة في واحة الشِّعر:

يقول ابن أبي عيينة:

فانظر وفكِّر فيما تمرُّ به   إنَّ الأريب[١] المفكر الفَطِن[٢]

وقال حبيب في بني تغلب من أهل الجزيرة، يصفهم بالجفاء وقلَّة الأدب مع كرم النُّفوس:

لا رِقَّة الحضر اللَّطيف غَذَتهم   وتباعدوا عن فِطْنَة الأعرابِ

فإذا كشفتهم وجدت لديهم   كرم النُّفوس وقلَّة الآدابِ[٣]

وقال الشَّاعر:

شهم الفؤادِ ذكاؤه ما مِثْلُهُ   عند العزيمةِ في الأَنامِ ذَكاءُ[٤]

وقال آخر:

أَلْمَعيُّ[٥] الظُّنونِ مُتَّقدُ الذِّهْنِ   أعانته فِطْنَة وذكاءُ

مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ[٦] مِعَنٌّ مِفَنٌّ[٧]   كلُّ دَاء له لَدَيْهِ دَوَاءُ[٨]

(١) الأريب: الرَّجُلُ الأَريب، أَي ذُو دَهْي وبَصَر. انظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/١٨٤).
(٢) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٦/٢٦٨).
(٣) ((المصدر السابق)) (٢/٣٢٦).
(٤) ((الزاهر)) لأبي بكر الأنباري (٢/٣٦٦).
(٥) الألمعي: الذي إذا لمع له أول الأمر عرف آخره، يكتفى بظنه دون يقينه. وهو مأخوذ من اللمع وهو الإشارة الخفية والنظر الخفي. ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/٢٥٧).
(٦) رجل مخلط مزيل يجمع بَين الْأَشْيَاء ويميز بَينهَا لقُوَّة فكره. ((المعجم الوسيط)) (١/٤١٠).
(٧) رجل معن مفن: ذو عنن واعتراض وذو فنون من الكلام. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٣٢٦).
(٨) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (١/ ١٤٥).

وقال آخر:

ذو العقلِ يسخو بعيشِ ساعتِه   وبالذي بعدَها تشحُّ يدُه

وكلُّ ذي فِطْنَةٍ ومعرفةٍ   أهمُّ مِن يومِه عليه غدُه[1]

وقال شاعر يصف أحدهم:

فضل النَّاس فِطْنَةً واجتهادًا   في رضى ربِّه ورأيًا وعقلًا[2]

وقال المتنبي:

لا يُدْرِكُ المجْدَ إلَّا سَيِّدٌ فَطِنٌ   لِمَا يَشُقُّ على السَّادَاتِ فَعَّال

لا وارثٌ جَهِلَت يُمْنَاه ما وَهَبَت   ولا كَسُوبٌ بغير السَّيف سَئَّالُ[3]



(١) ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (ص ١٠٣).

(٢) ((دمية القصر وعصرة أهل العصر)) للباخرزي (١/ ٨٩).

(٣) ((ديوان أبي الطيب المتنبي)) (ص ٤٨٦).



القَنَاعَة



القَنَاعَة

معنى القناعة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى القناعة لغةً:**

القناعة مصدر قنِع، بالكسر، يقنَع قُنوعًا وقناعةً إذا رضي، وقَنَعَ، بالفتح، يقنَع قُنوعًا إذا سأل، والقُنوع: الرضا باليسير من العطاء. وقال بعض أهل العلم: إن القُنوع قد يكون بمعنى الرضا، والقانع بمعنى الراضي، وهو من الأضداد. وسمِّيت قناعةً؛ لأنه يقبل على الشيء الذي له راضيًا[(١)].

- **معنى القناعة اصطلاحًا:**

(القناعة: هي الرضا بما أعطى الله)[(٢)].

وقال السيوطي: (القناعة: الرضا بما دون الكفاية، وترك التشوُّف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود)[(٣)].

وقال المناوي: (هي: السكون عند عدم المألوفات. وقيل: الاكتفاء بالبلغة. وقيل سكون الجأش عند أدنى المعاش. وقيل: الوقوف عند الكفاية)[(٤)].

الفرق بين القناعة وبعض الصفات:

- **الفرق بين القصد والقناعة:**

(أن القصد: هو ترك الإسراف والتقتير جميعًا.

---

(١) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣٢/٥)، ((الصحاح تاج اللغة)) للجوهري (١٢٧٣/٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٩٨/٨).

(٢) ((مشارق الأنوار)) لأبي الفضل البستي (١٨٧/٢).

(٣) ((معجم مقاليد العلوم)) (٢٠٥، ٢١٧).

(٤) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص٢٧٥).

والقناعة: الاقتصار على القليل والتقتير، ألا ترى أنه لا يقال هو قنوع إلا إذا استعمل دون ما يحتاج إليه، ومقتصد لمن لا يتجاوز الحاجة ولا يقصر دونها، وترك الاقتصاد مع الغنى ذم، وترك القناعة معه ليس بذم، وذلك أنَّ نقيض الاقتصاد الإسراف، وقيل: الاقتصاد من أعمال الجوارح؛ لأنَّه نقيض الإسراف، وهو من أعمال الجوارح والقناعة من أعمال القلوب)[1].

• الفرق بين القناعة والزهد:

قال الراغب: (القناعة: الرضا بما دون الكفاية، والزهد: الاقتصار على الزهيد، أي: القليل وهما يتقاربان، لكن القناعة تقال اعتبارًا برضا النفس، والزهد يقال اعتبارًا بالمتناول لحظ النفس، وكلُّ زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهُّد لا زهد)[2].

الترغيب في القناعة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

عن محمد بن كعبٍ في قوله تعالى: ﴿ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾. قال: القناعة[3].

وفسَّرها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيضًا بالقناعة[4].

---

(١) ((معجم الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص٤٣٠).

(٢) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص٢٢٥).

(٣) ((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (٦١).

(٤) انظر: ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٢/٣٤٦).

و(عن الحسن البصري، قال: الحياة الطيبة: القناعة)[١].

- وقال تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

قال البغوي: (قيل: الغنى: هاهنا القناعة)[٢]. وذهب إلى ذلك أيضًا الخازن[٣].

- وقال سبحانه: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ﴾ [الحج: ٣٦].

قال الطبري: (وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي؛ فإنه من قنعت بكسر النون أقنع قناعة وقنعًا وقنعانًا)[٤].

وقال مجاهد: (القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته)[٥].

وقال أبو إسحاق الثعلبي: (القانع من القناعة، وهي الرضا والتعفف وترك السؤال)[٦].

وقال الرازي: (قال الفراء: والمعنى الثاني القانع هو الذي لا يسأل من القناعة، يقال: قنع يقنع قناعةً إذا رضي بما قسم له وترك السؤال)[٧].

- وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال النسفي: (﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ عفوًا ومغفرة، أو المال والجنة، أو

(١) ((جامع البيان)) للطبري (١٤/٣٥١).
(٢) ((معالم التنزيل)) (٦/٤٠).
(٣) ((لباب التأويل)) (٣/٢٩٤).
(٤) ((جامع البيان)) للطبري (١٦/٥٦٩).
(٥) ((المصدر السابق)) (١٦/٥٦٣).
(٦) ((الكشف والبيان)) للثعلبي (٧/٢٣).
(٧) ((مفاتيح الغيب)) للرازي (٢٣/٢٢٦).

ثناء الخلق ورضا الحق، أو الإيمان والأمان، أو الإخلاص والخلاص، أو السنة والجنة، أو القناعة والشفاعة..)[١].

وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿حَسَنَةً﴾: (.. القناعة بالرزق، أو: التوفيق والعصمة، أو: الأولاد الأبرار.. قاله جعفر)[٢].

- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣].

قال الرازي: (قال بعضهم: النعيم: القناعة، والجحيم: الطمع)[٣].

وقال النيسابوري: (وقال آخرون: النعيم: القناعة والتوكل)[٤].

ثانيًا: في السنة النبوية

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه الله))[٥].

قال ابن حجر: (ومعنى الحديث: أن من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة)[٦].

وقال المناوي: (رُزق كفافًا، وقنَّعه الله بالكفاف، فلم يطلب الزيادة)[٧].

وقال المباركفوري: (... ((كفافًا)). أي: ما يكف من الحاجات، ويدفع الضرورات. ((وقنَّعه الله)). أي: جعله قانعًا بما آتاه)[٨].

---

(١) ((مدارك التنزيل)) للنسفي (١/١٧٢).
(٢) ((البحر المحيط)) (٢/٣١٠).
(٣) ((مفاتيح الغيب)) (٣١/٨٠).
(٤) ((غرائب القرآن ورغائب الفرقان)) (٦/٤٦٠).
(٥) رواه مسلم (١٠٥٤).
(٦) ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/٢٧٥).
(٧) ((فيض القدير)) (٤/٥٠٨).
(٨) ((تحفة الأحوذي)) (٤/٥٠٨).

وقال القرطبي: (أنَّ من فعل تلك الأمور واتصف بها فقد حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة)[١].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يومًا يحدث- وعنده رجلٌ من أهل البادية- أنَّ رجلًا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحبُّ أن أزرع، قال: فبذر، فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله عزَّ وجلَّ: دونك يا ابن آدم، فإنَّه لا يشبعك شيءٌ. فقال الأعرابي: والله لا نجده إلا قرشيًّا، أو أنصاريًّا، فإنهم أصحاب زرعٍ، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرعٍ. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم))[٢].

قال ابن بطال: (وقوله: دونك يا ابن آدم، لا يشبعك شيء. يدلُّ على فضل القناعة، والاقتصار على البلغة، وذمِّ الشَّرَهِ والرغبة)[٣].

وقال ابن حجر: (وفيه إشارةٌ إلى فضل القناعة، وذمِّ الشَّرَهِ)[٤].

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((اللهمَّ اجعل رزق آل محمدٍ قُوتًا))[٥].

قال ابن حجر: (أي: اكفهم من القوت بما لا يرهقهم إلى ذلِّ المسألة، ولا يكون فيه فضولٌ تبعث على الترفُّه والتبسُّط في الدنيا. وفيه حجةٌ لمن فضَّل الكفاف؛ لأنَّه إنما يدعو لنفسه وآله بأفضل الأحوال)[٦].

---

(١) ((المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم)) (٣/٩٩).
(٢) رواه البخاري (٢٣٤٨).
(٣) ((شرح البخاري)) (٦/٤٨٩).
(٤) ((فتح الباري)) (٥/٢٧).
(٥) رواه مسلم (١٠٥٥).
(٦) ((فتح الباري)) (١١/٢٧٥).

وقال النووي: (قال أهل اللغة العربية: القُوت ما يسدُّ الرَّمَق، وفيه فضيلة التقلل من الدنيا، والاقتصار على القوت منها، والدعاء بذلك)(١).

- وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أصبح وأمسى آمنًا في سِرْبه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه؛ كان كمن حِيزت له الدنيا بحذافيرها))(٢).

وقال المناوي: ((عنده قوت يومه) أي: غداؤه وعشاؤه الذي يحتاجه في يومه ذلك.

يعني: من جمع الله له بين عافية بدنه، وأمن قلبه حيث توجَّه، وكفاف عيشه بقوت يومه وسلامة أهله؛ فقد جمع الله له جميع النعم التي من ملك الدنيا لم يحصل على غيرها، فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها؛ بأن يصرفها في طاعة المنعم، لا في معصية، ولا يفتر عن ذكره)(٣).

وقال المباركفوري: (... ((عنده قوت يومه)) أي: كفاية قوته من وجه الحلال ((فكأنما حِيزت))... والمعنى فكأنما أُعطي الدنيا بأسرها.)(٤).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهنَّ، أو يعلم من يعمل بهنَّ؟ قلت:

---

(١) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٤٦/٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٣٣٥٧)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٣٠٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٩٤/٧) (١٠٣٦٢)، والمنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣٣٥/١). من حديث عبيد الله بن محصن رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وقال البيهقي: أصح ما روي في الباب، وصححه الشوكاني في ((فتح القدير)) (٤٤/٢)، وحسنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).

(٣) ((فيض القدير)) (٦٨/٦).

(٤) ((تحفة الأحوذي)) (١٠/٧).

أنا يا رسول الله! فأخذ يدي فعدَّ خمسًا، فقال: اتَّقِ المحارم تكن أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك؛ فإنَّ كثرة الضحك تميت القلب))[١].

قال المناوي: ((وارضَ بما قسم الله لك) أي: أعطاك (تكن أغنى الناس) فإنَّ من قنع بما قسم له، ولم يطمع فيما في أيدي الناس استغنى عنهم، ليس الغنى بكثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)[٢].

أقوال السلف والعلماء في القناعة:

- (قال عبد الله بن عباس: القناعة مال لا نفاد له)[٣].

- (وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الرزق رزقان: فرزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك)[٤].

- (وقال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني: إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد؛ وإياك والطمع فإنه فقر حاضر؛ وعليك باليأس،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٣٤١٧)، وأبو يعلى في ((المسند)) (١١/١١٣) (٦٢٤٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٧/١٢٥) (٧٠٥٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٧٨) (٩٥٤٣). قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقال ابن عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/٧٩٠): حسن غريب، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٥/٨) كما قال في المقدمة، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).

(٢) ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) (١/٢٧).

(٣) ذكره ابن عبد ربه في ((العقد الفريد)) (٣/١٦٩).

(٤) ذكره ابن عبد ربه في ((المصدر السابق))، ورواه الجرجاني مرفوعًا في ((تاريخ جرجان)) (ص ٣٦٦).

فإنك لم تيأس من شيء قطُّ إلا أغناك الله عنه)[١].

- و(قال عمر بن عبد العزيز: الفقه الأكبر القناعة، وكفُّ اللسان)[٢].

- وقال الراغب: (الفقر أربعة: فقر الحسنات في الآخرة، وفقر القناعة في الدنيا، وفقر المقتني، وفقرها جميعًا، والغني بحسبه، فمن حصل له في الدنيا فقد القناعة والمقتني فهو الفقير المطلق على سبيل الذم، ولا يقال له غني بوجه)[٣].

- و(قال أكثم بن صيفي لابنه: يا بني، من لم ييأس على ما فاته ودع بدنه، ومن قنع بما هو فيه قرَّت عينه)[٤].

- (وقال بكر بن عبد الله المزني: يكفيك من الدنيا ما قنعت به، ولو كفَّ تمرٍ، وشربة ماءٍ، وظلَّ خباءٍ، وكلما انفتح عليك من الدنيا شيءٌ ازدادت نفسك به تعبًا)[٥].

- وقال (نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك يقول: مروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء.

- وقال أبو حاتم: (مِن أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا القناعة، وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقسم، ولو لم يكن في القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة، وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب الفضل، لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حالة من الأحوال)[٦].

---

(١) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٦٣/٢٠).
(٢) ((أدب المجالسة وحمد اللسان)) لابن عبد البر (ص ٨٧).
(٣) ((تفسير الراغب)) للراغب الأصفهاني (٥٦٤/١).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص ١٤٩).
(٥) ((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (ص ٦٢).
(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص١٤٩).

- وقال أيضًا (القناعة تكون بالقلب؛ فمن غني قلبه غنيت يداه، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه، ومن قنع لم يتسخط وعاش آمنا مطمئنًا، ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائت نهاية لرغبته، والجَدُّ والحرمان كأنهما يصطرعان بين العباد)[١].

- و(قال أبو سليمان الداراني: إن قومًا طلبوا الغنى فحسبوا أنَّه في جمع المال، ألا وإنما الغنى في القناعة، وطلبوا الراحة في الكثرة؛ وإنما الراحة في القلة، وطلبوا الكرامة من الخلق، ألا وهي في التقوى، وطلبوا النعمة في اللباس الرقيق واللين وفي طعامٍ طيبٍ، والنعمة في الإسلام الستر والعافية)[٢].

- و(قال أبو الحسن البوشنجي، وسئل عن القناعة؟ فقال: المعرفة بالقسمة)[٣].

- و(عن أبي سليمان أنه قال: سمعت أختي تقول: الفقراء كلهم أموات إلا من أحياه الله تعالى بعزِّ القناعة، والرضا بفقره)[٤].

- و(قال أبو محرز الطفاوي: شكوت إلى جارية لنا ضيق المكسب عليَّ وأنا شاب، فقالت لي: يا بني استعن بعزِّ القناعة عن ذلِّ المطالب، فكثيرًا والله ما رأيت القليل عاد سليمًا. قال أبو محرز: ما زلت بعد أعرف بركة كلامها في قنوعي)[٥].

- و(عن الحسن، قال: لا تزال كريمًا على الناس- أو لا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفُّوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك)[٦].

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص١٥٠).
(٢) ((الزهد الكبير)) للبيهقي (ص٨٠).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص٨٤).
(٤) ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (٢/٤٣١).
(٥) ((المصدر السابق)) (٢/٢٥٨).
(٦) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٣/٢٠).

- (وقال مالك بن دينارٍ: أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته)[١].

- (وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد)[٢].

فوائد القناعة:

١- سبب لنيل محبة الله.

٢- علامة كمال الإيمان.

٣- تجعل الإنسان يعيش حياة هنيئة طيبة.

٤- تشيع المودة، وتنشر المحبة بين الناس.

٥- تكسب الإنسان قوة الإيمان، والثقة به، والرضا بما قسم.

٦- سبيل لراحة النفس، والبعد عن الهموم.

٧- وقاية من الغيبة ،والنَّمِيمَة، والحسد.

٨- طريق موصل إلى الجنة.

٩- سبب للبركة.

١٠- عز للنفس.

١١- تكسب صاحبها غنى النفس.

١٢- فيها تحقيق لشكر الله تعالى على نعمه.

١٣- تعفف عما في أيدي الناس[٣].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٢٢٧).

(٢) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٣/٢٣٩).

(٣) انظر: ((نضرة النعيم)) لمجموعة من الباحثين (٨/٣٢٣٥). و((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٣٦٣-٣٦٥) بتصرف واختصار.

مراتب القناعة:

قال الماوردي: (والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجهٍ:

فالوجه الأول: أن يقنع بالبلغة من دنياه، ويصرف نفسه عن التعرُّض لما سواه. وهذا أعلى منازل القناعة.

والوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة. وهذه أوسط حال المقتنع.

والوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرًا، ولا يطلب ما تعذَّر وإن كان يسيرًا. وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركةٌ بين رغبةٍ ورهبةٍ. أما الرغبة؛ فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت. وأما الرهبة؛ فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت)[1].

موانع اكتساب القناعة:

١- الإكثار من مجالسة ذوي الأموال والمترفين.

٢- طلب الزيادة عن الكفاية، والتوسع في جمع الأموال.

٣- ترك قراءة القرآن الكريم وتدبُّر آياته.

٤- قلة تذكر الموت والدار الآخرة.

٥- الانغماس في شهوات الدنيا.

٦- التوسع في المباحات والإكثار منها.

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (١٢٦-١٢٧).

الأسباب المعينة على اكتساب القناعة:

١- اكتفاء الإنسان بما رُزق.

٢- الاطلاع على سيرة السلف الصالح، وزهدهم وقناعتهم، والاقتداء بهم.

٣- الاقتصاد في الإنفاق، وعدم الإسراف والتبذير.

٤- الإلحاح في الدعاء بأنَّ يرزقه الله القناعة، كما فعل ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم.

٥- الإيمان الجازم بأنَّ الأرزاق مقدرة مقسومة.

٦- تعويد النفس على القناعة، والبعد عن الحرص والطمع.

٧- تقوية الإيمان بالله تعالى.

٨- النظر إلى من هو أقل منه في الرزق، ولا ينظر إلى من هو أعلى منه[١].

٩- الاعتقاد بأن الله سبحانه جعل التفاوت في الأرزاق بين الناس لحكمة يعلمها.

١٠- تذكر الموت وزيارة القبور.

١١- قراءة القرآن والتأمل في الآيات القرآنية التي تناولت قضية الرزق والمعيشة.

١٢- أن يعلم أنَّ في القناعة عزة للنفس، وفي الطمع ذل ومهانة.

١٣- أن يعرف أنَّ في جمع المال انشغال القلب به.

---

(١) ففي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: ((انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)) رواه مسلم (٢٩٦٣).

نماذج في القناعة:

• نماذج من قناعة النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم قنوعًا زاهدًا، فكان من أبعد الناس عن ملذات الدنيا، وأرغبهم إلى الآخرة، وقد خيره ربه جلَّ وعلا بين الدنيا، وأن يعيش فيها ما شاء، وبين الآخرة، فاختار الآخرة وما عند الله، وخيَّره أن يكون ملكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا.

- قال عمر رضي الله عنه: ((دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجعٌ على حصيرٍ، فجلست، فأدنى عليه إزاره[١] وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ نحو الصاع، ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة، وإذا أفيقٌ معلقٌ، قال: فابتدرت عيناي، قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثَّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفوته، وهذه خزانتك، فقال: يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى...))[٢].

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو: ((اللهم قنِّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كلِّ غائبة لي بخير))[٣].

---

(١) الإزار: ما تحت العاتق في وسطه الأسفل، وقيل: الإزار: ما يستر أسفل البدن ولا يكون مخيطا. ((تاج العروس)) للزبيدي (١٠/٤٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩) واللفظ له.

(٣) رواه ابن خزيمة (٤/٢١٧) (٢٧٢٨)، والحاكم (١/٦٢٦). قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه ابن حجر في ((الفتوحات الربانية)) (٤/٣٨٣).

- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: ((ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار. فقلت: ما كان يُعيِّشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنَّه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كان لهم منائح[١]، وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبياتهم، فيسقيناه))[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم ارزق آل محمد قوتًا))[٣].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أدم[٤] وحشوه ليف))[٥].

- وعن قتادة رضي الله عنه قال: ((كنا نأتي أنس بن مالك وخبازه قائم، وقال: كلوا، فما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم رأى رغيفًا مرقَّقًا[٦] حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا[٧] بعينه قط))[٨].

---

(١) جمع منيحة: وهي ناقة أو شاة، تعطى لينتفع بلبنها ويعيدها. وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زمانا ثم يردها. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣٦٤/٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٩) ومسلم (٢٩٧٢) واللفظ للبخاري.

(٣) رواه مسلم (١٠٥٥).

(٤) الأدم: جمع أديم، وهو الجلد الذي قد تم دباغه وتناهى. ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩٢/٣١).

(٥) رواه البخاري (٦٤٥٦) ومسلم (٢٠٨٢) واللفظ للبخاري.

(٦) رغيفًا مرققًا: أي ملينا محسنا. ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) للقاضي عياض (٢٩٨/١).

(٧) شاة سميطا: أي مشوية. ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٢٢/٧).

(٨) رواه البخاري (٥٤٢١).

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((لقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فكلته ففني))[١].

- وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: ((لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما شبع من خبز وزيت، في يوم واحد، مرتين))[٢].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: ((لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرقَّقًا حتى مات))[٣].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو كان لي مثل أحد ذهبًا ما يسرني أن لا يمرَّ علي ثلاث وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده لدين))[٤].

- وعن عروة عن عائشة رضي الله عنهما قالت: ((ما أكل آل محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر))[٥].

- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز شعير، يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم))[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥١) ومسلم (٢٩٧٣).
(٢) رواه مسلم (٢٩٧٤).
(٣) رواه البخاري (٦٤٥٠).
(٤) رواه البخاري (٢٣٨٩).
(٥) رواه البخاري (٦٤٥٥).
(٦) رواه مسلم (٢٩٧٠).

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام برٍّ ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض))[١].

- **نماذج من قناعة الصحابة رضي الله عنهم:**

لقد سار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما كان عليه واتبعوا آثاره، وتخلَّقوا بأخلاقه، وعاشوا التقشُّف[٢] والزهد في أول أمرهم نظرًا لقلة ذات اليد، ثم انتشر الإسلام وجاءتهم الغنائم وفتح الله عليهم، فلم تؤثر هذه الأموال التي اكتسبوها من الغنائم على زهدهم، بل استمروا على ما هم فيه من قناعة وتقشف، وهنا نذكر بعض النماذج من قناعة الصحابة وبعدهم عن الطمع:

- عن أبي العالية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من يكفل لي أن لا يسأل أحدًا شيئًا، وأتكفل له بالجنة؟ فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا))[٣].

- وعن أبي هريرة، قال: (لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجلٌ عليه رداءٌ، إما إزارٌ وإما كساءٌ، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده، كراهية أن تُرى عورته)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٤١٦) ومسلم (٢٩٧٠).

(٢) التقشف: لبس الثياب المرقعة الوسخة، والقشف شدة العيش. ((طلبة الطلبة)) للنسفي (٨٨).

(٣) رواه أبو داود (١٦٤٣)، وأحمد (٥/٢٧٦) (٢٢٤٢٨)، والطبراني (٢/٩٨) (١٤٣٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣/٢٧٢) (٣٥٢١).
الحديث سكت عنه أبو داود، وصحح إسناده ابن جرير في ((مسند عمر)) (١/٣٠)، والمنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٣٩)، والنووي في ((رياض الصالحين)) (٢٣٧)، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)).

(٤) رواه البخاري (٤٤٢).

قال الحافظ ابن حجر: (قوله: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة. يُشعر بأنهم كانوا أكثر من سبعين، وهؤلاء الذين رآهم أبو هريرة غير السبعين الذين بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بئر معونة، وكانوا من أهل الصفة أيضًا، لكنهم استشهدوا قبل إسلام أبي هريرة)[1].

- وعن الحسن قال: (كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان أميرًا على زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطب في عباءة يفترش نصفها، ويلبس نصفها، فإذا خرج عطاؤه تصدَّق به، وأكل من سفيف يده)[2].

• نماذج في القناعة عند السلف:

- (ورث داود الطائي من أبيه دارًا ودنانير، فكان كلما خرب في الدار بيت انتقل إلى غيره ولم يعمره، ولم يزل يتقوت بالدنانير حتى كفن في آخرها)[3].

- و(عن يحيي بن عروة بن أذينة قال: لما أتى أبي وجماعةٌ من الشعراء هشام ابن عبد الملك فأنشدوه، فلما عرف أبي قال: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي   أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه   ولو قعدت أتاني لا يعنيني

فهلا جلست في بيتك حتى يأتيك؟ فسكت أبي ولم يجبه، فلما خرجوا من عنده جلس أبي على راحلته حتى أتى المدينة، وأمر هشامٌ بجوائزهم، فقعد أبي فسأل عنه فلما خبر بانصرافه، قال: لا جرم، والله ليعلمنَّ أنَّ ذلك سيأتيه. ثم

---

(١) ((فتح الباري)) (٥٣٦/١).
(٢) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٩٧/١-١٩٨)، ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٣٤/٢١).
(٣) ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (٣٣٨/٥).

أضعف له ما أعطى واحدًا من أصحابه، وكتب له فريضتين)[١].

- (وقال زمعة بن صالحٍ: كتب إلى أبي حازمٍ بعض بني أمية يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه، فكتب إليه: أما بعد، فقد جاءني كتابك تعزم علي أن أرفع إليك حوائجي، وهيهات، قد رفعت حوائجي إلى ربي، ما أعطاني منها قبلت، وما أمسك علي منها قنعت)[٢].

- (وعن حفصٍ الجعفي، قال: ورث داود الطائي من أمه أربع مائة درهمٍ، فمكث يتقوت بها ثلاثين عامًا، فلما نفدت، جعل ينقض سقوف الدويرة، فيبيعها.

- وقال عطاء بن مسلمٍ: عاش داود عشرين سنةً بثلاث مائة درهمٍ)[٣].

- (وذكر إبراهيم بن السري الزجاج: أنه كان يجري على أبي جعفرٍ في الشهر أربعة دراهم، يتقوت بها. قال: وكان لا يسأل أحدًا شيئًا)[٤].

- **نماذج في القناعة عند العلماء المعاصرين:**

الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي:

كان الشنقيطي قنوعًا بما رزقه الله، زاهدًا في الدنيا، عفيفًا عما في أيدي الناس، كريمًا بما يملك. وقد ذكر عنه بعض أقاربه وطلابه شيئًا من قناعته وزهده، نذكر طرفًا منها:

قال عنه ابنه عبد الله: (كان رحمه الله لا يريد الدنيا، ولا يهتم بها، ويحرص

---

(١) ((التبصرة)) لابن الجوزي (ص ١٥٦).
(٢) ((القناعة)) لابن السني (ص٤٠).
(٣) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٧/٤٢٤).
(٤) ((المصدر السابق)) (١٣/٥٤٦).

على الاقتصاد. ويقول: الذي يفرحنا أن الدنيا لو كانت ميتة لأباح الله منها سد الخلة. وكان يقول: لم أقترض قطُّ لأحد، ولم أبع، ولم أشتر، وترك لي والدي ثروة، فكنت أعيش منها، وكان عندي كنز عظيم أرجو الله أن لا يضيع مني؛ هو القناعة.

وقال عنه أيضًا: أنَّه كان في المدينة، وكان لا يوجد عنده أي مال، وقد وعده أحد جيرانه أن يقترض له مالًا. ولما أراد الشيخ رحمه الله أن يأتيه وجده يشتغل، وعليه ملابس متبذلة، فرجع عنه وكأنه وجد في نفسه قليلًا أنه في عازة. قال: ولم أشعر حتى خررت ساجدًا في الطريق في الغبار، ورفعت رأسي وعندي فرح ونشوة لا يعلمها إلا الله إكرامًا لما أعطاني من العلم، فكيف أريد دنيا، وربي أكرمني بالعلم، وبفهم كتاب الله. فذهبت إلى البيت وكأنَّ الدنيا كملت لي؛ لاستشعاري نعمة الله علي بما أعطاني من فهم القرآن. وقد سد الله لي تلك الحاجة من غير أن أسأل أحدًا، ونذهب لأحد، إكرامًا منه وفضلًا)[١].

وقال عنه عطية سالم: (والواقع أنَّ الدنيا لم تكن تساوي عنده شيئًا فلم يكن يهتم لها. ومنذ وجوده في المملكة وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاء ولا مرتبًا ولا ترفيعًا لمرتبه ولا حصولًا على مكافأة أو علاوة. ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه، بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين، وكنت أتولَّى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كلٍّ من مكة والمدينة. ومات ولم يخلف درهمًا ولا دينارًا، وكان مستغنيًا بعفته وقناعته. بل إنَّ حقَّه الخاص ليتركه تعففًا عنه، كما فعل في

(١) ((جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف)) لعبد العزيز الطويان (١/ ٣٨).

مؤلفاته، وهي فريدة في نوعها، لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم. وسمعته يقول: لقد جئت معي من البلاد بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة، وأخشى عليه الضياع. فقلت له: وما هو؟ قال: القناعة. وكان شعاره في ذلك قول الشاعر:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثر حسرتي ووساوسي)[1]

مواعظ حول القناعة:

موعظة عمر بن عبد العزيز في القناعة:

(قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من وعظ أخاه بنصيحةٍ له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه، فاتقوا الله، فإنها نصيحةٌ لكم في دينكم فاقبلوها، وموعظةٌ منجيةٌ من العواقب فالزموها، فالرزق مقسومٌ، ولن يعدو المرء ما قسم له، فأجملوا في الطلب، فإنَّ في القنوع سعةً وبلغةً، وكفًّا عن كَلَفةٍ، لا يحل الموت في أعناقكم، وجهته أيامكم، وما ترون ذاهبٌ، وما مضى كأن لم يكن، وكل ما هو آتٍ قريبٌ، أما رأيتم حالات المنيب وهو يشرف ويعد فراغه، وقد ذاق الموت وعائلهم تعجيل إخراج أهله إياه من داره إلى قبره، وسرعة انصرافهم إلى مسكنه، وجهه مفقودٌ، وذكره منسي، وبابه عن قليلٍ مهجورٌ، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ، ولم يعمر الديار، فاتقوا يومًا لا تخفى فيه مثقال حبةٍ في الموازين)[2].

موعظة وهب بن منبه لعطاء الخرساني في القناعة:

(قال وهب بن منبهٍ لعطاءٍ الخراساني: ويحك يا عطاء! ألم أخبر أنك تحمل

---

(١) ((مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله)) لعطية محمد سالم (ص ٥٤).

(٢) ((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (ص ٦٤).

علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا، ويحك يا عطاء! تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه! وتدع من يفتح لك بابه ويظهر لك غناه، ويقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]. يا عطاء أترضى بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولا ترضى بالدون من الحكمة مع الدنيا؟! ويحك يا عطاء! إن كان يغنيك ما يكفيك، وإنَّ أدنى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس في الدنيا شيءٌ يكفيك. ويحك يا عطاء! إنما بطنك بحرٌ من البحور، ووادٍ من الأودية، ولا يملؤه شيءٌ إلا التراب)[١].

أقوال الأدباء والحكماء في القناعة:

- (قال أكثم بن صيفي: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة.

- وقال بعض السلف: قد يخيب الجاهد الساعي، ويظفر الوادع الهادي.

فأخذه البحتري فقال:

لم ألق مقدورًا على استحقاقه ... في الحظ إما ناقصًا أو زائدا

وعجبت للمحدود يحرم ناصبًا ... كلفًا وللمجدود يغنم قاعدا

ما خطب من حرم الإرادة قاعدًا ... خطب الذي حرم الإرادة جاهدا

- وقال بعض الحكماء: إنَّ من قنع كان غنيًّا وإن كان مقترًا[٢]، ومن لم يقنع كان فقيرًا، وإن كان مكثرًا.

- وقال بعض البلغاء: إذا طلبت العزَّ فاطلبه بالطاعة، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فمن أطاع الله عز وجل عن نصره، ومن لزم القناعة زال فقره.

---

(١) ((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (٦٧-٦٨).

(٢) مقتَّرا: أقتر الرجل بمعنى افتقر. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (٢٤٧).

- وقال بعض الأدباء: القناعة عزُّ المعسر، والصدقة حرز[١] الموسر[٢].

- (وقيل لبعض الحكماء: اكتسب فلانٌ مالًا، قال: فهل اكتسب أيامًا يأكله فيها؟ قيل: ومن يقدر على ذلك؟ قال: فما أراه اكتسب شيئًا)[٣].

- و(كتب حكيمٌ إلى أخٍ له: أما بعد فاجعل القنوع ذخرًا، ولا تعجل على ثمرة لم تدرك، فإنك تدركها في أوانها عذبةً، والمدبر لك أعلم بالوقت الذي يصلح لما تؤمِّل، فثق بخيرته لك في أمورك كلِّها)[٤].

- و(قال الحكيم: أربعةٌ طلبناها فأخطأنا طرقها: طلبنا الغنى في المال، فإذا هو في القناعة، وطلبنا الراحة في الكثرة، فإذا هي في القلة، وطلبنا الكرامة في الخلق، فإذا هي في التقوى، وطلبنا النعمة في الطعام واللباس، فإذا هي في الستر والإسلام)[٥].

- (وقال بعض الحكماء: ما فوق الكفاف إسرافٌ.

- وقال بعض البلغاء: من رضي بالمقدور قنع بالميسور)[٦].

- (وقال بعض الحكماء: الرضى بالكفاف يؤدي إلى العفاف)[٧].

- و(قال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم)[٨].

---

(١) الحرز: الموضع الحصين. ((مختار الصحاح)) للرازي (٧٠).
(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٢٦).
(٣) ((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (ص ٦٢).
(٤) ((التبصرة)) لابن الجوزي (ص ١٥٦).
(٥) ((تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين)) للسمرقندي (ص٢٤٥).
(٦) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٢٧).
(٧) ((المصدر السابق)).
(٨) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/٢٠٦).

أمثال في القناعة:

- يقال في المثل: خير الغنى القنوع، وشر الفقر الخضوع[1].

- القناعة مال لا ينفد[2].

- وقولهم: يكفيك ما بلغك المحل[3].

- شر الفقر الخضوع، وخير الغنى القناعة[4].

القناعة في واحة الشعر:

قال بشر بن الحارث:

أفادتنا القناعةُ أيَّ عزٍّ ولا عزًّا أعز من القناعه

فخذْ منها لنفسك رأسَ مالٍ وصيِّر بعدَها التقوَى بضاعه

تحزْ حالين: تغنى عن بخيلٍ وتسعدُ في الجِنانِ بصبرِ ساعه[5]

وقال محمد بن حميد الأكاف:

تقنَّعْ بالكَفافِ تعِشْ رخيا ولا تبغِ الفضول من الكفافِ

ففي خبز القفار بغير أُدمٍ وفي ماء [القِراح] غنًى وكافِ

وفي الثوب المرقَّع ما يُغطَّى به من كلِّ عريٍ وانكشافِ

وكلُّ تزيُّن بالمرء زين وأزينه التزيُّنُ بالعفافِ[6]

---

(١) ((الصحاح تاج اللغة)) للجوهري (١٢٧٣/٣).

(٢) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١٤/٣).

(٣) ((المصدر السابق)) (٤٣/٣).

(٤) ((المصدر السابق)) (٤٥/٣).

(٥) ((مختصر تاريخ دمشق)) لابن منظور (٢٠٣/٥)، ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٥٣٧/٢).

(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص١٥٠).

وقال آخر:

هي القناعةُ لا ترضَى بها بدلا ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدنِ

انظرْ لمن ملَك الدُّنيا بأجمعِها ... هل راح منها بغير القطن والكفن[1]

وقال عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إذا المرءُ لم يقنَعْ بعيشٍ فإنَّه ... وإن كان ذا مالٍ من الفقرِ مُوقرُ[2]

إذا كان فضلُ الناس يُغنيك بينهم ... فأنت بفضل الله أغنى وأيسرُ[3]

وقال آخر:

نصف القنوع وأينا يقنع ... أو أينا يرضى بما يجمع

لله درُّ ذوي القناعةِ ما ... أصفى معاشهم وما أوسع

من كان يبغي أن يلذَّ وأن ... تهدى جوارحه فما يطمع

فقرُ النفوس بقدر حاجتها ... وغنى النفوس بقدر ما تقنع[4]

وقال محمود الوراق:

غنى النفس يغنيها إذا كنت قانعا ... وليس بمغنيك الكثيرُ مع الحرصِ

وإن اعتقاد الهمِّ للخير جامعٌ ... وقلةُ همِّ المرء يدعو إلى النقصِ[5]

وقال آخر:

رضيتُ من الدنيا بقوتٍ يقيمني ... فلا أبتغي مِن بعده أبدًا فضلا

---

(١) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٢/٥٣٧).

(٢) موقر: من الوقر الحمل الثقيل. ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٨٩).

(٣) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص١٥٠).

(٤) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/١٥٦).

(٥) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٣/١٥٨).

ولست أرومُ القُوتَ إلَّا لأنَّه ... يُعينُ على علمٍ أردُّ به جهلا
فما هذه الدنيا بطِيبِ نعيمها ... لأيسرِ ما في العلمِ من نكتةٍ عَدلا[(١)]

وقال آخر:

عليك بتقوَى اللهِ واقنعْ برزقِه ... فخيرُ عبادِ اللهِ مَن هو قانعُ
ولا تُلهِك الدنيا ولا تطمعْ بها ... فقد يُهلك المغرورَ فيها المطامعُ[(٢)]

وقال ابن تيمية:

وجدتُ القناعةَ ثوبَ الغنى ... فصرتُ بأذيالها أمتسكْ
فألبسني جاهُها حلةً ... يمرُّ الزمانُ ولم تُنتهَكْ
فصرتُ غنيًّا بلا درهمٍ ... أمرُّ عزيزًا كأنِّي مَلِكْ[(٣)]

وما أحسن قول الشافعي:

خَبَرتُ بَني الدنيا فلم أرَ منهم ... سِوى خادعٍ والخبثُ حشوُ إهابِه
فجرَّدتُ عن غِمدِ القناعةِ صارمًا[(٤)] ... قطعتُ رجائي منهمُ بذُبابِه
فلا ذا يراني واقفًا بطريقِه ... ولا ذا يراني قاعدًا عندَ بابِه
غنيٌّ بلا مالٍ عن الناسِ كلِّهم ... وليس الغِنى إلا عن الشيءِ لا به[(٥)]

وقال آخر:

إذا أظمأتك أكفُّ اللئامِ ... كفَتْك القناعةُ شِبَعًا ورِيًّا

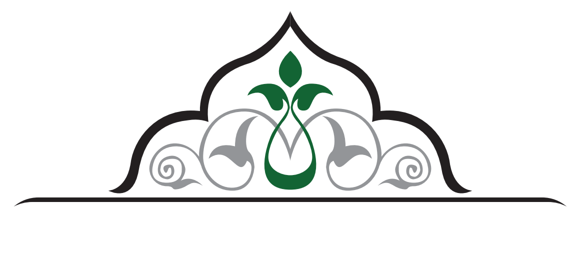
---

(١) ((القناعة)) لابن السني (٤٦/١).
(٢) ((التبصرة)) لابن الجوزي (١٥٦/٢).
(٣) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٥٣٨/٢).
(٤) الصارم: السيف القاطع. ((لسان العرب)) لابن منظور (٣٣٥/١٢).
(٥) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٥٤٣/٢).

فكن رجلًا رِجله في الثَّرَى   وهـامـةُ همَّـتِـه في الـثُّـريَّـا
أبـيًّـا لـنـائـلِ ذي ثـروةٍ   تَـراه بمـا في يـديـه أبـيـا
فـإنَّ إراقـةَ مـاءِ الحـيـاةِ   دونَ إراقـةِ مـاءِ المحـيَّـا[1]



(١) ((الكشكول)) للعاملي (٢/٢٦٨)، والمحيا: الوجه. ((مختار الصحاح)) للرازي (٨٦).



كِتْمَان السِّرِّ



كتمَان السِّرِّ

كتمان السِّرِّ لغةً واصطلاحًا:

• الكتمان لغةً:

الكتمان مصدر كتم، من باب نصر، يقال: كتم الشيء كَتمًا وكِتمانًا: ستره وأخفاه[١].

• الكتمان اصطلاحًا:

الكتمان هو: ستر الحديث[٢].

وقيل: (هو ضبط النفس ضد دوافع التعبير عما يختلج فيها)[٣].

• السِّر لغةً:

السِّرُّ: ما تكتمه وتخفيه، وهو خلاف الإعلان، وجمعه أسرار. والسرِيرةُ: كالسِّرِّ، والجمع السرائر، وأسْرَرْت الحديث إسرارًا أخفيته[٤].

• السِّر اصطلاحًا:

السِّر هو: الحديث المكتتم في النفس[٥].

الفرق بين الكتمان والسِّرِّ والنَّجوى والاختفاء:

• الفرق بين النَّجوى والسِّرِّ:

(أنَّ النجوى: اسم للكلام الخفي الذي تناجي به صاحبك، كأنَّك

---

(١) ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٦٦)، ((المعجم الوسيط)) (٢/٧٧٦).

(٢) ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص ٧٠٢).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٢/٣٤٣).

(٤) انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/٣٥٦). و((تاج العروس)) للزبيدي (١٢/٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/٢٧٣)، ((المعجم الوسيط)) (١/٤٢٦).

(٥) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص ١٩٣).

ترفعه عن غيره، وذلك أنَّ أصل الكلمة الرفعة، ومنه النجوة من الأرض، وسمِّي تكليم الله تعالى موسى عليه السلام مناجاةً؛ لأنَّه كان كلامًا أخفاه عن غيره.

والسِّرُّ: إخفاء الشيء في النفس، ولو اختفى بسترٍ، أو وراء جدارٍ لم يكن سرًّا، ويقال في هذا الكلام سر تشبيهًا بما يخفي في النفس، ويقال: سري عند فلان، تريد ما يخفيه في نفسه من ذلك، ولا يقال: نجواي عنده. وتقول لصاحبك: هذا أُلقيه إليك. تريد المعنى الذي تخفيه في نفسك، والنجوى تتناول جملة ما يتناجى به من الكلام، والسِّر يتناول معنى ذلك، وقد يكون السِّر في غير المعاني مجازًا تقول: فعل هذا سرًّا، وقد أسرَّ الأمر. والنجوى لا تكون إلا كلامًا)[1].

- **الفرق بين الكتمان والإسرار:**

(قيل: المكتوم يختص بالمعاني، كالأسرار والأخبار؛ لأنَّ الكتمان لا يستعمل إلا فيهما.

والمستور يختص بالجثث والأعيان؛ لأنَّ الأصل في السِّر تغطية الشيء بغطاء. ثم استعمل في غيرها تجوزًا)[2].

- **الفرق بين الكتمان والاختفاء:**

(أن الكتمان هو السكوت عن المعنى، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٩] أي: يسكتون عن ذكره.

والإخفاء: يكون في ذلك وفي غيره، والشاهد أنك تقول: أخفيت الدرهم

(١) ((الفروق)) لأبي هلال العسكري (ص٥٣٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص٤٤٨).

في الثوب. ولا تقول: كتمت ذلك. وتقول: كتمت المعنى وأخفيته. فالإخفاء أعمُّ من الكتمان)(١).

كتمان السِّر في الكتاب والسنة:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى حكايةً عن كتمان يوسف عليه السلام للرؤيا التي رآها بأمر من أبيه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرُّون له ساجدين إجلالًا، وإكرامًا، واحترامًا، فخشي يعقوب عليه السلام، أن يحدِّث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسدًا منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها... ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر)(٢).

وقال سبحانه في مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

---

(١) ((الفروق)) لأبي هلال العسكري (ص٤٤٧).

(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) (٤/٣٧١).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إنَّ من أشرِّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرَّها))(١).

قال ابن الجوزي: (المراد بالسرِّ ها هنا: ما يكون من عيوب البدن الباطنة، وذاك كالأمانة فلزم كتمانه)(٢).

- وعن جابر رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((إذا حدَّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة))(٣).

قال المناوي في شرحه لهذا الحديث: (قوله: إذا حدَّث الرجل. أي: الإنسان فذكر الرجل غالبي .الحديث. وفي رواية:أخًا له بحديث. وفي أخرى: إذا حدث رجل رجلًا بحديث ثم التفت. أي: غاب عن المجلس، أو التفت يمينًا وشمالًا، فظهر من حاله بالقرائن أنَّ قصده أن لا يطَّلع على حديثه غير الذي حدَّثه به. فهي. أي: الكلمة التي حدثه بها. أمانة. عند المحدث أودعه إياها، فإن حدَّث بها غيره فقد خالف أمر الله، حيث أدَّى الأمانة إلى غير أهلها، فيكون من الظالمين فيجب عليه كتمها؛ إذ التفاته بمنزلة استكتامه بالنطق، قالوا وهذا من جوامع الكلم، لما في هذا اللفظ الوجيز من الحمل على آداب العشرة، وحسن الصحبة، وكتم السِّر، وحفظ الودِّ، والتحذير من النَّمِيمَة بين الإخوان، المؤدية للشنآن(٤) ما لا يخفى)(٥).

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٧).
(٢) ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) (١٧٤/٣).
(٣) رواه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٣٧٩/٣) (١٥١٠٤). وحسنه الترمذي، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٨٦).
(٤) شنأه: أبغضه وتجنبه. ((المعجم الوسيط)) (٤٩٥/١).
(٥) ((فيض القدير)) (٣٢٩/١).

أقوال السلف والعلماء في كتمان السر:

- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (سرُّك أسيرك، فإن تكلمت به، صرت أسيره)[١].

- وقال عمرو بن العاص: (عجبت من الرجل يفرُّ من القدر، وهو مواقعه! ويرى القذاة[٢] في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه! ويخرج الضغن[٣] من نفس أخيه، ويدع الضغن في نفسه! وما وضعت سرِّي عند أحد فلمته على إفشاءه، وكيف ألومه وقد ضقت به ذراعا؟)[٤].

- وقال أيضًا: (ما وضعت سرِّي عند أحد أفشاه عليَّ فلمته، أنا كنت أضيق به حيث استودعته إياه)[٥].

- وأسرَّ معاوية رضي الله عنه إلى الوليد بن عتبة حديثًا، فقال لأبيه: (يا أبت، إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثًا، وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك. قال: فلا تحدثني به؛ فإنَّ من كتم سرَّه كان الخيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: قلت: يا أبت، وإنَّ هذا ليدخل بين الرجل وبين أبيه؟ قال: لا والله يا بني، ولكن أحبُّ أن لا تذلل لسانك بأحاديث السرِّ. فأتيت معاوية رضي الله عنه فحدثته، فقال: يا وليد، أعتقك أخي من رقِّ الخطأ)[٦].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٣٠٦).

(٢) القذى: ما يقع في العين وما ترمي به، وجمعه أقذاء وقذي، والقذاة الطائفة من القذي. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٧٢/١٥).

(٣) الضغن: الحقد والعداوة والبغضاء. ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٩١/٣).

(٤) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٨٨٦)، والبيهقي في ((القضاء والقدر)) (ص ٣٠٩). وصحح إسناده الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٦٨٥).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص ٢١٤).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (ص ٢١٤)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٢٧١/٣٨).

- وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: (القلوب أوعية الأسرار، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كلُّ امرئ مفتاح سرِّه)[١].

- وعن الحسن رحمه الله، قال: (سمعته يقول: إنَّ من الخيانة أن تحدِّث بسرِّ أخيك)[٢].

- وقال أبو حاتم: (من حصَّن بالكتمان سرَّه تمَّ له تدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكن والظفر والحازم يجعل سره في وعاء، ويكتمه عن كل مستودع، فإن اضطره الأمر وغلبه، أودعه العاقل الناصح له؛ لأنَّ السِّر أمانة، وإفشاؤه خيانة، والقلب له وعاؤه، فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتسع لما استودع)[٣].

- وقال أيضًا: (الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهره لصديقه، وكفى لذوي الألباب عبرًا ما جربوا، ومن استودع حديثًا فليستر، ولا يكن مهتاكًا، ولا مشياعًا؛ لأن السِّر إنَّما سمِّي سرًّا؛ لأنَّه لا يفشى، فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسرِّه من صدر غيره، بأن لا يفشيه)[٤].

- وقال: (الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السِّر استحقَّ الندم، ومن استحق الندم صار ناقص

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٨).

(٢) ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص ٢١٤).

(٣) ((روضة العقلاء)) (ص ١٨٩).

(٤) ((المصدر السابق)) (ص ١٩٠).

العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل، فتحصين السِّرِّ للعاقل أولى به من التلهُّف بالندم بعد خروجه منه، ولقد أحسن الذي يقول:

خشيت لساني أن يكون خؤونا فأودعته قلبي فكان أمينا
فقلت ليخفى دون شخصي وناظري أيا حركاتي كن في سكونا[1]

- وقال ابن الجوزي: (رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرِّهم، فإذا ظهر، عاتبوا من أخبروا به. فوا عجبًا! كيف ضاقوا بحبسه ذرعًا، ثم لاموا من أفشاه؟!)[2].

- وقال الراغب الأصفهاني: (إذاعة السِّر من قلة الصبر، وضيق الصدر، وتوصف به ضعفة الرجال والصبيان والنساء)[3].

فوائد كتمان السر:

١- حفظ الأسرار من علامات المروءَة والنبل.

٢- من أعظم أسباب النصر على الأعداء.

٣- درء مفسدة الحقد والحسد.

٤- تُقَوِّي الصِّلة بين الإخوة.

٥- تُقَوِّي الثقة بين الزوجين[4].

٦- كتمان الأسرار سبب من أسباب النجاح، وأدوم لأحوال الصلاح[5].

٧- كتمان السِّر كرم فِي النَّفس، وسمو فِي الهمة، وَدَلِيل على المروءَة،

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٩١).
(٢) ((صيد الخاطر)) (ص ٢٧٣).
(٣) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٢١٣).
(٤) انظر: ((الرائد..دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (ص ٢١٧).
(٥) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٦).

وسبب للمحبة، ومبلغ إلى جليل الرتبة[١].

أنواع السر:

قال الراغب الأصفهاني: (السِّرُّ ضربان؛ أحدهما: ما يلقي الإنسان من حديث يستكتم، وذلك إمَّا لفظًا، كقولك لغيرك: اكتم ما أقول لك، وإمَّا حالًا، وهو أن يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده، أو يخفض صوته، أو يخفيه عن مجالسيه، ولهذا قيل: إذا حدَّثك الإنسان بحديث فالتفت فهو أمانة.

والثاني: أن يكون حديثًا في نفسك بما تستقبح إشاعته، أو شيئًا تريد فعله، وإلى الأول من ذلك أشار النَّبي بقوله صلى الله عليه وسلم: ((من أتى منكم من هذه القاذورات شيئًا فليستتر بستر اللَّه))[٢]، وإلى الثاني أشار من قال: ((من وهن الأمر إعلانه قبل إحكامه))[٣].

وكتمان النوع الأول من الوفاء، ويختص بعامة الناس، والثاني من الحزم والاحتياط، وهو مختص بالملوك وأصحاب السياسات... والسبب في أنَّه يصعب كتمان السِّر هو: أن للإنسان قوتين، آخذة، ومعطية. وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها، ولولا أنَّ اللَّه تعالى وَكَل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار من لم تزوده، فصارت هذه القوَّة تتشوف إلى فعلها الخاص بها، فعلى الإنسان أن يمسكها ولا يطلقها إلى حيث ما يجب إطلاقها، ولا يخدعنَّك عن سرِّك قول من قال: وأكتم السِّر فيه ضربة العنق.

---

(١) ((المروءَة)) لأبي بكر بن المرزبان (ص ١٢٢).

(٢) رواه الحاكم (٤/٢٧٢)، والطحاوي في ((شرح المشكل)) (١/٨٦) (٩١) والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٨/٥٧٢) (١٧٦٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. وحسن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١٠٣٠).

(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/٩٨)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٦/١٢٦).

وقول من ينشدك:

ويكاتم الأسرار حتى كأنه ... ليصونها عن أن تمر بباله

فذلك قول من يستنزلك عما في قلبك، فإذا استفزع ما عندك لم يرْعَ فيه حقَّك، فقد قيل: الصبر على القبض على الجمر أيسر، من الصبر على كتمان السر. وما أصدق من أنبأ عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه: أريد أن أفشي إليك سرًّا تحفظه عليَّ، فقال، لا أريد أن أوذي قلبي بنجواك، وأجعل صدري خزانة شكواك، فيقلقني ما أقلقك، ويؤرقني ما أرقك، فتبيت بإفشائه مستريحًا، ويبيت قلبي بحرِّه جريحًا)[١].

صور كتمان السر:

لا شك أن الأصل في السِّر كتمانه وعدم إفشائه، ويستثنى من هذا الأصل بعض المجالس التي لا حرمة لأسرارها.

١- كتمان قضاء الحاجات:

من يريد أن يقوم بعمل ما، عليه أن يكتمه وأن لا يحدث به كل أحد حتى يقوم بإكماله.

قال الشاعر:

وإن أردتَ نجاحًا في كل آونةٍ ... فاكتم أمورك عن حاف ومنتعلِ[٢]

٢- كتمان الأسرار الزوجية:

كتمان الأسرار الزوجية من الأمور (التي يجب حفظها وعدم إفشائها...

(١) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص ٢١٢).
(٢) ((جواهر الأدب)) لأحمد الهاشمي (٢/٤٣٤).

فهو أولًا: حق المرأة في عدم إفشاء ما يكون منها لزوجها، وهو ثانيًا: حق الآداب الإسلامية العامة التي توصي بستر مثل هذه الأمور، فالمرء مستأمن عليها من جهتين، جهة الآداب الإسلامية، وجهة صاحب الحق الخاص)[1].

فعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من أشرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها))[2].

٣- كتمان أسرار الدولة:

لا شك أن الدول تكون لها أسرارها التي لا ينبغي كشفها أو اطلاع أحد عليها، وخاصة الأسرار الحربية، وقد كان النَّبي صلى الله عليه وسلم يكتم الأسرار، ومنها ما يتعلق بالأسرار الحربية والعسكرية، فكان من هديه إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها[3].

وأرسل سرية بقيادة عبد الرحمن بن جحش ((وكتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به صلى الله عليه وسلم، ولا يستكره من أصحابه أحدًا فلما سار بهم يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، وترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر في الكتاب قال: سمعًا وطاعةً، وأخبر أصحابه بما في الكتاب وقال: قد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (٣٤٦/٢).

(٢) رواه مسلم (١٤٣٧).

(٣) رواه الدارمي (٢٨٩/٢)، والطيالسي في ((المسند)) (١٤٩/٢)، والبيهقي (١٥٠/٩)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٦٦٢).

أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد)[١].

نماذج في كتمان السر:

• نماذج من كتمان السِّر في حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم:

- كان للكتمان أثر كبير في مباغتة النَّبي صلى الله عليه وسلم للعدو:

(فبعد شهرين من غزوة أحد بلغ النَّبي صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابني خويلد يحرضان قومهما بني أسد بن خزيمة، لغزو المدينة المنورة ونهب أموال المسلمين فيها، وقرر النَّبي صلى الله عليه وسلم إرسال جيش من المسلمين، وأمرهم بالسير ليلًا والاستخفاء نهارًا، وسلوك طريق غير مطروقة حتى لا يطلع أحد على أخبارهم ونياتهم، فباغتوا بذلك بني أسد في وقت لا يتوقعونه)[٢].

- وفي غزوة (دومة الجندل) قاد النَّبي صلى الله عليه وسلم ألف راكب وراجل، من المهاجرين والأنصار، لمنع القبائل التي تقطن (دومة الجندل) من قطع الطرق ونهب القوافل، والقضاء على حشودها التي تزمع غزو المدينة المنورة.

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين من المدينة المنورة يكمن بهم نهارًا ويسير ليلًا، وقد قطع المسلمون المسافة بين المدينة المنورة و(دومة الجندل) فلم يجد المسلمون أحدًا منهم... وعاد المسلمون من (دومة الجندل) بعد أن أقاموا فيها بضعة أيام. إن كتمان نيات المسلمين بالمسير ليلًا هو الذي جعلهم

---

(١) رواه ابن هشام في ((السيرة النبوية)) (١٤٦/٣-١٤٧). قال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٢٤٧/٣): [له] شواهد مسندة.

(٢) ((الرسول القائد)) لمحمود شيت (٢٠٣).

ينتصرون على أعدائهم[١].

- وفي غزوة فتح مكة المكرمة بلغ النَّبي صلى الله عليه وسلم في تطبيق عامل الكتمان حد الرَّوعة، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالًا من أعظم أمثلة التاريخ العسكري في تطبيق الكتمان إلى أبعد الحدود.

وأمر أهله أن يجهزوه، ولكنه لم يخبر أحدًا من المسلمين في الداخل أو الخارج بنياته، وأهدافه من حركته واتجاهها، بل أخفى نياته وأهدافه واتجاه حركته حتى عن أقرب المقربين إليه، ولما اقترب موعد الحركة صرَّح الرسول صلى الله عليه وسلم بأنَّه سائر إلى مكة المكرمة، ولكنه بث عيونه وأرصاده؛ ليحول دون وصول أخبار اتجاه حركته إلى قريش، وبعث حاطب بن أبي بلتعة رسالة أعطاها امرأة متوجهة إلى مكة المكرمة، أخبرهم في تلك الرسالة بنيات المسلمين في التوجه إلى فتح مكة المكرمة[٢]. فعن عبيد الله بن أبي رافع، قال: سمعت عليًّا رضي الله عنه، يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير، والمقداد بن الأسود، قال: ((انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها[٣]، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله

---

(١) ((دروس في الكتمان من الرسول القائد)) لمحمود شيت (ص ٢٣).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٣١).

(٣) عقاصها: بكسر العين أي شعرها المضفور، وهو جمع عقيصة. ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٦/٥٦).

عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ إني كنت امرأً ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة، يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد صدقكم. قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: إنَّه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))[(١)].

- **نماذج للصحابة في كتمان السِّرِّ:**

– روى البخاري عن عبد الله بن عمر، أنَّ عمر رضي الله عنه حين تأيمت بنته حفصة من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شهد بدرًا، توفي بالمدينة، قال عمر: ((فلقيت عثمان ابن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلي شيئًا، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت، إلا أني قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرَّ

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (١٦١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها لقبلتها))(١).

- وعن عائشة قالت: ((كنَّ أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم عنده لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا، فلما رآها رحَّب بها فقال: مرحبًا بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت. فقلت لها: خصَّك رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين نسائه بالسرار، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها، ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرَّه. قالت: فلما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت عزمت عليك بما لي عليك من الحقِّ لما حدثتني ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى فأخبرني: أن جبريل كان يعارضه القرآن في كلِّ سنة مرة أو مرتين، وإنَّه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك. قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية، فقال: يا فاطمة، أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت))(٢).

- وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: ((أتى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم- وأنا ألعب مع الغلمان- قال: فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة،

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة. قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سرٌّ. قالت: لا تحدثنَّ بسرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا. قال أنس: والله لو حدثت به أحدًا لحدثتك يا ثابت))[١].

- وكان حذيفة بن اليمان صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فعن علقمة قال: (قدمت الشام فصليت ركعتين ، ثم قلت : اللهم يسر لي جليسا صالحا ، فأتيت قوما فجلست إليهم ، فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبي ، قلت : من هذا ؟ قالوا : أبو الدرداء ، فقلت : إني دعوت الله أن ييسر لي جليسا صالحا ، فيسرك لي ، قال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة ، قال : أو ليس عندكم ابن أم عبد ، صاحب النعلين والوساد والمطهرة ، وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان - يعني على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم - أو ليس فيكم صاحب سر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلمه أحد غيره؟ -يعني حذيفة ابن اليمان-)[٢].

صفات أمين السرِّ:

ذكر الماوردي بعض الصفات التي يلزم أن تتوفر في الشخص الذي يُؤتمن على السرِّ، فقال:

١- (أن يكون ذا عقل صاد.

٢- ودين حاجز.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٨٢).

(٢) رواه البخاري (٣٧٤٢).

٣- ونصح مبذول.

٤- وود موفور.

٥- وكتومًا بالطبع.

فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة، وتوجب حفظ الأمانة)[١].

حكم وأمثال في كتمان السر:

- (كن على حفظ سرك، أحرص منك على حقن دمك.

- من وهن الأمور إعلانه قبل إحكامه.

- لا تنكح خاطب سرك.

- كلما كثر خزان الأسرار ازدادت ضياعًا.

- قلوب العقلاء حصون الأسرار.

- انفرد بسرك، ولا تودعه حازمًا فيزل، ولا جاهلًا فيخون)[٢].

- وقيل: أصبرُ النَّاس مَن صبر على كتمان سرِّه، فلم يبده لصديقه.

- الصَّبر على التهاب النار أهون من الصَّبر على كتمان السرِّ[٣].

- صدرك أوسع لسرِّك[٤].

- وكان يقال: الكاتم سرَّه بين إحدى فضيلتين: الظَّفر بحاجته، والسلامة من شرِّ إذاعته[٥].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٨).
(٢) ((التمثيل والمحاضرة)) لأبي منصور الثعالبي (ص ٤٢٠).
(٣) ((مجمع الأمثال)) للميداني (ص ٣٩٦).
(٤) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (ص ١٦٢).
(٥) ((نهاية الأرب)) للنويري (ص ٨٣).

كتمان السِّرِّ في واحة الشعر:

قال: أنس بن أسيد:

ولا تُفشِ سرَّك إلا إليك ... فإنَّ لكلِّ نصيح نصيحًا
فإني رأيتُ وُشاةَ الرجالِ ... لا يتركون أديمًا صحيحًا[1]

وقال علي بن محمد البسامي:

تبيحُ بسرِّك ضيقًا به ... وتبغي لسرِّك مَن يكتمُ
وكتمانُك السِّرَّ ممن تخافُ ... ومَن لا تخافنَّه أحزمُ
إذا ذاع سرُّك من مخبَرٍ ... فأنت وإن لمته ألومُ[2]

وقال آخر:

إذا المرءُ أفشَى سرَّه بلسانه ... ولام عليه غيره فهو أحمقُ
إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِه ... فصدرُ الذي يُستودعُ السِّرَّ أضيقُ[3]

وقال عبد العزيز بن سليمان:

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن بعضِ سرِّه ... فألقاه في صدري فصدري أضيقُ
ومَن لامني في أن أُضيِّع سِرَّه ... وضيَّعه قبلي فذو السِّر أخرقُ[4]

وقال الصلتان السعدي:

وسرُّك ما كان عندَ امرئٍ ... وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخفِي[5]

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٧). وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (٤٠٥).

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٨٨).

(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٧).

(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٨٨).

(٥) ((الحيوان)) للجاحظ (٣/٢٣٠).

وقال آخر:

فلا تنطق بسرِّك كلُّ سرٍّ إذا ما جاوز الاثنين فاشي[١]

وقال بعض الشعراء:

ولو قدرتُ على نسيانِ ما اشتملتْ مني الضلوعُ على الأسرارِ والخبرِ
لكنت أولَ من ينسى سرائرَه إذا كنت مِن نشرِها يومًا على خطرِ[٢]

وحكي أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السِّرِّ فقال ابنه:

ومستودعي سرًّا تضمنت سرَّه فأودعته من مستقر الحشى قبرًا
ولكنني أخفيه عنِّي كأنني من الدهر يومًا ما أحطتُ به خبرًا
وما السِّرُّ في قلبي كمَيْتٍ بحفرة لأنِّي أرى المدفون ينتظر النشرا[٣]

قال الشاعر:

إنَّ الكريم الذي تبقَى مودَّتُه ويحفظُ السرَّ إن صافى وإن صرما
ليس الكريم الذي إن غاب صاحبُه بثَّ الذي كان مِن أسرارِهِ علما[٤]

وقال آخر:

وكنت إذا استودعت سرًّا كتمته كبَيْضِ أَنُوقٍ لا يُنال لها وكرُ[٥]

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٨).
(٢) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/٩٧).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٠٨).
(٤) ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص ٥٧٢).
(٥) ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/١١٥)، والأنوق اسم للرخَمَة، وهي أبعد الطير وَكْرًا.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة



موسوعة الأخلاق

الجزء الثاني عشر

كَظْم الغَيْظ - المحَبَّة- المُدارَاة - المُرُوءَة

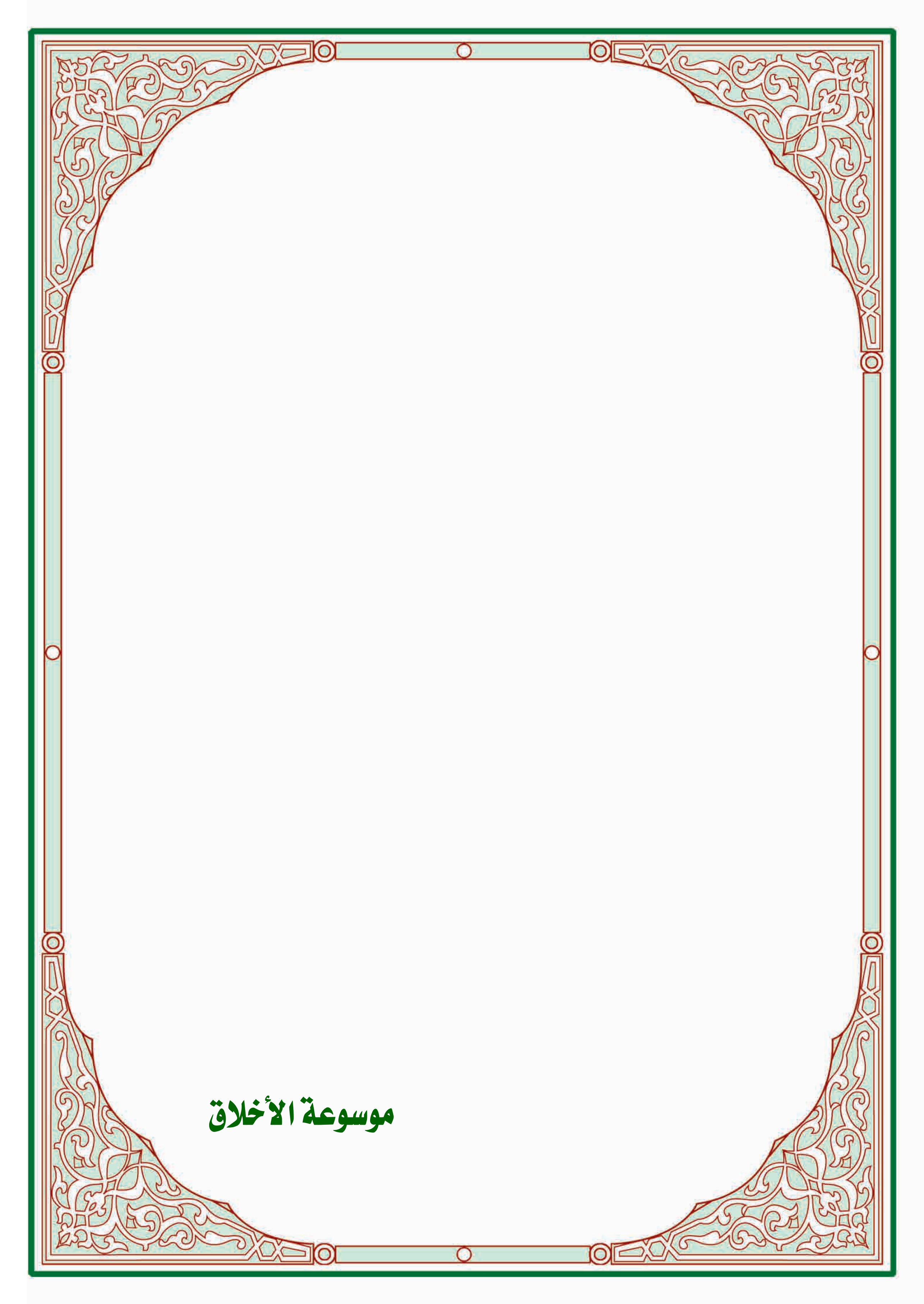
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف




موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الثاني عشر

كَظْم الغَيْظ - المحَبَّة- المُدَارَاة - المُرُوءَة

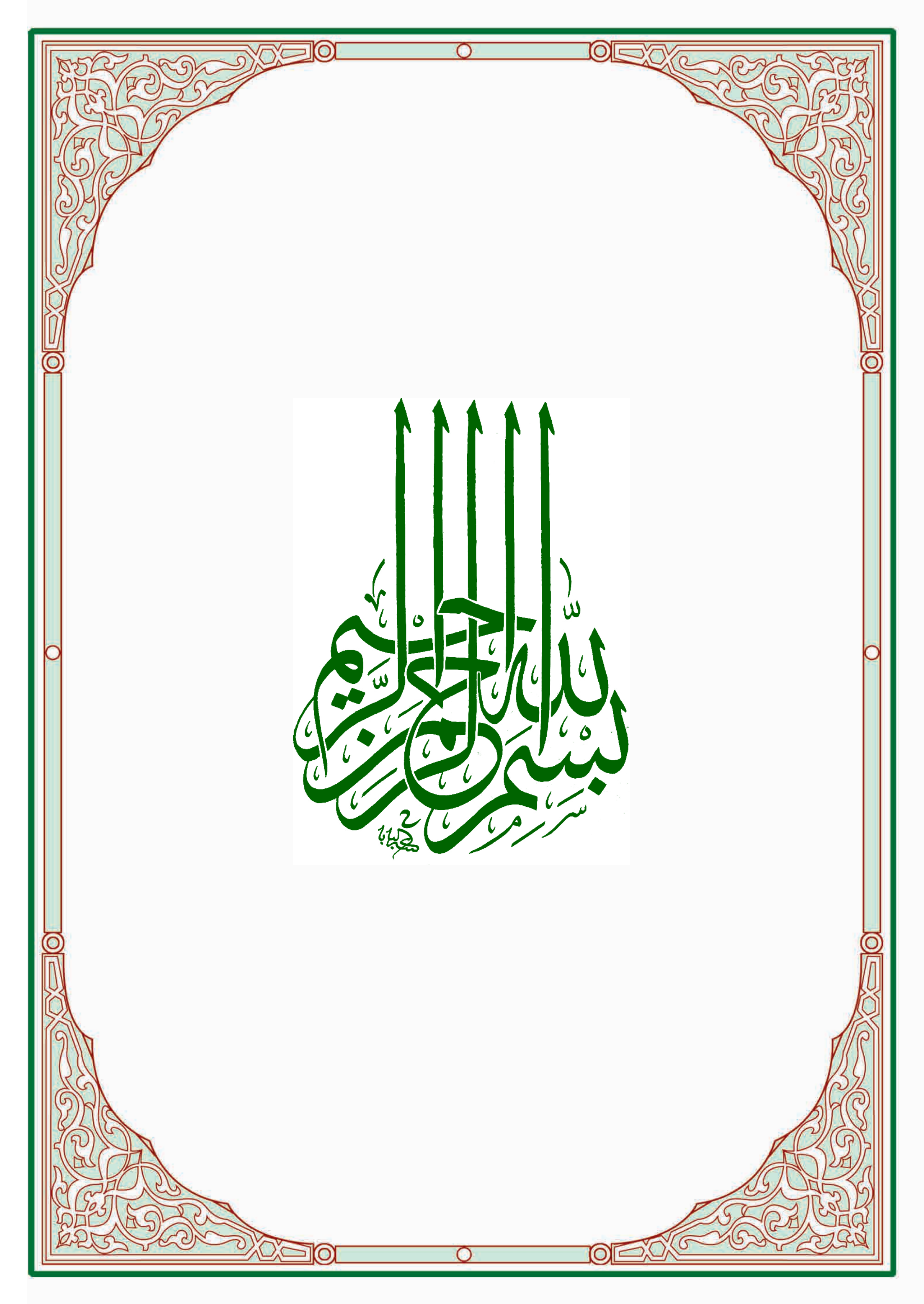
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

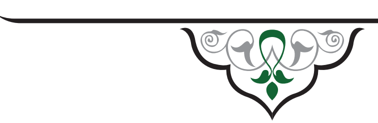
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net



بسم الله الرحمن الرحيم



كَظْم الغَيْظ



كَظْم الغَيْظ

معنى كَظْم الغَيْظ لغةً واصطلاحًا:

• معنى الكَظْم لغةً:

أصل مادة كظم يَدُلُّ على معنًى واحد، وهو الإمساك، والجَمعُ للشَّيء.

وأَصْل الكَظْم: حَبْسُ الشَّيء عن امتلائه، يقال: كَظَمْت القِرْبَة، إذا ملَأْتها.

ويقال: كَظَمْت الْغَيْظ، أَكْظِمُه كَظْمًا، إِذا أمْسَكت على ما في نفسك منه(١).

قال المناوي: (الكَظْم: الإمْسَاك على ما في النَّفس من صَفْحٍ أو غَيْظٍ)(٢).

• معنى الغَيْظ لغةً:

الغَيْظ: الغَضَب، وقيل: الغَيْظ غَضَبٌ كامنٌ(٣) للعاجز، وقيل: هو أشدُّ من الغَضَب، وقيل: هو سَوْرَته وأوَّله. وغِظْت فلانًا، أَغِيظُه غَيْظًا. وقد غَاظَه، فاغْتَاظ. وغَيَّظه، فتَغَيَّظ، وهو مَغِيظ(٤).

وقال الأصفهاني: (الغَيْظ: أشدُّ الغَضَب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه)(٥).

---

(١) ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس (١٨٤/٥)، ((الكشف والبيان عن تفسير القرآن)) للثَّعلبي (١٦٥/٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥١٩/١٢).

(٢) ((التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف)) (ص ٢٨٢).

(٣) كامن: من كَمَنَ يَكمُن، كُمُونًا، فهو كامِن، بمعنى اختفى وتوارى في مكان لا يَفطن له أحد، تقول: (كمن الغيظُ في الصدر) ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١٩٦٠/٣).

(٤) ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٥٠/٧)، وانظر: ((النِّهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤٠٢/٣)، ((جمهرة اللُّغة)) لابن دُريد (٩٣٢/٢)، ((الصِّحاح)) للجوهري (١١٧٦/٣).

(٥) ((المفردات)) (ص ٦١٩).

- **معنى كَظْم الغَيْظ اصطلاحًا:**

كَظْم الغَيْظ: تجرُّعه، واحتمال سببه، والصَّبر عليه(١).

ويقال: كَظَم غَيْظَه، أي: سكت عليه، ولم يُظْهِره بقولٍ أو فعلٍ، مع قُدْرته على إيقاعه بعدوِّه(٢).

وقال ابن عطيَّة: (كَظْم الغَيْظ: ردُّه في الجَوْف إذا كاد أن يخرج مِن كَثْرَته، فضبطه ومَنَعَه)(٣).

الفرق بين الغَيْظ والغَضَب:

قال ابن عطيَّة: (الغَيْظ: أصل الغَضَب، وكثيرًا ما يتلازمان، ولذلك فسَّر بعض النَّاس الغَيْظ بالغَضَب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغَيْظ: فعل النَّفس، لا يظهر على الجوارح. والغَضَبُ: حالٌ لها معه ظهورٌ في الجوارح، وفعلٌ ما ولا بدَّ، ولهذا جاز إسناد الغَضَب إلى الله تعالى، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يُسْند إليه تعالى غيظٌ)(٤).

وقال أبو هلال العسكري: (الفَرْق بين الغَيْظ والغَضَب: أنَّ الإنسان يجوز أن يغْتَاظ مِن نفسه، ولا يجوز أن يغضب عليها، وذلك أنَّ الغَضَب: إرادة الضَّرر للمغضوب عليه. ولا يجوز أن يريد الإنسان الضَّرر لنفسه. والغَيْظ يقرب من باب الغمِّ)(٥).

---

(١) ((فتح الباري)) لابن حجر (١/١٧٩).
(٢) ((تفسير القرطبي)) (٤/٢٠٦)، ((معجم ديوان الأدب)) لأبي إبراهيم الفارابي (٢/١٨٦).
(٣) ((المحرر الوجيز)) (٣/٢٣٣).
(٤) ((المصدر السابق)) (١/٥٠٩).
(٥) ((معجم الفروق اللُّغويَّة)) (ص ١٣٠).

الترغيب في كَظْم الغَيْظ:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

قال ابن عاشور: (الكاظمين الغَيْظ، وكَظْم الغَيْظ: إمسَاكه، وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كَظْم القِرْبة إذا مَلَأَها وأمسك فَمَها، قال المبرِّد: فهو تمثيلٌ للإمْسَاك مع الامتلاء، ولا شكَّ أنَّ أقوى القُوَى تأثيرًا على النَّفس القُوَّة الغَاضِبة، فتشتهي إظهار آثار الغضَب، فإذا استطاع إمْسَاك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دلَّ ذلك على عزيمةٍ راسخةٍ في النَّفس، وقهر الإرادة للشَّهوة، وهذا من أكبر قُوى الأخلاق الفاضلة)[1].

قال الطِّيبي: (وإنَّما حُمِد الكَظْم؛ لأنَّه قهْر للنَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ولذلك مدحهم الله- تعالى- بقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ومن نهى النَّفس عن هواه، فإنَّ الجنَّة مأواه، والحور العين جزاءه. قلت: وهذا الثَّناء الجميل، والجزاء الجزيل إذا ترتَّب على مجرَّد كَظْم الغَيْظ، فكيف إذا انضمَّ العَفو إليه، أو زاد بالإحسان عليه)[2].

- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصِّلت: ٣٤-٣٥].

---

(١) ((التَّحرير والتَّنوير)) (٤/٩١).

(٢) ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (٨/٣١٨١).

قال الزَّجَّاج: (وما يُلَقَّى هذه الفِعلة وهذه الحالة -وهي دفع السَّيئة بالحسنة- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كَظْم الغَيْظ، واحتمال المكروه)(١).

- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٦].

قال الطَّبري: (يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين: وإن عاقبتم أيُّها المؤمنون مَنْ ظَلَمَكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم مِنْ العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به مِن الظُّلم، ووَكَلْتم أمره إليه، حتى يكون هو المتولِّي عقوبته، ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ يقول: للصَّبر عن عقوبته بذلك، خيرٌ لأهل الصَّبر احتسابًا، وابتغاء ثواب الله؛ لأنَّ الله يعوِّضه مِن الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظُلْمه إيَّاه من لذَّة الانتصار، وهو من قوله ﴿لَهُوَ﴾ كِنَايَة عن الصَّبر، وحُسْن ذلك، وإن لم يكن ذَكَرَ قبل ذلك الصَّبرَ؛ لدلالة قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عليه)(٢).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الشَّديد بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغَضَب))(٣).

قال النَّوويُّ: (فيه كَظْم الغَيْظ، وإمْسَاك النَّفس عند الغَضَب عن الانتصار والمخاصمة والمنازعة)(٤).

---

(١) ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣٦/٤)، ((تفسير البغوي)) (١٣٤/٤).
(٢) ((تفسير الطبري)) (٣٢٢/١٧).
(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٤) ((شرح النَّووي على مسلم)) (١٦٢/١٦).

قال المناوي: (... ((ليس الشَّديد بالصُّرَعَة)). بضمٍّ، فَفَتْح، مَن يَصْرَع النَّاس كثيرًا، أي: ليس القَوِيُّ من يقدر على صَرْع الأبطال مِن الرِّجال. ((إنَّما الشَّديد)). على الحقيقة. الذي يملك نفسه عند الغَضَب.

أي: إنَّما القويُّ -حقيقةً- الذي كَظَم غَيْظَه عند ثَوَرَان الغَضَب، وقاوَم نفسه، وغَلَب عليها، فحوَّل المعنى فيه من القُوَّة الظَّاهرة إلى الباطنة)[١].

- عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من جَرْعَةٍ أعظم أجرًا عند الله، مِن جَرْعَةِ غَيْظٍ كظمها عبد ابتغاء وجه الله))[٢].

والمعنى: (ما مِن جَرْعَةٍ أعظم أجرًا عند الله تعالى مِن جَرْعَة غَيْظٍ، كَظَمَها عبدٌ. مع القُدْرَة على التَّنفيذ، شبَّه جَرْع غَيْظِه وردَّه إلى باطنه بتجرُّع الماء، وهي أحبُّ جَرْعةٍ يتجرَّعها العبد، وأعظمها ثوابًا، وأرفعها درجةً لحَبْس نفسه عن التَّشَفِّي، ولا يحصل هذا العِظَم إلَّا عند القُدْرة على الانتقام، وبكفِّ غضبه لله تعالى، ابتغاء وجه الله تعالى)[٣].

- وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ كظم غيظًا، وهو يستطيع أن يُنفذه، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق، حتى يخيِّره في أيِّ الحور شاء))[٤]. (لأنَّه قهر النَّفس

(١) ((التيسير بشرح الجامع الصَّغير)) للمناوي (٢/٣٢١).

(٢) رواه رواه ابن ماجه (٣٣٩٦) واللفظ له، وأحمد (٢/١٢٨) (٦١١٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٣١٤) (٨٣٠٧). من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٣٨٦): رواته محتج بهم في الصحيح ، وحسن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٤/١٦٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٨/٢٣٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٣٩٦)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٧٣٣) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) ((فيض القدير)) للمناوي (٥/٤٧٦).

(٤) رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترِّمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٣٣٩٤)، وأبو يعلى (٣/٦٦) =

الأمَّارة بالسُّوء، والنَّفس مجبولة -في مثله- على الانتقام، والمجازاة بالإساءة. ولذا كان ذلك مِن آداب الأنبياء والمرسلين، ومِن ثمَّة خدَم أنسٌ المصطفى عشر سنين، فلم يقُل له في شيء فعله: لِمَ فعلته؟ ولا في شيء تركه: لِمَ تركته؟ حتى يخيِّره في أي الحور شاء. فيختار ما شاء منهنَّ)[1].

أقوال السَّلف والعلماء في كَظْم الغَيْظ:

- قال عمر بن الخطَّاب: (مَنْ خاف الله لم يَشْفِ غَيْظه، ومَنْ اتَّقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون)[2].

- وقال ابن عبد البر: (مَن كَظَمَ غَيْظَه وردَّ غَضَبه، أخزى شيطانه، وسَلِمت مروءته ودينه)[3].

قال الرَّاغب: (الكَظْم يدفع محذور النَّدم، كالماء يُطفئ حرَّ الضَّرم[4]. كَظْمٌ يتردَّد في حلقي، أحبُّ إليَّ من نقص أجده في خُلُقي)[5].

- وقيل: (اصبر على كَظْم الغَيْظ، فإنَّه يُورث الرَّاحة، ويؤمِّن السَّاحة)[6].

- وقال علي رضي الله عنه: (دُمْ على كَظْم الغَيْظ تُحْمد عواقبك)[7].

= (١٤٩٧)، والطَّبراني (٢٠/١٨٩) (٤١٧)، والبيهقي (٨/١٦١) (١٧٠٨٨). قال التِّرمذي: حسن غريب. وقال الذَّهبي في ((المهذَّب)) (٦/٣٢٦٥): فيه أبو مرحوم عبد الرَّحيم ليس بذاك. وضعَّف إسناده ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٢٨/٤٩٠)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن التِّرمذي)) (٢٠٢١).

(١) ((بريقة محموديَّة)) للخادمي (٣/٤٠٠).

(٢) ((أحكام القرآن)) للجصاص (٢/٤٨).

(٣) ((التمهيد)) لابن عبد البر (٧/٢٥٠).

(٤) حر النار المشتعلة. انظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ١١٣١).

(٥) ((محاضرات الأدباء)) (١/٢٧٧).

(٦) ((صبح الأعشى)) للقلقشندي (١٠/٢١٣).

(٧) ((روض الأخيار)) للأماسي (ص ٣٤٢).

- وقال الغزالي: (كَظْم الغَيْظ عبارة عن التَّحلُّم، أي: تكلُّف الحِلْم، ولا يحتاج إلى كَظْم الغَيْظ إلَّا من هاج غَيْظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعوَّد ذلك مدَّةً، صار ذلك اعتيادًا، فلا يهيج الغَيْظ، وإنْ هاج فلا يكون في كظمه تعبٌ، وهو الحِلْم الطَّبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوَّة الغَضَب، وخضوعها للعقل)[١].

فوائد كَظْم الغَيْظ[٢]:

١- اعتداد الجنَّة له بجعل صاحبه معدًّا ومهيئًا للجنَّة:

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

٢- عِظَم الأجر به وتوفيره:

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من جَرْعَةٍ أعظم أجرًا عند الله، من جَرْعَة غَيْظٍ كَظَمَها عبد ابتغاء وجه الله)).

٣- خضوع العدو وتعظيمه للذي يكظم غيظه:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، قال: الصَّبر عند الغَضَب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا عظَّمهم عدوُّهم، وخضع لهم.

---

(١) ((إحياء علوم الدِّين)) (٣/١٧٦).

(٢) انظر: ((بدائع السلك)) لابن الأزرق (١/٤٥٥).

٤- دلالة قهر الغَضَب به على الشِّدة النَّافعة

ففي الصَّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الشَّديد بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغَضَب)).

٥- التَّغلُّب على الشَّيطان:

عن أنس، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم: مرَّ بقوم يَصْطَرِعون، فقال: ((ما هذا؟ فقالوا: يا رسول الله، فلانٌ الصَّريع، لا ينتدِب له أحدٌ إلَّا صَرَعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألَا أدلُّكم على من هو أشدُّ منه؟ رجلٌ ظلمه رجلٌ، فكَظَم غَيْظَه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه))[(١)].

٦- يعين على ترك الغَضَب:

قال ابن حجر: (استحضار ما جاء في كَظْم الغَيْظ من الفضل يعين على ترك الغَضَب)[(٢)].

٧- سببٌ في دفع الإساءة بالإحسان، والمكروه بالمعروف، والقهر باللُّطف:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصِّلت: ٣٤-٣٥].

---

(١) رواه البزَّار كما في ((كشف الأستار)) (٢/٤٣٩) (٢٠٥٤)، قال الهيثمي في ((مجمع الزَّوائد)) (٨/٧١): فيه شعيب بن بيان، وعمران القطان، وثقهما ابن حبان، وضعفهما غيره، وبقية رجالهما رجال الصَّحيح. وحسَّن إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٠/٥٣٥)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصَّحيحة)) (٣٢٩٥).

(٢) ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/٥٢١).

الوسائل المعينة على كَظْم الغَيْظ:

١- أن يعرف المرء الأجر المترتِّب على كَظْم الغَيْظ والعفو عن المخطئين، ويستشعر أنَّه بذلك يطلب الأجر والثَّواب من عند الله تبارك وتعالى.

٢- إنَّ رحمة المخطئ والشَّفقة عليه داعيةٌ لكَظْم الغَيْظ، وإخماد نار الغَضَب، وهذا السَّبب قد بيَّنه القرآن الكريم، حيث قال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٣- من الأسباب كذلك أن يربِّي المؤمن نفسه على سعة الصَّدر، فإنَّ سعة الصَّدر تحمل الإنسان على الصَّبر في حال الغَضَب، والعفو عند المقدرة، لذا قيل -قديمًا-: (أحسن المكارم؛ عفو المقْتدر، وجود المفْتقر)[١]، وقبل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشُّورى: ٤٣].

٤- كذلك فإنَّ شرف نفس المرء واتِّصافه بعلوِّ الهمَّة، من الأسباب المؤدِّية إلى كَظْم الغَيْظ، فهو يترفَّع عن التَّلفُّظ بما يُنزل نفسه، ويحطُّ من قدرها:

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن كرموا حتى يذِلُّوا وإن عزُّوا لأقوام
ويُشْتموا فترى الألوان مشرقة لا عفو ذُلٍّ ولكن عفو أحلام[٢]

٥- ومن الأسباب كذلك: الحياء من التَّلبُّس بأخطاء المخطئ، ومقابلته فيما يفعل، قال بعض الحكماء: (احتمال السَّفيه خيرٌ من التَّحلِّي بصورته، والإغضاء عن الجاهل خيرٌ من مُشَاكلته)[٣].

---

(١) ((صيد الأفكار)) لحسين بن محمد المهدي (١/٥٩٠).
(٢) ((اللطائف والظرائف)) للثعالبي (ص ١١٥).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٢٥٣).

قال الشَّاعر:

سألزم نفسي الصَّفح عن كلِّ مذنبٍ وإن كثرت منه إليَّ الجرائم
فما النَّاس إلَّا واحد من ثلاثة شريف ومَشْرُوف ومثلي مُقَاوِم
فأمَّا الذي فوقي فأعرف فضله وأتبع فيه الحقَّ والحقُّ قائم
وأمَّا الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته نفسي وإن لام لائم
وأمَّا الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا تفضَّلت إنَّ الفضل بالفخر لازم[(١)]

٦- ومن ذلك أيضًا: تعويد النَّفس وتدريبها على خُلُق الصَّبر، فهو خير معين في مواقف الغَضَب.

٧- ومن الأسباب أيضًا: أن يقطع المرء الملاحاة والجدل في مواقف الخصومة، وأن لا يتمادى في السُّباب والشَّتائم، فقد حُكي أنَّ رجلًا قال لضرار بن القعقاع: (والله لو قلت واحدة؛ لسمعت عشرًا! فقال له ضرار: والله لو قلت عشرًا؛ لم تسمع واحدة)[(٢)].

٨- أن يقدِّم المرء مصلحة الاجتماع والأُلفة على الانتقام للنَّفس؛ فإنَّ ذلك يحمِله على كَظم غَيْظه، والتَّنازل عن حقِّه، ولهذا أثنى النَّبي صلى الله عليه وسلم على الحسن رضي الله عنه بقوله: ((ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين))[(٣)].

٩- تذكير النَّفس بما في الانتقام من نفرة القلوب عن المتشفى به، ومن نسبته إلى الخفَّة والطَّيش، وأشدُّ من ذلك على الرؤساء: إعمال الحيلة عليهم

---

(١) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١٤٢/٢).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٢٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٦٢٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

في طلب الخلاص منهم متى عُرفوا بسرعة البطش ومعالجة الانتقام[١].

نماذج في كَظْم الغَيْظ:

• نماذج في كَظْم الغَيْظ من حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم:

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: ((كنت أمشي مع النَّبي صلى الله عليه وسلم وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجذبه جذبةً شديدةً، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النَّبي صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت به حاشية الرِّداء من شدَّة جذبته، ثمَّ قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك، ثمَّ أمر له بعطاء))[٢].

قال النَّوويُّ: (فيه احتمال الجاهلين، والإعراض عن مقابلتهم، ودفع السَّيئة بالحسنة، وإعطاء من يُتألَّف قلبه، والعفو عن مرتكب كبيرةٍ -لا حدَّ فيها- بجهله، وإباحة الضَّحك عند الأمور التي يُتعجَّب منها في العادة، وفيه كمال خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحِلمه وصفحه الجميل)[٣].

- عن عائشة رضي الله عنها، زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم، أنَّها قالت للنَّبي صلى الله عليه وسلم: ((هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدُّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلَّا وأنا بقرن الثَّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال:

---

(١) ((بدائع السلك في طبائع الملك)) لابن الأزرق (١/١١٣).

(٢) رواه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٣) ((شرح النَّووي على مسلم)) (٧/١٤٧).

إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَك الجبال، فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطْبِق عليهم الأَخْشَبَين؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا))[١].

قال ابن حجر: (وفي هذا الحديث: بيان شفقة النَّبي صلى الله عليه وسلم على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافقٌ لقوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧])[٢].

- عن عبد الله رضي الله عنه، قال: ((لما كان يوم حنين، آثر النَّبي صلى الله عليه وسلم أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عُيَيْنة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجلٌ: والله إنَّ هذه القسمة ما عُدل فيها، وما أُريد بها وجه الله. فقلت: والله، لأخبرنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم، فأتيته، فأخبرته، فقال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر))[٣].

• نماذج في كَظْم الغَيْظ من حياة الصَّحابة رضي الله عنهم:

أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

- عن أبي برزة، قال: (كنت عند أبي بكر رضي الله عنه، فتغيَّظ على

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣١) واللَّفظ له، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) ((فتح الباري)) (٦/٣١٦).

(٣) رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

رجلٍ، فاشتدَّ عليه، فقلت: تأذن لي يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أضرب عنقه؟ قال: فأذهبت كلمتي غضبه، فقام، فدخل، فأرسل إليَّ، فقال: ما الذي قلت آنفًا؟ قلت: ائذن لي أضرب عنقه. قال: أكنت فاعلًا لو أمرتك؟ قلت: نعم، قال: لا والله، ما كانت لبشر بعد محمد صلى الله عليه وسلم)[١]. قال أحمد بن حنبل: (أي لم يكن لأبي بكر أن يقتل رجلاً إلاَّ بإحدى الثَّلاث التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم: كفرٌ بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، وكان للنَّبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل.

قلت: وفيه دليل على أن التعزير ليس بواجب، وللإمام أن يعزِّر فيما يستحق به التأديب، وله أن يعفو فلا يفعل ذلك)[٢].

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

- عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القُرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبَّانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير؟ فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عبَّاس: فاستأذن الحرُّ لعيينة، فأَذِن له عمر، فلمَّا دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطَّاب! فوالله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغَضِب عمر،

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٦٤)، والنَّسائي (١١٠/٧)، وأحمد (١٠/١) (٦١)، والبزَّار (١١٥/١) (٤٩)، وأبو يعلى (٨٢/١) (٧٩). قال البزَّار: رُوي من وجوه، وهذا أحسن إسناد يُروى. وقال النَّسائي: هذا الحديث أحسن الأحاديث وأجودها. وصحَّح إسناده ابن تيمية في ((الصَّارم المسلول)) (١٩٢/٢)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤٧/١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٣٦٤).

(٢) ((معالم السنن)) للخطابي (٢٩٦/٣).

حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله)[١].

• نماذج من كَظْم الغَيْظ من حياة الأمم السَّابقة:

حبيب النَّجَّار[٢]:

– قال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

قال القرطبي: (وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كَظْم الغَيْظ، والحِلم عن أهل الجهل، والتَّرؤف على من أدخل نفسه في غِمار الأشرار وأهل البغي، والتَّشمُّر في تخليصه، والتَّلطُّف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشَّماتة به والدُّعاء عليه. ألَا ترى كيف تمنَّى الخير لقَتَلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرةٌ عَبَدة أصنام)[٣].

• نماذج في كَظْم الغَيْظ من حياة السَّلف:

الفضيل بن بَزْوَان:

– عن أبي رزين قال: جاء رجل إلى الفضيل بن بَزْوَان، فقال: إنَّ فلانًا يقع فيك. فقال: لأغيظنَّ مَن أمره، يغفر الله لي وله. قيل: من أمره؟ قال: الشَّيطان[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢).
(٢) انظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥٧٠/٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥١/٧).
(٣) ((تفسير القرطبي)) (٢٠/١٥).
(٤) ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك (٢٣٤/١).

وهب بن مُنَبِّه:

- عن جبير بن عبد الله قال: شهدت وهب بن مُنَبِّه وجاءه رجلٌ، فقال: إنَّ فلانًا يقع فيك. فقال وهب: أما وجد الشَّيطان أحدًا يستخفَّ به غيرك. قال: فما كان بأسرع من أن جاء الرَّجل، فرفع مجلسه وأكرمه[١].

عمر بن عبد العزيز:

ذكر ابن كثير في مناقب عمر بن عبد العزيز: أنَّ رجلًا كلَّمه يومًا حتى أغضبه، فهمَّ به عمر، ثمَّ أمسك نفسه، ثمَّ قال للرَّجل: أردت أن يستفزَّني الشَّيطان بعزَّة السُّلطان، فأنال منك ما تناله منِّي غدًا! قُم عافاك الله، لا حاجة لنا في مقاولتك[٢].

أمثالٌ وحِكمٌ في كَظْم الغَيْظ:

- قالوا: الغَضَب غُول الحِلم. أي: مُهلِكه.

يُضرب في وجوب كَظْم الغَيْظ[٣].

- وقالوا: لا يَصلح رفيقًا من لم يبتلع ريقًا.

يُضرب لمن يكَظْم الغَيْظ[٤].

- وقيل: (كَظْم الغَيْظ حِلمٌ، والحِلم صبرٌ)[٥].

- وقالوا: (ثلاثةٌ من اجتمعن فيه فقد سَعِد: من إذا غَضِب لم يُخرجه غضبه عن الحقِّ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا قَدر عفا)[٦].

---

(١) ((الورع)) لأحمد رواية المروزي (ص ١٩٧).

(٢) ((البداية والنِّهاية)) لابن كثير (٦٩٨/١٢).

(٣) ((المستقصى)) للزمخشري (٣٣٧/١).

(٤) ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢٤٢/٢).

(٥) ((البيان والتبيين)) للجاحظ (٧٦/٢).

(٦) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١٧٦/٣).

- كان سَلَم بن نوفل سيِّد بني كِنَانة، فوثب رجلٌ على ابنه وابن أخيه فجرحهما، فأُتي به. فقال له: ما أمَّنك من انتقامي؟ قال: فلِمَ سوَّدناك إذًا؟! إلَّا أن تكَظْم الغَيْظ، وتحلُم عن الجاهل، وتحتمل المكروه. فخلَّى سبيله[1].

- وقال رجلٌ من أهل الشَّام للمنصور: يا أمير المؤمنين، مَن انتقم فقد شَفَى غَيْظه وانتصَف، ومن عفا تفضَّل، ومن أخذ حقَّه لم يجب شكره، ولم يُذكر فضله، وكَظْم الغَيْظ حِلمٌ، والتَّشفِّي طرفٌ من الجزَع، ولم يمدح أهل التُّقى والنُّهى من كان حليمًا بشدَّة العقاب، ولكن بحُسن الصَّفح والاغتفار، وشدَّة التَّغافل[2].

- قيل: (الكَظْم يدفع محذور النَّدم، كالماء يُطفئ حرَّ الضَّرم. كَظْمٌ يتردَّد في حلقي، أحبُّ إليَّ من نقصٍ أجده في خُلُقي)[3].

- أربع خصال من حُسْن النَّظر: الرِّضا بالزَّوجة الصَّالحة، وغضُّ البصر، والإقدام على الأمر بمشاورة، وكَظْم الغَيْظ[4].

- وقال الأحنف: (قوَّة الحِلم على الغَضَب أفضل من قوَّة الانتقام)[5].

- وقال: (كنَّا نعدُّ المروءة: الصَّبر على كَظْم الغَيْظ، ومن لم يصبر على كلمة، سمع كلمات)[6].

---

(١) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربِّه (٢/١٤٦).
(٢) ((زهر الآداب)) للقيراوني (٣/٨٣٨).
(٣) ((محاضرات الأدباء)) للرَّاغب الأصفهاني (١/٢٧٧).
(٤) ((المصدر السابق)) (٢/٧٤٦).
(٥) ((ربيع الأبرار)) للزَّمخشري (٢/٢٢١).
(٦) ((المصدر السابق)) (٢/٢٢١).

كَظْم الغَيْظ في واحة الشِّعر:

قال العَرْجِيُّ:

وإذا غَضِبتَ فكن وقورًا كاظمًا للغيظ تُبصر ما تقول وتسمعُ

فكفَى به شرفًا تصبُّر ساعةٍ يَرضى بها عنك الإله وتُرفعُ

أي: يَرفع قدرك[١].

وقال آخر:

إذا المرء لم يحمل على النَّفس ضَيْمها[٢] فليس إلى حسنِ الثَّناء سبيلُ

يقول: إذا المرء لم يحمل ظُلم نفسه عليها، ولم يصبِّرها على مكارهها، فليس له طريقٌ إلى الثَّناء الحسن. وهذا يشير إلى كَظْم الغَيْظ، واستعمال الحِلم، وترك الظُّلم والبغي مع ذويه، والصَّبر على المشاقِّ، وإهانة النَّفس في طلب الحقوق؛ لأنَّ من تعوَّد هذه الأشياء، عَلا ذكره، وحَسُن ثناؤه[٣].

وقال آخر:

وكَظْمُهمو للغَيْظ عند استِعَارِه إذا عزَّ بين النَّاس كَظْم المغائظِ

وأخلاقُهم محمودةٌ إن خبرتَها فليست بأخلاقٍ فظاظٍ غلائظِ

تحلَّوْا بآدابِ الكتابِ وأحسنوا التَّـ ـفكر في أمثاله والمواعظِ

ففاضت على الصَّبر الجميل نفوسهم سلامٌ على تلك النُّفوسِ الفَوائظِ[٤]

وقال مَعْد بن أوس:

وصبري على أشياء منه تُريبني وكظمي على غيظي وقد ينفع الكَظْمُ

(١) ((الكشف والبيان)) للثعلبي (٣/١٦٦).

(٢) الضيم: هو الظلم. ((مختار الصحاح)) للرازي (١/١٨٧).

(٣) ((شرح ديوان الحماسة)) للمرزوقي (ص ٨٣).

(٤) ((موارد الظمآن لدروس الزّمان)) لعبد العزيز السلمان (٥/٢٦٥).

لأستلَّ منه الضغنَ حتى استللته وقد كان ذا ضغنٍ يضيق به الجِرْمُ
رأيتُ انثلامًا[1] بيننا فرقعتُه برفقي وإحيائي وقد يُرقع الثلْمُ
وأبرأتُ غِلَّ الصَّدر منه توسُّعًا بحلمي كما يُشفَى بأدوية سَقَمُ[2]

وقال آخر:

واصفح عن العوراء إن قَلَّت وَعُدْ بالحِلْم منك على السَّفيه المعْور
وكِل المسيءَ إلى إساءته ولا تتعقَّبِ الباغي ببغيٍ تُنصر
وادفعْ بكَظْم الغَيْظ آفةَ غَيِّه فإنِ استخفَّك مرَّةً فاستغفر[3]

وقال آخر:

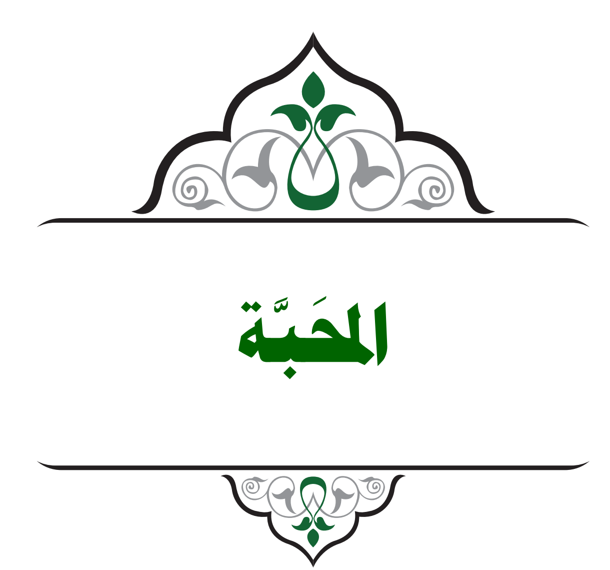
وكنتُ إذا الصَّديقُ أراد غَيْظي وشرَّقني على ظمأ بريقي
غفرتُ ذنوبَه وكَظَمت غَيْظي مخافةَ أن أعيش بلا صديقِ[4]

وقال آخر:

اتَّضعْ للنَّاسِ إن رُمت العُلا واكَظمِ الغَيْظ ولا تُبدي الضَّجر
واجعلِ المعروفَ ذُخرًا إنَّه للفتَى أفضل شيء يُدَّخر
احملِ النَّاس على أخلاقهم فبه تملك أعناقَ البَشَر[5]



(١) الثلمة، بالضم: فرجة المكسور والمهدوم، وهو الموضع الذي قد انثلم، والجمع ثلم. وقيل: الثلمة: الخلل في الحائط وغيره. ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/٣٥٧).
(٢) ((أمالي القالي)) (٢/١٠٣).
(٣) ((الحماسة المغربية)) للجراوي (٢/١٢٧٥).
(٤) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ١٣٢).
(٥) ((مجاني الأدب)) لرزق الله شيخو (٣/١٢٨).



المَحبّة

المحبَّة

معنى المحبَّة لغةً واصطلاحًا:

- **معنى المحبَّة لغةً:**

المحبة: الحبُّ، وهو نقيضُ البغْضِ. وأصل هذه المادة يدلُّ على اللُّزوم وَالثَّبات، واشتقاقه من أَحَبَّه إذا لزمه، تقول: أحبَبْتُ الشَّيْء فَأنا مُحِبٌّ وَهو مُحَبٌّ[(١)].

- **معنى المحبَّة اصطلاحًا:**

(المحبَّة: الميل إِلَى الشَّيْء السار)[(٢)].

وقال الراغب: (المحبَّة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا)[(٣)].

وقال الهروي: (المحبَّة: تعلق القلب بين الهمة والأنس، فِي البَذْل وَالمنْع على الإِفْرَاد)[(٤)].

الفرق بين المحبَّة وبعض الصفات:

- **الفرق بين الإرادة والمحبَّة:**

(أَن المحبَّة تجري على الشَّيء، ويكون المراد به غيره، وليس كذلك الإرادة، تقول: أحببت زيدًا. والمراد أنَّك تحب إكرامه ونفعه، ولا يقال: أردت زيدًا بهذا المعنى، وتقول: أحبُّ الله، أي: أحبُّ طاعته، ولا يقال: أريده. بهذا المعنى،

---

(١) ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/٢٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٢٩٠).

(٢) ((المعجم الوسيط)) (ص ١٥١).

(٣) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٢٥٦).

(٤) ((منازل السائرين)) (ص ٨٨).

فجعل المحبَّة لطاعة الله محبَّة له، كما جعل الخوف من عقابه خوفًا منه.

والمحبَّة أيضا تجري مجرى الشَّهوة؛ فيقال: فلان يحبُّ اللَّحم، أي: يشتهيه، وتقول: أكلت طعامًا لا أحبه، أي: لا أشتهيه، ومع هذا فإن المحبَّة هي الإرادة)[١].

- **الفرق بين المحبَّة والشهوة:**

(الشَّهوة توقان النَّفس، وميل الطباع إلى المشتهى، وليست من قبيل الإرادة، والمحبَّة من قبيل الإرادة، ونقيضها البغضة، ونقيض الحبِّ البغض، والشهوة تتعلَّق بالملاذ فقط، والمحبَّة تتعلَّق بالملاذ وغيرها)[٢].

- **الفرق بين المحبَّة والصداقة:**

(أنَّ الصَّداقة قوَّة المودَّة، مأخوذة من الشَّيء الصدق، وهو الصلب القوي، وقال أبو علي رحمه الله: الصَّداقة اتفاق القلوب على المودَّة، ولهذا لا يقال: إن الله صديق المؤمن، كما يقال: إنَّه حبيبه وخليله)[٣].

- **الفرق بين الحبِّ والودِّ:**

(أن الحبَّ يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعًا، والودُّ ميل الطباع فقط، ألا ترى أنَّك تقول: أُحبُّ فلانًا وأوده. وتقول: أُحبُّ الصَّلاة. ولا تقول: أودُّ الصَّلاة. وتقول: أودُّ أنَّ ذلك كان لي. إذا تمنيت وداده، وأودُّ الرجل ودًّا ومودة، والودُّ الوديد، مثل الحبُّ وهو الحبيب)[٤].

---

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (١/١٢١).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((المصدر السابق)).

● الفرق بين المحبَّة والعشق:

(أن العشق شدَّة الشَّهوة لنيل المراد من المعشوق إذا كان إنسان، والعزم على مواقعته عند التَّمكُّن منه، ولو كان العشق مفارقًا للشهوة، لجاز أن يكون العاشق خاليًا من أن يشتهي النَّيل ممَّن يعشقه، إلَّا أنه شهوة مخصوصة لا تفارق موضعها، وهي شهوة الرجل للنيل ممَّن يعشقه، ولا تسمى شهوته لشرب الخمر، وأكل الطِّيب عشقًا، والعشق أيضًا هو الشَّهوة الَّتي إذا أفرطت وامتنع نيل ما يتعلَّق بها قتلت بها صاحبها، ولا يقتل من الشَّهوات غيرها، ألا ترى أن أحدًا لم يمت من شهوة الخمر والطَّعام والطِّيب، ولا من محبَّة داره، أو ماله، ومات خلق كثير من شهوة الخلوة مع المعشوق، والنيل منه)[(١)].

أهمية المحبَّة:

قال الرّاغب: (لو تحابَّ النَّاس، وتعاملوا بالمحبَّة لاستغنوا بها عن العدل، فقد قيل: العدل خليفة المحبَّة يُستعمل حيث لا توجد المحبَّة، ولذلك عظَّم الله تعالى المنَّة بإيقاع المحبَّة بين أهل الملَّة، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦] أي: محبَّة في القلوب، تنبيها على أنَّ ذلك أجلب للعقائد، وهي أفضل من المهابة؛ لأنَّ المهابة تنفِّر، والمحبَّة تؤلِّف، وقد قيل: طاعة المحبَّة أفضل من طاعة الرَّهبة، لأنَّ طاعة المحبَّة من داخل، وطاعة الرَّهبة من خارج، وهي تزول بزوال سببها، وكلُّ قوم إذا تحابُّوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا تعاونوا عملوا، وإذا عملوا عمَّروا، وإذا عمَّروا عمَّروا وبورك لهم)[(٢)].

---

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (١/١٢١).
(٢) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص ٢٥٧).

المحبة في الكتاب والسنة:

أولًا: المحبة في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

(قال قتادة: ذكر لنا أنَّ كعبًا كان يقول: إنَّما تأتي المحبَّة من السَّماء.

قال: إنَّ اللَّه تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبدًا قذف حبَّه في قلوب الملائكة، وقذفته الملائكة في قلوب النَّاس، وإذا أبغض عبدًا فمثل ذلك، لا يملكه بعضهم لبعض)(١).

(وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وُدًّا﴾ قال: حُبًّا(٢).

وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وُدًّا﴾ قال: محبَّةً في النَّاس في الدُّنْيا(٣).

وقال سعيد بن جبيرٍ، عنه: يُحبُّهم ويُحبِّبهم، يَعنِي: إِلى خلقه الْمُؤمنين(٤).

وقال ابن عباس: (محبَّةً في النَّاس في الدُّنيا)(٥).

وقال مجاهد: (محبَّةً في المسلمين في الدُّنيا)(٦).

وقال مقاتل: (يقول يجعل محبتهم في قلوب المؤمنين فيحبونهم)(٧).

---

(١) رواه يحيى بن سلام في ((تفسيره)) (١/٢٤٨).

(٢) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٨/٢٦٢).

(٣) ((المصدر السابق)) (١٨/٢٦١).

(٤) ((تفسير ابن كثير)) (٥/٢٦٩).

(٥) رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٨/٢٦١).

(٦) ((المصدر السابق)) (١٥/٦٤٢).

(٧) ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/٦٤٠).

- وقال جلَّ في علاه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩].

قال الطبري: (عن عكرمة قال: حسنًا وملاحةً، قال أبو جعفر: والذي هو أولى بالصَّواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ اللَّه ألقى محبَّته على موسى، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ فحبَّبه إلى آسية امرأة فرعون، حتَّى تبنَّته وغذَّته وربَّته، وإلى فرعون، حتَّى كفَّ عنه عاديته وشرَّه. وقد قيل: إنَّما قيل: وألقيت عليك محبّةً منِّي، لأنَّه حبَّبه إلى كلِّ من رآه)[1].

وقال أيضًا: (قال ابن عبَّاس: حبَّبتك إلى عبادي، وقال الصِّدائي: حبَّبتك إلى خلقي. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أي حسَّنت خلقك)[2].

وقال الشوكاني: (وألقيت عليك محبَّةً منِّي أي: ألقى اللَّه على موسى محبَّةً كائنةً منه تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلَّا أحبَّه وقيل: جعل عليه مسحةً من جمال لا يراه أحد من النَّاس إلَّا أحبَّه. وقال ابن جرير: المعنى وألقيت عليك رحمتي، وقيل: كلمة من متعلِّقة بألقيت، فيكون المعنى: ألقيت منِّي عليك محبَّةً، أي: أحببتك، ومن أحبَّه اللَّه أحبَّه النَّاس)[3].

و(عن ابن عبّاس في قوله: وألقيت عليك محبَّةً منِّي قال: كان كلُّ من رآه ألقيت عليه منه محبَّته[4]. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل قال: حبَّبتك إلى عبادي)[5].

---

(١) ((جامع البيان)) (١٦/٥٨).
(٢) ((المصدر السابق)) (١٦/٥٨).
(٣) ((فتح القدير)) (٣/٤٣١).
(٤) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٧/٢٤٢٢).
(٥) ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/٤٣٣).

ثانيًا: المحبة في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النَّبي عليه السلام فقال: يا رسول اللَّه، كيف تقول في رجل أحبَّ قومًا، ولم يلحق بهم؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحبَّ))[١].

قال ابن بطال: (فدلَّ هذا أنَّ من أحبَّ عبدًا في الله، فإنَّ الله جامع بينه وبينه في جنته ومُدخِله مُدخَله، وإن قصر عن عمله، وهذا معنى قوله: (ولم يلحق بهم). يعني في العمل والمنزلة، وبيان هذا المعنى - والله أعلم - أنه لما كان المحبُّ للصالحين وإنما أحبهم من أجل طاعتهم لله، وكانت المحبَّة عملًا من أعمال القلوب واعتقادًا لها، أثاب الله معتقد ذلك ثواب الصالحين؛ إذ النية هي الأصل، والعمل تابع لها، والله يؤتي فضله من يشاء)[٢].

وقال النووي: (فيه فضل حبِّ اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم والصَّالحين وأهل الخير الأحياء والأموات)[٣].

قال العظيم آبادي: (يعني من أحبَّ قومًا بالإخلاص يكون من زمرتهم، وإن لم يعمل عملهم؛ لثبوت التَّقارب بين قلوبهم، وربَّما تؤدِّي تلك المحبَّة إلى موافقتهم، وفيه حثٌّ على محبَّة الصُّلحاء والأخيار، رجاء اللِّحاق بهم والخلاص من النَّار)[٤].

وقال السعدي: (هذا الحديث فيه: الحث على قوة محبة الرسل، واتباعهم بحسب مراتبهم، والتحذير من محبة ضدهم؛ فإنَّ المحبَّة دليل على قوة اتصال

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).
(٢) ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٣٣٣/٩).
(٣) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٨٦/١٦).
(٤) ((عون المعبود)) (٢٥/١٤).

المحب بمن يحبه، ومناسبته لأخلاقه، واقتدائه به، فهي دليل على وجود ذلك، وهي أيضًا باعثة على ذلك)[(١)].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، ((أنَّ رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكًا فلمَّا أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أنِّي أحببته في الله عزَّ وجلَّ، قال: فإنِّي رسول الله إليك، بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببته فيه))[(٢)].

قال النووي: (في هذا الحديث فضل المحبَّة في اللَّه تعالى وأنَّها سبب لحبِّ اللَّه تعالى العبد)[(٣)].

وأيضًا فيه: (دليل على عظم فضل الحب في الله والتزاور فيه)[(٤)].

- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده، وقال: ((يا معاذ، واللَّه إنِّي لأُحبُّك، واللَّه إنِّي لأُحبُّك، فقال: أوصيك يا معاذ، لا تدعنَّ في دبر كلِّ صلاة تقول: اللَّهمَّ أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك))[(٥)].

قال العظيم آبادي: (... ((أخذ بيده)). كأنَّه عقد محبَّة وبيعة مودَّة. ((واللَّه إنِّي لأحبُّك)). لامه للابتداء، وقيل للقسم، وفيه أنَّ من أحبَّ أحدًا

(١) ((بهجة قلوب الأبرار)) (ص١٩٣).
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٣) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٦/١٢٤).
(٤) ((تطريز رياض الصالحين)) لفيصل المبارك (ص٢٤٧).
(٥) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٥/٢٤٤) (٢٢١٧٢). قال الحاكم (١/٤٠٧): صحيح على شرط الشيخين. وصحح إسناده النووي في ((الخلاصة)) (١/٤٦٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٩٦٩).

يستحبُّ له إظهار المحبَّة له. فقال: ((أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ)). إذا أردت ثبات هذه المحبَّة فلا تتركنَّ. ((في دبر كلِّ صلاة)). أي: عقبها وخلفها أو في آخرها)[١].

وقال ابن عثيمين: (وهذه منقبة عظيمة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، أنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم أقسم أنه يحبُّه، والمحبُّ لا يدَّخر لحبيبه إلا ما هو خير له)[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تدخلون الجنَّة حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أولا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم))[٣].

قال النووي: (فقوله صلى اللَّه عليه وسلم: ((ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا)). معناه: لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلَّا بالتَّحابِّ)[٤].

وقال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن المحبَّة من كمال الإيمان، وأنه لا يكمل إيمان العبد حتى يحبَّ أخاه، وأنَّ من أسباب المحبَّة أن يفشي الإنسان السلام بين إخوانه، أي يظهره ويعلنه، ويسلم على من لقيه من المؤمنين، سواء عرفه أو لم يعرفه، فإن هذا من أسباب المحبَّة، ولذلك إذا مرَّ بك رجل وسلم عليك أحببته، وإذا أعرض؛ كرهته ولو كان أقرب الناس إليك)[٥].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ((عون المعبود)) (٤/٢٦٩).
(٢) ((شرح رياض الصالحين)) (٥/٥٠٢).
(٣) رواه مسلم (٥٤).
(٤) ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (٢/٣٦).
(٥) ((شرح رياض الصالحين)) (٣/٢٦٥).

((سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله... وذكر منهم... ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه))[١].

أقوال السلف والعلماء في المحبَّة:

- عن أبي حيَّان التيمي قال: (رؤي على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثوب كأنه كان يكثر لبسه، فقيل له فيه. فقال: هذا كسانيه خليلي وصفيِّي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، إنَّ عمر ناصح الله فنصحه)[٢].

- وعن مجاهد قال: (مرَّ على عبد الله بن عباس رجل فقال: إنَّ هذا يحبني. فقيل: أنَّى علمت ذلك؟ قال: إني أحبُّه)[٣].

- وعن سفيان بن عيينة، قال: (سمعت مساور الورَّاق يحلف بالله عزَّ وجلَّ ما كنت أقول لرجل إني أحبك في الله عزَّ وجلَّ فأمنعه شيئًا من الدنيا)[٤].

- وقال ابن تيمية: (إنَّك إذا أحببت الشخص لله، كان الله هو المحبوب لذاته، فكلَّما تصورته في قلبك، تصوَّرت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبُّك لله، كما إذا ذكرت النَّبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك، فإنَّ ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله، المنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله. فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحبُّ لله إذا أحبَّ شخصًا لله، فإن الله هو محبوبه، فهو يحبُّ أن يجذبه إلى الله تعالى، وكلٌّ من المحبِّ لله والمحبوب لله يجذب إلى الله)[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).
(٢) ((المصنف)) لابن أبي شيبة (٦/٣٥٦).
(٣) ((الإخوان)) لابن أبي الدنيا (ص ١٢٧).
(٤) ((مكارم الأخلاق)) لابن أبي الدنيا (ص ٩٣).
(٥) ((مجموع الفتاوى)) (١٠/٦٠٨).

- وقال: (واعجبًا لمن يدَّعي المحبَّة! ويحتاج إلى من يذِّكره بمحبوبه فَلَا يذكرهُ إِلَّا بمذكر. أقل ما في المحبَّة أَنَّهَا لَا تنسيك تذكُّر المحبوب)[1].

- وقال أيضًا: (إذا سَافر المحب للقاء محبوبه ركبت جُنُوده مَعَه، فَكَانَ الحبُّ في مُقَدَّمة العسكر، والرجاء يحدُو بالمطي، والشوق يسوقها، والخوف يجمعها على الطَّرِيق، فإذا شَارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء)[2].

- و(قال أبو بكر الورَّاق: سأل المأمون عبد الله بن طاهر ذا الرياستين عن الحبِّ، ما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة، انبعثت منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فتتحرَّك لإشراقها طبائع الحياة، فيتصوَّر من ذلك خلق حاضر للنفس، متصل بخواطرها، يسمى الحبَّ)[3].

- وقال الثعالبي: (المحبَّة أريحية منتفثة من النفس نحو المحبوب، لأنَّها تغذو الروح وتضني البدن، ولأنَّها تنقل القوى كلها إلى المحبوب بالتحلي بهيئته، والتمنِّي بحقيقته، بالكمال الذي يشهد فيه)[4].

- وقال أيضًا: (المحبَّة ثمن لكل شيء وإن غلا، وسُلَّم إلى كلِّ شيء وإن علا)[5].

- وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: (حقيقة المحبَّة لا يزيدها البرُّ ولا ينقصها الجفاء)[6].

---

(١) ((الفوائد)) لابن قيم الجوزية (ص ٧٧).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١٦٧/٢).
(٤) ((المقابسات)) لأبي حيان التوحيدي (ص ٣٦٤).
(٥) ((سحر البلاغة)) لأبي منصور الثعالبي (ص ١٣٠).
(٦) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (٤١١/٢).

- وقال الجنيد: (إذا صحَّت المحبَّة سقطت شروط الأدب)[١].

- (وقال رجل لشهر بن حوشب: إني لأحبُّك قال: ولم لا تحبني وأنا أخوك في كتاب الله، ووزيرك على دين الله، ومؤنتي على غيرك)[٢].

- (وقال آخر: من جمع لك مع المودَّة الصادقة رأيًا حازمًا، فاجمع له مع المحبَّة الخالصة طاعة لازمة)[٣].

- وقال الجاحظ: (ينبغي لمحبِّ الكمال أن يعوِّد نفسه محبَّة النَّاس، والتَّودُّد إليهم، والتَّحنُّن عليهم، والرَّأفة والرَّحمة لهم، فإنَّ النَّاس قبيل واحد متناسبون تجمعهم الإنسانيَّة، وحلية القوَّة الإلهيَّة هي في جميعهم، وفي كلِّ واحد منهم، وهي قوَّة العقل، وبهذه النَّفس صار الإنسان إنسانًا)[٤].

فوائد المحبَّة[٥]:

١- دلالة على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٢- المحبَّة تغذِّي الأرواح والقلوب وبها تقرُّ العيون، بل إنَّها هي الحياة الَّتي يعدُّ من حرم منها من جملة الأموات.

٣- تظهر آثار المحبَّة عند الشَّدائد والكربات.

٤- من ثمار المحبَّة النَّعيم والسُّرور في الدُّنيا، الموصِّل إلى نعيم وسرور الآخرة.

٥- محبَّة النَّاس مع التَّودُّد إليهم تحقَّق الكمال الإنسانيِّ لمن يسعى إليه.

---

(١) ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (ص ٢٣١).

(٢) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (١٥/٣).

(٣) ((المصدر السابق)) (١٦/٣).

(٤) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص ٥٥).

(٥) ((نضرة النعيم)) (٣٣٥٦/٨).

٦- محبَّة الإخوان في الله من محبَّة الله ورسوله.

٧- التَّحابُّ في الله يجعل المتحابِّين في الله من الذين يستظلُّون بظلِّ الله تعالى يوم لا ظلَّ إلّا ظلُّه.

٨- لا يكتمل إيمان المرء إلَّا إذا تحقَّق حبَّه لأخيه ما يحبُّه لنفسه، وفي هذا ما يخلِّصه من داء الأنانيَّة.

٩- أن يستشعر المرء حلاوة الإيمان فيذوق طعم الرِّضا وينعم بالرَّاحة النَّفسيَّة.

أقسام المحبَّة:

قسم بعض أهل العلم المحبَّة إلى أنواع، كابن حزم، وابن القيم، وغيرهم من العلماء، فابن حزم قسمها إلى تسعة أنواع، قال: (المحبَّة ضروب:

١- فأفضلها: محبة المتحابين في الله عزَّ وجلَّ، إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان.

٢- ومحبة القرابة.

٣- ومحبة الألفة في الاشتراك في المطالب.

٤- ومحبة التصاحب والمعرفة.

٥- ومحبة البر؛ يضعه المرء عند أخيه.

٦- ومحبة الطمع في جاه المحبوب.

٧- ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره.

٨- ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر.

٩- ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس.

فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها)[(١)].

وقسمها ابن القيم إلى أربعة أنواع وهي محبة الله، ومحبة ما يحب الله، والمحبة مع الله وهي المحبة الشركية، والحب لله وفي الله، وهي من لوازم محبة ما يحب، ثم ذكر نوعًا خامسًا، وهي المحبَّة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تُذمُّ إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته[(٢)].

وقسم الراغب الأصفهاني المحبَّة بحسب المحبين فقال: (المحبَّة ضربان:

١- طبيعي: وذلك في الإنسان وفي الحيوان...

٢- اختياري: وذلك يختص به الإنسان... وهذا الثاني أربعة أضرب:

أ- للشهوة، وأكثر ما يكون بين الأحداث.

ب- للمنفعة، ومن جنسه ما يكون بين التجار وأصحاب الصناعة المهنية وأصحاب المذاهب.

ج- مركب من الضربين، كمن يحبُّ غيره لنفع، وذلك الغير يحبه للشهوة.

د- للفضيلة، كمحبة المتعلم للعالم، وهذه المحبَّة باقية على مرور الأوقات، وهي المستثناة بقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

(١) ((طوق الحمامة)) لابن حزم (ص٩٥) بتصرف يسير.

(٢) انظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص١٨٩).

وأما الضروب الأُخر: فقد تطول مدتها وتقصر بحسب طول أسبابها وقصرها)[١].

مراتب المحبَّة[٢]:

قسم العلماء المحبَّة إلى مراتب عديدة، ومن هؤلاء العلماء ابن قيِّم الجوزية الذي أوصلها إلى عشر مراتب، وهي كما يلي:

أوَّلها: العلاقة، وسمِّيت علاقةً لتعلُّق القلب بالمحبوب.

الثَّانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثَّالثة: الصَّبابة، وهي انصباب القلب إليه، بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

الرَّابعة: الغرام، وهو الحبُّ اللَّازم للقلب، الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه.

الخامسة: الوداد، وهو صفو المحبَّة.

السَّادسة: الشَّغف يقال: شغف بكذا. فهو مشغوف به. وقد شغفه المحبوب. أي وصل حبَّه إلى شغاف قلبه، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّه الحبُّ المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره.

الثاني: الحبُّ الواصل إلى داخل القلب.

الثالث: أنَّه الحبُّ الواصل إلى غشاء القلب. والشِّغاف غشاء القلب إذا وصل الحبُّ إليه باشر القلب.

---

(١) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص٢٥٦) بتصرف يسير.

(٢) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/٢٩-٣٢) بتصرف.

السَّابعة: العشق، وهو الحبُّ المفرط، الَّذي يخاف على صاحبه منه.

الثامنة: التَّتيُّم، وهو التَّعبُّد، والتَّذلُّل.

التَّاسعة: التَّعبُّد وهو فوق التَّتيُّم، فإنَّ العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقَّه، فلم يبقَ له شيء من نفسه ألبتَّة، بل كلُّه عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو حقيقة العبوديَّة. ومن كمَّل ذلك فقد كمَّل مرتبتها.

العاشرة: مرتبة الخلَّة الَّتي انفرد بها الخليلان، إبراهيم ومحمَّد صلى اللَّه عليهما وسلم.

الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها:

للمحبة أسباب جالبة لها، توجب لك المحبَّة في قلوب الآخرين؛ نذكر منها ما يلي:

١- خدمة الآخرين والسعي لمنفعتهم.

٢- تقديم الهدية للآخرين.

٣- التواضع للآخرين.

٤- الإحسان إلى الآخرين.

٥- التحلِّي بصفة الصمت.

٦- البشاشة والابتسامة.

٧- البدء بالسلام.

٨- الجود والكرم.

٩- الابتعاد عن الحسد.

١٠- التعامل بصدق وأمانة.

١١- الوفاء بالعهد.

١٢- زيارة الآخرين وتفقد أحوالهم.

١٣- إنزال الناس منازلهم.

١٤- الالتزام بالأخلاق الإسلامية.

وقال ابن حمدون: (عشر يورثن المحبَّة: كثرة السَّلام، واللطف بالكلام، واتباع الجنائز، والهدية، وعيادة المرضى، والصدق، والوفاء، وإنجاز الوعد، وحفظ المنطق، وتعظيم الرِّجال)[١].

نماذج في المحبَّة:

- **نماذج تطبيقية من حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم:**

- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال: ((يا معاذ، والله إنِّي لأحبُّك، والله إنِّي لأحبُّك، فقال: أوصيك يا معاذ، لا تدعنَّ في دبر كلِّ صلاة تقول: اللهمَّ أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))[٢].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم النِّساء والصِّبيان مقبلين -قال: حسبت أنَّه قال: من عرس- فقام النَّبي صلى الله عليه وسلم مُمْثِلًا فقال: ((اللهمَّ أنتم من أحبِّ النَّاس إليَّ. قالها ثلاث مرار))[٣].

---

(١) ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (٢/٢٢٥).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٥/٢٤٤) (٢٢١٧٢). قال الحاكم (١/٤٠٧): صحيح على شرط الشيخين. وصحح إسناده النووي في ((الخلاصة)) (١/٤٦٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٩٦٩).

(٣) رواه البخاري (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨).

- وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يا أبا ذرٍّ، إنِّي أراك ضعيفًا، وإنِّي أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنين، ولا تولَّينَّ مال يتيم))[١].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((حُبِّب إليَّ: النِّساء والطِّيب، وجعل قرَّة[٢] عيني في الصَّلاة))[٣].

- وعن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما؛ حدَّث عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: أنَّه كان يأخذه والحسن فيقول: ((اللهمَّ أحبَّهما فإنِّي أحبُّهما))[٤].

- وعن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كنَّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفيَّة وسودة، والحزب الآخر أمُّ سلمة وسائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المسلمون قد علموا حبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هديَّة يريد أن يهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخَّرها، حتَّى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة بعث صاحب الهديَّة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة، فكلَّم حزب أمِّ سلمة فقلن لها: كلِّمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلِّم النَّاس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هديَّة فليهدها حيث كان من بيوت نسائه،

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٢) يعبر بها عن المسرة، ورؤية ما يحب الإنسان. ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (٥/١٠٠).

(٣) رواه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١٢٨/٣) (١٢٣١٥). قال الحاكم (١٧٤/٢): صحيح على شرط مسلم. وجوَّد إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (ص٤٦٦)، وحسن إسناده ابن حجر في ((التلخيص الحبير)) (٢٥٤/٣).

(٤) رواه البخاري (٣٧٣٥).

فكلَّمته أمُّ سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئًا، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: فكلِّميه. قالت: فكلَّمته حين دار إليها أيضًا، فلم يقل لها شيئًا. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئًا. فقلن لها: كلِّميه حتَّى يكلِّمك. فدار إليها فكلَّمته، فقال لها: لا تؤذيني في عائشة؛ فإنَّ الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلَّا عائشة. قالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله. ثمَّ إنَّهنَّ دعون فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إنَّ نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر. فكلَّمته، فقال: يا بنيَّة، ألا تحبِّين ما أحبُّ؟ قالت: بلى. فرجعت إليهنَّ فأخبرتهنَّ، فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع...))(١).

حكم وأمثال في المحبَّة:

- أفضل المحبَّة ما كان بعد المعتبة(٢).

- وقالوا: لا يكن حبُّك كلفًا، ولا بغضك سرفًا(٣).

- أبرُّ من الْهِرَّة: قَالُوا لِأَنَّهَا تَأْكُل أَوْلَادهَا من المحبَّة(٤).

- قَوْلهم: من يبغ فِي الدِّين يصلف: مَعْنَاهُ من يطْلب الدُّنْيَا بِالدِّينِ لم يحظ عِنْد النَّاس وَلم يُرْزق مِنْهُم المحبَّة(٥).

- وقيل: أغلب المحبَّة ما كان عن تشاكل(٦).

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨١).

(٢) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (١٢/٢).

(٣) ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (١٦٨/٢).

(٤) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (٢٤٣/١).

(٥) المصدر السابق (٢٤٨/٢).

(٦) ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (٨/٢).

المحبَّة في واحة الشعر:

وقال ابن زهر الحفيد:

يا مَن يُذكِّرني بعهد أحبَّتي طاب الحديثُ بذكرهم ويطيبُ
أعِدِ الحديثَ عليَّ من جنباتِه إنَّ الحديث عن الحبيب حبيبُ
ملأ الضلوع وفاض عن أحنائها قلبٌ إذا ذكر الحبيب يذوبُ
ما زال يضرب خافقًا بجناحه يا ليت شعري هل تطير قلوب(١)

وأنشد بعضهم:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت إلا وحبُّك مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ إلى قومٍ أُحدِّثُهم إلا وأنت حديثي بين جُلَّاسي(٢)

وقال آخر:

يَا منية الْقلب مَا جيدي(٣) بمنعطف إِلَى سواكم ولا حَبْلِي بمنقاد
لولا المحبَّة ما استعملت بارقة وَلَا سَأَلت حمام الدوح إسعادي
ولا وقفت على الوادي أسائله بالدمع حَتَّى رثى لي سَاكن الْوَادي(٤)

وقال أبو تراب النخشبي:

لا تخدعنَّ فللمحبِّ دلائلُ ولديه من تحفِ الحبيبِ وسائلُ
منها تنعمُه بمرِّ بلائه وسروره في كلِّ ما هو فاعلُ
فالمنعُ منه عطيةٌ مقبولةٌ والفقر إكرام وبرٌّ عاجلُ

---

(١) ((نفح الطيب)) لأحمد المقري (٣/٤٦٨).
(٢) ((استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس – مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/٣٩٩).
(٣) الجيد: مُقدَّمُ العنق. ((العين)) للخليل بن أحمد (٦/ ١٦٨).
(٤) ((المدهش)) لابن الجوزي (ص٢٧٧).

ومن الدلائل أن يرى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألحَّ العاذلُ

ومن الدلائل أن يُرى متبسِّمًا ... والقلب فيه من الحبيب بلابلُ

ومن الدلائل أن يُرى متفهمًا ... لكلام من يحظَى لديه السائلُ

ومن الدلائل أن يُرى متقشفًا ... متحفظًا من كلِّ ما هو قائلُ[1]



(١) ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (١٠٣/٢).



المُدَارَاة



المدَاراة

معنى المدَاراة لغةً واصطلاحًا:

• معنى المدَاراة لغةً:

المداراة مصدر دارى، يقال: داريته مداراة: لاطفته ولاينته، ومداراة الناس: أي ملاينتهم وحسن صحبتهم واحتمالهم؛ لئلا ينفروا عنك(١).

• معنى المدَاراة اصطلاحًا:

قال ابن بطال: (المدَاراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول)(٢).

وقال ابن حجر: (المراد به الدفع برفق)(٣).

وقال المناوي: (المدَاراة: الملاينة والملاطفة)(٤).

الفرق بين المدَاراة والمداهنة:

قال ابن بطال: (المدَاراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أنَّ المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسَّرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمدَاراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٥٤/١٤)، وانظر: مادة (درأ) (٧١/١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١٩٤/١).

(٢) ((شرح صحيح البخاري)) (٣٠٥/٩).

(٣) ((فتح الباري)) (٥٢٨/١٠).

(٤) ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص ٣٠١).

احتيج إلى تألفه ونحو ذلك)[(١)].

وقال القرطبي في الفرق بينهما: (أنَّ المدَارة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا)[(٢)].

وقال الغزالي: (الفرق بين المدَارة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن)[(٣)].

المداراة في الكتاب والسنة:

أولًا: المداراة في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٧].

قال السعدي: (وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى، فإنه لم يقل: يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل. أو: ليس عندك من العلم شيء. وإنما

---

(١) ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/٥٢٨).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٠/٤٥٤).

(٣) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٢/١٨٢).

أتى بصيغة تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا، وأنَّ الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها)[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ نعت لمصدر محذوف، أي مصاحبًا معروفًا، يقال: صاحبته مصاحبة ومصاحبًا. و﴿مَعْرُوفًا﴾ أي: ما يحسن. والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق)[٢].

- وقال سبحانه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٣-٤٧].

قال ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)[٣].

---

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ٤٩٤).

(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٦٦/١٤).

(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (٢٩٤/٥).

ثانيًا: المدَاراة في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن عروة بن الزبير، أنَّ عائشة أخبرته أنَّه استأذن على النَّبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقال صلى الله عليه وسلم: ((ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول. فقال: أي عائشة، إنَّ شرَّ الناس منزلةً عند الله من تركه- أو ودعه- الناس اتقاء فحشه))(١). (أي لأجل قبح فعله وقوله، أو لأجل اتقاء فحشه، أي: مجاوزة الحدِّ الشرعي قولًا أو فعلًا، وهذا أصل في ندب المدَاراة إذا ترتب عليها دفع ضرٍّ، أو جلب نفع، بخلاف المداهنة فحرامٌ مطلقًا، إذ هي بذل الدين لصلاح الدنيا، والمدَاراة بذل الدنيا لصلاح دين أو دنيا، بنحو رفقٍ بجاهلٍ في تعليم، وبفاسقٍ في نهيٍ عن منكر، وترك إغلاظ وتألُّف، ونحوها مطلوبةٌ محبوبةٌ إن ترتب عليها نفع، فإن لم يترتب عليها نفع، بأن لم يتقِ شرَّه بها كما هو معروف في بعض الأنام فلا تشرع)(٢).

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهنَّ خلقن من ضِلع، وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا))(٣).

قال ابن حجر: (وفي الحديث الندب إلى المدَاراة لاستمالة النفوس، وتألف القلوب، وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهنَّ، والصبر على عوجهنَّ، وأنَّ من رام تقويمهنَّ [فاته] الانتفاع بهن، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها، ويستعين بها على معاشه، فكأنَّه قال: الاستمتاع بها لا يتمُّ إلا بالصبر عليها)(٤).

(١) رواه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).
(٢) ((فيض القدير)) للمناوي (٢/٤٥٤).
(٣) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).
(٤) ((فتح الباري)) (٩/٢٥٣).

- وعن هاني بن يزيد عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّ موجبات المغفرة: بذل السلام، وحسن الكلام))[١].

قال المناوي: (أي: إلانة القول للإخوان، واستعطافهم على منهج المدَاراة، لا على طريق المداهنة والبهتان)[٢].

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((يا أيها الناس اتقوا الله، وإنْ أُمِّر عليكم عبد حبشي مجدَّع، فاسمعوا له وأطيعوا، ما أقام لكم كتاب الله))[٣].

قال المباركفوري: (فيه حثٌّ على المدَاراة، والموافقة مع الولاة، وعلى التحرز عما يثير الفتنة، ويؤدي إلى اختلاف الكلمة)[٤].

أقوال السلف والعلماء في المدَاراة:

- عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: (إنا لنكشر في وجوه أقوام ونضحك إليهم، وإنَّ قلوبنا لتلعنهم)[٥].

- وعنه أيضًا رضي الله عنه قال لزوجته: (إذا غضبت فَرَضيِّني، وإذا

---

(١) رواه الطبراني (٢٢/١٨٠) (٤٦٩). قال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٢٤٦): إسناده جيد، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٣٢): فيه أبو عبيدة بن عبد الله الأشجعي روى عنه أحمد بن حنبل وغيره ولم يضعفه أحد وبقية رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٢٣٢).

(٢) ((فيض القدير)) (٢/٤٥٤).

(٣) رواه الترمذي (١٧٠٦)، وابن ماجه (٢٣٢٨)، وأحمد (٦/٤٠٢) (٢٧٣٠١)، والحاكم (٤/٢٠٦). من حديث أم الحصين الأسلمية رضي الله عنها. قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد،

(٤) ((تحفة الأحوذي)) (٥/٢٩٧).

(٥) رواه البخاري معلقًا بصيغة التضعيف قبل حديث (٦١٣١)، ووصله أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/٢٢٢).

غضبت رضيتك، فإذا لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق)(١).

- وقال معاوية رضي الله عنه: (لو أنَّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف؟ قال: لأنهم إن مدُّوها خلَّيتها، وإن خلَّوْا مددتها)(٢).

- وعن عمر بن الخطاب قال: (خالطوا الناس بالأخلاق، وزايلوهم بالأعمال)(٣).

- وقال عبد الله بن مسعود: (خالط الناس وزايلهم، ودينك لا تُكْلِمنَّه)(٤).

- وعن محمد بن الحنفية، قال: (ليس بحليم من لم يعاشر بالمعروف، من لا يجد من معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له فرجًا، أو قال: مخرجًا)(٥).

- وقال الحسن البصري: (كانوا يقولون: المدَارَاة نصف العقل، وأنا أقول هي العقل كلُّه)(٦).

- وعنه أيضًا: (المؤمن يداري ولا يماري ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله)(٧).

- وعن يحيى بن سعيد، قال: قال لي نصر بن يحيى بن أبي كثير: (من عاشر الناس داراهم، ومن داراهم راياهم)(٨).

---

(١) رواه ابن حبان في ((روضة العقلاء)) (ص٧٢)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (١٥١/٧٠).
(٢) رواه ابن حبان في ((روضة العقلاء)) (ص٧٢).
(٣) ((مداراة الناس)) لابن أبي الدنيا (ص ٣٧).
(٤) ((العزلة)) للخطابي (ص ٩٩).
(٥) ((مداراة الناس)) لابن أبي الدنيا (ص ٣٦).
(٦) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٤٦٨/٣).
(٧) ((أخلاق العلماء)) للآجري (ص ٥٨).
(٨) ((مداراة الناس)) لابن أبي الدنيا (ص ١٠٩).

- وعن يونس، قال: بلغني عن ابن عباس، أنه كان يقول: (النساء عورة، خُلِقن من ضعف، فاستروا عوراتهنَّ بالبيوت، وداروا ضعفهنَّ بالسكوت)[١].

- وقال أبو يوسف: (خمسة تجب على الناس مداراتهم: الملك المسلط، والقاضي المتأول، والمريض، والمرأة، والعالم ليقتبس من علمه)[٢].

- وعن وُهيب بن الورد قال: (قلت لوهب بن مُنبِّه: إني أريد أن أعتزل الناس. فقال لي: لا بدَّ لك من الناس وللناس منك؛ لك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعًا، أعمى بصيرًا، سكوتًا نطوقًا)[٣].

- (وقال أبو حاتم رضي الله عنه الواجب على العاقل أن يلزم المدَاراة مع من دفع إليه في العشرة، من غير مقارفة المداهنة، إذ المدَاراة من المداري صدقة له، والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه، والفصل بين المدَاراة والمداهنة هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة؛ لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم، بلزوم المدَاراة من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات، فمتى ما تخلَّق المرء بخلق، شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه فهذا هو المداهنة؛ لأنَّ عاقبتها تصير إلى قلٍّ، ويلازم المدَاراة؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله)[٤].

- وقال محمد بن السماك: (من عرف الناس داراهم، ومن جهلهم ماراهم، ورأس المدَاراة ترك المماراة)[٥].

---

(١) ((مداراة الناس)) لابن أبي الدنيا (ص ١٤٠).
(٢) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/٤٧٧).
(٣) ((العزلة)) للخطابي (ص ٩٨).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٧٠).
(٥) ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١١/٣٦).

- وقال أبو بكر الطرطوشي: (المدَاراة: أن تداري الناس على وجه يسلم لك دينك)[١].

فوائد المدَاراة:

١- المدَاراة تزرع الألفة والمودة.

٢- المدَاراة تجمع بين القلوب المتنافرة.

٣- المدَاراة تطفئ العداوة بين الناس.

٤- المدَاراة من صفات المؤمن، والمداهنة من صفات المنافق[٢].

٥- علامة على حسن الخلق[٣].

٦- من عوامل إنجاح الدعوة إلى الله، إما بهداية من يداريه الداعية، أو بكفاية شره، وفتح مجالات أوسع للدعوة.

٧- تحقيق السعادة الزوجية[٤].

٨- تحقيق السلامة والأمن والطمأنينة للنفس[٥].

٩- العصمة من شرِّ الأعداء[٦].

قال ابن الجوزي: (من البله أن تبادر عدوًّا أو حسودًا بالمخاصمة؛ وإنَّما ينبغي إن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما، إن اعتذر قبلت، وإن أخذ في الخصومة صفحت، وأريته أن الأمر قريب، ثم تبطن الحذر

---

(١) ((سراج الملوك)) لأبي بكر الطرطوشي (٣٦/١١).
(٢) ((الروح)) لابن القيم (ص ٢٣١).
(٣) انظر: ((سراج الملوك)) لأبي بكر الطرطوشي (١٤٦/١).
(٤) انظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢٩٥/٧).
(٥) انظر: ((سراج الملوك)) لأبي بكر الطرطوشي (١٤٨/١).
(٦) انظر: ((أدب الدين والدنيا)) للماوردي (ص ١٨٢).

منه، فلا تثق به في حال، وتتجافاه باطنًا، مع إظهار المخالطة في الظاهر)[١].

صور المداراة:

صفة المَدَاراة يحتاج إليها في التعامل مع بعض الأشخاص، في بعض الأوقات، ومن صور المداراة:

١- صيانة النفس من أهل الفجور والشرور:

فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ شرَّ النَّاس منزلةً عند الله، من تركه أو ودعه الناس، اتقاء فحشه)). وهذا فيما لابدَّ من مخالطته.

٢- في تعامل الإمام مع الرعية:

فعن أُمِّ المؤمنين عائشة قالت: أنه استأذن على النَّبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال صلى الله عليه وسلم: ((ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول. فقال: أي عائشة، إنَّ شرَّ الناس منزلةً عند الله من تركه أو ودعه الناس، اتقاء فحشه))[٢].

فليس كل الرعية على نمط واحد، من حسن الخلق والمعشر، إنَّما الناس يختلفون، فيحتاج الإمام للمداراة، وهذا يكون من الإمام جمعًا للأمة، ورأفةً بها، وإرشادًا للضال، وتعليمًا للجاهل، لاسيما إن كان هؤلاء من أهل الرياسات والأتباع، فيداري الإمام مراعاة لمصلحة الأمة كلها[٣].

---

(١) ((صيد الخاطر)) (ص ٣٥١).

(٢) رواه البخاري (٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١).

(٣) ((بدائع السلك في طبائع الملك)) لابن الأزرق (٢/١٦).

٣- الخوف من الكفار والعجز عن مقاومتهم:

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال الشنقيطي: (هذه الآية الكريمة فيها بيان لكل الآيات القاضية بمنع موالاة الكفار مطلقًا وإيضاح؛ لأنَّ محلَّ ذلك في حالة الاختيار، وأما عند الخوف والتقية، فيرخص في موالاتهم، بقدر المدَارَاة التي يكتفي بها شرهم، ويشترط في ذلك سلامة الباطن من تلك الموالاة)(١).

٤- في دعوة الناس والسلطان:

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

(أمر الله جلَّ وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام: أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي: كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين جلَّ وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧-١٩] وهذا، والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته، كما ترى. وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥])(٢).

وقال ابن القيم: (المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما

---

(١) ((أضواء البيان)) (٤١٣/١).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٥/٤).

أنَّ المداري يتلطَّف بصاحبه حتى يستخرج منه الحقَّ، أو يردَّه عن الباطل، والمداهن يتلطَّف به؛ ليقره على باطله، ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق)[١].

٥- المدَارَاة مع الوالدين:

قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

٦- المدَارَاة مع الزوجة محافظةً على الحياة الزوجية:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المرأة كالضلع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج))[٢].

٧- المدَارَاة مع النفس:

بحملها على الطاعة بذكر نعيم الجنة، وكفها عن المعصية بذكر عذاب النار.

قال ابن الجوزي: (ومن فهم هذا الأصل، علَّل النفس، وتلطف بها، ووعدها الجميل، لتصبر على ما قد حملت، كما كان بعض السلف يقول لنفسه: والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاق عليك... واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم، وبذلك ينقطع الطريق)[٣].

موانع اكتساب صفة المدَارَاة:

١- العجلة، والطيش، وسرعة الغضب، والانتصار للنفس.

---

(١) ((الروح)) لابن القيم (ص ٢٣١).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص ١١٤).

٢- عدم تفهم الواقع وطبائع الناس.

٣- سوء الخلق، وغلظة القلب.

٤- الكبر، وضعف إرادة الخير للناس.

٥- قلة الصبر والحلم والرفق.

٦- العزلة عن الناس.

الوسائل المعينة على اكتساب صفة المدَاراة:

١- التحلِّي بخلق الصبر:

قال ابن تيمية: (المؤمن مشروع له مع القدرة أن يقيم دين الله بحسب الإمكان بالمحاربة وغيرها، ومع العجز يمسك عما عجز عنه من الانتصار، ويصبر على ما يصيبه من البلاء من غير منافقة، بل يشرع له من المدَاراة ومن التكلم بما يُكره عليه، ما جعل الله له فرجًا ومخرجًا)[١].

٢- النظر للمصالح المترتبة على المدَاراة[٢].

٣- التحلي بخلق الرفق والرحمة:

فإن المدَاراة قائمة على الرفق، لتحقيق المراد من صلاح معوج، أو كفاية شر عدو ونحوه[٣].

٤- فهم الواقع و معرفة طبائع الناس:

قال ابن الجوزي: (لينظر المالك في طبع المملوك، فمنهم: من لا يأتي إلا

---

(١) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/٥٢٨).

(٢) انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/٤٥٣).

(٣) انظر: ((مرقاة المفاتيح))، للملا علي القاري (٧/٢٩٤١)

على الإكرام، فليكرمه، فإنه يربح محبته. ومنهم: من لا يأتي إلا على الإهانة، فليداره، وليعرض عن الذنوب؛ فإن لم يكن، عاتب بلطف، وليحذر العقوبة ما أمكن. وليجعل للمماليك زمن راحة. والعجب ممن يُعنى بدابته، وينسى مداراة جاريته)[1].

قال بشر بن الحارث: (من عرف الناس استراح)[2].

٥- احتساب الأجر في دعوة الخلق:

من يتصدر لدعوة الناس، لابد أن يناله منهم أذى مما قد يدفع الداعية لترك دعوتهم، لذا فاحتساب الداعية للأجر عند الله في مداراته لأهل الكفر والفجور، والتحبب لهم من غير إقرار بمعصية أملًا في هدايتهم - مما يعين الداعية على تحمل الأذى .

٦- ترك الانتصار للنفس في حال القدرة، وحفظ النفس في حال العجز:

ففي ترك الانتصار للنفس استبقاء للودِّ، والمسير قدمًا في الإصلاح، وفي حفظ النفس العصمة ودفع الشرور.

نماذج في المدَاراة:

- عن المسور بن مخرمة، قال: ((قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبية[3] ولم يعط مخرمة شيئًا، فقال مخرمة: يا بني، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانطلقت معه، فقال: ادخل فادعه لي. قال: فدعوته له،

(١) ((صيد الخاطر)) (ص ٢٥٦).

(٢) ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (٢/٢٣٩).

(٣) أقبية جمع قباء: وهو الثَّوْب المفرج المضموم وسطه. ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) لمحمد ابن فتوح الحَمِيدي (٢٧٦).

فخرج إليه وعليه قباء منها، فقال: خبأت هذا لك. قال: فنظر إليه، فقال: رضي مخرمة))[١].

- وشكا رجل إلى مخلد بن الحسين رجلًا من أهل الكوفة فقال: (أين أنت عن المدَاراة؟ فإني أداري حتى أدارى، هذه جارية حبشية تغربل شعير الفرس له، ثم قال: ما تكلمت بكلمة أُريد أن أعتذر منها منذ خمسين سنة)[٢].

- وقال ابن الجوزي: (كنت قد رُزقت قلبًا طيِّبًا... فأحضرني بعض أرباب المناصب إلى طعامه، فما أمكن خلافه، فتناولت، وأكلت منه؛ فلقيت الشدائد، ورأيت العقوبة في الحال، واستمرت مدة، وغضبت على قلبي، وفقدت كلَّ ما كنت أجده، فقلت: واعجبًا! لقد كنت في هذا كالمكره فتفكَّرت، وإذا به قد يمكن مداراة الأمر بلقيمات يسيرة؛ وإنما التأويل جعل تناول هذا الطعام بشهوة أكثر مما يدفع بالمدَاراة، فقالت النفس: ومن أين لي أنَّ عين هذا الطعام حرام؟! فقالت اليقظة: وأين الورع عن الشبهات؟! فلما تناولت بالتأويل لقمة، واستجلبتها بالطبع، لقيت الأمرين بفقد القلب: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾)[٣].

المدَاراة في واحة الشعر:

قال الشافعي:

وداريتُ كلَّ الناسِ لكنَّ حاسدي ... مداراتُه عزَّت وعزَّ منالُها

وكيف يُداري المرءُ حاسدَ نعمةٍ ... إذا كان لا يرضيه إلا زوالُها؟[٤]

---

(١) رواه البخاري (٥٨٠٠)، ومسلم (١٠٥٨).

(٢) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٨/٢٦٦)

(٣) ((صيد الخاطر)) (٤١٠-٤١١).

(٤) ((مجمع الحكم والأمثال)) لأحمد قبش (ص ١٤٨).

وقال أحمد الخطابي:

ما دمتَ حيًّا فدارِ النَّاس كلَّهم فإنما أنت في دارِ المدَاراةِ

من يَدرِ دارى ومن لم يَدرِ سوف يرَى عما قليلٍ نديمًا للنداماتِ[١]

وقال القاضي التنوخي:

القَ العدوَّ بوجهٍ لا قطوبَ به يكادُ يقطرُ من ماءِ البشاشاتِ

فأحزمُ النَّاسِ من يلقَى أعاديَه في جسمِ حقدٍ وثوبٍ من مودَّاتِ

الرفقُ يمنٌ وخيرُ القولِ أصدقُه وكثرةُ المزحِ مفتاحُ العداواتِ[٢]

وقال زهير:

ومَن لم يُصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّس[٣] بأنيابٍ ويُوطَأ بمَنْسِمِ[٤]

وقال النمر بن تولب:

وأبغِضْ بغيضَك بُغضًا رويدًا إذا أنت حاولتَ أن تحكما

وأحبِبْ حبيبَك حبًّا رويدًا فليس يعولك أن تصرما[٥]

وقال علي بن محمد البسامي:

دارِ مِن الناسِ مَلالاتِهم مَن لم يدارِ الناسَ ملُّوه

ومكرمُ النَّاسِ حبيبٌ لهم مَن أكرمَ الناسَ أحبُّوه[٦]

---

(١) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (١/٥٤).
(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٨٢).
(٣) الضرس العض على الشيء بالضرس والمنسم خف البعير. ((شرح المعلقات التسع)) المنسوب لأبي عمرو الشيباني (ص ٢١٢).
(٤) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (١/٥٤).
(٥) ((المصدر السابق)) (١/٥٣)، وتحكما: أي تصير حكيمًا، ويعولك: يشق عليك.
(٦) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٧٠).

وقال آخر:

تجنبْ صديقَ السوءِ واصرمْ[١] حبالَه وإن لم تجدْ عنه محيصًا فدارِه

وأحببْ حبيبَ الصدقِ واحذرْ مراءَه تنلْ منه صفوَ الودِّ ما لم تمارِه[٢]

وقال عبد الله السابوري:

مَن لم يكنْ لعيشِه مُداريًا عاداه مَن كان له مواليًا

ولا غِنى للفاضلِ الكبيرِ عن المدَاراةِ ولا الصغيرِ

يستجلبُ النفعَ بها الحكيمُ ويدركُ الحظَّ بها المحرومُ

مَن وارب[٣] الناسَ يخاتلوه[٤] ومَن يصانعهم يجاملوه[٥]

قال الشاعر:

وإذا عجزتَ عن العدوِّ فدارِه وامزحْ له إنَّ المزاحَ وفاقُ

فالنَّارُ بالماءِ الذي هو ضدُّها تُعطي النضاجَ وطبعُها الإحراقُ[٦]

---

(١) صرم الشيء قطعه. ((مختار الصحاح)) للرازي (١٧٥).

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٧٢).

(٣) المواربة: المداهاة. ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ١٤١).

(٤) خاتَلَهُ مُخاتَلَةً: خادَعَهُ وراوَغَه. ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/٣٩٥).

(٥) ((مجمع الحكم والأمثال)) لأحمد قبش (ص ١٤٨).

(٦) ((أدب الدين والدنيا)) للماوردي (١/١٨٢).



المُرُوءَة



المروءَة

معنى المروءَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى المروءَة لغةً:

المروءة هي كمال الرجولية، مصدر من: مَرُؤ يَمْرُؤ مُروءة، فهو مَرِيء أي: بَيِّن المروءَة، وتَمَرَّأ فلان: تَكَلَّف المروءَة. وقيل: صار ذا مُروءَةٍ، وفلان تَمَرَّأ بالقوم: أي سعى أن يوصف بالمروءَة بإِكرامهم، أَو بنقصهم وعَيْبهم[١].

• معنى المروءَة اصطلاحًا:

قال الماورديُّ: (المروءَة مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتَّى لا يظهر منها قبيحٌ عن قصد، ولا يتوجَّه إليها ذمٌّ باستحقاق)[٢].

وقال ابن عرفة: (المروءَة هي المحافظَةُ على فِعْل ما تَرْكُه من مُباحٍ يُوجِبُ الذَّمَّ عُرْفًا... وعلى ترْك ما فعلُه من مُباحٍ يوجبُ ذَمَّه عُرْفًا...)[٣].

وقال الفيومي: (المروءَة آداب نفسانيَّة، تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات)[٤].

أهمية المروءَة:

يقول الماوردي: (وفي اشتقاق اسم المروءَة من كلام العرب ما يدل على فضيلتها عندهم، وعظم خطرها في نفوسهم، ففيه وجهان:

---

(١) انظر: ((العين)) للفراهيدي (٢٩٩/٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٢٧/١)، ((المعجم الوسيط)) (٨٦٠/٢)، ((المخصص)) لابن سيده (٢٤٥/١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (ص ٢١٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٩٢).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ٣٢٥).

(٣) ((شرح حدود ابن عرفة)) للرصاع (ص ٥٩١).

(٤) ((المصباح المنير)) (٤٤٦/٨).

أحدهما: مشتقة من المروءَة والإنسان، فكأنها مأخوذة من الإنسانية، والوجه الثاني: أنها مشتقة من المريء وهو ما استمرأه الإنسان من الطعام، لما فيه من صلاح الجسد، فأخذت منه المروءَة لما فيها من صلاح النفس)[١].

(وهي خلق رفيع القدر، يستعمله الأدباء في المدح، وعلماء الأخلاق والنفس في مكارم الأخلاق وسموِّ النفس، وعلماء الشرع من فقهاء ومحدِّثين في صفات الراوي والشاهد؛ ليوثق بكلامهما، والقاضي ليطمئنَّ إلى عدل، فتجدها في كتب أصول الفقه في صفات الراوي، وكذلك في كتب الحديث، بينما تجدها في كتب الفقه في كلِّ باب يتعرض للعدالة بالشرح والتفصيل، كالقضاء والشهادة والوقف)[٢].

فأكثرَ العلماء، والفقهاء، والأدباء، والشعراء، من ذكرها وبيان كنهها، وماهيتها، وبمَ تكون، وكيف تكون، فتنوعت فيها الأقوال، وتعددت فيها الآراء، وتباينت فيها العبارات (فمن قائل قال: المروءَة ثلاثة: إكرام الرجال إخوان أبيه، وإصلاحه ماله، وقعوده على باب داره، ومن قائل قال: المروءَة إتيان الحق، وتعاهد الضعيف، ومن قائل قال: المروءَة تقوى الله، وإصلاح الضيعة، والغداء والعشاء في الأفنية، ومن قائل قال: المروءَة إنصاف الرجل من هو دونه، والسموُّ إلى مَن هو فوقه، والجزاء بما أُتي إليه، ومن قائل قال: مروءة الرجل صدق لسانه، واحتماله عثرات جيرانه، وبذله المعروف لأهل زمانه، وكفُّه الأذى عن أباعده وجيرانه، ومن قائل قال: إن المروءَة التباعد من الخلق الدني فقط، ومن قائل قال: المروءَة أن يعتزل الرجل الريبة، فإنه إذا كان مريبًا

(١) ((تسهيل النظر وتعجيل الظفر)) للماوردي (ص٣٠).
(٢) ((عدالة الشاهد في القضاء الإسلامي)) لشويش هزاع المحاميد (ص ٣٣٧).

كان ذليلًا، وأن يصلح ماله، فإنَّ من أفسد ماله لم يكن له المروءَة، والإبقاء على نفسه في مطعمه و مشربه، ومن قائل قال: المروءَة حسن العشرة، وحفظ الفرج واللسان، وترك المرء ما يُعاب منه، ومن قائل قال: المروءَة سخاوة النفس وحسن الخلق، ومن قائل قال: المروءَة العفة والحرفة، أي: يعف عمَّا حرم الله، ويحترف فيما أحل الله، ومن قائل قال: المروءَة كثرة المال والولد، ومن قائل قال: المروءَة إذا أعطيت شكرت، وإذا ابتليت صبرت، وإذا قدرت غفرت، وإذا وعدت أنجزت، ومن قائل قال: المروءَة حسن الحيلة في المطالبة، ورقة الظرف في المكاتبة، ومن قائل قال: المروءَة اللطافة في الأمور وجودة الفطنة، ومن قائل قال: المروءَة مجانبة الريبة، فإنه لا ينبل مريب، وإصلاح المال، فإنه لا ينبل فقير، وقيامه بحوائج أهل بيته، فإنه لا ينبل من احتاج أهل بيته إلى غيره، ومن قائل قال: المروءَة النظافة وطيب الرائحة، ومن قائل قال: المروءَة الفصاحة والسماحة، ومن قائل قال: المروءَة طلب السلامة واستعطاف الناس، ومن قائل قال: المروءَة مراعاة العهود، والوفاء بالعقود، ومن قائل قال: المروءَة التذلل للأحباب بالتملُّق، ومداراة الأعداء بالترفُّق، ومن قائل قال: المروءَة ملاحة الحركة ورقة الطبع، ومن قائل قال: المروءَة هي المفاكهة والمباسمة...)[(١)] إلى غير ذلك من الأقوال والآراء في حقيقة المروءَة وحدِّها الذي تعرف به، وفي تنوع هذه الأقوال دليل على فضل هذه السجية الكريمة، وعلو شأنها ورفعة قدرها، وبيان ما تنطوي عليه من الفضائل التي تسمو بالنفس عن منزلة البهيمية الحيوانية، إلى منزلة الإنسانية الكاملة.

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص٢٣٢).

وإنَّ الاختلاف في تعريف المروءَة ليس من باب اختلاف التضاد والتباين، بل هو من باب اختلاف التنوع وتعدد الأجناس تحت الأصل الواحد، فكلُّ هذه التعاريف مندرجة تحت لواء المروءَة مستظلة بظلها الوارف[1]، فهي تشمل كل ما ذكر من فضائل وسجايا وأخلاق كريمة، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا.

قال أبو حاتم: (اختلفت ألفاظهم في كيفية المروءَة ومعاني ما قالوا قريبة بعضها من بعض)[2].

حقيقة المروءَة:

يتكلم ابن القيم عن حقيقة المروءَة فيقول: حقيقتها: (اتصاف النفس بصفات الإنسان، التي فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم، فإنَّ في النفس ثلاثة دواع متجاذبة:

١- داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان، من الكبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشرِّ، والأذى، والفساد، والغشِّ.

٢- وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

٣- وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان، والنصح، والبرِّ، والعلم، والطاعة، فحقيقة المروءَة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة الداعي الثالث، وقلة المروءَة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت، فالإنسانية والمروءَة والفتوة: كلها في عصيان الداعيَيْن، وإجابة الداعي الثالث)[3].

(١) الظل وارف: أي واسع ممتد. ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٣٥٥).
(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص٢٣٢).
(٣) ((مدارج السالكين)) (٢/ ٣٥١).

الفرق بين المروءَة وبعض الصفات:

• الفرق بين المروءَة والفتوَّة:

قد يظنُّ ظانٌّ أنَّ المروءَة والفتوة شيء واحد لا يختلفان في معناهما، وليس ذلك بصحيح، بل بينهما فرق واضح وهو أنَّ المروءَة أعمُّ من الفتوة، فالمروءَة هي ما يتخلَّق به الإنسان مما يختص به في ذاته، أو يتعدَّى إلى غيره، بينما الفتوة ما يتخلَّق به الإنسان، ويكون متعديًا إلى غيره.

قال ابن القيم في التفريق بينهما: (أن المروءَة أعمُّ منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءَة، فإنَّ المروءَة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختصٌّ بالعبد، أو متعدٍّ إلى غيره، وترك ما يُدنِّس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلِّق بغيره، والفتوة إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق)[١].

• العلاقة بين المروءَة والعقل:

سُئِلَ بعض الحكماءِ عن العلاقة بين العقل والمروءَة فقال: (العَقل يأمرك بِالْأنفعِ، والمروءَة تأمرك بِالأجمل)[٢].

• الفرق بين المروءَة والكرم:

(الكرم والمروءَة... قرينان في الفضل، ومتشاكلان في العقل، والفرق بينهما مع التشاكل من وجهين:

أحدهما: أن الكرم: مراعاة الأحوال، أن يكون على أنفعها وأفضلها، والمروءَة: مراعاة الأحوال، أن يكون على أحسنها وأجملها.

(١) ((مدارج السالكين)) (٢/٣٤٠).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٣٢٥).

والوجه الثاني: أن الكرم، ما تعدى نفعه إلى غير فاعله. والمروءَة: قد تقف على فاعلها ولا تتعدى إلى غيره، فإن استعملها في غيره مازجت الكرم، ولم ينفرد بالمروءَة وصار بالاجتماع أفضل، وإن افترقا كان الكرم أفضل لتعدي نفعه، وتعدي النفع أفضل.

وليس واحد من الكرم والمروءَة خلقًا مفردًا، ولكنه يشتمل على أخلاق يصير مجموعها كرمًا ومروءةً)[1].

المروءة في الكتاب والسنة:

أولًا: المروءَة في القرآن الكريم

المروءَة: هي آداب نفسانية تحمل مراعاتها على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، وهي رعيٌ لمساعي البر ورفع لدواعي الضر، وهي طهارة من جميع الأدناس والأرجاس؛ لذا فإنَّ كلَّ آية من كتاب الله تأمر بفضيلة من الفضائل، أو تنهى عن رذيلة من الرذائل فهي تدلُّ على المروءَة، وترشد إلى طريقها، ونحن هنا بصدد ذكر بعض الآيات التي تأمر بالتحلي بمحاسن الأخلاق، والتزين بجميلها:

- قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قيل لسفيان بن عيينة: (قد استنبطت من القرآن كل شيء، فهل وجدت المروءَة فيه؟ فقال: نعم، في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، يقول: ففيه المروءَة وحسن الأدب ومكارم الأخلاق، فجمع

(١) ((تسهيل النظر وتعجيل الظفر)) للماوردي (ص ٢٨).

في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ صلة القاطعين والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، وذلك في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار، ودخل في قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التخلق بالحلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة والأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة).

- وقال الله تبارك وتعالى في صفات عباده الذين اتصفوا بأعلى صفات المروءة ووصلوا إلى غاياتها: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾

خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦].

- وقال فيهم أيضًا شاهدًا لهم بالفلاح: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠].

- وقال أيضًا في وصفهم: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٧ – ٩].

- وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى في هذه الآية: (فيها عين المروءَة وحقيقتها)[١].

- وقال الله تبارك وتعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه ويعطيه دروسًا في القيم ومعالم في المروءَة: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٧-١٩].

---

(١) ((المروءَة)) لمحمد بن خلف بن المرزبان (ص١٣٣).

- وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٠ – ٩٢].

وقد جعل سفيان الثوري المروءَة مبنية على ركنين استمدهما من هذه الآية الكريمة، حيث سئل عن المروءَة ما هي؟ فقال: (الإنصاف من نفسك، والتفضل لله تعالى: إنَّ الله يأمر بالعدل، وهو الإنصاف، والإحسان، وهو التفضل، ولا يتمُّ الأمر إلا بهما، ألا تراه لو أعطى جميع ما يملك، ولم ينصف من نفسه لم تكن له مروءة؛ لأنَّه لا يريد أن يعطي شيئًا إلا أن يأخذ من صاحبه مثله، وليس مع هذا مروءة)(١).

فكلُّ هذه الآيات وما سواها –وما أكثرها في كتاب الله تبارك وتعالى– متضمنة لأصول المروءَة وركائزها التي تبنى عليها، وإن كانت لا تدلُّ على المروءَة بحروفها.

ثانيًا: المروءَة في السُّنَّة النَّبويَّة

وردت كثير من الأحاديث تشير إلى بعض ما تضمنته صفة المروءة من حسن الخلق وجميل المعاشرة، والتحذير من كلِّ ما يشين الإنسان، ويدنِّس عرضه، وسنقتصر على عرض بعض هذه الأحاديث:

(١) ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (١/٣٧٢).

- ((قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: يوسف نبي الله، بن نبي الله، بن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا))[١].

قال النووي: (معناه أنَّ أصحاب المروءات، ومكارم الأخلاق في الجاهلية، إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس)[٢].

- ومن ذلك حديث عائشة أمِّ المؤمنين في بدء الوحي، والذي فيه قول خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلَّا واللَّه ما يخزيك اللَّه أبدًا، إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحقِّ...))[٣].

- و((عن أبي ذرٍّ رضي اللَّه عنه قال: سألت النَّبي صلى اللَّه عليه وسلم: أيُّ العمل أفضل؟ قال: إيمان باللَّه، وجهاد في سبيله. قلت: فأيَّ الرِّقاب أفضل؟ قال: أعلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعًا، أو تصنع لأخرق. قال: فإن لم أفعل؟ قال: تدع النَّاس من الشَّرِّ، فإنَّها صدقة تصدَّق بها على نفسك))[٤].

- وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((السَّاعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل اللَّه وأحسبه قال: وكالقائم لا يفتر، وكالصَّائم لا يفطر))[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٣٧٨).
(٢) ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٣٥).
(٣) رواه البخاري (٣).
(٤) رواه البخاري (٢٥١٨).
(٥) رواه البخاري (٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢).

- وعن سهل رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: ((أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا، وأشار بالسَّبَّابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئًا))[١].

أقوال السلف والعلماء في المروءَة:

- قال معاوية رضي الله عنه: (المروءَة ترك الشَّهوات وعصيان الهوى)[٢].

- وحُكي أنَّ معاوية سأل عَمرًا رضي الله عنه عن المروءَة، فقال: (تقوى اللَّه تعالى وصلة الرَّحم. وسأل المغيرة، فقال: هي العفَّة عمَّا حرَّم اللَّه تعالى، والحرفة فيما أحلَّ اللَّه تعالى. وسأل يزيد، فقال: هي الصَّبر على البلوى، والشُّكر على النُّعمى، والعفو عند المقدرة. فقال معاوية: أنت منِّي حقًّا)[٣].

- وروي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (من مُرُوءَةِ الرَّجُل نقاءُ ثوْبِه)[٤].

- وسأل الحسين أخاه الحسن عن المروءَة فقال: (الدين، وحسن اليقين)[٥].

- وَسُئِل محمد بن علي عن المروءَة فقال: (أَنْ لَا تعمل في السِّر عَمَلًا تَسْتَحِي مِنْهُ فِي العلانية)[٦].

- وقال علي بن الحسين: (من تمام المروءَة خدمة الرجل ضيفه، كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل بنفسه وأهله)[٧].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠٤).

(٢) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٢/٤٥٧).

(٣) ((المروءَة)) للمرزبان (ص١٢٧)، و((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (٣٢١).

(٤) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٢/٢٥٩).

(٥) ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (١/٢٣١).

(٦) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٣٣٤).

(٧) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٢/١٥١).

- وقال عمر بن عبد العزيز: (ليس من المروءَة أن تستخدم الضيف)[١].

- وقال الأحنف بن قيس: (الكذوب لا حيلة له، والحسود لا راحة له، والبخيل لا مروءة له، والملول لا وفاء له، ولا يسود سيئ الأخلاق، ومن المروءَة إذا كان الرجل بخيلًا أن يكتم ويتجمل)[٢].

- وسئل أيضًا عن المروءَة فقال: (صدق اللِّسان، ومواساة الإخوان، وذكر اللَّه تعالى في كلِّ مكان)[٣].

- وقال مرَّة: (العفَّة والحرفة)[٤].

- وقال الماوردي: (اعلم أنَّ من شواهد الفضل ودلائل الكرم، المروءَة التي هي حلية النُّفوس، وزينة الهمم)[٥].

- وسئل بشر بن الحارث عن القناعة فقال: (لو لم يكن فيها إلَّا التَّمتُّع بعزِّ الغنى لكان ذلك يجزي، ثمَّ أنشأ يقول:

أفادتنا القناعة أيَّ عزٍّ ... ولا عزَّ أعزَّ من القناعه
فخذ منها لنفسك رأس مال ... وصيِّر بعدها التَّقوى بضاعه
تحز حالين تغنى عن بخيل ... وتسعد في الجنان بصبر ساعه

ثمَّ قال: مروءة القناعة أشرف من مروءة البذل والعطاء)[٦].

---

(١) ((الإمتاع والمؤانسة)) لأبي حيان التوحيدي (١/٣٤٢).
(٢) ((أمالي القالي)) (١/١١٠).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٣٤٣).
(٤) ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥ / ٢٠٥).
(٥) ((أدب الدنيا والدين)) (ص٣٢٥).
(٦) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٢/٥٣٧)

- وقال سفيان بن حسين: (قلت لإياس بن معاوية: ما المروءَة؟ قال: أمَّا في بلدك فالتَّقوى، وأمَّا حيث لا تعرف فاللِّباس)[١].

- وقال أحمد -في آداب مؤاكلة الإخوان-: (يأكل بالسُّرور مع الإخوان، وبالإيثار مع الفقراء، وبالمروءَة مع أبناء الدُّنيا)[٢].

فوائد التحلي بالمروءَة واجتناب ما يخرمها:

١- صون النفس، وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله عزَّ وجلَّ، وملائكته، وعباده المؤمنين، وسائر خلقه[٣].

٢- توفير الحسنات، ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًّا لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيِّئات وحبوطها، فإنَّ السيِّئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها، فلابد أن تضعفها قطعًا؛ فتجنبها يُوَفِر ديوان الحسنات، وذلك بمنزلة من له مال حاصل، فإذا استدان عليه؛ فإمَّا أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء[٤].

٣- صيانة الإيمان؛ وذلك لأنَّ الإيمان عند جميع أهل السُّنَّة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم،

---

(١) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٢/١٦٤).
(٢) ((المصدر السابق)) (٢/١٤٦).
(٣) ((مدارج السلكين)) لابن القيم (٢/٢٦).
(٤) ((المصدر السابق)).

وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود، فإنَّ العبد- كما جاء في الحديث- إذا أذنب نُكِت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن عاد فأذنب نُكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه[1].

٤- سبيل إلى نيل المطالب العالية، والسبق إليها، وإن كثر عليها المتنافسون، قال بعْض الْعلماءِ: إذَا طلب رجلانِ أَمْرًا ظفِر بِهِ أَعْظمهما مروءةً[2].

٥- التحلي بها مما يزيد في ماء الوجه وبهجته، قال ابن القيم: (أَربعةٌ تزِيد فِي ماءِ الوجهِ وبهجتِهِ: المروءَة، والوفاء، والكرم، والتَّقوى)[3].

٦- تحجز المرء عن كلِّ لذة يتبعها ألم، وكل شهوة يلحقها ندم، فهي جُنَّة عن اللذائذ المحرمة، والشهوات المهلكة، وقد قيل: (الدين، والمروءَة، والعقل، والروح، ينهين عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا)[4].

٧- والمروءَة مانعة من الكذب، باعثة على الصدق؛ لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرهًا، فأولى من فعل ما كان مستقبحًا[5].

٨- داعية إلى إنصاف الرجل لجميع الخلق، سواء في ذلك من كان دونه، أو من كان فوقه، لا يفرق بين هؤلاء وهؤلاء.

٩- داعية إلى الرفعة والعلو، والمنافسة في خيري الدنيا والآخرة، وعدم الرضا من الشيء إلا بأعلاه وغايته.

١٠- تحمل صاحبها إلى الترفع عن سفاسف الأمور، ومحقراتها.

---

(١) ((المروءَة وخوارمها)) لمشهور حسن آل سلمان (٣٥٣ – ٣٥٥).

(٢) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٣٢٧).

(٣) ((زاد المعاد)) (٣٧٢/٤).

(٤) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٤٥٦/٢).

(٥) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص٢٧٢).

١١- تحجزه عن الوقوع في مواطن الريب والشبهات، وإن حصل ووقع في مثل هذه المواطن تحمله على التخلص منها وعدم الرجوع إليها.

١٢- جالبة لمحبة الله تبارك وتعالى للعبد، ومن ثم محبة الخلق له.

أقسام المروءَة:

كل من تكلم عن المروءَة وحدِّها وبيانها لم يخرجها عن أحد نوعين:

إما أفعال أو تروك، وهذا ما بيَّنه أبو حاتم البستي بعد أن سرد مجموعة من الأقوال في تعريف المروءَة، قال: (والمروءَة عندي خصلتان:

- اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال.

- واستعمال ما يحبُّ الله والمسلمون من الخصال)[١].

وهذا ما عناه ابن القيم بقوله: (وحقيقة المروءَة تجنب للدنايا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال، فمروءة اللسان: حلاوته، وطيبه، ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر. ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض. ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة، عقلًا وعرفًا وشرعًا. ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه. ومروءة الإحسان: تعجيله، وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والمماراة، والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقِّك، وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثراته)[٢].

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ٢٣٢).
(٢) ((مدارج السالكين)) (٣/١٥١-١٥٢).

وبهذا التقسيم -أعني مروءة الفعل والبذل ومروءة الترك- ينتظم جميع الأقوال التي عرفت بها المروءَة في سلك واحد.

شروط المروءَة:

للمروءة شروط لا تتأتى إلا بها، ولا يحصلها الشخص إلا بنوع من المعاناة وبذل الجهد، يقول الماوردي: (من حقوق المروءَة وشروطها ما لا يتوصَّل إليه إلَّا بالمعاناة، ولا يوقف عليه إلَّا بالتَّفقُّد والمراعاة، فثبت أنَّ مراعاة النَّفس على أفضل أحوالها هي المروءَة.

وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلَّا من تسهَّلت عليه المشاقُّ رغبةً في الحمد، وهانت عليه الملاذُّ حذرًا من الذَّمِّ)[١].

وقد عدَّد بعض البلغاء بعض شروط المروءَة، فقال: (من شرائط المروءَة أن تعفَّ عن الحرام، وتتصلَّف عن الآثام، وتنصف في الحكم، وتكفَّ عن الظلم، ولا تطمع في ما لا تستحق، ولا تستطيل على من لا تسترق، ولا تعين قويًّا على ضعيف، ولا تؤثر دنيًّا على شريف، ولا تُسِرَّ ما يُعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم)[٢].

وقد أجاد الماوردي في بيان شروط المروءة، مع حسن التقسيم، وبراعة العرض، وفيما يلي تلخيص لكلامه:

من هذه الشروط:

الأول شروط المروءَة فِي نفسِ الشخص: وشروطها فِي نفسِه بعد التِزام

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ٣٢٦).

(٢) ((تسهيل النظر وتعجيل الظفر)) للماوردي (ص ٢٩).

ما أوجبه الشَّرع من أحكامِه يكون بثلاثة أمورٍ وهي:

١- العِفَّة: وهي نوعان:

أحدهما: العِفَّة عن المحارِمِ: وهذه تكون بشيئين اثنين:

أحدهما: ضبط الفرجِ عن الحرامِ.

والثَّانِي: كفُّ اللِّسانِ عن الأعراضِ.

والثَّانِي: العِفَّة عن المآثِمِ: وهذه أيضًا لا تكون إلا بشيئين:

أَحدهما: الكفُّ عن المجاهرةِ بِالظُّلمِ.

والثَّانِي: زجر النَّفسِ عن الإِسرارِ بِخِيانةٍ.

٢- النَّزاهة: وهي نوعانِ:

أَحدهما: النَّزاهة عن المطامِعِ الدَّنِيَّةِ .

والثَّاني: النَّزاهة عن مواقف الرِّيبة.

٣- الصِّيانة: وهي نوعانِ:

أَحدهما: صِيانة النَّفسِ بالتِماس كِفايتها، وتقدِير مادَّتها.

والثَّاني: صيانتها عن تحمُّل المنن من النَّاسِ، والاسترسال في الاستعانة.

الثَّانِي: شروط المروءَة في غيره، وتكون بثلاثة أمور وهي:

- المؤازرة: وهي نوعانِ:

أحدهما: الإِسعاف بِالجاه.

والثَّاني: الإسعاف فِي النَّوائِب.

- **والمياسرة وهي نوعانِ:**

أَحدهما: العفو عن الهفوات.

والثَّانِي: المسامحة في الحقوق وهي نوعان:

المسامحة في عقودٍ: بأَن يكون فيها سهل المناجزةِ، قلِيل المحاجزةِ، مأمون الغيبةِ، بعِيدًا مِن المكرِ والخدِيعةِ.

المسامحة في حقوق: وتتنوَّع المسامحة فِيها نوعينِ:

أَحدهما فِي الأَحوالِ: وهو اطِّراح المنازعةِ فِي الرُّتبِ، وترك المنافسةِ فِي التَّقدُّمِ.

والثَّانِي فِي الأَموالِ: وهي ثلاثة أنواع: وهي مسامحة إسقاطٍ لِعدمٍ، ومسامحة تخفِيفٍ لِعجزٍ، ومسامحة إنكارٍ لِعسرةٍ.

- **والإِفضال: وهو نوعان:**

إفضال اصطِناعٍ: وهو نوعان:

أَحدهما: ما أَسداه جودًا فِي شكورٍ.

والثَّانِي: ما تأَلَّف به نبوة نفورٍ.

وإِفضال استكفافٍ ودِفاعٍ:

وذلك لأَنَّ ذا الفضلِ لا يعدم حاسِد نِعمةٍ، ومعانِد فضِيلةٍ، يعترِيهِ الجهل بِإظهارِ عِنادِهِ، ويبعثه اللُّؤم على البذاءِ بِسفهِهِ، فإِن غفل عن استِكفافِ السُّفهاءِ، وأَعرَض عن استِدفاعِ أَهلِ البذاءِ، صار عِرضه هدفًا لِلمثالِبِ، وحاله عُرضةً للنَّوائب، وإذا استكفى السَّفِيه، واستدفع البذِيء صان عرضه، وحمى نِعمته.

ولاستِكفافِ السُّفهاءِ بالإِفضالِ شرطان:

أحدهما: أَن يخفِيه حتَّى لا ينتشِر فِيهِ مطامِع السُّفهاء، فيتوصَّلون إلى اجتِذابِهِ بِسبِّه، وإلى مالِه بِثلبِه.

والثَّاني: أَن يتطلَّب له فِي المجاملة وجهًا، ويجعله فِي الإِفضال عليه سببًا؛ لأَنَّه لا يرى أَنَّه على السَّفهِ واستِدامةِ البذاءِ[(١)].

درجات المروءَة:

للمروءة ثلاث درجات ذكرها ابن القيم، فقال:

- **الدرجة الأولى:** مروءة المرء مع نفسه وهي أن يحملها قسرًا على ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين ليصير لها ملكة في العلانية، فمن أراد شيئًا في سرِّه وخلوته، ملكه في جهره وعلانيته، فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشأ بصوت مزعج ما وجد إلى خلافه سبيلًا، ولا يخرج الريح بصوت وهو يقدر على خلافه، ولا يجشع وينهم عند أكله وحده.

وبالجملة: فلا يفعل خاليًا ما يستحي من فعله في الملأ، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل؛ ولا يكون إلا في الخلوة كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

- **الدرجة الثانية:** المروءَة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناس مرآة لنفسه، فكلُّ ما كرهه ونفر عنه من قول أو فعل أو خلق فليجتنبه، وما أحبَّه من ذلك واستحسنه فليفعله.

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي بتصرف (٣٢٩-٣٥٥).

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكلٍّ من خالطه وصاحبه، من كامل، وناقص، وسيئ الخلق، وحسنه، وعديم المروءَة، وغزيرها. وكثير من الناس يتعلم المروءَة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها، كما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيئ الخلق، فظٌّ غليظ لا يناسبه، فسُئل عن ذلك فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق. وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته والصبر عليه.

- **الدرجة الثالثة:** المروءَة مع الحقِّ سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك في كلِّ لحظة ونفس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، فإنه قد اشتراها منك، وأنت ساع في تسليم المبيع وتقاضي الثمن، وليس من المروءَة: تسليمه على ما فيه من العيوب وتقاضي الثمن كاملًا، أو رؤية مِنَّته في هذا الإصلاح، وأنَّه هو المتولِّي له لا أنت، فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وصلاحك[1].

صور المروءَة وآدابها:

للمروءة آدابٌ كثيرة قلَّ أن تجتمع في إنسان إلا أن يشاء الله تعالى؛ ولذلك فإنَّ منازل الناس فيها تتباين تبعًا لما يُحصِّله الإنسان من آدابها ومراتبها.

قال ابن هذيل: إنَّ (للمروءة وجوهًا وآدابًا لا يحصرها عدد ولا حساب، وقلَّما اجتمعت شروطها قط في إنسان، ولا اكتملت وجوهها في بشر، فإن كان ففي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دون سائرهم، وأمَّا الناس فيها فعلى مراتب بقدر

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/٣٥٣).

ما أحرز كلٌّ واحد منهم من خصالها، واحتوى عليها من خلالها)[١].

وقد وردت جُملةٌ من الآداب التي يجب أن يتمتع بها صاحب المروءَة، ومنها[٢]:

- أن يكون ذا أناةٍ وتؤدةٍ؛ فلا يبدو في حركاته اضطراب أو عجلة، كأن يُكثر الالتفات في الطريق، ويعجل في مشيه العجلة الخارجة عن حد الاعتدال.

- أن يكون متَّئدًا في كلامه يرسل كلماته مفصَّلة، ولا يخطف حروفها خطفًا، حتى يكاد بعضها يدخل في بعض، بل يكون حسن البيان، واضح العبارة، بعيدًا عن التكلف والتقعر، ينتقي أطايب الحديث، كما ينتقي أطايب الثمر، وقد كتب عُمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه إلى أبي موسى رضي الله عنه: (خُذِ النَّاس بالعربِيَّة، فإِنَّه يزيد في العَقل، ويُثبت المروءَة)[٣].

- أن يضبط نفسه عن هيجان الغضب، أو دهشة الفرح، وأن يقف موقف الاعتدال في حالي السرَّاء والضرَّاء.

- أن يتحلَّى بالصراحة، والترفع عن المواربة، والمجاملة، والنفاق، فلا يُبدي لشخصٍ الصداقة، وهو يحمل له العداوة، أو يشهد له باستقامة السيرة، وهو يراه منحرفًا عن السبيل.

- ألا تطيش به الولاية والإمارة في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة.

- ألاَّ يفعل في الخفاء ما لو ظهر للناس لعدُّوه من سقطاته والمآخذ عليه،

---

(١) ((عين الأدب والسياسة)) (ص١٣٢).

(٢) ((المروءَة ومظاهرها الصادقة)) لمحمد الخضر حسين، بتصرف. نقلاً عن كتاب ((المروءَة الغائبة)) لمحمد إبراهيم (١٢٠- ١٢٣) - بتصرف.

(٣) ذكره أبو منصور الأزهري في ((تهذيب اللغة)) (١٥/٢٠٥).

وقد رفع محمد بن عمران التيمي شأن هذا الأدب حتى جعله هو المروءَة، فقال لما سئل عن المروءَة: ألَّا تعمل في السِّر ما تستحي منه في العلانية.

- أن يتجنب القبائح لقبحها ووخامة عاقبتها، فيكون تجنبه لها في السِّر والعلانية.

- أن يلاقي الناس بطلاقة وجه، ولسان رطب، غير باحث عما تكنُّه صدورهم من مودة، أو بغضاء، ولكنه لا يستطيع أن يرافق ويعاشر إلا ودودًا مخلصًا.

- أن يكون بخيلًا بوقته عن إطلاق لسانه في أعراض الناس، والتقاط معايبهم، أو اختلاق معايب لهم، فهو لا يرضى بأن يشغل وقته إلا بما تتقاضاه المروءَة من حقوق، قال رجل لخالد بن صفوان: كان عبدة بن الطيب لا يحسن يهجو، فقال له: لا تقل ذلك، فوالله ما تركه من عي، ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويراه ضعة، كما يرى تركه مروءةً وشرفًا، وأنشد قول أبي الهيذام:

وأجرأ من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

وربما اضطر ذو المروءَة أن يدافع شرَّ خصومه الكاشحين بذكر شيء من سقطاتهم، ولكن المروءَة تأبى له أن يختلق لهم عيبًا يقذفهم به، وهم منه براء، فإنَّ الإخبار بغير الواقع يقوض صروح المروءَة، ولا يبقي لها عينًا ولا أثرًا، قال الأحنف: لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل.

كما أنه يحفظ لسانه عن أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول:

وحذار من سفه يشينك وصفه   إنَّ السفاه بذي المروءَة زاري

- أن يتجنب تكليف زائريه وضيوفه ولو بعملٍ خفيف؛ فقد ورد عن عمر ابن عبد العزيز رحمه الله قوله: (ليس من المروءَة استخدام الضيف).

- أن يسود في مجلسه الجدُّ والحكمة، وأن لا يلمَّ في حديثه بالمزاح إلا إلمامًا، مؤنسًا في أحوال نادرة، قال الأحنف بن قيس: (كثرة المزاح تذهب المروءَة).

- أن يُحسن الإصغاء لمن يُحدثه من الإخوان، فإنَّ إقباله على محدثه بالإصغاء إليه يدلُّ على ارتياحه لمجالسته، وأُنسه بحديثه. وإلى هذا الأدب الجميل يُشير أبو تمام بقوله:

من لي بإنسانٍ إذا أغضبته   ورضيتُ كان الحِلم ردَّ جوابه

وتراه يُصغي للحديث بقلبه   وبسمعه، ولعله أدرى به

- أن يحتمل ضيق العيش، ولا يبذل ماء حيائه وكرامته في السعي لما يجعل عيشه في سعة، أو يديه في ثراء، قال مهيار:

ونفس حرة لا يزدهيها[1]   حلى الدنيا وزخرفها المعار

يبيت الحق أصدق حاجتيها   وكسب العز أطيب ما يمار

ألَّا يظهر الشكوى من حوادث الدهر إلا أن يتقاضى حقًّا:

لا يفرحون إذا ما الدهر طاوعهم   يومًا بيسر ولا يشكون إن نكبوا

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي في عمر بن عثمان بن عفان:

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه   ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

(١) يزدهيها: يستخفها. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٣٦١).

أن يكون حافظًا لما يؤتمن عليه، من أسرارٍ وأُمور لا ينبغي أن تظهر لأحدٍ غير صاحبها. وفي هذا المعنى يقول المتنبي:

كفتك المروءَة ما تتقي وأمَّنك الود ما تحذر

يريد أنه ذو مروءة، وذو المروءَة لا يُفشي سرًّا اؤتمن عليه.

- أن يحذر أن يؤذي شخصًا ما، وأشد ما يحذر أن يؤذي ذا مروءة مثله:

وأستحيي المروءَة أن تراني قتلت مناسبي جلدًا وقهرًا

- أن يحرص على أن تطابق أقواله وأفعاله ما جرت عليه الأعراف والتقاليد الحسنة، والتي لا تخالف الشرع ولا تضادُّ الدين.

- أن يعامل الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، وأن يحترمهم ولا يفضل نفسه عليهم في شيء.

أسباب خوارم[1] المروءَة:

١- الخبل في العقل (أي الفساد فيه):

إن الإنسان سمي مرءًا أو امرءًا أي عاقلًا، ووصف بالمروءَة؛ لأنه لا يتصف بخلافها إلا الحمقى، ومن هنا كان الخبل في العقل سببًا في اقتراف خوارم المروءَة، والذي يجعلنا لا نثق بكلامه فنرد شهادته بسببه.

ولا تستغرب هذا! بل من الحكماء من جعل المروءَة أعلى درجة من العقل، فقال: (العقل يأمرك بالأنفع، والمروءَة تأمرك بالأرفع) فمن أخلَّ بمروءته رضي بالدون، ولم يكرم نفسه مما يشينها.

---

(١) الخوارم جمع خارم: وهو التارك المفسد. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٧٢/١٢). وخوارم المروءة: هو كل فعل، أو قول، أو حرفة، يوجب فعلها أو تركها الذم في عادات الناس وأعرافهم المعتبرة شرعًا. ((المروءة وخوارمها)) لمشهور حسن سلمان (ص ٢٨١).

ويلتقي هذا مع اشتراط الفقهاء الفطنة وعدم التغفل في الشهود ولو كانوا عدولًا، وعدم قبول شهادة المجنون ابتداءً.

٢- نقصان الدين:

إنَّ الفسق علامة على النقص في الدين، فلا يقدم على الكبائر مثلًا إلا فاسق غير مبال بدينه، وكذا خوارم المروءَة لا يقدم عليها حتى تخرم مروءته إلا ناقص دين، فكان أحد الأسباب التي تخرم المروءَة.

٣- قلة الحياء:

إنَّ من أسباب فعل الخوارم قلة الحياء؛ لأنَّ فاعلها لا يستقبح القبيح، ولا يبالي بكلام الناس، وقلة حيائه تعطيه الجسارة في فعل خوارم المروءَة[1].

أنواع خوارم المروءَة:

يمكن أن نقسم خوارم المروءَة إلى نوعين اثنين:

الأول: خوارم للمروءة بحسب الشرع.

الثاني: خوارم للمروءة بحسب العرف السائد.

فالأولى لا تتغير ولا تتبدل بتبدل الأحوال والأزمان؛ لأنها تستمد ثباتها من الشرع الحنيف. وعليه، فكلُّ من وصف بأنَّه منخرم المروءَة بواحدة من تلك الخوارم، فهو مخروم المروءَة في كلِّ حين، كأخذ الأجر على التحديث عند مَن يرى حرمة ذلك، فمن خرمت مروءته لهذا، فإنَّه لا يزال على ذلك أبدًا، وكذلك مَن خرمت مروءته بسبب السفه، وبذاءة اللسان؛ لأنَّ المسلم لا يكون بذيئًا ولا سفيهًا...

---

(١) ((عدالة الشاهد في القضاء الإسلامي)) لشويش هزاع المحاميد (٣٥٦-٣٥٧).

وأمَّا الخوارم التي ترجع إلى مخالفة عرف سائد، فإنَّ المحققين من العلماء لا ينظرون إليها سواء بسواء مع تلك الخوارم التي ترجع إلى مخالفة أصل شرعي؛ لجواز أن يتغير العرف السائد، فما يعدُّ من الخوارم في زمن لا يكون كذلك في زمن آخر، وما يعدُّ من الخوارم في بلد لا يكون كذلك في بلد آخر... (لاختلاف العرف في هذين البلدين، مثل: كشف الرأس، فقد يكون مستقبحًا في بلد للعرف السائد فيه، فيكون قادحًا في المروءَة والعدالة، وقد لا يكون مستقبحًا في بلد آخر، فلا يكون قادحًا في العدالة) ولهذا فإن المروءَة في مثل هذا هي مراعاة العرف السائد[1].

شروط الأفعال حتى تكون خارمة للمروءة:

الأول: أن يكون الإقدام على الأفعال والأقوال المحرمة شرعًا، ولو لمرة واحدة، أو المكروهة بشرط التكرار، أو الصغائر بشرط الغلبة على الطاعات، أمَّا المباحات فيشترط فيها حتى تكون خارمة للمروءة، قبحها في العادات والأعراف المعتبرة شرعًا، إذ لا يُؤمن معها الجرأة على الكذب، والإدمان على فعلها.

الثاني: الإدمان أو الإصرار أو الغلبة:

خوارم المروءَة من المحرمات لا يشترط فيها الإدمان، وكذلك صغائر الخسة، أما الصغائر ورذائل المباحات فيشترط فيها الإدمان؛ وذلك لأنَّ الإنسان لا يسلم من يسير اللهو، أو فعل بعض المباحات؛ لعدم العصمة، وليس هذا شرطًا متفقًا عليه[2].

(١) ((جرح الرواة وتعديلهم)) لمحمود عيدان الدليمي (ص ١٠٨).
(٢) ((عدالة الشاهد في القضاء الإسلامي)) لشويش هزاع المحاميد (٣٥٨ - ٣٥٩).

حكم فعل خوارم المروءَة:

(أجمع العلماء على أنَّ مَن فعل ما يخلُّ بالمروءَة لا تُقبل شهادته، والأفعال والأقوال التي تخلُّ بالمروءَة أقسام:

الأول: المحرمات التي يُعدُّ فعلها كبيرةً، سواء أكانت محرمةً لذاتها أم لغيرها، ومن العلماء من جعل كلَّ ما يخلُّ بالمروءَة كبيرة وليس ذلك صحيحًا.

الثاني: المكروهات إذا حكم على فعلها بأنها صغيرة، فتخلُّ بالمروءَة والعدالة بالإدمان عليها، وغلبتها على الطاعات؛ إلا صغائر الخسة؛ فإنها تخل بالمروءَة لفعلها مرة واحدة.

الثالث: المباحات؛ فالأصل فيها أن لا يأثم الإنسان على تركها ولا يثاب على فعلها، وقد يثاب إذا رافقتها نيَّة صالحة، كالتقوي على العبادة، أو التصدق على المحتاجين... إلخ.

وهذه المباحات لا تخلُّ بالمروءَة إلا إذا انتقلت من حكم الإباحة إلى غيره؛ فقد تصبح محرمةً إذا كان فعلها إتلافًا وإضرارًا بالآخرين، وقد يصبح فعلها مكروهًا بالإدمان عليها، أو التشبه بالفسقة في فعلها، أو رافقها الإسراف؛ فهذه تخلُّ بالمروءَة.

وهناك من المباحات ما يخلُّ بالمروءَة عرفًا؛ فهذه تخلُّ بالمروءَة إذا كان العرف معتبرًا شرعًا، أي غير فاسد باصطدامه بمقاصد الشرع وأدلته؛ ولأنَّ هذه المباحات المخلة بالمروءَة عرفًا لا يحرم فعلها، إلا إذا تعينت على فاعلها الشهادة، ولم تكن هناك وسيلة للإثبات غير شهادته بوجود شاهد آخر أو وثيقة؛ فحرمة فعلها جاءت لتسببها في ضياع الحقوق)[1].

---

(١) ((المروءَة وخوارمها)) لمشهور حسن سلمان (ص ٣٤٥).

الوسائل المعينة على اكتساب المروءَة:

يقول ابن حبان البستي: (الواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءَة، بما قدر عليه من الخصال المحمودة وترك الخلال المذمومة، وقد نبغت نابغة اتكلوا على آبائهم، واتكلوا على أجدادهم في الذكر والمروءات، وبعدوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم، ولقد أنشدني منصور بن محمد في ذمٍّ من هذا نعته:

إنَّ المروءَة ليس يدركها امرؤ ورث المروءَة عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخَنا[1] ونهته عن طلب العلى فأطاعها
فإذا أصاب من الأمور عظيمة يبني الكريم بها المروءَة باعها

...إلى أن قال: (ما رأيت أحدًا أخسر صفقة، ولا أظهر حسرة، ولا أخيب قصدًا، ولا أقل رشدًا، ولا أحمق شعارًا، ولا أدنس دثارًا، من المفتخر بالآباء الكرام، وأخلاقهم الجسام، مع تعريه عن سلوك أمثالهم وقصد أشباههم، متوهمًا أنهم ارتفعوا بمن قبلهم، وسادوا بمن تقدَّمهم، وهيهات أنى يسود المرء على الحقيقة إلا بنفسه، وأنى ينبل في الدارين إلا بكدِّه)[2].

فإذا كانت المروءَة لا تنال بالميراث، ولا تنتقل عبر المورثات الجينية من الآباء إلى الأبناء، فكيف ينالها الشخص وكيف يصل إليها؟

والجواب أن هناك وسائل تعين المرء للوصول إلى المروءَة المبتغاة نذكر بعضها فيما يلي:

١- علو الهمة والتطلع إلى السمو بالنفس، والترقي بها إلى المعالي.

---

(١) الخنا: الفحش في القول. ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٢٤٤).
(٢) ((روضة العقلاء)) (ص٢٣٠).

٢- منافسة أصحاب المروءات ومسابقة أصحاب الأخلاق العالية ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

٣- شرف النفس واستعفافها ونزاهتها وصيانتها.

٤- المال الصالح خير معين على بلوغ المروءات، قال أبو حاتم: (من أحسن ما يستعين به المرء على إقامة مروءته المال الصالح، ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

احتل لنفسك أيها المحتال فمن المروءَة أن يرى لك مال

كم ناطق وسط الرجال وإنما عنهم هناك تكلم الأموال

فالواجب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال، فمن رزق ذلك، وضنَّ بإنفاقه في إقامة مروءته، فهو الذي خسر الدنيا والآخرة، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريهًا، وتودعه قبرًا وحيدًا، ثم يرث المال بعد من يأكله ولا يحمده، وينفقه ولا يشكره، فأي ندامة تشبه هذه، وأي حسرة تزيد عليها)[1].

ولذا قال بعض العرب: (المروءَة طعام مأكول، ونائل مبذول، وبشر مقبول، وكلام معسول. وقيل: لا مروءة لمقل. وقال بعضهم: المال والمروءَة رضيعا لبان، وشريكا عنان، وغزيا حصان، وفرسا رهان. وقال بعضهم: لا مروءة إلا بالمال والفعال. ورفع إلى المنصور كثرة نفقات محمد بن سليمان والي البصرة، فوقع: أعظم الناس مروءة أكثرهم مؤنة)[2].

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص٢٣٣).
(٢) ((عين الأدب والسياسة)) لابن هذيل الأندلسي (١٤٢-١٤٣).

٥- اختيار الزوجة الصالحة ((فاظفر بذات الدين تربت يداك))[١].

قال مسلمة بن عبد الملك: (ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصالحة).

قال الشاعر:

إذا لم يكن في منزل المرء حرة مدبرة ضاعت مروءة داره

٦- مجالسة أهل المروءات، ومجانبة السفهاء وأهل السوء.

أسند ابن حبان عن بعضهم قال: (كان يقال: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تذكي القلوب)[٢].

ومتى جالس المرء أهل المروءات اكتسب منهم صالح الأخلاق والصفات: قال ابن عبد البر: (فلا تكاد تجد حسن الخلق، إلا ذا مروءة وصبر)[٣].

وكذلك إن عاشر المرء إخوان السوء وقليلي المروءَة أخذ عنهم أخلاقهم، وكان ذلك سببًا في القدح بمروءته: قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: (آفة المروءَة إخوان السوء)[٤].

انقسام الفضائل بين الكرم والمروءَة:

كل كرم ومروءة فضيلة وليس كل فضيلة كرمًا ومروءةً، بل تنقسم الفضائل مع الكرم والمروءَة إلى أربعة أقسام:

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).
(٢) ((روضة العقلاء)) (ص ٢٣٤).
(٣) ((الاستذكار)) (٥ / ١٠٥).
(٤) ((المروءَة)) للمرزبان (ص١١٧)، و((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (٢٣٤).

١- القسم الأول: ما يدخل من الفضائل في الكرم والمروءَة: كالعفو، والعفة، والأمانة.

٢- والقسم الثاني: ما يدخل في الكرم ولا يدخل في المروءَة: كالحمد، والرحمة، والحمية، والبذل، والمساعدة.

٣- والقسم الثالث: ما يدخل في المروءَة ولا يدخل في الكرم: كعلو الهمة، وحسن المعاشرة، ومراعاة المنازل، والملابس.

٤- والقسم الرابع: ما لا يدخل في الكرم ولا المروءَة: كالشَّجَاعَة، والصبر على الشدة.

فاجتمع الكرم والمروءَة في بعض الفضائل، وافترقا في بعضها، فصار الكرم أعم من المروءَة في بعض الفضائل، والمروءَة أعم من الكرم في بعض الفضائل، فلم يتعيَّن عموم أحدهما وخصوص الآخر، وإن تناسب ما ميَّز به أحدهما[1].

قالوا عن المروءَة:

- قال أعرابي: (مروءة الرجل في نفسه نسب لقوم آخرين، فإنه إذا فعل الخير عرف له، وبقي في الأعقاب والأصحاب، ولقيه يوم الحساب)[2].

- وقال صاحب (كليلة ودمنة): (الرجلُ ذو المروءَة يكرم على غير مال، كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنيًّا، كالكلب يهون على الناس وإن عسَّى وطوَّف)[3].

---

(١) ((تسهيل النظر وتعجيل الظفر)) للماوردي (ص٣٠-٣١).

(٢) ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (١/١١٥).

(٣) ((الصناعتين: الكتابة و الشعر)) لأبي هلال العسكري (ص ٢٤٤).

- وقيل لبعض العرب: (ما المروءَة فيكم؟ قال: طعام مأكول، ونائل مبذول، وبشر مقبول)[١].

- وقيل: (لا مروءة لمقلٍّ)[٢].

- وقال بعض الحكماء: (من قبل صلتك، فقد باعك مروءته وأذلَّ لقدرك عزَّه وجلالته)[٣].

- وقالوا: (لا تتمُّ المروءَة وصاحبها ينظر في الدقيق الحقير، ويعيد القول ويبدئه في الشيء النزر الذي لا مرد له ظاهر، ولا جدوى حاضرة)[٤].

- وقيل لبعض العارفين: (ما المروءَة؟ قال: التَّغافلُ عن زلَّة الإِخْوانِ)[٥].

- وقيل:(مجالسة أهل الدِّيانة تجلو عن القلب صدأ الذُّنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تذكي القلوب)[٦].

- قال زياد لبعض الدَّهاقين: (ما المروءَة فيكم؟ قال: اجتناب الرِّيب، فإنَّه لا ينبل مريب، وإصلاح الرَّجل ماله، فإنَّه من مروءته، وقيامه بحوائجه وحوائج أهله، فإنَّه لا ينبل من احتاج إلى أهله، ولا من احتاج أهله إلى غيره)[٧].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٨٣).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٣٤٠).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((الإمتاع والمؤانسة)) لأبي حيان التوحيدي (٣٤٢/١).
(٥) ((غذاء الألباب)) للسفاريني (٣٩٧/٢).
(٦) ((المروءَة الغائبة)) لمحمد إبراهيم سليم (ص ٦٠).
(٧) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٣٨).

المروءَة في واحة الشعر:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

للَّهِ دَرُّ فـتًى أنسابُهُ كَرَمُ ... يا حبَّذا كرمٌ أضحى له نسبا
هل المروءَةُ إلَّا ما تقُومُ به ... من الذِّمامِ وحفظِ الجَارِ إنْ عَتَبا[١]

وقال الشاعر:

وإذا جلستَ وكان مثلُكَ قائمًا ... فمِن المروءَة أن تقومَ وإن أبى
وإذا اتكأتَ وكان مثلُكَ جالسًا ... فمِن المروءَة أن تُزيلَ المتَّكا
وإذا ركبتَ وكان مثلُكَ ماشيًا ... فمن المروءَة أن مشيتَ كما مشى[٢]

وقال آخر:

لا تنْظُرنَّ إلَى الثِّياب فَإنَّني ... خلِقُ الثِّيابِ من المروءَة كَاسِ[٣]

وقال بعض الشعراء:

وفَتًى خَلَا من ماله ... ومن المروءَة غَيْرُ خَالِي
أَعْطَاك قَبْل سُؤَاله ... وكفاك مكرُوه السُّؤَالِ[٤]

وقال الْأَحْنف بن قيْس:

فلو كنتُ مُثرًى بمالٍ كثيرٍ ... لجُدْتُ وكنتُ له باذِلًا
فإنَّ المروءَة لا تُستطاعُ ... إذا لم يكنْ مالُها فاضلًا[٥]

---

(١) ((ديوان علي بن أبي طالب)) (ص ٢٥).
(٢) ((المروءة)) لابن المرزبان (ص ١٣٦).
(٣) ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/٥٢٨).
(٤) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٨٨).
(٥) ((المصدر السابق)) (ص ٣٣٨).

وقال ابن الجلَّال:

رُزقت مالًا ولم أُرزقْ مُروءتَه وما المروءَةُ إلَّا كثرة المالِ
إذا أردتُ رُقى العلياءِ يُقعدني عمَّا ينوِّه باسمي رقَّة الحال[١]

قال أبو المنصور:

هبني أسأتُ كما تقولُ فأين عاطفةُ الأُخوة
أو إن أسأتَ كما أسأتُ فأين فضلُك والمُرُوَّة[٢]

وقد قال الحصين بن المنذر الرَّقاشيِّ:

إنَّ المروءَة ليس يدركها امرؤٌ ورث المكارمَ عن أبٍ فأضاعها
أمرته نفسٌ بالدَّناءةِ والخَنا ونهته عن سُبلِ العُلا فأطاعها
فإذا أصاب مِن المكارمِ خلَّةً يبني الكريمُ بها المكارمَ باعها[٣]

وقال آخر:

إذا المرءُ أعيته المروءَة ناشئًا فمطلبُها كهلًا عليه شديدُ[٤]

وقال منصور الفقيه:

وإذا الفتى جمع المروءَة والتُّقَى وحوى مع الأدبِ الحياءَ فقد كمل[٥]

وقال بعضهم:

ومن المروءَةِ للفتى ما عاش دارٌ فاخره

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٢٣٣).
(٢) ((آداب الصحبة)) للسلمي (ص ٩٩).
(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٣٢٩).
(٤) ((البديع في نقد الشعر)) لابن منقذ (ص ١٩٩).
(٥) ((المروءَة وخوارمها)) مشهور حسن آل سلمان (ص ٥١).

فـاقـنـعْ مـن الـدنـيـا بهـا واعـمـلْ لـلـدارِ الآخـره[١]

وقال آخر:

كفى حزنًا أنَّ المروءَة عُطِّلت وأنَّ ذوي الألباب في الناس ضيعُ

وأنَّ ملوكًا ليس يحظَى لديهمُ من النَّاسِ إلا من يغني ويصفعُ[٢]

وقال بهاء الدين زهير:

وَما ضَاقتِ الدُّنيا على ذي مروءةٍ ولا هي مسدودٌ عليهِ رحابها

فقَد بشَّرتني بالسَّعادَةِ هِمَّتي وجاء من العلياءِ نحوي كتابها[٣]

وقال عبد الجبار بن حمديس:

أدِمِ المروءَة والوفاءَ ولا يكنْ حبلُ الديانة منك غيرَ متينِ

والعزُّ أبقَى ما تراه لمكرمٍ إكرامه لمروءةٍ أو دينِ[٤]

وقال أبو فراس الحمداني:

الحُرُّ يَصْبِرُ مَا أطَاقَ تَصَبُّرًا في كلِّ آونةٍ وكلِّ زمانِ

ويرى مساعدةَ الكرامِ مروءةً ما سالمتهُ نوائبُ الحدثانِ[٥]

وقال حافظ إبراهيم:

إنِّي لتطربني الخلال[٦] كريمة طرب الغريب بأوبة[٧] وتلاقي

---

(١) ((المروءَة وخوارمها)) مشهور حسن آل سلمان (ص ٥٢).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) ((ديوان بهاء الدين زهير)) (ص ٢٢).

(٤) ((ديوان ابن حمديس)) (ص ٤٣٣).

(٥) ((ديوان أبي فراس الحمداني)) (ص ٣٣٥).

(٦) خلال: جمع خلة وهي الخصلة. ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢١٦).

(٧) الأوبة: الرجوع. انظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٨).

وتهزَّني ذكرى المروءَة والنَّدى بين الشَّمائل هزَّةَ المشتاقِ[١]

وقال آخر:

مررتُ على المروءَة وهي تبكي فقلتُ علامَ تنتحبُ[٢] الفتاةُ؟
فقالَتْ كيف لا أبكي وأهلِي جميعًا دونَ خلقِ اللَّهِ ماتوا[٣]



(١) ((ديوان حافظ إبراهيم)) (ص ٢٧٩).
(٢) النحيب: رفع الصوت بالبكاء. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٧٤٩).
(٣) ((مجاني الأدب)) لرزق الله شيخو (١٦٩/٤).

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

